تاريخ المغرب العربى

من الفتح إلى بداية عصر الإستقلال

(ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)

الجزء الأول



دكتور
سعد زغلول عبد الحميد

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه

الناشر:

منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه

٤٤ شـارع سعد زغلول – محطة الرمـل – ت/ف : ٤٨٣٣٣٠٣ – ٤٨٥٣٠٥٥ الأسكندريـة

٣٢ شـارع دكتور مصطفى مشرفـة – سوتيـر – ت : ٤٨٤٣٦٦٢ – ٤٨٥٤٣٣٨ الأسكندريـة

الإدارة : ٢٤ شـارع ابراهيـم سيـد احمـد – محرم بك – ت/ف : ٤٩٢٢١٦٤ الأسكندريـة

الإيداع بدار الكتب و الوثائق القومية :

تاريخ المغرب العربى ج١ د/سعد زغلول عبد الحميد

رقم الايداع : ٢٠٠٠/١٠٦٥٢

الترقيم الدولى : 977-03-0784-X

التجهيزات الفنية :

جمع كمبيوتر: فايز رزق

تصميم غلاف : سلطان كمبيوتر ت: ٥٤٤٥٦١٤

طباعة : شركة الجلال للطباعة

تاريخ المغرب العربى

١

من الفتح إلى بداية عصور الإستقلال
(ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد
أستاذ التاريخ الإسلامى المتفرغ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية
أستاذ بكلية الآداب جامعة الكويت سابقاً

١٩٩٩

﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾

«قرآن كريم: سورة يوسف»

آية ١١١

محتويات الجزء الأول

الباب الثالث

الفصل الأول

الإدارة الأموية

الباب الرابع

ما بين الاستقلال والتبعية للخلافة

الفصل الأول

الفهريون بنو عقبة بن نافع فى افريقية، ص ٣١٩

الفصل الثانى

العصر الذهبى للخوارج

المغرب ما بين الصفرية والاباضية، ص ٣٤٧

الفصل الثالث

المهلبيون فى افريقية

الأشكال والخرائط



المقدمـــــة

في أواخر سنة ١٩٦٤ أخرجنا كتاب تاريخ المغرب العربي: ليبيا وتونس والجزائر و «المغرب» من الفتح العربي إلى قيام دول الأغالبة والرستميين والأدارسة، مع تقديم لأستاذنا الدكتور أحمد فكرى - رحمه الله - في جزء واحد[١]، ووعدنا القراء في حينه بأن نتبعه بالجزء الثانى الذى يكمله إلى تاريخ الدولة الفاطمية. والآن، وبعد أن قيض الله لنا انجاز ما كنا نأمله - وإن كان بعد أكثر من عشر سنوات - فأكملنا تاريخ المغرب العربى إلى قيام الدولة الفاطمية، اتضح لنا أنه من غير الموافق أن نخرج الإضافة الجديدة لتكون جزءاً ثانياً لكتابنا الأول، وذلك لعدة أسباب، ليس أهمها أن الكتاب الأول قد نفذ من سوق الكتب - منذ وقت طويل.

فالحقيقة أنه يصعب من الناحية الفنية تكملة الكتاب الأول الذى وقفنا فيه عند قيام دول الأغالبة والرستميين والأدارسة، بعد أن قطعنا مرحلة لابأس بها من تاريخ الدول الثلاث، بجزء ثان يصبح مبتور البداية - وهو العيب الذى لايعالج إلا بتكرار ذلك القسم من تاريخ تلك الدول، وتلك آفة أخرى. هذا، كما اقتضت الدراسة الرجوع إلى عدد من المصادر الأساسية، الخاصة بالموضوعات الجديدة المطروحة في القسم الثانى، والتى استفدنا بها فى مراجعة بعض الموضوعات التى عالجناها في القسم الأول. ويضاف إلى ذلك نشر بعض المخطوطات المتعلقة بتاريخ المغرب مما لم يكن فى متناول يدينا، والتى لايجوز إهمالها في الدراسة[٢]، مما يعنى إضافات لايستهان بها بالنسبة لبعض موضوعات الكتاب الأول.

لكل ذلك رأينا أن يكون عنوان كتابنا الجديد فى: تاريخ المغرب العربى من الفتح إلى قيام الدولة الفاطمية، قائماً بذاته. وأن يكون فى جزئين: أولهما يعالج، فضلاً عن دراسة المصادر والتعريف بالبلاد، تاريخ الفترة من الفتح إلى بدء عصور

(١) ط. دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٥. وكان بودنا أن يكون تقديم هذا الكتاب أيضاً لأستاذنا الدكتور أحمد فكرى، ولكن حال دون ذلك أجله المحتوم، إذ وافته منيته، بعد معاناة شجاعة ذابت لها قلوب تلاميذه ومحبيه، عشية الجمعة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٧٥ - رحمة الله ورضوانه عليه.

(٢) والمثل لذلك كتاب الحلة السيراء الذى نشره حسين مؤنس فى جزءين، ط. القاهرة، ١٩٦٣، =/=

الاستقلال. وثانيهما يحوى تاريخ الدولة الأغلبية مع فتح صقلية وتاريخها أيام الأغالبة، وتاريخ كل من دول الرستميين والمدراريين والأدارسة، بالإضافة إلى مرحلة قيام الدولة الفاطمية فى المغرب. ونرجو بذلك أن يكتمل محتوى كل من الجزئين، كما يمكن لنا أن نستمر فى إكمال الكتاب بالجزء الثالث - إن شاء الله - تكملة منطقية، دون حاجة إلى بتر أو تكرار.

وهكذا تمتد الدراسة على طول ثلاثة قرون، نعالج فيها مرحلتين متكاملتين من مراحل تاريخ المغرب العربى: الأولى منهما تمثل فترة الفتوح التى تكاد تنتهى بنهاية الدولة الأموية فى دمشق، والثانية تمثل عصور الاستقلال الأولى فى المغرب التى تبدأ مع قيام الدولة العباسية فى بغداد، وتنتهى بقيام الدولة الفاطمية كخلافة منافسة للخلافة العباسية، تطالب بشرعية حقها فى سيادة العالم العربى الإسلامى.

وتكاد أهمية دراسة هاتين المرحلتين من تاريخ المغرب العربى، بالنسبة للتاريخ الإسلامى العام، تتلخص فى عدد من أوجه الشبه مع تاريخ الأقاليم الشرقية من دولة الخلافة، وخاصة فى خراسان وما وراء النهر. ففترة الفتوح التى امتدت فى المغرب إلى فتح الأندلس بعد سنة ٩٠ هـ/ ٧١٠م، تكاد تعادل فترة الفتوح فى المشرق: حيث يعتبر فتح بخارى وسمرقند نهائياً فى نفس هذا التاريخ (سنة ٩٠ - ٩٣ هـ/ ٧١١ - ٧١٣م)، علامة مميزة فى تاريخ العرب فى المشرق.

وفيما يتعلق بمرحلة الدول المستقلة التالية فى المغرب - وبضمنها الأندلس - نجد أنها تتطابق بشكل ملفت للنظر مع الفترة المناظرة من تاريخ المشرق، حيث قامت الدول المستقلة ابتداء من عصر المأمون، وأهمها: الدولة الطاهرية وما عاصرها من دويلات الصفاريين والسامانيين. وهكذا يكون عصر الدول المستقلة فى المغرب وفى المشرق، هو السمة المميزة لدولة الخلافة العباسية، اعتباراً من عصرها الأول.

=/=

وتلك القطعة من كتاب الرقيق القيروانى التى نشرها المنجى الكعبى تحت عنوان تاريخ أفريقية والمغرب، من أواسط القرن الأول الهجرى إلى أواخر القرن الثانى، ط. تونس، ١٩٦٧. وكذلك تاريخ خليفة بن خياط، أقدم كتب الحوليات التى وصلتنا، والذى نشر بمعرفة أكرم العمرى، بغداد ١٩٦٨. هذا إلى جانب بعض كتب الأباضية من مطبوعة ومخطوطة، مثل: تاريخ ابن الصغير، ط. الجزائر، أو سير أبى زكريا أو الوسيانى: أو طبقات الدرجينى مما يأتى ذكره.

هذا من وجهة النظر العامة، أما من حيث التفاصيل فلقد أتى دخول أهل المغرب، وهم البربر، فى الجيش العربى الافريقى أثناء الفتوح، مقابلاً لدخول الترك من أهل المشرق فى الجيوش العربية، تحت قيادة قتيبة بن مسلم فاتح بخارى وسمرقند فى بلاد ما وراء النهر، ونظير موسى بن نصير فاتح الأندلس. ومن جانب الفاتحين العرب فإنهم حملوا معهم إلى كل من المغرب والمشرق نزاعاتهم العصبية والمذهبية التى عرفوها فى بلادهم وفى مركز الدولة، مما كان له أثره على مسار الأحداث فى كل من طرفى دولة الخلافة.

فالنزاع بين القيسية واليمانية الذى ظهر فى المغرب، وخاصة فى الأندلس كان ينهك قوى العرب فى خراسان على أواخر أيام الأمويين. ومذهب الخوارج الذى أضرم نيران الفتنة فى المغرب منذ أواخر أيام الأمويين إلى أن انتهى بإقامة دولة الرستميين فى عهد العباسيين، كانت له حياته السرية والعلنية فى المشرق الخراسانى حتى أيام دولة الطاهريين، وعلى أساسه قامت دولة الصفاريين، وهما الدولتان المعاصرتان لكل من دولتى الأغالبة والرستميين. أما عن العلويين الحسنيين الذين نجحوا فى إقامة دولة الأدارسة فى بلاد أوربة، فكان لهم نجاحهم فى المشرق أيضاً حيث أقاموا دولة الزيدية الأولى، فى بلاد طبرستان وجرجان، من حيث أخذت الأفكار الشيعية تنتشر فى خراسان الطاهرية، وما وراء النهر السامانية.

وبذلك كانت الأحداث تسير فى جناحى دولة الخلافة: الغربى والشرقى بتوافق إيقاعى عجيب. فبينما كانت قوى المعارضة تضعف من شأن الخلافة، كان نزاعها فيما بينها يحقق نوعاً من توازن القوى، كما يقال الآن، وهو الأمر الذى يفسر كيف نجحت خلافة العباسيين فى البقاء على طول العصور.

وهكذا كانت عوامل الضعف التى عانت منها دولة الخلافة العباسية، وأهمها: آفتا التفتت السياسى، والخلاف المذهبى، تتناقض فيما بينها، وتؤثر بردود فعلها على حياة المجتمع الكبير. فبينما كان التفتت السياسى يضعف من كيان دولة الخلافة، كان استقلال الأقاليم سبباً فى قيام قوى جديدة، ذات دماء فتية وحيوية شابة، أخذت على عاتقها إحياء العمل السياسى والحضارى الذى قامت به الخلافة فى عصور نهضتها الأولى.

ومثل هذا يقال أيضاً عن الانشقاقات المذهبية، فرغم أنها كانت من أسباب

تفتت المجتمع على المستويين: السياسى والدينى، فإن ما ظهر من حرص أبناء كل طائفة من الطوائف المذهبية، المتفرقين ما بين المغرب والمشرق على إقامة علاقات أخوية وثيقة فيما بينهم، كان مما حافظ على نوع من الوحدة بين أفراد المجتمع الكبير: فخوارج المغرب كانوا على صلات مستمرة بأخوانهم فى المشرق، وكذلك كان الأمر بالنسبة للشيعة من العلويين.

ولقد ترتب على تلك العلاقات المعقدة فيما بين دول المغرب المستقلة، فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الذى ندرسه، وفيما بينها ودولة الخلافة فى المشرق، ظاهرة تبدو غير منطقية لأول وهلة، وهى أهمية الدور الذى قام به المشارقة فى مجريات الأحداث فى بلاد المغرب وقتئذ، وخاصة فى كل من دولتى الأغالبة والرستميين - ليس على المستوى الثقافى فقط، بل والسياسى أيضاً. فالجند الخراسانى كان له نشاط عظيم فى أحداث أفريقية الأغلبية، كما تعدى حدودها إلى المملكة الأدريسية والامامة الرستمية. وفى مقابل الجند الخراسانى كان العجم أو الفرس لهم دور عظيم فى تاريخ الأمامة الرستمية. وهذا الأمر يعنى أن العصر العباسى الأول الذى عرف فى المشرق عند المؤرخين بـ «العصر الفارسى»، كانت له آثاره المباشرة فى المغرب ممثلاً فى الأوضاع السياسية والأحوال الحضارية. والأثر الفارسى الذى نشير إليه لايتضمن التأثير العرقى أو اللغوى على وجه الخصوص، وذلك أن من يسمون فى أفريقية بالجند الخراسانى أو فى مملكة تاهرت بالعجم أو الفرس كانوا أصلاً من عرب خراسان الذين دخلوا فى خدمة العباسيين منذ قيام دولتهم، والذين رغم تأثرهم بالعادات والتقاليد الفارسية، ظلوا محتفظين بعروبتهم الخالصة، لايقلل منها احتفاظهم باسم الخراسانية أو الفرس أو العجم.

فكأن المشرق الفارسى كان يمد بلاد المغرب فى القرن الثالث الهجرى (٩م)، إلى جانب مقوماته الحضارية، بدماء عربية جديدة، غير تلك التى جاء بها الفارون من بلاد العرب الأصلية، من أعداء العباسيين، أو من القبائل العربية المهاجرة التى انغلقت أمامها أبواب المشرق الإيرانى، فلم يبق لها من سبيل إلا إلى المغرب، وكذلك الأمر بالنسبة للأندلس التى كان يفد عربها أيضاً إلى بلاد البربر. وبذلك بقى تيار الهجرة العربية مفتوحاً نحو المغرب فى الوقت الذى أخذت أبواب

المشرق تنغلق أمام العرب، شيئاً فشيئاً بفضل تزايد حركة إحياء القومية الفارسية، إلى أن انتهى الأمر في القرون التالية إلى انقسام العالم العربي الإسلامي، إلى: جناح مشرقي فارسي الصبغة، وجناح مغربي عربي السداة واللحمة - وهو الحال الذي عليه العالم الإسلامي الآن.

وهكذا تتضح أهمية دراسة الفترة المبكرة من تاريخ المغرب العربي بالنسبة لما تلقيه من أضواء على مسار التاريخ الإسلامي العام، والظروف التي أدت إلى تطور المجتمع العربي الإسلامي عبر العصور التاريخية إلى أن أصبح على ما هو عليه الآن، فضلاً عما توضحه الدراسة التفصيلية من بيان الظروف المحلية التي كان لها أثرها في تكوين الخصائص المميزة لتاريخ كل اقليم عما يجاوره من البلاد - وهذا هو الهدف الأكبر من دراسة التاريخ.

ويحتوي تاريخ المغرب الذي نعالجه في هذا الكتاب على الموضوعات التالية:

(أ) الجزء الأول:

١- المصادر.
٢- التعريف بالبلاد والسكان والأحوال الاجتماعية قبيل الفتح العربي.
٣- الفتح العربي ما بين الاستكشاف واستقرار العرب في البلاد (٢٢هـ / ٦٤٣ م - ٩٥ هـ/ ٧١٣م).
٤- الإدارة الأموية: أخطاؤها ورد الفعل الذي تمثل في حركات الخوارج (١٠١ هـ/ ٧١٩ م - ١٢٢ هـ/ ٧٤٠م).
٥- بلاد المغرب ما بين الاستقلال والتبعية للخلافة على أواخر أيام الأمويين وقيام العباسيين:
(أ) الفهريون بنو عقبة بن نافع في أفريقية (١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م - ١٣٩ هـ/ ٧٥٦م).
(ب) العصر الذهبي للخوارج: المغرب ما بين الصفرية والاباضية (١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م - ١٥٥ هـ/ ٧٧٢م).
(جـ) المهلبيون في أفريقية (١٥١ هـ/ ٧٦٨ م - ١٧٨ هـ/ ٧٩٤م).

(ب) الجزء الثاني:

١- الأغالبة فى افريقية من ملك إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ هـ/ ٨٠٠م) إلى نهاية زيادة الله الثالث (٢٦٩ هـ/ ٩٠٨ م).

٢- صقلية الأغلبية من الفتح (٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م) إلى نهاية الأغالبة (٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م).

٣- إمامة الرستميين الاباضية فى تاهرت وجبل نفوسة (١٦١ هـ/ ٧٧٧ م - ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨م).

٤- امامة المدراريين الصفرية فى سجلماسة (١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م - ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م).

٥- مملكة الأدارسة فى فاس والمغرب الأوسط (١٧٢ هـ/ ٧٨٩ م - ٣٠٥ هـ/ ٩١٧م).

٦- قيام الدولة الفاطمية وتوحيد المغرب تحت راية المهدى: «خليفة الله»، أمير المؤمنين (٢٨٠ هـ/ ٨٩٤ م - ٣٠٥ هـ/ ٩١٧م).

وإذا كنا نطمع فى أن يكون التوفيق حليف عملنا هذا، فإن الأمانة العلمية تقتضى منا التنويه بأعمال كل من قاموا بدراسة تاريخ المغرب أو موضوعات ذات صلة به من التاريخ العام، من: الأساتذة الأجلاء والزملاء الأفاضل والتلاميذ النجباء، ممن عرفناهم بأشخاصهم، وممن قرأنا لهم - مع اعتذارنا عن اغفال ذكر من سهونا عن ذكره منهم. أما عن العاملين فى دور الكتب والمكتبات والمسئولين عنها، ممن قدموا لنا يد العون والمساعدة، فهم الجنود المجهولون الذين يقفون وراء هذا العمل وأمثاله. إلى جميع هؤلاء نهدى هذا الكتاب، ونعتذر عن عجزنا فى ايفاء كل منهم حقه - وإن كنا سنحاول الإشارة إلى بعضهم فى فصل المصادر وفى خلال الدراسة.

شكراً جزيلاً لكل من عاوننى فى إخراج هذا الكتاب حتى وصل إلى يدى القارئ الكريم. وأخص بالذكر الدكتورة نبيلة حسن، مدرسة التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، تلميذتى، لمعاونتها التى لاتقدر فى إعدادى للكتاب ومراجعة طباعته. وكذلك الحال بالنسبة للدكتور محمد عبد العال أحمد أستاذ التاريخ الإسلامى بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة،

والأستاذ محمد عبد العزيز محمود مدير متحف الآثار بكلية آداب الإسكندرية، والأستاذ يوسف شكرى مدير الإدارة الفنية بكلية الآداب سابقا والمحاضر بها حاليا. لتجشمه عناء إعداد خرائط الادريسى عن بلاد المغرب وصقلية وجنوب ايطاليا.

وأخيراً أوجه الشكر للأستاذ جلال حزى الناشر السكندرى الذى تفضل مشكوراً وأخذ على عاتقه عبء نشر الكتاب.

ونكرر الرجاء فى أن يكون التوفيق حليف هذا العمل، ونأمل فى أن يمن الله علينا بما نصبو إليه من إكمال تاريخ المغرب العربى، وما التوفيق إلا من عند الله - إنه نعم المولى ونعم النصير.

سعد زغلول عبد الحميد

الإسكندرية فى ٢٥ مارس ٢٠٠٠



تاريخ المغرب العربى
من الفتح إلى قيام الدولة الفاطمية



المصـــادر

هامش على منهج البحث:

قد يكون من المناسب فى موضوع المصادر أن نبدأ بالإشارة إلى أن المادة الموجودة بين أيدينا، واللازمة للبحث، قد لاتفى بكتابة تاريخ متكامل العناصر للفترة التى نزمع دراستها، مما يرضى عنه الباحثون. فالوثائق الرسمية التى يجب أن يكون اعتماد الدارس عليها تكاد تكون مفتقدة بشكل تام، بينما يقصر الأدب التاريخى، الذى عليه المعول، عن أداء الغرض منه بالشكل المرجو وتلك آفة الكتابة فى التاريخ الإسلامى بشكل عام. وفى قصور الأدب التاريخى اللازم للبحث يمكن أن نسجل عدداً من الملاحظات الهامة بالنسبة لمنهج البحث. فإذا كانت ندرة المادة التاريخية المطلوبة لملء جوانب التاريخ المتعددة، من: سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وغيرها، يمكن أن تكون أول ما يعانى منه المؤرخ، فإن ذلك ليس أهم جوانب القصور بشكل أكيد. فالمادة المفتقدة فى بعض جوانب البحث قد تكثر وتتشابك فى نواح أخرى، ثم أنها كثيراً ما تتضارب فيما بينها، كما قد تكتنفها الأساطير بطريقة تجعل الوصول إلى الحقيقة، فى بعض الأحيان، وكأنه ضرب من الحال.

وقلة المادة اللازمة للبحث لاتتأتى من افتقادنا للمصادر التى لم يصلنا كثير منها فقط، إذ أن العديد من المصادر التاريخية أنصب اهتمام أصحابها على نقاط معينة من التاريخ دون غيرها. كما أنه ليس من الضرورى أن تكون الأحداث الهامة هى التى أثارت انتباه الكاتب، إذ الأمر يتعلق بظروفه الحياتية، وأحواله المزاجية، ونظرته الذاتية إلى مجريات الأمور. وإذا كانت المصادر، باختلاف مادتها، وتنوع مقاصد أصحابها، يمكن أن تكمل بعضها بعضاً، فلاشك أن وضع المواد ذات الطبيعة المتباينة جنباً إلى جنب، عند إجراء عملية البناء التاريخية، لمما يضعف من هيكلها. ويظهر ذلك بشكل صارخ عند معالجة تاريخ الجماعات المتنافرة، مثل: أهل السنة والخوارج والشيعة، بل أنه يظهر بين أفراد الجماعة الواحدة منها عندما تنشق على بعضها، كما هو الحال بين المالكية والحنفية وبين الاباضية الوهبية والنكارية أو بين الشيعة الزيدية والاسماعيلية الفاطمية، مما نشير إليه أثناء الدراسة.

والمهم من هذه الاشارات: أن كل جماعة من تلك الجماعات أخذت بالروايات التى تناسب أغراضها وأهواءها، مما يتعين معه عرض النصوص للنقد، وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة، قبل ترجيح مقالة على غيرها. وهو الأمر الذى لايتطلب الصبر على المعاناة فقط، بل يتطلب الكثير من الخبرة بفهم النصوص، وشيئاً من سلامة الحس وخصوبة الخيال - وهو ما لاندعيه لأنفسنا.

فى مصادر فتوح العرب فى المغرب:

والفترة الأولى من تاريخ المغرب مازالت بحاجة إلى مزيد من الدرس والتقصى، وعلى وجه أصح إلى المزيد من المصادر الجديدة. فالمصادر الأصلية من الأوراق الرسمية التى تعرف بالأرشيف (أو الوثائق)، أو من النقوش والنقود والآثار وغيرها، قليلة نادرة أو تكاد تكون منعدمة. وبناء على ذلك فنحن نعتمد فى دراستنا - كما هو الحال بالنسبة لتاريخ الإسلام على وجه العموم - على الأدب التاريخى، وروايات الكتاب من مؤرخين وغير مؤرخين، من المتقدمين والمتأخرين.

ولقد أخذ الكتاب الأوائل روايات قدامى الاخباريين، وهؤلاء نقلوا فى أول الأمر أخبارهم شفوية عن شهود العيان أو عمن سمع عنهم من الرواة والقصاص. والرواية الشفوية كثيراً ما تتحول وتتطور بسبب صعوبة ضبطها، وتأثرها بالاتجاهات العصبية أو القبلية القديمة، وبالظروف السياسية والميول المذهبية، وكذلك بالعوامل الشخصية والنفسية. وكثيراً ما يبلغ التطور فيها إلى درجة تحول الحقيقة التاريخية إلى أسطورة أو العكس. وهذا ما يفسر غلبة الأسطورة على كثير من أخبار الفترة الأولى لصدر الإسلام، وكثرة اختلاف الأخبار عن الحادثة الواحدة، مما يجعل مهمة المؤرخ المحدث من الصعوبة بمكان. ومع ظهور تلك الصعوبة بشكل واضح عند التأريخ للفتوحات الإسلامية الأولى بعامة، فإنها تظهر بشكل حاد عند التأريخ لفتح المغرب والأندلس بشكل خاص. فالأمر لاينتهى بحيرة المؤرخ، عند مقابلة الروايات التاريخية المختلفة بعضها بالبعض، فى محاولته معرفة الصحيح منها من غير الصحيح، بل باضطراره كذلك إلى تحليل الروايات ذات الطابع الأسطورى، وردها إلى أصولها التاريخية إن كانت لها أصول.

وهكذا نجد أنفسنا أمام صعوبات ثلاث: أولاها ندرة المصادر، وثانيتها اضطرابها أو اختلاطها بدرجة تجعل ترتيبها أمراً صعباً، وثالثتها غلبة الأسطورة

على كثير منها[1]

الروايات المشرقية:

وأهم مصادر هذه الفترة المبكرة من تاريخ المغرب هى مجموعة الكتب الخاصة بالمغازى أو الفتوح .. فأدب المغازى هو أقدم نوع من الأدب التاريخى، وذلك أن ظهوره كان وثيق الصلة بظهور الإسلام وعصر النبوة، وأول المغازى هى مغازى الرسول، والتى اعتنى بها أصحاب السيرة تم اتبعوها بمغازى المسلمين فى البلدان المفتوحة، فهذه الأخيرة تكملة للأولى. وكتب المغازى هذه تنقسم إلى نوعين: الكتب الخاصة بالفتوح العربية عامة، والكتب المتعلقة بفتوح المغرب خاصة، وهذه الأخيرة أهمها بطبيعة الحال. هذا ولو أن ذلك التقسيم شكلى إلى حد كبير، إذ يشترك النوعان فى خاصية واحدة، وهى أنهما من أصل مشرقى[2]. ونريد بتلك الملاحظة الأخيرة الرد على أولئك الذين يقسمون الروايات الخاصة بفتح المغرب إلى نوعين أحدهما مشرقى وثانيهما مغربى محلى، ويريدون أن يصفوا النوع الأخير بأنه أكثر أصالة أو دقة من الأول. فهذه الملاحظة لاتنطبق إلا على العصور التالية، بعد أن قامت مراكز الحضارة العربية فى المغرب والأندلس، وظهر فيها أجلة العلماء وثقات المؤرخين من المشارقة الذين هاجروا إلى المغرب، أو المغاربة الذين أخذوا العلم من مناهله الأولى فى المشرق.

ويعتبر ابن اسحق (توفى سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م) أول من كتب فى المغازى، فله إلى جانب السيرة عدد من الكتب فى المغازى[3]، منها: «كتاب

---

(١) انظر للمؤلف، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية، مجلة كلية الآداب، إسكندرية، سنة ١٩٦٣، ص ١ - ٥.

(٢) نكتفى هنا بذكر أقدم مؤرخى الأندلس وهو عبد الملك بن حبيب (١٧٩ - ٢٣٨ هـ/ ٧٩٦١ - ٨٥٣م) الذى رحل إلى المشرق. ودرس الفقه المالكى، وحمل لقب «عالم الأندلس» وألف كتابا سماه «التاريخ» ولقد تناول هذا الكتاب (الذى زاد فيه الكتّاب فيما بعد) تاريخ أمراء الأندلس إلى سنة ٢٧٤ هـ/ ٨٨٧م، ولكنه رغم قدمه ملئ بالأساطير والخرافات (أنظر: Angel Gonzalez Palencia تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة حسين مؤنس، ١٩٥٥، ص ١٩٤). ولقد نشر منه قطعة صغيرة بمعرفة محمود مكى فى محلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، عدد ٥ سنة ١٩٥٧، النص، ص ٢٢١ - ٢٤٣ - حيث الرواية الخاصة بفتح اشبيلية أشبه برواية كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة.

(٣) عن ابن اسحق انظر الفهرست لابن النديم، طبعة التجارية، ص ١٤٢، Brockelmann, G.A.L., supp. I p. 205 ولابأس من الإشارة هنا إلى بعض معاصرى ابن اسحق ممن اعتنوا بالتدوين التاريخى فى ذلك الوقت المبكر، وهم الذين يعرفون بالاخباريين (أى رواة الأخبار أو طليعة المؤرخين) والذين اهتموا =

فتوح مصر والاسكندرية» . الذى وصلنا - فى شكل رواية قصصية - منسوباً إليه[٤] . ويعتبر الواقدى (توفى سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢م) أقدم ممثلى هذا النوع من الأدب التاريخى، «فقد كان عالماً بالمغازى والسير والفتوح»[٥] . وقد ذكر له عدد من كتب الفتوح والمغازى وصلنا بعضها، مثل «فتوح الشام» الذى يشك فى صحة نسبته إليه، وفتوح مصر الذى يكوّن جزءاً من فتوح الشام والذى وصلنا مستقلاً فى شكل «كتاب فتوح مصر والاسكندرية»[٦] ، وهو نفس عنوان كتاب ابن اسحق، وله أيضاً كتاب فتح البهنسة وفيوم من أرض مصر[٧] ، وأخيراً، كتاب فتوح أفريقية» وهو الذى يهمنا.

ومع أنه يوجد عدد من مخطوطات فتوح أفريقية هذا فى مكتبات العالم المختلفة[٨] ، ومع أن الكتاب طبع منذ حوالى ثمانين عاماً[٩] ، إلا أننا لانجد له ذكراً بين الكتب التى يرجع إليها المشتغلون بتاريخ المغرب العربى. والظاهر أن ذلك الاهمال وقع لسببين: أولهما شيوع ضياع هذا الكتاب مثل معظم كتب الواقدى التى لم تصل إلينا إلا منقولة عند من أتى بعده من الكتاب، وثانيهما أن

=/= بالمغازى، مثل «أبو مخنف لوط بن يحيى بن سليم الأزدى (توفى سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٣م) وله فتوح الشام وفتوح العراق (ابن النديم، الفهرست طبعة التجارية، ص ١٤٣)، وسيف بن عمر الأسد التميمى (توفى سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م) وله كتاب الفتوح الكبير (ابن النديم، الفهرست ص ١٤٣). ويأتى بعدهما هشام بن محمد بن السايب الكلبى (توفى سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م) وله كتاب البلدان الكبير وكتاب البلدان الصغير (الفهرست ص ١٤٦ - ١٤٩) ثم المدائنى وهو «أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف المدائنى» مولى شمس بن عبد مناف (توفى سنة ٢٢٥ هـ/ ٨٣٩م)، وله عدد من الكتب فى فتوح الشام والعراق وفارس وخراسان ومصر وبرقة (الفهرست، ص ١٥٣ . وانظر بروكلمان (G.A.L) الملحق ج١ ص ٢١٤)، ومصعب بن عبد الله الزبيرى (الفهرست، ص ١٦٦)، والزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن عبد الله الزبيرى (توفى سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠م) (الفهرست ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، بروكلمان (G.A.L.)، ج١ ص ١٤١).

(٤) طبعة أوربا.

(٥) الفهرست، ص ١٥٠ .

(٦) طبعة ليدن، سنة ١٨٢٥ .

(٧) طبعة القاهرة، ١٢٨٠ هـ، ١٢٧٨هـ (قصة البهنسا وما فيها من عجائب ..). ومخطوط مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن، رقم ٦٣٨٦ (أنظر للمؤلف، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والأسطورة، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، ١٩٦٣، ص ٧).

(٨) أنظر بروكلمان (G.A.L.)، الملحق، ج١ ص ٢٠٨ .

(٩) طبعة تونس، سنة ١٣١٥هـ (بمعرفة عبد الرحمن الصنادلى). - منذ أكثر من ١٠٠ (مائة عام حالياً.

الطابع الأسطورى والقصصى يغلب فيه على الطابع التاريخى، مما يجعل الاستفادة منه أمراً صعباً[(١٠)] . ورغم ما يثيره قدامى الكتاب حول صحة أخبار ابن اسحق وكذلك الواقدى الذى يأخذ عنه[(١١)]، ورغم ما يثار من الشك فى صحة نسبة ما وصلنا من كتبهما إليهما، فنحن نرى أن كتاب الواقدى الأصيل عن «فتوح أفريقية» أخذ يتطور مع مرور الوقت حتى وصلنا فى الشكل الأسطورى الذى هو عليه، وذلك فى ظروف تاريخية حاولنا شرحها فى دراستنا لهذا الكتاب التى جعلنا عنوانها «فتح المغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية»، دراسة ونقد لمخطوط «فتوح مدينة أفريقية» من مخطوطات الواقدى بالمتحف البريطانى[(١٢)] التى نشير إليها فى بعض المواضع.

أما أقدم وأدق رواية وصلتنا كاملة عن فتح المغرب، فهى رواية عبد الرحمن بن عبد الحكم (توفى بالفسطاط سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧١م) فى كتابه «فتوح مصر والمغرب والأندلس»[(١٣)] . وأهمية الكتاب تتلخص فى أن ابن عبد الحكم مصرى، ومصر كانت قاعدة الفتوح الأولى فى المغرب ثم أن المؤلف كان من أسرة كبيرة ضربت بسهم وافر فى العلم وشاركت بعمق فى أمور السياسة مما عرضها فى سنة

---

(١٠) انظر للمؤلف، فتح المغرب بين الحقيقة والأسطورة، ص ٦ (حيث يشير إلى أن مؤنس يورد ذكره فى بعض هوامشه، وكذلك أشار إليه عبد المنعم ماجد فى مراجعه فى «التاريخ الإسلامى للدولة العربية».

(١١) عن الشك فى أخبار ابن اسحق أنظر الفهرست لابن النديم، ص ١٤٢، وعن الواقدى نلاحظ أن الطبرى فى كلامه عن الفتوح الأولى والحرب ضد الروم يسبق كثيراً روايته بكلمتى «وزعم الواقدى» (انظر سنة ٥٢ و ٥٤) أو يلحقها بكلمتى «فى قول الواقدى» (أنظر سنة ٥٨، ٦٠) وأنظر السخاوى، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ طبعة ١٣٤٩ ص ١١٧ حيث يشير إلى أن ابن سعد صاحب الطبقات ثقة «وكان شيخه الواقدى ضعيفاً». ونشير هنا إلى أن عبد العزيز الدورى يأخذ بالرأى المضاد (أنظر علم التاريخ عند العرب، بيروت ١٩٦٠، ص ٣٠ - ٣١).

(١٢) مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، المجلد العاشر، سنة ١٩٦٣.

(١٣) انظر طبعة ليدن (بمعرفة تورى Torrey) سنة ١٩٢٠ . ولقد طبع هنرى ماسيه Massé القسم الخاص بمصر من الكتاب سنة ١٩١٤ . وأخيراً طبع القسم التاريخى بمعرفة عبد المنعم عامر، ولكن هذه الطبعة يؤخذ عليها عدد من المآخذ، منها ما يتعلق بتحقيق النص ومنها ما يتعلق بصحة الهوامش. ونشير هنا إلى نقد الدكتور حسين نصار لها فى مجلة «المجلة» العدد ٨٠ السنة السابعة، أغسطس ١٩٦٣ ص ٩٨ - ١٠٣ . وعن تقييم الرواية أنظر للمؤلف: «فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم»، (بحث) فى كتاب: «دراسات عن ابن عبد الحكم»، المكتبة العربية: (ط. وزارة الثقافة القاهرة، ١٩٧٥)، ص ١٥٣ - ١٩٦.

٢٣٧ هـ/ ٥١ - ٩٥٢م، لمحنة عظيمة[١٤]. هذا يعنى أن ابن عبد الحكم كان فى موقف اجتماعى يسمح له بالاطلاع على ديوان الفسطاط، الذى زخر بالوثائق الرسمية والسجلات الخاصة بفتح مصر والمغرب، أو الأخذ عن المشايخ الذين رأوا هذه السجلات أو نسخوها. وأهم من نقل عنهم ابن عبد الحكم، هم: ابن لهيعة (توفى سنة ١٧٤ هـ/ ٧٩٠م)[١٥]، وفقيه مصر وراويتها الليث بن سعد (توفى سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١م)[١٦]، ويزيد ابن أبى حبيب النوبى الأصل (توفى سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٦م)، وهو من ثقات رواة فتوح مصر والمغرب وأستاذ ابن لهيعة والليث ابن سعد ويحيى بن عبد الله بن بكير (توفى سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٥م) الذى جمع عدداً من السجلات والوثائق فى كتاب أهداه لابن عبد الحكم[١٧]، وعثمان ابن صالح (توفى ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ - ٣٥م) وهو من أهم مصادر ابن عبد الحكم فى الجزء التاريخى الخاص بالمغرب، وعرف باللين والصدق وبأنه لم يكن ممن يكذب[١٨]، ويحيى بن أيوب (توفى سنة ١٦٣ هـ/ ٧٧٩ - ٨٠)، وخالد ابن حميد (توفى سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥ - ٨٦م)، وعبد الملك بن مسلمة. وأكثر من نقل عنهم من كل هؤلاء العلماء الذين يكونون أول مدرسة مصرية فى التاريخ، هم: عبد الملك بن مسلمة، ويحيى بن بكير ثم عثمان بن صالح[١٩].

---

(١٤) انظر الكندى، الولاة والقضاة، ص ١١٩ - ٢٠٠، ٤٥٢، مقدمة تورى Torrey (بالانجليزية)، ص ٢١، ومقدمة جاتو Gateau للطبعة الجزئية مع الترجمة الفرنسية، الجزائر ١٩٤٨، ص ١٢ : ١٣، إبراهيم العدوى، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٧ - ١٣٥.

(١٥) انظر عن تقييمنا لابن لهيعة الذى نراه مدققاً، يجتهد فى أخذ الأخبار من منابعها الأولى ....، فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم، ص ١٧٤).

(١٦) عن علم الليث بن سعد، يروى عن الشافعى أنه قال: «الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به» (ابن خلكان، طبعة محيى الدين، ج٣ ص ٣٨٠). وانظر للمؤلف فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم ص ١٧٥ - ١٧٦.

(١٧) أنظر مقدمة تورى، ص ٣ - ٦، ومقدمة جاتو، ص ١٨ وأنظر للمؤلف، فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم، ص ١٦٨ - ١٦٩.

(١٨) أنظر، الذهبى، ميزان الاعتدال فى نقد للرجال، القاهرة ١٩٦٣، ج٣ ص ٣٩ - ٤٠ حيث تقييم عثمان ابن صالح، حسب مصطلح الحديث، ما بين «صندوق» و «لين» و متروك» إلى جانب شهادة من قال: «لم يكن عثمان عندى ممن يكذب»، وانظر للمؤلف فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم ص ١٦٨ - ١٦٩، مقدمة جاوب، ص ٢٧.

(١٩) انظر للمؤلف، فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم، ص ١٦٧.

وإلى جانب ذلك نقل ابن عبد الحكم كثيراً من الروايات والقصص الشعبية لتي كانت متداولة بين أهل مصر سواء عن فتوح مصر والمغرب، أو عن لتنظيمات الإدارية والخطط. ومن هنا تزداد أهمية كتاب ابن عبد الحكم - خاصة الجزء المتعلق بمصر - فهو لم يهتم بالتاريخ السياسى فقط بل اهتم بالعمران والنظم والتراتيب، وعلى ذلك فهو رائد هذا النوع من الأدب التاريخى الذى يهتم بالمجتمع وبالخطط، والذى سينبغ فيه المقريزى فيما بعد، عندما يقدم أهم نماذجه ممثلاً فى كتاب الخطط، وبفضله يصبح ممثل هذا النوع.

وابن عبد الحكم يظهر فى كتابه بمظهر المحدث أكثر مما يبدو فى مظهر المؤرخ، فهو يعتنى فى كثير من الأحيان بايراد الروايات المختلفة، كما يهتم بتسجيل الإسناد. وتظهر صفة المحدث هذه فى الفصل الأخير، الذى يختم به ابن عبد الحكم كتابه عن الصحابة الذين دخلوا مصر والمغرب، والهدف منه هو سرد الأحاديث النبوية التى رويت نقلاً عنهم. ولقد ترتب على طريقة المحدثين هذه تقديم وتأخير بعض الروايات نتج عنه تقديم وتأخير فى بعض الأحداث التاريخية - حتى الهامة منها - مما جعل ترتيبها زمنياً من الأمور الصعبة، وهذا ما سنشير إليه فى مواضعه[٢٠].

وبعد الواقدى وابن عبد الحكم يأتى كتاب البلاذرى (أبو جعفر أحمد ابن يحيى بن جابر) (توفى سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م) المعروف بفتوح البلدان. والكتاب سريع نظراً لأنه يتناول الفتوح جميعاً، وفتوح المشرق بوجه خاص، ونظن أن اسمه الكامل هو «كتاب البلدان الصغير» بمعنى المختصر، وذلك أن البلاذرى كان قد بدأ فى تطويله وأعطاه اسم «كتاب البلدان الكبير»، ولكنه لم يتمه، كما يقول ابن النديم[٢١]. وطريقة البلاذرى هى نفس طريقة الواقدى وابن عبد الحكم، وذلك أنه يعتنى بالإسناد فهو من هذا الوجه مؤرخ محدث هو الآخر، وهو يعتمد على روايات عبد الله بن صالح، والليث بن سعد ونافع مولى آل الزبير وابن الكلبى ثم الواقدى - نقلاً عن كاتبه ابن سعد فى بعض الأحيان - بصفة

---

(٢٠) انظر فيما بعد، ص ٢١١ والهوامش، ص ٢٣٦ و هـ ٣٠٧، وانظر للمؤلف فتح المغرب ما بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية، مجلة كلية الآداب - الإسكندرية ١٩٦٣، ص ٥. وانظر للمؤلف، فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢١) أنظر الفهرست، ص ١٧٠.

خاصة. وينبغي الإشارة إلى أنه لا علاقة بين روايات فتح المغرب المنقولة عن الواقدى هنا، وبين الروايات ذات الطابع الأسطورى المحض الموجودة فى «فتوح افريقية» المنسوب للواقدى والذى أشرنا إليه ابتداء.

وإلى جانب ما تقدم نشير إلى أهمية المعلومات المتعلقة بفتح المغرب والموجودة فى الكتب الخاصة بفتح الأندلس، ولاسيما «كتاب أخبار مجموعة» لمؤلف مجهول من كتاب القرن الرابع الهجرى (١٠م)[٢٢]، «وافتتاح الأندلس» لابن القوطية (محمد بن عمر بن عبد العزيز - توفى سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م) كما نضيف أيضاً كتاب الكندى (توفى ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م)، عن ولاة مصر وقضاتها، وله أهمية خاصة بالنسبة للعلاقات بين مصر والمغرب فى القرون الأربعة الأولى للهجرة. ففيه قطع قيمة عن الفتوح الأولى التى قام بها ولاة مصر الأوائل، الذين كانوا يضمون إلى عملهم ولاية المغرب. وكثير من معلومات الكندى ترد منسوبة إلى رواتها الأوائل، الذين كانوا يضمون إلى عملهم ولاية المغرب. وكثير من معلومات الكندى ترد منسوبة إلى رواتها الأوائل، ومن أهمهم: سعيد بن عفير، وابن لهيعة، ويحيى بن عبد الله بن بكير، ويزيد بن أبى حبيب، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، وهؤلاء يذهبون فى بعض الأحيان بسلسلة المسندين حتى شهود العيان الأوائل مثل عبد الله بن عمرو، وعمرو بن العاص مثلاً[٢٣].

وعن العلاقة بين مصر والمغرب لا بأس من ذكر خلفاء ابن عبد الحكم والكندى، مثل المقريزى فى خططه أو فى كتابه عن أوائل الفاطميين فى المغرب، المعروف بـ «اتعاظ الحنفا» (نظر الشيال، ج١ ، القاهرة ١٩٦٧م)، وهو مهم بالنسبة للفترة الثانية، كما يأتى، ومثل ابن تغرى بردى فى كتابه «النجوم الزاهرة»[٢٤] أو السيوطى فى «حسن المحاضرة».

---

(٢٢) أنظر فيما بعد، ص ٣٠٢ وما بعدها. وعن نقد الكتاب يرى ريبيرا أن له أكثر من مؤلف، وأن الجزء الأول منه كتبه أحد رجال السياسة إلى هشام بن عبد الرحمن الداخل، بينما الجزء الثانى منه كتبه أحد الفقهاء. وهو يرى أن الكتاب دون فى القرن الرابع الهجرى (١٠م). أما دوزى فرأى أنه دون فى القرن الخامس (١١م). أنظر انجل جونزالس فالنسيا (A.G. Palencia) تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة حسين مؤنس، ١٩٥٥، ص ١٩٨.

(٢٣) أنظر الكندى، ص ٣٢، ٣٣.

(٢٤) أنظر للمؤلف، أهمية ابن تغرى بردى لتاريخ المغرب والأندلس، بحث فى كتاب المؤرخ ابن تغرى بردى، مجموعة المكتبة العربية ط. وزارة الثقافة، القاهرة ١٩٧٤.

هذا عن أقدم الروايات الخاصة بفتوح المغرب، وأدقها وأكثرها أصالة، وهى من النوع الذى يوصف بأنه مشرقى. أما عن الروايات المغربية القديمة، والتى يمكن أن تعادل تلك الروايات المشرقية، فللأسف لم يصلنا منها شئ.

الروايات المغربية:

والحقيقة أنه كانت قد ظهرت بالقيروان روايات منسوبة إلى بعض أبناء الفاتحين مثل عيسى بن محمد بن سليمان بن أبى المهاجر، حفيد أبى المهاجر دينار، منافس عقبة في ولاية المغرب، وكان قد ألف كتاباً فى فتوح أفريقية نقل منه أبو العرب(٢٥) فى تراجمه، ولا بأس فى أن تكون له بعض الاشارات فى مسالك البكرى(٢٦)، الذى يسجل روايات لجده الأكبر أبى المهاجر عن فتوح عقبة فى المغرب الأقصى(٢٧).

ومن المهم الإشارة إلى أن عيسى حفيد أبى المهاجر كان من تلاميذ عبد الله ابن وهب المحدث المصرى الشهير، الذى يعتبر من مؤسسى أول مدرسة مصرية تاريخية، كما هو الحال بالنسبة لغيره من المغاربة الذين كانوا يبجلونه، مما يجعلنا نظن أن روايته لن تختلف كثيراً عن روايات أهل مصر(٢٨).

ولقد نبه فى القيروان، خلال القرن الثانى الهجرى، قاضى افريقية الشهير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (٧٤ هـ/ ٦٩٣ م - ١٦١ هـ/ ٧٧٨م) الذى شارك فى أحداث تلك الفترة حتى أنه وقع أسيراً بين أيدى الروم فى سنة ١١٦ هـ/ ٧٣٤م، وسجن فى حبس قصر الملك بالقسطنطينية ثم أفرج عنه بالفدية سنة ١٢١ هـ/ ٧٣٩م، كما أنه سار فى سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧م على رأس وفد إلى العراق يستنجد بالخليفة المنصور عندما استولى الخوارج على القيروان(٢٩).

---

(٢٥) أنظر أبو العرب، ترجمة رقم ٩١ ص ١٠٦ (حيث يقول عن الكتاب أنه لابأس به: أما عن النقول فهى كثيرة فى تراجم أبى العرب المختلفة).

(٢٦) أنظر جاتو، مقدمة فتوح افريقية لابن عبد الحكم، ص ٢٦.

(٢٧) انظر البكرى، ص ٧٣ - ٧٤. ولابأس فى أن تكون الروايات الأندلسية الموجودة فى «أخبار مجموعة» عن فتح المغرب نماذج لتلك الروايات المغربية الأصل. وعن أبى المهاجر والى المغرب لمسلمة بن مخلد، والى مصر أيام معاوية، أنظر فيما بعد ص ١٩٥ وما بعدها.

(٢٨) أنظر للمؤلف، فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم، ص ١٧٩ - حيث الاعتماد على رواية أبى العرب.

(٢٩) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، نشر أكرم العمرى، بغداد ١٩٦٨، ج٣ ص ٣٦٢ (أحداث سنة ١١٦ هـ =/=

ولما كان معاصروه من علماء مصر، مثل: ابن لهيعة وعبد الله ابن وهب، ومحمد بن عبد الحكم، ممن رووا عنه، فإنه من الطبيعي أن يكون قد أثر فيهم بروايات المغاربة، كما تأثر منهم بروايات المصريين [٣٠]، ويمكن لنا أن نقرر، من النتف القليلة التي وصلتنا عن ابن أنعم في كتاب أبي العرب وفي كتب المتأخرين، مثل البكري، وصاحب الاستبصار، وابن عذاري، أن ابن أنعم كان له عناية خاصة بالروايات الأسطورية أو القصص الشعبي العجيب [٣١]. وممن أتى بعد ابن أنعم من المؤرخين القيروانيين الذين لانعرف شيئاً عن أعمالهم سوى ما يروى عنهم في كتب المتأخرين، نذكر: الفقيه أبيامحمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (توفي ٢٢٧ هـ/ ٤١ - ٨٤٢م) [٣٢]، والأمير الأغلبي محمد بن زيادة الله بن الأغلب (توفي ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦م) الذي كان أديباً ظريفاً وكان له إلى جانب تواليفه الأدبية كتاب في «تاريخ بني الأغلب» [٣٣]، وأبا سهل فرات بن محمد العبدي (توفي ٢٩٢ هـ/ ٤ - ٩٠٥م) [٣٤] ثم أبا سعيد عبد الرحمن المعروف بالوكيل (توفي ٣١٠ هـ/ ٢٢ - ٩٢٣م) الذي كان من كبار حفاظ الحديث كما كان من أهل الثراء، بينما كان ابنه أبو محمد الحسني من أهل

=/=

-حيث الإشارة إلى أنه وقع في الأسر عقب غزو صقلية، وكان ممن أسر معه ابنا عثمان بن أبي عبيدة وهما: عمرو وسليمان، وكذلك أخو عبد الرحمن بن أنعم وهو المغيرة بن زياد بن أنعم. أما عن فك أسار ابن أنعم فيقول خليفة بن خياط أن عبد الرحمن ابن حبيب هو الذي فداه بعد أن ولي افريقية، والمعروف أن ابن حبيب لم يل افريقية إلا في سنة ١٢٧ هـ. وعن ترجمة عبد الرحمن بن أنعم، أنظر، طبقات علماء افريقية لأبي العرب، ط. تونس ١٩٦٨، ترجمة رقم ١ ص ٩٥ - ١٠٥ وقارن الرقيق، تاريخ افريقية والمغرب. ص ١٦٣ - ١٦٤، وانظر فيما بعد، ص ٢٨٦ وهـ ١٠٤ وص ٣٣٩ وهـ ٨٣، وعن مقدمات غزو صقلية في الجزء ٢، وكذلك عن انتشار التشيع الفاطمي في الجزء ٢.

(٣٠) أنظر للمؤلف، فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم، ص ١٧٩.

(٣١) أنظر للمؤلف، فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم، ص ١٧٩.

(٣٢) أنظر فيما بعد، ص ٣٤ وهـ ٤٦.

(٣٣) أنظر الحلة السيراء، ج١ ص ١٨٠.

(٣٤) أنظر ابن عذاري، ج١ ص ١٣٩، حيث يشير إلى أن أبا سهل فرات سمع من سحنون واليحصبي وأنه له معرفة بالأنساب وأنه أخذ عليه طول اللسان، فقد: «كان أعلم الناس بالناس وأوقع الناس في الناس، حتى نسب إلى الكذب».

(٣٥) أنظر أبو العرب، ط. بيروت، ص ١٧٤ - ١٧٥ (حيث الإشارة إلى نهب داره بعد وفاته بمعرفة كبار رجال المهدي الفاطمي. وأنظر، حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ط. تونس ١٩٦٥، قسم ١ ص ٦٩، ومقدمة المنجي الكعبي لتاريخ افريقية والمغرب، للرقيق القيرواني، ط. تونس ١٩٦٧، ص ١٥.

وتأتى بعد ذلك، من أخبار أهل افريقية التى لم تصلنا، الروايات المنسوبة إلى أيوب بن أبى يزيد صاحب الحمار، الثائر الخارجى على الفاطميين، وهو من رجال القرن الرابع الهجرى (١٠م)، وينقل عنه ابن خلدون فقرات فى فتوح المغرب[٣٦]. ومن كتب المعاصرين لأيوب بن أبى يزيد التى لم تصلنا كتاب يوسف الوراق وكتاب ابنه محمد بن يوسف الوراق القيروانى (٢٩٢ - ٣٦٣ هـ/ ٩٠٤ - ٩٧٣م) صاحب كتاب المسالك والممالك[٣٧] الذى ينقل عنه البكرى بعض المعلومات القيمة المناظرة لروايات المصريين الموجودة فى كتاب ابن عبد الحكم. أما عن كتاب «مغازى افريقية» أو «أخبار افريقية» لأبى جعفر أحمد ابن إبراهيم المتطبب المعروف بابن الجزار (٢٨٥ - ٣٦٩ هـ/ ٨٩٨ - ٩٨٠م): الورقات، قسم ١ ص ٣٠٦، ٣١٠) فقد وصلتنا منه نتف فى كل من مسالك البكرى وكتاب الاستبصار، ومنها يفهم أن ابن الجزار كان يعتنى بجمع الأساطير[٣٨]، التى ربما جمعها فى كتاب ثان له فى عجائب البلدان[٣٩].

أما إبراهيم بن القاسم المشهور بالرقيق القيروانى، والمعروف أيضاً بالرقيق النديم[٤٠]، صاحب ديوان الرسائل عند بنى زيرى الصنهاجيين والذى ترجع وفاته إلى ما بعد ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦م[٤١]، فهو يعتبر أشهر مؤرخى افريقية وبلاد القيروان - وإن كان قد جمع إلى جانب العناية بالتاريخ حب الأدب وهواية الشعر والسمر، وهذا ما يظهر فى اعتماد من أتى بعده من المؤرخين عليه، سواء كانوا من المشارقة مثل: ابن الأثير والنويرى، أو من المغاربة، مثل ابن عذارى وابن خلدون.

---

(٣٦) أنظر العبر، ج٦، ص ١٠٣ - ١١٠، والمؤلف، فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم، ص ١٥٦.

(٣٧) ابن عذارى، ج١ ص ١٣٩، ص ٣٢. وأنظر فيما بعد، ص٣٥، ص ٣٦.

(٣٨) أنظر للمؤلف، فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم، ص ١٨٠. وهذا لايقلل من قيمة كتابات ابن الجزار الذى يقدم لنا معلومات تاريخية جادة فى بعض ما وصلنا فى كتاب المقتبس لابن حيان. أنظر القطعة التى حققها عبد الرحمن الحجى، ط. بيروت ١٩٦٥، ص ٣٦ - ٣٨ (فى موضوع الفاطميين فى المغرب).

(٣٩) أنظر كتاب الجغرافية للزهرى، تحقيق محمد حاج صادق، مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسى بدمشق، ١٩٦٨، ص ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٩ .. إلخ. وحسن حسنى عبد الوهاب الورقات، قسم ١، ص ٣١٨ وما بعدها.

(٤٠) أنظر له، قطب السرور فى أوصاف الخمور، تحقيق أحمد الجندى، المقدمة، ص ج، هـ.

(٤١) أنظر مقدمة قطب السرور، ص ج.

ولتقييم كتاب الرقيق تكفى شهادة ابن الأثير له عندما ينقل عنه أخبار المغرب، رجحها على غيرها، قائلاً: ورب البيت أدرى بما فيه[٤٢]. وإذا كان كتاب الرقيق ي تاريخ افريقية والمغرب لم يصل إلينا، فلحسن الحظ أنه وجدت قطعة من تاريخ مغرب المبكر يرجح أنها بعض الكتاب، أو أنها نقلت من بعض كتب الرقيق. هذه القطعة التى تبدأ من أواسط القرن الأول الهجرى وتنتهى فى أواخر القرن الثانى هجرى، حققها ونشرها المنجى الكعبى، تحت عنوان: تاريخ افريقية والمغرب، لرقيق القيروانى[٤٣]، والأمل أن يسعد الحظ المشتغلين بتاريخ المغرب بالعثور على أجزاء أخرى من الكتاب إن لم يكن جميعه.

ولقد دلت تلك القطعة من تاريخ الرقيق - كما لاحظ المحقق بحق - أن لنقول من كتاب ما، مهما استفاضت، لاتغنى الباحثين عن الكتاب الأصيل[٤٤]، فبفضلها أمكن تحديد كثير من أماكن الوقائع وتحديد تواريخها وأسماء أبطالها، مما كان قد اختصره النقلة، والمثل لذلك أحداث الصراع بين زهير بن قيس، خليفة عقبة بن نافع، وكسيلة زعيم أوربة، وأخبار عودة موسى بن نصير إلى الشام، ووصف وقعتى الأصنام والقرن، وثورات الخوارج، واضطرابات الجند الأفريقى، وغيرها[٤٥]. هذا وإن كانت تلك القطعة تعانى الكثير من الخروم والصفحات الساقطة، إلى جانب تحريفات عديدة سواء فى النص أو فى أسماء المواضع والأشخاص، مما قد نشير إلى بعضه خلال الدراسة.

أما عن المصادر التى رجع إليها الرقيق فى تلك القطعة، فإنه يذكر عدداً من المشارقة، مثل: الزبير بن بكار، وابن سلام، والمدائنى، والواقدى، وبعض المغاربة، مثل سحنون بن سعيد ويوسف بن هشام، وخاصة ابن أبى حسان (توفى سنة٢٢٧هـ/٤١-٨٤٢ م)، الذى أورد عنه الكثير من الأخبار[٤٦]، والذى نظن أنه كان اخبارى القيروان فى زمانه. وهذا لايمنع بطبيعة الحال أن يكون الرقيق قد

---

(٤٢) أنظر الكامل، أحداث سنة ٥٠ هـ.

(٤٣) نشر السقطى، تونس ١٩٦٨.

(٤٤) أنظر مقدمة الكعبى، ص ٩ - ١٠.

(٤٥) نفس المقدمة، ص ١٢ - ١٤.

(٤٦) نفس المقدمة، ص ١٢، وعن أخبار ابن أبى حسان التى ملأت مجالس أمراء الأغالبة، أنظر على سبيل المثال فيما بعد، فى تاريخ الأغالبة، عهد زيادة الله الأول، ج٢ ص ٣٤ وهـ ٣ عن تشدد اليحصبى فى فتاواه ضد الثوار، وهـ ٣ ص ٣٩، عن قربه من الأمير.

أهمل ذكر غير هؤلاء ممن نقل عنهم، ومنهم بعض من ذكرنا من قدامى الاخباريين من قيروانيين ومغاربة.

كتب التاريخ العام:

ويأتى بعد ذلك النوع الثانى من مراجع تلك الفترة، التى تتمثل فى كتب التاريخ العام، وهى الأخرى على قسمين: الأول فى تاريخ المغرب، والثانى فى تاريخ المشرق بصفة خاصة.

فى الكتب المغربية:

ابن عذارى:

وأقدم ما وصلنا من القسم الأول كتاب ابن عذارى المراكشى، وهو «كتاب البيان المغرب فى أخبار المغرب» الذى بدأ تأليفه منذ أواخر القرن السابع الهجرى واستمر إلى حوالى سنة ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م، والذى كان يتمه القسم الخاص بالمشرق، واسمه «كتاب البيان المشرق فى أخبار المشرق»، الذى لم يصل إلينا. والجزء الأول من البيان المغرب يتناول تاريخ المغرب منذ الفتح إلى دخول الهلالية إلى المغرب، فى منتصف القرن الخامس الهجرى (١١م)، وما بعد ذلك من الأحداث. ورغم أن هذا الكتاب مختصر من وجه ومتأخر - بالنسبة للفترة التى ندرسها - من وجه آخر، إلا أنه يحتوى على روايات قدامى المؤرخين من المغاربة والأندلسيين، التى لم تصل إلينا والتى يحرص على ذكر أصحابها فى كل مناسبة، مما يزيد فى قيمته. ولقد عرف المستشرق الهولندى دوزى قيمة البيان فنشر منه، منذ أكثر من قرن وربع قرن، الجزء الأول الخاص بالمغرب والجزء الثانى الخاص بالأندلس (طبعة ليدن، ١٨٥١). ولكن الجزء الأول كان ينقصه قطعة كبيرة فى أوله تتناول حملة عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى، ولقد أكمل بروفنسال وكولان (Colin) هذا النقص فى طبعتهما الأخيرة لهذا الجزء بعد أن عُثر على مخطوط جديد من البيان(٤٧).

---

(٤٧) ولا باس من الاشارة إلى أن هذا المخطوط يحتوى على قسم ثالث خاص بتاريخ الموحدين مفصلاً. وكان بروفنسال قد نشر من البيان قسما خاصا بتاريخ الأندلس على أيام المرابطين جعله جزءاً ثالثاً بالنسبة لجزأى دوزى (طبعة باريز، ١٩٣٠). أما عن القسم الخاص بالموحدين. فلقد ظهر أن الكتاب الذى يتناول تاريخ الموحدين والذى نشره ويسى (Huici) على أنه لمؤلف مجهول، وذلك تحت عنوان Anonimo de Mad-:

=

وممن أخذ عنهم ابن عذارى ممن كتبوا فى تاريخ المغرب ولم تصل إلينا كتبهم: إبراهيم الرقيق (توفى بعد ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦م) الذى كتب فى تاريخ افريقية حوالى سنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧م، وابن شرف (توفى سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٨٨م)، وابن رشيق (توفى سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م)، ويوسف الكاتب المعروف بالوراق، وابنه محمد بن يوسف الوراق، القيروانى مولدا والقرطبى مماتا (توفى سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م)، والذى ألف للحكم المستنصر الأموى كتاباً فى تاريخ افريقية حتى أيامه[٤٨]، وابن القطان (توفى سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠م) صاحب «كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان»، الذى عثر بروفنسال على جزء منه خاص بنهاية المرابطين وبداية الموحدين[٤٩]، وهو الجزء الذى نشره محمود على مكى ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط.

ومن مصادر ابن عذارى كتاب لابن أبى الفياض الأندلسى (توفى سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م) فى تاريخ المغرب اسمه «العبر»[٥٠] الذى نقل عنه كثير من المتأخرين، وكتاب «الاستيعاب فى معرفة الأصحاب» ليوسف بن عبد البر النمرى،

= rid y Copenhague بالأسبانية و «كتاب التواريخ لابن بسام» بالعربية (مدريد - بلنسيا ١٩١٧)، ليس الا مختصراً لهذا القسم. وعلى ذلك فهو الجزء الرابع والأخير من بيان ابن عذارى (أنظر مقدمة بروفنسال للطبعة الأخيرة للجزء الأول من البيان (بالفرنسية) ص ٧. والحقيقة أنه أمكن التعرف قبل ذلك على أن الكتاب المجهول المؤلف الذى نشره ويسى هو لابن عذارى، بفضل مقارنة بعض نصوصه بالمقتطفات التى اقتبسها منه ابن الخطيب فى الاحاطة بأخبار غرناطة. ولقد نشر هذا الجزء بمعرفة ويسى وابراهيم الكتانى، تطوان، سنة ١٩٦٣.

(٤٨) أنظر، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، دراسة النص، ص ١٩٨. وقارن مقدمة دسلان (De Slane) لكتاب البكرى، طبعة ١٩١١، ص ١٦ (حيث يقول أنه يفهم من البكرى أن محمد بن يوسف قيروانى الأصل بينما يؤكد ابن حزم أنه أندلسى صميم من اقليم وادى الحجارة وهذا ما ينص عليه الحميدى فى جذوة المقتبس، مجموعة تراثنا، المكتبة الأندلسية، رقم ٣ ط، القاهرة، سنة ١٩٦٦، ترجمة رقم ١٦٠).

(٤٩) Pons Boigues p. 279 وعبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى تطوان ١٩٥٠، ص ١٨٤ وأنظر مقدمة كتاب أخبار المهدى (البيدق Documents in édits) بالفرنسية. ص ٥ هامش ١، ونص جديد عن فتح العرب للمغرب دراسة النص، ص ٢٠٠ وهامش ٢.

(٥٠) أنظر النص الجديد، ص ٢٠٠ وهامش ١ حيث الإشارة إلى F. Pons Bons Boigues, Ensayo bio -biliografico sobre los historiadores y géografos arabigospanoles Madrid, 1898, p. 138 (No. 103) وأنظر ابن الكرديوس، تاريخ الأندلس، تحقيق مختار العبادى، ط مدريد، المقدمة، ص ٢٠ (حيث الاشارة إلى أن ابن الكرديوس يسمى كتاب ابن أبى الفياض بـ «العبر» و «العبرة» و «صلة السمط وسمة المرط»).

القرطبى مولداً والشاطبى وفاة (٣٦٨ هـ/ ٩٧٨م - ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠م)[٥١].
ومنها كتاب للفقيه التاريخى أبى على صالح بن الشيخ أبى صالح عبد الحليم، نزيل نفيس. وهنا نشير إلى أن ابن هذا المؤرخ وهو عبد الله بن صالح بن عبدالحليم له كتاب فى أخبار البربر، ومنه قطعة صغيرة نشرها الأستاذ بروفنسال تحت عنوان «نص جديد عن فتح العرب للمغرب»، فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد سنة ١٩٥٤، بعد دراسة وتحليل لمادتها نشره فى العدد الأول من مجلة «ارابيكا Arabica»[٥٢].

وبفضل القطع التى احتفظ لنا بها ابن عذارى، من هذه الكتب الضائعة (إلى الآن)، أسدى خدمة جليلة لتاريخ المغرب الإسلامى، وضم «مجموعة قيمة من النصوص التى لاتقدر قيمتها» بثمن، كما يقول بروفنسال[٥٣].

البكـرى:

ومن أهم من نقل عنهم ابن عذارى أبو عبيد البكرى (توفى ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م) صاحب المسالك والممالك. ولحسن الحظ أنه وصلنا من هذا الكتاب الجزء الخاص بصفة المغرب (كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب - نشر دسلان De Slane الجزائر، ١٩١١). ورغم أن كتاب البكرى من كتب المكتبة الجغرافية العربية إلا أننا نذكره بين كتب التاريخ، نظراً للمعلومات التاريخية الهامة التى يحويها بين دفتيه، والتى جعلته مرجعاً لكل من أتى بعده من المؤرخين، من القدامى والمحدثين. وتتلخص أهمية كتاب البكرى فى أنه احتفظ لنا بمعلومات تاريخية نقلها من أمهات المصادر التى لم تصل إلينا، وأهمها مؤلفات محمد بن يوسف الوراق (٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م - ٣٦٣ هـ / ٩٧٤م) المعروف بالتاريخى[٥٤]، والذى ألف - تلبية لرغبة خليفة قرطبة الحكم المستنصر - عدداً من الكتب التاريخية والجغرافية عن افريقية. ومن هذه الكتب التى لم تصل إلينا

---

(٥١) نص جديد عن فتح العرب للمغرب، ص ٢٠٠ وهامش ٢، حيث يرجع بروفنسال إلى النص المطبوع على هامش الاصابة لابن حجر، طبعة القاهرة ١٣٢٣ - ١٤٢٧، ج٣ ص ١٠٨ - ١٠٩. وكتاب الاستيعاب من مجموعة كتب التراجم العامة.

(٥٢) أنظر النص الجديد، صحيفة المعهد المصرى بمدريد، ص ٢٠٢ (وقارن النص فى كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول دراسة تحقيق محمد يعلى، مجموعة المصادر الاندلسية رقم ١٠، مدريد ١٩٩٦، ص ٣٢٥٣.

(٥٣) نفس المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٥٤) أنظر فيما سبق، ص ٣٣ - ٣٦ والهوامش.

كتب فى تاريخ كثير من مدن المغرب، مثل تاريخ تونس، وتاريخ تاهرت، وتاريخ وهران، وتاريخ سبتة. وتاريخ نكور، وتاريخ البصرة (بصرة المغرب الأقصى)، وتاريخ سجلماسة[٥٥]. هذا، كما يفهم من المعلومات الدقيقة، وخاصة الاحصائية منها، أن البكرى نقل عن الوثائق والأوراق الرسمية القديمة التى كانت محفوظة على أيامه فى ديوان قرطبة[٥٦].

وأخيراً نلاحظ أن البكرى لايكتفى بالنقل من المؤرخين العرب، بل ينقل أيضاً من بعض مؤلفات كتاب الأفرنج فى تاريخ المغرب قبل الفتح العربى، مثل معلوماته عن حروب روما وقرطاجنة، وكذلك معلوماته عن المسيحية فى المغرب. ونحن نرى أن كثيراً من معلوماته عن المسيحية فى المغرب منقولة من كتب قديمة (سابقة للعصر الذى يدون هو فيه)، ولكنه يكاد يوقعنا فى الخطأ عندما يسجل هذه المعلومات على أنها معلوماته الخاصة[٥٧] وهذا ما يفسر كيف انفرد بمعلوماته عن انتعاش المسيحية فى المغرب حتى القرن الخامس الهجرى، وذلك ما لم يشر إليه غيره، حتى من كتاب العرب الأوائل، مثلما فعل المسعودى من قبل عندما كان ينقل بعض كتاب اللاتين القدماء ويتبعها بوضع التاريخ الذى يكتب هو فيه (سنة ٣٣٢ هـ / ٤٣ - ٩٤٤م)[٥٨].

ابن خلدون: العبر:

ويعتبر القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر لابن خلدون - إلى جانب المقدمة - من أهم مصادر تاريخ المغرب[٥٩]. فرغم تأخر ابن خلدون (توفى سنة

---

(٥٥) أنظر مقدمة دسلان (De Slane) للبكرى، ص ١٦.

(٥٦) نفس المصدر، ص ١٣ - ١٤.

(٥٧) أنظر فيما بعد، ص١٢٦ و هـ ٢٦٥ و ص١٣٢. ولابأس من الإشارة هنا إلى أن صاحب كتاب الاستبصار (ص ٨٨) الذى ينقل كثيراً عن البكرى، يفعل مثل ذلك عند كلامه عن مصر، فهو عندما يسجل رواية المسعودى (يكتب سنة ٣٣٢ هـ/ ٤٣ - ٩٤٤م) عن مدينتى تنيس ودمياط، التى تقول أنه يسكنها «نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله»، يضيف ونحن الآن فى سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠.

(٥٨) أنظر معلومات المسعودى عن قبر الاسكندر التى يوردها عند كلامه فى تاريخ ملوك اليونانيين (مروج الذهب، طبعة التجارية، ج ١ ص ٢٩٢). وأنظر للمولف فى ، تاريخ الإسكندرية الاسلامية فى كتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور، طبعة الاسكندرية سنة ١٩٦٣، ص ٢٣٩.

(٥٩) الحقيقة أن ابن خلدون كان يقصد فى أول الأمر كتابه تاريخ المغرب فقط قبل أن يجعل تاريخه عاما، وذلك لتخصصه فى معرفة أحوال بلاده، حتى يكون الكتاب أصيلا لا يعتمد على النقل كما فعل غيره، وهذا ما يسجله فى المقدمة عندما يقول: «وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى ...
=

٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) فإن كتابه لايعتبر مهماً بالنسبة للفترة المعاصرة له، بل بالنسبة لأقدم عصور المغرب العربى، وذلك للسببين المعروفين اللذين اختص بهما ابن خلدون، وأولهما: ملكة المؤرخ العبقرى الموهوب[٦٠] التى جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقى الشامل، الذى يتلخص فى أن الحدث التاريخى أكبر من أن يكون حدثاً سياسياً فقط، بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك النفسية أيضاً. وهذا ما دعا ابن خلدون إلى الكلام عن كل هذه الفنون فى المقدمة حتى جعل مفهوم التاريخ أشبه ما يكون بمفهوم الحضارة، أى جعله تاريخاً للأمم والشعوب بدلاً من سير الملوك والأمراء أو طبقات الأعيان. وهذا ما سماه البعض «فلسفة التاريخ» وهو فى الحقيقة ليس إلا التاريخ - كما ينبغى أن يكون.

أما عن السبب الثانى الذى يجعل للجزء الخاص بتاريخ المغرب (أو تاريخ البربر) أهمية خاصة، فهو أن معظم النظريات التاريخية التى استنبطها ابن خلدون كانت نتيجة لدراسته لتاريخ المغرب، إلى جانب تجاربه الخاصة أثناء عمله وتجوله فى خدمة ملوك الحفصيين فى تونس، وبنى عبد الواد فى تلمسان، وبنى مرين فى فاس، وبنى الأحمر النصريين فى غرناطة، قبل رحيله إلى مصر والشام. فنظرية العصبية، التى جعل منها أساساً لقيام الدول، مستمدة من تاريخ القبائل البربرية والعربية فى المغرب، فهى فى المغرب أوضح منها فى أى اقليم آخر، ولهذا السبب نجد أنه يكتب تاريخ المغرب أكثر من مرة، فهو يكتبه بشكل عام على أنه تاريخ

= لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه، وأن الأخبار المتناقله لا تفى كنه ما أريده منه» (المقدمة، طبعة التجارية، ص ٣٣). ولقد عرف الأوروبيون أهمية المقدمة والقسم الخاص بتاريخ المغرب، فطبعاً فى أوروبا أكثر من مرة كما ترجما إلى أكثر من لغة. ولقد كان تاريخ ابن خلدون موضع عناية البارون دسلان الفرنسى - الذى شغل منصب المترجم الرسمى للقوات الفرنسية فى الجزائر - الذى ترجم المقدمة تحت عنوان (Les Prolégoménes)، كما ترجم القسم الخاص بتاريخ المغرب تحت عنوان (Histoire de Berbéres). ولقد صار ابن خلدون موضع عناية العلماء والدارسين الأوربيين حتى فاقت الدراسات التى أتخذته موضوعاً لها غيرها من الدراسات الخاصة بغيره من أعلام مفكرى العروبة والإسلام أنظر مقدمة: W.J. Fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane, Barkeley - Los Angeles, 1952.

(٦٠) لا بأس من الإشارة هنا إلى ما يقوله جوتييه من أن بلاد المغرب ليس لديها من مشاهير الرجال الذين يمكن وضعهم فى طبقة ابن خلدون الا القلائل مثل هانيبال والقديس أغسطين (Gautier, Le passé de L'Afrique du Nord, p. 80).

دول ثم أنه يعود ليكتبه أكثر من مرة، عندما يستقصى أخبار القبائل كل على حدة.

وإلى جانب ذلك نضيف أن ابن خلدون بفضل علمه ومركزه الاجتماعى - كان فى موقف يسمح له بالاطلاع على أمهات مراجع تاريخ المغرب، وكثير من هذه المراجع لم يصل إلينا، وهو يذكر مراجعه فى بعض الأحيان، ولكنه يهمل الإشارة إليها فى أحيان كثيرة. فهو يعرفنا بنسابة البربر القدماء من العرب ومن أهل البلاد على السواء (انظر فيما بعد هـ ٦٨، ص ٤٣). وهو ينقل من البكرى الذى لم يصلنا من موسوعته إلا بعض من القطع أهمها صفة المغرب، وينقل من الرقيق وابن رشيق، وكذلك من ابن عذارى، ولو أنه لم يكلف نفسه مشقة الإشارة إلى كتاب هذا الأخير[٦١]، مما يذكر بأن ابن خلدون لم يلتزم فى كتابة تاريخه قواعد النقد التى أصر عليها فى المقدمة، فى الفصل الخاص بفضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والألماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط[٦٢]. هذا، كما أنه ينقل عن المغرب معلومات لبعض قدامى المؤرخين من المشارقة، مثل المسعودى الذى يتخذه نموذجاً للمؤرخ بفضل كتابه مروج الذهب، لأنه: «شرح فيه أحوال الأمم والآفاق ... وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف البلدان والجبال والبحار والمسالك والدول، وفرق شعوب العرب والعجم، فصار إماماً للمؤرخين»[٦٣] مثل الطبرى. ولانجد هذه المعلومات - حالياً فيما لدينا من كتبهم التى وصلتنا ملخصة أو مختصرة، كما هو معلوم.

فى الكتب المشرقية:

الطبرى وخليفة بن خياط:

إلى عهد قريب كان كتاب الطبرى يعتبر أقدم كتب التاريخ العام المشرقية التى تتبع نظام الحوليات فى سرد الأحداث، وذلك أن كتاباً آخر لواحد من أقدم وأشهر مؤرخى المشرق لم يكن قد رأى النور بعد، وهو تاريخ خليفة ابن خياط،

---

(٦١) أنظر نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصرى بمدريد سنة ١٩٥٤، ص ١٩٥.

(٦٢) أنظر المقدمة، طبعة التجارية، ص ٢٨.

(٦٣) وابن خلدون يعتبر المسعودى أستاذ البكرى فى المنهج (المقدمة، ص ٢٢). كما يعتبر نفسه خليفة له بالنسبة لعصره - رغم قصور المسعودى فى استيفاء أحوال المغرب - ويعتبر كتابه (البر) شبه بـ «صلة» لمروج الذهب. وهو فى نفس الوقت نموذج (أصل) لمن يأتى بعده من المؤرخين (المقدمة، ص ٣٣).

المتوفى حوالى سنة ٢٤٠ هـ - ٨٥٤م أى قبل وفاة الطبرى بأكثر من نصف قرن. ومن غريب الصدف أن ينال تاريخ خليفة بن خياط اهتمام باحثين دفعة واحدة هما سهيل زكار الذى نشره فى دمشق سنة ١٩٦٧ ، وأكرم العمرى الذى نشره فى النجف فى نفس سنة ١٩٦٧ ، كما نشر كتاباً آخر لابن خياط، قريب الصلة بالتاريخ، هو: كتاب الطبقات[٦٤] .

وإذا كانت رواية خليفة بن خياط تعتبر مختصرة جداً على وجه العموم بالنسبة لروايات الطبرى التى تتصف بالتعدد والإسهاب، فإن تاريخ ابن خياط يتميز بتتبع الأحداث خلال حولياته فى المغرب فى حرص شديد، وكأنه يحرص على الربط الزمنى بينها دون أن يسقط بعضها. وهذا ما يتجلى فى فتوح المغرب والأندلس حيث ذكر لكثير من الصوائف والشواتى فى البر والبحر جميعاً، مما لانجد لها نظيراً فى كتب التاريخ المبكرة الأخرى، مثل: ابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى، وكذلك القطعة التى نشرت من الرقيق القيروانى. وعن هذا الطريق تضاف مادة مشرقية جديدة إلى الأدب التاريخى الخاص بالمغرب والأندلس فى عصوره المبكرة (أنظر فيما بعد، ص ٤٢)، وإن كان عدد من أسماء المواضع والأشخاص فى كل من نشرتى دمشق والنجف مازال فى حاجة إلى التحقيق.

أما عن كتاب الطبرى (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م)، أشهر كتب التاريخ العام المشرقية، فإنه ينقل عن كثير من كتاب المغازى الأوائل الذين لم تصل إلينا كتبهم، مثل الواقدى (ولو أنه يكاد يثير الشك حول روايته عندما يسبقها فى كثير من الأحيان بكلمتى «وزعم الواقدى»، كما أشرنا، والمدائنى. ولكن عيبه أنه لم يهتم بالمغرب، مما أثار دهشة ابن الأثير عند حديثه عن فتح الأندلس. فبعد أن أورد الأسطر القليلة التى سجلها الطبرى، قال: هذا جميعه ذكره أبو جعفر فى فتح الأندلس، وبمثل ذلك الاقليم العظيم والفتح المبين لايقتصر فيه على هذا القدر، وأنا أذكر فتحها على وجه أتم من هذا - إن شاء الله تعالى - من تصانيف أهلها إذ هم أعلم ببلادهم[٦٥] .

---

(٦٤) واذا كنا لا نعرف عن حياة ابن خياط الا أنه ولد فى البصرة، فمن المعروف أنه كتب خمسة كتب لم يبق لنا منها الا الكتابان المذكوران: فى التاريخ وفى طبقات الرجال. أنظر ناجى حسن، دور القبائل العربية فى المشرق خلال العصر الأموى، رسالة دكتوراه بالانجليزية، ط، بغداد ٧٥ - ١٩٧٦، ص ١٤ . هـ ٩، ١٠ وأن كان لايذكر تحقيق العمرى.

(٦٥) ابن الأثير، أحداث سنة ٩٢.

ابن الأثير:

ولقد أكمل ابن الأثير (توفى ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م) هذا النقص عندما لخص كتاب الطبرى وسد ثغراته، فرجع إلى كتب أهل الثقة من المغاربة، ولو أنه أهمل الإشارة إلى مراجعه تلك. ويمكن بالمقارنة تحقيق بعض مصادر ابن الأثير، وأهمها كتب الرقيق ومحمد بن يوسف الوراق والبكرى، وفيما يتعلق بقيام الدولة الفاطمية يلخص ابن الأثير رواية القاضى النعمان فى كتابه افتتاح الدعوة، كما يأتى. هذا كما يتضح أن من بين معلومات ابن الأثير أشياء مستمدة من كتب أفرنجية قديمة فى تاريخ المغرب والأندلس قبل الإسلام(٦٦)، وليس بغريب على ابن الأثير أن يكون قد رجع إلى ترجمات هذه الكتب، ولم ينقلها عن سابقيه مثل المسعودى أو البكرى.

والحقيقة أن ابن الأثير مؤرخ محقق موهوب، فهو رغم اهماله ذكر مصادره فى كثير من الأحيان، يعتنى بصحة معلوماته. وهو فى ذلك، وفى النقد التاريخى له فضل السبق على ابن خلدون. ولقد ترتب على ذلك أن كتابه «الكامل» ليس مهما بالنسبة للقرون المتأخرة فقط، بل بالنسبة لأقدم العصور الإسلامية، وليس بالنسبة للمشرق فحسب – كما هو الحال بالنسبة للطبرى – بل بالنسبة لبلاد المغرب والأندلس أيضاً. ولقد تنبه الأوربيون إلى ذلك، فجمع فانيان (Fagnan) المعلومات الخاصة بالمغرب والأندلس من «الكامل» وترجمها إلى الفرنسية تحت عنوان «حوليات المغرب والأندلس» (Annales du Maghreb et de L'Espagne) هذا، كما أثبتت المكتشفات الحديثة من الوثائق والأوراق الرسمية صحة معلومات ابن الأثير عن تاريخ المغرب الأقصى فى القرن السادس الهجرى (١٢م)(٦٧).

---

(٦٦) أنظر فتح الأندلس فى ابن الأثير (أحداث سنة ٩٣) حيث المعلومات الخاصة بالملك ركرد (Recared) والمجمع الكنسى الذى قرر أن تكون الكاثوليكية هى الديانة الرسمية للبلاد (وقارن بروفنسال، تاريخ أسبانيا الإسلامية «بالفرنسية»، ص ٥).

(٦٧) E. Lévi - Provencal, Un Recueil de letters officielles almohades, étude diplomatique, Paris, 1942, pp. 30, 36, 38, 40 etc.

النويـرى:

وعن ابن الأثير نقل كثير من المتأخرين مثل ابن خلدون والنويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم توفى سنة ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢م). والقسم الخاص بتاريخ المغرب والأندلس من كتاب النويرى المعروف بنهاية الأرب فى فنون الأدب له أهمية خاصة. فرغم أن الكتاب (الذى مازال فى بعضه مخطوطاً لم ينشر بعد) عبارة عن موسوعة عامة كبرى فى الأدب والجغرافية والتاريخ والاجتماع (مثل صبح الأعشى للقلقشندى ومسالك الابصار للعمرى)، فإن الجزء الثانى والعشرين منه خصصه النويرى لتاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح العربى إلى أيامه[٦٨]. ورغم أن النويرى متأخر بالنسبة للفترة التى ندرسها، ورغم أنه ينقل كثيراً عن ابن الأثير إلا أنه احتفظ لنا بقطع نادرة من بعض الكتب التى لم تصل إلينا، وخاصة كتب المغاربة مثل الرقيق الذى ينقله بتفصيلاته دون حذف أو تغيير عندما يعرض لتاريخ الأغالبة، سواء فى افريقية أو فى صقلية.

وتاريخ المغرب للنويرى أشبه ما يكون بكتاب حديث فهو مرتب منسق، وهو لايهتم كثيراً بإيراد اختلافات الرواة، بل يأخذ بالرواية التى يفضلها. وإذا كان ذلك يمكن أن يعتبر من حسناته بصفته سهل التناول، يقصد إلى الغرض مباشرة، إلا أنه يضعف من قيمته كمصدر أصيل، إذا ما قورن بغيره من الكتاب الذين اعتنوا بتسجيل اختلاف الرواة فى المسألة الواحدة، تاركين الأمر لتقدير الباحث، أو مرجحين بعض الروايات على غيرها.

كتب التاريخ الخاص:

بعد هذا العرض لكتب المغازى وكتب التاريخ العام من مشرقية ومغربية مما

(٦٨) مخطوط دار الكتب، رقم ١٨٦٦٨ : ولقد نظرنا فى النسخة المصورة المحفوظة بمكتبة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية رقم ٢٢م وقارناها بما ترجمه منها دسلان De Slane فى ملاحقه لابن خلدون. ولقد نشر هذا الجزء وترجم بمعرفة جاسبار ريميره Gaspar Remira، غرناطة سنة ١٩١٥ - ١٩١٦، فى Re-vista del Estudios Historicos de Grenada y su reino وهنا لا بأس من الاشارة إلى موسوعة العمرى (توفى سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) المعروفة بمسالك الابصار، وبها جزء عن المغرب نقله إلى الفرنسية مع دراسة عميقة جودفروا ديمومبين (Gaudefroy - Demombynes)، ولكنه يتناول الفترة القريبة من المؤرخ. هذا ولقد نشر مخطوط دار الكتب بتحقيق حسين نصار بالقاهرة (ج ٢٤ سنة ١٩٨٣) كما نشرت نسخة غرناطية بتحقيق مصطفى أبو ضيف بالدار البيضاء سنة ١٩٨٤.

يرجع إليه في دراسة تاريخ المغرب بشكل عام منذ الفتح العربي وحتى الوقت الذى يتوقف عنده المؤلف، نستعرض كتب التاريخ الخاصة بدول المغرب التى ندرسها، وهي: دول الأغالبة والرستميين والأدارسة ثم دولة الفاطميين في بداية أمرها في المغرب.

في الأغالبة:

وفي الوقت الراهن لانجد تحت أيدينا مؤلفات خاصة بتاريخ الدولة الأغلبية. «فكتاب الأمير محمد بن زيادة الله بن الأغلب» الذى دون فيه أخبار أسرته إلى إلى ما قبل وفاته سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م»[(٦٩)] لم يصل إلينا، وكذلك الحال بالنسبة لتاريخ الرقيق أو الوراق وغيرهم من المؤرخين القيروانيين، وبذلك ليس أمامنا لدراسة تاريخ الأغالبة سوى كتب التاريخ العام من مشرقية ومغربية، وفي مقدمتها: كتب ابن الأثير، وابن عذارى، والنويرى.

وتظهر أهمية تاريخ النويرى بالنسبة للأغالبة في الروايات المستفيضة التى ينقلها من كتاب الرقيق، فكأنه لم يترك من كتاب القيروانى الشهير شيئاً. وهذا ما يميز روايته عن رواية ابن الأثير الذى اكتفى بتلخيص الرقيق والوراق والقاضى النعمان. وغيرهم من مؤرخي المغرب. وهكذا فإذا كان النقل دون تصرف مما يعيب الكتّاب - قديماً وحديثاً - فإننا نحمد للنويرى نقله المسهب من الرقيق، وعدم قناعته بنقل ملخصات ابن الأثير، كما فعل في غير تاريخ الأغالبة من المواضع.

وإذا كنا نحمد للنويرى أنه نقل الرقيق دون تصرف، فإن ابن عذارى له فضل ترتيب الأحداث التى نقلها من الرقيق ترتيباً تاريخياً موفقاً بفضل طريقته في الكتابة التى جمعت ما بين المنهج الزمنى، الممثل في الحوليات أو السنويات، والمنهج الموضوعى، الذى يعالج عيوب الطريقة الحولية باستيفاء الموضوعات الهامة في مناسباتها الموافقة. وهو المنهج التاريخي الذى نبغ فيه ابن الأثير، وسار على منواله من أتى بعده من الكتاب.

في الرستميين:

وفيما يتعلق بدراسة تاريخ خوارج المغرب ودولة الرستميين في تاهرت - يكاد

---

(٦٩) أنظر مقدمة لتاريخ أفريقيا والمغرب للرقيق، ص ١٥، وأنظر فيما سبق. ص ٣٢ وهـ ٣٣.

المؤرخ يفتقد المصادر المعتبرة بشكل تام، وهو الأمر المنطقى بالنسبة لحركات ثورية مناهضة لدولة الخلافة، ودويلات معادية لمجتمع أهل السنة، لاتجد من يكتب عنها – ليس بانصاف فقط بل وبكفاءة أيضاً – إلا فيما ندر. فكتّاب أهل السنة من رسميين وغير رسميين يقفون موقفا معادياً من جماعات الاباضية، ومن دويلات الأباضية، والصفرية نتيجة لعدم إطلاعهم المباشر على أحوال تلك الجماعات. وكتاب الخوارج أنفسهم متعصبون لأهل مذهبهم لايجدون إلا الروايات المنقبية التى يحتفظون بها لأنفسهم، فكأنها أدب سرى ليس للتداول خارج نطاق الجماعة، مما عرض كثيراً من كتبهم للضياع فى ظلال تلك السرية القائمة، إن لم يكن للتبديل والمسخ.

ابن الصغير:

هذا، وليس من الغريب ألا يصل إلينا فى تاريخ الدولة الرستمية إلا كتاب واحد معاصر، وعدد قليل من كتب السير والطبقات المنقبية، يرجع أقدمها، إلى القرن الخامس الهجرى (١١م). والكتاب المعاصر لابن الصغير «فى ذكر بعض الأخبار فى الأئمة الرستميين» هو الذى قدمه موتيلينسكى إلى المؤتمر الدولى الرابع للمستشرقين ونشره فى باريز ١٩٠٧ مع دراسة بالفرنسية[(٧٠)].

والمؤلف، ابن الصغير، مالكى من أهل تاهرت، دوّن كتابه حوالى سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣م على أواخر أيام الرستميين، فهو معاصر للأحداث، وهو فى موقف يسمح له بالكتابة بانصاف: إذ جمع فى شخصه بين حبه لبلده تاهرت، وعدم التحيز لأئمتها الأباضية، بصفته سنياً. وهذا ما يقرره بنفسه عندما يقول: إنه لن يحرّف ولا يزيد ولاينقص: فالنقص والزيادة ليس من شيم ذوى المروءات ولا من أخلاق ذوى الديانات، وإن كنا للقوم مبغضين، ولسيرهم كارهين، ولمذاهبهم مستقلين[(٧١)]. وهكذا لايعيب كتاب ابن الصغير إلا أنه تاريخ قصصى وليس تاريخاً سياسياً بالمعنى المطلوب. فهو يعتمد على الروايات الشفهية التى يسمعها من الأباضية عن الأحداث الخاصة بالأئمة منذ تأسيس الإمامة الرستمية فى تاهرت وقبل تأسيسها، مما مضى عليه مائة عام أو يزيد إلى جانب مشاهداته وما عاصره

(٧٠) Chrronique d'Ibn Saghir sur Ies Imams Rostemides de Tahert, par A.De.C, Motylins;i, Paris, 1907.

(٧١) أنظر ابن الصغير، ص ١٠.

من الأحداث، وبعض كتب المذهب الأباضية التى قرأها[٧٢].

وهكذا، فإذا كانت رواية ابن الصغير مهمة بالنسبة لبعض الأحداث التى مرّ عليها كتاب الأباضية مروراً سريعاً، فقد كان من المحتم أن تعانى فيه الروايات الشفهية، من: الطابع القصصى، والتعميم، وعدم القدرة على تحديد التواريخ. فهو مثلاً لايعرف مدة حكم أول أئمة تاهرت: عبد الرحمن بن رستم ويعتذر بقوله: «وقد كنت وقعت على عدد سني إمارته كم كانت، ولكن نسيتها مع مرور الأيام[٧٣] وإذا كان ابن الصغير قد أظهر فى هذا الموضع حساً تاريخياً عندما اعتذر عن ذكر سنوات حكم الإمام الأول، فهو يغفل تواريخ ولاية من أتى بعده من الأئمة، وبالتالى يضرب صفحاً عن ذكر سنوات حكمهم. هذا، إلى جانب ما أهمله من الأخبار الهامة مما يقلل من قيمة الرواية من وجهة النظر التاريخية، رغم ما تحويه من معلومات ثمينة انفرد بها ابن الصغير، وتميز بها عن بقية كتاب الأباضية، وخاصة بالنسبة للأحداث القريبة من عهده فى تاهرت.

أبو زكريا:

أما عمدة كتب الأباضية بالنسبة لتاريخ تاهرت الرستمية، فهو كتاب أبى زكريا يحيى بن أبى بكر الورجلانى، المعروف بـ «كتاب السير وأخبار الأئمة»، رغم أن صاحبه من رجال القرن الخامس الهجرى (١١م). ولقد نشر مسكراى الكتاب تحت عنوان أخبار أبى زكريا، فى سنة ١٨٧٨[٧٤]، ولكنه لما لم يتيسر لنا الرجوع إلى النص المنشور، فقد أطلعنا على مخطوط دار الكتب المصرية (رقم ح/ ٩٠٣٠).

والكتاب، كما يفهم من عنوانه، يجمع بين التاريخ الممثل فى أخبار الأئمة، وبين السير الممثلة في تراجم وأعمال مشايخ المذهب. فهو يستعرض تاريخ أئمة تاهرت واحداً بعد الآخر، ويجمع كل ما كان معروفاً عن الأباضية حتى وقت تأليفه – دون الإشارة إلى مصادره، وخاصة الأخبار المنقبية والمتعلقة بالانشقاقات المذهبية. ورغم الطابع القصصى لأخبار أبى زكريا التى يظهر فيها أثر أخبار الأئمة

---

(٧٢) ابن الصغير، ص ١٧.

(٧٣) ابن الصغير، ص ١٦.

(٧٤) E.Masqueray, Chronique d'Abou Zakria, Alger Paris 1878.

لابن الصغير فى عدد من المواضع، ورغم غلبة الطابع المنقبى المتمثل فى الكرامات والأخبار الأسطورية، فإن المؤلف يهتم فى بعض الأحيان بالتحديدات المكانية للأحداث، وضبطها من الناحية الزمنية، مما يعطيها طابع التاريخ السياسى الجاد، وإن كان ينقصه التوثيق. فهو يحدد إمامة عبد الرحمن بن رستم بسنة ١٦٠ هـ/ ٧٦ - ٧٧٧م، كما يشير إلى رأى من ذكر سنة ١٦٢ هـ/ ٧٨ - ٧٧٩م[٧٥]، وهو يحدد بعض مواقع الانشقاق الثانى على عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب بعشية الخميس ١٣ رجب سنة ٢٢١ هـ/ ٣ يولية ٨٣٦ م[٧٦]، مما يعنى أنه أطلع على بعض الكتب التاريخية الجادة، وإن أهمل الإشارة إليها. وهو يحدد بعد ذلك إمامة أفلح بـ ٦٠ (ستين) سنة، وإمامة محمد بن أفلح بـ ٤٠ (أربعين) سنة، وولاية يوسف بن محمد بـ ١٤ (أربع عشرة) سنة، كما يقدم تفصيلات جيدة - وسط الأخبار المنقبية - عن واقعة مانو الهامة، فى جبل نفوسة، بين الأباضية والأغالبة، وإن كان أهمل تحديد تاريخها[٧٧] (سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م) الذى نجده فى ابن عذارى.

وإلى جانب أخبار الأباضية يحتوى كتاب أبى زكريا على قطعة جيدة من أخبار عبيد الله المهدى، خاصة برحلته من المشرق إلى سجلماسة واستيلاء الداعى على تاهرت، نظن أنها مأخوذة من كتب الفاطميين الأولى، مثل: كتاب القاضى النعمان المعروف بافتتاح الدعوة، أو سيرة الحاجب جعفر بن محمد اليمانى، واستتار الإمام لأحمد بن إبراهيم النيسابورى، التى سنشير إليها، مما كان دارجاً بين أباضية المغرب فى القرن الخامس الهجرى (١١م)، بعد نقلة الفاطميين إلى مصر والقطيعة بينهم وبين بنى زيرى فى افريقية.

لكل ذلك لم يكن من الغريب أن يصبح كتاب أبى زكريا هو المصدر الذى نهل منه مؤرخو الأباضية والرستميين فيما بعد، كما أصبح النموذج الذى اقتدى به كتابهم فى العصور التالية.

الدرجينى:

وأهم من اقتدى بكتاب أبى زكريا، هو أبو العباس أحمد الدرجينى، فى

---

(٧٥) المخطوط، ص ١٣-١.

(٧٦) أنظر المخطوط، ص ٢٨ - ب.

(٧٧) أنظر المخطوط، ص ٣٣- أ.

كتابه المعروف بـ طبقات الأباضية»، الذى نظرنا فى مخطوطته بدار الكتب المصرية (رقم ١٢٥٦١ ح مصورة عن المخطوط الأصل رقم ٢٦١٢ تاريخ تيمور)، قبل أن نطلع على طبعة الجزائر التى قام بها إبراهيم طلاى (البليدة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م).

والدرجينى من رجال القرن السابع الهجرى (١٣ م)، وهو يسير فى كتاب الطبقات على نفس نهج أبى زكريا فينقله، ويضيف إليه إضافات من عنده. وبناء على ذلك ؛فإن ما وجهناه من نقد أو تقريظ لكتاب أبى زكريا ينطبق على طبقات الدرجينى. فهو كتاب منقبى يحتوى على أخبار أئمة تاهرت وسير مشايخ المذهب التى كانت معروفة على أيام المؤلف، من تاريخية وأسطورية. وإذا كان الدرجينى قد أضاف إلى معلومات أبى زكريا بعض التحديدات الزمنية، كما اعتنى بتزويدها ببعض المعلومات التاريخية عن خوارج المشرق وأباضية المغرب، كتلك التى نقلها من مسالك البكرى، منسوبة إليه(٧٨) أو إلى من أخذ عنهم مثل: محمد الوراق(٧٩)، وعن بداية عبيد الله المهدى نقلاً عن الرقيق فى تاريخ أفريقية(٨٠)، مما يسمو بمستوى الروايات القصصية نحو مستوى المعلومات التاريخية، فإن فضل السبق يبقى لأبى زكريا الذى يظل كتابه المصدر الأول للدرجينى.

الوسيانى:

ومن كتب الأباضية التى تعتبر كهمزة الوصل بين كتاب أبى زكريا وكتاب الدرجينى، من الناحية الزمنية على الأقل، «كتاب السير» لأبى الربيع سليمان بن عبد السلام الوسيانى، الذى أطلعنا على مخطوطته المحفوظة بدار الكتب المصرية (رقم ح / ٩١١٣)(٨١).

والواضح من التواريخ التى يقدمها الوسيانى فى الكتاب أنه من رجال القرن

٧٨) أنظر المخطوط، ص ١٩ – ب.
(٧٩) أنظر المخطوط، ص ٣٠ – أ.
(٨٠) أنظر المخطوط، ص ٤٠ – ب.
(٨١) ولقد تقدمنا بدراسة لهذا الكتاب إلى مؤتمر تاريخ المغرب بتونس – ديسمبر ١٩٧٤ – جعلنا عنوانها: «هامش على مصادر تاريخ الأباضية فى المغرب: دراسة لكتاب السير لأبى الربيع سليمان عبد السلام بن حسان بن عبد الله الوسيانى، من مخطوطات دار الكتب المصرية..» – نرجو أن يكون قد تم طبعه، وأملنا أن نجعل تلك الدراسة مقدمة للكتاب – الذى يقسمه صاحبه إلى ثلاثة كتب، لكل منها مقدمته الخاصة وخاتمته – اذا وفقنا الله إلى تحقيقه ونشره عما قريب.

السادس الهجرى (١٢م)، ومن دراسة تلك التواريخ يمكن القول أنه توفى فى أوائل النصف الثانى من ذلك القرن، وهو لذلك يعتبر خليفة أبى زكريا بين مؤرخى الأباضية. وكتاب السير للوسيانى من نوع الطبقات المنقبية فى أخبار مشايخ جبل نفوسة، بلد المؤلف، فهو إذن من النوع القصصى، رغم اجتهاد الوسيانى فى تحرى الصحة، كما يقول فى المقدمة ودعوته من يجد غلطا فى الكتاب أن يصلحه[٨٢]. أما عن الغرض من الكتاب، مثل غيره من كتب المناقب، فهو تربوى، كما ينص المؤلف فى خاتمة الجزء الثانى، إذ يقول: «تمّ ما وجدت من سير المشايخ رحمة الله عليهم ورضوانه لديهم، وفقنا الله لاتباع سيرهم السنية والتخلق بأخلاقهم النيرة، وعصمنا من نبذها والتهاون بها. وأفاض علينا سجال بركاتهم، وحشرنا فى زمرتهم، آمين يارب العالمين[٨٣].

هذا، ويمكن أن يوضع الكتاب أيضاً - مثل سير أبى زكريا وطبقات الدرجينى - بين كتب الفقه، وذلك أن من أهدافه: التعريف بقواعد الفقه الأباضى، من أجل تنظيم حياة الناس العامة والخاصة، ؛وهو الأمر الذى يظهر فى فتاوى المشايخ[٨٤].

وعلى وجه العموم فالوسيانى يعرض لنا آثار علماء الأباضية ومشايخهم منذ قيام الدولة الرستمية - حيث يستعين بكتاب أبى زكريا - وحتى أيامه، إلى جانب عنايته بمعاصريه والقريبين منه من رجال القرنين الخامس والسادس الهجريين (١٢، ١٣ م). ولكل ذلك فالكتاب مهم، من حيث: التعريف بالرجال، والمواضع الجغرافية والطبوغرافية (الخطط). وهو يحتوى على معلومات مفيدة لدراسة المجتمع الأباضى، على المستويات الاقتصادية، والاجتماعية والدينية، مما استفدنا منه فى الدراسة. أما من حيث التاريخ السياسى فهو يعرض لبعض

(٨٢) المخطوط، ورقة ٢ وجه.

(٨٣) المخطوط، ورقة ١٣٧ ظهر.

(٨٤) ولا بأس من الاشارة هنا إلى واحد من كتب الفقه الأباضى الهامة، هو كتاب: أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلانى (قرن ٦ هـ، ١٢م) المسمى ب «كتاب الدليل لأهل العقول (طبع حجر بالقاهرة)، الذى يعتبره الاباضية من أهم مراجعهم المذهبية. انظر علوش (L.S. Allouche) الذى يترجم فصلين من هذا الكتاب، أولهما عن تفنيد رأى الأشاعرة فى مسأة الصفات وعدم خلق القرآن، وثانيهما فى الوعد والوعيد، مجلة هسجريس (Hespéris)، جزء ٢٢، ١٩٣٦، فصله ١.

الخارجية بين المجتمعات الأباضية والدول السائدة فى المغرب فى حينه.

وهكذا يكون كتاب الوسيانى فى سير علماء ومشايخ الوهبية فى جبل نفوسة حلقة فى سلسلة كتب المناقب الأباضية فى المغرب، التى تكمل بعضها بعضاً. فهو صلة لكتاب أبى زكريا كما يعتبر كتاب الدرجينى صلة له، وإن كان كل من كتابى أبى زكريا والدرجينى لهما طابع تاريخى مميز، بعد أن استفادا من الكتاب التاريخى الأول، وهو كتاب ابن الصغير. أما أقرب الكتب الأباضية إلى كتاب الوسيانى، فهو كتاب القرن العاشر الهجرى (١٦ م) الذى ألفه الشماخى، والذى أصبح من أهم المراجع التى يعتمد عليها الدارسون، مما يجعلنا نرجح أن كتاب الوسيانى كان النموذج الذى اقتدى به الشماخى.

الشماخى:

والشماخى هو أبو العباس أحمد بن أبى عثمان سعيد بن عبد الواحد الشماخى نسباً، اليفرنى بلداً، ويفرن من قرى جبل نفوسة. ورغم تأخر الشماخى (توفى سنة ٩٢٨ هـ/ ٢١ - ١٥٢٢م) فإن لكتابه المعروف بالسير أو سير مشايخ جبل نفوسة، أهمية خاصة ليس بالنسبة للفترة المتأخرة من تاريخ الخوارج الأباضية بالمغرب، بل بالنسبة لأقدم العصور، من: ثورات الخوارج الأولى إلى تاريخ الرستميين فى تاهرت وجبل نفوسة[٨٥]. فلقد جمع الشماخى كل ما تراكم فى المغرب من الأدب الأباضى على مستوياته المختلفة، من سياسى ودينى واقتصادى، وضمنه كتابه فى ثنايا سير الأئمة والعلماء والمشايخ. وميزة الشماخى أنه فقيه عالم بأصول المذهب وفلسفته وتاريخ ظهوره فى المغرب، وهو لايكتفى بالنقل بل ينتخب رواياته من كتب السابقين مثل ابن الصغير وأبى زكريا. ويحسن عرضها، حتى تلك التى تتسم بالطابع الأسطورى، ويعرضها عرضاً مقبولاً لايجافى العقل أو سلامة الحس. وهو يبدأ بعرض أحوال الدولة العربية فى صدر الإسلام، ويلقى الأضواء على الفتنة أيام عثمان، وظهور فرق الخوارج الأباضية، ويتكلم على طبقات المشارقة منهم، من أهل الكوفة والبصرة واليمن، كمقدمة لمقصده الأول، وهو: «التعريف بمشايخ المغرب وأئمتهم وكرامتهم ومناقبهم».

---

(٨٥) طبع حجر، القاهرة، بدون تاريخ.

وهكذا ختم الشماخي سلسلة الروايات الأباضية المنقبية في المغرب مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي. وإن بقيت بعد ذلك مؤلفات أسرة الباروني النفوسية الطرابلسية التي أحيت الدراسات في وقتنا المعاصر.

البـاروني:

وكاتب البارونية الأباضي هو سليمان بن الشيخ عبد الله الباروني، صاحب كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية[٨٦]. ولقد أطلعنا على مجلد القسم الثاني من الكتاب، وهو الخاص بمدينة تاهرت (تيهرت) وأئمة بني رستم فيها، ويحتوي على مقدمة جغرافية مطولة في أقوال الكتاب في مدينة تاهرت وغيرها من مدن الأباضية، إلى جانب صفحات في علماء الأباضية والمشكوك في أمره منهم، منقولاً من كتب التراجم المغربية والأندلسية مثل ابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) وابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) والضبي (ت ٥٩٩ هـ) وابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ).

أما عن أئمة الرستميين فهو يجمع مادته من كتب التاريخ والتراجم الأباضية، مثل: ابن الصغير والشماخي وهو ينص على الأخذ منهما، ولابأس في أن يكون قد نظر أيضاً في كتب أبي زكريا والدرجيني حيث تظهر روايتهما، إلا إذا كان النقل عنهما بطريق غير مباشر، كما يأخذ من ابن خلدون. ومن أهم ما يتميز به كتاب الأزهار الرياضية هو اهتمام المؤلف بتوثيق روايته برسائل الأئمة إلى عمالهم ورعاياهم، وكذلك الرسائل المتبادلة بين أهل الدعوة في المغرب وإخوانهم في المشرق، وهو الأمر الذي يعطي قيمة وثائقية كبيرة للكتاب، وإن كنا لانعرف نصيب هذه الرسائل من الصحة أو الخطأ.

أما آخر ما ظهر من كتب الأباضية المعاصرين، فهو كتاب علي يحيى مُعَمّر، وعنوانه: الأباضية في موكب التاريخ[٨٧]. والكتاب رغم جدته من نوع التراجم التقليدية، وميزته أنه جمع مادة لابأس بها من الكتب الأباضية الحديثة، مثل كتاب: الشماخي وآل الباروني، و «قطب الأئمة» محمد يوسف طَفِيش.

---

(٨٦) طبع على ورق أصفر، بمعرفة المؤلف في مطبعة الأزهار البارونية.

(٨٧) أنظر الجزء الأول في: نشأة المذهب الاباضي ط. القاهرة أكتوبر ١٩٦٤. والجزء الاثني، في: الاباضية في ليبيا. ط. القاهرة، أغسطس ١٩٦٤م.

في الأدارسة:

وفيما يتعلق بتاريخ الأدارسة لم تصلنا كتب متخصصة، كما هو الحال بالنسبة للأغالبة. وبناء على ذلك فنحن نرجع إلى كتب التاريخ العام من مشرقية ومغربية، مما ذكرناه، بالإضافة إلى مسالك البكرى الذى يقدم مادة تاريخية قيمة عن أدارسة فاس وأدارسة المغرب الأوسط.

ابن أبى زرع:

ولكنه بشئ من التساهل نذكر هنا كتاب ابن أبى زرع (أبو العباس أحمد - توفى بفاس فيما بين سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م وسنة ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠م) المعروف بروض القرطاس (كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس). فالحقيقة أنه رغم تأخر الكتاب نسبياً إلا أنه اهتم بأخبار مدينة فاس منذ إنشائها، وبالتالى بأخبار الأدارسة الأوائل. ولقد جمع ابن أبى زرع عدداً عديداً من المعلومات الخاصة بقيام الأدارسة وبناء فاس من مصادر وصل بعضها إلينا، بينما البعض الآخر مازال فى حكم المفقود. فممن وصلت إلينا كتبهم يذكر القرطاس كتابى البكرى وصاحب الاستبصار فى عجائب الأمصار. والغريب أن بعض الأخبار التى يوردها ابن أبى زرع منسوبة إلى صاحبى هذين الكتابين، لاتوجد فى كتابيهما اللذين بين أيدينا الآن، مما يدعو إلى الظن أن كتابى البكرى والاستبصار ربما تناولتهما أيدى التغيير والتبديل حتى وصلا إلينا فى غير شكلهما الأصيل[٨٨].

أما أصحاب الكتب المفقودة - ممن ينقل عنهم - فأشهرهم أبو مروان عبد الملك بن موسى الورّاق، صاحب كتاب «المقباس فى أخبار فاس»، الذى كان يكتب فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (١٢ م)، على ما يظن[٨٩]،

---

(٨٨) أنظر كتاب الاستبصار، المقدمة ص ب، وعن البكرى، أنظر فيما بعد فى تاريخ الأداب (عن امامه ادريس الثانى)، ج ٢ص ٤٢٧.

(٨٩) ابن عذارى، ج١ ص ٢٥٣، وانظر بروفنسال، تأسيس مدينة فاس (فى: Islam d'Occient, Paris, 1948) النص الفرنسى، ص ٢١ هامش ٣٨ ص ٣٨ والترجمة العربية (الإسلام فى المغرب والأندلس، إدارة الثقافة العامة، مصر) ص ٣١ والهامش. ويحدد بروفنسال ذلك التاريخ مستنداً إلى رواية منسوبة إلى عبد الملك الورّاق هذا، يقول فيها أنه دخل مسجد تلمسان فى سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م وشاهد النقش الذى كان على المنبر. ولكنه توجد رواية أخرى فى القرطاس - وهى النسخة التى أطلعنا عليها - تحدد تاريخ ذلك بسنة ٣٥٥ هـ وليس ٥٥٥ هـ (وانظر فيما بعد، ص ٣٨٦ وهامش ١٢١).

والذى لاينبغى خلطه بمحمد بن يوسف الوراق القرطبى (توفى ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣م) صاحب التواليف الذى نقل عنه البكرى كثيراً[٩٠]. وينقل ابن أبى زرع عن مؤرخ ثان اسمه ابن غالب، لانعرف عنه إلا أنه ألف كتاباً فى تاريخ المغرب، وأن عبد الملك الورّاق ينقل – فى كتابه المسمى «المقباس فى أخبار فاس» – عنه[٩١]. وأخيراً يذكر صاحب القرطاس مؤرخاً يلقبه بالبرنسى، وهو محمد بن حماده البرنسى، الذى عاش فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (١٢م)، وكان تلميذاً للقاضى عياض اليحصبى (توفى سنة ٥٤٤ هـ/ ٤٩ – ١١٥٠م)، وكان له كتاب فى تاريخ المغرب والأندلس عنوانه «المقتبس»[٩٢]، إلى جانب كتابه فى ملوك بنى عبيد الذى يأتى ذكره.

بفضل هذه المادة الغزيرة والفريدة فى نوعها، أصبح كتاب روض القرطاس رغم تأخره النسبى ورغم ما يؤخذه عليه من عدم الاهتمام بالمنهج التاريخى أو افتقاده إلى روح النقد العلمى[٩٣] – أهم مصدر عن قيام دولة الأدارسة وتأسيس مدينة فاس وتخطيطها فى أيامها المبكرة، لايضاهيه فى ذلك إلا كتاب البكرى. وعن القرطاس نقل المتأخرون مثل الجزنائى (ق ٨هـ / ١٤م) صاحب «زهرة الآس»، وابن القاضى (يكتب فى أواخر القرن العاشر الهجرى/ ١٦م) صاحب «جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس».

فى قيام الدولة الفاطمية:

يعانى الباحث فى تاريخ الدولة الفاطمية من قلة المصادر المعاصرة، كما هو الحال بالنسبة لدول الأغالبة والرستميين والأدارسة، رغم أن المقارنة بين دولة كتامة الافريقية بعد أن أصبحت خلافة عظمى فى القاهرة وبين تلك الدول لاوجه لها. فأهم مصادر تاريخ الدولة الفاطمية الموجودة بين أيدينا الآن، هى

---

(٩٠) المصدر السابق، وانظر فيما سبق، ص ٣٣، ٣٦، ٣٧ وما يأتى ص ٦٠ و هـ ١٠٦.

(٩١) أنظر بروفنسال، تأسيس فاس، النص الفرنسى، ص ٢١ والترجمة العربية، ص ٣١ (تنسب المقباس لابن غالب). ويجب أن نشير هنا إلى أنه لابأس من أن يكون ابن غالب هذا من رجال القرن الرابع الهجرى (١٠م)، وذلك أن الرواية المنسوبة إلى الوراق عن رؤيته لمنبر جامع تلمسان تجعل لذلك تاريخين هما سنة ٥٥٥ هـ وسنة ٣٥٥ هـ (كما فى الهامش قبل السابق) وربما كان التاريخ الثانى خاصاً برواية ابن غالب ثم تحور عندما نقله الوراق حتى يناسب عصره، وهذا ما نرى له مثيلاً عند بعض الناقلين (أنظر فيما سبق عن المسعودى والبكرى – ص ٣٧ – ٣٨).

(٩٢) بروفنسال، تأسيس فاس، النص ص ٢١ وهامش ٤٠ ص ٣٨ والترجمة ص ٣٢.

(٩٣) أنظر نقد جوتييه (Gautier) للكتاب، وخاصة ص ٧٧.

لكتاب من العصر المملوكي، من رجال القرن التاسع الهجرى (١٥م)، مثل: المقريزى - مؤرخ مصر الشهير. ولاشك أن الاعتماد على مصادر متأخرة عن الفترة التى ندرسها بخمسة قرون أو ستة لمما يقلل من شأن النتائج التى تصل إليها الدراسة.

ولحسن الحظ أن رأى النور مؤخراً عدد من المؤلفات الفاطمية المعاصرة للفترة التى ندرسها، أهمها مؤلفاً القاضى النعمان: دعائم الإسلام[٩٤]، وافتتاح الدعوة[٩٥]، ثم مذكرات فى حركة المهدى الفاطمى[٩٦]. وإلى جانب ذلك نذكر كتاب ابن حماده فى سيرة ملوك بنى عبيد الذى نشره وترجمه إلى الفرنسية فوندرهايدن[٩٧]. أما كتاب المقريزى المعروف باتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الخلفا[٩٨]، فإنه مازال يحتل مركز الصدارة بين مصادر العصر الفاطمى الأول.

القاضى النعمان:

وكتاب دعائم الإسلام يعتبر المرجع الأول لدراسة المذهب الفاطمى، فالقاضى النعمان (ت٣٦٣ هـ/ ٩٤٧م) خدم الخلفاء الفاطميين الأوائل منذ المهدى حتى المعز، كما مارس القضاء فى كل من طرابلس والمنصورية، مما جعله المشرع الأكبر للفاطميين[٩٩]. ومما يزيد فى أهمية الكتاب الذى يعالج أصول التشيع وفروعه وفلسفة وجوده، أنه ألف بأمر الخليفة المعز حتى أنه اعتبر من عمل المعز نفسه.

---

(٩٤) دعائم الإسلام، وذكر الحلال والحرام، والقضايا والأحكام، تحقيق أصف بن على أصغر فى جزءين، دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

(٩٥) رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضى، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٠.

(٩٦) استتار الإمام وسيرة جعفر، تحقيق ڤ. ايفانون، مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية، المجلد ٤. ج٣ - ديسمبر ١٩٣٦.

(٩٧) منشورات كلية الآداب بالجزائر، الجزائر - باريز، ١٩٢٧ - وصاحب الكتاب يعرف هنا بابن حماده وهو ما قد يوجد فى بعض المصادر (ابن خلدون، ج٧ ص ٤٣). ابن عذارى الذى يرجع إليه كثيراً فى تاريخ المرابطين فهو لايعرفه بابن حماذة (البيان ج ١ ص ٣٠٢ و ٢٢٧. وكذلك القطعة المنشورة بمعرفة ويثى ميراندا فى مجلة هسبريس ١٩٦٠، والتى علق عليها احسان عباس، ونشرت فى بيروت ١٩٦٧ على أنها الجزء الرابع من الكتاب، ص ٧٤، ٩٩، ١٠٤ ... إلخ).

(٩٨) تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧.

(٩٩) أنظر مقدمة المحقق، ص ١١ - ١٢.

والجزء الأول يشتمل على دعائم التشيع في سبع كتب، في: الولاية والطهارة، والصلاة، والجنائز، والزكاة، والصوم، والحج ثم الجهاد، بينما يشتمل الجزء الثاني على، ٢٥ (خمسة وعشرين) كتاباً، في: البيوع، والإيمان، والنذور، والأطعمة، والأشربة، ؛والطب، واللباس، والصيد، والضحايا، والنكاح، والطلاق، والعتق، والعطايا، والوصايا، والفرائض، والديات، والحدود، والسرّاق، والردة، والبدعة، والغضب، والعارية، واللفطة، والقسمة، والبنيان، والشهادات، والدعوة، وأخيراً أدب القضاة، مما يعنى كل ما يمس حياة الناس اليومية، على المستويين الديني والاجتماعي.

والقاضى النعمان الذى يظهر، فى الدعائم، كمشرع الفاطميين الأكبر، يظهر فى افتتاح الدعوى كقصّاص إخبارى نابه، ومؤرخ من النوع الموهوب. والخليفة المعز أيضاً هو صاحب فكرة هذه الرسالة التى كتبت سنة ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م[١٠٠].

ويسرد النعمان فى افتتاح الدعوة قصة تنظيم الدعوة الفاطمية فى المغرب منذ بداياتها الأولى على أيام الإمام جعفر الصادق، ويبين علاقتها بدعوة اليمن، قبل أن يعرف بأبى عبد الله الداعى، وكيف عهد إليه بإظهار الدعوة فى كتامة. وفيما يتعلق بنشر الدعوة فى كتامة، وتنظيم أنصار مذهب المهدى هناك، يقدم لنا افتتاح الدعوة معلومات تفصيلية قيمة. هذا، كما أنه ينفرد – على مستوى التاريخ السياسى، من: الصراعات الداخلية بين القبائل، ثم الحرب المكشوفة مع الأغالبة، التى انتهت بدخول القيروان، وتاهرت، وسجلماسة حيث تم انقاذ المهدى – بتقديم المعلومات التفصيلية التى نقلها عنه المتأخرون والتى رفعته، كما نرى، إلى مستوى كبار المؤرخين.

وهذا ما بينته المحققة فى دراستها النقدية، فى المقدمة، حيث أشارت إلى نجاح القاضى النعمان، بفضل التزامه بحدود موضوعه فى الإطار الفاطمى دون الخروج به إلى رحاب التاريخ العام أو حتى المغربى، فى إظهار الدعوة العبيدية كدعوة متسلسلة الأحداث متكاملة العناصر. وذلك ما لم ينجح فيه من نقلوا عنه أو اختصروه من كتاب التاريخ العام مثل: ابن الأثير، والدوادارى، وابن خلدون،

(١٠٠) أنظر مقدمة المحققة، ص ٢٠ ، وهو التاريخ الذى يسجله النعمان فى نهاية الكتاب.

والمقريزى - إذ تفرقت الأحداث على مختلف السنين أو الفصول، فتقطعت أوصال الرواية، وتداخلت عناصرها فى غيرها من المواد، وفقدت بذلك ما كانت تتصف به من السلاسة، والانسجام.

وبطبيعة الحال لايعنى ذلك أن رواية النعمان فى افتتاح الدعوة فوق مستوى النقد، فقاضى القضاة ما كان يمكنه أن يتجرد من تحيزه للدولة التى كان يخدمها، وخاصة أنه كتب بطلب من الخليفة المعز، مما جعله من نوع الكتاب الملكيين، وجعل كتابه، على كل حال، من ذلك النوع من الكتب المنقبية التى رأينا نماذج لها عند أهل السنة فى القيروان، وعند الأباضية فى تاهرت وجبل نفوسة، وإن لم يشوبه ما شابها من اختلاط الحقائق بالأساطير.

وتتضح تلك الحقيقة عندما نقارن رواية افتتاح الدعوة بقصتى: استتار الإمام (لأحمد بن إبراهيم النيسابورى الذى كان معاصراً للخليفة المعز)، وسيرة جعفر الحاجب (لمحمد بن محمد اليمانى الذى كان من خدام الفاطميين، والذى كتب على أيام المعز أيضاً بعد سنة ٣٤١ هـ/ ٩٥٣م). فرغم أن النصين القيمين يلقيان بالضوء على بعض الأحداث التاريخية الغامضة من بداية الدعوة الفاطمية فى الشام وعلاقاتها بالقرامطة، ويقدمان رواية شاهد العيان المطلع على بواطن الأمور فيما يتعلق بتنظيم الدعاية الفاطمية فى المشرق وبرحلة المهدى إلى سجلماسة، فإنهما يظلان من نوع التاريخ القصصى الذى يكتبه غير المختصين. ويظهر ذلك بشكل خاص فى سيرة جعفر الذى يمزج الأحداث الجادة بالروايات الأسطورية، مما يجعل سيرته من النوع المنقبى - رغم معلوماتها الثمينة، التى يظهر فيها فى بعض الأحيان أثر رواية القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة.

ولقد كانت قصتا استتار الإمام وسيرة جعفر، مثلهما مثل افتتاح الدعوة، محل عناية الكتاب الذين عالجوا بداية الدعوة الفاطمية، ويظهر ذلك عند صاحب الاستبصار والمقريزى كما يظهر عند كتاب الأباضية كأبى زكريا والدرجينى، فى الفصول التى تعرضوا فيها لقيام الفاطميين ونهاية الرستميين.

ويتميز كتاب اتعاظ الحنفا للمقريزى، بأنه نقل كثيراً من معلومات كتب الفاطميين هذه إلى جانب روايات غيرهم من الكتاب والمؤرخين، من أعداء الفاطميين من رجال الخلافة العباسية ومن العلويين، ومن المتعاطفين معهم من

كتاب أهل السنة ومن الشيعة.

وإذا كان المقريزى قد نقل عن كتب مازالت موجودة بين أيدينا، مثل: تاريخ الطبرى: وفهرست ابن النديم وكامل ابن الأثير، وعبر ابن خلدون، فإنه قد احتفظ لنا بقطع نادرة من كثير من الكتب الأصيلة التى لم تصل إلينا، مثل: سيرة المعز للحسن بن زولاق، والطعن على أنساب الخلفاء الفاطميين لأخى محسن، وتاريخ افريقية والمغرب لعبد العزيز بن شداد. وغيرها مما ذكره الشيّال فى الدراسة[١٠١]. ومما أهمل المقريزى ذكره بين مراجعه، كما نظن.

وهكذا يظل كتاب اتعاظ الحنفا، رغم تأخره الزمنى، أو فى مرجع لدراسة تاريخ الفاطميين سواء فى مصر أو فى المغرب[١٠٢].

وتظهر أهمية اتعاظ الحنفا بالنسبة للدراسة عند مقارنته بـ «أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم» لابن حمادُه. فالكتاب الأخير مختصر عام فى تاريخ الفاطميين، يكتفى برسم الخطوط العريضة لذلك التاريخ دون الدخول فى تفصيلاته المسهبة، ولا فى متاهات موضوعاته الغامضة أو التى كانت محل خلاف بين الكتاب.

وصاحب الكتاب - الذى عرف به المحقق فى مقدمته، بمساعدة كتاب عنوان الدراية فى مشايخ بجاية للغبرينى - هو أبو عبد الله محمد بن على ابن حمادُه بن عيسى بن أبى بكر الصنهاجى (مولده فى منطقة قلعة بنى حماد حوالى سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٠م، ووفاته سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠م). وإلى جانب أخبار العبيديين يذكر لابن حمادُه كتاب فى تاريخ مدينة بجاية عالج فيه تاريخ أمراء الصنهاجيين الذين ينتسب إليهم، وكان الكتاب معروفاً على أيام ابن خلدون الذى نقل منه.

وابن حمادُه يجمع معلوماته، كما يشير فوندرهايدن فى مقدمة الترجمة الفرنسية، من الكتب التى وقعت بين يديه، مثل كتاب الرقيق الذى يظهر أثره فى

---

(١٠١) أنظر المقدمة، ص ٢٦، ص ٢٨ - ٢٩.

(١٠٢) وهنا نود الإشارة إلى أنه من الواضح أن الكتاب ظهر فى نسختين، كانت الأولى منهما مختصرة لاكتفاء المقريزى فى تدوينها بالنقل عن ابن الأثير - انظر طبعة الشيال - سنة ١٩٤٨ وهذا ما يشير إليه المحقق فى مقدمة الطبعة الثانية، ص ٢٦ - والظاهر أن المؤلف تنبه إلى قصور عمله هذا فعمل على تزويدها بالمعلومات من مظانها المعتبرة حتى صارت إلى ما صارت إليه فى النسخة الثانية، تحقيق الشيال، ١٩٦٧، ج١.

الكتاب، إلى جانب الروايات التى سمعها من المشايخ، والتى كانت قد بقيت فى منطقة القلعة وبجاية اللتين شهدتا بعض الأحداث الهامة من تاريخ الفاطميين فى المغرب، مثل ثورة أبى يزيد صاحب الحمار وهذا يعطى الكتاب قيمة خاصة بالنسبة للفترة المغربية من التاريخ الفاطمى(١٠٣).

المصادر الجغرافية:

تلك أهم الكتب التاريخية من مصادر الفترة التى ندرسها، وتليها فى الأهمية الكتب الجغرافية. وكتب الجغرافية تنقسم إلى قسمين: علمية خاصة بتقويم البلدان والأطوال والعروض، ووصفية خاصة بالبلدان والمسالك. وهذا النوع الأخير هو الذى يهمنا بصفة خاصة. ومما يستحق الملاحظة هو أن الجغرافية العربية كانت - مثل الجغرافية عند القدماء - وثيقة الصلة بعلم التاريخ، ورغم استقلالها عنه، فلقد ظلت كتب الجغرافية تحتوى على معلومات تاريخية هامة، إلى جانب المعلومات الجغرافية والأدبية وغيرها، ولهذا السبب نجد أن .بعض الكتاب ألفوا فى التاريخ والجغرافية جميعاً، مثل اليعقوبى (توفى ٢٧٨ هـ/ ٨٩٩م) والمسعودى (توفى ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦م) والبيرونى (توفى ٤٤٨ هـ/ ١٠٤٨م) وأبى الفدا (توفى ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) وغيرهم.

والمعلومات الجغرافية هامة بالنسبة للمؤرخ. فالتاريخ هو تسجيل الأحداث الخاصة بالإنسان فى زمن معين وكذلك فى بيئة معينة. والبيئة لها أثرها العميق فى حياة الإنسان، وهذا ما وضحه ابن خلدون فى مقدمته بشكل ميزه عن كل سابقيه. وكتب الجغرافية تكمل كتب التاريخ - التى اهتمت بالأحداث السياسية بشكل خاص - من حيث اهتمامها، إلى جانب وصف الأحوال الطبيعية والبيئة، بإمدادنا بمعلومات ذات طبيعة متنوعة، منها الاقتصادية والاجتماعية وما يختص بعادات الشعوب وتقاليدها ... إلخ. وهذه المعلومات يمكن أن تنقسم، مثل المعلومات التاريخية، إلى قسمين كبيرين: المعلومات المنقولة والمتواترة، وهذه تتراوح فى قيمتها ما بين الأصالة والوضع أو التزييف، والمعلومات وليدة التجربة والمشاهدة الشخصية، وتتصف بالصحة والدقة - بالنسبة للعصر الذى سجلت فيه.

---

(١٠٣) أنظر المقدمة الفرنسية للكتاب، ص ٧ - ١١، وأنظر كتاب الغبرينى، عنوان الدراية، ط. بيروت ١٩٦٩، ترجمة رقم ٥٥.

وعلى أساس هذا المنهج تنقسم كتب الجغرافية (مثل كتب التاريخ التى عرضناها) إلى قسمين: كتب المشارقة وتكوّن معظم المكتبة الجغرافية العربية، وموقفها من المغرب مثل موقف كتاب الطبرى من حيث أنها وجهت معظم عنايتها إلى المشرق، وبذلك تركت ما يشبه الفراغ بالنسبة لجغرافية المغرب. وهذا ينطبق على كتب ابن خرداذبة وابن رسته وابن الفقيه واليعقوبى والاصطخرى والمسعودى والمقدسى وأبى الفدا وغيرهم. وهذا لايمنع من وجود قطع مفيدة عن المغرب فى كل كتب هؤلاء. ولقد انفرد ابن حوقل (توفى ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م) فى كتابه «صورة الأرض» بموقف خاص وذلك أنه قام بنفسه برحلة جوّل فيها فى بلاد المغرب والأندلس وصقلية، ووصف أحوالها وصف شاهد العيان، وأمدنا بمعلومات ثمينة عن البلاد على أيامه.

ولقد أتى الجغرافيون المغاربة – بعد ذلك – وسدوا ذلك النقص فى المكتبة الجغرافية العربية. فاعتنوا ببلادهم وأفردوا لها الكتب المطولة. وأهم الجغرافيين المغاربة هو أبو عبيد الله البكرى (توفى ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م) الذى كتب فى الجغرافية العامة كتاباً أسماه «المسالك والممالك»، ولحسن الحظ وصلنا منه الجزء الخاص بالمغرب، الذى نشره دسلان (De Slane) تحت عنوان «كتاب المُغْرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب». كما ترجمه إلى الفرنسية تحت عنوان صفة بلاد المغرب. وللكتاب أهمية تاريخية كبرى لأنه ينقل بعض كتب تاريخ المغرب الأصيلة التى عالجت تاريخ البلاد فى القرون الإسلامية الأولى، والتى لم تصل إلينا وخاصة كتب محمد بن يوسف الوراق وإبراهيم الرقيق وغيرها، كما سبقت الإشارة[١٠٤].وهذه المعلومات مازالت محتفظة بقيمتها الفريدة إذ لم يعثر على أصولها الأصلية إلى الآن.

وفيما يتعلق بالمعلومات ذات الطابع الجغرافى، نجد فى البكرى معلومات دقيقة عن الطرق والمسالك لايحتمل أن تكون وليدة المشاهدة، والأقرب إلى الصحة أن تكون مستقاة من الأوراق الرسمية الموجودة فى الدواوين. وهذا يعنى أن البكرى كان فى موقف يسمح له بالاطلاع على وثائق وسجلات ديوان قرطبة[١٠٥]. وإلى جانب ذلك نلاحظ أن البكرى ينقل عن بعض الكتب القديمة

(١٠٤) أنظر فيما سبق، ص ٣٣.

(١٠٥) أنظر فيما سبق، ص ٣٧.

السابقة على العصر العربى، مثل تاريخ البلاد قبل الإسلام، والحرب بين روما وقرطاجنة، وكذلك المعلومات الخاصة بالمسيحية، التى يوردها وكأنها وليدة مشاهدته وتجربته الشخصية، تماماً كما فعل المسعودى فى بعض الأحيان(١٠٦).

ورغم الصفة العلمية الدقيقة التى تغلب على معلومات البكرى، نجد أنه يجمع معلومات متنوعة فى طبيعتها، بعضها من الدرجة الثانية، مثل: معلوماته عن أحوال المغرب السياسية على أيامه(١٠٧)، وبعضها خرافى أسطورى، مثل: كلامه عن الواحات وبعض العادات والتقاليد. هذا، إلى جانب بعض المعلومات التاريخية الأساسية الخاطئة، التى قبسها دون أن يعرضها للنقد، مما كان موضع ملاحظة الذين نقلوا عنه من المتأخرين، مثل ابن خلدون والتجانى، والعبدرى، ولكن هذه هنات بسيطة لاتقلل من قيمة الكتاب الكبيرة، حتى أصبح البكرى مرجعاً نقل عنه معظم المتأخرين (مثل ابن عذارى وابن خلدون والأدريسى وصاحب الاستبصار، وابن الأثير والتجانى، وغيرهم).

ويأتى بعد البكرى كتاب الأدريسى (توفى سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣م) المسمى بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، والمعروف أيضاً بكتاب رجار أو (لجار)، صاحب صقلية النورمندى. ولقد وصلنا لحسن الحظ - منه الجزء الخاص بالمغرب الذى نشره وترجمه إلى الفرنسية دوزى ودغوية، تحت عنوان «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» (طبعة ليدن ١٨٦٤م). هذا، كما وصلتنا القطعة الخاصة بوصف صقلية، وجزر البحر المتوسط، التى نشرها امارى فى مكتبته الصقلية، وهى أهم وصف للجزيرة وأكثره استفاضة فى المكتبة الغربية. ومن حسن الطالع أنه وصلتنا أيضاً القطعة الخاصة بوصف ايطاليا من كتاب نزهة المشتاق، والتى نشرها أمارى أيضاً فى روما (سنة ١٨٧٨م، مع مقدمة الكتاب) والأدريسى فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بأحوال المغرب فى القرون الأولى لايرقى إلى مستوى البكرى أو ابن حوقل، ولكنه يضيف معلومات ثمينة عن الفترات التالية (الخاصة بالقرنين الخامس والسادس الهجريين)(*). ومثل هذا يمكن أن يقال عن

---

(١٠٦) أنظر المعلومات الخاصة بتنيس ودمياط وقبر الاسكندر عند المسعودى (طبعة التجارية ح ١ ص ١٠٠، ٢٩٢، وقارن كتاب الاستبصار الذى ينقل بعض هذه المعلومات طريق البكرى - ويضع لها نفس التاريخ الذى كان يكتب هو فيه (٥٨٦ هـ) (المقدمة ص خ ٠ ص ٨٨ وهامش ١).

(١٠٧) أنظر مقدمة دسلان (De Slane) للبكرى، ص ١٤.

(*) ومن حسن الحظ ظهور طبعة كاملة لجغرافية الإدريسى تحت عنوان: كتاب نزهة المشتاق، فى مجلدين، نشرة بالقاهرة، سنة ١١٩٤م. (نقلاً عن نسخة صقلية الأصلية)

كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار الذى يحتوى على وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب والسودان (مطبوعات كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - تحقيق المؤلف - سنة ١٩٥٨). فهو ينقل كثيراً عن البكرى والأدريسى ولكنه يضيف - عن المغرب - معلومات قيمة (تاريخية وجغرافية وعمرانية) خاصة بعصره - عصر الموحدين. وعلى نسق الأدريسى، قسم ابن سعيد جغرافية العالم إلى الأقاليم السبعة، وأضاف معلومات جديدة عن بلاد المغرب وعلاقاتها، بصفة خاصة، ببلاد السودان. ويعتبر ابن سعيد فى هذا المجال من مصادر ابن خلدون. وإلى ذلك نضيف النصوص الخاصة بجغرافية المغرب فى تاريخ ابن خلدون، لما حوته من معلومات أصيلة، ومنقولة عن كتب لم تصل إلينا أو مبنية على التجربة والملاحظة، ومصنفة حسب قواعد النقد والتمحيص، التى عرف بها المؤرخ المغربى الكبير.

وإلى كتب الجغرافية تنضاف كتب الرحلة التى تتميز بتسجيل المعلومات وليدة التجربة ومشاهدة العيان. ومن أشهرها رحلة العبدرى (سنة ٦٨٨ هـ/ ١٣٨٩ م) - مخطوط المكتبة الوطنية بباريز، القسم العربى، رقم ٢٢٨٣)، ورحلة التجانى فى تونس وطرابلس من سنة ٧٠٦ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٦ - ١٣٠٨م (طبعة تونس ١٣٧٨ / ١٩٥٨). والتجانى - إلى جانب مشاهداته - ينقل عن البكرى والادريسى وإبراهيم الرقيق وابن رشيق (له كتاب، أنموذج الزمان فى شعراء القيروان، - رحلة التجانى، ص ٣٣ والهامش ٢، وأنظر ص ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١ ... إلخ)، وابن شرف (الذى كان له كتاب فى التاريخ - ص ٣٣ - وآخر يعتبر صلة لتاريخ الرقيق - ص ٨٣). وأخيراً نضيف رحلة العياشى، رغم تأخره (توفى سنة ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩م)، وذلك لعنايته البالغة فى وصف الطريق الصحراوى من سجلماسة إلى الإسكندرية وصفاً دقيقاً، يميزه عن كل سابقيه.

ولقد استفدنا من المعلومات الجغرافية فى الفصل الأول من الكتاب بصفة خاصة، أما ما حواه من المعلومات التاريخية، فرغم فائدتها إلا أنها تعتبر إجمالاً - من الدرجة الثانية (*).

(*) انظر النشرة الجزئية بمعرفة المؤلف : العياشى - ماء الموائد - ليبيا - طرابليس وبرقة - نشر منشأة المعارف بالإسكندرية (بدون تاريخ).

كتب الطبقات:

وتأتى بعد كتب الجغرافية كتب الطبقات، ومنها العامة مثل وفيات ابن خلكان، والعامة (اقليميا) الخاصة (موضوعيا) مثل طبقات الصحابة وطبقات الأدباء وطبقات الأطباء وطبقات الصوفية، ومنها الخاصة بالمغرب وهى التى تهمنا أكثر من غيرها. وأهم كتب النوع الأخير هو كتاب الحلة السيراء لابن الأبار (٥٩٥ هـ/ ١١٩٩م) - (٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م)، الذى يحوى تراجم أعلام أهل الأندلس والمغرب، اعتباراً من أهل المائة الأولى، والذى حققه حسين مؤنس فى جزءين[١٠٨]. وأهم الكتب الخاصة بطبقات رجال المغرب من العباد والزهاد والصالحين أربعة. أولها كتاب أبى العرب محمد بن أحمد ابن تميم (توفى سنة ٣٣٣ هـ/ ٤٤ - ٩٤٥م) المسمى «كتاب طبقات علماء افريقية»، الذى نشره محمد بن أبى شنب وأضاف إليه كتاب طبقات علماء تونس لنفس أبى العرب. وثانيها كتاب طبقات علماء افريقية لمحمد بن الحارث بن راشد الخشنى (الجزائر، ١٣٢٢ هـ/ ١٩١٤م). أما ثالثها فهو كتاب أبى بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى (توفى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى/ ١١م)، المسمى «كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم»، الذى نشر الجزء الأول منه الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١). وثالثها كتاب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى المعروف بالدباغ، الذى ذيله وأضاف إليه أبو القاسم قاسم بن عيسى بن ناجى التنوخى القيرواني (توفى سنة ٨٣٧هـ/ ٣٣ - ١٤٣٤م) حتى عرف الكتاب عند البعض باسم الأخير (طبع تونس، ١٣٢٠هـ). والكتب الأربعة يكمل بعضها البعض، رغم أنها جميعاً تبدأ بطبقات الرجال من البداية.

وهذه الكتب تعتبر فرعاً من نوع أهم هو كتب تاريخ الدين العامة، مثل: الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم القرطبى (توفى ٤٥٦ هـ/ ١٠٤٦م)، والملل والنحل للشهرستانى (توفى سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م)، والفرق بين الفرق للبغدادى (توفى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، إلا أنها تخصصت فى تاريخ الإسلام ومذاهبه ونحله فى بلاد المغرب. فمع أنها قصدت الترجمة أو

---

(١٠٨) ابن الآبار، الحلة السيراء، القاهرة، ١٩٦٣.

عرفها المغرب على مر العصور، مثل مذاهب الخوارج والشيعة وغيرها من النحل الفرعية. وهى هنا تلتقى مع كتب الجغرافية التى تمدنا بأهم ما نعرفه عن المذاهب والمعتقدات المخالفة للسنة، والتى لاقت نجاحاً فى كثير من الجهات.

وبناء على ذلك فميزة هذه الكتب تتلخص فى أنها تهتم بالتاريخ الاجتماعى والحضارى، أكثر من اهتمامها بالتاريخ السياسى. فهى عندما تترجم لشخصياتها لاتهتم بالمعلومات العلمية الجافة فقط، بل تتابع من تترجم لهم فى حياتهم الخاصة، فى المدن والأسواق والأزقة، والمساكن الخاصة - وهى من هذا الوجه - تحوى معلومات متنوعة، منها ما هو خاص بخطط المدن، وما هو خاص بتنظيم الأسواق وأحوال النشاط الاقتصادى، وما يتعلق بالعادات والتقاليد المتعارف عليها فى تلك الأزمان، إلى جانب هدفها الأول، وهو الكلام عن العلماء والفقهاء من أهل السنة، وجهادهم فى سبيل نشر الإسلام فى البلاد، وصراعهم ضد المنشقين من الخوارج والشيعة وأهل البدع، من عامة الشعب أو الطبقة الخاصة، وحتى الملوك على حد سواء.

وإلى جانب المعلومات ذات الطابع العلمى، اهتمت هذه الكتب بالمعلومات ذات الطابع الأسطورى، أو الخرافى، نظراً لعنايتها بسير العباد الصالحين، من أصحاب الكرامات والمعجزات، وخاصة بعد انتشار حركة الربط والزوايا فى المغرب.

وبناء على ذلك فأهمية هذه الكتب تصبح محدودة بالنسبة لفترة الفتوح الأولى ثم أنها تزداد أهمية مع مرور الوقت. وخاصة منذ بدء عصور الاستقلال على أيام الأغالبة، ولاسيما ابتداء من قيام الفاطميين فى المغرب. ويستثنى من ذلك كتاب رياض النفوس، الذى قدم لتراجمه بمقدمة تاريخية فى فتح العرب للمغرب حوت خليطاً من المعلومات ذات الطبيعة والأهمية المتفاوتة، فمنها الأصيل، ومنها القصصى، وهى تختلط بشكل يجعل التمييز بين الصحيح منها وغير الصحيح من الصعوبة بمكان. ولقد استفاد الدباغ من هذه المقدمة فى صدر كتابه فلخص بعضها وأضاف بعض الإضافات.

وإلى كتب طبقات أهل السنة فى افريقية هذه تضاف كتب السير المنقبية الخاصة بالأباضية، مما سبق ذكره (أنظر ص ٤٤ - ٥١) فلها نفس الأهمية

بالنسبة لدراسة المجتمعات الأباضية فى تاهرت وجبل نفوسة وغيرهما من صحراوات المغرب الأوسط وافريقية.

الكتب المحلية والمتأخرة:

ويتبقى بعد ذلك الكتب التاريخية ذات الطابع المحلى أو الاقليمى أو المتأخرة نسبياً، مثل كتاب المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب لأحمد النائب الأنصارى، (طبعة القاهرة، ١٣١٧ هـ). وكتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار لابن غلبون (أبو عبد الله محمد بن خليل ابن غلبون الطرابلسى)، وهو شرح على قصيدة الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصارى الطرابلسى (طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ)، وكتاب جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو النفحات المسكية فى أخبار المملكة الطرابلسية، لمحمد ابن عثمان الحشائشى (توفى سنة ١٣٣٠ هـ/ ١٩١٢م).

وفى تاريخ البلاد التونسية لدينا كتاب المؤنس فى تاريخ افريقية وتونس لابن أبى دينار (توفى سنة ١٠٩٢ هـ/ ١٦٨١م - طبعة تونس سنة ١٢٨٦هـ)، وكتاب اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، لأحمد بن أبى الضياف (توفى سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م، الجزء الأول ويتناول الفتح الإسلامى وعصر الولاة، ودولة بنى الأغلب، ودولة بنى عبيد، والدولة الصنهاجية والدولة الحفصية، طبعة تونس ١٩٦٣).

وفى تاريخ «المغرب» مثل كتاب الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى للسلاوى (توفى سنة ١٣١٩ هـ/ ١٩٠١م).

هذه الكتب تعتبر ثانوية، ليس بسبب طابعها الاقليمى أو لتأخرها أو لأن المعاصر منها، رغم حداثتها، لم يتبع المنهج العلمى، بل لأنها تمر مراً سريعاً بالفترة التى نعالجها مكتفية بالتلخيص والنقل من الكتب الموجودة بين أيدينا. وعلى ذلك نحن لانشير إليها فى هوامشنا إلا إذا اقتضت الضرورة، لتأكيد شرح نص من النصوص أو لتأييد فكرة من الأفكار، فقلما تنفرد بمعلومات خاصة.

الكتب الحديثة:

أما عن الكتب العلمية الحديثة الخاصة بتاريخ المغرب فنكتفى منها بالإشارة إلى «فتح العرب للمغرب» للدكتور حسين مؤنس، «وبلاد المغرب وعلاقاتها

بالمشرق الإسلامى فى العصور الوسطى» لجورج مارسيه[١٠٩]، «وماضى شمال افريقية» لجوتييه[١١٠] ثم «تاريخ شمال افريقية» لجوليان[١١١].

ومما نأسف له عدم تمكننا من الاطلاع على أحدث الدراسات فى تاريخ الأغالبة، وهى رسالة الأستاذ الطالبى الذى قدمها تحت عنوان: امارة الأغالبة بالفرنسية (L'Emirat Aghlabide) والتى نشرت سنة ١٩٦٦م.

(109) G. Marçais, La Berbérie et l'Orient musulman au Moyen Age.

(110) E. F. Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, Les Siècles obscurs.

(111) Ch .. André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord.



الباب الأول

البلاد والسكان

البـــلاد

التسمية (المغرب):

بلاد المغرب مصطلح يقصد به الكتاب العرب كل الاقاليم الواقعة غرب مصر، والتى تشمل شمال القارة الافريقية، وتتضمن حاليا البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة وطرابلس وفزان)، وتونس، والجزائر بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيرا المغرب - الذى كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية - ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر.

واسم بلاد المغرب هو اسم الاتجاه الأصلى الذى يحدد مغرب الشمس وهذا يعنى أنه مصطلح عام قصد به البلاد الواقعة فى اتجاه غروب الشمس عكس البلاد الواقعة في اتجاه شروق الشمس والتى تسمى تبعا لذلك بالمشرق[1]. وكانت نسبه الاتجاه إلى بلاد العرب في أول الأمر ثم إلى بلاد الشام بعد انتقال الخلافة إلى دمشق وعلى أيام الفتوح الأموية الكبرى، ثم كانت النسبة فى آخر الأمر إلى بلاد العراق وبغداد على أيام التدوين والتنظيم الادارى الراقى الذى عرفه العباسيون، عندما أصبح دجلة بمثابة خط التقسيم بين الشرق والغرب، وأصبحت بغداد فى هذا المقام بمثابة «جرينتش» بالنسبة لخطوط الطول حاليا. ولقد اتخذ ذلك التقسيم العام للدولة الإسلامية إلى مشرق ومغرب شكلا فنيا عندما قسم هارون الرشيد دولته - اداريا فى سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م - بين ولديه الأمين والمأمون، فأصبح لولى العهد الأول وهو الأمين مغرب الدولة ويشمل العراق والشام إلى آخر المغرب، وأصبح لولى العهد الثانى وهو المأمون مشرقها أى خراسان وما يتصل بها من الولايات الشرقية[2].

---

(١) أنظر ابن خلدون، العبر، طبعة القاهرة، جـ٦ ص ٩٨ والترجمة، جـ١ ص، ١٨٦.

(٢) الحقيقة ان تقسيم الدولة إلى مشرق ومغرب يبدأ منذ أيام المهدى عندما عهد للهادى بولاية العهد ثم ولى الرشيد فى سنة ١٦٣هـ «المغرب كله وآذربيجان وأرمينية» (ابن الأثير أحداث سنة ١٦٣، حـ ٦ ص ٣٥، وقارن العيون والحدائق، ط ـ ليدن ١٨٧١، ج٣، ص ٢٨٢ (حيث النص على أن المهدى ولى هارون المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية). أما عن تقسيم هارون لدولته بين الأمين والمأمون فرغم أننا لا نجد فيه نصا على ذكر اصطلاحى المغرب والمشرق، فانه يتضح من مشروع التقسيم أن دجلة هو الحد بين شطرى الدولة. فقد كان للأمين الشام والعراق، وكان للمأمون من حد همذان إلى آخر المشرق (الطبرى) أحداث سنة ١٨٦). أو كبلاد خراسان وما يتصل بها إلى همدان (ابن الأثير، أحداث سنة ١٨٢ جـ ٦ ص٦٥)، وانظر م.ع شعيرة، تقسيمات اقليمية فى العصر العباسى الأول، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٤٤، ص ٨٧ (حيث يبين أن لفظ المغرب يشمل كل ما يقع غربى اقليم العاصمة العراقية).

ومفهوم المغرب بهذا الشكل عام وشامل يعنى النصف الغربى للدولة الاسلامية. ولكن الكلمة عندما استخدمها العرب فى عصر الفتوح الأولى لم يكن لها هذا المعنى الشامل. فقد سموا البلاد المتاخمة لجزيرة العرب شرقا وشمالا وغربا باسمائها مثل العراق والشام ومصر، وخصّ كتاب المغازى كلا منها بكتاب[٣]. وهذا يجعلنا نظن أن كلمتى المشرق والمغرب لم تستعملا على نطاق كبير الا بعد أن اتسعت الفتوح، وأخذ العرب يتدفقون على البلدان المختلفة، ذات الأسماء العربية على جمهرتهم فى كثير من الأحيان، فظهرت الحاجة إلى استعمال مصطلحات سهلة يعرف منها موضع الأقاليم بشكل عام ويتداولها الناس دون صعوبة – وذلك بطبيعة الحال قبل أن تظهر الحاجة إلى التنظيم الدقيق الذى عرفته الدولة فيمابعد – فكان استعمال كلمة المغرب وكلمة المشرق. والذى يهمنا هنا أنه بينما ظلت كلمة المشرق لاتعنى أكثر من مفهومها اللغوى، اتخذت كلمة المغرب مفهوما جغرافيا سياسيا خاصًا، وذلك فى ظروف لا نستطيع تحديدها على وجه الدقة، وان كنا نظن أنه لما كان العرب أشد اتصالا بالمشرق الفارسى منهم بالمغرب فانهم عرفوا أقاليم المشرق بشئ من التحديد. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن المشرق الساسانى كان يعرف نظما وتراتيب ادارية لم يعرف المغرب الذى كان ثائرا أبدا على الحكم الرومانى – مثيلا لها[٤]. ربما كانت هذه الظروف هى التى ساعدت على بقاء استعمال كلمة المغرب لتعريف البلاد الواقعة غرب مصر، تعريفا يشوبه شئ من الابهام على كل حال[٥]. ومع أن هذا الابهام

---

(٣) أنظر أسماء تواليف الواقدى والمدائنى فى المغازى مثل فتوح فارس، فتوح الشام فترح مصر والاسكندرية (الفهرست لابن النديم)، طبعة التجارية ص ١٥٠، ١٥٤، بروكلمان تاريخ الأدب العربى (بالالمانية. G.AL ملحق ١ ص ٢٠٨.

(٤) تتضح فكرة اتصال العرب الوثيق بالفرس ومعرفتهم بأحوالهم قبل الاسلام من الأدب التاريخى وغير التاريخى الذى تركه لنا قدامى الكتاب العرب، ونكتفى هنا بالاشارة إلى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى، ومروج الذهب للمسعودى. والذى يلاحظ أيضا أن المعلومات الخاصة بالمغرب فى هذه الكتب لا تعد شيئا إلى جانب المعلومات الخاصة بالمشرق. والمثل لذلك الطبرى الذى يمدنا بمعلومات تفصيلية عن المشرق وأقاليمه المختلفة فى الوقت الذى لا نجد فيه عن المغرب الا معلومات طفيفة لا تكاد تعرف باقاليمه العظمى.

(٥) ومما يلفت النظر فى هذا المقام أن المتأخرين من الكتاب المصريين مثل: القلقشندى وابن تغرى بردى عادوا إلى استخدام كلمة الغرب بدلا من المغرب وذلك نسبة إلى الديار المصرية، فقالوا: «الديار الغربية» و «الغرب» و «الغرب الأوسط» و «الغرب الأقصى». أنظر صبح الأعشى، ج٥ ص ٩٩، ١٠١، ١٠٩، وقارن النجوم الزاهرة، ج ص ١١٠، ١١١، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣ .... الخ.

أخذ يتبدد مع مرور الوقت بعد أن تعرف العرب على البلاد بأقاليمها المختلفة، الا أن مفهوم الكلمة لم يتضح تماما حتى بعد نمو واكتمال علم الجغرافيا. فقد ظلت كلمة المغرب تعنى كل الأقاليم التى تشمل شمال القارة الافريقية – دون مصر وكذلك الأندلس. ولهذا نجد أن بعض الجغرافيين الأوائل مثل الاصطخرى يقسم المغرب إلى قسمين: مغرب افريقى بمدنه وأقاليمه، ومغرب أندلسى[٦]. وهذا يعنى أن الأندلس أخذت تخرج من نطاق التحديد، والظاهر أن الظروف السياسية فى الأندلس أكدت هذه التفرقة بعد أن استقلت الأندلس عن بغداد، فلم تصبح جزءا من المغرب الذى ظلت الخلافة متمسكة بشرعية سلطانها عليه.

انطابلس (برقة) وفزان:

ورغم ذلك فلا بأس أن يكون العرب قد سموا – منذ بداية الفتوح، قبل أن تدخل الأندلس فى نطاق المغرب العربى، وقبل أن تنقل بعض تواريخ البلاد القديمة إلى اللغة العربية، مما يظهر عند البكرى – الأجزاء الشرقية من المغرب بأسمائها السياسية أو الإدارية المعروفة فى التنظيم الرومانى. فالاقليم المتاخم لمصر هوأنطابلس أو ينطابلس أى المدن الخمسة باللغة الاغريقية[٧] Pen-tapolis، ويعرف أيضا – كما هو الحال اليوم – باسم عاصمته مدينة برقة القديمة[٨].

والحدود غير واضحة بين مصر وبين اقليم برقة، وهذا أمر طبيعى. فأرض برقة امتداد طبيعى لأرض مصر نحو الغرب دون ما حدود ولا فواصل طبيعية،اللهم تلك العقاب الصغيرة الموجودة فى الصحراء، وأهمها عقبتان فى الطريق الساحلى:

(٦) أنظر الأصطخرى، المسالك والممالك، طبعة القاهرة، ١٩٦١ ص ٣٣.

(٧) أنظر اليعقوبى كتاب البلدان، ملحق ابن رسته، ص ٣٤٦ (حيث يقول: وتسمى برقةأنطابلس، هذا اسمها القديم)، ابن خرداذبة، المسالك، ص ٩١ (حيث يقول ان أرض برقة هى أنطابلس، بالرومية، وهى خمس مدائن)، البكرى، ص٤، كتاب الاستبصار ص ١٤٣ ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٤٧. والمدن الخمسة القديمة التى أعطت لاقليم برقة اسم ينطابلس على أيام اليونان هى: قورينة وسوسة وبرقة وطوكرة وبرنيق.

(٨) اسم برقة لقديم هو Barki وموضعها مدينة المرج الحالية بالجبل الأخضر نسبة إلى المرج الواسع الذى كانت تقع فيه، كما يفهم من نص اليعقوبى الذى يضيف أن ببرقة جبلين أحدهما يقال له «الشرقى» والآخر يقال له «الغربى» – انظر كتاب البلدان، ملحق ابن وستة، ص ٣٤٣. وعن مدينة برقة التى كان يقال لها «المرج» على أيام ابن سعيد أنظر الجغرافيا، ص ١٤٦ – ١٤٧ وهو يقول أن العرب سمتها برقة لما رأت فيها من الحجارة المختلطة بالرمل. هذا ولو أن المنطقة تعرف حديثا باللغات الأوروبية باسم مدينتها لساحلية قورينة Cyrène فهى قوريية أو Cyrénaique.

احداهما عند مرسى مطروح الحالية وتعرف بالعقبة الصغرى، والأخرى عند السلوم وتعرف بالعقبة الكبرى[٩]. أما فى الجنوب فلا عقاب ولا فواصل أو حدود بل تتداخل صحراء مصر وصحراء المغرب، وتنتشر فيها الواحات فلا تفرقة بين واحات مصر وواحات صحراوات المغرب الكبرى. وهكذا أطلق الجغرافيون المحدثون اسم الصحراء الليبية على صحراء مصر وليبيا جميعا، اذ الحقيقة أن الخطوط الفاصلة المرسومة على الخرائط لا وجود لها على الطبيعة.

وكانت برقة تشتمل فى أقاليمها الشرقية على وحدة ادارية أو كورة تعرف بلوبية ومراقية. وهذه الكورة التى كانت وثيقة الصلة بالاسكندرية احتوت على اقليمين: الشرقى منهما هو لوبية اسم عاصمة الاقليم، وهو نفس الاسم الذى كان يطلقه كتاب اليونان على شمال القارة الأفريقية دون مصر. ولا يحدد الكتاب موضع مدينة لوبية بالدقة بل يقولون انها بين الاسكندرية وبرقة[١٠] والغربى منهما مراقية وهو تعريب لاسم الكورة الرومانى: مرمريكا (Marmarica)[١١]. وكانت حدود مراقية الغربية تنتهى عند أرض مدينة برقة نفسها حيث ينحرف الطريق نحو الجنوب بحذاء ساحل خليج سرت فى اتجاه اجدابية، كما يفهم من أحد نصوص المقريزى[١٢].

أما عن حدود برقة الغربية فهى الأخرى تتداخل فى أرض طرابلس إلى درجة

---

(٩) أنظر ابن سعيد الجغرافيا، ص ١٤٧: حيث يجعل العقبة الكبيرة فى شرقى المجرى المعروف بالبنطان (البطنان) ويجعلها أول الديار المصرية فكأنها عقبة السلوم. وانظر ص ١٢٨: حيث يجعل العقبة الصغيرة على سمت سانتيرية أى واحة سيوة، فكأنها فى منطقة مرسى مطروح الحالية. وعن سنترية يقول الادريسى (ص ١٣٦) أنها من البلاد البرية والصحار المتصلة بأعمال الاسكندرية. وعن العقبة فتقع فى الطريق من مدينة برقة إلى الاسكندرية. بين مرج الشيخ وحوانيت أبى حليمة (الادريسى، ص ١٣٧). وانظر صبح الأعشى للقلقشندى، ج٣ ص ٣٩٥، وانظر فيما بعد ص ٧٣- ٧٤.

(١٠) أنظر ياقوت: معجم البلدان، طبعة القاهرة، ج٧ ص ٣٤١.

(١١) المالكى، رياض النفوس، ص ٢٩، وهامش ١. أنظر محمد عبد الهادى شعيرة، مجلة كلية الآداب والتربية، بنغازى. المجلد الأول ١٩٥٨، ص١٣ حيث يقول أن لوبية مابين مرسى مطروح والسلوم حاليا، ص١٤ حيث يقول أن مراقية نسبة إلى شعب المرمريق.

(١٢) الخطط، طبعة مصر، ج١، ص١٦، وأنظر للمؤلف، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطمين فى افريقية ونقلتهم إلى مصر، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية سنة ١٩٥٨، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

أن بعض المتقدمين من الكتاب يجعلون القصور التى بناها حسان بن النعمان شرقى مدينة طرابلس بحوالى ٢٥٠ك.م – فى منطقة تاورغى الحالية وهى أول الحدود الشرقية لاقليم طرابلس الخصيب –.«من حيز برقة»[١٣] . وانتهى الأمر عند المتأخرين إلى أن أصبح مفهوم اقليم برقة يعنى المنطقة الصحراوية الممتدة مابين منطقة طرابلس الزراعية وحدود مصر. فالعياشى صاحب الرحلة بعد أن يترك مدينة مسراتة (من ولاية طرابلس) ويتجه نحو المشرق يقول: وفارقنا آخر العمران ودخلنا برقة[١٤] . وذلك قبل أن يصل إلى قصور حسان[١٥] . وعلى ذلك فهو يجعل سرت التى وصل اليها بعد ذلك ضمن أرض برقة[١٦] . ويقول العياشى بعد ذلك أن أرض برقة مسافة شهرين من الاسكندرية إلى أفريقية[١٧] ، وهو يقسم أرض برقة الممتدة من مسراتة إلى الاسكندرية إلى خمسة أقسام مشتقة أسماؤها على الجملة من طبيعة أرضها، وهى: سرت – التى ينسب إليها حاليا الخليج الكبير بين برقة وتونس –، وبرقة الحمراء، والجبل الأخضر، والبطنان، وما بين العقبتين، وأخيرا ما بين العقبة الصغرى إلى الاسكندرية، ويسمى العقبة الصغرى[١٨] . والأقاليم الجنوبية لطرابلس هى فزان التى يضيف اليها بعض الكتاب اقليم ودان، ولو أنهم ينصون على أن ودان هى قصبة أو مدينة فزان، وهى تمتد إلى قلب الصحراء فى اتجاه بلاد السودان إلى زويلة[١٩] . ومع أن فزان أقرب إلى طرابلس منها إلى غيرها من الأقاليم الا أنها كانت وثيقة الصلة ببرقة شرقا.

---

(١٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، طبعة أوروبا، ص ٢٠٠ ، البلاذرى، طبعة أوروبا، ص ٢٢٩ (فى حيز برقة) . وقارن اليعقوبى، ص ٤٥ – ٣٤٦ (حيث ينص على ان تورغة هى: آخر عمل برقة، وأنها على مرحلتين من سرت شرقا و ٦ مراحل من طرابلس غربا).

(١٤) العياشى. الرحلة، مخطوط طرابلس ٣٤٠، ص ٧٨ وجه. وانظر المطبوع: ماء الموائد، ليبيا، ص ١٤٥ .

(١٥) نفس المرجع، ص ٧٨ وجه. وانظر المطبوع: ماء الموائد، ليبيا، ص ١٤٦ .

(١٦) نفس المرجع، ص ٧٩ وجه والمطبوع: ماء الموائد، ليبيا، ص ١٤٧ .

(١٧) نفس المرجع، ص ٨٠ وجه والمطبوع: ماء الموائد، ليبيا، ١٤٨ .

(١٨) نفس المرجع ص ٨٥ خلف، (ويشير العياشى هنا إلى أن العبدرى صاحب الرحلة ذكر تقسيما غير هذا جاريا على اصطلاح أهل زمانه) ، وانظر المطبوع: ماء الموائد، ليبيا، ص ١٥٩ – ١٦٠). وقارن ابن سعيد الجغرافيا ص ١٤٧ ،: حيث يجعل العقبة الكبيرة.

(١٩) أنظر البكرى ص ١٠–١١ ، كتاب الاستبصار، ص ١٤٦ ، وهامش ٢ وقارن اليعقوبى (ص٣٤٥ – ٣٤٦) الذى يجعل ودان من أعمال برقة المضافة إليها وإلى عمل سرت.

فبعد أن دخل العرب برقة كانت سياحتهم الطبيعية جنوبا نحو فزان حتى زويلة والواحات المؤديه إلى بلاد السودان(٢٠) كما كانت طرق القوافل تربط واحات فزان بجنوب تونس وبواحات الجزائر ربطا سهلا(٢١).

أطرابلس وجبل نفوسه

أما عن أطرابلس (طرابلس) واسمها طربليطة Tripolitaine, Tripolis ومعناها باليونانية المدن الثلاث(٢٢)، فهي عند الكتاب الأوائل اقليم له كيانه الخاص مثله مثل برقة أى أنطابلس. وطرابلس متصلة باقليم جبل نفوسه(٢٣) الذى يعتبره الجغرافيون العرب ذراعا أو امتدادا لسلاسل جبال أطلس المعروفة بجبال درن فى المغرب الأقصى حيث تبلغ أقصى ارتفاعها(٢٤). وجبل نفوسه يحيط بمنطقة مدينة طرابلس الساحلية كالهلال ويفصل بينها وبين الصحراوات الجنوبية فى فزان وما وراءها. ولهذا تسمى الأقاليم الساحلية المنخفضة من طرابلس بالجفارة والأقاليم الداخلية المرتفعة بالجبل وبالظهر(٢٥). وموضع جبل نفوسه بهذا الشكل كان سببا فى أن أصبح اتصال فزان ببرقة بل وربما بتونس والجزائر أكثر سهولة من اتصالها بطرابلس القريبة. وكان ذلك من أسباب ضيق حدود اقليم أو حيز طرابلس الذى

(٢٠) أنظر فيما بعد عن فتح برقة، الباب الثانى. وانظر البكرى، ص ١٥٨ (عن أودغست أول بلاد السودان: حيث يقول أن سكانها أهل افريقية وبرفجانة ونفوسة ولواته وزناته ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم).

(٢١) عن طريق القوافل والمسافات أنظر الاصطخرى، ص ٣٧، البكرى، ص١١ وتابع.

(٢٢) أنظر البكرى، ص ٧ «لأن طر معناه ثلاث وبليطة يعنى مدينة»، كتاب الاستبصار ص ١١٠ وقارن ابن خرداذبة (ص ٩١) حيث يقول أن مدينة أياس هى أطرابلس أى ثلاث مدائن، والمسعودى طـ. التجارية ١٩٤٨. ج٢ ص ١١٩ (نفس رواية ابن خرداذبة والمدن الثلاث هى: اياس Oea موضع مدينة طرابلس الحالية، فى شرقها، وصبرة أو سبرت (سبراته الحالية) فى غربها. وأنظر الرحلة الورثيلانية، تصحيح محمد بن أبى شنب طـ٢ بيروت (تصوير) ١٩٧٤، ص ١٤٥.

(٢٣) أنظر اليعقوبى، ص ٣٤٦ (حيث يسمى البلاد «أرض نفوسه» نسبة إلى القبائل التى يجعل منازلها فى «جبال طرابلس»، فكأنه يطلق على جبل نفوسه اسم «جبال طرابلس»).

(٢٤) عن اتصال جبلى درن بجبل أوراس وبجبل نفوسه أنظر البكرى، ص ١٦٠. وأنظر الاستبصار، ص ١٦٣ (وأشهر قرى جبل نفوسه: شروس وجادو)، وقارن القلقشندى صبح الاعشى ج٥ ص ١٧٣ (عن ابن سعيد) حيث النص على أن جبل ذرن فى أقصى المغرب وآخره من جهة الشرق على ٣ مراحل من اسكندرية من الديار المصرية، ويسمى طرفه الشرقى المذكور «رأس أو ثان».

(25) Despois, Le Gebel Nefoussa (Tripoliaine), Paris, 1935, p.1, 10.

لم يعد ذا كيان خاص عند الجغرافيين اذ جعلوا مدينة طرابلس أول مدينة افريقية(٢٦).

افريقية:

واقليم افريقية هو أول أقاليم المغرب الحقيقي. يفهم ذلك من روايات الكتاب الأوائل: فابن عبد الحكم عندما يتكلم عن محاولات عمرو بن العاص لفتح ما وراء طرابلس يقول: «وأراد عمرو أن يوجه إلى المغرب»(٢٧) وكذلك عندما يذكر فى بعض المواضع حملتى عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٧هـ ومعاويه بن حديج سنة ٣٤هـ بافريقية، يقول انهما خرجا إلى المغرب(٢٨). ولقد ناقش العلماء من المحدثين كلمة افريقية واختلفوا فى أصلها، فمنهم من يميل إلى القول بأنها اسم مكان - كما تستخدم الكلمة حاليا اسمها لقارتنا الافريقية - ومنهم من يأخذ بالقول بأن أصل الكلمة اسم لشخص أو لقبيل ثم أعطى للمكان - مثلما يطلق على بلاد المغرب اسم بلاد البربر(٢٩). وجمهرة الكتاب العرب يأخذون كعادتهم فى تقسيم الشعوب، وحسب قانون علم الانساب عندهم - بهذا الرأى الأخير. فهم يقولون أن افريقية نسبة إلى الأفارق أهل البلاد الأصليين، أو أنها نسبة إلى ملكة ملكت البلاد فى القديم كانت تسمى افريقية أو ابريقية (٣٠) بالفاء أو بالباء كما يحدث فى بعض الأسماء الفارسية مثل أصفهان وأصبهان. ونعتقد أن الكتاب العرب هم الذين وجهوا العلماء المحدثين وجهتهم هذه فى البحث، رغم الطابع الأسطورى الذى يغلب على هذه الرواية(٣١). وأيا ما كان الأمر، فالحقيقة التى تهمنا هى. أن العرب أخذوا اسم

(٢٦) الاصطخرى. ص ٣٣، الاستبصار ٢ ص ١١٠ والهامش ١.

(٢٧) فتوح مصر والمغرب. ص ١٧٢.

(٢٨) فتوح مصر والمغرب، ص ١٩٢.

(٢٩) أنظر حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص١ والهامش. حيث يأخذ بقول من يقول أن أصل الكلمة فينيقى من لفظ أفرى (اسم أهل البلاد. أنظر (Gautier, Le Passé de I'Afr, p. 125. كما يورد رأى من يقول بأن أصل الكلمة هندى من لفظ ابارا، أو ابريكا، وانظر محمد عبد الهادى شعيرة. مجلة كلية الآداب والتربية، بنغازى ١٩٥٨، ص ٨ (عن ظهور اسم افريقية فى العهد الرومانى).

(٣٠) أنظر كتاب الاستبصار، ص ١١١ - ١١٢، وهامش ١.

(٣١) أنظر البكرى (ص ٢١) حيث يعرض مختلف الآراء، وأولها النسبة إلى الملكة افريقية والملك افريقس.. والظاهر أن هذه الرواية يمنيه الأصل اذ ينسب الاخبارى المشهور وهب بن منبه فى كتاب التيجان، ص ٦٥ اسم افريقية إلى ملك اليمن افريقس الذى غزا المغرب قبل الاسلام وأعطى اسمه لتلك البلاد (وقارن

=

افريقية عن الروم كما نقلوا أسماء بنطابلس (أو أنطابلس) وأطرابلس. فالرومان والروم أطلقوا على أملاكهم فى افريقيا الشمالية التى كانت عاصمتها مدينة قرطاجنة اسم أفريكا Africa الذى عرب إلى أفريقية، والذى ظل مستعملا فى العصر البيزنطى رغم التقسيمات الادارية التى كانت تستحدث داخل هذه الولاية[٣٢]. وعندما دخل العرب بلاد المغرب كان سلطان حاكم قرطاجنة البيزنطى، وهو والى افريقية يمتد - من الناحية النظرية على الأقل - من تخوم طرابلس إلى تخوم طنجة[٣٣]. وكان ذلك سببا فى أن أصبح لافريقية مفهومان: أحدهما عام يكاد يعادل مفهوم المغرب. اذ يقول بعض الكتاب ان افريقية تمتد من برقة شرقا إلى طنجة غربا[٣٤]، والآخر خاص ويعنى الأجزاء الشرقية فقط من المغرب التى تعادل ولاية افريقية الرومانية الأصلية أى البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى بجاية فى ولاية قسنطينة[٣٥]. أو إلى مدينة الجزائر الحالية (جزائر بنى مزغنة)[٣٦]. وهذا يعنى أن الحدود الحالية بين هذه الأقاليم انما هى حدود اصطلاحية وأن كل اقليم منها يتداخل فى الآخر من وجهة النظر الطبيعية - كما سنشير إلى ذلك بعد قليل.

المغربان: الأوسط والأقصى:

وبعد أن تحددت مسميات الأقاليم الشرقية من المغرب بمفهومه العام - بهذا

= القلقشندى، صبح الأعشى، ج د ص ١٠٠) حيث يضيف إلى ذلك أن النسبة ربما كانت إلى «فارق بن يبصر بن نوح» (وأنظر فيما بعد أص ٢٠ و هـ ٥٩،) حيث الإشارة إلى أن افريقية مفرقة، وهو تفسير لغوى خاص بفكرة صعوبة فتح هذا الاقليم بمعنى المغرب.

(٣٢) عن تقسيم ولاية افريقية على أيام الرومان والبيزنطيين أنظر Julien, Hist. de l'Afr. p. 225 وحسين مؤنس. فتح العرب للمغرب، ص٢: افريقية الأصلية تعادل اقليم قرطاجنة، افريقية القنصلية وتضم افريقية الأصلية، والجزء لشرقى من تونس ويسمى روجيتانيا ومنطقته الداخلية إلى فزان وتسمى بيزاسينا، والمنطقة التى تعادل الجزائر حاليا وتسمى نوميديا، وغرب ذلك منطقة طنجة وتسمى موروطانية.

(٣٣) البلاذرى، ص ٢٣٧، ابن عبد الحكم، ص ١٨٣.

(٣٤) كتاب الاستبصار، ص١١١، ص ١٣٩ (طنجة آخر حدود افريقية).

(٣٥) أبو الفداء. طبعة أوروبا، ص ١٢٢ (ولكنه يجعل حدودها الشرقية تمتد إلى برقة وإلى حدود مصر).

(٣٦) إنظر الزهرى، كتاب الجغرافية، مجلة الدراسات الشرقية، المعهد الفرنسى بدمشق ج ٢١ سنة ١٩٦٨، ٢٠٠ (ص ١٠٧ من النص).

الشكل (من برقة إلى طرابلس إلى أفريقية) - أصبحت حدود المغرب (الحقيقى) عند الكتاب الأوائل تبدأ ما يلى افريقية غربا إلى سواحل البحر المحيط[٣٧]. وابتداء من القرن الخامس الهجرى (١١م) ميز الجغرافيون العرب الأقاليم الغربية البعيدة من هذا المغرب فأطلقوا عليها اسم المغرب[٣٨] أو المغرب الأقصى[٣٩]. وبذلك أصبح هناك مغربان: مغرب أو مغرب أقصى، وهو الذى عرف ابتداء من منتصف ذلك القرن وإلى عهد قريب باسم عاصمته السياسية مراكش، ومغرب أوسط[٤٠] وهو الذى يعادل بلاد الجزائر الحالية وأصبح خط التقسيم الشمالى بين المغربين (الأوسط والأقصى) هو مجرى وادى ملوية أو مابين تلمسان (عاصمة المغرب الأوسط) وتازا (مدينة المغرب الأقصى)[٤١]، وذلك رغم عدم وجود حدود أو فواصل فى الجنوب.

وهكذا انقسمت بلاد المغرب بمعناها العام إلى ثلاثة أقسام، احتفظ اثنان منها باسم المغرب مع صفة مميزة وهما: المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. ونحن نظن أن اصطلاح المغرب الأقصى أقدم من اصطلاح المغرب الأوسط وذلك لأن الأجزاء الشرقية من المغرب وخاصة أفريقية لم يطلق عليها الكتاب اسم المغرب الأدنى بل احتفظوا لها باسمها القديم أو أطلقوا عليها فى بعض الأحيان اســم

---

(٣٧) نلاحظ أن ابن عبد الحكم لا يبين الحد بين افريقية والمغرب فهو يستعملهما بنفس المعنى عند كلامه عن الغزوات العربية الأولى، الا أنه يفهم من كلامه عن فتوحات موسى بن نصير أن كلمة المغرب هنا تعنى ما وراء افريقية بمعناها العام أى ابتداء من طنجة (انظر ص ١٩٢، ص ٢٠٣، ٢٠٤). وقارن البلاذرى الذى يقول عن يزيد بن أبى مسلم انه ولى افريقية والمغرب (ص ٢٣١)، وقارن الزهرى، كتاب الجغرافية، النص ص ١٠٦ (حيث يجعل أول بلاد المغرب جبال برقة وجبال أوثان فى المشرق وهى آخر عمل مصر وأول عمل القيروان، وآثار أقصى السوس).

(٣٨) البكرى. ص ٧٦، كتاب الاستبصار، ص ١٧٩.

(٣٩) أبو الفدا. ص ١٢٢، ابن خلدون، جـ٦ ص ٩٨، ٩٩.

(٤٠) البكرى. ص ٧٦، الاستبصار، ص ١٧٦، أبو الفدا، ص ١٢٢ وأنظر ابن سعيد الجغرافيا، ص ١٤٢ (حيث يصف بجاية بأنها قاعدة «المغرب الأوسط») وقارن الزهرى كتاب الجغرافية، الذى يقسم المغرب إلى ثلاثة أصقاع، هى افريقية (النص ص ١٠٧). والمغرب الأقصى الذى يحده جبل وتشريش شرقا، ومع ذلك فهو يشمل بعض مدن المغرب الأوسط، مثل: تنس، وتاهرت، وتلمسان، (النص ص ١١٣) ثم السوس الأقصى وحده على البحر المحيط وبه رباط ماسة ويدخل فى نطاقه مدينة سجلماسة (النص ص ١١٧).

(٤١) البكرى. ص ١٢٩ (تلمسان الحد بين المغربين)، الاستبصار. ص ١٧٦، ١٨٦. وقارن صبح الأعشى. ج٥ ص ١٤٩، ١٥٣.

«بلاد القيروان»[٤٢]، نسبة إلى عاصمتها مدينة عقبة ابن نافع قبل خرابها على ايدى بنى هلال. وهذا يعنى أن اصطلاح المغرب الأوسط انما هو نسبة إلى المغرب الأقصى أى البعيد أو المتطرف. ولما كانت بلاد الجزائر مغربا بالنسبة لأفريقية ومشرقا بالنسبة للمغرب الأقصى. أصبح هذا المغرب الأخير أحق الأقاليم بالتسمية فهو مغرب بالنسبة لكل مادونه من الأقاليم وهو ليس مشرقا بالنسبة لأى اقليم. وهذا ما يفسر كيف اتخذت البلاد المراكشية - ولها الحق فى ذلك - اسم «المغرب» حاليا دون غيرها من أقاليم افريقية الشمالية العربية.

مميزات المغرب الأقصى:

والحقيقة أنه يوجد عامل طبيعى مميز للمغرب الأقصى: ذلك أن له، إلى جانب واجهته الشمالية المشتركة المطلة على البحر المتوسط والمعروفة ببلاد الريف حديثا وعند الكتاب العرب ببلاده غمارة[٤٣]، واجهة غربية مطلة على البحر المحيط تكتنفها جبال درن، وهى جبال أطلس الحالية. وتكون سلاسل الجبال هضابا مرتفعة كما تحوى فيما بينها سهولا عالية. وهذه الواجهة المحيطية هى التى تميز المغرب الأقصى عن بقية بلاد المغرب، اذ تشق الجبال أودية الأنهار تتجه نحو المحيط. ومن أهم هذه الأنهار وادى سبو الذى يعرف أيضا باسم رافده وادى فاس، ويكون منخفضا فى شمال البلاد عرفه الكتاب باسم السوس الأدنى[٤٤]، تمييزا له عن المنخفض الآخر الواقع فى الجنوب الغربى للبلاد، والذى يشقه وادى سوس (الذى يصب عند أغادير) ويعرف بالنسبة له بالسوس أو السوس الأقصى[٤٥].

---

(٤٢) البكرى، ص ٤٧، الاستبصار، ص ١٥٤. وقارن قدامه، كتاب الخراج (ملحق ابن خرداذبة)، ص ٣٦٥ (حيث يقول أن أول ثغور المغرب افريقية «وهو المسمى القيروان»).

(٤٣) على جبل غمارة أنظر البكرى، ص ١٠٠ وتابع الأدريسى، ص ١٧٠ - ١٧١، والاستبصار ص ١٩٠ والهامش ٣ وعن تسمية ذلك الساحل بـ«الريف» أنظر ابن سعيد الجغرافيا، ص ١٣٩.

(٤٤) أنظر ابن عبد الحكم (ص ٢٠٥) ويقوم من روايته أن السوس الأدنى هو المنطقة الواقعة وراء طنجة من حيث كانت توجه العمليات العسكرية أيام موسى بن نصير. وهذا ما ينص عليه (ص ٢٢٩) عندما يقول عن عقبة بن نافع «فغزا السوس الأدنى وهو خلف طنجة». وأنظر ابن خرداذبة، المسالك ص ٨٩، ٩١ (حيث يقول أو خلف طنجة السوس. ويعرف كتاب روض القرطاس (ص ٦) أن حدّ السوس الادنى من وادى ملوية إلى وادى أم الربيع. ويعرفه بانه أخصب بلاد المغرب.

(٤٥) ابن عبد الحكم يسمى المنطقة بالسوس، وهى آخر ما وصل إليه عقبة بن (ص ١٩٨) ولكنه يحدد موقعها المتطرف فى الجنوب عندما يقول أن حبيب بن أبى عبدة. غزا السوس وأرض السودان (ص ٣١٧). ويحدد البلاذرى المسافة بين السوس الأدنى والسوس الأقصى بنيف وعشرين يوما (ص ٢٣٠) أما المسعودى مروج الذهب، ج١ عن ١٦٤، فيجعل المسافة بينهما نحوا من عشرين يوما، وعن صفه السوس الأقصى الذى يطلق عليه أيضا اسم السوس فقط، أنظر كتاب الاستبصار، ص ٢١١، وهامش ٤ وابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٢٣. ويحدد كتاب روض القرطاس السوس الأقصى من جبل درن إلى بلاد نول (ص ٦). وأنظر تحديد =

ويوجد بين وادى سبو ووادى سوس عدد من الأنهار هى (من الجنوب إلى الشمال). وادى تنسيفت [٤٦] وتقع قربه مدينة مراكش، ووادى أم الربيع وينبع من درن فى اقليم تادلا ويصب قرب آزمور [٤٧] ثم وادى بورجرج (أبو الرقراق) [٤٨] الذى يصب عند سلا والرباط (رباط الفتح).

هذه الأنهار التى كونتها سلاسل الجبال المحيطية هى التى تميّز المغرب الأقصى عن الأقاليم المغربية الأخرى. ففى المغرب الأوسط لا نجد الا أنهارا صغيرة قليلة الأهمية. أما وادى ملوية الذى يعتبر حدّاً فاصلا بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط فهو من أنهار المغرب الأقصى اذ ينبع من الجبال الجنوبية، فيما وراء تازا، ويكون من روافده نهر زيز ونهر سجلماسة [٤٩]، ويخترق بلاد مكناسة ويصب فى بحر الروم قرب جراوة [٥٠]. وأشهر أنهار المغرب الأوسط وادى شلف [٥١] الذى ينبع من جبل ونشريش الذى يمر عند منتصفه قرب مليانه ويصب شرقى مدينةمستغانم [٥٢]. أما بقية الأنهار التى يذكرها البكرى والادريسى وصاحب الاستبصار وابن سعيد فهى أودية صغيرة يأتيها الماء من العيون أو من قنن الجبال [٥٣]. وفى افريقية لانجد من الأنهار الهامة الا نهر بجردة أو مجردة [٥٤] الذى يصب بالقرب من مدينة تونس. وبعد ذلك لا توجد أنهار إلى حدود مصر، أما الأنهار التى يذكرها الكتاب فهى أما وديان تسيل أيام الشتاء أو جداول تغذيها الينابيع وخاصة فى الواحات. وهكذا حق لابن سعيد أن يقول فاذا فارقت طرابلس لا تلتقى مدينة فيها حمام ولا خباز إلى أن تصل إلى الاسكندرية [٥٥].

= الزهرى فيما سبق هـ ٤٠، ص ٧٧.

(٤٦) الاستبصار، ص ٢٠٩، ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٢٣ (نهر تانسفت).

(٤٧) الاستبصار، ص ١٨٥، ابن خلدون، العبر جـ٦ ص ١٠٢، الترجمة، جـ١ ص ١٩٥.

(٤٨) أنظر مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والأندلس ص ١٠٥ هامش١.

(٤٩) ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٤٠ (فيكون مسافته من منبع سجلماسة فى الجنوب نحو مائة ميل).

(٥٠) الاستبصار ص ١٩٣، ابن خلدون، العبر جـ٦ ص ١٠٢ والترجمة ج١ ص ١٩٥ (النص يقول أن ملوية يصب قرب غساسة، ولكن دسلان يرجح أن المقصود بلدة جراوة).

(٥١) الاستبصار، ص ١٧١.

(٥٢) أنظر ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٤١ – ١٤٢ (حيث يصف نهر الشلف بأنه مثل النيل يزيد أيام نقص الأنهار.

(٥٣) أنظر كتاب الاستبصار. ص ١٧٦ – ١٧٩ بـ الهوامش، وقارن ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٤٢ (حيث ذكر أنهار مدن: تنس. والجزائر، وبجاية، والقل).

(٥٤) الاستبصار، ص ١٢١. وقارن ابن سعيد. الجغرافيا. ص ١٤٢ – ١٤٣ (حيث ذكر انهار مدن: بونة وبنزرت، وقابس)

(٥٥) الجغرافيا، ص ١٤٦.

الوحدة الطبيعية:

رغم التسميات والتقسيمات المختلفة التى ذكرناها، فان البلاد جميعا – من مصر إلى المحيط هى – «بلاد المغرب» أولا وقبل كل شئ. وهذه التسمية العامة تحمل فى ثناياها معنى وحدة البلاد. والحقيقة أن الكتاب العرب تنبهوا إلى أنه اذا جاز أن تقسم بلاد المغرب رأسيا بالشكل الذى رأيناه، والذى ينبنى على تقسيمات ادارية أو سياسية قديمة، فانها جميعا تنقسم افقيا إلى ثلاثة أقاليم طبيعية متشابهة: أولها الاقليم الساحلى الممتد على بحر الروم من الاسكندرية إلى طنجة (على بحر الزقاق) ثم من طنجة على ساحل البحر المحيط إلى مدينة نول فى السوس[٥٦]. ونلاحظ هنا أن كثيرا من المؤرخين والجغرافيين العرب اعتقدوا أن ساحل المحيط الأطلنطى (أو قيانوس أو لتلانت أو أدلنت)[٥٧] يمتد فى استقامة من الشرق إلى الغرب بمحاذاة ساحل البحر المتوسط ولهذا السبب اعتبروا مبدأ جبال درن (أطلس العليا) المنحرفة جنوبا فى المغرب الأقصى بداية الحد الغربى للمغرب، وهذا ما أخذ به ابن خلدون[٥٨]. وعلى هذا الأساس فسروا توقف التوسع العربى عند بلاد السوس الأقصى التى اعتبروها نهاية أرض المغرب • أى نهاية شمال افريقية)[٥٩]. والاقليم الثانى هو المناطق الصحراوية الممتدة من غرب مصر إلى جنوب المغرب الأقصى، وهو اقليم الحدود الجنوبية حيث الجبال التى تعرف عند عرب البادية بالعرق[٦٠]. وبين الاقليمين تمتد سلاسل الجبال موازية للبحر وللمحيط وتكون اقليما طبيعيا ثالثا (بعضه يعرف باسم التل). وله مميزاته الخاصة التى تتراوح فى بعض الأحيان مابين صفات الأقليم البحرى والأقليم الصحراوى[٦١]

---

(٥٦) ابن خلدون، العبر، الفصل الخاص بمواطن البربر، جـ٦ ص ٩٨ والترجمة جـ١ ص ١٨٨.

(٥٧) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ص ٩٨، النص العربى يكتب لتلانت فى شكل البلاية قارن الترجمة ج١ ص ١٨٧ وهامش ٣.

(٥٨) ابن خلدون، العبر، جـ١ ص ١٠٠ والترجمة جـ١ ص ١٩٤ وهامش ١.

(٥٩) أنظر فيما بعد غزوة عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى وكيف اعتقد أنه وصل إلى نهاية المعمور غربا عندما وصل إلى وادى نفيس حيث ينحرف شاطئ المحيط نحو الجنوب الغربى.

(٦٠) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ص ١٠٠ والترجمة جـ١ ص ١٩٠.

(٦١) أنظر ابن خلدون، جـ٦ ص ١٠١ والترجمة جـ١ ص ١٩٣. وعلى أساس هذا التقسيم الثلاثى يميز صاحب كتاب الاستبصار بين اقاليم المغرب، فيخصص للبلاد الساحلية فصولا (ص ١١٠) وللبلاد الصحراوية والقريبة من الصحراء فصولا أخرى (ص ١٤٢).

والبحر هو عامل الربط الأول بين الأقليم الساحلي: فهو يوصل بين مدنه البحرية ومراسيه، وهو الذى يلطف من مناخه ويمده بالرياح المحملة بالأمطار، فهو على الجملة الذى يعطى هذا الاقليم شكله الطبيعى الموحد أو المتجانس. وإلى جانب البحر يربط الطريق التاريخى الممتد برا من برزخ السويس إلى تازا وفاس بين مختلف المناطق الساحلية. وكانت تبلغ مسافة هذا الطريق من مصر إلى فاس ١٤٦ مرحلة، ومحطاته الكبرى هى: برقة، وطرابلس، والقيروان، وسطيف، وتاهرت ثم فاس[٦٢].

والأقليم الصحراوى يمتد من واحات مصر إلى واحات برقة إلى فزان إلى زويلة إلى وارجلا[٦٣] (جنوب المغرب الأوسط) إلى سجلماسة التى عرفت منطقتها فيما بعد باسم تفللت أو تفيلالت، نسبة إلى أسرة الشرفاء الفيلاليين) إلى وادى درعة (نحو الجنوب الغربى) إلى حدّ البحر المحيط غربا[٦٤]. ورغم ما يوصف به هذا الاقليم من أنه صحراء موحشة. الا أن الأمر ليس كذلك.

فمنابع المياه والواحات تنتشر فى آرجائه وبفضلها أمكن للقوافل أن تخترقه من أقصاه إلى أقصاه فى طريق أقصر من الطريق الشمالى بحوالى ثلث المسافة. فطريق البرية من القيروان إلى سجلماسة كان يبلغ ٨٠ (ثمانين) مرحلة، وهو فى العمارة ١٢٠ (مائة وعشرون) مرحلة[٦٥]. ويصف العياشى فى رحلته (القرن ١١ هـ/ ١٧م) ذلك الطريق الصحراوى الذى قطعه من تفللت وسجلماسة إلى نفزاوة وطرابلس وصفا دقيقا. والذى يلاحظ هو أنه رغم بعد الطريق عن العمران الا أن الماء متوفر على طوله فى أماكن كثيرة. ففى المنطقة شرق سجلماسة توجد أحساء

---

(٦٢) الاصطخرى، ص ٣٧.

(٦٣) وتكتب وارجلا أيضا فى شكل واركلا (انظر الصفحة التالية)، وفى شكل واركلى (انظر العبر ج ٦ ص ١٠٠)، وفى شكل واركلان (انظر ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربى، بيروت، ص ١٢٦)، التى ربما كانت نسبة إلى بنى واركلان من قبائل البربر الذين يذكرهم ابن خرداذبة (المسالك، ص ٩١). والمفروض أن حرف الكاف فى الكلمة ينطق كما تنطق الجيم المصرية، ولهذا نجد الاسم فى الادريسى (طـ. ليدن. ١٨٦٤، ص ٤، ٨، ١١، ٢٠، ..) فى شكل «وارقلان».

(٦٤) الاصطخرى، ص ٣٣، وانظر ابن خلدون، جـ ٦ ص ١٠٠ والترجمة، جـ١ ص ١٩٠ - ١٩١. وعن تحقيق موضع سجلماسة بموضع تفللت الحديثة، أنظر بلاد السودان الغربية لـ «كولى» (W.D. Cooley) بالانجليزية، لندن ١٩٦٦. هـ ١ ص ٥ (حيث يرجع الفضل إلى شنير (Chenier).

(٦٥) الاصطخرى، ص ٣٧- ٣٨.

تحفر فى رمل طيبة الماء[٦٦]. وبعد هذه الأحساء يوجد وادى جير وهو كثير المرعى تجتمع اليه السيول من المسافات البعيدة[٦٧].

أما الأراضى الموحشة التى لا خصب فيها ولا ماء فهى الهضاب التى تعرف باسم الحمادة، وهى عبارة عن أرض حرشة صخرية أو محجرة مرتفعة، ومن أهمها: الحمادة الكبيرة الواقعة بين سجلماسة ووادى جير، والتى تقطعها القوافل وهى تحمل مؤونتها من الماء فى ثلاثة أيام[٦٨]، ثم الحمادة التى تفصل وادى جير عن وادى الساروة الذى تمتد قراه مسافة عشرة أيام فى أعماق الصحراء إلى قريب من مدينة توات فى قلب مسافة عشرة أيام فى أعماق الصحراء إلى قريب من مدينة توات فى قلب صحراء الجزائر الحالية[٦٩]، ثم الحمادة الواقعة بين وادى الساروة وتوات [٧٠] (مجمع القوافل الآتية من بلاد السودان)[٧١]، ثم الحمادة الكبيرة الواقعة فى الطريق المؤدى من وادى ايكون (ايجون) إلى واركلا (وارجلا فى جنوب بلاد الزاب قبلى بجاية)، وهى مسيرة أربعة أيام فى أرض جرداء حرشاء[٧٢]. والطريق يستمر من وارجلا إلى وادى ريغ [٧٣]ثم إلى وادى سوف[٧٤]. وقبل الوصول إلى نفزاوة فى الجنوب التونسى توجد السبخة، وهى الأرض الملحة الهشة التى يسوخ فيها من ينحرف يمنه أو يسره عن حدود الطريق الذى لا يمشى فيه الا بعير واحد أثر بعير[٧٥].

---

(٦٦) العياشى. الرحلة، مخطوط طرابلس ص ١٣ خلف.

(٦٧) نفس المصدر.

(٦٨) نفس المصدر، ص ١٣ خلف، ص ١٤ وجه. وعن الحمادة أنظر ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٠، والترجمة ج١ ص ١٩١ وعن وادى جيير الذى يصب فى الصحراء عند تمنطيت ورجان (ركان) أنظر ج٦ ص ١٠٢ والترجمة ج١ ص ١٩٦ وهامش ١ حيث يذكر دسلان أن نهر جير ظل يحمل اسمه القديم وهو (Ger).

(٦٩) العياشى، الرحلة، المخطوط، ص ١٤ وجه، وقارن ابن خلدون (ج٦ ص ١٠٣) الذى يسميها قصور توات.

(٧٠) نفس المصدر، ص ١٥ وجه.

(٧١) نفس المصدر، ص ١٦ وجه.

(٧٢) نفس المصدر، ص ٣٥ خلف – ٣٦ وجه. وعن وارجلا أنظر فيما سبق، ص ٨١، هـ ٦٣.

(٧٣) نفس المصدر، ص ٣٩ وجه. وقارن ابن سعيد كتاب الجغرافيا، ص ١٢٦ (حيث التسمية «بلاد ريغ» شرق وارجلان، وطولها نحو ٥ أيام، وهى بلاد نخل ومحمضات واسم قاعدتها «تمارية»).

(٧٤) العياشى، المرحلة، المخطوط، ص ٤١ وجه.

(٧٥) نفس المصدر، ص ٤٢ وجه. وقارن ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٢٦ (حيث يصف تلك المنطقة بأنها: «الأرض السواخة التى هى كالصابون، وطالما هلك فيها من أخذ جنوبا عن بلاد الجريد، وكان جاهلا بها»).

بلاد المغرب (ومصر) بالشكل الطبيعى والأقاليم المختلفة

ونفزاوة من الاقليم المعروف باسم قسطيلية والمشهور باسم بلاد الجريد وبلاد التمر أو جزائر التمر لكثرة نخيله، ومن مدنه نفطه وتورز وقفصه وبسكرة، وهو يمتد في جنوب تونس وما يتاخمه من أرض طرابلس والجزائر[٧٦]. ولقد بيّن ابن خلدون - بما عرف عنه من عمق الملاحظة - أن هذا اللون من الاقليم الطبيعي يمتد من سجلماسة ووادى درعة إلى واحات مصر وذلك فيما بين جنوب الجبال التى تحد بلاد التل (الهضاب الشمالية الخصبة) والرمال الجنوبية المعروفة «بالعرق» والتى تحد المغرب من جهة السودان، وعلى ذلك فبلاد الجريد (أى بلاد النخيل) لا تقتصر على اقليم قسطيلية كما تعارف على ذلك الجغرافيون بل تشمل حقيقة كل الشريط العظيم الممتد جنوبا (من الغرب إلى الشرق) من السوس الأقصى ومدينة تارودانت إلى سجلماسة على سمت فاس، إلى فجيج على سمت تلمسان، إلى سفوح جبل راشد جنوب تاهرت، إلى وارجلا على قبلة بجاية. وبالقرب منها وادى ريغ، إلى اقليم الزاب ومدينته بسكرة، إلى بلاد الجريد (قسطيلية)، إلى نفزاوة ثم فزان وودان وأخيرا واحات جنوب برقة[٧٧].

وهذا يعنى أن الصحراء كانت - مثلها مثل البحر - طريقا للمواصلات والربط بين أقاليم المغرب المختلفة أكثر منها منطقة للفصل والعزل كما قد يتوهم. وكذلك الحال بالنسبة لمنطقة الجبال التى تعتبر هى الأخرى عاملا من عوامل الربط والوحدة بفضل امتدادها فى سلاسل أفقية محاذية للسواحل البحرية، فهى أشبه بالهيكل العظمى الذى يربط البلاد ويشد بين أطرافها من البحر المحيط حتى

---

(٧٦) أنظر ابن حوقل، ص ٩٢، البكرى ص ٤٧، ٤٨، ٤٩، الادريسى. ص ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، الاستبصار ص ١٥٠، ١٥٥، ١٥٧ والهوامش، ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٢٧، ابن خلدون ج٦ ص ١٠١، والترجمة ج١ ص ١٩٢، الزهرى كتاب لجغرافية، النص ١٠٧، وقارن الرحلة الورثيلانية تصحيح محمد بن أبى شنب. ط٢ بيروت تصوير ١٩٧٤ ص ٩٣ (عن بسكوة وبلاد الزاب). ص ٦٧٢ عن قسطيلية ويقول العياشى عن نفزاوة انها كثيرة النخل حتى شبهت قرأها بقرى ريف مصر، وحتى قيل ان اسمها (الذى عرفت به قبل الاسلام) أصله ألف زاوية (لكثرة عمرانها) ثم حرف إلى نفزاوة (المخطوط، ص ٤٢ وجه).

(٧٧) ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٠ -١٠١ والترجمة ج١ ص ١٩٢ - ١٩٣ وهذا ما يظهر حقيقة فى وصف الادريسى (ص ١٣٢ ومابعدها)، وما يظهر أيضا فى وصف ابن سعيد فى كتاب الجغرافيا للجزء الأول والثانى من الاقليم الثالث (ص ١٢٤ ومابعدها) ولكن الفضل لابن خلدون فى تقرير نظرية حزام النخيل، كما قلنا. وعن الواحات، أنظر البكرى، ص ١٤ وتابع، والاستبصار، ص ١٤٧ والهانش ٢ وابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٢٨. وانظر شكل ١ ص٨٣.

برقة[٧٨] . وإلى جانب وحدة التضاريس التى تحققها الجبال فانها بفضل الوديان المحاذية لها، والتى تحويها بين ضلوعها عملت على وصل الأقاليم الشرقية بالأقاليم الغربية، وان كانت قد جعلت المواصلات صعبة نسبيا بين المناطق الساحلية والبلاد الداخلية، كما أنها كونت عددا من المناطق المنعزلة التى احتفظت خلال العصور التاريخية باتجاهات انفصالية مما جعل التوحيد السياسى فى بعض العصور من الصعوبة بمكان.

ويعزى جوتييه صعوبة الوحدة السياسية إلى عدم وجود مركز طبيعى للبلاد يمكن أن تتجمع حوله الأقاليم المختلفة بسبب امتداد المغرب أفقيا على طول ساحل البحر والمحيط لمسافة ٣ آلاف كيلو متر، بينما لا تتسع الأقاليم الخصبة الا إلى حوالى ١٥٠ كيلو متر[٧٩] . ولكن وديان الأنهار التى تتجه فى معظمها من الأقاليم الداخلية المرتفعة نحو البحر خففت من حدة صعوبة المواصلات بين الدواخل والسواحل، وكذلك عملت طرق القوافل الرأسية الموصلة بين المراكز الصحراوية والمدن الساحلية على الوحدة والربط بين الأقاليم الخصبة والأقاليم الصحراوية. وبذلك أعطت للبلاد عرضا عميقا يتناسب مع طولها الكبير وجعلت الصحراء جزءا لا يتجزأ من المغرب. وهذا ما أدركته ثورة التحرير الجزائرية أخيرا عندما رفضت، ابان مفاوضاتها مع فرنسا من أجل تقرير المصير، مبدأ التخلى عن الصحراء. والحقيقة أن تاريخ البلاد يتلخص فى طبيعة العلاقات بين أهل الحضر وأهل البادية. والحقيقة أيضا أن أطراف الصحراء والبادية كانت آخر ملاجئ يلوذ بها الوطنيون فى مدافعتهم للغزاة والمستعمرين.

السكان

التسمية (البربر):

هذه الوحدة الجغرافية التى حاولنا ايضاح معالمها عملت - بطبيعة الحال ومنذ أقدم العصور - على ايجاد وحدة بشرية أو نوع من القرابة القريبة بين أهل

---

(٧٨) أنظر ابن سعيد، كتاب الجغرافيا: حيث النص على اتصال جبل نفوسه بجبل دمر وما يتصل به من الجبال إلى جبل (درن) الذى يدخل فى البحر المتوسط (ص ١٤٥) عند طرف أجادير لمسافة ٦ أميال (ص ١٢٣)، وأنظر فيما سبق، ص ٧٤ وهـ٢٣ : حيث يعتبر الكتاب، كما قلنا جبل نفوسه جنوب طرابلس وكذلك جبل برقة (الجبل الأخضر) أقصى امتداد لجبل درن (أطلس) فى الشرق وأنظر شكل ١ ص ٧٦.

(79) E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord. p. 11.

البلاد من حيث السلالة والدم، ومن حيث النشاط الاجتماعي. ولقد عرف العرب سكان المغرب باسم «البربر». ولكننا لا نظن أن العرب عرفوا شعب المغرب بهذا الاسم قبل الاسلام، اذ لا نعرف أن كانت هذه التسمية قد وجدت فيما تأكدت صحته من أخبار العرب فى الجاهلية، فالصلة بين جزيرة العرب وافريقية الشمالية لم تكن قوية. والمفهوم أن علاقات العرب المباشرة لم تذهب آنذاك إلى إلى أبعد من مصر غربا. أما أخبار اليمن القديمة وما تذكر من فتوحات ملوك حمير فى الصين وفى البربر فانها روايات أسطورية لم تخترع الا فى الاسلام ولم تهدف الا إلى التغنى بمناقب القحطانية(٨٠). ولكن العرب لما كانوا على علاقة بالرومان والبيزنطيين فمن الممكن أن يكونوا قد عرفوا كلمة «البرابرة» أو «البرابر» أو «البربر» بمعناها العام الذى عرفته أثينا (Barbaroi) أو روما (Barbari) والذى يعنى الشعوب الجاهلية أو الهمجية أو الخارجة عن نطاق الحضارة الرومانية.

ولما كان الرومان قد أطلقوا هذه التسمية على كل الشعوب الجرمانية التى هاجمت امبراطوريتهم فى العصور الوسطى المبكرة كان من الطبيعى أن يدخل شعب المغرب تحت نطاق هذه التسمية لسببين: أولهما أنه لم يستكن للرومان ولم يهضم الحضارة الرومانية بل قاوم الحكم الرومانى وسبب للدولة كثيرا من المتاعب(٨١). وثانيهما أن البلاد تعرضت لغزو البرابرة الجرمان من الوندال فى القرن الخامس الميلادى وهؤلاء جعلوا من المغرب ملكية بربرية (بالمعنى الأوروبى) إلى أن غلبتهم القسطنطينية أيام جستنيان وقائده بليزاريوس. وهنا يمكن لنا أن نتساءل أليس من المحتمل أن تكون كلمة البربر قد أطلقت على أهل المغرب عامة

---

(٨٠) أنظر ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، باب فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط، ص ١٢. أما عن روايات الاخباريين من اليمنية فى فتوحات ملوك اليمن القدماء فى بلاد المغرب والأندلس، فانظر كتاب التيجان لوهب بن منبه، ص ٤٨ – ٤٩، ٩٢ – ٩٣ وقارن ياقوت، معجم البلدان، ط. وستنفلد، ج١ ص ٣٢٤. ولا بأس أن يكون المقصود بفتوح اليمن فى المغرب فى العصور القديمة هى فتوحهم فى سواحل الصومال والحبشة، مما هو ثابت تاريخيا.

(٨١) أنظر جوتييه (Gautier, Le Passé de l' Afrigue, P. 125) الذى يقول أن الكتاب اللاتين أطلقوا كلمة أفرى (Afri) أى الافريقيين على الوطنيين الذى خضعوا لحكم قرطاجنة. أما الوطنيون الذين كانوا يثورون على الامبراطورية الرومانية فكانوا يعرفون بأسماء قبائلهم كما كان يطلق عليهم اسم موز (Mauri) وبربر (Babari)ولم يطلق عليهم اسم الافريقيين ونسبة إلى المور عرفت اقاليم المغرب الأقصى الخاضعة للدولة الرومانية باسم مورطانية (Mauritaine) وهو الاسم الذى نقله الجغرافيون العرب (البكرى ص ٢١) ومنه اشتقت كلمات Moros, Maures, Moors الأوروبية بالانجليزية والفرنسية والاسبانية.

فى هذا الوقت وأنه قصد بها الوندال أو خلفاؤهم الذين بقوا فى المغرب ومن انضم اليهم أو تأثر بحضارتهم من أهل البلاد؟ وعن هذا الطريق يكون العرب قد نقلوا هذه التسمية - كما نقلوا أسماء الأقاليم - فأطلقوا اسم البربر على شعب المغرب، ولكنهم لم يقصدوا معنى الكلمة الجارح (الذى يقصد فى اللغات الأوروبية الحديثة) وما كانوا ليقصدوه. فموقفهم من روما ومن الحضارة الرومانية لم يكن يختلف عن موقف البربر منها.

ولقد حاول الكتاب العرب تفسير التسمية حسب مفاهيمهم، فأوردوا فى ذلك عددا من الآراء، ولكنه مما يسترعى الانتباه أن أحدا منهم لم يرجع كلمة البربر إلى أصلها الصحيح - حتى أولئك الذين أرجعوا كثيرا من التسميات القديمة إلى أصولها الصحيحة (كما ذكرنا فى تسمية البلاد) مثل البكرى والادريسى وحتى ابن خلدون. فلقد عرض ابن خلدون هذه الآراء المختلفة عن مشاهير النسابة ومن كتب فى الأنساب مثل ابن الكلبى (أول من ألف فى الأنساب - توفى ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م)، وابن قتيبه (توفى ٢٩٦هـ/ ٩٠٧م)، والطبرى (توفى ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، والصولى (توفى ٢٣٥هـ/ ٩٤٧م)، والمسعودى (توفى ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م)، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى (له كتاب فى الأنساب - توفى بنيسابور ٣٦٦هـ/ ٩٦٧م) وابن حزم القرطبى (توفى فى أول النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ ١١م) وأبو عمر ابن عبد البر (ولد بقرطبه وقاضى لشبونه توفى ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، والبكرى (توفى بالمرية ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، والسهيلى (ولد بمالقة ٥٠٨هـ / ١١١٤م وتوفى بمراكش ٥٨١ هـ/ ١١٨٥م)، ومالك بن المرحل (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى/ ١٣م) [٨٢] ووجه اليها النقد - حسب الأصول التى رسمها فى المقدمة - ولكنه لم يشر إلى وجود الكلمة عند الروم أو الفرنج.

ونلاحظ أن هذه الآراء تنقسم إلى قسمين: أولهما، تفسير كلمة البربر» تفسيراً لغويا لأن لغة القوم رطانة أعجمية تختلط فيها الأصوات التى لا تفهم،

---

(٨٢) أنظر ابن خلدون طبعة القاهرة، الفصل الخاص بأنساب البربر جـ٦ ص ٨٩ - ٩٧. (ابن الكلبى ص ٩٤ - ابن قتيبة ص ٩٣ - الطبرى ص ٩٣، ٩٤ - الصولى ص ٩٣، ٩٤ - المسعودى ص ٩٣ - ٩٤ - الجرجانى ص ٩٣ - ابن حزم ص ٩١ - ابن عبد البر ص ٩٣، ٩٦ - البكرى ص ٩٤، ٩٥ - السهيلى ص ٩٤ - مالك بن المرحل ص ٩٣) والترجمة ص ١٦٨ - ١٨٥.

فقيل لهم «ما أكثر بربرتكم»! كما يقال بربر الأسد اذا زأر بأصوات غير مفهومة»[٨٣]. أما ثانيهما: فتفسير كلمة «البربر» حسب عادة العرب في تقسيم الشعوب وعلى الأسس المتعارف عليها عندهم فى علم الانساب، اذ قيل أن شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين وهو «بر» – وهذا رأى ابن حزم نقله عن يوسف الوراق (والد محمد بن يوسف الوراق أحد مراجع البكرى الهامة – توفى سنة ٣٦٣/ ٩٧٣) الذى نقله عن أيوب ابن أبى يزيد صاحب الحمار[٨٤]– أو «بربر» – وهذا رأى الصولى [٨٥](كما ينتسب العرب إلى يعرب مثلا). وهكذا استقر علم الأنساب بالمغرب، ومع مرور الوقت ظهر المتخصصون فيه من أبناء البلاد، ولم يأت القرن الرابع الهجرى حتى كانت أنساب البربر قد دونت بالعربية[٨٦]، وأصبحت علما مثل أنساب العرب. ومن مشاهير نسابه البربر الذين يذكرهم ابن خلدون: سابق بن سليم المطماطى وهانئ بن مسدور الكومى، وكهلان بن أبى لوا[٨٧]، وهانئ بن بكور الضريسى، وأيوب ابن أبى يزيد[٨٨].

أصل البربر:

والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التى تقسم العرب إلى شعبين كبيرين ينحدران من قحطان ومن عدنان – نموذجا، فقسموا قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين، هما: البرانس والبتر. وقالوا ان الجماعة الأولى أبناء برنس، وان الجماعة الثانية أبناء مادغيس الذى لقب بالأبتر[٨٩]. ولكى تتفق هذه الرواية مع الرواية التى تقول أن قبائل البربر تنتسب إلى أصل واحد (كما ينتسب

---

(٨٣) ابن خلدون. العبر، ج٦ ص ٨٩ والترجمة، ج١ ص ١٦٨، ١٧٦. وهناك رأى آخر يقول أن العرب لاحظوا أن لغة البربر يكثر فيها استعمال حرفى الباء والراء فقالوا ما هذه البربرة (البارابارا).

(٨٤) ابن خلدون، العبر، ج٦ ص ٨٩ والترجمة، ج١ ص ١٦٨ – ١٦٩. وأبو يزيد صاحب الحمار هو الثائر الاباضى المشهور الذى خرج على الفاطميين بالمغرب. وابنه هو أبو محمد أيوب الذى سار إلى الأندلس مبعوثا عن والده وأقام بعض الوقت فى قرطبه (انظر ترجمة ابن خلدون. ص ٢٨ وهامش١).

(٨٥) ابن خلدون. العبر، ج٦ ص ٩٤. والترجمة، جـ١ ص ١٧٦.

(٨٦) أنظر ترجمة ابن خلدون ج١ ص ١٦٨ هامش ٣ لدسلان.

(٨٧) ابن خلدون. ج٦ ص ٨٩ والترجمة ج١ ص ١٦٩ – ١٧٠ (نلاحظ اختلافات فى الأسماء فى النص العربى فهو مرة يكتب سالم بن سليم ومرة سابق بن سليم كما نجد أن هانئ بن مسدور مكتوبة فى شكل صابى بن سرور).

(٨٨) نفس المصدر ج٦ ص ٩٤ والترجمة ج١ ص ١٧٨.

(٨٩) ابن خلدون ج٦ ص ٨٩ والترجمة ج١ ص ١٦٨.

القحطانية والعدنانية جميعا إلى ابراهيم)، قيل: ان برنس والأبتر هما ابنابر[٩٠] جدهم جميعا. ولكن بعض نسابة البربر لم يوافقوا على هذا الرأى الذى قال به ابن حزم فى جمهرته، فقالوا، ان (لكل) من الجماعتين جدها الخاص بها فالبرانس أبناء بر بن مازيغ بن كنعان، والبتر أبناء بر بن قيس بن عيلان[٩١].

وهذه النسبة الأخيرة إلى الكنعانيين وإلى القيسية تعنى أن البربر قبائل مشرقية الأصل هاجرت إلى المغرب فى ظروف تاريخية معينة، وهذا ما يقوله النسابه فعلا. ولقد ناقش ابن خلدون اختلاف الكتاب فى هذا الأمر، وعرض آراءهم. فلقد قال الكتاب الأوائل مثل ابن الكلبى وابن قتيبة والجرجانى والطبرى ومن حذا حذوهم مثل المسعودى والبكرى وابن الأثير أن أصل البربر من الشام وانهم طردوا من فلسطين أيام داود الذى قتل ملكهم جالوت[٩٢]. وقال البعض مثل الصولى وأبو عمر بن عبد البر انهم من مصر من أبناء مصرايم بن حام أو من أبناء قبط بن حام[٩٣]. كما تذكر بعض الروايات أن أصل البربر جميعا من اليمن وأنهم أبناء النعمان بن حمير بن سبأ[٩٤]. ولقد رأى البعض مثل مالك بن المرحل الذى كان فى خدمة السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى والمتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى – أن يوفق بين هذه الروايات جميعا، فقال: انهم من أصول

---

(٩٠) نفس المصدر.

(٩١) ابن حمدون، ج٦ ص ٨٩ والترجمة، ج١ ص ١٦٩ وانظر شكل ٢ ص ٩٢. وقارن معجم البلدان لياقوت، ط. وستنفلد، ج١ ص ٥٤١.

(٩٢) ابن خلدون، ج٦ ص ٩٣ – ٩٦ والترجمة، ج١ ص ١٧٧، ١٨٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٤، ١٧٧ (حسب الترتيب فى المتن). وقارن، ابن عبد الحكم، ص ١٧٠، المسعودى حـ١ ص ٥٥، ج٢ ص ١١٩ ابن خرداذبة، ص ٩١، ابن الأثير (سنة ٢٢)، ج٣ ص ١٣، الادريسى، ص ٥٧. اما ابن حوقل (ص ٩٧. ١٠١) فانه يقول عن البربر: «وجميعهم من ولد جالوت الا اليسير منهم». وقارن معجم البلدان، ط. وستنفلد، ج١ ص ٥٤١، وانظر ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ص ١٢٩ (حيث يشير إلى جبل من جبال جنوبى أسيوط اسمه جبل جالوت، ويقول أنه نسب إلى جالوت، على زعمهم لأنه لما فر من فلسطين حيث قتل جالوت الذى كان قبله، أقام بهذا الجبل، ومنه دخل بولده وقومه إلى المغرب).

(٩٣) ابن خلدون، ج٦ ص٩٦ والترجمة، ج١ ص ١٧٦، ١٨١.

(٩٤) نفس المصدر، ج٦ ص ٩٣ والترجمة ج١ ص ١٧٤، وقارن المسعودى، المروج ج٢ ص ١٤٤ (حيث يقول فى تنازع الناس فى بدء نسب البربر أن منهم من يقول أنهم من غسان وغيرهم من اليمن الذين تفرقوا بعد سيل العرم، ومنهم من يرى أنهم من قيس عيلان أو غير ذلك.

متعددة: حميرية ومضرية وقبط وعماليق وكنعانية وقريشية اجتمعت فى الشام[٩٥].

ولقد كذب ابن خلدون تلك الآراء ففند أن البربر أبناء ابراهيم، ودحض قصة جالوت، وقال ان مسيرهم من الشام تحت قيادة افريقش أسطورة لا تصدق، ونفى أنهم حميريون أو مضريون. وأثبت ابن خلدون رأى من قال أن البربر أبناء كنعان بن حام بن نوح – حسب تقسيمه للشعوب –، وأنهم أقارب الفلسطينيين وليسوا منهم[٩٦]، رغم أنه قال فى أول كلامه عن البربر انهم جيل من الآدميين سكنوا المغرب منذ القدم[٩٧]. والحقيقة أن فكرة هجرة البربر من الشام إلى الشمال الأفريقى يمكن أن تحوى شيئا من الحقيقية إذ يمكن القول انها تعبر عن الهجرات الفينيقية التى استقرت فى المغرب والتى مثلتها قرطاجنة التى ظلت عاصمة المغرب إلى مجئ العرب. وهذا يعنى أن روايات الكتاب العرب وإن كانت من ناحية الشكل ذات طابع أسطورى الا أنها تحمل فى ثناياها أشياء من الحقائق التاريخية.

ولقد حاول جوتييه فى الفصول التى كتبها عن ماضى شمال افريقيا أن يلقى بعض الأضواء على هذه الروايات العربية بمقارنتها ببعض النصوص اللاتينية واليونانية السابقة. ونجح فى لفت الأنظار إلى عدد من الملاحظات الذكية ولو أن كثيرا منها قوبل بنوع من الفتور أو التحفظ من جانب المستعربين[٩٨]. ومن أهم هذه الملاحظات الاصرار على الآثار العميقة التى تركتها قرطاجنة[٩٩] فى المغرب: فتاريخ المغرب الحقيقى يبدأ بالحروب البونية[١٠٠]، واللغة البونية بقيت آثارها فى البلاد إلى القرن السادس الميلادى[١٠١]. وعلى أيام القديس أغسطين أى فى القرن الخامس الميلادى كان الفلاحون فى منطقة بونة يقولون أنهم

(٩٥) نفس المصدر، ج٦ ص ٩٤، والترجمة ج١ ص ١٧٦.

(٩٦) نفس المصدر، ج٦ ص ٩٧ والترجمة ج١ ص ١٨٤.

(٩٧) نفس المصدر، ج٦ ص ٧٩ والترجمة ج١ ص ١٦٧.

(98) Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, pp. 130, 145, 200.

(٩٩) جوتييه، ماضى افريقية الشمالية (بالفرنسية) الفصل الثانى ص ٤٣.

(١٠٠) نفس المصدر، ص ٥٩.

(١٠١) نفس المصدر، ص ١٣٠.

كنعانيون[١٠٢]، *وهى نفس الفكرة التى يسجلها المؤرخ البيزنطى بركوب* (Procope) عندما يقول أن أهل البلاد (المورطانيين) أتوا إلى أفريقيا من بلاد كنعان عندما غزاها الاسرائيليون[١٠٣]. ويلاحظ جوتييه أن أسطورة بروكوب هذه هى نفس أسطورة ابن خلدون ولكنه ينفى احتمال تأثر ابن خلدون بالمؤرخ البيزنطى.

ونلاحظ هنا أنه رغم عدم وجود علاقة بين بروكوب وابن خلدون الا أن المؤرخ المغربى ينقل عن قدامى المؤرخين المشارقة وأن أوثق من قال أن أصل البربر من الكنعانيين - كما أشرنا - هو الطبرى. وهنا نكون أمام أحد احتمالين: أما أن يكون الكتاب العرب الأوائل نقلوا بعض معلوماتهم الأولى عن المغرب وشعوبه عن كتاب بيزنطيين مثل بروكوب أو أنهم استقوا هذه المعلومات من واقع البلاد نفسها عن طريق شهود العيان الأوائل. وربما كان الأقرب إلى الصحة أنهم أخذوا معلوماتهم عن الطرفين جميعا، اذ المعروف أن المؤرخين العرب تأثروا بكتب سابقيهم من مؤرخى الروم والفرس كما أنهم زادوا عليها وأضافوا اليها نتائج دراستهم وتجاربهم.

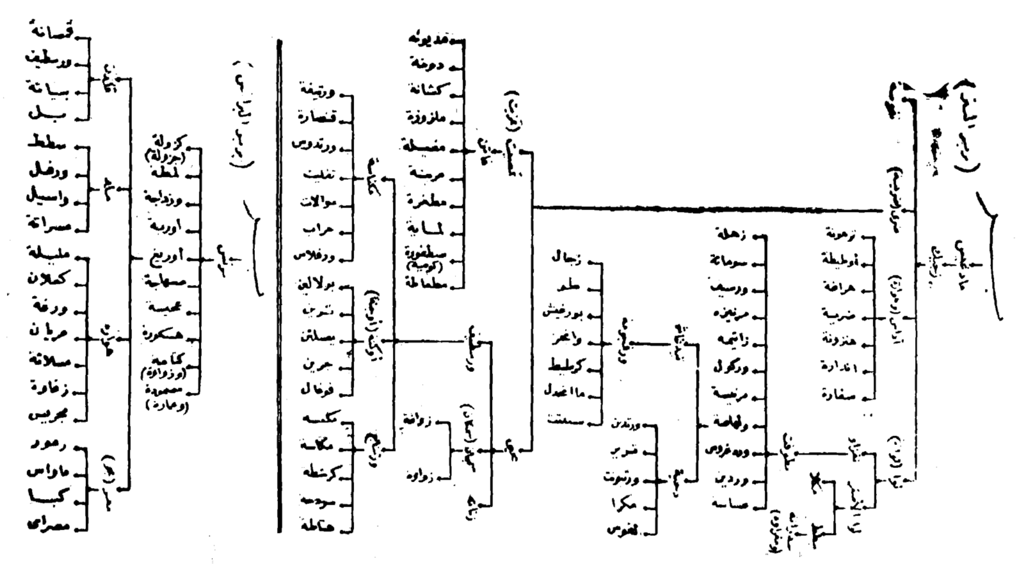
ورغم ما لرأى الطبرى (الذى يقول أن البربر من بلاد كنعان) من الوزن وهو الرأى الذى رجحه ابن خلدون وأخذ به دون غيره. ورغم ما قلناه من أنه يحوى بعض الحقيقة فإن الآراء الأخرى لها وجهة نظرها وربما كان أقربها إلى الصحة ذلك الرأى الذى عمل على التوفيق بينها جميعا ، وهو رأى ابن المرحل الذى قال: ان البربر حميرية ومضرية وقبط وعماليق وكنعانية وقريشية[١٠٤]. وهذا يعنى أنهم أخلاط من عرب الجزيرة على اختلاف قبائلهم ومن قبائل الشام والمصريين. ولقد أشرنا إلى الصلة الوثيقة بين البربر والشام عن طريق قرطاجنة، وهذا يعنى العلاقة مع بلاد العرب ضمنا. هذا ولو أن جوتييه حاول أن يفسر قرابة البربر بالحميرين كما يذكرها الكتاب العرب على أنها نفس القرابة مع القرطاجنيين أو البونيين، فقال: أن الأمر اختلط على الكتاب، ودلل على ذلك بأن حمير يسمى

---

(١٠٢) نفس المصدر، ص ١٣٩.

(١٠٣) نفس المصدر، ص ١٤٠ - ١٤١.

(١٠٤) أنظر فى الصفحات السابقة، ص ٨٨ هـ ٨٩.



قبائل البتروالبرانس – ابن خلدون

فى الآثار المصرية بون أو بونى[١٠٥]. أما عن القرابة بين البربر والمصريين فهى قرابة طبيعية بحكم الجوار ووحدة البيئة الجغرافية. فعندما حلت فترة الجفاف بأقاليم افريقيا الشمالية فى العصور القديمة لجأ كثير من أهلها إلى وادى النيل[١٠٦]، كما أن علماء اللغة وجدوا قرابة بين اللغة المصرية القديمة واللغة البربرية وبعض لغات السودان[١٠٧] ولقد خصص جوتييه فى كتابه عن (ماضى افريقيا الشمالية) فصلا لتبيان العلاقة الأزلية بين مصر، والمغرب وانتهى إلى القول بأن البربر يرجعون - حسب ما يفهم من الآثار القديمة الموجودة فى الصحراء - إلى أصول زنجية مصرية ايجية[١٠٨]، وهى فكرة ابن المرحل تقريبا.

تقسيم قبائل البربر:

ويقسم النسابة قبائل المغرب على جماعتى البربر الكبيرتين كالآتى:

(أ) البرانس[١٠٩]، ومن قبائلهم المشهورة عشر: ازداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريغة. وينضاف اليهم حسب رأى البعض: لمطة وهسكورة وجزولة (كزولة).

وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة: فقبيلة هوارة تنحدر من أوريغة، وقبيلة مليلة تنحدر من هوارة وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة (شكل ٢ ص ٩٢).

---

(١٠٥) جوتييه، ماضى افريقية (بالفرنسية)، ص ١٤٣.

(106) Jean Vercoutter, L"Egypte Ancienne coll. (Que sais- Je), p. 27.

نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ج١ مصر، طبعة ١٩٦٣ ص ٦. وبسبب القرابة مع المصريين يمكن تفسير الرواية التى يوردها ابن سعيد والتى تقول ان جالوت وقومه استقروا قبل أن يدخلوا المغرب جنوبى مدينة أسيوط، فى صعيد مصر، فى الجبل الذى عرف باسمه هناك (انظر فيما سبق، ص ٩٠ هـ ٩٥).

(١٠٧) انظر نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ج١ مصر، طبعة ١٩٦٣ ص ٧.

Jean Vercoutter, L'Egypte Ancienne, coll. que sais - je, p. 29.

(١٠٨) جوتييه: ماضى افريقية الشمالية (بالفرنسية) ص ٤٢ (وانظر الفصل الخاص عن علاقة مصر بالمغرب قديما ص ٣٥ وتابع).

(١٠٩) ابن خلدون، العبر، ج٦ ص ٨٩ -٩٠، الترجمة، ج١ ص ١٦٩ -١٧٠. وقارن ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، نشر بروفنسال، القاهرة ١٩٤٦، ص ٤٦١ وما يعدها - حيث تظهر استفادة ابن خلدون من الفصل الذى كتبه الفقيه القرطبى فى انساب البربر وبيوتاتهم فى المغرب والأندلس.

(ب) البتر[١١٠]، ومن قبائلهم المشهورة أربع: أداسة ونفوسة وضريسة وبنو لوا الأكبر. وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة: فمن قبائل لوا تعد قبيلتا نفزاوة ولواته. ومن لواته تنحدر قبائل مزاته ومناغة، ومنها قبيلة سدراته أخت قبيلة مغراوة (عن طريق الأم). وينحدر من نفزاوة قبيلة ولهاصة، وينحدر من ولهاصة قبيلة تيرغاش، ومن تيرغاش تنحدر قبيلة ورفجومة.

ومن قبيلة ضريسة ينحدر بنو تمزيت (تمصيت) وبنو يحيى. وفروع بنى تمزيت (تمصيت) هم: مطماطة، وصطفورة التى تعرف باسم كومية أيضا، ولماية ومطغرة ومغيلة وملزوزة ومديونة. وفروع بنى يحيى هم: قبائل زناتة جميعا بالإضافة إلى ورصطف وسمجان (سمكان) ومن ورصطف تنحدر قبيلة مكناسة.

ومن سمجان تنحدر قبيلتا زواغة وزوارة (شكل ٢ ص ٩٢).

والذى يلاحظ هو أنه رغم انقسام البربر إلى برانس وبتر، وانقسام هؤلاء إلى قبائل مختلفة فان القرابة قريبة بين الجماعتين. كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما. فالنسابة يختلط عليهم الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هوارة فى البرانس [١١١]ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختا لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم[١١٢]) وكذلك الأمر بالنسبة لقبيلة زواوة التى تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية[١١٣].

وابن خلدون يحذو حذو من ينفى انتساب البربر إلى العرب مثل ابن حزم[١١٤]. ولكنه يكاد يقبل ما قاله ابن الكلبى وما كاد يجمع عليه النسابة من أن قبيلتى صنهاجة وكتامة وهما من البرانس ليستا من البربر وأنهما يمنيتان أصلا، ولو أنه يتمسك بنظريته عندما يقول «وعندى أنهم

---

(١١٠) أنظر ابن خلدون. العبر. ج٦، ص ٩٠ -٩١، الترجمة. ج١ ص ١٧٠ - ١٧٣.

(١١١) نفس المصدر ج٦ ص ٩٠ والترجمة، ج١ ص ١٦٩.

(١١٢) نفس المصدر ج٦ ص ٩٠ والترجمة، ج١ ص ١٧٠.

(١١٣) ابن خلدون، العبر، ج٦ ص ٩١ والترجمة، ج١ ص ١٧٣.

(١١٤) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٩٣، ٩٦، ٩٧، والترجمة، ج١ ص ١٧٥، ١٨٥، والقبائل التى انتسبت إلى العرب هى: لواتة (حمير)، وهوارة واريغة (كندة، وزناقة من أبناء تبع أى يمنيه)، وغماره وزواعرة ومكلاته (حمير). وفى انتساب قبائل صنهاجة ولمطة وهوارة إلى حمير، أنظر الادريسى، ص ٥٧- ٥٨ (حيث تقول الرواية أن هوارة أبناء هوار من عرب الحجاز الذى تزوج تازكاى أم صنهاج ولمط البربريين). وعن نفى ابن حزم لادعاء البربر فى انتسابهم إلى العرب اليمنية أو القيسية، أنظر جمهرة أنساب العرب، ص ٤٦١.

من اخوانهم (أى من البربر) والله أعلم»[١١٥].

والحقيقة أن لنسابة العرب والبربر العذر فى جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية بل وفى نسبة البربر إلى أصل عربى. فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العرب والبربر، وهذا أمر وليد البيئة: فطبيعة بلاد المغرب التى يغلب عليها الطابع الصحراوى أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتب عليه نتائج ذات طبيعة متجانسة من الاجتماع أو العمران[١١٦]. وبناء على ذلك سنترك جانبا القرابة القريبة بين العرب والبربر من حيث السلالة أو الجنس حتى ليصعب التمييز بين العربى والبربرى من هذا الوجه[١١٧]، كما نترك جانبا ما اتفق عليه اللغويون من أن اللغة البربرية واللغات السامية ومنها العربية (وكذلك لغة مصر القديمة) ترجع إلى أصل واحد - كما سبقت الاشارة - وهذا ما يؤيد القرابة الجنسية، ونكتفى بالإشارة إلى طبيعة ونوع الحياة الاجتماعية التى كانت والتى ما يزال البربر يعيشونها. فالبربر عرفوا التنظيم القبلى مثل العرب وعرفوا حياة الحضر والاستقرار كما عاشوا حياة التنقل والبداوة. وفى ذلك يقول ابن خلدون: «ويظعن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة ... ومكاسبهم الشاء والبقر، والخيل فى الغالب للركوب. وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم. شأنهم فى ذلك شأن العرب»[١١٨]. هذا التشابه فى طبيعة الاجتماع ينتج نوعا واحدا من العمران ويربى عادات وتقاليد مؤتلفة، وهو على الجملة يخرج عبقرية متجانسة تنبنى على أساسها كل نظريات القرابة بين العرب والبربر.

أسس التمييز بين البتر والبرانس:

وعلى أساس تقسيم البربر إلى «سكان الوبر» (سكان الخيام) و «سكان المدر» (سكان البيوت)، عند ابن خلدون، حاول جوتييه تفسير انقسامهم إلى جماعة «البتر» وجماعة «البرانس»، فقال: أن البتر هم أهل البداوة والرحلة، والبرانس هم

---

(١١٥) ابن خلدون، ج٦ ص ٩٧ والترجمة ج١ ص ١٨٥.

(١١٦) أنظر ابن خلدون، المقدمة. الفصل الخاص بأثر البيئة.

(١١٧) أنظر جوليان، تاريخ افريقية الشمالية (بالفرنسية)، ص ٤٦ - ٥٢ والأشكال ٣٤ - ٣٨. وانظر دراسات فى المجتمع العربى. تأليف مجموعة من أساتذة كليتى الآداب والاقتصاد، طبعة سنة ١٩٦١ - ١٩٦٢. الفصل الخاص بالتعريف بالجزائر، ص ١١٠، حيث يطلق على البربر اسم العرب القدماء.

(١١٨) ابن خلدون العبر، ج٦ ص ٨٩. الترجمة، ج١ ص ١٦٧.

أهل الحضارة والاستقرار، وذلك كما كان يقسم البربر فى التاريخ القديم إلى نوميديين (أى جزائريين) وموريطانيين (أى مغربيين أو مراكشيين)، وكما يقسم أهل المغرب حاليا إلى عرب وقبائل (Kabyles)[١١٩]. وهذه النظرية لها أساسها من الصحة اذ أن قبائل البرانس تعيش فى معظمها عيشة استقرار فى السهول والجبال الخصبة حيث تعمل فى الزراعة، بينما تعيش معظم قبائل البتر عيشة تنقل فى الهضاب والمناطق الصحراوية وأشباهها حيث تشتغل بالرعى. ولكن يلاحظ أن هذا التقسيم ليس مطلقا، فالحضارة والبداوة متبادلة فى كل من الجماعتين[١٢٠]. فبعض قبائل البرانس تعيش فى جوف الصحراء عيشة بدوية فى أنقى صور البداوة مثل صنهاجة الصحراء. ومنهم قبائل لمتونه ومسوفة الملثمون، رعاة الابل فى صحراوات المغرب الجنوبية. وهؤلاء يسميهم الكتاب الأوروبيون الرعاة الكبار (grands pasteurs) أو الجمالين الكبار (grands nomades chameli-ers)[١٢١].

ويتميز هؤلاء عن رعاة الغنم والماعز الذين يعرفون بالرعاة الصغار petits pas-teurs[١٢٢] بأنهم فرسان غزاة. فبفضل نجبهم السريعة العدو (التى عرفت عند كتاب الفرنج باسم dromadaires) كانوا يستطيعون تحطيم الدول واقامتها[١٢٣]. ولقد ظلت قبائل الملثمين (أجداد الطوارق الحاليين) تعيش عيشتها البدائية هذه

---

(١١٩) أنظر ...... Gautier, Le Passe de l'Afrique, p. 242

(١٢٠) ومما يؤيد فكرة ان البرانس ليسوا بالضرورة أهل الحضر ما ينص عليه ابن حوقل عن بربر المغرب الأقصى، اذ يقول: «ومن يدانى سجلماسة. والمغرب من البربر يأكلون البر ويعرفونه، والشعير ويزرعونه. والتمور والطيبات. وفى أعراضهم أصحاب البرانس المقيمون بين السوس وأغمات وفاس. ولهم لوازم على المجتازين من فاس إلى سجلماسة». (صورة الأرض، ص ٩٩).

(121) G. Marcais, La Berbérie et l'Orient muslman p. 36. E.F. Gautier, Le Passé de l" Afrique, chap. 4, pp. 215, 224.

(١٢٢) أنظر نفس المصدر.

(١٢٣) يلاحظ هنا أن ابن خلدون (ج٦ ص ٨٩) يميز اجتماعيا بين قبائل البربر ويقسمها قسمين: أحدهما «أهل العز» أو «الممتزون» وهم «أهل الانتجاع والاطعان فى نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة»، والآخر هم «المستضعفون» ومعاشهم «فى الفلح ودواجن السائمة». ويطبق ابن خلدون تقسيمه هذا على قبائل العرب فيجعل راعى الابل أشد وأقوى من راعى الغنم والماعز (المقدمة، الفصل الخاص بالعمران البدوى). وعن خطورة جمال الملثمين أنظر ابن حوقل (ص ٩٧ - ٩٨) الذى يروى كيف أن ملك أؤدغست الصنهاجى كان يكفيه أن يأمر باثارة الابل التى كانت لأخته وتنفيرها على جيش كان يضمر الغدر بهم، لكى تدهس ذلك الجيش بما كان معه من ابل وسلاح وتحمله شذر مذر.

فى قلب الصحراء حتى القرن الخامس الهجرى /١١م). وبينما كان العرب يضربون فى آفاق التحضر والتمدن فى عواصم المغرب والأندلس كان الملثمون لا يعرفون الدقيق ولا الخبز، انما طعامهم اللحم القديد إلى جانب التمر وشرابهم لبان الابل(١٢٤). وكذلك توجد بين البتر قبائل من أهل الاستقرار والتمدن مثل قبيلة كومية التى عاشت فى أحواز تلمسان عيشة حضرية راقية (١٢٥)، وهى قبيلة عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين.

ولقد فكر وليام مارسيه فى تفسير تسمية البرانس والبتر تبعا لنوع الثياب المعروفة فى المغرب. فالثوب الوطنى المشهور فى البلاد كان البر نس ذا غطاء الرأس المخروطى الشكل الذى مازال مستعملا إلى اليوم(١٢٦).

وهو يرى أن العرب لاحظوا اختلافا فى زى قبائل البربر الأولى: فمنهم من كانوا يرتدون البرنس الطويل أو البرنس الذى له غطاء للرأس، وهؤلاء أطلق عليهم اسم البرانس (جمع برنس). ومنهم من كانوا يلبسون هذا الرداء قصيرا أو دون غطاء للرأس، وهؤلاء أطلق عليهم العرب اسم البتر (جمع أبتر بمعنى الناقص أو المقطوع)(١٢٧) مثل بتراء زياد بن أبيه المشهورة.

ولكن جوتييه يلاحظ – وله الحق فى ذلك – أن هذا الافتراض الذكى

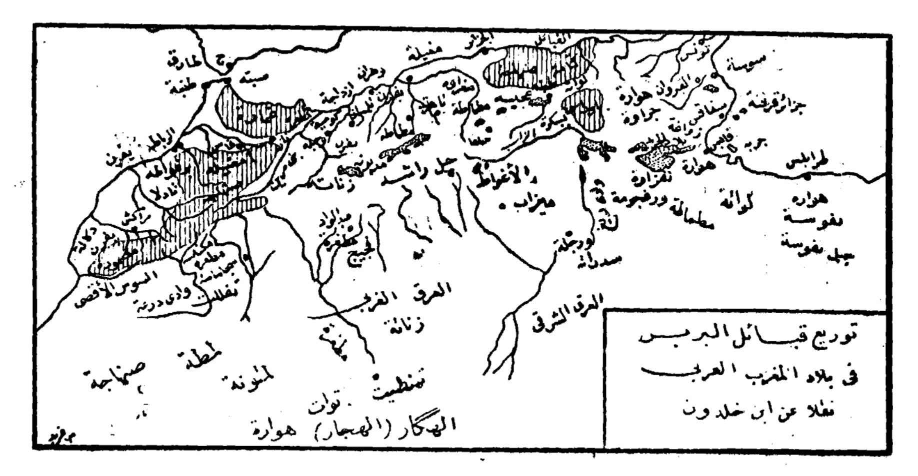
---

(١٢٤) أنظر البكرى، ص ١٧٠، الادريسى، ص ٥٨ – ٥٩، الاستبصار، ص ٢١٣ وقارن ابن حوقل، ص ٩٨.

(١٢٥) أنظر البكرى (عن كوميه قبل ظهورها. حيث كانت تقيم فى حصن هنين بمنطقة تلمسان) ص ٨٠، (وعن كوميه بعد ظهورها أيام الموحيدن) أنظر ابن خلدون ج٦، ص ١٢٦ – ١٢٨ والترجمة. ج١ ص ٢٥١.

(١٢٦) لا بأس من الاشارة إلى محاولة جوتييه تتبع أصل البرنس اذ يقول أنه شبيه بالثوب الشرقى الذى كان يستعمله القرطاجنيون، وكان يتكون من رداء (tunique) طويل دون حزام عادة وقلنسوة تبين شكل الرأس (الجمجمة). ويلاحظ جوتييه أن مثل هذا الرداء كان مستعملا فى ايطاليا وذكره الكتاب اللاتين باسم باينولا (Paenula) وهو يرى أنه لا علاقة بين البونيكوم (Poenicum) اللاتينى الذى كان مستخدما فى ايطاليا وبين القرطاجنيين ويرى ان كلمة باينولا مشتقة من كلمة باينا (Paina) بمعنى رداء أنظر. E.F. Gautier, Le Passe de l'Afriuqe, p. 1 48 وعن شهرة مدينة نول، فى بلاد الملثمين، فى صناعة السروج واللجم والأقتاب المعدة لخدمة الابل والاكسية والبرانس التى يساوى الزوج منها خمسين دينارا، انظر الادريسى ص ٥٩.

(127) E.F. Gauti er Le Passé de l'Afrique p. 241.


توزيع قبائل البربر
فى بلاد المغرب العربى
نقلا عن ابن خلدون
سبتة
طنجة
طارق
مليلة
وهران
تونس
القيروان
هوارة
جراوة
سوسة
صفاقس
جزيرة قرقنة
جربة
قابس
طرابلس
هوارة
نفزاوة
لواتة
مطماطة
ورفجومة
هوارة
نفوسة
جبل نفوسة
ورجلة
سدراتة
العرق الشرقى
ميزاب
الأغواط
جبل راشد
زناتة
مراكش
دكالة
السوس الأقصى
وادى درعة
تافيلالت
سجلماسة
العرق الغربى
زناتة
لمطة
صنهاجة
لمتونة
تمنطيت
توات
الهگار (الهجار) هوارة

الذى يستند إلى معرفة عميقة باللغة لا ينطبق على كل قبائل البربر. اذ يصعب ادراج الملثمين من بربر الصحراء فى طبقة من الطبقتين. فالملثمون من بربر البرانس ولكنهم لا يلبسون البرنس مطلقا، ولا يحتمل أنهم كانوا يلبسونه فى عصر من العصور، كما لا يظن أن هناك علاقة بين غطاء الرأس فى البرنس وبين اللثام عند أهل الصحراء(١٢٨). وأخيرا يلاحظ جوتييه أن الذين يلبسون البرنس حاليا فى المغرب هم حفدة البتر على وجه الخصوص اذ أن البرنس هو لباس الفرسان(١٢٩). وهذا يعنى أن رأى وليام مارسيه لم يخرج عن كونه مجرد افتراض لا يستند إلى أساس قوى، رغم أنه وصفه بالعبقرية التى تستند إلى معرفة عميقة باللغة، وان أصل تقسيم البربر – عند العرب – برانس وبتراً مازال أمرا غامضا.

ونحن نرى أن كلا من نظريتى جوتييه ووليام مارسيه لهما وجاهتهما وأنهما لا تتعارضان بل ان الواحدة تكمل الأخرى . فجوتييه بلور نظرية ابن خلدون فى تقسيم البربر إلى سكان الوبر وسكان المدر، وطبقها على البتر والبرانس، ووليام مارسيه فسر تفسيرا معقولا التسمية العربية لكل من الجماعتين، ولا باس من التأمل فى افتراضه هذا إلى أن تثبت صحته أو يتأكد نقضه.

توزيع قبائل البربر فى المغرب:

لاشك أن رسم خريطة دقيقة لتوزيع قبائل البربر فى بلاد المغرب فى العصور الاسلامية المبكرة من الصعوبة بمكان، وذلك أن أقدم الروايات التاريخية التى وصلت الينا ترجع إلى القرن الثالث الهجرى (٩م) وكذلك الحال بالنسبة للوصف الجغرافى للبلاد. والحقيقة أن الكتاب الأوائل لم يهتموا باعطائنا المعلومات التفصيلية عن القبائل وتوزيع مواطنها، بل تكلموا عنها بشكل عام لا يبين وجه البلاد الحقيقى. أما المتأخرون الذين جمعوا هذه المعلومات وأضافوا اليها أخبارهم الخاصة، فانهم لم يعتنوا بتصنيفها تصنيفا منهجيا مرضيا حسب الترتيب الزمنى الصحيح ولم يميزوا بين القديم منها والحديث، ويرجع الفضل لابن

---

(١٢٨) أنظر Gautier, Le passé de l'Afrique; p. 241.. وعن فكرة أن الملثمين لم يعرفوا البرنس، انظر ابن حوقل (ص ٨٤) حيث يقول عن قبائل البربر الموغلين فى برارى سجلماسة ونواحى لمطة وفزان: ان الغالب عليهم الشقاء والالتحاف بالكساء.

(١٢٩) نفس المرجع ص ٢٤٢.

خلدون الذى تتبع تاريخ القبائل كل واحدة على حدة، وبذلك أعطانا صورة كاملة عن توزيع قبائل البربر فى كل المغرب كما بين تنقلاتها من موطن إلى آخر على مر العصور ورغم ذلك فالملاحظ أن هذا التوزيع ينطبق أولاً وقبل كل شئ على عصر ابن خلدون أى القرن الثامن الهجرى (١٤م). وربما كان ذلك أمرا طبيعيا فما كان ابن خلدون يستطيع أن يبين وجه المغرب فى العصور القديمة بنفس الوضوح الذى بيّنه بالنسبة للعصر الذى خبر أحداثه. وشارك فى تجاربه. وابن خلدون له الفضل فى محاولة تتبع القبائل من اقليم إلى اقليم تبعا للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عرفتها البلاد، ولذلك مازال كتاب العبر يتمتع بمركز الصدارة بين مراجع تاريخ البربر. ويمكن أن تحدد مواطن القبائل البربرية بشكل عام تحديداً يصلح للقرون الأربعة الأولى - للأسباب التى ذكرناها - وحتى الهجرة الهلالية (منتصف القرن الخامس الهجرى/١١م) التى ترتب عليها تغيرات جوهرية فى توزيع القبائل على البلاد بالشكل التى هى عليه الآن.

ففى الأقاليم الشرقية، وخاصة فى برقة وعلى حدود مصر، كانت توجد قبائل لواته[١٣٠]. ويقول ابن خلدون أنه كانت لهم فى الماضى مدن عريقة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان[١٣١]، بمعنى أن أراضيهم كانت تمتد من حدود مصر إلى طرابلس وربما امتدت مساكن لواته إلى سواحل قابس فى افريقية[١٣٢]، بل وحتى جبل أوراس[١٣٣]. ويظن بعض الكتـــاب أن إسم لوا أو لواته هو الاسم القديم الذى عرفت به قبائل هذه المنطقة وأن اليونان هم الذين حوروه إلى لوبيين (أو ليبيين)[١٣٤]. ومن لواته، قبائل نفزة أو نفزاوة التى أعطت اسمها إلى الأقاليم

---

(١٣٠) أنظر ابن عبد الحكم، ص ١٧٠، البلاذرى، ص ٢٢٦٥، ابن خرداذبة، ٩١، البكرى، ص ٥، الاستبصار ص ١٤٤ وهامش ١. وعلى أساس وجود قبائل لواته البدوية فى الأقاليم الشرقية يرى جوتييه (ص ٢٣٤ - ٢٣٥) أنها مشرقية الأصل (من طرابلس) وهو يفرق بينها وبين مجموعة القبائل البدوية الكبرى وهى زناتة ويقول عن هؤلاء الآخرين انهم بدو وطنيون (autochtones).

(١٣١) العبر، ج٦ ص ١٠٣ والترجمة ج١ ص ١٩٧.

(١٣٢) أنظر اشعيرة (محمد عبد الهادى) الصراع بين العرب والبيزنطين، الاسكندرية، ١٩٤٧ (بالفرنسية) ص ١٤٥.

(١٣٣) أنظر ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٤٥.

(134) Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 239

الجنوبية من البلاد التونسية وما يتاخمها من بلاد طرابلس شرقا وصحراء قسنطينة غربا كما رأينا(١٣٥) . ومن أهم فروع نفزاوة قبائل ورفجومة المشهورة فى أحداث النصف الأول من القرن الثانى الهجرى فى افريقية(١٣٦)، ومنها قبائل سدراته التى أعطت اسمها للمنطقة فى جنوب وارجلا (واركلا - واركلان)(١٣٧) . وفى اقليم طرابلس كانت قبائل نفوسه التى أعطت اسمها للجبل المعروف بهذا الاسم (جبل نفوسه) جنوب طرابلس(١٣٨)، وكانت تجاور نفوسه قبائل هوارة(١٣٩). وإلى الغرب من ذلك وفى جنوب بلاد الجريد كانت مواطن قبائل مطماطة التى أعطت اسمها لجبل مطماطة هناك(١٤٠)، هذا ولو أن مساكنهم القديمة كانت حيث جبل مطماطة الآخر فيما بين وهران وتاهرت(١٤١).

وفى جبال أوراس الشرقية كانت قبائل جراوة التى أتعبت العرب فى أواخر القرن الأول الهجرى وهى من زناتة(١٤٢). ومجموعة القبائل هذه تعتبر من فروع قبائل زناتة البدوية التى ملات المغرب الأوسط على أيام ابن خلدون. وقبل ذلك كان المغرب الأوسط لأوربة التى سكنت فى غرب الزاب وفى أوراس(١٤٣)، ومغراوة فى جنوب غرب الجزائر على وادى شلف، وبنو ايفرن إلى الغرب من مغراوة فى جنوب وهران وفى جنوب تلمسان (وهم من البتر)(١٤٤)، ومغيلة فى

---

(١٣٥) أنظر فيما سبق فى كلامنا عن الوحدة الطبيعية للبلاد ص ٧٥ وهـ ٧٦.

(١٣٦) أنظر فيما بعد فى الفصل الخامس بنهاية أسرة الفهريين بافريقية.

وعن وارجلا انظر فيما سبق، ص ٧٥ وهامش ٧٢.

(137) Gautier, Le Passé de L' frique, p. 230.

(١٣٨) أنظر فيما سبق فى الفصل الخاص بأسماء الأقاليم (ص ٧٣) وكذلك الفصل الخاص بالسكان (قبائل البتر ص ٩٣).

(١٣٩) ابن خلدون العبر ج٦ ص ١٠٣، الترجمة ج٢ ص ١٩٧ . وقارن ابن خرداذبة (ص ٩١) الذى يجعل منتازل هوارة فى مدينة أياس الطرابلسية. ونفس الرواية توجد فى مروج الذهب للسعودى، ج٢ ص ١١٩.

(١٤٠) أنظر الاستبصار ص ١٥٠ . Gautier, op. cit., p. 226.

(141) Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 232.

(١٤٢) عن مقاومة جبل أوراس أنظر ابن سعيد، الجغرافيا،و ص ١٤٥ - حيث يقول: وسكانة أهل دعارة وعصيان لايدخلون تحت طاعة سلطان لامتناع جبلهم العريض الطويل، ولما عندهم من الخيل والرجال والأسلحة. وأنظر فيما بعد فى الباب الخاص بفتوح حسان ابن النعمان.

(١٤٣) أنظر ابن خلدون ج٦ ص ١٠٧، ١٠٩ والترجمة ج١ ص ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤.

(١٤٤) ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٢ والترجمة، ص ١٩٦، وقارن ابن سعيد (الجغرافية ص ١٤٢ حيث القراءة «مغراوة» (بدلاً من مغراوة) من زناتة وقاعدتهم مدينة تنس

الأقاليم الساحلية شرق مصب وادى شلف[145] وكذلك جنوبى فاس فى المغرب الأقصى حيث أعطت اسمها لإحدى المدن هناك[146]. وكانت قبيلة مديونة فيما وراء بنى ايفرن جنوبى تلمسان (من جبل راشد إلى الجبل المعروف باسمهم جنوبى وجده، كما يوجد فى ممر تازا جبل عين مديونة شمال غرب فاس)[147]، وكومية فى الأقاليم الساحلية غرب وهران فى تخوم أرشجول وتلمسان - ومازالت مدينة ندرومة هناك تحيى ذكرى بعض فروع قبيلة كومية[148]. وإلى الغرب من أرض كومية كانت أرض مطغرة (أو مدغرة)[149]. ولقد كانت مواطن مطغرة أيام ابن خلدون ممتدة من تمنطيت وتوات جنوب سجلماسة إلى تلمسان[150]. وهذه القبائل تعتبر من زناتة هى الأخرى، ولقد انتشرت قبائل زناتة فى المغرب الأقصى (عن طريق وجدة وفاس وممر تازا) حتى سهول البحر المحيط. وقبائل لماية كانت فى جنوب الجزائر متاخمة للصحراء وهى من القبائل التى شاركت فى تأسيس امارة تاهرت الأباضية ثم أنها انتشرت بعد سقوط تاهرت إلى الجنوب التونسي، ومن لماية قبائل جربة (الأباضية) التى أعطت اسمها للجزيرة المواجهة لقابس[151]. وعلى طول وادى ملوية، فيما بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. كانت قبائل مكناسة (التى مازالت مدينة مكناسة تحيى اسمها) تنتشر من المصب قرب تلمسان إلى المنبع بالقرب من سجلماسة قبل أن تزاحمها قبائل أخرى من زناتة على أيام ابن خلدون[152]. ومن فروع مكناسة قبائل جرسيف ومليلة وإليها تنسب المدينتان المعروفتان بهذين الاسمين كما ينسب إقامة رباط تازا أيضاً إلى

---

(١٤٥) نفس المصدر السابق.

(١٤٦) أنظر الاستبصار، ص ١٨٨.

(١٤٧) جوتيية، ص ٢٣٣، وعن جبل مديون (غربى جبال مدغرة) أنظر ابن سعيد، الجغرافية، ص ١٤١.

(١٤٨) جوتيية، ص ٢٣٣، وأنظر ابن سعيد (الجغرافيا ص ١٤٠) حيث نجد ارشجول فى (آرشغون)، وهى فرضة تلمسان. وقارن ابن حوقل (ص ٧٩) حيث ارجكوك بدلا من ارشجول. والخطأ يكون هنا فى الكاف الأخيرة التى كتبها الناسخ بدلا من اللام التى يمكن أن تحل محلها نون، اذ نجد القراءة فى شكل «أرجكون» (الادريسى ص ١٧٢) أما النون فيمكن أن تحل محل الجيم، كما أن الجيم فى نطقها المصرى (جاف فارسية) يمكن أن تكتب فى شكل غين أو قاف (أرشقول - الإدريسى، ص ١٧٢).

(١٤٩) ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٢، والترجمة ج١ ص ١٩٦.

(١٥٠) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٢٠ والترجمة، ج ١ ص٢٤٠، جوتييه، ص ٢٢١.

(١٥١) انظر جوتييه، ص ٢٣١ وانظر فيما بعد الفصل الخاص بإمامة تاهرت.

(١٥٢) ابن خلدون، ج٦ ص ١٩٢، والترجمة، ج١ ص ١٩٥.

قبائل مكناسة(١٥٣).

أما عن قبائل البرانس فجماعاتها الكبرى هي كتامة وصنهاجة ومصمودة. ولقد كانت مواطن كتامة وصنهاجة في المغرب الأوسط، في القسم الشرقي منه أي في شرق بلاد الجزائر الذي يعادل منطقة «القبائل» الحالية(١٥٤). ويظن أن «قبائل» الجزائر التي يسميها الفرنسيون «قبيل Kabyles » هم سلالة كتامة وصنهاجة. وكانت كتامة تسكن المنطقة التي يسميها الفرنسيون «القبائل الصغرى Petite Kabylie» وهي المنطقة الجبلية الواقعة بين مدينتي بجاية وقسطنطينة(١٥٥). ويعتبر ابن حزم قبائل زواوة (وهي معدودة في قبائل البتر) من كتامة لأن أرض زواوة القديمة كانت تتاخم أرض كتامة(١٥٦).

أما قبائل صنهاجة فمواطنها إلى غرب كتامة في المنطقة الجبلية الممتدة من جنوب بجاية إلى جنوب مدينة الجزائر ويسمى الفرنسيون هذه المنطقة باسم القبائل الكبرى "Grande Kabylie"(١٥٧). وإلى جوار صنهاجة استوطنت قبيلة عجيسة (البرنسية) الجبال المشرفة على مدينة المسيلة، كما سكنت بعض فروعها جبل قلعة بن حماد (جنوب بجاية). ومن الغريب أن هذه القبيلة وقفت إلى جانب أبي يزيد صاحب الحمار ضد قرابتها الصنهاجيين اتباع الفاطميين فكان ذلك سبباً في القضاء عليها(١٥٨). وقرب وهران كانت تقطن قبيلة ازداجة وهي من البرانس أيضاً، وكان سكناها في منطقة البتر الزناتية، وهم حلفاء الأمويين في الأندلس، سبباً في القضاء عليها عندما تحالفت ضدهم مع كتامة(١٥٩). وإلى

---

(١٥٣) جوتييه، ص ٢٣٣.

(١٥٤) انظر ابن حوقل، ص ٨٧ (حيث يورد تفصيلات عن منازل كتامة في الطريق من القيروان إلى المسيلة).

(155) G. Marçais, La Berbérie et l'Orient musulman, p. 133.

(١٥٦) ابن خلدون، ٦ ص ٩١، الترجمة، ج١ ص ١٧٣. والظاهر أن قبائل من كتامة كانت قد تحركت نحو الغرب مع مرور الوقت، ففي شمال غربي مدينة مكناس أصبحت مدينة القصر تعرف على عهد ابن سعيد (كتاب الجغرافيا. ص ١٤١) بقصر عبد الكريم وبقصر كتامة الذين يوصفون بأنهم بادية أي بدو، رغم أنهم من البرانس.

(١٥٧) عن صنهاجة انظر الاستبصار، ص ١٢٨، ١٣٦، وانظر ابن خلدون ج٦ ص ١٥٣، وعن القبائل الصغرى والقبائل الكبرى أنظر:

H. Larnaude, Algérie, Coll, Union Françcaise, p. 74.

(١٥٨) ابن خلدون، ج٦ ص ١٤٤ – ١٤٥ والترجمة ج٦ ص ٢٨٥، وانظر جوتييه، ص ٢٣٨.

(١٥٩) ابن خلدون، ج٦ ص ١٤٤ – ١٤٥، والترجمة، ج١ ص ٢٨٢، وانظر جوتييه، ص ٢٣٨–٢٣٩.

جانب بلاد الجزائر استوطنت جماعة كبيرة من صنهاجة بلاد المغرب الأقصى فى جبال درن الشرقية (الأطلس الوسطى). وهذه الجماعة يسميها ابن خلدون بصنهاجة الجيل الثالث، وينطق اسمها فى شكل زناجة. ويرى جوتييه أن سلالة هؤلاء هم الجماعة المعروفة حالياً فى المغرب باسم البرابر، ومواطنهم بين ممر تازا والصحراء[١٦٠].

أما قبائل مصمودة فاستوطنت جبال درن (أطلس العليا) فى جنوب المغرب الأقصى (جنوب مدينة مراكش). وقبائل المصامدة (ومفردها مصمودة) التى أقامت دولة الموحدين (فى منتصف القرن السادس الهجرى / ١٢ م) تحوى عدداً كبيراً من القبائل من أشهرها هرغة وهكسورة وجنفيسة ... إلخ[١٦١]. وتعتبر قبائل غمارة من مجموعة قبائل المصامدة[١٦٢]، وكانت مساكن غمارة فى الأقاليم الجبلية المواجهة شمالاً للبحر المتوسط والمعروفة بجبال الريف[١٦٣]. ولقد أعطت هذه القبائل – التى شاركت فى أحداث القرن الثالث الهجرى بقيادة متنبيها المعروف بحاميم – اسمها للمنطقة التى عرفها الكتاب العرب باسم جبال غمارة[١٦٤].

وفى جنوب الريف، فى منطقة مدينة وليلى (Volubilis) القديمة وهى منطقة مدينة فاس الحالية، سكنت قبيلة أوْربة المشهورة، وهى معدودة من قبائل البرانس. وأوْربة هى التى نزل عليها إدريس بن عبد الله العلوى (فى أواخر القرن الثانى الهجرى / ٨م) وبمساعدتها أقام دولة الأدارسة فى المغرب[١٦٥]. ومن قبل قامت أوْربة بدور هام فى الفتوح الأولى عندما تحالف زعيمها كسيلة مع العرب بعد أن هزموه عند تلمسان ثم عاد وتحالف مع الروم وغدر بعقبة بن نافع قرب بسكرة من بلاد الزاب[١٦٦]. وهذا الأمر جعل بعض المحدثين يظن أن قبيلة أوْربة استوطنت

(١٦٠) جوتييه، ص ٢٣٧.

(١٦١) أنظر مذكرات البيدق، نشرة وترجمة بروفنسال، ص ٣٣ وتابع، والترجمة ص ٥٣ وتابع.

(١٦٢) أنظر فيما سبق فى بربر البرانس ص ٩٣، وعن كثرة عددهم يقول ابن سعيد (الجغرافيا ص ١٣٩) أنهم أمم لايحسبهم إلا الله.

(١٦٣) عن تسمية ساحل غمارة، شرق مدينة سبتة، بالريف، أنظر ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٣٩.

(١٦٤) انظر فيما سبق فى الباب الخاص بأسماء البلاد (ص ٧٧) وعن حاميم أنظر، البكرى ص ١٠٠، والاستبصار، ص ١٩١ وتابع. وأنظر فيما بعد الفصل الخاص بذلك فى تاريخ الأدارسة (ج٢).

(١٦٥) أنظر فيما بعد الفصل الخاص بقيام دولة الأدارسة.

(١٦٦) أنظر ابن عذارى، طبعة كولان، ص ٢٨ – ٢٩، وفيما بعد الفصل الخاص بحملة عقبة الثانية.

الاقليم الغربي من جبال أوراس وهى منطقة الشاوية الملاصقة لوادى العبدى ووادى العرب حاليا[١٦٧].

والاقليم المواجه للبحر المحيط، شمال وادى أم ربيع كان موطناً لقبائل برغواطة التى شاركت فى الأحداث ابتداء من القرن الثانى الهجرى بقيادة متنبيها صالح بن طريف، والتى ظلت مضطربة إلى القرن السادس الهجرى (١٢ م) حتى بنى الموحدون مدينة رباط الفتح (الرباط) لاخضاعهم[١٦٨]. أما الاقليم الساحلى الذى يقع غرب جبال المصامدة ما بين مصب وادى تنسيفت ومصب وادى سوس، فكانت تقطنه قبائل دكالة وبعدها قبائل جدالة وهى القبائل التى شاركت فى أحداث القرن الخامس الهجرى (١١م) عند اضطراب قبائل الصحراء وقيام دولة المرابطين[١٦٩]. وكانت أكبر جماعات قبائل الصحرا ء الجنوبية المؤدية إلى بلاد السودان (غانة وكوكوا) هى قبائل لمتونة ومسوفة من الملثمين وهم من صنهاجة رعاة الإبل[١٧٠]، وخلفاؤهم الآن هم الطوارق.

التنظيم الاجتماعى والعادات والتقاليد:

اتضح لنا فيما سبق أن البربر عرفوا - مثلهم مثل العرب - التنظيم القبلى الذى يتناسب مع طبيعة البيئة شبه الصحراوية التى عاشوا فيها. وكانت كل قبيل تنتسب إلى أب أو جد واحد بمعنى أن الرابطة بين أفرادها هى رابطة الدم - من الناحية النظرية على الأقل. فأفراد القبيلة هم بنو فلان من الناس أى أبناؤه، والكلمة المرادفة لكلمة «بنو» العربية هى «أيت» بالبربرية. ولقد ظلت بعض القبائل تستخدمها حتى من بين القبائل التى تعربت أو أصبحت عربية مثل (ايت عياش) ومنهم الرحالة المشهور العياشى[١٧١]. أما عن رئيس القبيلة أو شيخها

---

(١٦٧) ينسب جوتييه (Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 233) هذا الرأى إلى ماسكراى (Masqueray)، ويرى أنه بالغ بعض الشئ فى أصالة أهل هذه المنطقة.

(١٦٨) الاستبصار، ص ١٩٧ وأنظر فيما بعد الفصل الخاص بفتح الأدارسة لاقليم تامسنا.

(١٦٩) الاستبصار، ص ٢٠٩ (دكالة) وص ٢١٤ (جدالة) وقارن البكرى، ص ١٦٤.

(١٧٠) أنظر ابن حوقل، ص ٩٨، البكرى، ص ١٦٣، وياقوت، معجم البلدان ج١ قسم ١، ص ٢٢٩ (حيث يقول عن الملثمين، وقبائلهم: لمتونة ومسوفة ودكالة أكثرهم عدداً، ومسوفة أجملهم صوراً، ولمتونة أشجعهم، والملك منهم). وأنظر فيما سبق، ص ٩٦ وعن بلاد السودان الإسلامية أنظر العمرى، مسالك الأبصار (ترجمة Gaudefroy Demombynes) ص ٤٣ وتابع (الصفحة التالية) ؟

(١٧١) أنظر محمد القادرى، نشر المثانى (ترجمة فرنسية بمعرفة:

=/=

يطلق عليه بالبربرية «أمْغار»، وأمثال هذه الكلمات موجودة في كتب تاريخ المغرب كما أنها لازالت مستعملة بين بعض القبائل إلى اليوم(١٧٢). وبطبيعة الحال لم تكن القبيلة لتستطيع دائماً أن تحافظ على نقائها، فأسماء القبائل التي ذكرناها كانت تعني جماعات متفاوتة من حيث عدد أفرادها، فبعضها كان يتجاوز شكل القبيلة إلى شكل الأمة أو الشعب كما هو الحال بالنسبة لأسم زناتة أو صنهاجة إذ تتكون كل من الجماعتين من عدد عديد من القبائل حتى قال ابن خلدون أن صنهاجة تبلغ في عددها ثلث أمة البربر(١٧٣). وهذا يعني أن اسم القبيلة كان يمثل في كثير من الأحيان اسم اتحاد سياسي تدخل فيه أكثر من عصبية أو قبيلة، أما عن طريق الحلف أو عن طريق الغلبة. وبطبيعة الحال كانت القبيلة أو العصبية صاحبة التفوق هي التي تعطي اسمها لمثل هذا الاتحاد. والدليل على هذا الاختلاط بين القبائل هو اختلاف النسابة في وضع بعض القبائل الفرعية في جماعة من الجماعات الكبرى مرة، وفي جماعة غيرها مرة أخرى كما فعلوا بالنسبة لقبيلتي هوارة أو زواوة، فوضعوهما مع البتر حينا ومع البرانس أحياناً. وكذلك ما يقال من أن قبيلة سدراتة هي أخت قبيلة مغراوة من جهة الأم أو ما يقال من أن اسم كومية هو نفس اسم قبيلة صطفورة(١٧٤). ونجد مثل هذا أيضاً عند قبائل العرب إذ يجعل النسابة قبيلة قضاعة مرة ضمن القبائل اليمنية ومرة ضمن القبائل العدنانية(١٧٥).

وكان نشاط هذه القبائل يتفاوت – حسب طبيعة البيئة – ما بين الزراعة عند أهل الاستقرار (سكان المدر عند ابن خلدون) وبين الرعي عند أهل البداوة

=/=

Ed. Michaux-Bellaire Archives Marocaines, Paris 1917, vol. 24.

ترجمة سيدي عبد الله بن محمد العياشي، ص ١٤٢.

(١٧٢) مذكرات البيدق، نشر بروفنسال، النص ص ١١٦ – ١١٩، والترجمة ١٩٠، ١٩١، ١٩٥ والهامش ١، وعن الاستعمال حالياً، أنظر:

Célérier, Maroc, p. 105.

(١٧٣) ابن خلدون، العبر، ج٦ ص ١٥٢ والترجمة ج٢ ص ٤. وقارن ابن سعيد، الجغرافيا، ص ٣٤ (حيث يقول: «وهذا القبيل أكثر قبائل المغرب، وفي كل أرض منهم خلق، ويذكرون أن أصلهم من عرب اليمن والعروبية بينهم ظاهرة).

(١٧٤) انظر فيما سبق (الفصل الخاص بقبائل البتر والبرانس) ص ٩٣ وما بعدها.

(١٧٥) أنظر ابن خلدون، المقدمة (الفصل الخاص باختلاط الأنساب وكيف يقع).

(سكان الوبر). والحقيقة أن كل جماعة من الجماعتين تنقسم من حيث طبيعة عملها إلى أقسام ثلاثة، وذلك حسب تقسيم المفكرين للأشياء منذ القديم ما بين التطرف والوسط والاعتدال. وهذا يعنى أن الطبقة المعتدلة فى كل من الجماعتين تكاد تلتقى من حيث طبيعة عملها الذى يتراوح ما بين الزراعة والرعى، أى أنهما تكونان طبقة مشتركة أو متوسطة تمثل نشاط جميع السكان. فهى من جهةتعلوها طبقتان من الزراع هم سكان الواحات ثم سكان القرى المتخصصون فى التشجير، ومن الجهة الأخرى توجد تحتها طبقتان من البدو هم رعاة الغنم ثم رعاة الإبل[١٧٦].

والأقاليم الزراعية الجيدة هى التى تتوافر فيها الأمطار، وذلك على طول المناطق الساحلية للبحر - والبحر المحيط خاصة - وتزداد الأمطار فى الأقاليم المرتفعة كما هو الحال فى جبال شرق المغرب الأوسط فى منطقة قسنطينة (القبائل الصغرى) ومنطقة مدينة الجزائر (القبائل الكبرى) وكذلك فى الغرب فى اقليم وهران. وتكثر المياه فى المغرب الأقصى على السواحل وفى جبال درن (أطلس العليا والوسطى). وعلى ذلك فكل هذه الأقاليم وما تحتضنه من السهول الممتدة من السوس الأقصى (من تارودانت وأغادير) إلى تازا وجبال غمارة (الريف) صالحة للزراعة. ويتأكد ذلك فى الأقاليم الشرقية من المغرب فى مرتفعات غرب وشمال البلاد التونسية، وفى جبال نفوسة جنوب طرابلس وحتى جبل برقة المشهور بالجبل الأخضر.

الزراع:

وأصحاب زراعة التشجير أهل استقرار بالضرورة، لحاجة الشجر إلى العناية به طول العام، ولأنه لايؤتى ثماره الطيبة إلا بعد فترة من الصبر والانتظار قد تطول إلى أعوام. وأهم شجرة عرفها المغرب هى الزيتونة التى كانت تكون الغلة النقدية إلى أيام الفتح العربى. إذ تقول الرواية أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح عندما رأى كثرة الذهب والفضة بافريقية (سنة ٢٧/ ٦٤٩)، قال لأهلها: «من أين لكم هذا؟ فجعل الرجل منهم يلتمس شيئاً من الأرض حتى جاء بنواة زيتون، فقال من هذا أصبنا الأموال، لأن أهل البحر والجزر ليس لهم زيتون، فكانوا يمتارونه

(١٧٦) قارن: Célérier, Le Maroc, p. 84.

من هنا[١٧٧]. ومازالت الزيتونة تكون الغلة النقدية فى البلاد التونسية وفى طرابلس، كما تعتبر من الغلات الهامة فى بلاد المغرب والجزائر، هذا إذا تركنا الواحات جانباً ومنها واحات مصر وخاصة سيوة التى عرفها الأدريسى باسم سنترية وابن سعيد باسم «سانتيرية»[١٧٨]. وإلى جانب الزيتونة وجدت أشجار الفاكهة مثل التين والكرم. وانتشرت كذلك زراعة الحبوب من القمح والشعير فى كل السهول الخصبة فى المنطقة ذات المناخ المعتدل حيث تختلف الأرض ما بين السواد والحمرة. وبسبب طبيعة الأرض وصفت مدينة مراكش فى أقصى المغرب بالحمراء وكذلك مدينة برقة فى أقصى أطرافه الشرقية[١٧٩]. وبطبيعة الحال يعتبر أصحاب حرفة التشجير وزراعة - الحبوب أرقى طبقات الزراع، فهم سكان القرى المتخصصون فى هذه الحرفة.

أما الطبقة الثانية من الزراع فهم سكان الواحات التى تمتد من الجنوب المراكشى إلى واحات برقة ومصر عبر النطاق الذى يسميه ابن خلدون بشكل عام ولكن بحق بلاد النخل[١٨٠]. والنخيل ينتشر فى الواحات التى تتلاصق جنباً إلى جنب فى جنوب المغرب الأقصى أشبه ما تكون بحلقات متسلسلة ويمتد النخيل فى بطون الأودية على طول عشرات الأميال والمراحل، كما فى وصف العياشى[١٨١]. وهو حالياً يكون شوارع حقيقية عظيمة فى قلب الصحراء[١٨٢]. وفى ظل النخيل التى تلطف من حرارة الجو الصحراوى تزرع أشجار الفاكهة مثل الكروم والتين والزيتون، كما تزرع بالواحات الحبوب من القمح والشعير. وسكان الواحات أهل استقرار فهم أهل قرى لاصقون بالأرض، كما عرفوا بأنهم خبراء

---

(١٧٧) ابن عذارى، طبعة كولان، جـ١ ص ١٢، قارن ابن عبد الحكم، ص ١٨٥.

(١٧٨) الإدريسى، ص ١٣٦ وأنظر كتاب الجغرافيا، ص ١٢٨ (حيث يصفها بأنها: جزيرة نخل ومياه فى صحارى، وأنه توجد فى أرضها شجرات من النخل وحب اللوز الذى يجلب إلى الإسكندرية. أما عن المسافة بينها وبين البحر - حيث العقبة الصغرى (منطقة مرسى مطروح الحالية) التى تعتبر من أرض الإسكندرية (نفس المصدر ص ١٤٦) - فتقدر بثمانى مراحل).

(١٧٩) أنظر الاستبصار (عن برقة)، ص ١٤٣ والهامش ١، وأما عن مدينة مراكش فمازالت تسمى بالحمراء (مثل غرناطة) إلى أيامنا هذه أو ذلك ما كان يصفه بها قاضيها عباس بن إبراهيم المراكشى، صاحب كتاب «الاعلام» وكنا قد التقينا به لدقائق معدودة فى مقره سنة ١٩٥١.

(١٨٠) انظر فيما سبق فى الباب الخاص بالوحدة الطبيعية ص ٨٢.

(١٨١) أنظر فيما سبق ص ٨١.

(١٨٢) انظر: Célérier, Maroc, p. 86.

فى الرى وفى حسبان (حساب) أوقات الزراعة[١٨٣]، ولكنهم وضعوا فى الطبقة الثانية من الزراع بسبب علاقاتهم الوثيقة بأهل البادية المتنقلين. فحياة سكان الواحات تعتمد إلى حد كبير على بدو الصحراء إذ يحتاجون إلى التبادل التجارى معهم. فأهل البادية يأتون إلى الواحة من أجل الرى والسقيا، وكذلك لأخذ مؤونتهم من التمر أو نقله إلى الأقاليم التى ينفق فيها، فالتمر كما نعلم أهم غلة فى الواحات. فإلى جانب كثرة النخيل نلاحظ أن إنتاجه مضمون إلى حد كبير إذ لايعتمد على وفرة المياه أو قلتها فى سنة من السنوات، كما أنه لايتطلب مجهوداً كبيراً فى العناية به والدفاع عنه ضد الحيوانات والآفات،كما هو الحال بالنسبة لأشجار الفاكهة أو الحبوب. ولما كان سكان الواحات يضطرون إلى الدفاع عن مزروعاتهم فى كثير من الأحيان ضد البدو نجد أنهم سكنوا فى البيوت المبنية بالحجارة والطوب، وأحاطوا واحاتهم بالأسوار إلى أن اتخذت شكل القلاع التى عرفت – ومازالت تعرف – بالقصور[١٨٤]. ولقد ترتب على تلك العلاقة التى تتراوح ما بين الحرب والسلم إلى نوع من المزج بين الجماعتين وتوافق فى كثير من العادات والتقاليد، فقد عرف عن أهل الواحات أنهم تجار رحالة يجوبون الصحراء مثل أهلها فى سبيل متاجرهم.

والطبقة الثالثة من الزراع هم أولئك الذين جمعوا بين زراعة الحبوب وتربية الغنم والماشية، فى الأقاليم الصالحة للجمع بين الحرفتين حيث تسمح، المياه بالزراعة فى الوديان وينمو العشب للرعى فى الهضاب والمرتفعات. وتشبه هذه الطبقة من الزراع الطبقة الأولى من الرعاة الذين يجمعون الزراعة إلى جانب الرعى فى أقاليم الانتقال بين المناطق المعتدلة المطيرة والمناطق الجافة الصحراوية، وذلك فى الأقاليم المعروفة بالتل أو التلول من المغرب الأوسط، وفى أقاليم الريف الشرقية وأواسط وادى ملوية ووادى أم الربيع فى المغرب الأقصى، وفى سفوح

---

(١٨٣) المثل لذلك ما يذكره الكتاب عن مهارة أهل قفصة (أشهر واحات بلاد الجريد) فى هندسة الرى وتنافسهم على سقى جناتهم وخبرتهم فى معرفة أوقات النهار من أجل ذلك (أنظر الاستبصار، ص ١٥٢ ، ١٥٣).

(١٨٤) القصور ومفردها قصر بمعنى قلعة وأول مثل لها قصور حسان فى طرابلس، أنظر فيما بعد الفصل الخاص بهزيمة حسان بن النعمان أيام الكاهنة. وعن الواحات التى تشبه المدن اليمنية، أنظر، Célérier, Maroc, p. 86. وأنظر أيضاً، E. Laoust, L'habitation des transhumants du Maroc Central, Hespéris, t 14, 1932.

جبال تونس الغربية، وفى طرابلس وجبل برقة. ففى هذه الأقاليم وجدت الزراعة الدائمة حيث يتوفر الماء الذى يتوقف على مقداره ازدياد أو نقصان الرقعة المزروعة. أما العشب الصالح للرعى فهو ينبت سواء كانت الأمطار كثيرة أو شحيحة. وفى هذه الأقاليم تختلط البيوت والمساكن المبنية باللبن والطين بالخيام، معبرة عن طبيعة حياة الناس التى تتراوح ما بين الاستقرار والتنقل، كما يذكر ابن خلدون أنهم «يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر»(١٨٥).

الرعــــاة:

ومناطق الانتقال هى أرض العشب والمراعى التى تعرف حالياً باسم السهوب (Steppes). ورغم أنها أرض الغنم دون منازع إلا أن العشب فيها يتوفر للحصان الصغير الحجم (القريب الشكل من الحصان العربى والمعروف بالبرذون وجمعها براذين) وكذلك للجمل(١٨٦). ورعاة الغنم هؤلاء هم الطبقة الثانية أو الوسطى من الرعاة وهم جمهرتهم إذ ينتشرون فى كل المغرب من أدناه إلى أقصاه، كما فى هضبة مراكش الشرقية (التى تكسوها الحلفا) وما يتاخمها من بلاد الجزائر. والرعاة فى هذه الأقاليم لم يعرفوا الحدود السياسية بين البلدين إلى اليوم(١٨٧). والمغرب الأوسط هو بلد الرعى بصفة خاصة، ولهذا السبب يفسر ابن خلدون كلمة الشاوية التى أطلقت على القبائل فى بلاد الجزائر والتى مازالت مستعملة إلى اليوم على أنها تعنى رعاة الشاة(١٨٨). ولقد اشتهرت برقة أيضاً بمراعيها التى تجود فيها الغنم المعروفة بلذة لحمها وكثرة شحمها(١٨٩). ورعاة الغنم ينتقلون عادة بقطعانهم بين المراعى المرتفعة فى الجبال والتلول وبين المراعى المنخفضة لما تتميز به من الدفء الضرورى للحيوان وخاصة من أجل النتاج(١٩٠). ولكن

---

(١٨٥) ابن خلدون، ج٦ ص ٨٩.

(١٨٦) أنظر ابن حوقل (ص ٩٥) حيث الإشارة إلى أن أهل المغرب من البربر لهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الغره والإبل والغنم والبقر. وأنه عندهم من الجمال الكثير فى برابرة وسكان صحاريهم التى لاتدانيها فى الكثرة إبل العرب. وأنظر ابن سعيد (الجغرافيا، ص ١٤١) حيث يقول عن براريهم فازاز: إن لهم فى جبالهم بين نهر سلا ونهر سبو، من الخيل نتاج مشهور.

(١٨٧) أنظر: Célérier, Le Maroc, p. 88

(١٨٨) المقدمة، الفصل الخاص بالعمران البدوى، طبعة التجارية، ص ١٢١.

(١٨٩) الاستبصار، ص ١٤٣ والهامش ١.

(١٩٠) ابن خلدون، المقدمة، الفصل الخاص بالعمران البدوى، طبعة التجارية ص ١٢١.

العشب لايلبث أن ينقرض بمجرد اشتداد الحرارة فى الوقت الذى تكون فيه الأقاليم العالية غنية بالعشب الذى يتأخر ظهوره شتاء لشدة البرد بينما يكون الطقس لطيفاً صيفاً. وبسبب هذا النوع من التكامل بين السهل والجبل ينتقل الرعاة بخيامهم إلى ظهور الهضاب والجبال صيفاً. أو يلجأون إلى عيون المياه بما يقونه لديهم من الشياة فى الأقاليم السهلية الجافة.

والطبقة الثالثة من البدو هم رعاة الإبل أو الجمال. ومساكنهم على حافة الصحراء حيث يقل الماء ولكن حيث توجد أنواع من النباتات الخشنة الصالحة لرعى الإبل والتى لاتصلح طعاماً لغيرها من الحيوانات الصغيرة، كما فى صحراوات المغرب الأقصى الجنوبية فى وادى درعة وسجلماسة (تفللت) حيث كان الملثمون، وكما فى قلب صحراوات الجزائر مثل اقليم الهكار (الهجار) حيث يوجد حفدة الملثمين القدماء وهم الطوارق[١٩١]. ورعاة الجمال هؤلاء كانوا يعتمدون فى معاشهم على الإبل يشربون ألبانها ويأكلون لحومها المقددة كما يتغذون بتمور الواحات دون غيرها حتى أنهم لايعرفون الخبز[١٩٢]. وهم بفضل جمالهم يجوبون الصحراء من أدناها إلى أقصاها طولاً وعرضاً، ينقلون المتاجر والحضارة إلى قلب الصحراء والسودان أو يبحثون عن موارد المياه البعيدة. وحتى أيامنا هذه لوحظ أن الطوارق يقودون قطعانهم من الجمال من الحدود المراكشية (من ايجيدى Iguidi ومن ريو دى أورو Rio de Oro) للسقيا من نهر النيجر[١٩٣]. والحقيقة أن رعاة الإبل هم البدو حقيقة دون غيرهم فهم من هذا الوجه «أشد الناس توحشاً»، كما يقول ابن خلدون[١٩٤]. وهم الرعاة العظام، كما يسميهم الأوروبيون (Grands Pasteurs Chameliers)[١٩٥]. وبطبيعة الحال لايدخل ضمن هذه الطبقة أولئك الذين يشتغلون برعى أو تربية الجمال من طبقات الزراع أو رعاة الغنم والخيل الذين ينتشرون فى كل البلاد من مراكش إلى برقة.

---

(١٩١) عن بلاد الهكار أنظر ابن بطوطة، الرحلة، ط. التقدم بمصر، ج ٢ ص ٢٠٦ (حيث يقول إن طولها مسيرة شهر. وأنها قليلة النبات كثيرة الحجارة وأن أهلها من البربر أهل اللثام).

(١٩٢) ابن حوقل ص ٨٤، ٩٨، البكرى، ص ١٧٠، الاستبصار، ص ٢١٣ - ٢١٤.

(١٩٣) أنظر: Larnaude, Algérie, p. 97.

(١٩٤) المقدمة، الفصل الخاص بالعمران البدوى، طبعة التجارية، ص ١٢١.

(١٩٥) أنظر: Gautier; Le Passé de l'Afrique, p. 188.

ولقد كان وجود الجمل فى المغرب موضوع جدل بين العلماء، وذلك بعد العثور على النقوش القديمة فى صخور صحراء الجزائر التى تبين أن البلاد كانت عامرة فى عصر ما قبل التاريخ بحيوانات متوحشة ومنها الفيل والزراف على وجه الخصوص(١٩٦). أما الجمل فلم يكن من بين هذه الحيوانات كما هو الحال فى مصر القديمة(١٩٧). ووجود الفيل في المغرب قديماً دليل على أن الصحراء الغربية كان يسودها جو أشبه بجو اقليم الأعشاب الطويلة المعروفة بالسافانا، وعندما انحسر هذا الاقليم نحو أواسط افريقية انسحب معه الفيل. ولقد اتضح أن أول ذكر للجمل فى المغرب يبدأ مع مطلع التاريخ المسيحى، وثبت أنه أتى من المشرق وبدأ استخدامه على نطاق واسع ابتداء من القرن الثالث المسيحى كما يشير إلى ذلك كتّاب الرومان، الذين سجلوا العمليات العسكرية فى ولاية افريقية(١٩٨). هذا ولو أن بعض كبار المتخصصين فى تاريخ المغرب العربى مثل رينيه باسيه (René Bas-set) أخطأ وظن أن الجمل دخل إلى المغرب مع العرب، وهو يستند فى ذلك على دراسته اللغوية التى يتضح منها أن اسم الجمل فى كل اللهجات البربرية مشتق من اسمه فى اللغة العربية(١٩٩).

الأقليات غير الوطنية:

الأفارقة:

عندما وصل العرب إلى المغرب وجدوا جماعات أخرى من غير أهل البلاد. وأول هذه الجماعات هى التى أطلقوا عليها اسم الآفارق أو الأفارقة(٢٠٠). ومع أن التسمية نسبة إلى افريقية إلا أنه يفهم أن الأفارقة يختلفون عن البربر وعن الروم. وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة هم أهل البلاد الذين اختلطوا بالروم

---

(١٩٦) نفس المرجع ص ٣٩، واللوحة رقم ٥ أمام ص ٤٠ وأنظر ص ١٧٠ حيث يتكلم جوتييه عن فيلة قرطاجنة ويقول أنه ثبت أنها أفريقية الأصل.

(١٩٧) المعروف أن الجمل لم يعرف فى مصر القدمية وأنه دخل البلاد لأول مرة مع الغزوة الأشورية ثم مع الفرس، جوتييه، ص ٢٠٥.

(198) M.S. Gsell, La Tripoltaine et le Sahara au 3 éme S. Gautier, Le Passé de notre ére, p. 145 p. 103 - 104. وانظر: de l'Afrique.

(١٩٩) جوتييه، ص ٢٠٠.

(٢٠٠) عن الأفارقة أنظر ابن عبد الحكم، ص ١٨٥، أنظر البكرى، ص ٧٥ حول برقة) ص ٥٦ (حول المنستير على سواحل القيروان)، الإدريسى ص ١١٠ (حيث يقول عن سبيطلة أنها كانت مدينة جرجيس ملك الروم الأفارقة)، ابن عذارى، ج١ ص ١٢.

(فأصبحوا من المولدين) ودخلوا فى خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا فى المسيحية(٢٠١). ورغم أن كثيرين من هؤلاء الأفارقة دخلوا فى الإسلام من أجل المحافظة على أراضيهم، فإن الكثيرين منهم ظلوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية أو لهجة محلية إذ يذكر البكرى أن رطانة أهل سرت لايعرفها غيرهم(٢٠٢). ولكنه رغم دخول الأفارقة فى الإسلام فالظاهر أنهم ظلوا يحتفظون بميول انفصالية. فإلى جانب احتفاظهم بلغاتهم الخاصة، شارك بعضهم فى الحركات المناهضة للخلافة ابتداء من القرن الثانى الهجرى. والمثل لذلك عبد الأعلى بن جريج الأفريقى الذى يوصف بأنه رومى الأصل ومن موالى العرب «والذى كان يرى رأى الصفرية فولاه ميسرة على طنجة»(٢٠٣).

اليهـود:

وقد وجد العرب كذلك جماعات من اليهود، ولو أنه لايعرف متى دخلت اليهودية إلى المغرب. ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفينيقيين(٢٠٤)، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان(٢٠٥). والظاهر أن هذه الهجرة اليهودية هى التى جعلت الكتاب العرب يقولون أن أصل البربر من فلسطين(٢٠٦). وإلى جانب هؤلاء المهاجرين ربما انتشرت اليهودية بين بعض القبائل البربرية، والمثل لذلك هو ما يذكره ابن خلدون من أن الكاهنة زعيمة قبائل أوراس كانت يهودية، ولو أنه يشك فى هذا الأمر الذى لم يشر إليه كتاب الفتوح الأوائل(٢٠٧).

---

(201) G. Marçais, La Berbérie p. 71.

(٢٠٢) أنظر البكرى، ص ٦ الذى يقول «ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربى ولابربرى ولاقبطى ولا يعرفه غيرهم»، الاستبصار، ص ٢١١.

(٢٠٣) ابن خلدون، ج٦ ص ١١٩، وأنظر فيما بعد فى ثورة ميسرة المطغرى.

(204) Nahum Slouschz. Hebraeo-Phéniciens et Judéo-Berbé res (Archives Marocaines, vol. 14), Paris, 1908, p. 1 et suiv.

(205) Célérier, Maroc, p. 82.

(٢٠٦) أنظر فيما سبق الفصل الخاص بالبربر ص ٨٨.

(٢٠٧) ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٨، وأنظر مارسيه الذى يشك فى صحة هذه الرواية:

(G. Marçais, La Berbérie et l'Orient, p. 34)

واستناداً إلى رواية ابن خلدون التى يشك فى صحتها، وإلى ما يذكره البكرى والإدريسى وكتاب الاستبصار وابن أبى زرع فى روض القرطاس من وجود جماعات من اليهود فى بعض أقاليم المغرب، وإلى وجود عدد من المواضع التى تحمل اسم اليهودية فى برقة وفى المغرب الأقصى، بل وفى بلاد السودان الغربى(٢٠٨)، بالغ البعض فى دراسة أثر اليهودية فى المغرب منذ ما قبل الإسلام(٢٠٩)، وظن البعض أن سلالة اليهود الوطنيين القدماء تتمثل حالياً فى الجماعات اليهودية التى تعمل فى الزراعة فى قرى جبال أطلس العليا فى صفرو ودبدو ودمنات(٢١٠).

ولكنه رغم هذه المبالغات - التى يمكن تفسيرها فى مواضعها - فالحقيقة أن الكتاب الأوائل لايمدوننا بمعلومات عن جماعات اليهود التى كانت بالمغرب عقب الفتح. وربما كان أقدم نص يشير إلى علاقة اليهود بالعرب هو ما يقال من أن يهود المغرب الأقصى كانوا على علاقات بيهود أسبانيا، والقرينة هى أن المجمع الكنسى الذى انعقد فى طليطلة سنة ٦٩٤م وقرر اتخاذ اجراءات عنيفة ضد يهود أسبانيا، كانت ذريعته لذلك أنهم اتصلوا باخوانهم يهود المغرب ليحرضوا العرب على غزو الأندلس(٢١١).

السودان:

بلاد المغرب كما رأينا وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية، مثلها مثل مصر الوثيقة الصلة ببلاد السودان الشرقية، مما ترتب عليه امتزاج الدماء منذ أقدم العصور.

ونلاحظ أن كتاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الاثيوبيين) على

---

(٢٠٨) أنظر الإدريسى ص ٤ (عن اليهودية فى مدينة لملم)، ص ٢٩ (حيث النص على أن أهل أرض قمنورية المتصلة بالصحراء المؤدية إلى غانة كانوا من اليهود كما يدعى التجار وأنه «فى معتقدهم تشويش وليسوا بشىء».

(209) Nahum Slouschz, Hebraeo-Phéniciens et Judéo-Berbéres pp. 274, 282, 285.

وعن الكاهنة التى كانت تعبد صنماً فى رأى آخر أنظر، المالكى، ص ٣٥.

(٢١٠) أنظر: Célérier, Maroc, p. 82.

(٢١١) أنظر: E. Lévi-Provençal, L'Espagne Musulmane, p. 5.

أهل الأقـاليم الجنوبيـة من المغـرب[٢١٢]. وفـسـر بعض المحـدثين أن المقـصـود بالاثيوبيين هـم السودان، واستنتجوا من ذلك أن الصحراء وواحاتها كانت معمورة بجـمـاعـات سـوداء. وحـددوا سكنى الوطنيين من البـربر في الواحـات والصـحـراء بالعصر الرومانى، بعد أن احتلت روما البلاد، ومع توسع الاستعمار الرومانى الذى استولى على الأرض الخصبة فى الشمال، مما ترتب عليه التجاء البربر إلى الأقاليم الجنوبية الفقيرة فى الصحراء، وذلك ابتداء من أواخر القرن الثانى الميلادى[٢١٣]. وليس لنا مـا نقـوله بهـذا الشـأن إلا مـا ذكـرناه ابتـداء من أن الصلة بين سكان الأقاليم الشـمـالية والأقاليم الجنوبية ينبغى أن تعود إلى ما هو أقدم من التـاريخ المسيحى.

أما عن كلمة الاثيوبيين القديمة فمن الجائز أن يكون اليونان قصدوا بها السودان فعلاً أو أصحاب البشرة السمراء من أهل البلاد، إما لامتزاجهم بالسودان وأما نتيجة لعامل البيئة. والحقيقة أن واحات الصحراء كانت همزة الوصل بين المغرب والسودان، فكان من الطبيعى أن تكون بالتالى منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود. وهذا ما يشير إليه كتاب العرب الأوائل عندما يصفون المدن الصحراوية مثل غدامس وزويلة وأوجلة وسجلماسة بأنها أبواب السودان[٢١٤]. ونظن أنه عند الفتح العربى لم تكن توجد فى المغرب جماعات سودانية ذات كيان خاص إذ لا يشير الكتاب العرب إلى ذلك، وهذا يعنى أن الدماء السودانية الآتية من الجنوب كـانت تذوب أولاً بأول فى دمـاء أهل البـلاد، كـمـا هو الحـال الآن[٢١٥]. والظاهر أن اضطراب الخوارج فى المغرب كـان فرصة لكى يشارك

---

(٢١٢) يسمى هيرودوت سكان الأقاليم الواقعة جنوبى ليبيا (بمعنى شمال افريقية) بالأحباش (الاثيوبيين) ويظن أنهم على ساحل المحيط الهندى. أنظر:

Herodotus, The Histories (The Penguin Classics), 1955, Book 3, p. 181.

M.S. Gsell. La Tripolitaine et le Sahara p. 160 et suivant .

(٢١٣) أنظر: Larnaude, Algérie, p. 66.

(٢١٤) اليعقوبى، ص ٣٤٥ (عن زويلة)، الاصطخرى ص ٣٤، ٣٦ (عن زويلة وسجلماسة) البكرى، ص ١٨١ - ١٨٢ (عن غدامس) الاستبصار، ص١٤٦، غدامس) وص ٢٠٠ (عن سجلماسة).

(٢١٥) أنظر جوليان حيث يعرض نتائج الأبحاث التى قام بها علماء الأنثروبولوجيا فى المغرب، والمبنية على دراسة العلاقات بين طول الرأس وعرضها وكذلك الوجه والأنف ... الخ. والتى بينت وجود الدم الأسود فى أكثر من جماعة من الجماعات الأربع التى قسم إليها أهل الجزائر:

Julien,Hist. de l'Afrique du Nord, p. 51.

بعض السودان في الثورة إذ ينص الكتاب على أن أول إمام في سجلماسة كان عيسى بن يزيد الأسود[٢١٦].

الروم والفرنج:

ورغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم لمدة طويلة منذ انهيار قرطاجنة أمام روما إلا أن هؤلاء ظلوا يكونون جماعة منفصلة عن البربر. حقيقة أنه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين كما يذكر الكتاب العرب أن الملكة الكاهنة كان لها ابن رومى[٢١٧]. ولكن الامتزاج كان إلى حد محدود لم يتجاوز التحالف أو الجوار في الخدمة العسكرية في بعض الأحيان. وفيما بين الحكم الرومانى والحكم البيزنطى وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق أسبانيا في القرن الخامس الميلادى. ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكن من النجاة وأنهم لجأوا إلى دواخل البلاد: حلفاء أو لاجئين لدى بعض القبائل. ومن الطبيعى أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر. والأقرب إلى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر، بدلاً من القول بأن النموذج للرجل البربرى هو الرجل الأشقر[٢١٨]، وذلك في محاولة غريبة للإبعاد بين المغاربة وأصولهم الحقيقية في المشرق – على ما نظن. ولقد تفنن البعض في ذلك حتى قال أن البربر أتوا مهاجرين إلى افريقية من الغرب: من القارة الأسطورية التى اندثرت وكانت موضع المحيط وهى الاتلانتيد (Atlantide)[٢١٩].

ومع أن المعروف أن الروم انسحبوا أمام العرب إلى جزر البحر فإن جماعات منهم لجأت إلى الدواخل حيث دخلوا في الإسلام من أجل المحافظة على أموالهم، ولقد بلغ الأمر إلى درجة أن صاحب الاستبصار يقول أن أكثر أهل قسطيلية وبلاد الجريد من بقايا الروم هؤلاء[٢٢٠].

---

(٢١٦) أنظر ابن عذارى، ج١ ص ١٥٦، وأنظر فيما بعد في الفصل الخاص بإمامة بنى واسول في سجلماسة.

(٢١٧) أنظر فيما بعد في الفصل الخاص بالكاهنة.

(٢١٨) أنظر الأبحاث الأنثروبولوجية التى أوردها جوليان: Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 51 et suiv.

(٢١٩) أنظر:
Gautier, le Passé de l'Afrique du Nord, p. 41.

(٢٢٠) الاستبصار، ص ١٥٥.

اللغـــة:

لغة البربر عبارة عن عدد من اللهجات ربما كانت أشبه بلهجات القبائل العربية قبل أن تاتلف وتسودها اللغة القومية الواحدة، لغة القرآن. والبربرية كانت تكتب في العصور القديمة، ولقد عثر على بعض نقوشها في الصحراء ولكن رموزها مازالت غامضة غير أكيدة[٢٢١]. هذا ولو أن نوعاً من الكتابة أو النقش البربرى مازال موجوداً عند الطوارق بالصحراء، ومن الممكن أن يكون سليل الكتابة القديمة، وهو يعرف عندهم باسم تفينغ (tifinagh) وتستخدمه النساء خاصة، ولكن بشئ من الصعوبة والخلط[٢٢٢]. وبعد أن تعرب المغرب كتبت اللهجة البربرية بالحروف العربية فى بعض الأحيان. والمثل لذلك تواليف محمد بن تومرت (في مطلع القرن السادس الهجرى/ ١٣ م) كالعقيدة والمرشدة[٢٢٣].

ولقد ذكرنا أن بعض الكتاب العرب قال أنها لغة يكثر فيها حرفا الباء والراء، لكنهم فعلوا ذلك في محاولتهم لتفسير كلمة البربر التى أطلقت على أهل البلاد[٢٢٤]. ولقد وضع بعض الكتاب المحدثين اللهجات البربرية مع مجموعات اللغات الحامية مثل اللغة القبطية[٢٢٥] بينما وجد آخرون نوعاً من التشابه بين اللغة البربرية واللغة المصرية القديمة وبعض لغات السودان مثل الكوتشيتى (Couchitique) وكذلك مجموعة اللغات السامية ومنها العربية. وظن هؤلاء أن هذا التشابه يرجع إلى أسباب سياسية تمثلت فى الغزوات والفتوحات التى عرفها العالم القديم كفتوحات مصر القديمة فى آسيا وفى ليبيا والسودان وعكس ذلك، وكالتوسع الفينيقى فى كل حوض البحر المتوسط. ولكن أبحاث بعض اللغويين أثبتت أن هذا التشابه هو فى الحقيقة نوع من القرابة بين هذه اللغات بمعنى أنها ترجع جميعاً إلى لغة أم قديمة[٢٢٦]. وإذا صح ذلك تكون تلك القـــرابة من

---

(٢٢١) أنظر.
Larnaude. Algérie (Coll. l'Union Française), p. 65.
(222) Larnaude. Algérie (Coll. l'Union Française), p. 67.

(٢٢٣) مذكرات البيدق، نشر بروفنسال، النص العربى ص ٤٠، ٦٧ (عن معرفة ابن تومرت البربرية)، عبد الواحد المراكشى، طبعة ١٣٢٤. ص ١٢٠، وأنظر كتاب السير للوسيانى، حيث يورد المؤلف نصوصاً وترجمتها إلى العربية (المخطوط).

(٢٢٤) أنظر فيما سبق عن تسمية البربر ص ٨٧، ٨٨ وهامش ٨٣.

(225) Gautier, le Passé de l'Afrique du Nord, p. 35.

(226) Jean Vertcoutter, L'Egypte Ancienne, coll Que sais-je. p. 29.

العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى المغرب (كما فى مصر). هذا ولو أن بعض الكتاب يفسر سهولة انتشار اللغة العربية فى المغرب بسبب انتشار اللغة البونية (لغة الفينيقيين) قبلها، كما حلت اللغة الآرامية فى الشام محل الفينيقية لأنها من فروع السامية، فى الوقت الذى لم يقبل فيه بعض المتخصصين فى اللغة البربرية مثل وليام مارسيه (W. Marçais) وجود علاقة ما بين اللغة العربية والبونية[٢٢٧].

والحقيقة أنه لايهمنا هنا إن كان التشابه بين لغات المغرب العربى والمشرق العربى القديمة هو وليد صلة الدم أم وليد الاحتكاك السياسى والحضارى، إنما الذى يهمنا هو أنه تشابه على كل حال ترتب عليه نوع من التوافق أو القربى بين أهل البلاد جميعاً منذ العصور القديمة. ولاشك فى أن ذلك كان من عوامل سرعة انتشار اللغة العربية واستقرارها فى المغرب، وكذلك العادات والتقاليد العربية، مما ترتب عليه أن عاش الناس فى حاضرهم العربى ولم يبق بينهم من تركة العصور القديمة إلا بعض الذكريات.

حقيقة أن بعض اللهجات البربرية مازالت حية فى المغرب وخاصة فى الأقاليم الجبلية غير المطروقة والتى تكون مناطق انعزال، ولكن هذه اللهجات البربرية تستخدم فى هذه المناطق فى حدود ضيقة فى نطاق الأسرة وداخل المسكن وخاصة بين الحريم. أما فى النطاق العام خارج المنزل والأسرة فاللغة العربية هى المستعملة بين الناس جميعاً، والأمثلة لذلك فى جبل نفوسة من اقليم طرابلس وجزيرة جربة وبعض واحات الجنوب فى تونس. وأكبر منطقة تستخدم فيها اللغة البربرية توجد فى شرق بلاد الجزائر، فهناك لهجتان بربريتان هما: الشاوية والقبائلى[٢٢٨].

ولقد عمل الفرنسيون على احياء اللغة البربرية فى اقليم القبائل، والظاهر أنهم فعلوا ذلك بغرض تقسيم البلاد إلى بربر وعرب عملا بمبدأ روما القديم «فرق تسد»، وحتى تتمكن اللغة الفرنسية من الانتشار على حساب العربية - عصب القومية. أما فى غرب الجزائر فلا توجد إلا جزر صغيرة ممن يتكلمون العربية والبربرية وخاصة فى الاقليم الساحلى من شرشل وتنس، وكذلك فى بعض

(227) Gautier, le Passé de l'Afrique du Nord, p. 130, not 3.

(228) Lamaude, Algérie, p. 65.

واحات الصحراء كما فى: سوارة وتوات وفى جنوب غرب وادى ريغ وفى وارجله من بلاد ميزاب (الزاب) الجنوبية (Mzab) وأخيراً فى هضبة الصحراء الوسطى المعروفة بالهجار (الهكار) وهى: بلاد الطوارق(٢٢٩).

ومازالت بعض اللهجات البربرية موجودة فى المغرب الأقصى وخاصة فى أطلس العليا الغربية (جبال درن) ووادى سوس (السوس الأقصى) حيث يطلق حالياً على السكان اسم الشلوح (Chleuh) كما يطلق اسم تاشلحيت (Tachelhait) على لهجتهم. ويرى البعض أن الشلوح هم سلالة بربر مصمودة(٢٣٠)، بينما يظن آخرون أنهم يمثلون خليطاً من عناصر متنوعة بعضها من زنانة، وذلك أن جماعة منهم تحمل اسم الزناتية(٢٣١). هذا كما تتكلم اللهجة البربرية فى اقليم أطلس الوسطى على تخوم الصحراء حيث توجد الجماعة التى تعرف الآن باسم البرابر أو المازيغن (Imazirhen) وتعرف لهجتهم باسم تامازيغت (tamazirhit) ويظن أنهم من صنهاجة. وتوجد اللغة البربرية كذلك فى بعض مناطق الريف(٢٣٢).

ولاينبغى أن يهولن المرء تعدد الأقاليم التى مازالت تحتفظ باللهجة البربرية وانتشارها ما بين طرابلس والبحر المحيط، فهى جزر صغيرة فى محيط لغة الشعب العربية. ونحن نعتقد أن القرابة القديمة التى تربط البربرية باللغة العربية كانت من العوامل المساعدة على بقائها. فكثير من الكلمات البربرية مشتقة من أصول عربية مثل لهجاتنا العربية الدارجة، والمثل لذلك هو قول رينيه باسيه (René Basset) أن الجمل دخل إلى المغرب مع العرب استناداً إلى أن اسم الجمل فى اللهجات البربرية مشتق من أصل الكلمة العربى(٢٣٣).

(229) Larnaude, Algérie, p. 66- 67.

(230) Célérier, Maroc, p. 80.

(231) Célérier, Maroc, p. 81.

(٢٣٢) Célérier, Maroc, p. 79-80 (وكلمة أما زيغن هى جمع كلمة ماريغ «جد البربر عند ابن خلدون، ج ٦ ص ٨٩» ومؤنثها تمازيغت، واسم امازيغن أطلق على بعض القبائل بمعنى الرجال أحرار (أنظر جوليان، ص ٢).

(٢٣٣) أنظر فيما سبق ص ١١١ - ١١٢.

الديـن:

ليست لدينا معلومات كافية عن معتقدات البربر الدينية قبيل الفتح العربى، ولكنه يفـهـم من القطع المتناثرة التى أوردها الكتّاب بهـذا الشـأن أن غالبيـة البربر كانوا ملاحدة أو مجوساً، بمعنىً أنه لم تكن لديهم أفكار معينة عن الإله أو عن مصير الإنسان. وما كان لديهم من المعتقدات الدينية إذا استثنينا من تهوّد منهم ومن تنصر لم تخرج عن ذلك النوع البسيط المعروف فى المجتمعات البدائية، والذى يتلخص فى عبادة الشمس والقمر والأصنام، كما يقول ابن خلدون[٢٣٤]، أو الاعتقاد فى السحر والشعوذة.

ففيما يتعلق بالمجوسية يذكر صاحب كتاب روض القرطاس أن بعض قبائل منطقة فاس كان لهم بيت نار[٢٣٥]. وفيما يتعلق بالوثنية يذكر البكرى أن بعض قبائل ودّان كان لهم صنم من حجارة مبنى على ربوة يسمى كرزة، يقربون له القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون فى أموالهم[٢٣٦]. وفى الجبل ما بين أغمات والسوس كانت توجد قبيلة من البربر يعبد أفرادها كبشا، ولهذا السبب المشين كان لايدخل أحدهم السوق إلا مستترا[٢٣٧]. ونظن أنه لمثل هذه الأمور ظهرت أحاديث منسوبة إلى النبى - وهى غير صحيحة من غير شك - فى ذم جبل درن (أطلس) منها: «أن بالمغرب جبلاً يقال له درن يزف يوم القيامة بأهله إلى النار كما تزف العروس إلى بعلها»[٢٣٨]. والظاهر أن مثل هذا الحديث كان سبباً فى ظهور أحاديث أخرى مضادة تؤكد صحة إسلام البربر وتقول أنهم أسلموا منذ أيام النبى وذلك عندما ذهبت جماعة من قبيلة رجراجة إلى مكة لأداء فريضة الحج، وذلك قبل الهجرة، بمعنى أنهم أسلموا قبل بعض الصحابة أنفسهم[٢٣٩].

---

(٢٣٤) ابن خلدون، ج ٦ ص ٩٤.

(٢٣٥) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٦.

(٢٣٦) البكرى، ص ١٢.

(٢٣٧) البكرى، ص ١٦١.

(٢٣٨) البكرى، ص ١٦٠، وقريب من ذلك ما يقال من أن «المغرب ينسى ويوحش الطبع ويطيش اللب، وينهب الرحمة ويكسب الشجاعة ويقشع الضراعة، وفى أهله غدر، ولهم خبث ومكر. ديارهم مختلفة، وهمومهم غير مؤتلفة. ولديارهم فى اخر الزمان نبأ عظيم وخطب جسيم: من أمر يظهر. وأحوال تبهر (مروج الذهب. ج ٢ ص ٦٢).

(239) M.E. Michaux-Bellaire. Conférences au Cours Préparatoires de Services des Affaires Indigénes, Archives Marocaines, vol. 27 p. 16.

ولابأس من الإشارة هنا إلى أن الكتاب يعتبرون أن جبل درن يمتد شرقاً حتى يشمل جبل أوراس ثم جبل نفوسة حيث الخوارج الأباضية، كما سبقت الإشارة. ولما كانت الجبال مناطق انعزال فربما لم يكن من الغريب أن تعيش فيها بعض الجماعات وهى محافظة على شئ من العادات والتقاليد القديمة، والتى لم يستطع الإسلام أن يقتلعها من جذورها العميقة تماماً. وهناك روايات غريبة حقاً سجلها الكتاب فى حق خوارج جبل نفوسة مثل الرخص فى المذهب والتساهل فى أمور خاصة بالعفة والعلاقات الزوجية[٢٤٠]. ومثل هذا يقال عن قبائل كتامة (فى منطقة قسنطينة من أرض الجزائر) التى نسب إليها بذل أولادها للأضياف النازلين بهم[٢٤١]. وعن قبائل غمارة فى جبال الريف قيل أنها كانت تمارس عادة «الموارَبة»، وهى أن يحمل شباب الناحية العروس قبل أن يدخل بها زوجها، ويحتفظون بها مدة تطول وتقصر على قدر جمالها، وذلك قبل أن يعيدوها إلى زوجها[٢٤٢].

ونحن لانعرف مبلغ هذه الروايات من الصحة، فقد تكون من تشنيعات أهل السنة أو الشيعة وسخريتهم بالخوارج، وهذا لايمنع أن تكون المسألة بقايا رواسب قديمة، كما قلنا. والحقيقة أنه لاينبغى أن نعطى لهذه الحركات أو تلك التقاليد البالية من الأهمية أكثر مما تستحق، فهى محلية اقليمية على كل حال، وهى إن دلت على شئ فإنما تدل على أن بعض الجماعات المنعزلة من المغاربة لم تكن قد فهمت الإسلام الصحيح أو أنها فهمته داخل إطار عاداتها ومعتقداتها القديمة التى لم تكن قد تخلصت منها بعد - رغم شدة الإسلام وحرصه على نقائه.

وفيما يتعلق بممارسة السحر والشعوذة، فالمثل لذلك ما يورده الكتّاب عن

= ولابأس من الاشارة إلى أن المؤلف يرى أن أساس هذه الرواية يرجع إلى زيارة رسل قبيلة رجراجة لمتبنى قبائل غمارة المعروف بحاميم (عن حاميم أنظر الاستبصار، ص ١٩١ والفصل الخاص بذلك من تاريخ الأدارسة).

(٢٤٠) أنظر الاستبصار، ص ١٤٥.

(٢٤١) الإدريسى، ص ٩٩. وقارن ابن حوقل (ص ٩١) الذى ينسب هذه العادة إلى قوم من بربر المغرب ما بين سجلماسة إلى السوس إلى نواحى الزاب ومنطقة قسنطينة وكتامة وسطيف. وهو بعد ذلك (ص ٩٣) يذكر اندثار تلك العادة فى بربر سطيف بعد مجاهدة أبو عبد الله الشيعى لهم، وخاصة كتامة منهم.

(٢٤٢) الاستبصار، ص ١٩٣. وأنظر الإدريسى ص ١٧٠ الذى يتحدث عن فناء جمع غمارة بسبب «كثرة ذنوبهم، وضعف إسلامهم، وكثرة جرأتهم وإصرارهم على الزناء المباح والموارَبة الدائمة، وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق».

ملكة جبل أوراس المعروفة بالكاهنة لمقدرتها على الحدس والتنبؤ. وقصة الكاهنة تتراوح ما بين الحقيقة والأسطورة، ومنها قد نفهم بعض أساليب السحر المعروفة وقتئذ، وكيفية التأثير فى الناس عن طريق الاتيان بأعمال تثير الرهبة أو الشفقة. فعندما كانت الكاهنة تندمج فى حالة الإلهام أو الاستقبال كانت تنشر شعرها وتدق صدرها وهى تتفوه بأنباء ما يكون من الأحداث(٢٤٣). وفى بعض الروايات أنها كانت ترمى بأحجارها(٢٤٤) كما يفعل المنجمون الشعبيون فى أيامنا هذه، مما يدعونا إلى الظن بأن هذه الرواية ظهرت فى وقت متأخر. وقريب من ذلك ما ينص عليه ابن سعيد من أن بربر أزكان، فى جنوبى فزان وودان، كانوا - وهم برابرة مسلمون أحذق خلق الله فى خط الرمل(٢٤٥).

وتمدنا قصة الكاهنة بصور لبعض العادات والتقاليد التى كانت مبجلة عند البربر إلى درجة العقيدة الدينية. والمثل لذلك عادة المؤخاة عن طريق الرضاع الرمزى، وذلك بأن يثل الدقيق بالزيت ويجعل على ثدى المرأة ثم يأتى الرجل فيأكل من ثديها مع أبنائها فيصبح بذلك أبناً لها وأخاً لأبنائها(٢٤٦).

ويستبين من هذه القصة أن المرأة كان لها مركز ممتاز فى المجتمع البربرى يسمح لها بالوصول إلى مركز القيادة، كما فى هذه الحالة. وترتب على ذلك أن أصبح النظام «الأموى» فى الأسرة (Matriarcat) وهو النظام الذى يسمح بأن تكون المرأة هى سيدة الأسرة على عكس النظام «الأبوى» (Patriarcat) - أمراً مألوفاً فى هذا المجتمع. وعن هذا السبيل يرجع النسابة أسماء عدد من القبائل البربرية إلى أسماء جداتها - الحقيقة أو الأسطورية. فقبيلة صنهاجة ولمطة فى قول ابن حزم من أبناء امرأة اسمها تيزكى، أما اسم أبيها فغير معروف(٢٤٧). ونجد فى

---

(٢٤٣) ابن عذارى، طبعة كولان، ص ٣٧ وعن الكاهنة أنظر فيما بعد الفصل الخاص بحسان بن النعمان.

(٢٤٤) نص جديد عن فتح العرب للمغرب، نشر ودراسة بروفنسال، مجلة المعهد المصرى بمدريد، سنة ١٩٥٤، ص ٢٢٢.

(٢٤٥) أنظر كتاب الجغرافيا، ص ١٢٧. وقارن الإدريسى (ص٣٦) الذى ربما نقل عنه ابن سعيد، حيث اسم القبيل آزقار. وحيث الإشارة إلى أن خط الرمل هذا ينتسب إلى النبى دانيال، وأن أهل المغرب يروون عن حذق هؤلاء البربر فى خط الرمل ومعرفة مواضع المسروقات والخبايا قصصاً عجيبة، وذلك على كثرة جهلهم وغلط طبعهم.

(٢٤٦) ابن عذارى، ص ٣٧ وانظر الرقيق القيروانى، تاريخ افريقية والمغرب ص ٥٨ - ٥٩.

(٢٤٧) ابن خلدون العبر، ج٦، ص ٩٠، الترجمة، ج١ ص ٦٩ (اسم المرأة فى النص العربى هو يحكى ولكننا فضلنا تحقيق صاحب الترجمة).

تاريخ المغرب العربى أسراً لامعة اشتهرت بأسماء جداتها مثل بنى غانية المرابطين أصحاب جزيرة ميورقة[٢٤٨] . ومازال النظام «الأموى» هذا مألوفاً عند بعض طوائف الطوارق فى الصحراء إلى الآن[٢٤٩] . ولقد ترتب على مركز المرأة الممتاز هذا عند البربر إنها كانت سافرة لا تعرف الحجاب فى الوقت الذى كان يتلثم فيه الرجال فى بعض القبائل، كما عند قبائل صنهاجة الصحراوية أصحاب اللثام، وكما هو الحال عند الطوارق[٢٥٠] .

اليهودية والنصرانية:

إلى جانب المعتقدات الوطنية الساذجة عرف المغرب - كما رأينا - الديانتين السماويتين السابقتين على الإسلام. فالأفكار اليهودية دخلت منذ وقت مبكر مع الفينيقيين ثم مع المهاجرين اليهود أيام الاضطهاد الرومانى، والظاهر أنها انتشرت فى بعض القبائل إلى جانب المعتقدات المحلية، كما أشرنا[٢٥١] . ولقد انتشرت المسيحية هى الأخرى فى وقت مبكر، وقصة انتشارها وثيقة الصلة بالحكم الرومانى فى المغرب وذلك لأن المسيحية عندما خرجت من الشام فعلت ذلك بهدف غزو وهدم الامبراطورية الرومانية[٢٥٢] . وهكذا بدأ الصراع الذى انتهى بانتصار المسيحية على الامبراطورية بعد جهاد وتضحيات فى روما، حيث صلب بطرس وبولص منكسين، وفى مصر بلد الشهداء، وكذلك فى المغرب.

---

(٢٤٨) عن بنى غانية الميورقيين أنظر عبد الواحد المراكشى، ص ١٩٧.
Bell, Le Banou Ghania.
وعن النظام الأموى انظر ج٤ ص ١٢٥ وما بعدها

(249) Larnaude, Algérie, p. 67.

(٢٥٠) البكرى ص ١٧٠ (وهم يلتزمون النقاب لايميز الزجل منهم وليه ولاحميمه إلا إذا تنقب)، الاستبصار ص ٢٢٣ (حيث يقول النص عن أهل تادمكة أنهم) يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء) وأنظر حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص ٤٩ وتابع. ولمزيد عن اللثام انظر ج٤ ص١٧ وما بعدها.

(٢٥١) انظر الصفحات السابقة ١١٣ - ١١٤ . وأنظر جوزيف نسيم، مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى: كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور، ط. جامعة الإسكندرية ١٩٧٥ ص ٧٩ (حيث الإشارة إلى أن القديس مرقس الذى تنسب إليه كنيسة الاسكندرية ومصر كان من أبوين يهوديين أقاما فى مدينة القيروان (عاصمة افريقية) وأنهما رحلا إلى بيت المقدس عندما تعرضا لمتاعب من قبل البربر)، مصطفى كمال عبد العليم، يهود الاسكندرية فى عصر البطالمة والرومان. نفس الكتاب، ص ١٧٤ - ١٧٥ (حيث الإشارة إلى ثورة اليهود فى برقة سنة ١١٥ م وزحفهم على مصر سنه ١١٦م).

(٢٥٢) أنظر نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية، الترجمة العربية (مؤنس ومحمود يوسف) ص ٩٧.
Risler, La civilisation arabe, Paris 1955, p. 23.

الكنيسة الافريقية: تنظيمها وتطورها:

دخلت المسيحية إلى المغرب عن طريق مصر وربما عن طريق روما كذلك، وبدأ تنظيم الكنيسة الافريقية في منتصف القرن الثالث على يدى القديس سيبريان (St. Cyprien). وانتشرت بفضل مبادئها الداعية إلى المحبة والسلام، بين كثير من أهل البلاد الذين كانوا يتلمسون المبادئ التى تحقق لهم ما يصبون إليه من سيادة العدل والانصاف. وقامت الدولة التى استشعرت ما يتهددها من الخطر باتخاذ الاجراءات التى رأتها كفيلة بالمحافظة على وحدتها السياسية، وخاصة على أيام الامبراطور دسيوس (Decius) الذى طلب فى سنة ٢٥٠م من جميع رعاياه أن يعلنوا عن وطنيتهم باعلانهم التمسك بالديانة الوطنية الممثلة فى عبادة الأباطرة إلى جانب آلهة روما، والتنصل من كل العبادات الأخرى وخاصة المسيحية والمانوية. وترك كثير من النصارى ديانتهم حتى قال القديس سيبريان كلمته المشهورة «لقد كان عددهم أكثر من قوة إيمانهم»[٢٥٣]. واضطهدت الدولة النصارى وعطلت كنائسهم وصادرت أملاكهم وانتهى الأمر باستشهاد القديس سيبريان[٢٥٤]. وعلى عهد دقلديانوس (٢٧٠ - ٢٧٥م) اشتدت الدولة ضد المسيحيين الذين تشبثوا بدينهم، وقاموا بما يشبه العصيان المدنى فرفضوا الخدمة العسكرية. وفى أوائل القرن الرابع توقفت العلاقات بين الدولة والكنيسة حتى أن الكنيسة أعلنت حرمان من يلقى السلاح من رحمتها[٢٥٥].

الانقسام الدوناتى:

ورغم أن الكنيسة نجحت فى تنظيم نفسها بفضل هذا التحالف وأنشأت الكثير من الكنائس، فإن المسيحية بقيت على سواحل المغرب مع الرومان، ولم تصل إلى القبائل الوطنية فى المغرب الأقصى[٢٥٦]. وإلى جانب ذلك عرفت المسيحية الانحرافات المذهبية المتأثرة بالأفكار الآتية من المشرق البعيد عن طريق

(253) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 228.

(٢٥٤) المصدر السابق، ص ٢٣١ - ٢٣٢، ولابأس من الإشارة إلى أنه عندما اهتمت الكنيسة الأوروبية برفات القديسين أو آثارهم وهو ما يعرف عند الكتاب باسم تقديس الرفات أو الآثار (clute des reliques) سارت سفارة من لدن شرلمان إلى افريقية على أيام الأغالبة للبحث عن رفات القديس سبيريان. أنظر بروكلمان، تاريخ الشعوب والدول الإسلامية (بالفرنسية) ص ١٠٥.

(255) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 235.

(256) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 236.

مصر مثل مذهب الفيض الإلهي (theosophisme) ومذهب المانوية الثنوية(٢٥٧). ثم إن الكنيسة المغربية عرفت انقساماً خاصاً بها، وهو المذهب الدوناتي - نسبة إلى صاحبه دونات (Donat) الكبير، أسقف الوطنيين، الذى رفض الاعتراف بشرعية انتخاب سسيليان أسقفا لقرطاجنة(٢٥٨). وكان موقف دونات وظهور مذهبه كرد فعل لاستكانة رؤساء الكنيسة، أيام اضطهاد دقلديانوس، للسلطات الامبراطورية. ولهذا السبب اعتبر بعض الكتاب المذهب الدوناتي انقساماً في الكنيسة، ولم يعتبره هرطقة أو زندقة، لأنه مبنى على اصطدام بين الأشخاص وليس بين المبادئ(٢٥٩). وهكذا أعلن دونات طلب الاستشهاد واستجاب له كل الساخطين على الدولة وخاصة من طبقات الكادحين.

وعندما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية أيام قسطنطين، وقف هذا الأخير ضد الدوناتية واعتبرهم خارجين على القانون. وترتب على تحالف الإدارة والكنيسة ضد المذهب الدوناتي أن أصبح المذهب رمز المقاومة الشعبية، وازداد انتشاره بزيادة انتشار البؤس والفقر بين الوطنيين الذين ثاروا ضد المستعمرين والأغنياء، ودعوا إلى المساواة وتحرير العبيد(٢٦٠). وأرادت الدولة أن تقضى على الدوناتية ببريق الذهب عن طريق تعداد الفقراء وتوزيع الأموال عليهم. وعندما فشل هذا الاجراء قررت القضاء عليهم باستخدام القوة وبالاستعانة بالكنيسة. وأتت النتيجة عكسية إذ تحالف الكادحون والفقراء مع الدوناتية، واستمر الصراع إلى وفاة دونات سنة ٣٥٥م(٢٦١)، واتخذ شكل الثورة الوطنية في طرابلس وبلاد الجزائر (نوميديا Numidie) إلى سنة ٣٧٥م(٢٦٢).

القديس أغسطين وانتصار الكاثوليكية:

كانت الدوناتية قد عرفت فترة من الهدوء بفضل مرسوم الامبراطور يوليان

---

(٢٥٧) نفس المصدر، ص ٢٤١.

(٢٥٨) أنظر، Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 243؛ حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ٢٩. Gautier, le Passé de l'Afrique, p. 236.

(259) Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 286.

(٢٦٠) أنظر: Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, pp. 246 - 247
Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 286.

(261) Julien, Hist. de l'Afrique, p. 347.

(٢٦٢) نفس المصدر، ص ٢٤٨.

(اليانس كما يسميه المسعودى) الخاص بحرية العبادة. ولكن عندما أعلنت افريقية انفصالها عن روما بعد انقسام الامبراطورية إلى غربية وشرقية، تمكنت روما من قمع الثورة وعملت على القضاء على الدوناتية فأرغمتهم على العودة إلى الكاثوليكية(٢٦٣). ولقد وجدت الدوناتية فى القديس أغسطين ألد أعدائها، فهو الذى شهر بها وهاجم أساليبها العنيفة، وعن طريقه عرفت أخبارها(٢٦٤). وبفضل أغسطين استخدمت الدولة أساليب العنف والقهر ضد الدوناتية، مستندة إلى نظريته التى أباحت استعمال الارهاب من جانب السلطات العامة فى سبيل عودة الخارجين على الكنيسة إلى حظيرة الكاثوليكية ومنع ضعاف النفوس من الخروج عليها(٢٦٥). واستمر أغسطين فى محاربة المنشقين على الكنيسة والهراطقة مثل اتباع بلاجيوس (Pelagius) الذى قال بعدم جدوى العفو الكنسى(٢٦٦). وبفضل أغسطين انتصرت الكنيسة الافريقية على أعدائها، وأصبح القديس أغسطين - الذى مات أثناء حصار الوندال لمدينة بونة(٢٦٧) - من أشهر رجال الكنيسة. عرف البكرى ذلك فقال عند كلامه عن مدينة بونة: «وهى مدينة أقشتين (القاف تنطق كما تنطق الجيم المصرية) العالم بدين النصرانية»(٢٦٨). ولم يكن ظفر الكاثوليكية يعنى القضاء تماماً على الدوناتية التى ظلت بعض جماعاتها إلى القرن السادس الميلادى، كما أن الأزمة الدينية أدت إلى قيام الرهبنة التى مارسها أولئك الذين لم يستطيعوا تحمل الهزات العنيفة فاعتزلوا المجتمع(٢٦٩).

الأريوسية:

عندما وقعت بلاد المغرب تحت حكم قبائل الوندال البرابرة الذين أتوا من أسبانيا تحت ضغط القوط، واستولى ملكهم جنزريك (Genséric) على قرطاجنة عاصمة افريقية سنة ٤٣٥م، كان ذلك بداية صراع دينى جديد. فإلى جانب

---

(٢٦٣) نفس المصدر، ص ٢٥٢.

(264) Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 260.

(265) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 256.

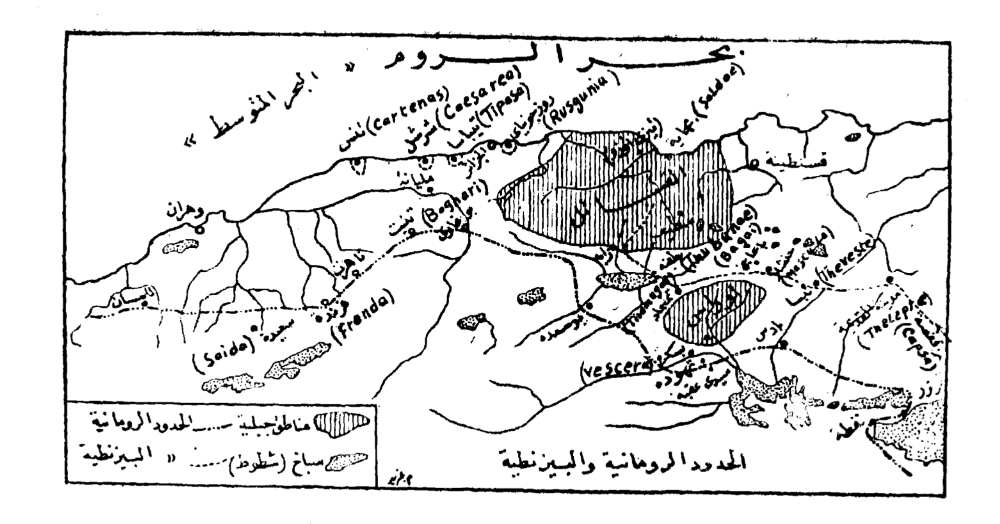
(٢٦٦) نفس المصدر، ص ٢٥٦.

(267) Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 260.

(وبونة قديماً كانت تسمى Hippone وهى حديثاً تسمى عنابة).

(٢٦٨) البكرى، ص ٥٤.

(269) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 259.



بحر الروم « البحر المتوسط »
(Cartenas) تنس
(Caesarea) شرشل
(Tipasa) تيباسا
(Rusgunia)
(Saldae) بجاية
قسنطينة
وهران
مليانة
(Boghari)
تيارت
(Frenda)
(Saida) سعيدة
(Bagai)
(Theveste) تبسا
(Thelepte)
(Capsa)
(Vescera)
الحدود الرومانية والبيزنطية
مناطق جبلية
الحدود الرومانية
سباخ (شطوط)
« البيزنطية

تخريب البلاد فرض الوندال على الناس مذهبهم الأريوسى (الذى يقول بطبيعة المسيح البشرية) واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها وحولوها إلى الأريوسيين[٢٧٠]. وكان من نتائج غزوة الوندال أن انقلبت الأوضاع الاقتصادية، وعمت الاضطرابات السياسية فى المغرب الأوسط بشقيه الشرقى (نوميديا) والغربى (مورطانيا Marétainie) حيث قامت امارات وطنية مستقلة، وكذلك فى ولاية طرابلس حيث هزمت قبائلها، بقيادة الزعيم الوطنى جبون (Gabaon) الوندال فى معركة كان للجمال فيها دور هام[٢٧١]. ووسط هذه الثورات الوطنية ضاع الحكم الوندالى فى المغرب لكى يعود الحكم الرومانى ممثلاً هذه المرة فى سيادة القسطنطينية أو بوزنطيا كما يسميها المسعودى.

القرن الأخير للحكم الرومانى فى المغرب:

بعد دخول قائد جستنيان (يوسطنياس كما يسميه المسعودى) وهو بليزاريوس قرطاجنة سنة ٥٣٣م واستسلام آخر ملوك الوندال جليمر (Gélimer) أخذت الدولة فى تنظيم الإدارة المدنية، وحسم الخلافات الدينية، كما نظمت البلاد عسكرياً إلى أربع قيادات تعادل: طرابلس، وتونس، والجزائر، ومراكش[٢٧٢]. وأعاد جستنيان بناء التحصينات التى خربها الوندال الذين صاروا عبيداً، وتكونت من خطين من القلاع والمدن الحصينة. وبقايا هذه التحصينات تدل على أن الخط الأول كان يبدأ عند مدينة بجاية (على الساحل الجزائرى) وينتهى عند قفصه (فى الجنوب التونسى) ويمر بمدينة سطيف وطبنة ثم يدور حول جبل أوراس ماراً بتمجاد فى طريقه إلى تبسا. وفى منطقة وهران أقيمت سلسلة من الحصول منها شرشل (قيصرية Caesarea) وتنس، ولقد جعل جستنيان مدينة سبتة مركز ملاحظة هام. أما الخط الثانى فى افريقية فكان يبدأ عند قرطاجنة وينتهى عند

---

(٢٧٠) نفس المصدر، ص ٢٧١. والأريوسية نسبة إلى أريوس أسقف القسطنطينية الذى انعقد أول مجمع كنسى فى نيقية سنة ٣٢٥م لمحاكمته واعتباره هرطيقاً أو زنديقاً (أنظر المسعودى، الفصل الخاص بملوك الروم المتنصرة، ج١ ص ٣١٨).

(٢٧١) Julien, Hist. de l'Afr. p. 286 (فى الوقت الذى دار فيه القتال وضع الوطنيون جمالهم فى شبه دائرة وجعلوا فى وسطها النساء والأموال).

(٢٧٢) نفس المصدر، ص ٢٩٤ – ٢٩٥.

مدينة قسطنطينة[٢٧٣]. والحقيقة أن هذه التحصينات تدل على مدى انكماش الحدود الرومانية، ورغم أن بقاياها العظيمة تدل على نشاط الروم وسرعتهم فى العمل، إلا أنها تفصح فى نفس الوقت عن المتاعب التى واجهتهم من قبل أهل البلاد الذين لم يلبثوا بعد مغادرة بليزاريوس، أن قاوموهم فى طرابلس وفى المغرب الأوسط، وكان لجبل أوراس العريق دوره فى تلك المقاومة. وكاد الوطنيون يلقون بالبيزنطيين فى البحر لولا استجابة بعضهم لإغراء الذهب[٢٧٤]. وكان انقسام البربر سبباً فى تمكين القوات الرومية من هزيمتهم فى الجنوب التونسى، والفتك بأعداد عظيمة منهم. ورغم ذلك لم تثبط هممهم حتى تطلب الأمر الاستنجاد ببليزاريوس من جديد. ومع ذلك لم تستقر الأمور وقامت قبائل لواتة فى طرابلس وتمكنت من قتل سولومون حاكم افريقية وخليفة بليزاريوس[٢٧٥]، وعلى ذلك فعندما مات جستنيان كان الحكم الرومانى مزعزعاً تماماً فى البلاد.

أما عن السياسة الدينية فإن الكاثوليك استعادوا كنائسهم وثأروا من الأريوسيين أشد الثأر واضطهدوا الدوناتية وكذلك اليهود[٢٧٦]، ولكن ذلك لم يمنع انتشار مذاهب جديدة مثل النسطورية القائلة بثنائية طبيعة المسيح: الإلهية (اللاهوت القديم) والإنسانية (الناسوت المحدث)، وأن مريم هى أم الرجل وليست أم الإله[٢٧٧]. ولم تنته مشاكل المسيحية عند هذا الحد إذ انقسم اليعاقبة (Monophysites) أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وهو المذهب الرسمى

---

(٢٧٣) Julien, Hist. de l'Afr. p. 296، وعن امتداد التحصينات فى قلب الصحراء الطرابلسية على أيام الرومان أنظر:

M.S. Gsell, La Tripolitaine et le Sahara au 3e S. de notre ére, Paris, 1926, pp. 8- 9.

وانظر هنا شكل ٤ ص ١٢٨ وكذلك عن تحصينات ليبيا وتونس أنظر:

R. Cagnat, La Frontière Militaire de la Tripolitaine à l'époque

(274) Julien, Hist. de l'Afr. p. 299.

(٢٧٥) نفس المصدر السابق، ص ٣٠٣،

Gautier, Le Passé de l'Afr. p. 265.

(٢٧٦) نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية، الترجمة العربية، ص ١٠٧.

(٢٧٧) أنظر Julien, Hist. de l'Afrique, p. 309 والنسطورية نسبة إلى نسطورس بطرك القسطنطينية الذى انعقد لمحاكمته المجمع الكنسى الثالث فى مدينة افسيس سنة ٤٣١ م وكان الذى شن الهجوم عليه أسقف الإسكندرية (أنظر المسعودى، مروج الذهب، ج١ ص ٣٢٤، نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية، الترجمة العربية ص ١٠١).

للقسطنطينية على أنفسهم(٢٧٨). وتدخلت تيودورا زوجة جستنيان فى سبيل المحافظة على وحدة الكنيسة، وقامت باجراءات كان من نتيجتها ثورة أهل افريقية الذين احتجوا على الامبراطور (فى القسطنطينية) والبابا (فى روما). واستخدم جستنيان ضدهم العنف والارهاب مما عمل على اتساع الهوة بين الامبراطورية وافريقية(٢٧٩).

وهكذا كانت عودة افريقية إلى حظيرة الامبراطورية غير أكيدة: فالتحصينات السريعة التى أقامتها كانت فى حاجة إلى من يدافع عنها بعزم وغيرة، والإدارة المدنية كانت فاسدة، كما أن الاضطهاد الدينى والاستغلال المالى وفوضى الجيش زادت الأحوال سوءاً. حدث كل هذا فى الوقت الذى تهددت القسطنطينية نفسها أخطار الفرس والبرابرة من الهون والآفار(٢٨٠). وحاول بعض خلفاء جستنيان القيام باصلاحات تعيد الهدوء إلى المغرب والمثل لذلك اصلاحات الامبراطور موريس (موريقس كما يسميه المسعودى - ٥٨٢ - ٦٠٢) الذى ضم طرابلس إلى مصر، وقصر خط حصون جستنيان وأخضع الموظفين المدنين إلى القواد العسكريين، ولكن جهوده باءت بالفشل، إذ زادت من مساوئ الأغنياء وعدم انتظام رجال الإدارة(٢٨١).

ولم تكن الكنيسة بأحسن حظاً من الامبراطورية فى سياستها الدينية التى انتهت بنشر المفاسد من إشاعة الرشوة (Simonie) وعدم النظام والتحاسد بين رجالها. وكان من نتائج هذا التساهل أن ازدهر من جديد المذهب الدوناتى الذى لفت الأنظار إلى مساوئ الاستعمار البيزنطى(٢٨٢).

---

(٢٧٨) مذهب اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البراذعى الانطاكى الذى كان يعمل البراذع (المسعودى مروج الذهب، ج١ ص ٣٢٥).
وفكرة الطبيعة الواحدة تقررت فى مجمع افسيس ضد نسطورس، ولكنه فى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م تقررت صيغة جديدة للطبيعة وهى أنه رغم الجوهر يجب تمييز الطبيعتين الإلهية والإنسانية فى المسيح. وهذا ما تأخذ به كنيسة مصر التى غلبت الطبيعة الإلهية الواحدة. ويعقوب البراذعى هو الذى أسس هذا المذهب الذى عرف باسمه فى أيام جستنيان (أنظر نورمان بينز، الترجمة العربية، ص ١٠٥).

(279) Julien, Hist, de l'Afr. du N. p. 396.

(٢٨٠) نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية (الترجمة العربية)، ص ٥١.

Bréhier, Vie et Mort de Byzance, p. 35 et suiv.

(281) Julien, Hist. de l'Afr. du Nord, p. 309 - 310.

(٢٨٢) نفس المرجع، ص ٣١٠.

ومع مطلع القرن السابع الميلادى أخذت ولاية افريقية تقوم بدور هام فى سياسة الامبراطورية. فلقد تم تدبير مؤامرة خلع الامبراطور فوكاس (فوقاس كما يسميه المسعودى) فى قرطاجنة. وذلك أن حاكم افريقية هرقل كان من قواد الامبراطور السابق موريقس الذى قتله فوكاس فكان يحقد على هذا الأخير. أرسل حاكم افريقية ابن أخيه نيقيتاس بن جرجريوس إلى مصر على رأس جيش خرج من المغرب نحو الاسكندرية التى فتحت له أبوابها - نكاية فى القسطنطينية عدوتها المذهبية - (سنة ٦٠٨ - ٦٠٩). وفى نفس الوقت كان هرقل قد سير ابنه وسميه هرقل بن هرقل على رأس قوة بحرية إلى سالونيكا حيث تربص للاستيلاء على القسطنطينية، وتم له ذلك فعلاً فى سنة ٦١٠، وبذلك أصبح ابن حاكم قرطاجنة امبراطوراً[٢٨٣]. وتهاوت الكوارث على دولة الروم فاحتل الفرس ارمينيا سنة ٦١٩ وحاصروا الاسكندرية، ولم ير هرقل إلا الاعتماد على افريقية لتقويم الموقف فعهد بحكمها إلى ابن عمه نيقيتاس نائبه فى مصر.

وهكذا ظهر وكأن الامبراطورية البيزنطية ثبتت أقدامها فى افريقية التى أصبح لها ذلك الدور الرئيسى فى سياسة الدولة. وترتب على ذلك الاستقرار السياسى ازدهار الكنيسة الافريقية، رغم أن هذه الأخيرة كانت تقوى علاقاتها بروما التى كانت تسعى بدورها إلى بسط سلطانها على البلاد بفضل نشاط رجالها. وهكذا كان الاتفاق بين الإدارة البيزنطية والكنيسة الافريقية فى مصلحة كل من الطرفين رغم أن الأولى تستمد سلطانها من القسطنطينية والثانية توجه أنظارها نحو روما. وكان الخطر يكمن فى هذا التناقض (الذى يتمثل فى تنازع العاصمتين الكبيرتين على سيادة العالم المسيحى) مما ترتب عليه أن أصيبت الكنيسة الافريقية بأزمة زعزعتها إلى الأعماق. فقد ظهر فيها مذهب سرجيوس بطريق القسطنطينية الذى يقول بالطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية معاً، والذى وقف إلى جانبه هرقل رغبة منه فى اكتساب تأييد اليعاقبة[٢٨٤]. وعارضت الكنيسة الافريقية ووجهت الاحتجاجات ضد هذا المذهب إلى الامبراطور والبابا، وانتهى الأمر بأن أعلنت أسقفية قرطاجنة عدم صلاحية الامبراطور[٢٨٥]. وتعقد الموقف عندما وصل إلى

---

(٢٨٣) بتلر، فتح العرب لمصر، الترجمة العربية، ص ٣٢ - ٣٣، حسين مونس، فتح العرب للمغرب، ص ٣٥.

(284) Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, p. 312.

(٢٨٥) نفس المصدر.

افريقية جماعات من الرهبان والراهبات الذين خرجوا من مصر فراراً من الاضطهاد وبعداً عن مواطن الخطر فى الوقت الذى كان العرب يفتحون فيه مصر. وأخذ هؤلاء ينشرون مذهبهم اليعقوبى بحرية فى كنف الامبراطور الجديد قسطنطين الثالث مما أثار سخط الكاثوليك وتباعدهم أكثر عن الامبراطور[٢٨٦]. وعلى ذلك فعندما اعتلى عرش القسطنطينية قسطنطين الرابع فى سنة ٦٤٥م وكان من اتباع مذهب الطبيعة الواحدة الإنسانية الإلهية معاً، وهو المذهب المونوثيلى (Monothélisme) لم يجد المعارضون وعلى رأسهم الراهب مكسيموس (Maximus) صعوبة كبيرة فى الثورة وإعلان حاكم افريقية جريجوريوس بن نيقيتاس بن جريجوريوس امبراطوراً[٢٨٧]. وجريجوريوس هذا هو الذى عرفه العرب فى افريقية وسموه بجرجير (Grégoire).

كانت هذه حالة المسيحية فى المغرب قبل ظهور الإسلام: مذاهب منشقة، أهمها بالنسبة لأهل البلاد المنصبغين بالصبغة الرومانية هو الزندقة الدونانية التى دعت إلى الخروج على الكنيسة الرسمية المتحالفة مع الدولة، وبالتالى إلى قلب الأوضاع الاجتماعية التى كانت تسندها الكنيسة. وسنعود إلى الإشارة إلى المذهب الدوناتى عند الكلام عن حركات الخوارج فى المغرب. هذا ولاينبغى أن يغيب عن الذهن أن كل ذلك كان يجرى فى المناطق الساحلية حيث انكمش نفوذ الامبراطورية، رغم ما يقال من أنه عندما وصل العرب إلى المغرب كان فى البلاد أكثر من ٢٠٠ (مائتى) أسقفية[٢٨٨]. وهكذا لم يكن من الصعب على الإسلام - بمبادئه التى تدعو إلى المساواة والاشتراكية - أن يقضى علي المسيحية بسهولة فى المغرب، إذ أنها خرجت مع البيزنطيين عندما جلوا عن المناطق الساحلية التى كانوا يحتلونها.

---

(٢٨٦) نفس المصدر.

(٢٨٧) أنظر حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ٤٦ وتابع. وعن المونوثيلية فى مصر، أنظر السيد الباز العرينى، مصر البيزنطية، ص ٤٠٠.

(٢٨٨) أنظر Pierre de Cenival, Le prétendu évêeché de la Kala de Beni Hammad. Hespéris, t. 15, Année 1932, Fasc. I. p. 1.

الباب الثانى

الفتح العربى للمغرب

(٢٣هـ/ ٦٤٤م - ٩٥هـ/ ٧١٣م)

الفصل الأول: ما بين الفتح والاستكشاف

(٢٢ - ٥٠ هـ/ ٦٤٣ - ٦٧٠م)

الفصل الثانى: الاستقرار والفتح الدائم

(٥٠ - ٩٥ هـ/ ٦٧٠ - ٧١٣م)

خاصية الفتح:

يتصف فتح المغرب - دون الفتوحات العربية الأخرى - بالصعوبة الشديدة والمقاومة العنيدة من جانب أهل البلاد وهم البربر. وذلك أن المغاربة مثل العرب - كما قلنا - أهل نجدة وقوة لايرضون بالضيم ولايرضخون للذل، وهذه طبيعة الرجل البدوى الذى يفضل تغيير موطنه على الخضوع لمستبد إذ الرحلة جزء من حياته والهجرة ملجأه من عوادى الزمن. وهكذا لم يخضع قلب جزيرة العرب، قديماً ولا حديثاً، لاستبداد الدول الكبرى التى لم تكن لتستطيع الاستقرار إلا على الأطراف، وكذلك الحال بالنسبة لبلاد المغرب. فحرب فارس لم تتطلب من العرب إلا بضعاً من الوقائع وانتصارين فاصلين ليتم خضوع المملكة الساسانية جميعاً فى أقل من عشرين سنة. والشام لم تتطلب هى الأخرى إلا عدداً قليلاً من المعارك وموقعتين فاصلتين. أما مصر فيمكن القول أنها أخذت دون قتال، فلم يتطلب الأمر أكثر من الوقوف قليلاً أمام «حصن باب اليون» وسنة أو بعض سنة أمام أسوار الإسكندرية. أما فتح المغرب فقد تطلب بضع عشرات من السنين قضاها العرب فى صراع مرير، عرفوا خلالها حلاوة الانتصارات وذاقوا مرارة الهزائم حتى ظهر فى بعض الأحيان وكأن تمام الفتح ضرب من المحال. وفى ذلك يقول ابن خلدون - عن أيوب بن أبى يزيد صاحب الحمار - أن البربر ارتدوا عن الإسلام اثنتى عشرة مرة، ولم يثبت إسلامهم إلا فى أيام موسى بن نصير أو بعدها[1] أى خلال اثنين وسبعين عاماً تقريباً.

ولقد استتبع طول أمد الفتح وصعوبته نتيجة ربما كانت منطقية، وهى صعوبة تأريخ هذه الفترة تأريخاً صحيحاً يضع الأحداث فى مواضعها الحقيقية حسب ترتيبها الزمنى الصحيح. والحقيقة أن تلك الصعوبة التى يلقاها المؤرخ لاترجع إلى كثرة الأحداث خلال هذه الفترة الطويلة بل إلى قلة المعلومات التى وصلتنا عنها ثم تداخل هذه المعلومات وتشابكها بدرجة تجعل التمييز بينها من الصعوبة بمكان. ويضاف إلى ذلك اختلاط الحقائق التاريخية بالخرافات والأساطير الشعبية بشكل يجعل الوصول إلى الحقيقة فى كثير من الأحيان أمراً صعب المنال.

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦ ص ١٠٣ والترجمة، ج١ ص ١٩٨.

الفصل الأول
ما بين الفتح والاستكشاف
(٢٢ هـ/ ٦٤٣ م - ٥٠ هـ/ ٦٧٠م)

١- فتح ليبيا (برقة - فزان - طرابلس):

أ- فتح برقة:

على عكس ما قلناه من أن فتح المغرب اتصف بالصعوبة الشديدة، نلاحظ أن فتح الأجزاء الشرقية من هذا المغرب اتصف بالسهولة الشديدة مثلها مثل مصر. والحقيقة أن برقة وطرابلس كانت تابعة لمصر من الناحية الإدارية منذ اصلاحات الامبراطور موريقس (Maurice)[٢]. ورغم أن النصوص العربية لاتبين لنا أن حاكم مصر (المقوقس) كان له سلطان ما على برقة وطرابلس، ورغم ما يقول المختصون فى تاريخ افريقية البيزنطية من أن حكام قرطاجنة كانوا يبسطون سلطانهم على طرابلس وبرقة قبل دخول العرب[٣]. فالظاهر أن برقة وطرابلس كانتا فى حالة انقطاع عن مصر وعن افريقية اللتين انشغلتا بأمورهما الداخلية - وهذا ما ستبينه الأحداث. ومع ذلك فالذى كان معروفاً عند العرب هو أن برقة - على الأقل - كانت داخلة فى حدود مصر: فمصر منذ عرفت بهذا الاسم كانت تمتد من «خلف العريش إلى أسوان طولاً، ومن برقة إلى أيلة عرضاً»[٤]. ونعتقد أن هذا الأمر هو الذى وجه أنظار العرب نحو برقة وطرابلس فى وقت مبكر عقب تمام فتح مصر بفتح الاسكندرية فى أوائل سنة ٢١ هـ/ ٦٤١م - ٦٤٢م. وهذا يعنى أيضاً أن فتح برقة وطرابلس كان ضرورة (استراتيجية) عسكرية، لحماية حدود مصر الغربية ضد ما قد يتهددها من خطر الروم فى افريقية، كما حدث عند الثورة ضد فوكاس ثم الهجوم على الفرس.

وعندما سار العرب إلى برقة لم يستهدفوا فتح الأقاليم الشمالية العامرة فقط

(٢) أنظر فيما سبق، ص ١٣١- ١٣٢.

(٣) أنظر مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ٥٠، محمد عبد الهادى شعيرة، الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية)، ط. الإسكندرية، ١٩٤٧، ص ٦٣.

(٤) أنظر ابن عبد الحكم، ص ٩، ابن عذارى، جـ١ ص ١٧ (يقول عن المقوقس أنه صاحب الإسكندرية وبرقة، ويجعل طرابلس وصبرة ولاية لها صاحبها وهو عامل ملك القسطنطينية).

حيث المدن الخمسة القديمة التى أعطت اسمها للمنطقة وهى انطابلس (تحريف لبنطابلس Pentapolis)، بل فتحوا الأقاليم الجنوبية الصحراوية كذلك. وهكذا نفهم من النصوص أن العرب عندما قرروا التقدم نحو الغرب ساروا حسب خطة استهدفت تسيير قوتين أحداهما نحو الشمال إلى مدينة برقة نفسها. وثانيتهما نحو الجنوب إلى فزان. ومعظم الروايات التى ترجع إلى الواقدى والتى يوردها البلاذرى[٥]، وكذلك روايات ابن عبد الحكم[٦] التى يرجع كثيراً منها إلى ابن لهيعة (توفى ١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م) والليث بن سعد توفى (١٧٥ هـ/ ٧٩١م) يفهم منها أن حملة الشمال التى قادها عمرو بن العاص سبقت الحملة الجنوبية التى قادها عقبة بن نافع الفهرى (قريب عمرو). فبعد فتح الاسكندرية سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢م سارع عمرو على رأس جيشه نحو المغرب، ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن قواته كانت من الفرسان[٧]. ومع أن النصوص لا تبين الطريق التاريخى الذى سلكه عمرو فالمعروف أن الطريق من الإسكندرية إلى برقة هو الطريق التاريخى الساحلى (حالياً عبر مطروح السلوم). ولم يلق عمرو مقاومة ما فى الطريق كما لايوجد ذكر للمدن الساحلية المعروفة فى برقة مثل: طبرقة (طبرق) أو درنة أو سوسة أو طلميثة، مما يفهم منه أنها لم تكن مدناً مهمة فى ذلك الوقت. وعندما وصل إلى مدينة برقة ضرب عليها الحصار[٨]. ونفهم من البلاذرى الذى يقول أن عمراً «قاتلهم على الجزية»[٩]، أنه عرض على أهل برقة الثلاث خصال التى عرضها على المقوقس وأهل مصر (وهى الإسلام أو الجزية أو القتال).

ورغم أن أهل برقة كانوا من قبيلة لواتة العريقة فى المنطقة والتى كان لها الذكر فى مقاومة الرومان والوندال والبيزنطيين، إلا أنهم لم يسببوا لعمرو أية متاعب، ولاشك فى أنهم رحبوا بمقدم العرب كما رحب به المصريون، إذ أنهم ركنوا إلى الصلح. وتم الاتفاق على أن يدفع اللواتيون من أهل برقة جزية سنوية

---

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٢٤.
(٦) فتوح مصر والمغرب، ص ٢٧٠.
(٧) ابن عبد الحكم، ص ١٧٠، البلاذرى، ص ٢٢٤.
(٨) البلاذرى، ص ٢٢٤.
(٩) البلاذرى، ص ٢٢٤.

قدرها ثلاثة عشر ألف دينار. ويرجع الفضل لابن عذارى الذى بين كيفية فرض هذه الضريبة، إذ يقول أنه: «صالح أهلها على الجزية: دينار على كل حالم»[١٠]. وهذا يعنى أن عدد اللواتيين من الراشدين الذى يجب عليهم دفع الدينار بلغوا ثلاثة عشر ألف رجل. وإذا ما قدرنا أن نسبة هؤلاء إلى عدد سكان المدينة وأعمالها يبلغ الربع تقريباً (نظراً لاستثناء النساء كما جرت العادة)، لكان عدد لواتة فى المنطقة ما بين أربعين وخمسين ألفاً. ورغم أن جزية برقة كانت نصف جزية أهل مصر - وهذا أمر يبيّن أن العرب قدروا ضعف برقة الاقتصادى وقلة مواردها بالنسبة لوادى النيل، فأنصفوا أهلها من هذا الوجه - إلا أن كتاب الصلح اشترط أمراً غريباً. ففى رواية الليث بن سعد: «كتب عمرو بن العاص على لواتة من البربر فى شرطه عليهم أن «عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية»[١١]. وبطبيعة الحال لايفهم من ذلك أن لواتة كانت ملزمة ببيع أبنائها وبناتها فى الجزية، فإن ذلك الأمر كان اختيارياً، وهذا ما توضحه الروايات الأخرى التى تقول: «على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم»[١٢]. والنص على ذلك كتابة يبين أحد أمرين: أولهما أن عمراً عرف فقر اللواتيين وتخوف من عدم مقدرتهم على أداء الجزية فرأى أن يؤدوها عن هذا الطريق، وثانيهما أن اللواتيين هم الذين اقترحوا ذلك ولم يكن أمام عمرو إلا الترحيب بهذا العرض.

والحقيقة أن أخذ صغار لواته من البنين والبنات، لتربيتهم فى كنف العرب، كان يحقق ثلاثة أهداف رئيسية: أولها دينى بتنشئتهم على العقيدة الإسلامية، ونشر الدين عمل من أعمال البر والتقوى، وثانيها اجتماعى بتعريبهم عن طريق اللغة العربية وتربيتهم على العادات والتقاليد العربية والتزاوج معهم. ونشر العروبة كان رسالة العرب. وثالثها سياسى، وهو نتيجة طبيعية لسابقيه، بتوثيق أواصر الصلة بين العرب والبربر، وفى ذلك توحيد وتقوية لدولة العرب.

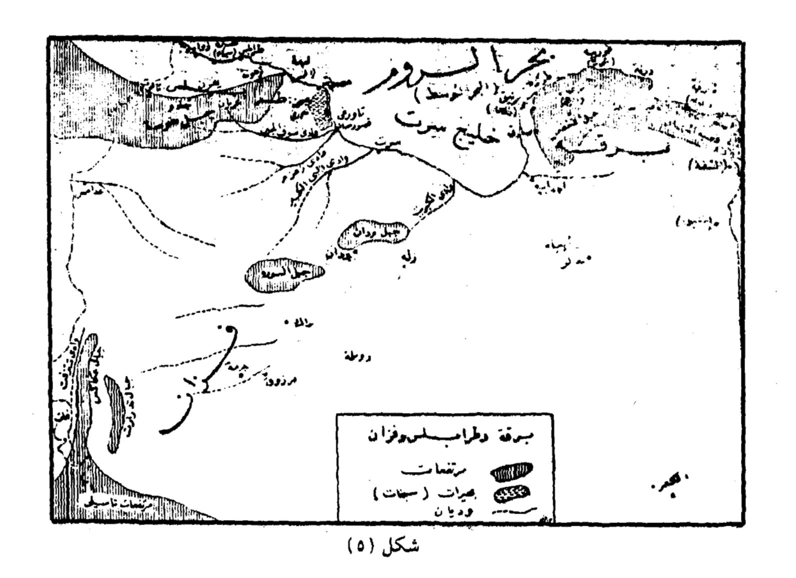
ولاسبيل إلى القول بأنه ربما كان المقصود بالأبناء نوعاً من العبيد أو

---

(١٠) ابن عذارى، طبعة كولان وبروفنسال، ص ٨.

(١١) ابن عبد الحكم، ص ١٧٠، البلاذرى، ص ٢٢٥، وقارن الطبرى (ذخائر العرب) أحداث سنة ٢١، ج٤ ص ١٤٤، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمرى، ط. النجف، ج١ ص ١٣٨.

(١٢) ابن عبد الحكم، ص ١٧٠، البلاذرى، ص ٢٢٤ وفيه: «يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه».


بحر الروم
(البحر المتوسط)
خليج سرت
سرت
برقة
فزان
جبل ودان
جبل السوداء
ودان
زلة
جرمة
مرزوق
برقة وطرابلس وفزان
مرتفعات
بحيرات (سبخات)
وديان

شكل (٥)

المماليك[١٣]، فلقد تكلم فى ذلك قدامى الرواة، وقال الليث بن سعد: «فلو كانوا عبيداً ما حل ذلك منهم»[١٤]، ولو أنه يفـهم من هذا النص أن الرأى الذى يعارضه الليث اعتبر لواته من العبيد. والنص الأول يتضح منه تماماً أن المقصود هم أبناء وبنات اللواتيين، والبنات بصفة خاصة فيما نرى. يؤيد ذلك ما كتبه فيما بعد الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز - الذى راعه الأمر - «فى اللواتيات أن من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليردها إلى أهلها»[١٥]. وهذا يعنى أن دفع البنات فى جزية لواتة ظل معمولاً به إلى أواخر القرن الأول الهجرى.

ب- فتح صحراء برقة وفزان:

بعد فتح برقة تأتى حملة عقبة بن نافع فى الصحراوات الجنوبية. وتقول رواية ابن عبد الحكم أن عمراً وجهه «حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين»[١٦]. وتزيد رواية البلاذرى أن عقبة قام بهذا الفتح بعد أن عهد إليه عمرو بولاية المغرب[١٧]. ولانعرف أن كان ذلك يعنى أن تلك الفتوحات تمت بعد أن ترك عمرو برقة (سنة ٢٢ هـ) فى اتجاه طرابلس، أو بعد عودته من هذه الغزوة إلى مصر فى سنة ٢٣ هـ قبيل مصرع الخليفة عمر[١٨]. ورغم اتفاق ابن عبد الحكم والبلاذرى على ترتيب الأحداث بهذا الشكل نجد نصاً فى ابن عذارى يغير هذا الوضع، ويجعل فتح عقبة ابن نافع للصحراء الجنوبية سابقاً لفتح عمرو لمدينة برقة إذ يقول: «فأول من دخل افريقية غازياً فى زمن عمر بن الخطاب

---

(١٣) يميل الأستاذ الدكتور شعيرة إلى الأخذ بهذا الرأى ولقد سجله فى كتاب «تاريخ ليبيا والعالم الإسلامى» الذى أشرف وشارك فى كتابته، طبعة القاهرة ١٩٦٢، ص ٤٤. والظاهر أن شعيرة استند فى رأيه هذا إلى ما ستوضحه النصوص فيما بعد سنة ٤٠ هـ عندما تقول أن جزية أهل فزان كانت من العبيد (أنظر فيما بعد باب ولاية عقبة بن نافع وغزواته فى صحراوات طرابلس وافريقية).

(١٤) البلاذرى، ص ٢٢٥.

(١٥) البلاذرى، ص ٢٢٥.

(١٦) ابن عبد الحكم، ص ١٧١ وانظر شكل ٥ ص ١٤٠.

(١٧) البلاذرى، ص ٢٢٤.

(١٨) يرى مؤنس (فتح العرب للمغرب، ص ٥٨) أن هذا النص خاص بولاية عقبة لافريقية على أيام معاوية. ومع أن ذلك قد يكون صحيحاً، كما حدث فى الخلط بين أحداث فتح الإسكندرية الأول وفتحها الثانى سنة ٢٥ (أنظر ابن عبد الحكم، ص ٨٠، ٨٤)، فإن مؤنس يستند فى استنتاجه إلى أن النص يتكلم عن تنظيم الضريبة فى برقة ثم أن النص يقول أن عمرا ولى عقبة المغرب، والمعروف أن الضريبة كان ينبغى أن تنظم منذ البداية، أما عن ولاية المغرب فيمكن أن يكون المقصود بها الرباط فى المغرب.

– رضه – عمرو بن العاص، وكان استفتح مصر فى سنة ٢٠ من الهجرة، ووجه منها عقبة بن نافع الفهرى إلى لوبية وافريقية فافتتحها. ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة ...»[١٩]. ولايفهم من هذا النص أن حملة عقبة سبقت حملة عمرو فى برقة فقط وأن عقبة خرج غازياً المغرب من مصر. ونحن نعتقد فى صحة هذا الرأى، ونرى أن سير عقبة لم يكن عبر الطريق الساحلى مع عمرو بل عن طريق الفيوم أو الصعيد أى طريق الواحات الذى تجتازه القوافل، وهو الطريق الذى ستتخذه الجيوش الفاطمية أكثر من مرة فى مسيرها نحو مصر. وتتضح هذه الحقيقة وسط سيل الأساطير الموجودة فى كتاب فتوح البهنسة والفيوم المنسوب للواقدى[٢٠]. ويمكن أن نستند فى تقرير هذا الأمر على ترتيب ابن عبد الحكم لأحداث الفتح إذ يتكلم عن فتح برقة عقب كلامه عن فتح الفيوم مباشرة[٢١]. هذا كما أن وجود والد عقبة، وهو نافع بن عبد القيس الفهرى، فى فرسان العرب الذى ساروا ليرابطوا على حدود النوبة[٢٢] ما يمكن أن يكون قرينة على دخول عقبة صحراء برقة من ناحية الفيوم أو الصعيد – كما نقول – إذ المعقول أن يكون عقبة قد صحب والده فى مسيره هذا نحو النوبة.

والحقيقة أن عقبة بن نافع كان يخطو خطواته الأولى نحو الشباب، إذ يحدد مولده بسنة قبيل وفاة الرسول[٢٣]، بمعنى أنه كان يبلغ من العمر ما بين ثلاث عشرة سنة وأربع عشرة سنة فى هذا الوقت. مما يشكك فى أن تكون له قيادة القوات فى تلك الفتوح الخطيرة، وهو فى تلك السن المبكرة. وإذا كان الأمر كذلك فالمعقول أن يكون هذا الفتح لنافع بن عبد القيس الفهرى والد عقبة، وأن عقبة الشاب الصغير كان فى صحبته. ولما ذاعت شهرة عقبة بصفته فاتح المغرب كما سنرى، نسب هذا الفتح إليه كما اختلطت بعض أحداثه بفتوحة التالية.

---

(١٩) ابن عذارى، ص ٨. ونعتقد أن كلمتى «لوبية وافريقية» فى النص لاتستقيمان وإلا فينبغى تغييرهما إلى لوبية ومراقية (أنظر فيما سبق ص ٧٢ – ٧٣)، وابن عذارى سيتكلم فيما بعد عن فتح افريقية كما هو معروف فى كل المصادر. ولاشك أن نص ابن عذارى الذى نشره دوزى والذى نقرأ فيه بدلاً منها «زويلة وبرقة» (أنظر مؤنس، ص ٥٩) أصح، وهذا ما يتفق مع رواية ابن عبد الحكم (ص ١٧) ورواية البلاذرى (ص ٢٢٤).

(٢٠) فتوح البهنسة وفيوم من اقليم مصر، أنظر للمؤلف، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والأسطورة، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية، سنة ١٩٦٣، ص ١٧.

(٢١) ابن عبد الحكم، ص ١٧٠.

(٢٢) ابن عبد الحكم، ص ١٦٩ – ١٧٠.

(٢٣) ابن عذارى، ص ١٩.

والحقيقة أن شخصية نافع اختلطت بشخصية ولده عقبة فى كثير من روايات ابن عبد الحكم الذى لم يستطع التمييز بينهما فى كثير من الأحيان. فهو عند كلامه عن الدور الذى اختطها نافع بالفسطاط، يتبع اسم نافع بن عبد القيس الفهرى بقوله: «ويقال بل هو عقبة ابن نافع»[٢٤].

والذى يفهم من النصوص أن فتح صحراوات برقة هذه كان سهلاً، إذ ليس هناك ذكر لمقاومة ما لقيها عقبة فى طريقة حتى بلغ زويلة. ويشيد الرواة بهدوء تلك الأقاليم فيقال: «أن ما بين زويلة وبرقة مسلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم الجزية ...»[٢٥]. واشتهرت برقة بحسن الطاعة حتى أن الأمر لم يكن يتطلب ذهاب الجباة إليها لتحصيل ما عليها من الأموال التى كانت تبعث بها إلى مصر وقت استحقاقها[٢٦]. وبلغ الاطمئنان والأمن فى برقة إلى درجة جعلت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: «لولا مالى بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها»[٢٧]، هذا ولو أننا نعتقد أن هذه المقالة ترجع إلى وقت ما بعد الفتنة - بعد عودة عمرو إلى مصر أيام معاوية.

جـ- فتح طرابلس (أطرابلس):

فى مثل هذه الظروف التى تدعو إلى الطمأنينة بعد فتح برقة وصحراواتها دون تعب، كان عمرو بن العاص يستطيع مواصلة المسير نحو الغرب قاصداً طرابلس. ولا تذكر النصوص شيئاً عن المدن الساحلية والقريبة من الساحل على الطريق من برقة إلى طرابلس، وهى اجدابية وسرت ولبدة. ولاشك فى أن هذه المدن كانت خاملة مغمورة فى ذلك الوقت، فلم يكن بها ما يطمع العرب فيها أو ما يجعلهم

---

(٢٤) ابن عبد الحكم، ص ٩٣، ٩٩، ١١١. أما عن الروايات التى تنسب فتوح المغرب إلى الصحابى المعروف عقبة بن عامر الجهنى الذى شارك فى فتح مصر (ابن عبد الحكم، ص ٩٤، ١٠٠، ١٧٨) ووليها أيام معاوية (سنة ٤٤ - ٤٧ هـ) ودفن بها (ابن عبد الحكم، ص ٢٥٣) فلا نستطيع الأخذ بها لأنه لم يعرف لعقبة الجهنى فتوح فى المغرب. أما الخلط بين عقبة الفهرى وعقبة الجهنى فقد أتى مما عرف عن الفهرى من الصلاح والتقوى إذ أراد مؤرخو حياة العباد الصالحين أن يجعلوه صحابياً أو ظنوا أنه يجب أن يكون كذلك (أنظر أبو العرب طبقات علماء افريقية، طبعة الجزائر، ص ٩، وأنظر للمؤلف، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والأسطورة مجلة كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٦٣، ص ٢٠ - ٢١).

(٢٥) البلاذرى، ص ٢٢٤.

(٢٦) أنظر ابن عبد الحكم، ص ١٧١، لم يكن يدخل برقة يومئذ جابى خراج إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها. وقارن البلاذرى، ص ٢٢٤.

(٢٧) البلاذرى، ص ٢٢٤.

يخشون خطرها[٢٨]. وكان لطرابلس أسوارها التي تحيط بها إلا من جهة البحر، فقد كانت الأسوار تمتد إلى البحر في شرقي المدينة وغربيها تاركة الواجهة البحرية مفتوحة أمام الميناء والمراكب. وأقبل عمرو بقواته من جهة الشرق ورابط في موضع مرتفع يشرف منه على المدينة. ولما لم يكن العرب حتى ذلك الوقت قد خبروا حرب الحصون، فإنهم فعلوا كما فعلوا ببابليون والإسكندرية، فضربوا الحصار على المدينة طوال شهر دون طائل. ومرجعنا الأول هنا هو ابن عبد الحكم الذي يسجل روايات الليث بن سعد وعثمان بن صالح (توفي عام ٢١٩ هـ/ ٨٣٤م) التي تناقلها الكتاب فيما بعد حرفياً أو بشيء من التفسير. ويقول ابن عبد الحكم: «فنزل (عمرو) على القبة التي على الشرف من شرقيها فحاصرها شهراً لايقدر منهم على شيء»[٢٩]. أما بقية الرواية فموضوعها قصة سقوط طرابلس بمحض الصدفة، وبطل القصة أحد العرب المدلجيين ولا نعرف اسمه. والذي يفهم من النص أن العرب بعد أن طال بهم الوقوف أمام المدينة أخذت جماعات منهم ترتاد الاقليم بحثاً عن المغانم أو بقصد الاستكشاف أو طلباً للصيد والتنزه. فالمدلجي ترك المعسكر العربي في شرق المدينة وبصحبته ستة من أصحابه بغرض الصيد، واتخذ الطريق جنوبي المدينة في اتجاه الغرب. وأثناء رحلة العودة أرهقت حرارة الجو الجماعة فرأت أن تخفف عن نفسها باتخاذ طريق البحر. وعندما اقتربوا من جناح سور طرابلس الغربي، وهم ينظرون إلى مراكب الروم وهي رافعة أشرعتها أمام بيوتهم المطلة على الميناء، لاحظ المدلجي انحسار البحر عن السور، تاركاً طريقاً يمكن الدخول منه. وعبرت الجماعة الصغيرة هذا المسلك في اتجاه

(٢٨) ولا بأس من الإشارة هنا إلى أن رواية تاريخ خليفة بن خياط (ج١ ص ١٢٥) تنفرد بالنص على أن عمرو بن العاص افتتح لبدة من أرض طرابلس، وليس أطرابلس نفسها، وذلك في سنة ٢٢ هـ، وأنه رجع في سنة ٢٤ هـ.

(٢٩) ابن عبد الحكم، ص ١٧١. ولانعرف ماذا يقصد ابن عبد الحكم بالقبة، ويعتقد الزاوي (تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص ٣٨) أن ابن عبد الحكم يقصد قبة الشيخ عبد الله الشعاب الحالية. وهو يحاول أن يستدل على ذلك بأن الشعاب توفي سنة ٢٤٣ هـ قبل ابن عبد الحكم بحوالي أربعة عشر عاماً فهو معاصره. وهذا الاستنتاج يمكن أن يكون معقولاً لو تحققنا من أن قبة الشعاب بنيت فعلاً عقب وفاة الشيخ، وهذا ما لانعرفه. وعن مسجد الشعاب، أنظر البكري، ص ٧، وأنظر محمد بن عثمان الحشائشي (التونسي، توفي ١٣٤٠ هـ). جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، نسخة بالآلة الكاتبة عن مكتبة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بتونس، مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ٢٥٩١ ب، ص ١٥ - ١٦، حيث يقول أن الشعاب هو الذي بنى المسجد الذي سمي باسمه.

كنيسة المدينة، وهناك صاحوا على الروم مكبرين. وكان للمفاجأة أثرها فى قلوب الروم الذى تركوا المدينة هاربين نحو سفنهم. وتنبه عمرو بسرعة إلى وجود إخوانه فى الداخل فأسرع على رأس رجاله حتى دخل عليهم، ولم تفلت الروم فى المراكب إلا بما خف حمله من المتاع، بينما استولى العرب على كل ما كان فى المدينة[٣٠].

ونظراً للتشابه بين هذه الرواية وقصة فتح بابليون على يدى الزبير ابن العوام، ظن مؤنس أن «الأمر اختلط على بعض الرواة بين الفتحين فوضعوا فى ثانيهما ما وقع فى الأول»[٣١]. ومع أن هذا الفرض محتمل إلا أننا نجد فيما أضافه التجانى لرواية ابن عبد الحكم ما يمكن أن يفسر الحقيقة. فالتجانى يقول أن المدلجى وأصحابه عندما رأوا «البحر قد حسر من جهة المدينة عن مسلك يمكن النفوذ إليه منه، فندبوا منهم جماعة واقتحموا المدينة»[٣٢] بمعنى أن الجماعة الصغيرة كانت على اتصال بالجيش وأنها طلبت معونة من اخوانها ولم تدخل طرابلس وحدها.

وهكذا يمكن أن يفسر خروج المدلجى وأصحابه على أنهم كانوا طليعة استكشافية ولم يكونوا متصيدين أو متنزهين، وأنهم عندما وجدوا الثغرة أخبروا عمراً ففاجأ طرابلس على غرة من أهلها. أما عن تحرير الرواية فى شكل مغامرة مثيرة فنظن أنه يرجع إلى المدلجيين الذين نسبوا بطولتها إلى واحد منهم، مثلهم فى ذلك مثل اخوانهم المذحجيين الذين كان لهم شأن وقصص مع عمرو فى فتح الإسكندرية[٣٣].

والإسكندرية نفسها كان لها قصة عندما أخذت عنوة بعد أن ثارت سنة ٢٥ هـ إذ أشترى العرب أحد حراس الأبواب الذى مكنهم من دخول المدينة على غفلة من الروم[٣٤]. ولاينكر على العرب بطبيعة الحال أن يتلمسوا أسهل الطرق لفتح الحصون المنيعة لعدم خبرتهم ذلك الوقت بحرب الحصار. ولكى يتجنبوا

---

(٣٠) ابن عبد الحكم، ص ١٧١.
(٣١) مؤنس، ص ٦٢.
(٣٢) التجانى، ص ٢٣٩.
(٣٣) انظر ابن عبد الحكم، ص ١٧٥.
(٣٤) انظر ابن عبد الحكم، ص ٨٠.

الخسائر الكبيرة في الأنفس والأرواح، والحرب خدعة ومكر ومكيدة قبل أن تكون رمياً وطعناً وفروسية.

وهكذا فتحت طرابلس دون صعوبة رغم ما تقوله بعض النصوص من أن أهلها استنجدوا بقبيلة نفوسة، سكان الجبل المعروف بهذا الاسم في جنوب طرابلس[٣٥]، أو ما يقوله البلاذري في روايته المقتضبة من أن عمراً «قوتل ثم افتتحها عنوة»[٣٦]. والبلاذري يضيف تفصيلاً عن مغانم عمرو فيقول: «وأصاب بها أحمال (بزيون) كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين»[٣٧]. ولابأس من أن يكون المقصود أحمال زيتون كما قرأها مؤنس دون أن يشير إلى حقيقتها في النص[٣٨]. فافريقية وطرابلس عرفت بغناها في الزيتون والزيت في القديم وحتى اليوم. وإذا كان الأمر كذلك فربماكانت هذه الأحمال معدة في الميناء لتحملها مراكب الروم، التي اضطرت إلى الفرار بسرعة، فقد كان الزيتون هو الغلة النقدية في البلاد[٣٩] وإلى ذلك يضيف التجاني أن عمرا هدم سور المدينة، وهذا ما لم يشر إليه الكتاب الأقدمون. ونعتقد أن التجاني – أو من نقل عنه – استنتج ذلك قياساً على ما حدث فيما بعد من هدم بعض أسوار الإسكندرية بعد أن نقضت سنة ٢٥ هـ، أو هدم تحصينات قرطاجنة بعد نقضها أيام حسان بن النعمان سنة ٧٩ هـ/ ٦٩٨م، وهنا يكون القياس غير صحيح أو مشتبها فيه على الأقل[٤٠].

د- فتح صبراتة (صبرة):

وأتبع عمرو استيلاءه على طرابلس بالاستيلاء على آخر مدن الأقاليم

(٣٥) ابن عذاري، ص ٨، التجاني، ٢٣٩.

(٣٦) البلاذري، ص ٣٢٥. هذا ولو أن البلاذري يعود فيسرد رواية منسوبة إلى الليث ابن سعد يقول فيها أن طرابلس فتحت بعهد (انظر ص ٢٢٦).

(٣٧) البلاذري، ص ٢٢٥.

(٣٨) فتح العرب للمغرب، ص ٦١ (هذا ولو أنه يمكن أن يكون المقصود «أحمال بز» آتية من قابس القريبة التي اشتهرت بالتوت والحرير دون غيرها من مدن افريقية، انظر الاستبصار، ص ١١٣).

(٣٩) انظر فيما سبق، ص ١٠١.

(٤٠) أنظر التجاني، ص ٢٣٩. ولقد تبع الزاوي مقالة التجاني فقال – دون أن يذكر سنده – أن عمراً هدم أسوار كل المدن التي فتحها في برقة وطرابلس حتى لايعتصم أهل هذه المدن خلف أسوارها من جديد (أنظر الفتح العربي في ليبيا، ص ٢٢، ٤٠).

الساحلية الهامة فى اتجاه الحدود التونسية، وهى مدينة صبراتة القديمة التى يكتبها القدماء فى شكل صبرة أو سبرة أو سبرت[٤١]. وقصة فتح صبراتة لاتختلف كثيراً عن فتح طرابلس من حيث الخطة والسهولة. ورواية ابن عبد الحكم هى التى يتداولها الكتاب بالنص أو بشئ من التعديل الذى لايمس إلا الأسلوب: وتقول هذه الرواية أن أهل صبراتة لما بلغهم نبأ وصول عمرو إلى طرابلس، وأنه لم يستطع اقتحام أسوارها واكتفى بضرب الحصار عليها اطمأنوا. وهذا يفهم منه أن صبراتة كانت حصينة، وأن حصانتها ربما فاقت طرابلس، وإلا لما أمن أهلها. وتنص الرواية على أنه بمجرد استيلاء عمرو على طرابلس سيّر قوة كبيرة من فرسانه، وأمرهم بالإسراع نحو صبراتة ومفاجأتها على غرة. ونجحت الخيالة العربية فى اقتحام المدينة صباحاً، وقد اطمأن أهلها إلى سلامتهم، ففتحوا أبواب السور لتسرح ماشيتهم فى المراعى القريبة. هكذا دخلت قوات عمرو إلى صبراتة بسهولة ولم يتمكن أحد من أهل المدينة حتى من الفرار[٤٢]. وهذا يعنى أن أهل صبراتة كانوا يعتقدون أن عمراً لن يحاول غزو مدينتهم طالما امتنعت عليه أسوار طرابلس كما يعنى أيضاً أن عمراً كان على علم باطمئنان أهل صبراته واستهتارهم بأمره، وأنهم لم يتخذوا الحيطة لتفادى أى هجوم يمكن أن يتوقع من جانبه، فبادر بأخذهم على غفلة منهم قبل أن يصلهم نبأ سقوط طرابلس، وهذا يؤكد أن هذه الأخيرة فتحت فجأة كما قلنا. وتقول الرواية أن العرب استولوا على كل ما كان فى صبراتة، ثم أنهم عادوا إلى عمرو أى إلى حيث كان بطرابلس.

ويختم ابن عبد الحكم قصة فتح طرابلس وصبراتة برواية منسوبة إلى أبى تميم الجيشانى، عن مسألة قضاء صوم أيام من رمضان، هل تقضى مرة واحدة أو

---

(٤١) ابن عبد الحكم، ص ١٧٢ وهامش ١. ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أنه بنى بالقرب من المدينة القديمة مدينة محدثة سميت نبارة وأن السوق نقل من صبرة إلى نبارة سنة ١٣١ هـ.

(٤٢) يلاحظ أن التجانى (ص ٢١٢) يضيف إلى هذه الرواية أن عبد الله بن الزبير كان على رأس هذه القوة مع أن المعروف أن ابن الزبير لم يدخل افريقية إلا مع ابن أبى سرح سنة ٢٧ هـ. ونظن أن الزبيريين هم الذين عملوا على تمجيد زعيمهم فنسبوا إليه دخول المغرب فى هذا الوقت المبكر، (انظر للمؤلف، فتح المغرب بين الحقيقة والأسطورة، مجلة كلية الآداب ١٩٦٣، ص ٢٩). وكذلك يضيف التجانى أن عدداً قليلاً من أهل صبراتة نجوا فى المراكب إلى صقلية، وأن عمرا أمر غزاة المدينة بعد أن عادوا إليه بهدمها وإحراقها، وهذا لم يقله أحد غيره ولانعرف مصدره.

متفرقة، ويفهم منها أن هذه الغزوة وقعت فى شهر رمضان(٤٣). وهذا يرجح أن يكون الفتح قد تم فعلاً فى أواخر سنة ٢٢ هـ - حسب الرواية التى يبدأ بها ابن عبد الحكم(٤٤).

هـ- تمام فتح الأقاليم الصحراوية فى فزّان:

يفهم من سياق الأحداث، كما هى فى المصادر الرئيسية، أنه بفتح مدينتى طرابلس وصبراتة تمت حملة عمرو فى ولاية طرابلس، ولكن بعض المعلومات المتناثرة فى ثنايا فتوح المغرب التالية تدعو إلى الظن بأن عمرا سير حملة أخرى نحو الصحراء الجنوبية لطرابلس. فابن عبد الحكم بعد أن يختم فتح طرابلس وصبرة بالشكل الذى ذكرناه يعود عند كلامه عن فتح افريقية فيقول أن عمرا سير - أثناء حصار طرابلس - قوة على رأسها بسر ابن أبى أرطأة نحو ودّان فافتتحها(٤٥). وودّان هى مدينة فزان أى قصبتها وتقع جنوب طرابلس فيما وراء سرت والطرف الشرقى لجبل نفوسة(٤٦). ولقد حاول مؤنس أن يفند ما يحيط بحملة بسر بن أبى أرطأة من الشك نظراً لحداثة سنه إذ كان فى أوائل مرحلة الشباب - مثل عقبة بن نافع - كما يروى البلاذرى عن الواقدى، فشك فى رواية الواقدى(٤٧). وهذا ممكن، فالبلاذرى يورد روايات أخرى جعلت من ابن أبى أرطأة صحابيا(٤٨)، كما جعل البعض عقبة بن نافع صحابياً فوضعوا مكانه عقبة بن عامر. والحقيقة أنه يمكن الشك فى أن تكون أحداث فزّان قد اختلطت فى مراحل الفتح المختلفة، ولكن هذا لايمنع من أن تكون ودّان قد فتحت فى هذا الوقت حتى يصبح ما بين برقة وزويلة للمسلمين فعلاً كما تجمع النصوص(٤٩).

(٤٣) فتوح مصر والمغرب، ص ١٧٢.

(٤٤) فتوح مصر والمغرب، ص ١٧١.

(٤٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٩٤. وانظر البكرى (ص ١٢) الذى يجعل حملة بسر هذه فى سنة ٣٣ هـ (وعلى عكس ما يذكره مؤنس ص ٦٥ وهامش ١ لايذكر البلاذرى ولا ابن الأثير هذا الفتح أثناء غزو ولاية طرابلس مثل ابن عبد الحكم).

(٤٦) عن ودان انظر ابن حوقل. ص ٧٠، وعن الطريق من الطرابلس إلى جبل نفوسة إلى ودان وزويلة. أنظر البكرى، ص ٩ - ١١ وانظر شكل ٥ ص ١٤٠

(٤٧) أنظر فتح العرب للمغرب، ص ٦٥ - ٦٦.

(٤٨) أنظر البلاذرى، ص٢٢٨.

(٤٩) أنظر فيما سبق. ص ١٤١ - ١٤٣.

هذا ولو أن فتح ودّان عن طريق طرابلس (المدينة) كان يعنى فتح جبل نفوسة، وهذا ما قال به الزاوى[٥٠]، رغم أن النصوص لاتشير إلى شئ من ذلك اللهم إلا ما قاله بن عذارى من أن أهل طرابلس استنجدوا بنفوسة أثناء حصار عمرو لهم[٥١].

وبعد أن تم فتح اقليمى طرابلس وفزّان أخذ عمرو بن العاص يوجه السرايا للغارات وحمل المغانم، كما يقول ابن عبد الحكم[٥٢]. ونعتقد أن هذه الحملات كان يقصد بها إتمام اخضاع بقية قبائل الصحراء وإدخالها فى الإسلام أو العهد، وذلك أن عمرا بدأ يفكر فى توسيع الفتح نحو ولاية افريقية أى نحو بلاد المغرب الحقيقية.

٢- فتح افريقية (البلاد التونسية):

التفكير فى الفتح على أيام عمر:

ليس من الغريب أن يفكر عمرو بن العاص فى فتح افريقية فى ذلك الوقت المبكر، (سنة ٢٢ - ٢٣ هـ) بعد أن تحقق له فتح البلاد الليبية الحالية دون عقبات كبيرة فى حملة أشبه ما تكون بنزهة عسكرية - إذا جاز استعمال هذا المصطلح. ولكنه قبل أن يفعل ذلك رأى استئذان الخليفة، ولكن عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك. فالرواية التى ينقلها ابن عبد الحكم بإسنادها والتى يلخصها البلاذرى، تقول أن عمرا كتب إلى عمر بن الخطاب: «أن الله قد فتح علينا أطرابلس وليس بينها وبين افريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل. فكتب إليه عمر: لا إنها ليست بافريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لايغزوها أحد ما بقيت»[٥٣].

واستئذان عمرو من الخليفة يعنى أن فتح المغرب كان يتم حسب خطة موضوعة وإن كان نتيجة طبيعية لتطور الأحداث. أما عن رفض عمر فيمكن أن يفسر على أن مؤسس الدولة العربية وبطل توسعها العسكرى، وصاحب تنظيماتها

---

(٥٠) أنظر الفتح العربى فى ليبيا، ص٤٣.

(٥١) أنظر فيما سبق، ص ١٤٦ وهامش ٣٥.

(٥٢) فتوح مصر والمغرب، ١٨٣.

(٥٣) فتوح مصر والمغرب، ١٧٣. وبقية الرواية لها نفس المعنى وأن اختلف الأسلوب بعض الشئ. ومنها أن عمر قال: «افريقية المفرقة ثلاث مرات لا أوجه إليها أحداً ما مقلت عينى الماء». وانظر البلاذرى، ص ٢٢٦.

الإدارية والسياسية، خشى أن تتهور الجيوش العربية فى بلاد المغرب البعيدة أو أن تخرج عن رقابته، خاصة وهى تحت قيادة قائد طموح مثل عمرو. ولقد أخذ مؤنس بما قاله ديل (Diehl) من أن حدود افريقية الشرقية كانت محصنة، وأنه كان قد بقى أمام عمرو عدد من الحصون المنيعة فى ولاية طرابلس نفسها[٥٤]، فقال: «ولو وجد عمرو التقدم ميسوراً لتقدم فى غير عناء دون أن يستأذن عمر ...»[٥٥]. ومع جواز صحة هذا الرأى الذى يعبر عنه ابن عذارى عندما ينسب إلى عمرو أنه ذكر فى كتابه لعمر: «وأن ليس أمامه (عمرو) إلا بلاد افريقية، وملوكها كثير، وأهلها فى عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل، فأمره بالانصراف عنها[٥٦]، فإن ابن عبد الحكم يمدنا برواية يفهم منها أن أحوال مصر الداخلية كانت تتطلب عودة عمرو سريعاً. ونص هذه الرواية المنسوبة إلى عثمان بن صالح: «فأتى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه، وكان عمرو قد عاهد المقوقس على أن لا يكتمه أمراً يحدث فانصرف عمرو راجعاً مبادراً لما أتاه»[٥٧]. ومع أنه يمكن الشك فى هذه الرواية من حيث الشكل، إذ أن المقوقس كان قد توفى سنة ٦٤٢م / ٢١ هـ[٥٨]، إلا أنه لاغبار عليها من حيث الموضوع، وهى أقرب إلى الصحة من الاستنباطات المبنية على الفروض. ولقد أتت ثورة الاسكندرية وغدر الروم بالعرب بعد حوالى سنتين تؤكد صحة هذه الرواية.

وبناء على ذلك يحق لنا القول أن ظروف مصر هى التى أملت على عمرو الإحجام عن غزو افريقية بل والعودة سريعاً إلى الفسطاط. والحقيقة أننا نشك فى صحة الرواية التى تنسب إلى الخليفة أنه قال: «ماهى بافريقية ولكنها مفرقة غادرة..». فهناك روايات أخرى تنسب إلى عمر أنه كتب إلى عمرو بن العاص عن افريقية «لاتقربها فإنها باب من أبواب جهنم»[٥٩]. وأكثر من هذا بالغت الروايات فنسبت إلى النبى أنه قال لإحدى سراياه التى أرسلها إلى افريقية، عندما

(٥٤) مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ٦٦ وهامش ٣.
(٥٥) مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ٦٧.
(٥٦) البيان المغرب، ج١ ص ٨.
(٥٧) فتوح مصر والمغرب، ص ١٧٣.
(٥٨) بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٣١٣.
(٥٩) أبو العرب، طبقات علماء افريقية، ص ١٦.

رجع أصحابه وشكوا إليه شدة برد أصابهم: إن افريقية أكثر برداً وأعظم أجراً»[٦٠]
وهذه الروايات وإن كانت مصطنعة – من غير شك – فإنها تعبر عن شعور الكراهية والعداء التى أكنها العرب بالنسبة لحروبهم فى المغرب، سواء فى فترة الفتح أو فيما بعد. فهناك أحاديث أخرى تعبر عن طول الصراع ومرارته ضد البربر، منها حديث تنسب روايته إلى عقبة بن عامر الجهنى، يقول فيه: «الخبث سبعون جزءاً، للبربر تسعة وستون جزءاً وللجن والأنس جزء واحد»[٦١]. ومنها حديث يقول: «ينقطع الجهاد من جميع الجهات ولايبقى إلا ببلاد افريقية»[٦٢]
ولابأس من الإشارة إلى أن تلك الظاهرة حدثت أيضا بالنسبة لمصر، ولكن بشكل مخالف. فبسبب استقبال مصر الطيب للعرب وتحالف المصريين معهم ضد الروم، ظهرت سلسلة من الأحاديث تشيد بقبط مصر، وبأنهم أحسن الأعاجم على الاطلاق، بل وتنبه إلى صلة القرابة بينهم وبين العرب عامة وقريش خاصة[٦٣]

وبطبيعة الحال ليس من المعقول أن النبى تكلم عن الغزوات البعيدة التى لم تبدأ إلا بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً أو أكثر من وفاته، ولكن أصحابها قصدوا باصطناعهم إياها التعبير عن وجهة نظر أصبحت شبه عامة فى وقت من الأوقات. أما عن ذكر اسم النبى بصدد هذه الفتوحات والتصاقه بها كما نرى، فيفسر بسبب اشتراك عدد كبير من الصحابة وأبنائهم والتابعين فيها. ولهذا اهتم ابن عبد الحكم بذكر الصحابة الذين دخلوا مصر والمغرب فخصص فصولاً من كتابه لذلك.

نخرج من هذا بأن عمرو بن العاص لم يكن ليستطيع التقدم إلى قلب المغرب والروم شوكة فى ظهره فى مصر، فآثر العودة إلى الفساط ليطمئن على

---

(٦٠) البكرى، ص ٢١ – ٢٢. كتاب الاستبصار، ص ١١٢.

(٦١) ابن عبد الحكم، ٢٨٧.

(٦٢) البكرى، ص ٢١. الاستبصار، ص ١١٢، وقارن أبو العرب، طبقات علماء افريقية ص٦، رياض النفوس، ص ٤.

(٦٣) ابن عبد الحكم، ص ٢ – ٣، وللمؤلف، تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور طبعة محافظة الإسكندرية ١٩٦٣، ص ٢٤٣. ولقد كان من الطبيعى بعد ذلك أن تظهر أحاديث أخرى (مصطنعة بطبيعة الحال) – أنظر ابن أبى دينار، المؤنس فى أخبار افريقية وتونس، طبعة تونس ١٢٨٦، ص ١٦ – حيث يوافق ابن ناجى على أن هذه الأحاديث موضوعة تشيد بأهل الغرب. مثل: «لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» و «لاتزال عصابة من أمتى يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة ...». أنظر رياض النفوس، ص ٣-٤، وأنظر أبو العرب ص١.

أحوالها، فهى قاعدة فتوح المغرب. وبعد عودة عمرو بقليل كان مصرع الخليفة عمر فى أواخر سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٣م. وبعد فترة قضاها عمرو فى الفسطاط سار إلى الحجاز ليفاوض الخليفة الجديد عثمان بن عفان فى أمر تنحية عبد الله بن سعد بن أبى سرح عن إمارة الصعيد(٦٤) حتى تكون البلاد جميعاً له دون منازع وفشلت المفاوضات وانتهى الأمر بعزل عمرو وإثبات ابن أبى سرح فى ولاية مصر جميعاً. حدث ذلك فى سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥ - ٦٤٦م فى الوقت الذى بدأت فيه ثورة الاسكندرية مما سمح لعمرو بالعودة إلى مصر لقمع الثورة ولكنه تركها بعد شهر واحد إذ رفض ما اقترحه الخليفة من أن تكون الولاية شركة بينه وبين ابن أبى سرح.

بداية الفتوح فى البلاد التونسية على أيام عثمان:

١ - عبد الله بن سعد واللقاء الأول مع الروم:

يتفق الكتاب على أن عمر بن الخطاب هو بطل الفتوح والتوسع الإسلامى بمعنى أنه بأنى الدولة العربية، وعلى العكس من ذلك اعتبروا أن خلافة عثمان هى عهد الفتنة أو الحرب الأهلية، مما قد يفهم منه أنه لم يكن للخليفة الثالث أفضال على الدولة الناشئة. وإذا كان الأمر الثانى صحيحاً بالنسبة للسنوات الأخيرة من خلافة عثمان فهو ليس بصحيح بشكل مطلق. فالحقيقة أن الخليفة الثالث بخس الكثير من حقه: فعهد عثمان يعتبر مرحلة تطور هامة فى توسع الدولة العربية يمكن أن تجارى المرحلة التى بدأت بخلافة عمر، ولانحب أن نجترئ على «أبى حفص» فنخالف ما انعقد عليه الاجماع ونقول أنها ربما فاقتها. فعثمان هو الذى سمح لمعاوية بإنشاء الأسطول - وهذا ما لم يسمح به عمر - فأصبحت الدولة العربية قوة بحرية بعد أن كانت برية فقط، وبذلك بدأت الفتوحات فى البحر فى جزر أرواد ورودس وقبرص، كما حطم العرب الأسطول البيزنطى فى «ذى الصوارى» فى أواخر سنى عثمان سنة ٣٤ هـ/ ٦٥٤م. وعلى أيام عثمان تمت فتوح فارس بمقتل يزدجرد الثالث على حدود التركستان فى سنة ٣١ هـ/ ٦٥١م. وعلى أيامه أيضاً بدأت فتوح المغرب الحقيقية فى افريقية - وهذا ما عارض فيه عمر كما يقول الكتاب. حقيقة أن الأزمة التى انتابت الخلافة بعد

---

(٦٤) ابن عبد الحكم، ص ١٧٣

مقتل عثمان كان لها آثارها فى توقف الفتوح، ولكن التوسع الذى تم على أيامه يعتبر من وجه استمراراً لبرنامج عمر، كما يعتبر من وجه آخر تخطيطاً للفتوحات الكبرى التى تتم على أيام الأمويين أقاربه - باعدادات أعظم وبطريقة أكثر تنظيما، وخاصة فى بلاد المغرب

رفض عمرو بن العاص أن يشاركه عبد الله بن سعد بن أبى سرح، والى الصعيد فى ولاية مصر فيكون لابن سعد الإشراف على الخراج. ولم يرض عمرو أن يكون «كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها»(٦٥)، فعزله عثمان وجعل الإمارة لابن سعد والكتاب الذين يجعلون من مآخذ عثمان أنه عهد بولاية الأقاليم والقيادات العسكرية إلى أقاربه ممن لم تكن لهم سابقة فى الإسلام، والذين لم يدخلوا فى الدعوة المحمدية إلا جرياً وراء مصالحهم الشخصية بعد أن تأكدوا من نجاحها، يضعون عبد الله بن سعد بن أبى سرح بين هؤلاء الولاة المتهمين فى مشاعرهم الفاترة نحو الإسلام(٦٦).

والحقيقة أن ابن أبى سرح انتابه نوع من التردد إزاء الإسلام على أيام الرسول. فبعد أن كان يكتب الوحى للنبى عاد واتخذ جانب المكيين. فلما دخل النبى مكة استجار ابن سعد بعثمان فأخذ له الأمان من النبى(٦٧). وكان عثمان مدفوعاً فى ذلك بعلاقة وعاطفة قوية نحو ابن سعد، فقد كانت أم عبد الله بن سعد مرضعة عثمان بمعنى أنه كان أخاه فى الرضاعة. والحقيقة أن مثل هذا التردد الذى انتاب ابن سعد لاينبغى أن يؤخذ عليه إلى الأبد، فقد كان نوعاً من الشك الذى يسبق اليقين ويؤكده، وسيرة الكثير من أعلام المسلمين والصحابة مليئة بمثل هذا التردد الذى يهدف إلى تبيان الحقيقة، فإذا ما اتضحت أصبحت راكزة على أساس مكين. وحقيقة أخرى هى أنه كان للرجل مزاياه وأفضاله ولم يخف ذلك على عمر، فهو الذى جعل له ولاية الصعيد إلى جانب عمرو، وهذا ما رد به عثمان على عمرو عندما جادله فى أمر ابن سعد(٦٨).

---

(٦٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٧٨

(٦٦) انظر المسعودى، مروج الذهب، طبعة التجارية، ج٣ ص ٣٢٣. ابن الأثير، أحداث سنة ٣١ ج ٣ ص ٥٧

(٦٧) ابن هشام، السيرة، طبعة ١٩٣٦، ج٤ ص ٥١ - ٥٢، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٩

(٦٨) ابن عبد الحكم، فتوح مصر للمغرب، ص ١٧٣

والبلاذرى يقول أن عثمان جعل لابن سعد ولاية مصر والمغرب[٦٩] . وهذا تعبير عن تبعية المغرب لوالى مصر فى هذا الوقت المبكر وما يليه حينما كانت الفسطاط هى قاعدة العمليات العسكرية فى المغرب. وسار عبد الله بن سعد على نفس السياسة العسكرية التى انتهجها عمرو بعد فتح طرابلس، وهى التى كان يقوم هو نفسه بتنفيذها كما يفهم من رواية ابن الأثير[٧٠] . فأخذ يرسل جماعات الخيالة فى شكل سرايا تغير على أطراف افريقية وترجع بالمغانم والأسلاب[٧١] . ولاشك أن هدف هذه الغارات لم يكن المغانم والسبى فقط بل كان هدفها الاستكشاف بغرض جس نبض العدو، ومعرفة قواه وما لديه من عدّة وعتاد. فعلى نتائج هذه الاستطلاعات كان يقدّر ما يمكن أن يلقاه العرب من المقاومة، وعلى أساس هذا التقدير كانت تعدّ خطة الغزو. ونظراً للنجاح الذى حققته هذه الغارات فكر عبد الله بن سعد فى القيام بالحملة الحقيقية على افريقية. وبدأ باستشارة الخليفة كما فعل عمرو من قبل، فأبلغه بدقة الوضع الاستراتيجى للعرب بالقرب من قوات الروم فى افريقية واستأذنه فى غزوها[٧٢] . والظاهر أن عثمان هو الآخر كان يخشى تهور العرب فى تلك البلاد البعيدة إذ يقول البلاذرى أنه كان «متوقفا عن غزوها»[٧٣]،وأنه وافق على الغزو بعد أن وصلته أنباء مشجعة عن نجاح حملات ابن أبى سرح على أطراف افريقية، وبعد أن استشار كبار الصحابة[٧٤] .

وكانت الموافقة تعنى ارسال الامدادات والجيوش لابن سعد. وفعلاً دعا عثمان الناس لغزو افريقية، واجتمع خلق كثير من العرب من كل القبائل، وخاصة تلك التى كانت تقطن حول المدينة[٧٥] . وقام عثمان فيهم خطيباً وحثهم على الجهاد، ووزع عليهم السلاح كما أمدهم بألف بعير يحمل عليها ضعفاء

---

(٦٩) فتوح البلدان، ص ٢٢٦ .

(٧٠) يقول ابن الأثير فى أحداث سنة ٢٥ (ج ٣ ص ٤٢) أن عمرو بن العاص سير عبد الله بن سعد، إلى أطراف افريقية غازيا بأمر عثمان وكان عبد الله من جند مصر».

(٧١) أنظر ابن عبد الحكم، ص ١٨٣ ، البلاذرى ص ٢٢٦ ، ابن عذارى، ص ٩ .

(٧٢) أنظر ابن عبد الحكم، ص ١٨٣ .

(٧٣) أنظر فتوح البلدان، ص ٢٢٦ .

(٧٤) ابن عبد الحكم، ص ١٨٣ والبلاذرى، ص ٢٢٦ .

(٧٥) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢٢٦ .

الناس أى فقراؤهم[٧٦]، وجعل القيادة أثناء الطريق من المدينة إلى مصر إلى قريبه الحارث بن الحكم أخى مروان[٧٧].

ويمدنا الكتاب بتفصيلات لابأس بها عن ذلك الجيش الذى عبأه عثمان والذى دخل افريقية لأول مرة، وعن مشاهير رجال العرب الذين شاركوا فيه ومعظمهم من الطبقة الثانية من كبار أبناء الصحابة. فممن يذكر من الهاشميين معبد بن العباس بن عبد المطلب، ومن الأمويين مروان بن الحكم بن العاص وأخوه الحارث الذى أسندت إليه قيادة جيش المدينة. ومن بنى زهرة المسور ابن مخرمة بن نوفل، ومن بنى عدى عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وعاصم ابن عمر وعبيد الله بن عمر، ومن بنى عامر بسر بن أبى أرطأة ومن بنى هذيل أبو ذؤيب خويلد بن خالد الشاعر، ومن بنى سهم المطلب بن السائب. أما أشهر هؤلاء فهم: عبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير[٧٨]، وعبد الله بن عباس[٧٩]، ولهذا السبب عرفت هذه الغزوة عند بعض الكتاب باسم «غزوة العبادلة»[٨٠]. وهذا لايعنى أن كل هؤلاء ساروا دفعة واحدة تحت قيادة الحارث بن الحكم، إذ سنرى فيما بعد أن بعضهم سار مدداً، والمثل لذلك أشهرهم وهو عبد الله ابن الزبير. وعندما وصل الحارث إلى الفسطاط سلم قواته إلى عبد الله ابن سعد الذى آلت إليه القيادة بصفته والى مصر وقائد قواتها، وبلغ جيش ابن سعد بفضل هذا المدد عشرين ألف رجل[٨١].

(٧٦) ابن عذارى، ج١ ص٩. والنويرى، ص ٦٣ أ.

(٧٧) ابن عبد الحكم، ص ١٨٣.

(٧٨) أنظر البلاذرى، ص ٢٢٦، ابن عذارى، ج١ ص ٩. أبو العرب، طبقات علماء افريقية، ص ١٣ - ١٤، النويرى، نهاية الأرب، المخطوط، ج٢٢ ص ٦٢ أ، ٦٢ ب (يضيف آبا ذر الغفارى وغيره)، المالكى، ج ١ ص ٩ - ١٠، وقارن تاريخ خليفة ابن خياط، ج ١ ١٣٤ - ١٣٥ (حيث لايذكر عبد الرحمن بن أبى بكر). أما رواية فتوح افريقية المنسوبة للواقدى والتى تجعل عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أحد العبادلة. بل بطل هذه الغزوة. فهى من الروايات الشيعية المصطنعة، كما نرى. أنظر بحثنا فى فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية. وهو الأمر الذى لم يغب عن السلاوى (الاستقصا، ط. الدار البيضاء ١٩٥٤، ج١ ص ٨٧) الذى يشير إلى وجوب وضع عبد الله بن عمرو بن العاص كأحد العبادلة بدلاً من عبد الله بن جعفر.

(٧٩) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٣، المالكى، ج١، ص ١٣، النويرى، المخطوط، ص ٦٢ أ.

(٨٠) تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٣٤، المالكى، ج١ ص ١٠، النويرى، المخطوط، ص ٦٢ أ، ابن حجر، الإصابة، ترجمة عبد الله بن الزبير رقم ٤٦٨٢، ج ٢ ص ٣٠٩، وانظر مؤنس، هامش ٣، ص ٨١.

(٨١) ابن عبد الحكم، ص ١٨٤، ابن عذارى، ج١ ص ٩، المالكى، ج١ ص ١٠، أبو العرب، ص ١٤ (يقول إن من قدم من المدينة ٢٠ ألفا).

أما من يذكره الكتاب من جماهير الناس في هذا الجيش، فمن قبيل مهرة ستمائة (٦٠٠) رجل، ومن غنث؟ من الأزد سبعمائة (٧٠٠) رجل، ومن ميدعان من الأزد أيضاً سبعمائة (٧٠٠) رجل، وكان على مقاسم هولاء الأخيرين شريك بن سمى[٨٢]. ومن أسلم ثلاثمائة (٣٠٠) رجل، ومن مزينة ثمانمائة (٨٠٠) رجل، ومن بنى سليم أربعمائة وخمسون (٤٥٠) رجلا[٨٣]، ومن جهينة ستمائة رجل (٦٠٠) رجل، ومن بنى الديل وضمرة خمسمائة (٥٠٠) رجل، ومن غطفان وأشجع وفزارة سبعمائة (٧٠٠) رجل، ومن بنى كعب بن عمرو أربعمائة (٤٠٠) رجل، وهؤلاء الأخيرون كانوا آخر من قدم على عثمان والناس معرسون بالجرف على ثلاثة أميال من المدينة[٨٤]. ولما كان العدد الكلى لهؤلاء الرجال يناهز الستة آلاف رجل، فلا بأس أن يكونوا جملة الجيش الذى بعث به عثمان من المدينة، وأن عدد رجال الحملة بلغ ٢٠ (عشرين) ألفاً بعد أن انضم هؤلاء إلى جند مصر.

وخرج عبد الله بن سعد على رأس هذا الجيش الكبير من الفسطاط، وربما أناب عنه الصحابى المعروف عقبة بن عامر الجهنى[٨٥]- الذى سيلى مصر على أيام معاوية[٨٦]. وكان خروج ابن سعد فى سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٧ - ٦٤٨م حسب رواية الليث بن سعد التى أخذنا بها، والتى ينقلها ابن عبد الحكم[٨٧]. ولايبين الكتاب الطريق الذى اتخذته الحملة نحو الغرب، وأغلب الظن أن ابن سعد اتخذ

(٨٢) انظر ابن عبد الحكم، ص ١٨٤، والمقصود بالمقاسم هنا هو الإشراف على تقسيم المغانم وتوزيعها على العسكر.

(٨٣) المالكى، رياض النفوس، ص ١٠، وأنظر مؤنس، ص ٨١ والهامش ٢. ويرى مؤنس أنه «ربما كان بعض هذه الأسماء مدخولاً اخترعه مؤرخو المغرب للتعظيم من شأن افريقية». ومع أن هذا الرأى مقبول فإن نسبة الاختراع إلى علماء المغاربة والاستدلال على ذلك بأنه لم يرد مفصلاً إلا فى كتبهم يمكن أن يرّد عليه بأن ذلك كان أمراً طبيعياً، فالمغاربة اهتموا أكثر من غيرهم بتاريخ بلادهم - كما فعل غيرهم بالنسبة لأوطانهم - وصاحب البيت أدرى بما فيه كما يقال. أما عن الكتب المشرقية الأولى الخاصة بفتوح المغرب فكثير منها لم يصل إلينا.

(٨٤) النويرى، ص ٦٢ ب، ٦٣ أ، وقارن نشره مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، ص ١٧٧.

(٨٥) أنظر مؤنس، ص ٨٢ الذى يشير هنا إلى الكندى (ص ١٣). ولكن الكندى يذكر تلك النيابة عندما سار ابن سعد إلى عثمان لما تكلم الناس بالطعن عليه.

(٨٦) الكندى: الولاة والقضاة، طبعة بيروت ١٩٠٨، ص ٣٦ - ٣٨.

(٨٧) فتوح مصر والمغرب، ص ١٨٧، تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢ ص ١٣٤. وهذه الرواية هى التى أخذ بها

=/=

الطريق الساحلي المؤدى إلى برقة وهو طريق قوافل الحاج الذى يمر جنوب الاسكندرية إلى أبي صير. ووصل عبد الله بن سعد إلى برقة حيث انضم إليه عقبة بن نافع الفهرى وأصحابه، وكانوا مرابطين هناك حسب رواية ابن الأثير[٨٨]. هذا ولانعرف أن كان مع عقبة فى ذلك الوقت أخوه عبد الله بن نافع بن عبد القيس أم أنه كان في قوات عبد الله بن سعد، وذلك أن ابن الأثير يذكر أن عبد الله بن نافع كان مع ابن سعد فى حملة وجهتها افريقية - ولكن قبل حملتنا هذه بسنة[٨٩]. ونظن أنها كانت غارة من تلك التى كان عمرو يرسل فيها قواده إلى أطراف افريقية، كما قلنا ابتداء.

ومن برقة اتجه ابن سعد على رأس قواته المكونة من جيش المدينة وفيه عبد الله بن عباس، وجند مصر وفيهم معاوية بن حديج، ومرابطة برقة وفيهم عقبة بن نافع. ويفهم من خطبة منسوبة إلى عبد الله بن الزبير يصف فيها الحملة أنه جعل الطريق على مراحل، كل مرحلة مسافة بريدين. وكان المسير ليلاً مما يحقق للعرب أمرين: عدم تسرب أخبارهم إلى العدو، وتفادى حرارة الجو ولفح الشمس نهاراً. كما كان من الطبيعي أن يسرع ابن أبى سرح فى المناطق القفرة الجدبة ويبطئ فى الأقاليم الخصبة ليمتار الناس وترعى الخيل والإبل[٩٠]. وتقدمت الطلائع تستكشف البلاد وتمهد الطريق، وتأتى بالمؤن للجيش وبالعلف للخيل[٩١]. ويظن أن مدينة طرابلس كانت قد خرجت عن طاعة العرب بعد فتحها الأول إذ يقول ابن الأثير أن العرب نهبوها[٩٢]. والظاهر أنهم نهبوا بعض أطرافها كما تذكر

=/= ابن عذارى (ج١ ص ٨). أما البلاذرى (ص ٢٢٦) فإنه إلى جانب سنة ٢٧ يسجل أيضاً سنة ٢٨ وسنة ٢٩. وبخلاف هذه الروايات التى تبدأ بسنة ٢٧ يسجل ابن الأثير (أحداث سنة ٢٥، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٢، ٤٣) غزوة ابن أبي سرح فى سنة ٢٦، كما يقول أن ابن أبي سرح قام بغزوة سابقة لافريقية سنة ٢٥ على رأس جيش قوامه عشرة آلاف رجل. وانظر النويرى، ص ٦٣ أ الذى يجعل تجمع الناس فى المدينة فى المحرم من سنة ٢٧ هـ، أما ابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٧) فإنه يجعل حملة ابن سعد فى سنة ٢٩ هـ ولو أنه يخطئ ويقول أنها فى زمان عمر.

(٨٨) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦ ج ٣ ص ٤٣، وأنظر السلاوى، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، طبعة الدار البيضاء، ص ٣٣.

(٨٩) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٣ (حيث النص أن تلك الحملة كانت من عشرة آلاف رجل).

(٩٠) المالكى، رياض النفوس، ج١ ص ١٦.

(٩١) أنظر المالكى، ج١ ص ١٠.

(٩٢) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦ ج ٣ ص ٤٣.

الرواية المنسوبة إلى الواقدى، والتى تقول أن طلائع العرب أصابوا سفينة فى طرابلس وأنهم أسروا من فيها وعددهم مائة رجل، فكتفوهم إلى أن وصل ابن سعد فأمر بقلتهم، بينما تحصن أهل طرابلس خلف أسوار مدينتهم ولم يخرجوا للقاء ابن سعد، ولم يهاجمهم هو الآخر[٩٣].

ولاشك فى أن العرب، وخاصة أولئك الذين خبروا الحرب على حدود افريقية، كانوا يعلمون أن أهل طرابلس يكتفون منهم بتركهم فى أمان، وعلى ذلك رأى ابن سعد ألا ينهك قواه فى إعادة فتح طرابلس. فتركها خلف ظهره كما ترك قابس بعدها[٩٤]، واتجه نحو أرض افريقية الحقيقية مبتعداً عن الشاطئ إلى أن وصل إلى قرب الموضع الذى ستبنى فيه مدينة القيروان، وهى فى المنطقة التى تعرف باسم قمونية[٩٥]. وكان فى ذلك الموضع مدينة قديمة هى سبيطلة (Sufetula) وكان لهذه المدينة أهمية خاصة فى ذلك الوقت. فإلى جانب أهميتها العسكرية باعتبارها واحدة من سلسلة المدن التى تكون خط الدفاع الثانى الذى أقامته بيزنطة، للدفاع عن البلاد ضد ما يتوقعه الروم من هجمات أهل البلاد من البربر، كانت سبيطلة بمثابة عاصمة افريقية بدلاً من قرطاجنة، وهذا ما ينص عليه ابن الأثير إذ يقول: «وهذه المدينة (سبيطلة) كانت فى الوقت دار الملك»[٩٧].

والظاهر أن الاعتبارات الاستراتيجية التى أملت على العرب ترك المدن والقلاع الساحلية فى طرابلس وافريقية واتخاذ الطريق الداخلى هى التى أملت على حاكم افريقية، المعروف عند العرب بـ «جرجير» وهو جريجوريوس، اتخاذ سبيطلة عاصمة له. فبعد أن ثار جرجير بمساعدة رجال الكنيسة على الامبراطور كما رأينا[٩٨]، أعلن استقلاله بالمغرب، وهذا ما يعرفه الكتاب العرب إذ يقولون أنه خلع هرقل

(٩٣) المالكى، ج١ ص ١٠، وقارن النويرى، المخطوط، ص ٦٣ ب. والمنشور (أبو ضيف)، ص ١٧٨.

(٩٤) النويرى، المخطوط، ص ٦٣ ب. وقارن المنشور (أبو ضيف)، ص ١٧٨.

(٩٥) المالكى، ص ١٢.

(96) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 296, 316.

(٩٧) الكامل أحداث سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٣، وهذا ما يأخذ به المالكى (ج١ ص ١٢) عندما ينقل عن أهل «العلم بالسير ومغازى افريقية، فيقول عن جرجير حاكم افريقية الرومى «وهو صاحب سبيطلة». وقارن خليفة بن خياط، ج١ ص ١٣٤ (حيث يجعل سبيطلة على ٧٠ ميلاً من القيروان)، ص ١٣٥ (حيث يقول أنها مدينة قمودة – يقصد قمونية – أى عاصمتها).

(٩٨) أنظر فيما سبق، ص ١٣٢ والهوامش.

وضرب الدنانير ونقش عليها صورته[٩٩]، وصار ملكه من طرابلس إلى طنجة[١٠٠]. ولما كان مقامه بقرطاجنة - وهى المدينة البحرية الهامة - يعرضه لخطر الأسطول البيزنطى الذى كانت له السيطرة حتى ذلك الوقت على البحر، فإنه فضل أن يكون بمأمن فى الداخل واختار المقام فى سبيطلة الحصينة. والحقيقة أن بعض الكتاب الأوائل خفى عليهم أمر سبيطلة هذا، فابن عبد الحكم رغم علمه باستقلال جرجير، إلا أنه يقول: «وكان مستقر سلطان افريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة، وكان عليها ملك يقال له جرجير ...»[١٠١].

ولاشك فى أن كلمة قرطاجنة هنا أشبه ما تكون بالخطأ المطبعى، فهى خطأ من النساخ على ما نظن، والدليل أن ذكر قرطاجنة هنا كعاصمة تطلب قولهم أن ابن سعد حاصر قرطاجنة عقب الموقعة[١٠٢]، وهذا خطأ وصحته سبيطلة[١٠٣]. أما ما أخذ به مؤنس مستنداً فيه إلى بعض أقوال ديل (Diehl) من أن جرجير استخدم سبيطلة قاعدة له عندما استشعر خطر العرب بعد أخذهم طرابلس وصبرة[١٠٤]، فمع أنه معقول إلا أنه يكون أكثر قبولاً لو أن جرجير سار إلى هذا الموضع عندما علم بمسير ابن سعد إليه، أو لسد الطريق أمام القوات العربية الزاحفة إلى بلاده. وفى هذه الحالة كان يجب وقوفه فى منطقة قابس الاستراتيجية كما يبين مؤنس[١٠٥]، فهى أشبه بعنق الزجاجة كما يقول العسكريون. أما أن ينتقل جرجير إلى سبيطلة مع أهله وحريمه وذخائره، كما تذكر الروايات، فهذا اجراء لاتمليه الضرورة العسكرية. وعلى ذلك فالأقرب إلى الصحة أن جرجير اتخذ سبيطلة عاصمة خشية هجوم الأسطول البيزنطى عليه، تماماً كما ترك العرب مدن الساحل الطرابلسية والافريقية خشية نفس الخطر، وهذا ما يقوله ديل كما يلخصه مؤنس[١٠٦].

---

(٩٩) ابن عبد الحكم، ص ١٨٣. والقراءة فيه «وضرب الدنانير على وجهه»، أنظر مؤنس (ص ٨٤) وما يقوله من أنه لم توجد نقود برسم جرجير.

(١٠٠) ابن عبد الحكم، ص ١٨٣، البلاذرى، ص ٢٢٦، ابن عذارى، ج١ ص ٩.

(١٠١) ابن عبد الحكم، ص ١٨٣.

(١٠٢) ابن عذارى، ج١ ص ١٢، المالكى، ج١ ص ١٣.

(١٠٣) قارن ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٧ «وكانت. دار ملكة (جرجير) سبيطلة».

(١٠٤) أنظر مؤنس، ص ٧٥.

(١٠٥) نفس المرجع، ص ٨٥، وانظر شكل ٦ ص ١٦١.

(١٠٦) نفس المرجع السابق، ص ٩٦ هامش ٢.

وصل إذن ابن سعد إلى اقليم قمونية غيربعيد من سبيطلة، وحط رحاله ليستريح الجند من عناء الطريق وليأخذوا فى الاستعداد للقاء الروم، من جمع الكراع واصلاح السلاح. وفى هذه الأثناء أخذ يرسل السرايا تستكشف البلاد فى كل الجهات[١٠٧]، وتأتى بالمؤن والعلف[١٠٨]. وقبل أن يبدأ القتال بين القوات الرئيسية دارت مفاوضات بين الطرفين، واختلف رسل ابن أبى سرح إلى جرجير يعرضون عليه - كما هى العادة - الإسلام أو الخضوع للعرب ودفع الجزية[١٠٩]. وفشلت المفاوضات إذ رفض جرجير قبول شروط العرب، وأصبح على القوة أن تقرر لمن ستكون اليد العليا.

الانتصار في سبيطلة:

ووقف الجيشان العربى والرومى وجهاً لوجه فى موضع أمام سبيطلة على بعد يوم وليلة واحدة من المدينة[١١٠]، وهذا الموضع يسمى عقوبة[١١١]. ويصف الكتاب العرب جرجير وقواته وصفاً رائعا يذكر بوصفهم للقائد الفارسى رستم وقواته الهائلة فى موقعة القادسية. فالقوات الرومية بلغت ١٢٠ ألف رجل[١١٢]، «قد رفعوا الصليب، وعليهم من السلاح ما الله أعلم به، وفيهم من الخيل ما لايحصى»[١١٣]. وهذا العدد مبالغ فيه من غير شك، والمعتقد أن أصحاب هذه الرواية أرادوا إبراز النتائج العظيمة التى حققها العرب بامكانيات بسيطة. أما جرجير فكان يقف خلف قواته ممتطياً برذونا أشهب اللون، وعن يمينه وشماله جاريتان تظلانه من حرارة الشمس بريش الطواويس[١١٤]، بينما كانت ابنته تطل على أرض المعركة من أعلى المنصة (الديدبان) التى أقامها والدها ليشرف منها على عساكره أثناء القتال، أو من أعلى الحصن القريب، كما نرجح، تحيط بها أربعون

---

(١٠٧) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج٢ ص ٤٣، وأنظر المالكى، ص ١٦.

(١٠٨) المالكى، ج١ ص ١٠.

(١٠٩) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٣. المالكى، ج١ ص ١٠ - ١١، النويرى، المخطوط، ص ٦٣ ب والمطبوع، ص ١٧٩..

(١١٠) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٣. وأنظر شكل ٦ ص ١٦١.

(١١١) البلاذرى، ص ٢٢٧، النويرى، المخطوط، ص ٦٣ أ. والمطبوع (أبو ضيف) ص ١٧٩.

(١١٢) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج ٣ ص ٤٣، ابن عذارى، ج١ ص ١٠، ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٧، المالكى، ج١ ص ١٤.

(١١٣) المالكى، ج١ ص ١١.

(١١٤) ابن عذارى، ج١ اص ١١، المالكى، ج١ اص ١٤، وقارن النويرى، المخطوط، ص ٦٤ أالذى يقول أن ابنة جرجير هى التى كانت تحمل على رأسها مظلة من ريش الطاووس والمطبوع، أبو ضيف، ص ١٨٠ ومابعدها..

شكل (٦)

بلاد افريقية («تونس» مع طرابلس وقسنطينة)

وصيفة عليهن أجل الثياب وأثمن الحلى[115]. وإذا كان من الجائز أن يكون الخيال قد لعب دوراً هاماً فى تلك الروايات التى لانجدها بمثل هذا التفصيل المزوق عند ابن عبد الحكم، فليس من الضرورى أن تكون جميعاً من نسج الخيال. فقصة جرجير وحاملات المظلات، وابنة جرجير ومن يحطن بها من الوصيفات مقبولة، وإن كانت ستطلق العنان لخيال الكتاب والرواة حتى تطورت إلى أساطير بعيدة عن الحقائق التاريخية كما فى «كتاب فتوح افريقية» المنسوب للواقدى[116].

أما عن قوات ابن سعد فكانت تقف فى هيئة القتال ميمنة وميسرة وقلباً[117]، وفيها الفرسان على ظهور الخيل العربية الضامرة السريعة العدو، القادرة على تحمل المشاق، وفيها الرجالة بأسلحتهم الخفيفة وملابسهم البسيطة، بينما كانت الجمال فى الخلف - على ما نعتقد - حيث الأثقال والأحمال فى حراسة بعض الرجال. ولما كان فى ذلك الجيش الكثير من الصحابة وأبنائهم، فإن الصفوف كانت عامرة بقراء القرآن، الذين يتلون الآيات التى تحض المؤمنين على حسن القتال وطلب الاستشهاد فى سبيل الله، ويذكرون الأحاديث التى تحض على الجهاد. ومن هنا نشأت مجموعة الأحاديث الخاصة بفتوح افريقية على ما نظن، والتصق اسم الرسول بهذا الفتح كما قلنا. وبطبيعة الحال كان الشعراء، وتذكر النصوص منهم أبا ذؤيب خويلد بن خالد الهذلى[118]، ينشدون أشعار الحماسة، بينما كان ابن سعد يحرض الناس ويبث فيهم روح الفدائية والأقدام[119].

وبدأت المناوشات ثم استمرت الحرب سجالاً فى «عقوبة» دون طائل[120].

---

(115) ابن عذارى، ج1 ص 10، المالكى، ج1 ص 14.

(116) فيما يتعلق بالمعركة التى يمكن أن تعادل معركة سبيطلة هذه نجد فى كتاب فتوح افريقية المنسوب للواقدى وصفاً خيالياً رائعاً لقواد الروم عليهم حلل الذهب ودروع الذهب وجيوبهم مليئة بالدنانير الذهبية .... إلخ. انظر للمؤلف، فتح المغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية، مجلة كلية الآداب، سنة 1963، ص 26.

(117) المالكى، ج1 ص 11.

(118) انظر فيما سبق، ص 155.

(119) انظر المالكى، ص 16.

(120) البلاذرى، ص 227.

ويفهم من النصوص أن كلا من الجانبين كان يخشى الآخر، فالروم كانوا يرهبون العرب وينهزمون أمامهم[١٢١]، والعرب كانوا يخشون كثرة الروم وعظم معداتهم[١٢٢]. وهذا ما يستشف أيضاً من الروايات التي تقول أنهم كانوا يقتتلون ويتبارزون نهاراً، من الصباح إلى صلاة الظهر، ثم يعودون إلى معسكراتهم فلا يستأنفون القتال إلا في اليوم التالي[١٢٣]. ويمكن أن نفهم من ذلك أن الطرفين كانا يوّدان لو انتهى الأمر إلى الاتفاق. وأخيراً هناك رواية تقول أن جرجير وعد من يقتل عبد الله بن سعد من رجاله بتزويجه ابنته، وأن عبد الله بن سعد رد على ذلك بالنداء في عسكره. أن من قتل جرجير من المسلمين نفله ابنته وما معها[١٢٤].

أما عن النصر النهائي فيرجع إلى تغيير عبد الله بن سعد لخطة القتال هذه، وذلك بعد أن استمع إلى نصح الناصحين له بأن يقسم قواته إلى قسمين يشترك أحدهما في القتال بينما ينتظر الآخر في شكل كمين حتى إذا انتهى القتال كالعادة ظهراً، خرج الكمين على الروم وقد تعبوا فيتمكن من هزيمتهم[١٢٥]. ونجحت الخطة وثارت الكمائن بالروم فانهزموا، ولحق العرب بالمنهزمين فقتلوا منهم أعداداً كبيرة، ثم سبقوهم إلى أبواب سبيطلة ومنعوهم من دخولها، بينما بقي جرجير مجندلاً في أرض المعركة، ووقعت ابنته أسيرة في أيدى العرب[١٢٦]. وتنسب كثير من الروايات فخر هذا الإنتصار إلى عبد الله بن الزبير دون عبد الله بن سعد، فتقول أنه وصل مددا لابن سعد من قبل عثمان بعد أن تأخرت أخبار الحملة عن الخليفة، وأنه الذى نصح ابن سعد بتطبيق الخطة الحربية للمعركة. وتنسب إليه كذلك الكثير من أعمال البطولة النادرة والشجاعة الشخصية: فهو

---

(١٢١) ابن عذارى، ج١ ص ١٠، المالكى، ج١ ص ١١.

(١٢٢) أنظر ابن عبد الحكم، ص ١٨٥ حيث يقول أن رجال ابن سعد قطعوا الصلاة ذات يوم عندما سمعوا جلبة وظنوا أنهم العدو ثم أنهم أعادوها.

(١٢٣) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج ٣ ص ٤٣.

(١٢٤) ابن عذارى، ج١ ص ١٠، المالكى، ج١ ص ١٤، وقارن النويرى، المخطوط ص ٦٤ ب.

(١٢٥) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٣ - ٤٤، المالكى، ج١ ص ١١.

(١٢٦) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٤. ابن عذارى، ج١ ص ١١، المالكى، ج ١ ص ١١. النويرى، المخطوط، ص ٦٥ ب. والمطبوع، أبو ضيف، ص ١٨١ - ١٨٢.

الذى اخترق صفوف الروم، وهو الذى قتل جرجير وفتن الأميرة ابنته التى أقرت بذلك وميزته من بين فرسان العرب[١٢٧].

والظاهر أن الزبيريين وشيعتهم هم الذين عملوا على إذاعة أمجاد أسرتهم، وخاصة بعد أن بلغت أوج عظمتها خلال السنوات التى طالب فيها عبد الله بن الزبير بالخلافة، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مأربه الذى دفع فيه والده - من قبل - حياته دون جدوى. والحقيقة أن كثيراً من رواة فتوح مصر والمغرب كانوا من الأسرة الزبيرية وأشهرهم عروة بن الزبير وابنه هشام بن عروة (توفى سنة ١٤٦ هـ)[١٢٨]. فقصة مقتل جرجير تظهر أولاً مقتضبة عند ابن عبد الحكم الذى يعود فيقول: «وكان الذى قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير»[١٢٩]، بينما نجد رواية ثانية تقول أن الذى نصح ابن سعد بعمل الكمائن هو أحد القبط[١٣٠]، ثم رواية ثالثة تقول أن ابنة جرجير كانت من نصيب أحد الأنصار، وأن الشابة الافريقية فضلت أن تلقى بنفسها من على ناقته فتدق عنقها[١٣١]. والظاهر أن قصة انتحارها صحيحة فلو أنها آلت إلى ابن الزبير أو إلى غيره لعرفنا أخبارها أو أخبار عقبها، كما عرف عقب سارة ابنة ملك الأندلس القوطى[١٣٢].

وهكذا انتهت معركة عقوبة أو سبيطلة الأولى بانتصار سهل لابن أبى سرح، فانهزمت القوات الرومية أمام العرب، وقتل حاكم افريقية وانتحرت ابنته، ولابأس من أن تكون ألقت بنفسها من أعلى سور القلعة - التى حورت إلى ناقة - أسفاً على والدها. وأتبع ابن سعد ذلك بضرب الحصار على مدينة سبيطلة نفسها بعد أن منع المنهزمين من الاعتصام بها. وبذلك حرمت المدينة من المدافعين عنها، وسقطت بسهولة فى معركة ثانية، وغنم العرب فيها غنائم كثيرة لم يعرفوا مثيلاً

---

(١٢٧) نفس المصدر.

(١٢٨) انظر ابن حجر، الإصابة، طبعة ١٣٢٨ هـ، ترجمة عبد الله بن الزبير. رقم ٤٦٨٢، ج٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١. وانظر للمؤلف. فتح المغرب بين الحقيقة والأسطورة، مجلة كلية الآداب، اسكندرية سنة ١٩٦٣، ص ٢٩.

(١٢٩) ابن عبد الحكم، ص ١٨٣، وقارن ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٤، ابن عذارى، ج١ ص ١١.

(١٣٠) المالكى، ج١ ص ١١.

(١٣١) ابن عبد الحكم، ص ١٨٤ - ١٨٥، ابن الأثير، سنة ٢٦ ج ٣ ص ٤٤.

(١٣٢) أنظر ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، طبعة بيروت، ص ٢٢. ليفى بروفنسال، تاريخ اسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) طبعة ١٩٥٣ ص ١٨٥ (عن بنى القوطية وبنى يليان).

لها فى غيرها من المدن[١٣٣]، وكان أكثرها الذهب كما تقول إحدى روايات المالكى[١٣٤]. وأرسل ابن سعد بخبر الفتح مع عبد الله ابن الزبير كما يرجح الرواة[١٣٥]، فسار إلى المدينة سريعاً فى أقل من ثلاثة أسابيع، وهناك أعلن أنباء انتصارات القوات العربية فى افريقية فى مسجد الرسول وفى حضرة الخليفة وكبار الصحابة[١٣٦].

وأقام ابن أبى سرح معسكره فى الأرض التى بنيت فيها القيروان فيما بعد[١٣٧]، ومن هناك أخذ يوجه السرايا تضرب فى أرجاء افريقية، فبلغت جنوباً أرض قفصة من بلاد الجريد ثم جازت إلى مرماجنة[١٣٨]، كما بلغت حصن الجم على طريق سوسة حيث اجتمعت فلول المنهزمين، وفتحته صلحاً بعد أن ضربت عليه الحصار[١٣٩]. وانسحب الروم إلى الجزيرة – وهى شبه الجزيرة الواقعة بين تونس وسوسة – التى عرفت باسم جزيرة شريك، نسبة إلى شريك العبسى والد قرة بن شريك والى مصر أيام الوليد بن عبد الملك، واجتمعوا هناك فى مدينة تعرف باقليبية ومنها انسحبوا بحراً إلى جزيرة قوسرة[١٤٠].

---

(١٣٣) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج ٣ ص ٤٤. النويرى المخطوط، ص ٦٥ ب، وأنظر ابن عذارى (ج١ ص ١٢، والمالكى، ج١ ص ١٣) الذى يخطىء عندما يتكلم هنا عن حصار قرطاجنة، وهو يقصد بطبيعة الحال سبيطلة. ولقد أتى هذا الخطأ من الاعتقاد بأن قرطاجنة هى عاصمة افريقية وأن جرجير هو ملك افريقية أى صاحب قرطاجنة.

(١٣٤) المالكى، ج١ ص ١٣.

(١٣٥) ابن عبد الحكم، ص ١٨٥ – الذى بدأ بأن قال أن عقبة بن نافع هو الذى سار بالفتح ثم عاد وقال بل عبد الله بن الزبير، ابن عذارى، ج١ ص ١٢. ونشير هنا إلى أن ابن عبد االحكم يورد رواية أخرى (ص ١٨٦ – ١٨٧) يفهم منها أن ابن سعد وجه مروان بن الحكم إلى عثمان. ومن الجائز أن يكون ذلك قد تم فى وقت تال عند اضطراب الأمر على عثمان كما يستشف من التفاصيل. وأنظر تاريخ خليفة ابن خليط، ج١ ص ١٢٦.

(١٣٦) أنظرابن عبد الحكم، ص ١٨٥ (فى عشرين ليلة) – ١٨٦، ابن عذارى، ج١ ص ١٣، المالكى، ج١ ص ١٥ – ١٦.

(١٣٧) ابن عذارى، ج١ ص ١٣.

(١٣٨) ابن عذارى، ج١ ص ١٢، المالكى، ج١ ص ١٣، النويرى، المخطوط ص ١٦٦. والمطبوع، ابو ضيف، ص ١٨٣.

(١٣٩) ابن الأثير، سنة ٢٦، ص ٤٤. النويرى المخطوط، ص ٦٦ أ، التجانى (الذى يسمى الحصن: الحم والأجم)، ص ٥٧ – ٦٥، وأنظر حسين مؤنس، فتح المغرب، ص ٩٧ وهامش ٢.

(١٤٠) أنظر البكرى (ص ٤٥) الذى ينقله التجانى، الرحلة، ص ١١، ١٣ (وتقول الرواية أن الروم أقاموا بجزيرة قوسرة إلى خلافة عبد الملك بن مروان حينما غزا عبد الملك ابن قطن كل جزر افريقية).

مشكلة المغانم:

وأتت هذه السرايا بالمغانم الكثيرة والأسلاب، واستاقت من المواشى ما تقدر عليه[١٤١]. ورأى بطارقة افريقية ألا قبل لهم بمواجهة العرب فركنوا إلى الصلح، ورأوا أن يشتروا انسحاب ابن أبى سرح بالمال. وتم الاتفاق على أن يدفعوا للعرب جزية سنوية بلغت ٣٠٠ (ثلاثمائة) قنطار من الذهب[١٤٢]. ويورد البلاذرى رواية ثانية تقول أن الصلح تم على ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار (ألفى ألف دينار وخمسمائة ألف دينار)[١٤٣]. أما ما يتفق عليه الكتاب فهو أن ابن أبى سرح أخرج الخمس من الغنيمة ثم وزع الأخماس الأربعة الباقية على رجاله بمعرفة عبد الله بن عباس، فكان نصيب الراجل ١٠٠٠ (ألف) دينار ونصيب الفارس ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) دينار[١٤٤]، مما يثير عجب الكتاب. ونعتقد أن هذه الرواية الأخيرة مبالغ فيها، إذ لو صحت لوجب أن تكون قيمة الغنائم فى هذه الحملة حوالى ٤٠ (أربعين) مليون دينار، على زعم أن نسبة الفرسان إلى الرجالة فى جيش ابن سعد الذى بلغ عشرين ألفاً لم تزد على الربع فقط - والمعتقد أنها كانت أكثر - أو أن يكون مقدار الغنيمة نصف هذه القيمة أى حوالى عشرين مليوناً، لو كان جيش ابن سعد يبلغ عشرة آلاف رجل فقط، لو أخذنا برواية ابن الأثير عن الحملة التى قادها ابن سعد سنة ٢٥ هـ[١٤٥]. وهذه أرقام مبالغ فيها من غير شك فما كان يمكن الحصول عليها من مدينة واحدة أو أثناء حملة واحدة، فالمعروف أن جزية مصر جميعاً (دون الاسكندرية) لم تزد فى أول الأمر على اثنى عشر مليون دينار.

أما عن أصل الرواية المنسوبة إلى الليث بن سعد، وهى التى تحدد نصيب الراجل بألف دينار والفارس بثلاثة آلاف، فترجع إلى أن رجلاً من جيش ابن سعد

---

(١٤١) البلاذرى، ص ٢٢٧.

(١٤٢) البلاذرى، ص ٢٢٧، ابن عذارى، ج١ ص ١٢ (وكان من شروط الصلح أن ما أصابه المسلمون قبل الصلح فهو لهم أما ما أصابوه بعد الصلح ردوه)، والمالكى، ج١ ص ١٧ (حيث يقول أنهم وجهوا لابن سعد (١٠٠) مائة قنطار فقط، وقارن خليفة بن خياط، ج١ ص ١٣٥ (حيث يقول أن أهل القصور والمدائن صالحوا ابن سعد على مائتى ألف رطل ذهباً).

(١٤٣) البلاذرى، ص ٢٢٧، ابن الأثير، سنة ٢٦، ج ٣ ص ٤٤، النويرى، المخطوط، ص ٦٦ أ.

(١٤٤) ابن عبد الحكم، ص ١٨٤، تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٣٥، ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٤، ابن عذارى، ج١ ص ١٢.

(١٤٥) أنظر فيما سبق، ص ١٤٩ وهامش ٨١، ص ١٥٠ وهـ ٨٩.

توفى فى طريق العودة فى موضع يعرف بذات الحمام (ونظن أنها الحمام حالياً على طريق مرسى مطروح الإسكندرية)، «فدفع إلى أهله بعد موته ألف دينار»[١٤٦]. ومع أن الرواة يؤكدون أن الألف دينار كانت سهمه فى الغنيمة فإن الأقرب إلى الصحة أن يكون ذلك مال الرجل الخاص، الذى حصل عليه من نصيبه فى مغانم الجيش وفى مغانم خاصة أخرى تهيأت له فى الغزوة، وان أصحابه ردوا هذا المال إلى أهله. ونحن نستند فى ذلك إلى روايات يوردها ابن عبد الحكم يفهم منها أن الناس كانوا يتاجرون فى الذهب والتبر، وأن بعض هذه العمليات التجارية لم تكن سليمة[١٤٧]. أما عن الثلاثة آلاف دينار وهى سهم الفارس فنظن أنها أتت نتيجة لعملية حسابية، قياساً على ما كان لهذا الراجل من المال: فالمعروف فى الحرب أن نصيب الفرس وحده سهمان. هذا ومن الجائز أن يكون الخيال قد لعب دوراً فى هذه المبالغة. «إذ قال غير الليث من مشايخ أهل مصر: فى كل دينار وربع»[١٤٨]. بمعنى أن السهم الحقيقى كان ١٢٥٠ دينار للراجل و ٣٧٥٠ دينار للفارس.

ويعبر الرواة عن عظم هذه الأموال عندما يقولون أن ابن سعد دهش لأكوام المال التى كانت توضع بين يديه، فسأل الأفارقة: «من أين لكم هذا ..؟ فجعل إنسان منهم يدور كالذى يتلمس الشئ حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه. فقال من هذا الورق. قال وكيف؟ قال أن الروم ليس عندهم زيتون فكانوا يأتون فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم»[١٤٩]. وعلى كل حال كان ابن سعد على حق عندما اكتفى بما كان يحمله هو ورجاله من المغانم والأموال، فوافق على الصلح واتخذ طريق العودة إلى مصر دون أن يترك والياً من قبله على افريقية، ودون أن يترك بها حامية عربية[١٥٠]. والظاهر أن المغانم كانت من الكثرة بحيث يصعب حملها، إذ تقول رواية يوردها المالكى – ولانعرف مبلغ صحتها – أن ابن سعد

(١٤٦) ابن عبد الحكم، ص ١٨٤.

(١٤٧) انظر ابن عبد الحكم، ص ١٨٤.

(١٤٨) نفس المصدر.

(١٤٩) ابن عبد الحكم، ص ١٨٥. وقارن ابن عذارى، ج١ ص ١٢.

(١٥٠) ابن عبد الحكم، ص ١٨٣ (ولم يولِ عليهم أحداً ولم يتخذ بها قيروانا). البلاذرى، ص ٢٢٧ (ولم يول على افريقية أحداً ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع).

كتب إلى نائبه فى مصر، وهو عقبة بن عامر الجهنى ليرسل إليه المراكب فى طرابلس، وبعد أن حملت هذه المراكب أثقال الجيش فى البحر، سار ابن سعد وأصحابه إلى مصر [١٥١]. ونظن أن ابن سعد خرج من هذه الحملة بنصيب وافر من المال مما أثار سخط الناس [١٥٢]، إذ نقول بعض الروايات أن عثمان بن عفان كان قد وعده بخمس الخمس أى خمس نصيب الخلافة، وأن مروان أخذ فى المدينة من مال افريقية ٥٠ (خمسين) ألف دينار كذلك [١٥٣]، فكانت تلك من المآخذ التى أخذت على عثمان [١٥٤].

ولقد استغرقت الحملة فى افريقية سنة وشهرين كما تقول إحدى الروايات[١٥٥]. ولما كان البلاذرى يقول أن الغزوة وقعت فى سنة ٢٧ هـ - وهو التاريخ الذى أخذنا به - أو فى سنة ٢٨ هـ أو فى سنة ٢٩ هـ [١٥٦]، يمكن أن نستنتج أن هذه التواريخ صحيحة جميعها. فيكون خروج عبد الله بن سعد من مصر قد حدث فى أواخر سنة ٢٧ هـ، واستغرقت الحملة سنة ٢٨ هـ فى افريقية[١٥٧]، وعادت فى أوائل سنة ٢٩ هـ.

وتقول بعض الروايات أن مسألة المغانم والخمس سببت سخطاً فى جيش سبيطلة العربى على عبد الله بن سعد، فطالب الناس بعزله عن قيادتهم، واستجاب لهم عثمان بن عفان. والظاهر أن عزل عثمان لابن سعد عن قيادة الجيش الافريقى تعنى عزله عن أمرة أفريقية، وبقاء مصر وحدها له. فبعد عودته إلى مصر آلت قيادة قوات افريقية إلى عبد الله بن نافع بن عبد القيس أخى عقبة بن نافع. هذا ما يفهم من رواية لابن الأثير - رغم ما يحيط بها من الغموض الذى يثير الشك فى أصالتها، إذ ترد بصدد التفكير فى غزو الأندلس من جهة البحر، على

(١٥١) المالكى، ج١ ص ١٧.

(١٥٢) ابن عذارى، ج١ ص ١٣.

(١٥٣) ابن عذارى، ج١ ص ١٣ (عن الطبرى).

(١٥٤) انظر ابن الأثير الذى يلخص الروايات التى نسبت إلى عثمان أنه أعطى خمس افريقية لعبد الله بن سعد فى هذه المرة، وأنه أعطى خمساً آخر لمروان فى غزوة أخرى (أحداث سنة ٢٦ ج٣ ص ٤٤).

(١٥٥) ابن عذارى، ج١ ص ١٣، المالكى، ج١ ص ١٧، الاستقصا. طبعة الدار البيضاء، ص ٣٤، ٦٨ (سنة وثلاثة أشهر).

(١٥٦) أنظر فيما سبق، ص ١٥٠ هامش ٨٧.

(١٥٧) يؤيد ذلك ما ينص عليه تاريخ خليفة بن خياط (ج١ ص ١٣٦) من أن قدوم عبد الله بن الزبير على عثمان بالفتح كان فى سنة ٢٨ هـ فعلاً.

أيام عثمان [١٥٨]. ونحن نعتقد أن عقبة بن نافع بقى مرابطاً مع أخيه على حدود المغرب - إن لم يكن النص يقصد عقبة نفسه دون أخيه عبد الله.

موقعة ذى الصوارى البحرية، وبداية الفتنة فى مصر:

استمر عبد الله بن سعد فى نشاطه الحربى وخاصة ضد الروم، إلى نهاية ولايته على مصر (سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٦م)[١٥٩]. فلقد أمّن حدود مصر الجنوبية بغزو بلاد النوبة (الأساود) فى سنة ٣١ هـ/ ٦٥١م، وكانت حملة عنيفة اشترك فيها معاوية بن حديج وفقد إحدى عينيه، وانتهت إلى الصلح على أن يدفع النوبة ٣٦٠ (ثلثمائة وستين) رأساً (من العبيد) فى كل سنة[١٦٠] وهو الصلح الذى عرف عند بعض الكتاب باسم صلح البقط[١٦١]. ورغم ما تقوله رواية ابن الأثير من عزل عبد الله بن سعد عن افريقية عقب حملة سبيطلة - دون تحديد تاريخ ذلك - يذكر عريب بن سعد فى مختصره أن عبد الله بن سعد قام بحملة فى افريقية سنة ٣٣ هـ/ ٦٥٣م، وذلك بعد أن نقض أهلها العهد[١٦٢]. ورغم أننا لا نجد ذكراً لهذه الغزوة عند قدامى كتاب المغازى، إلا أنه يمكن أن تكون هذه الغزوة جزءاً من نشاط ابن سعد ضد الروم الذى سبق الغزوة البحرية المشهورة بذى الصوارى. ويفهم ذلك من وصف ابن عبد الحكم لهذه الوقعة إذ يقول أن الأسطول الرومى كان يقصد الاسكندرية[١٦٣] وأن ابن سعد عندما أرسى بشاطئ ذى الصوارى، أرسل نصف رجالة الأسطول سرية فى البر بقيادة بسر بن أبى أرطأة[١٦٤]. ونحن نعتقد أن سرية بسر هذه كانت فى اتجاه الغرب، وقرينتنا على

---

(١٥٨) أنظر ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٥.

(١٥٩) نلاحظ أن الدكتور مؤنس (فتح العرب للمغرب، ص ١١٠) يتكلم عن ركود الفتوح وتوقفها عقب عودة عبد الله بن سعد بسبب الفتنة أيام عثمان. وهذا ليس بصحيح فأزمة الخلافة لم تبدأ إلا على أواخر أيام عثمان، وفى مصر بعد سنة ٣٤ هـ - بعد غزو الصوارى على وجه الدقة (أنظر ابن الأثير) أحداث سنة ٣١ - ٣٤، ج٣ ص ٥٧، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ١٤. وأنظر فيما بعد حيث نناقش هذا الأمر (ص ١٧٠ - ١٧١).

(١٦٠) ابن عبد الحكم، ص ١٨٨.

(١٦١) أنظر مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، ط القاهرة ١٩٦٠، ص ١١٢ و هـ ٢٢ (حيث تفسير كلمة البقط فى خطط المقريزى بالعهد Pactum أو بالضريبة العينية).

(١٦٢) أنظر ابن عذارى، ج١ ص ١٤.

(١٦٣) ابن عبد الحكم، ص ١٩١.

(١٦٤) ابن عبد الحكم، ص ١٩٠.

ذلك أن بسراً كان من أبطال فتوح المغرب كما رأينا[١٦٥]، كما أنه بعد انهزام الأسطول البيزنطى الذى ثارت به الأنواء والعواصف، ألقت الريح بسفينة القيادة وفيها الامبراطور قسطنطين بن هرقل بصقلية[١٦٦]. ويؤيد ما نريد أن نذهب إليه من أن وقعة ذى الصوارى كانت ناحية سواحل المغرب وليس سواحل الشام واسيا الصغرى[١٦٧]، أنه رغم أن ابن الأثير يسجل أن الأسطول العربى كان عليه معاوية - وهذا ما لم يقله ابن عبد الحكم - وابن سعد، فإنه يقول أن سبب الغزوة هو استيلاء العرب على افريقية[١٦٨]. ولقد سجل الأستاذ حسن إبراهيم - دون أن يذكر مصدره للأسف - أن هذه الوقعة كانت فى ناحية زوارة[١٦٩]، وزوارة من مدن سواحل طرابلس الغرب غير بعيد من الحدود التونسية[١٧٠]. وكانت ذو الصوارى آخر الإنتصارات التى حققها العرب على أواخر أيام عثمان، وذلك فى سنة ٣٤ هـ/ ٦٥٤ م حسب رواية ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد[١٧١].

وتعتبر غزوة الصوارى بداية الخلل الحقيقى فى القوات العربية فى مصر، والانتقاض على عثمان. فقد صحب عبد الله بن سعد فى هذه الوقعة محمد بن أبى حذيفة ومحمد ابن أبى بكر، وكانا أول من تكلم «فى أمر عثمان فى هذه الغزوة وأظهرا عيبه وما غير، وما خالف به أبا بكر وعمر، ويقولان استعمل عبد الله بن سعد رجلا كان رسول الله - ﷺ - قد أباح دمه، ونزل القرآن بكفره...»[١٧٢]. والحقيقة أن بعض الروايات الخاصة بحملة ابن سعد على سبيطلة تعبر عن عدم رضاء أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار عن قيادة ابن

---

(١٦٥) انظر فيما سبق، ص ١٥٤- ١٥٥.
(١٦٦) ابن عبد الحكم، ص ١٩١، ابن الأثير، أحداث سنة ٣١ - (٣٤)، ج٣ ص ٥٧.
(١٦٧) انظر محمد عبد الهادى شعيرة، الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية) ص ١٠٢.
(١٦٨) ابن الأثير، أحداث سنة ٣١ - (٣٤)، ج٣ ص ٥٧.
(١٦٩) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى، ج١ ص ٢٦٢ (زيوارة).
(١٧٠) عن زوارة أنظر التجانى، ص ٢٠٧، ٢١٠، وأنظر شكل ٦ ص ١٦١.
(١٧١) لقد أخذنا بهذه الرواية رغم ما يقوله بعض الكتاب منسوباً إلى الواقدى من أن ذا الصوارى وقعت فى سنة ٣١ هـ. إذ الحقيقة أن ابن سعد كان مشغولاً سنة ٣١ هـ فى حرب النوبة (أنظر ابن الأثير، أحداث سنة ٣١ - (٣٤)، ج ٣ ص ٥٧م. وابن الأثير بعد أن يضعها فى سنة ٣١ هـ هى وغزوة الأساورة (وهو يقصد الأساود - أى السودان تقريباً) يتبع ذلك بتسجيل الرواية التى تقول أنها حدثت فى سنة ٣٤ هـ. وأنظر ابن عذارى الذى ينقل ابن الأثير أو من نقل ابن الأثير عنه (ج١ ص ١٤).
(١٧٢) ابن الأثير، أحداث سنة ٣١، ج٣ ص ٥٧، وقارن فيما سبق ص ١٥٣.

سعد لهم، ولكن الأمر لم يتجاوز المعارضة الصامتة فى ذلك الوقت على ما نظن. أما فى غزوة الصوارى فالظاهر أن المعارضة أخذت ترفع من صوتها، وأن الخلل بدأ يدب فى صفوف العرب بشكل يبشر بالقطيعة التامة وينذر باندلاع شرر الفتنة. فابن سعد رفض أن يركب ابن أبى حذيفة وابن أبى بكر فى مراكبه الرئيسية حتى «ركبا فى مركب ما معهما إلا القبط، فلقوا العدو فكانا أقل المسلمين نكاية وقتالاً»، وانتهى الأمر بأن «فسد الناس بقولهما، وتكلموا ما لم يكونوا ينطقون به»[١٧٣].

وبمقتل عثمان فى أواخر سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٦م انفتحت أبواب الفتنة على مصاريعها وكان من الطبيعى أن يكون لاضطراب مركز الخلافة فى المشرق أثره على الفتوح. ففى مصر التى آلت إلى على، عزل عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى سنة ٣٦ هـ/ ٦ – ٦٥٧م[١٧٤]، وسار إلى معاوية فى الشام حيث مات بعسقلان فى نفس هذه السنة[١٧٥] وصارت الولاية إلى قيس بن عبادة الأنصارى ثم إلى محمد بن أبى بكر فى السنة التالية (٣٧ هـ/ ٧ – ٦٥٨م)[١٧٦]، ولم تستقر الأمور فى مصر إذ اضطربت بها العثمانية بقيادة معاوية بن حديج، ونجح عمرو بن العاص بمعونته فى استعادة مصر لمعاوية، بعد قتل محمد بن أبى بكر والتمثيل به فى سنة ٣٨/ ٨ – ٦٥٩م[١٧٧]. واستمرت الفتنة إلى مقتل على وخلوص الأمر تماماً لمعاوية، وعندئذ عادت الفتوح قوية من جديد فى المشرق وفى المغرب على السواء. والحقيقة أن معاوية ترك أمور المشرق لولاة العراق ووالى البصرة بصفة خاصة بينما اهتم هو بأمر المغرب والحرب مع بيزنطة، بعد أن كان قد هادن ملك القسطنطينية – أثناء الفتنة – واشترى سكوته عنه بالمال.

---

(١٧٣) ابن الأثير، أحداث سنة ٣١، ج٣ ص ٥٧. وعن احتكار المصريين لصناعة السفن فى ذلك الوقت، وامداد الأسطول المصرى بما يلزمه من المعدات والرجال من صعيد مصر، أنظر شعيرة، الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية) ص ٩٢ – ٩٣.

(١٧٤) ابن عذارى، ج١ ص ١٥.

(١٧٥) ابن الأثير، أحداث سنة ٣٦، ج٣ ص ٢٤٥، وقارن البخارى، كتاب التاريخ الكبير ط. حيدر آباد الدكن، ١٣٦١ هـ، ج٣ قسم ١ (حيث النص على أنه مات بالرملة فارا من الفتنة).

(١٧٦) ابن عذارى، ج١ ص ١٥.

(١٧٧) الكندى، الولاة والقضاة ص ٢٩، ابن عذارى، ج١ ص ١٥.

ب- معاوية بن حديج واللقاء الثانى بين العرب والروم:

مع أن عمرو بن العاص عاد إلى ولاية مصر من سنة ٣٨ هـ/ ٦٥٨م إلى سنة ٤٤ هـ/ ٦٦٤م، فلايذكر الكتاب له نشاطاً ما فى المغرب خلال هذه الفترة، وعمرو كما نعرف رجل حرب أولاً وقبل كل شئ، حتى أنه كان يقول «ما كنت بشئ أنجر منى بالحرب»(١٧٨). ولقد فسر مؤنس قلة نشاط عمرو بكبر سنه، وانشغاله بأمور المشرق، وعداء معاوية وخشيته من نشاط ما يقوم به عمرو فى افريقية(١٧٩). ونحن نرى أنه منذ غزوة عبد الله بن سعد فى افريقية أصبحت الخلافة تهتم مباشرة بأمر هذه البلاد، بمعنى أن سلطات والى مصر لم تعد مطلقة على الجيش الأفريقى. هذا ما يفهم من رواية ابن الأثير التى أشرنا إليها والتى تقول أن عثمان بن عفان عزل عبد الله بن سعد عن افريقية، وترك فى عمله عبد الله بن نافع بن عبد القيس(١٨٠). والظاهر أن الأمر ظل هكذا أيام ولاية عمرو الثانية إذ أن الكتاب يشيرون إلى غزوات قام بها العرب فى المغرب خلال تلك الفترة، ولكنها تنسب إلى غير عمرو. وأشهر أبطال الغزو بعد عبد الله بن سعد هو معاوية بن حديج السكونى(١٨١)، الذى ساعد عمرو بن العاص على استعادة مصر سنة ٣٨ هـ، والذى يقال أنه ولى إمرة مصر بعد عبد الله بن عمرو أو بعد غزو افريقية فى سنة ٤٧ هـ/ ٦٦٧م(١٨٢). أما عن تاريخ غزواته الكبيرة فى افريقية فيجعله ابن عبد الحكم، وعنه ينقل المتأخرون، فى سنة ٣٤ هـ/ ٦٥٤ - ٦٥٥م على أيام عثمان(١٨٣). ولقد شك ابن عبد الحكم فى صحة هذا التاريخ فقال عن غزوة ٣٤ هـ هذه أنها غزوة لايعرفها كثير من الناس، ثم ذكر أن لابن حديج غزوتين أخريين فى افريقية فى سنة ٤١ هـ/ ٦٦١م، وفى سنة ٥٠ هـ/

---

(١٧٨) ابن عبد الحكم، ص ١٨٠.

(١٧٩) فتح المغرب، ص ١١١.

(١٨٠) انظر فيما سبق ص ١٦٩ وهامش ١٥٨.

(١٨١) ابن عبد الحكم، ص ١٩٣ (يلقبه بالكندى)، وقارن النويرى الذى يسميه بابن خديج بالخاء وليس بالحاء، المخطوط، ص ٦٦ ب) ويلقبه بالكندى، وكذلك ابن خلدون ج٦ ص ١٠٨ ولكنه يلقبه بالسكونى.

(١٨٢) انظر البلاذرى، ص ٢٢٨ (ولى بعد عبد الله بن عمرو لمدة ٤ سنين). ابن عذارى، ج١ ص ١٨ (وليها بعد غزو افريقية وذلك فى سنة ٤٧ هـ)، وانظر فيما بعد فى أول الفصل الخاص بعقبة بن نافع.

(١٨٣) ابن عبد الحكم، ص ١٩٣، ابن عذارى، ج١ ص ١٤.

٦٧٠م[١٨٤] ورغم أن ابن عذارى يقول أن ابن حديج غزا افريقية ثلاث مرات أولها فى سنة ٣٤ هـ إلا أنه يجعل الثانية فى سنة ٤١ هـ/ ٦٥١م، والثالثة وهى الغزوة الكبرى فى سنة ٤٥/ ٦٦٥م، وهو التاريخ الذى أخذ به خليفة بن خياط ثم الرقيق وابن خلدون[١٨٥].

وهكذا نجد أمامنا مشكلة تعدد التواريخ، وهذه الظاهرة تلاحظ أيضاً عندما يتعلق الأمر بالأحداث الكبرى مثل فتح مصر ووقعة القادسية أو اليرموك. ونحن نعتقد فى وجود أساس من الصحة لهذه التواريخ جميعاً وفى عدم اصطناعها. وذلك أنه ينبغى التفرقة بين الرواية التاريخية وتحديد التاريخ: فالاصطناع شائع فى الأولى بغرض خدمة شخص لذاته أو الترويج لفكرة معينة، وهذا ما لايرجى من اصطناع التوقيت أو التحديد الزمنى إلا فى مجال ضيق، وكذلك الأمر بالنسبة لخطأ النساخ. وتعدد التواريخ هنا يعنى أحداثاً متوالية وتلك طبيعة الحرب التى تعلق بسيرها مصير أقاليم شاسعة وأمم متعددة. وحرب المغرب فى تلك المرحلة كانت أشبه ما تكون بالغزوات السنوية المعروفة بالصوائف، وهى حرب الثغور، مما يخشى معه أن تكون أحداث الحملات المختلفة قد اختلطت وتداخل بعضها فى بعض، أو أن تكون قد جمعت كلها فى غزوة واحدة. وبناء على ذلك وللتوفيق بين هذه التواريخ المتعددة، نأخذ بما قاله ابن عبد الحكم من أن حملة ابن حديج الأولى فى سنة ٣٤ هـ كانت حملة صغيرة أى «صائفة» من تلك الصوائف. ولهذا السبب لم يعرفها كثير من الناس. وربما كان مقتل معبد بن العباس فى افريقية سنة ٣٥ هـ[١٨٦] أثناءها. أما عن حملتى سنة ٤٠ هـ وسنة ٤١ هـ فنرى أنهما حملة واحدة، إذ يجوز أن تكون قد بدأت فى أواخر السنة الأولى وانتهت فى بداية الثانية. ونظراً لأن هذا الوقت يعنى بداية استقرار أمور الدولة لمعاوية، فليس من المحتمل أن تكون غزوة ابن حديج الكبرى قد وقعت فيه. وعلى ذلك يحق لنا

---

(١٨٤) ابن عبد الكم، ص ١٩٤، المالكى (عن ابن أبى العرب) ج١ ص ١٨ – ١٩. وأنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٦ – ١٩٧ (حيث يجعل معاوية ابن حديج فى المغرب سنة ٥٠ هـ، وذلك عقب كلامه عن بناء عقبة للقيروان فى نفس السنة).

(١٨٥) أنظر هذه التواريخ فى البيان المغرب، ص ١٤، ١٥، ١٦، ١٨ على التوالى وقارن تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٩٢، ابن خلدون ج٦ ص ١٠٨، وابن أبى دينار (المؤنس فى أخبار افريقية وتونس، ص ٢٤) الذى يذكر اختلاف المؤرخين فى هذا الصدد.

(١٨٦) ابن الأثير، حوادث سنة ٣٥، ج٣ ص ٩٩.

أن نأخذ بالتاريخ الذى حدده خليفة بن خياط ثم الرقيق والذى أخذ به ابن عذارى والمالكى لتحديد وقت هذه الحملة، وهو سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥م[١٨٧]، وذلك بعد وفاة عمرو بن العاص.

أما عن الدوافع التى أدت إلى قيام ابن حديج بحملته على افريقية فهى، كما ترد عند الطبرى والرقيق (كما ينقله ابن عذارى) وابن الأثير ومن ينقل عنهم، وثيقة الصلة بحملة عبد الله بن سعد - مثلها فى ذلك مثل وقعة الصوارى. فيفهم من تلك الرواية أن ملك الروم هالته الضريبة العظيمة التى دفعها أهل افريقية للعرب - فأرسل إلى أهلها قائداً (بطريقاً) «وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون، فنزل البطريق قرطاجنة، وجمع أهل افريقية وأخبرهم بما أمره الملك..»[١٨٨]. ورفض أهل افريقية أن يجيبوا الملك - كما تقول الرواية - وقالوا: «نحن نؤدى ما كان يؤخذ منا وقد كان ينبغى له أن يسامحنا لما ناله المسلمون منا»[١٨٩]. وترتب على ذلك اضطراب افريقية واشتعال نيران الفتنة بها، مما دعا بعض قوادها إلى الاستنجاد بالعرب. ومع أن ابن عبد الحكم والبلاذرى لايشيران إلى هذا الأمر فإن مسألة الحاح الدولة البيزنطية فى زيادة الضريبة على أهل الولاية بعد ما أخذه العرب منها معقولة، وكذلك مسألة استنجاد أهل البلاد فى صراعهم الداخلى بالعرب مقبولة هى الأخرى، كما سيحدث فى فتح الأندلس عندما اتخذ أبناء الملك القوطى غيطشة جانب العرب ضد المغتصب لذريق، أما ما يؤخذ على هذه الرواية، فهو تحديدها زمن عودة الروم إلى افريقية ومطالبتهم بالأموال عقب انسحاب ابن سعد مباشرة. ونعتقد أن هذا غير صحيح: فابن عذارى ينص على أن أهل افريقية نقضوا العهد سنة ٣٣ هـ/ ٦٥٣ - ٦٥٤م[١٩١]، وابن الأثير يجعل

---

(١٨٧) تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٢، ابن عذارى ج١ ص ١٦ - ١٧، المالكى ج١ ص ١٧. ونشير هنا إلى أن النص الذى نشره بروفنسال لأحد معاصرى ابن عذارى، وهو عبد الله بن صالح بن عبد الحليم، لايذكر لمعاوية بن حديج حملات فى المغرب، ولايذكر له إلا غزوة فى صقلية، ولكنه يبين أن معاوية ولاه افريقية بعد عام الجماعة (سنة ٤٠ هـ) - أنظر صحيفة المعهد المصرى فى مدريد، سنة ١٩٥٤ (ص ٢٠٢ عن شخصية صاحب النص، ص ٢١٨ عن ابن حديج).

(١٨٨) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٥، الطبرى (ذخائر العرب)، سنة ٢٧ ج٤ ص ٥٦.

(١٨٩) نفس المصدر.

(١٩٠) انظر ليفى بروفنسال، تاريخ أسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ص ١٥ وهامش ١.

(١٩١) البيان المغرب، ج١ ص ١٤.

حملة ابن حديج تحت عنوان «ذكر انتقاض افريقية وفتحها ثانية»[١٩٢].

ولما كانت الروايات تقول أن ابن حديج له حملة فى سنة ٣٤ هـ/ ٦٥٤ - ٦٥٥م، كان ذلك اثباتا للتاريخ الذى يحدده ابن عذارى. والمعقول فعلاً أن يكون الروم قد عادوا إلى افريقية على أواخر أيام عثمان، فى الوقت الذى دبروا فيه حملة ذى الصوارى بقصد مفاجأة الإسكندرية، وربما كانوا على علم بأزمة الخلافة واضطراب المشرق العربى فى ذلك الوقت[١٩٣].

بناء على ما تقدم تكون افريقية قد بقيت منقطعة عن الروم وفيه بالعهد للعرب إلى سنة ٣٣ هـ. فبعد مقتل جرجير قام بأمر الولاية أحد القواد الذى يطلق عليه اسم حباحبه أو جناحه[١٩٤]، وهو تحريف لاسم جناديه أو جناديوس (Gennadius)[١٩٥]، الذى ظل قابضاً على ناصية الأمور إلى أن تهيأت الفرصة لملك الروم فأرسل إلى افريقية قائداً من لدنه يسميه الرقيق أوليمه[١٩٦]، وربما كان تحريفاً لاسم «الوتيرة (Eluthère)»[١٩٧]. والظاهر أن بعض أهل البلاد انضم إلى جانب هذا الأخير، فقام صراع بين القائدين واتباعهما انتهى بانهزام أوليمة وطرده من البلاد[١٩٨]، ولكن الأمور لم تستقر لجناديوس إذ قام ضده قائد يسميه الرقيق الأطريون[١٩٩]. ولما وجد جناديوس أنه لايستطيع الصمود أمام خصومه، لجأ إلى الاستنجاد بالعرب، فسار إلى معاوية بالشام وشرح له أحوال افريقية وعظم له خيراتها وسهل له أمر فتحها. وقرر معاوية أن يسير حملة إلى افريقية وعهد بقيادتها إلى معاوية بن حديج. والظاهر أن معاوية سير قوات أهل الشام مع القائد الرومى نحو مصر، كما يفهم من ابن الأثير الذى يقول أن معاوية سير مع الرومى معاوية

---

(١٩٢) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٤.

(١٩٣) قارن مؤنس، ص ١١٢ (الذى يذكر نقلاً عن ديل (Diehl) أن الدولة البيزنطية لو كانت على شئ من القوة لاستعادت افريقية بسهولة).

(١٩٤) انظر ابن عذارى، ج١ ص ١٦ - ١٧ (حباحبة)، النويرى، ص ٦٧ أ (جناحة).

(١٩٥) أنظر جورج مارسيه La Berbérie et l'Orient. p. 30

(١٩٦) ابن عذارى (ينقل الرقيق) ج١ ص ١٧، النويرى المخطوط، ص ٦٦ ب.

(١٩٧) انظر جورج مارسيه G. Marçais, La Berbérie et l'Orient., p. 30.

(١٩٨) ابن عذارى، ج١ ص ١٧.

(١٩٩) ابن عذارى، ج١ ص ١٧، وقارن النويرى، المخطوط، ص ٦٧ أ (الأطريون أو الأطيلون) وربما كان المقصود أريطيون (Aretion) مثل حاكم بيت المقدس عند الفتح العربى، أنظر الباز العرينى، مصر البيزنطية، ص ٤٠٧.

بن حديج[٢٠٠] . وربما اتخذ ابن حديج الاسكندرية قاعدة لتعبئة قواته وإعداد عدته، فذلك ما يمكن أن يفهم من رواية الطبرى التى ينقلها ابن عذارى، والتى تقول أن ابن حديج سار إلى الاسكندرية فاستعمل عليها القائد الرومى جناديوس[٢٠١] . والأقرب إلى الصحة أن يكون جناديوس مات فى الإسكندرية كما يقول ابن الأثير[٢٠٢] .

وخرج ابن حديج من الاسكندرية بجيشه الذى بلغ عشرة آلاف رجل[٢٠٣]، وبصحبته عدد من المهاجرين والأنصار من أبنائهم ممن كانت لهم خبرة بالحرب فى افريقية. ومع أن ابن عبد الحكم لايذكر من هؤلاء إلا عبد الملك بن مروان، وسليمان بن يسار الذى تنسب إليه بعض الروايات عن الحملة، وجبلة بن عمرو الأنصارى[٢٠٤] ، فإننا نجد أيضاً عند غيره من المتأخرين ذكراً لعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، ويحيى بن الحكم[٢٠٥] ، وحنش الصنعانى[٢٠٦] والأكدر بن حمام اللخمى، وكريب بن أبرهة بن الصباح، وخالد بن ثابت الثقفى، وأشارف من جند مصر[٢٠٧] .

ونحن نشك فى أن يكون ابن عمر وابن الزبير بصفة خاصة قد اشتركا فى هذه الغزوة إذ لم يذكرهما ابن عبد الحكم، وربما كانت قصة اشتراكهما فيها من صنع الزبيريين، وربما كانت صدى من أصداء «غزوة العبادلة». حقيقة أن معاوية كان يرغم ابن الزبير وابن عمر وابن عباس على الاشتراك فى بعض غزواته، كما حدث عندما سيرهم مع ابنه يزيد لغزو القسطنطينية سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩م[٢٠٨] ، ولكنه يظن أنه فعل ذلك عندما استشعر خطرهم عليه، وعندما

---

(٢٠٠) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٥، النويرى، المخطوط، ص ٦٧ أ. والمطبوع (أبو ضيف) ص ١٨٤.
(٢٠١) ابن عذارى، ج١ ص ١٦.
(٢٠٢) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٥، النويرى، المخطوط، ص ٦٧ أ. والمطبوع (أبو ضيف) ص ١٨٤-١٨٥.
(٢٠٣) ابن عذارى، ج١ ص ١٦.
(٢٠٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ . وقارن تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٦ . (حيث الإشارة إلى أن معاوية هو الذى أمر مروان بن الحكم بتسيير ابنه عبد الملك على بعث المدينة إلى بلاد المغرب، وإن كان يجعل ذلك فى سنة ٥٠ هـ).
(٢٠٥) ابن عذارى، ج١ ص ١٦، وقارن المالكى، ص ١٨، النويرى، المخطوط، ص ٦٧ أ.
(٢٠٦) ابن عذارى، ج١ ص ١٨.
(٢٠٧) انظر المالكى، ج١ ص ١٨، النويرى، المخطوط، ص ٦٧ أ.
(٢٠٨) انظر ابن الأثير، أحداث سنة ٤٩، ج٣ ص ٢٣١.

كانت الحملات قريبة من رقابته. فبعد الفتنة استقر عظماء أبناء المهاجرين والأنصار هؤلاء فى الحجاز يتربصون بالأمويين، ويحاولون استرجاع ما كان لهم ولمدينة الرسول من سلطان مفقود، بينما كانت العصبية – وهى أبرز ما تكون فى الجيش – لبنى أمية وأنصارهم من أهل الشام. هذا ما يحدونا إلى الشك فى مشاركتهم فى تلك الغزوة.

ومهما يكن من أمر فقد سار ابن حديج بقواته عبر برقة وطرابلس، ولاشك فى أن سلطان العرب كان قد توطد فيهما إذ لاتذكر النصوص عمليات عسكرية هناك. ونعتقد أن الحامية العربية التى كانت مرابطة فى برقة وعلى رأسها ابنا نافع بن عبد القيس الفهرى، عقبة وعبد الله، انضمت إلى ابن حديج الذى استفاد من خبرة رجالها ومعرفتهم بطبيعة الحرب فى تلك الأقاليم[٢٠٩] – كما حدث فى حملة سبيطلة. وانتهى المطاف إلى قرب الموضع الذى نزل فيه عبد الله بن سعد (سنة ٢٨ هـ) فى منطقة قمونية، غربيها[٢١٠]. وحينما وصل ابن حديج كان الاضطراب فى افريقية قد بلغ أوجه كما تقول النصوص[٢١١].

وتذكر الروايات أن الأسطول البيزنطى كان قد أنزل حملة بقيادة أحد البطارقة واسمه نقفور (Néciphore) فى الساحل[٢١٢]، وهى المنطقة الواقعة فيما بين سفاقس وسوسة – وسميت بالساحل لكثافة غابات الزيتون فيها، التى ترى من داخل البلاد وكأن سوادها ساحل البحر[٢١٣]. ونحن لانعرف إن كانت حملة نقفور قد وصلت إلى الساحل قبل أو بعد وصول ابن حديج، وربما كان الأقرب إلى الصحة أنها أرست عقب وصوله. يفهم ذلك من الروايات التى تقول أن ابن حديج بدأ باتخاذ معسكر له فى موضع القيروان إلى جانب جبل القرن[٢١٤] وأن

---

(٢٠٩) أنظر فيما بعد ص ١٨٣ – ١٨٤ (عن غزوات عقبة فى صحراوات طرابلس وافريقية).

(٢١٠) ابن عبد الحكم، ص ١٩٣ (الكلمة هنا فى شكل قونية لم يصححها الناشر)، ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج١ ص ٤٥، النويرى، المخطوط، ص ٦٧ أ. والمطبوع (أبو ضيف) ص ١٨٥.

(٢١١) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦ ج١ ص ٤٥ (كانت ناراً تضطرم)، النويرى، ص ٦٧ أ، ابن عذارى، ج١ ص ١٦ (كانت حربا كلها).

(٢١٢) ابن عذارى، ج١ ص ١٦ (نقفور هنا مكتوبة فى شكل نجفور، وكذلك فى النويرى المخطوط، ص ٦٧ ب). والمطبوع (أبو ضيف) ص ١٨٥ (حيث اسم البطريق: «بخفور)

(٢١٣) أنظر التجانى، ص ٦٦.

(٢١٤) ابن عبد الحكم، ١٩٣.

معاوية بن حديج هو الذى أعطى للجبل هذا الاسم عندما قال لأصحابه: اذهبوا بنا إلى هذا القرن»، كما عرف هذا الجبل باسم ممطور أيضاً: لهطول الأمطار عليه عندما بلغه ابن حديج(٢١٥).

وبعد أن استقر معاوية فى معسكره أخذ يوجه السرايا، وتمكن من فتح عدد من الحصون كما حصل على غنائم عظيمة(٢١٦). وبناء على ذلك فالظاهر أن الأسطول البيزنطى كان يقصد مهاجمة المعسكر العربى عندما نزل منطقة الساحل فى سوسة، إذ المعروف أن سوسة هى ميناء القيروان(٢١٧). ونعتقد أن الروايات العربية تبالغ عندما تقول أن جيش نقفور كان يبلغ ٣٠ (ثلاثين) ألف مقاتل، وذلك أن معاوية بن حديج لم يتكلف مشقة المسير بنفسه للقاء تلك القوة الكبيرة بل أرسل إليها بعض قواته. وما أن رأى الروم القوة العربية حتى انهزموا إلى مراكبهم دون قتال(٢١٨). وهناك روايات تنسب فخر هذا الانتصار إلى عبد الله بن الزبير، وتجعل منه بطلاً أسطورياً كما كان فى فتح سبيطلة. فلقد خرج ابن الزبير من معسكر ابن حديج فى جيش كثيف وسار فى اتجاه سوسة، ونزل فى موضع استراتيجى مرتفع على بعد ١٢ (اثنى عشر) ميلاً يشرف منه على المدينة. وبعد أن انهزم نقفور ورجاله فى المراكب نزل ابن الزبير بأصحابه على الشاطئ أمام باب سوسة ومع أن العدو كان بمرأى منه فإنه أقبل على الصلاة مع أصحابه والروم يتعجبون من هذه الجرأة. وعندما فكروا فى اغتنام الفرصة، «فأخرجوا إليه جمعاً منهم كثيراً من كماتهم رجالاً وركباناً»، ظل البطل مقبلاً على صلاته لايهوله أمر العدو حتى قضى الصلاة ثم ركب وحمل على الروم بمن معه فانكشفوا منهزمين(٢١٩).

واتبع ابن حديج ذلك النصر بتحقيق انتصار آخر فاستولى على قلعة جلولاء

---

(٢١٥) خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٢، ابن عذارى، ج١ ص ١٥، النويرى، المخطوط، ص ٦٧. والمطبوع (أبو ضيف ص ٨٥.

(٢١٦) ابن عبد الحكم، ص ١٩٣.

(٢١٧) انظر ابن حوقل، ص ٧٤ (وهى من القيروان على مرحلة)، وأنظر البكرى، ص ٣٢ (على بعد ٣٤ ميلاً من القيروان)، وقارن النويرى، ص ٦٧ أ الذى يقول أن نقفور نزل على ساحل البحر بسنطبرية. والمطبوع (أبو ضيف) ص ١٨٥.

(٢١٨) ابن الأثير، سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٥.

(٢١٩) انظر البكرى، ص ٣٤ - ٣٥، ابن عذارى، ج١ ص ١٦، التجانى، الرحلة، ص ٢٧.

الحصينة، على مسيرة ٢٤ (أربعة وعشرين) ميلاً من القيروان[٢٢٠]. ولقد ضرب ابن حديج الحصار على الحصن البيزنطى الذى يعتبر من أهم حصون خط الدفاع الثانى لولاية افريقية[٢٢١] دون طائل، واستمر القتال مدة، ولحق برجال ابن حديج كثير من الخسائر «فقد جرح عامة أصحابه، وقتل منهم»[٢٢٢]. وبعد لأى سقطت جلولاء وحصل ابن حديج منها على كثير من الغنيمة والسبى[٢٢٣]. وتجعل الروايات العربية لسقوط جلولاء قصة ينسج الخيال كثيراً من خيوطها. وبطل القصة هو عبد الملك بن مروان (الخليفة فيما بعد)، أما تفصيلاتها فمزيج قريب الشبه من وقائع بابليون وطرابلس وسبيطلة. فعبد الملك خرج إلى جلولاء فى ألف رجل فلم يصنع شيئاً، وعند عودته تهدم جزء من سور الحصن فأثار غباراً شديداً، فظن عبد الملك أن العدو يتعقبهم فكر مع جماعة من أصحابه فرأى الحائط قد وقع، فدخل المدينة بغير خيل ولا رجال[٢٢٤].

وكان من الطبيعى أن يحصل ابن حديج، الذى استقر فى معسكره وأخذ يوجه سراياه نحو سوسة وجلولاء، على مغانم كثيرة. والحقيقة أن بعض الروايات تقول أنه وجه سراياه كذلك فى اتجاه بنزرت[٢٢٥]، كما تقول رواية أنه تم فتح جزيرة جربة فى ذلك الوقت، على يدى الصحابى رويفع بن ثابت الأنصارى (دفين برقة)، الذى ولاه ابن حديج طرابلس سنة ٤٦ هـ فقام بغزوته هذه سنة ٤٧ هـ/ ٦٦٧م[٢٢٦]. كما سير حملة إلى صقلية[٢٢٧] حيث أقام المسلمون

(٢٢٠) عن جلولاء انظر البكرى، ص ٣١.

(٢٢١) انظر ج، مرسيه، ص ٣١، جوليان Hist. de l'Afrique du Nord, p. 319.

(٢٢٢) انظر ابن عبد الحكم، ص ١٩٣.

(٢٢٣) نفس المصدر.

(٢٢٤) انظر عبد الحكم، ص ١٩٣، خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٦، البكرى، ص ٣٢، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ١٧، المالكى، ج١ ص ١٨، النويرى، ص ٦٧ ب. وهنا تقول الرواية أن ابن حديج كان يقاتلهم أثناء النهار ثم ينصرف إلى عسكره (قارن سبيطلة)، وأن اكتشاف تهدم السور كان مصادفة، إذ نسى عبد الملك قوساً له معلقاً فى شجرة قرب الحصن فلما عاد ليأخذه وجد جانب السور قد انهدم.

(٢٢٥) المالكى، ج١ ص ١٩ (تقول رواية المالكى أن حملة بنزرت وقعت فى سنة ٥٠ هـ، وربما كان هنا موضعها الصحيح).

(٢٢٦) انظر التجانى، الرحلة، ص ١٢٤، وقارن تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٣ (حيث ذكر غزو رويفع لانطابلس ودخوله افريقية ثم انصرافه فى نفس سنة ٤٧ هـ). (وعن رويفع وقبره فى برقة أنظر البكرى، ص ٥، المالكى، ج١ ص ٥٣، والعياشى، الرحلة، مخطوط طرابلس، ج١، ص ٨١).

(٢٢٧) انظر ابن عذارى، ج١ ص ١٦-١٧ (حيث ينقل ابن عذارى هنا عن مختصر عريب للطبرى) وص

=/=

شهراً بقيادة عبد الله بن قيس، «وعادوا إلى افريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر»[٢٢٨]. وقسمت الغنيمة وأخرج الخمس للخليفة، ووزعت الأخماس الأربعة على الرجال فأصاب الراجل ٢٠٠ (مائتى) دينار، وكان نصيب الفارس ٦٠٠ (ستمائة) دينار بحساب أن للفرس سهمين، هذا ولو أن النصوص تجعل ذلك من غنيمة جلولاء وحدها[٢٢٩]. وكانت غنائم حملة جلولاء - مثلها مثل مغانم سبيطلة - سبباً فى منازعات فى المعسكر، حتى أن ابن حديج اضطر إلى مخاطبة الخليفة فى ذلك، فرد معاوية بن أبى سفيان: أن العسكر رد للسرية»[٢٣٠]. والظاهر أن ابن حديج أراد أن يسترضى رجاله فجعل لهم نصيباً أكثر مما يستحقون إذ نفلهم «النصف بعد الخمس». ونظن أن المقصود بذلك أنه وهبهم نصف الخمس المخصص للخلافة، ورضى الناس بذلك ومن جملتهم بعض الصحابة إلا جبلة بن عمرو الأنصارى الذى أبى[٢٣١].

وهكذا انتهت حملة معاوية بن حديج بطرد القوات البيزنطية من ساحل سوسة وسقوط أهم حصون خط الدفاع الثانى فى افريقية وهو حصن جلولاء، ونشر ابن حديج سراياه فى البلاد «فسكن الناس وأطاعوا وعاد إلى مصر»[٢٣٢] محملاً بالمغانم والسبى. ويقدر ابن الأثير أعمال ابن حديج فى افريقية تقديراً عظيماً يعبر عن أنه أقر «السلام العربى» فى البلاد، فيقول: «ثم لم يزل أهل افريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك ...»[٢٣٣]. ومع أن مقالة ابن الأثير هذه تحوى فى ثناياها كثيراً من المبالغة - كما سنرى فيما بعد - إذ أن ابن حديج رجع ولم يترك والياً ولا حامية عربية فى افريقية، بل

=/=

١٨ (حيث يجعل تلك الغزوة وحدها فى سنة ٤٦ هـ وذلك نقلاً عن البلاذرى). قارن مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ١٢٦ (حيث يرجح أن يكون المقصود سنة ٢٦ هـ).

(٢٢٨) ابن عذارى، ج١ ص ١٧، النويرى، المخطوط، ص ٦٨ أ.

(٢٢٩) انظر ابن عبد الحكم، ص ١٩٣، ابن عذارى، ج١ ص ١٦ (٢٠٠ مثقال).

(٢٣٠) ابن عبد الحكم، ص ١٩٢.

(٢٣١) انظر نفس المصدر.

(٢٣٢) ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦، ج٣ ص ٤٥.

(٢٣٣) نفس المصدر.

ولم يعقد اتفاقاً ما مع أهل البلاد، تماماً كما فعل عبد الله ابن سعد بن أبى سرح[٢٣٤]، فإنها تعبر عن أهمية هذه الحملة. وتتلخص تلك الأهمية فى أن بلاد افريقية أصبحت أرضاً مألوفة بالنسبة للعرب ولم تعد أرضاً مخوفة «غادرة مغدور بها» كما كان الحال من قبل. وأكثر من هذا فإنها أصبحت بالنسبة للعرب أرض المغانم والأسلاب والسبى، أرض أكوام الورق وقناطير الذهب والسبايا الجميلات، التى ينبغى أن تكون جميعاً من أقصاها إلى أقصاها - وليس أطرافها الشرقية فقط - أرض العروبة والإسلام. وهذا ما سيقع على عاتق رجال جديرين بالقيام بمثل هذه الأعمال الجليلة، من أهل الحرب والإدارة. وأول هؤلاء وأشهرهم هو عقبة بن نافع الفهرى.

(٢٣٤) انظر فيما سبق ص ١٦٧ - ١٦٨ وهامش ١٥٠، ص ١٦٨ و هـ ١٨٩.

الفصل الثانى
الاستقرار والفتح الدائم
(٥٠ - ٩٥هـ/ ٦٧٠ - ٧١٣م)
عقبة بن نافع

المرابط الأول فى المغرب:

رجع معاوية بن حديج إلى مصر سنة ٤٧ هـ/ ٦٦٧م على ما نظن: فرغم أن أحداً من الكتاب لايشير إلى تاريخ عودته فهناك رواية تقول أن معاوية بن أبى سفيان ولاه مصر فى تلك السنة[١]. ومع أن هذا ليس بصحيح إذ أن الذى ولى مصر فى سنة ٤٧ هـ هو مسلمة بن مخلد[٢]، فنحن نرى أن تلك الرواية تعنى نجاح حملة ابن حديج على افريقية، وأن فكرة ولايته مصر فى تلك السنة تعنى مكافأته أو تقدير الخليفة لذلك النجاح. وهكذا إذا تركنا النص جانبا أمكننا الاستفادة من التاريخ كتوقيت لعودة ابن حديج من افريقية[٣]. ورغم النجاح الذى حققه العرب فى المغرب حتى ذلك الحين، فإن العمليات الحربية التى قاموا بها لم تكن سوى غارات بعيدة المدى، الهدف منها الاستكشاف والحصول على المغانم والسبى، إلى جانب العمل على نشر الإسلام وطلب الاستشهاد. أما عن الحملة التالية التى قادها عقبة بن نافع فكانت لها نتائج مختلفة، وذلك أن عقبة رسم لنفسه برنامجاً للعمل يرمى إلى تحقيق أهداف أبعد من كل أهداف سابقيه. وتتلخص خطته أولاً فى تثبيت أقدام العرب فى المغرب - وهذا وسيلة - من أجل تحقيق الهدف الثانى - وهو الغاية - وهو نشر الإسلام وألا يعبد فى الأرض سوى الله. وهكذا يظهر عقبة بن نافع بمظهر المجاهد العربى النموذجى: فهو المحارب العابد، والحرب هى الجهاد الأصغر والعبادة هى الجهاد الأكبر - جهاد النفس.

وكان اختيار معاوية بن أبى سفيان لعقبة بن نافع لولاية حرب افريقية وضعاً للشئ فى موضعه الصحيح. فعقبة من أوائل جند افريقية إذ دخل برقة مع عمرو

(١) أنظر ابن الأثير، أحداث سنة ٤٧، ج٤ ص ٢٣٠، ابن عذارى، ج١ ص ١٨.

(٢) رواية الكندى هى أوثق الروايات فيما يتعلق بالحوليات المصرية (أنظر الولاة والقضاة ص ٣٨).

(٣) قارن مؤنس، ص ١٣٧. الذى يفترض أن عقبة بدأ غزو افريقية سنة ٤٩ هـ، فيكون ابن حديج قد رجع إلى مصر فى أوائل سنة ٤٨ هـ.

بن العــاص سنة ٢٣ هـ/ ٤٣ - ٦٤٤م وظل مــرابطاً هناك منذ ذلك الوقت. وخلال إقامته التى بلغت حوالى ربع قرن من الزمان فى هذا الثغر، كان عقبة بن نافع دائب الجد والاجتهـاد فى العمل على توطيد قواعد العروبة والإسـلام. والحقيقة أنه ينسب إلى عقبة القيام بكثير من الفتوحات والغزوات، كما تجعل الروايات منه بطلاً أسطورياً فى بعض الأحيان، وقطباً عارفاً فى بعض الأحيان، فهو «عقبة المستجاب».

١- غزوات عقبة فى صحراوات طرابلس وافريقية:

دخل عقبة المغرب مع ابن خالته عمرو[٤]، وكـان فى ذلك الوقت فى بداية مراحل الشباب، فى حدود الرابعة عشرة من عمره[٥]. ولهذا السبب رأينا أنه ربما كان فى صحبة والده نافع بن عبد القيس الذى سار لحرب النوبة مع عبد الله بن سعد، وأنه ربما دخل برقة عن طريق الصعيد أو الفيوم[٦]. ويتفق جميع الكتاب على أن عقبة - وهو فى هذه السن المبكرة - فتح كل البلاد ما بين برقة وزويلة فأصبحت جميعاً للإسلام[٧]. ولكننا نخشى أن يكون الأمر قد اختلط على الرواة فمزجوا بين أحداث هذا الوقت المبكر وما قام به عقبة فيما بعد، وهذا ما لاحظه مؤنس بصـدد رواية البـلاذرى التى تتكلم عن تنظيم عقبـة للضـرائب فى تلك الأقاليم[٨]. وبقى عقبة فى برقة مجاهداً بعد عودة عمرو إلى مصر، وعندما سار عبد الله بن سعد إلى افريقية سنة ٢٧ هـ انضم إليه عقبة[٩]، ولكننا لانعرف الدور الذى قام به فى تلك الغزوة. وبعد عزل عبد الله بن سعد عن قيادة جند افريقية سنة ٢٩ هـ. آلت هذه القيادة إلى عبد الله بن نافع أخى عقبة[١٠]. والظاهر أن عقبة بقى مع أخيه مرابطاً فى افريقية، إن لم يكن المقصود بذلك هو عقبة نفسه. ومنذ ذلك الحين وإلى سنة ٤١ هـ/ ٦٦١هـ، لايذكر الكتاب شيئاً عن عقبة

(٤) أنظر ابن الأثير، سنة ٤١ ج٣ ص ٢١٢. تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٨٩.
(٥) يقول ابن عذارى (ج١ ص ١٩) أن عقبة ولد قبل وفاة الرسول بسنة واحدة.
(٦) أنظر فيما سبق (عن فتح برقة وفزان)، ص ١٤١ - ١٤٢
(٧) أنظر فيما سبق، ص ١٤٣.
(٨) أنظر مؤنس، ص ١٣٤، وفيما سبق، ص ١٤٢ - ١٤٣.
(٩) أنظر فيما سبق، ص ١٥٧.
(١٠) أنظر فيما سبق، ص ١٦٩ وهامش ١٥٨.

ونظن أنه «كان مقيماً ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو»، كما تقول الرواية التى يأخذ بها ابن الأثير[١١].

ففى سنة ٤١ هـ بعث عمرو بن العاص - بعد أن آلت إليه ولاية مصر من جديد - جيشاً على رأسه عقبة لغزو لواته فهزمهم أكثر من مرة فى نواحى برقة وطرابلس، وفرض عليهم شروطاً قاسية منها: «إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بعناكم» كما يفهم من رواية الكندى، بمعنى أنهم عقدوا عهدهم هذا بعد أن نقضوا، وهو ما ينص عليه خليفة بن خياط[١٢]. والحقيقة أن عمرو بن العاص كان قد غزا لواته فى العام السابق سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠م على يدى شريك بن سمى الغطيفى[١٣] وأتبع ذلك بغزو مزاته، وألحق بهم الهزيمة أكثر من مرة[١٤]، ثم فتح غدامس فى سنة ٤٢ هـ/ ٦٦٢م ثم غزا هوارة فى سنة ٤٣ هـ/ ٦٦٣م، كما افتتح فى هذه السنة كورا من كور السودان[١٥]، وانتهت هذه الغزوة فى أواخر تلك السنة عندما كان عمرو مريضاً مرضه الذى مات فيه[١٦].

ورغم أن النصوص لاتشير إلى عقبة بن نافع أثناء الحملة الكبيرة التى قام بها معاوية بن حديج فى افريقية سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥م نرى أن عقبة شارك فى العمليات العسكرية مشاركة فعالة تشبه من وجهة النظر الاستراتيجية تلك التى قام بها مع عمرو. فكما حدث أن عمراً اتجه إلى طرابلس لفتح الأقاليم الشمالية، وسيّر عقبة نحو زويلة لفتح الأقاليم الجنوبية، تذكر النصوص أن عقبة بن نافع قام بحملة كبرى فى الصحراوات الجنوبية، فى فزان وما وراءها من الواحات، فى سنة ٤٦ هـ/ ٦٦٦م فى الوقت الذى كان معاوية بن حديج يفتح الأقاليم الشمالية

---

(١١) ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠، ج٣ ص ٢٣٤.

(١٢) الولاة والقضاة، ص ٣٢، وقارن تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٨٩ (حيث النص على أن عمرو بن العاص ولى عقبة بن نافع افريقية سنة ٤١ هـ وأن عقبة غزا تلك السنة لويبة ومراقية لأنهم كفروا بعد الطاعة).

(١٣) أنظر الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٢ (وينسب لشريك بن سمى أيضاً غزو لبدة سنة ٤٣ هـ/ ٦٦٣م). وانظر فيما بعد ص ١٧٩ (حيث يلقب ابن عبد الحكم شريك بن سمى «بالمرادى»).

(١٤) ابن الأثير، أحداث سنة ٤١، ج٣ ص ٢١٢.

(١٥) نفس المصدر، وأنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٠ (حيث الإشارة إلى فتح ودان بعد فتح كور السودان).

(١٦) الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٢ - ٣٣.

فى سوسة وبنزرت. ومع أن ابن عبد الحكم ومن نقل عنه مثل البكرى[17]، يجعلون بدء هذه الحملة بداية لولاية عقبة لافريقية ومسيره لبناء القيروان، فإن الأقرب إلى الصحة أن تكون حملة سنة ٤٦ هـ غير حملة سنة ٥٠ هـ - التى بنيت فيها القيروان، كما يتفق على هذا الحدث الأخير أهل الثقة من الكتّاب[18]. والحقيقة أن رواية ابن عبد الحكم كما نرى تشتمل على معلومات عن الحملتين جميعاً، وبناء على ذلك فلا داعى لتخطئه تاريخ ابن عبد الحكم ومحاولة تصحيح سنة ٤٦ هـ/ ٦٦٦م بسنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩م كما فعل مؤنس[19]، فطبيعة حرب الثغور كانت تتطلب القيام بحملات سنوية هى المعروفة بالصوائف - كما سبقت الإشارة.

ولا عبرة بما يشير إليه الكتّاب تعميماً عندما يقولون أن الأمن والهدوء عمّ برقة وطرابلس وأن «السلام العربى» عم افريقية إلى أيام هشام بن عبد الملك. فالاضطراب فى مركز الخلافة كانت له آثاره فى المغرب، ولهذا السبب توالت الصوائف كما شهدنا فى سنة ٤٠ هـ وسنة ٤١ هـ، وسنة ٤٢ هـ، وسنة ٤٣ هـ ثم حملة ابن حديج سنة ٤٥ هـ. وبناء على ذلك فليس هناك ما يدعو إلى عدم قبول قيام حملة عقبة بن نافع فى الصحراوات الجنوبية فى سنة ٤٦ هـ/ ٦٦٦م كما يقول ابن عبد الحكم، وذلك قبل توليته قيادة الحرب فى افريقية سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠م، وبنائه مدينة القيروان فى تلك السنة (أو التى تليها). وهذا الأمر الأخير هو الذى أخذ به ابن الأثير نقلاً عن ثقات «أهل التاريخ من المغاربة»، ونظن أنه يقصد إبراهيم بن القاسم الرقيق الذى ينقله ابن عذارى فى بيانه[20]. وهذا يعنى إذن أنه فى الوقت الذى كان معاوية بن حديج يعمل على فتح سواحل قابس وسوسة وبنزرت، كان عقبة بن نافع يجول فى صحراوات طرابلس وافريقية الجنوبية. يؤدب القبائل الثائرة ويخضعها بشكل ثابت لدولة العرب، ويعمل على إدخالها فى الإسلام بصفة نهائية.

---

(١٧) ابن عبد الحكم، ص ١٩٤، ١٩٦، البكرى، ص ١٢، ١٤.

(١٨) تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٧، ابن الأثير، سنة ٥٠، ج٣ ص ٢٣٤، ابن عذارى، ج١ ص ٢٠ (سنة ٥١ هـ)، الاستقصا، ج١ ص ٦٩.

(١٩) فتح العرب لمغرب، ص ١٣٧.

(٢٠) أنظر ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠ هـ، ج٣ ص ٢٣٤، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ١٩.

وكان عقبة على رأس سرية صغيرة، ولاعبرة هنا بما يقال من أن عقبة ترك جيشه واستخلف عليه عمر بن على القرشي وزهير بن قيس البلوى[٢١]. فليس من المعقول أن يترك عقبة جيشه الكبير دون عمل مدة خمسة أشهر بينما يذهب هو - القائد الأعلى - فى غزوة فرعية يمكن أن ينوب عنه فيها أحد قواده، والأقرب إلى الصحة أن يكون عقبة هو أمير هذه الغزوة الفرعية. أما استخلافه لعمر القرشي وزهير البلوى فكان على القيروان عندما قام بحملته الكبرى سنة ٦٢ هـ/ ٦٨٠ - ٦٨٢م، كما سنرى فيما بعد[٢٢].

وخرج عقبة من مغمداس من أرض سرت [٢٣] ومعه ٤٠٠ (أربعمائة) فارس، وبصحبته قائدان من خبراء حرب الصحراء، هما: بسر بن أبى أرطأة (الذى سبق له غزو ودان أيام عمرو الأولى)، وشريك بن سمى المرادى[٢٤] (الذى اشترك مع عقبة فى غزو قبائل طرابلس فيما بين سنة ٤٠ هـ وسنة ٤٣ هـ). واستعد عقبة لعبور الصحراء المقفرة فجهز ٤٠٠ (أربعمائة) بعير تحمل الأثقال و٨٠٠ (ثمانمائة) قربة ماء (على كل بعير قربتان). وخرجت الصائفة الصحراوية من مغمداس مخترقة بلاد هوارة[٢٥] فى اتجاه ودّان حيث يبلغ النفوذ العربى منتهاه. وأعلنت قبائل المنطقة خضوعها[٢٦]، ورغم ذلك فإن عقبة أخذ شيخ المدينة أو ملكها كما يقول النص، فجدع أذنه. وعندما احتج الرجل وذكّر عقبة بأن هناك عهداً بينه وبين المسلمين[٢٧]، أفهمه عقبة أن ذلك أدب له حتى لايفكر فى

---

(٢١) ابن عبد الحكم، ص ١٩٤.

(٢٢) يؤيد ما نذهب إليه ما ينص عليه المالكى (ج١ ص ٢٢) من استخلاف عقبة لعمر القرشي وزهير البلوى أثناء حملته فى المغرب الأقصى (أنظر فيما بعد ص ٢٠٢).

(٢٣) ابن عبد الحكم، ص ١٩٤، وقارن البكرى، ص ١٣ (يقول غدامس) وكذلك الاستبصار ص ١٤٧ (غدامس).

(٢٤) ابن عبد الحكم، ص ١٩٤، وقارن البكرى، ص ١٣ (حيث يسميه شريك ابن سحيم المرادى). انظر مؤنس، ص ١٣٥ (الذى يكتب لقبه المراضى) وفيما سبق، ص ١٨٥ وهامش ١٣ (حيث يلقبه الكندى بالغطيفى وليس بالمرادى).

(٢٥) أنظر البكرى، ص ١٢.

(٢٦) أنظر ابن عبد الحكم، ص ١٩٤، البكرى، ص ١٣ (يقول النص هنا أنه افتتحها بينما يفهم من بقيته أن أهلها لم يقاتلوا المسلمين لأنه كان بينهم وبينهم عهد). وقارن تاريخ خليفة بن خياط. ج١ ص ١٩٠ (حيث يجعل فتح ودان هذا بعد غزو كور السودان سنة ٤٣ هـ).

(٢٧) ابن عبد الحكم، ص١٩٤ (القراءة هنا: «وقد عاهدتنى»)، قارن البكرى، ص ١٣ (القراءة: «وقد عاهدنى المسلمون» وهو ما أخذنا به رغم أن ابن عبد الحكم يريد الإشارة إلى فتوح عقبة الأولى فى فزان.

حرب العرب. وأخذ عقبة الضريبة المفروضة على ودان وهى ٣٦٠ (ثلاثمائة وستون) رأساً، والمفهوم أنها كانت من العبيد، خاصة وأن بلاد فزان تعتبر باب السودان من حيث يجلب الرقيق، وهذا ما ستبينه نفس النصوص بعد ذلك مباشرة. وسأل عقبة عما وراء ودان من البلاد فدله أهل المنطقة على مدينة جرمة (عاصمة الجرمنتيين Garamantes القديمة، وقاعدة فزان وقتئذ)، فسار إليها ووصلها بعد مسير ثمانى ليال. ونزل على بعد ستة أميال من المدينة، ودعا أهلها إلى الإسلام فأجابوه، وخرج زعيم المدينة (أو ملكها كما تقول الرواية) راكباً للقاء عقبة الذى أرسل بعض فرسانه فأنزلوا الرجل من ظهر مطيته وأمشوه، فما وصل الزعيم الجرمى الناعم إلى عقبة حتى كان يبصق الدم. وعندما احتج الرجل على تلك المعاملة العنيفة مع أنه أتى طائعاً، رد عليه عقبة مثل رده على زعيم ودان، كما فرض على الجرمنتيين ضريبة مماثلة لما كان يدفعه أهل ودان أى ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين عبداً)[٢٨].

والظاهر أن المغانم والسبى بلغت من الكثرة درجة جعلت عقبة يوجهها إلى المشرق كما يقول ابن عبد الحكم[٢٩]. وربما أرسلها إلى مركز قيادته فى مغمداس أو إلى ابن حديج فى افريقية. وكان خضوع جرمة يعنى خضوع جميع الواحات الحصينة (القصور) بالإقليم فافتتحها عقبة واحدة بعد الأخرى[٣٠]. وسأل عقبة عن الأقاليم الواقعة فيما وراء فزان فأخبره الأدلاء عن اقليم كوار، وعاصمته خاوار[٣١]، وهى مدينة صحراوية جيدة التحصين (قصر عظيم)، على ظهر جبل فى أول الصحراء الكبرى (المفازة). وتطلبت الرحلة إليها ١٥ (خمس عشرة) ليلة. وضرب عقبة الحصار على المدينة التى امتنعت عليه مدة شهر. وهنا رأى أن يقوم بجولة فى الاقليم لاخضاع الواحات الأخرى فتم له ذلك. ووجد

(٢٨) ابن عبد الحكم، ص ١٩٥، وقارن البكرى، ص ١٣ (والنص هنا يقول عن الضريبة أنها ٣٦٠ عبداً وليس رأساً. ولا بأس فى ذلك إذا كان صلح عمرو مع أهل برقة سمح بأن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم (أنظر فيما سبق، ص ١٣٩).

(٢٩) ابن عبد الحكم، ص ١٩٥.

(٣٠) ابن عبد الحكم، ص ١٩٥، البكرى، ص ١٣. وعن كلمة القصور ومفردها قصر (Castra) أى حصن،شعيرة، الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية)، ص ٦٤، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية ط ١٩٦٠، ج٢ ص ٥٢ وهامش ٧.

(٣١) أخذنا بقراءة ابن عبد الحكم، ص ١٩٥، قارن البكرى ص ١٣ (حيث القراءة: جاوان).

شيخ الاقليم (ملكه) فى آخر قصر من القصور «وأدبّه» بأن قطع أصبعه، حتى يتذكر فلا يفكر فى الخروج على طاعة العرب. وكذلك فرض على واحات كوار ضريبة قدرها ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) رأساً. وعرف الأدلاء عقبة أنهم لايعرفون بلاداً أخرى بعد كوار إلا خاوار، فقرر عقبة أن يحتال فى أخذها. ففى طريق العودة مرّ بالقصر الحصين دون أن يعرض له، وسار مسافة ثلاثة أيام حتى أطمأن أهله.وأقام عقبة وأصحابه بعض الوقت فى موضع يسميه الكتاب «ماء الفرس»، إذ ينسب إلى فرس عقبة اكتشاف صفاة ماء فى هذا المكان، وقت أن كانت السرية تعانى من الجهد والعطش[٣٢]. وبعد أن استراح الرجال ورويت الدواب، قرر عقبة مفاجأة أهل خاوار بعد أن شغلوا بأعمالهم وتركوا الحذر، فسار إليهم «من غير طريقه التى أقبل منها فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً، فوجدهم مطمئنين قد أمنوا». وفتحت المدينة عنوة، وأنزل عقبة بالمدينة المتمردة عقوبة رادعة تجعلها مثلاً لغيرها، فقتل المقاتلة وسبى الذرارى والنساء، وأخذ الأموال. وهكذا انتهت أول جولة كبرى فى صحراوات جنوب طرابلس، ورجع عقبة محملاً بالمغانم والسبى إلى قاعدته الأولى فى مغمداس، ماراً بزويلة، بعد خمسة أشهر[٣٣]. وكان من نتائج تلك الغزوة تثبيت سلطان العرب فى الصحراء، ونشر الإسلام بين قبائل البربر هناك.

وبعد أن استراح عقبة وأصحابه بعض الوقت فى منطقة سرت حتى ضمرت خيولهم وأبلهم[٣٤] قام بحملة أخرى فى جنوب البلاد التونسية (بلاد الجريد). وعلى ذلك لم يتخذ الطريق الساحلى الرئيسى المعروف بـ «الطريق الأعظم»[٣٥]، أو «الجادة»[٣٦] فى مسيره غرباً بل انحرف عنه جنوباً واخترق أرض مزاته، وأخضع كل واحاتها ثم اتجه نحو قفصة وافتتحها واتبع ذلك بكل المنطقة وهى بلاد قسطيلية ثم انصرف إلى القيروان.

وفتح قفصة هذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حملة عقبة هذه تعتبر فرعاً لحملة

---

(٣٢) عن ماء الفرس، أنظر البكرى، ص ١٤، الاستبصار، ص ١٤٦ - ١٤٧، ابن أبى دينار، المؤنس، ص ٢٧ (يسمى الموضع «عين الفرس» بدلاً من «ماء الفرس».

(٣٣) ابن عبد الحكم، ص ١٩٥ (النص يقول هنا: حتى قدم على عسكره)، البكرى. ص ١٣.

(٣٤) ينسب ابن عبد الحكم (ص ١٩٦). ذلك إلى الجيش الكبير الذى سيقوده عقبة فيما بعد سنة ٥٠ هـ. أما البكرى (ص ١٤) فلا يشير إلى ذلك.

(٣٥) ابن عبد الحكم، ص ١٩٦.

(٣٦) البكرى، ص ١٤.

ابن حديج سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥م. فالكتاب يشيرون إلى أن ابن حديج سير سرية افتتحت قفصة وقسطيلية ولايذكرون قائدها، بينما ينصون على أن ابن حديج كان قائماً فى معسكره فى موضع القيروان ويبث السرايا. ولاينبغى أن نخدع هنا بكلمة «القيروان» وذلك أن معناها موضع العسكر مثلها مثل كلمة «الفسطاط»، فالكتاب عندما يتكلمون عن حملتى عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج يذكرون أنهما لم يتخذا بافريقية قيروانا[٣٧]، ولو أن بعضهم كما نرى سمى معسكر ابن حديج بالقيروان. وعلى ذلك يكون عقبة قد عاد إلى معاوية بن حديج فى معسكره بجوار جبل القرن بالقرب من موضع القيروان.

ونحن نرى أن عقبة عاد بعد ذلك إلى المشرق مع ابن حديج سنة ٤٧ هـ/ ٦٦٧م قبل أن يعهد إليه معاوية بن أبى سفيان بولاية افريقية سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠م. ومن هنا جاء الخلط بين غزوة عقبة فى سنة ٥٠ هـ وغزوة ابن حديج فقال ابن عبد الحكم وخليفة بن خياط ومن نقل عنهما أن ابن حديج غزا افريقية فى سنة ٥٠ هـ[٣٨]، ولو أنهم لايشيرون إلى تفصيلات ما عن هذه الحملة. ومن هنا جاء الخلط أيضاً بين عقبة بن عامر الجهنى وعقبة بن نافع، فابن الأثير يقول فى أحداث سنة ٤٩ هـ «وفيها كانت غزوة عقبة بن نافع البحر فشتى بأهل مصر»[٣٩]، والحقيقة أن المقصود بذلك هو عقبة بن عامر الجهنى الذى آلت إليه القيادة البحرية فى مصر بعد أن عزله معاوية بمسلمة بن مخلد سنة ٤٧ هـ/ ٦٦٧م وأمره بالغزو فى البحر بأهل مصر[٤٠]، وهذا ما يقوله ابن الأثير نفسه فى أحداث سنة ٤٨ هـ/ ٦٦٨م[٤١].

٢- ولاية عقبة وبناء القيروان:

ولقد حق لابن الأثير أن يأخذ بما ذكره المؤرخون المغاربة - «وهم أخبر

(٣٧) أنظر فيما سبق، ص ١٦٧ وهامش ١٥٠، ص ١٧٤ و هـ ١٨٩، ص ١٨٠.
(٣٨) أنظر فيما سبق، ص ١٧٢ و هـ ١٨٤.
(٣٩) ابن الأثير، أحداث سنة ٤٩ هـ، ج٣ ص ٢٣١.
(٤٠) أنظر الكندى (ص ٣٨) الذى يقول أنه سار لغزو رودس وخرج من الإسكندرية.
(٤١) ابن لاثير، أحداث سنة ٤٨، ج٣، ص ٢٣٠.

بلادهم، كما يقول (ولو أنه لم يذكر أسماؤهم) - من أن ولاية عقبة بن نافع لافريقية كانت فى سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠م. والظاهر أن معاوية بن أبى سفيان عرف للرجل جهاده وحسن بلائه بالمغرب فى سبيل العروبة والإسلام، فكافأه بأن جعل له قيادة الجيش العربى الافريقى بعد أن ظل قائداً مرؤساً لمدة طالت إلى أكثر من خمس وعشرين سنة. وتتركز أهمية ولاية عقبة هذه فى الحملة التى قام بها فى تلك السنة. والتى انتهت بتأسيس عاصمة عربية جديدة لولاية افريقية هى مدينة القيروان. وهذا ما أشار إليه كتاب المغاربة الذين نقل عنهم ابن عذارى، وهو ما تنبه إليه ابن الأثير الذى جعل موضوع تلك الحملة هو بناء القيروان فقط وبيان أهمية هذا الحدث. فعندما استعمل معاوية فى سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م عقبة بن نافع على افريقية، سير إليه عشرة الاف فارس، منهم ٢٥ (خمسة وعشرون) من الصحابة، كما ذكر بعض المحدّثين[٤٢]، وسائرهم من التابعين كما تنص رواية ابن عذارى[٤٣]. وازدادت قوات عقبة بمن انضم إليها من البربر الذين دخلوا فى الإسلام[٤٤]. وكان عقبة عسكرياً عنيفاً فى سياسته، كما رأينا من قبل - إذ يقول ابن الأثير أنه وضع السيف فى أهل البلاد، لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم منهم[٤٥]، وهذا يعنى أنه قام بجولة فى البلاد التى سبق أن أخضعها من قبل. والحقيقة أنه يمكن القول أنه قام فى ذلك الوقت باعادة اخضاع الجنوب التونسى عبر قفصة وقسطيلية أى المنطقة التى كان قد فتحها عقب جولته الكبرى فى صحراوات فزان وودان[٤٦].

والظاهر أن ظروف العرب كانت مواتية إذا اضطربت أحوال بيزنطة بعد مقتل قسطنطين الثانى، وانشغال خليفته قسطنطين بوجونا (Pogonat) بالصراع ضد أحد المتغلبين فى صقلية، مما دعا إلى استدعاء معظم القوات البيزنطية الموجودة

---

(٤٢) أنظر أبو العرب، طبقات علماء افريقية، ص ١٧.

(٤٣) البيان المغرب، ج١ ص ٢٠ (١٨ ثمانية عشرة من الصحابة، النويرى: المخطوط، ص ٦٨ ب).

(٤٤) النويرى، المخطوط، ص ٦٨ أ.

(٤٥) ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠، ج٣ ص ٢٣٤.

(٤٦) أنظر الصفحات السابقة و ص ١٨٥ - ١٨٦.

في المغرب. وربما يفسر ذلك فعلاً عدم لقاء عقبة لمقاومة نذكر في حملته التأديبية هذه[٤٧]. وهكذا عندما وصل إلى الموضع الذى كان معاوية بن حديج قد أقام فيه معسكره، فكر في إقامة مدينة عربية تكون قاعدة أمامية للفتوح العربية في المغرب، ومركزاً لنشر العروبة والإسلام[٤٨]، وذلك جرياً على السياسة التى ابتدأها العرب في المشرق عندما انشأوا الكوفة والبصرة في العراق ثم الفسطاط في مصر. واستشار عقبة أصحابه في بناء مدينة لهم حتى يستقر الأمر للعرب ولايعود أهل البلاد إلى العصيان. ولقيت الفكرة قبولاً من العسكر بل أن مستشارى عقبة بلغوا في حماسهم إلى درجة أنهم «اتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين فيها، وقالوا نقربها من البحر ليتم الجهاد والرباط»[٤٩]. ولم يوافق عقبة – رغم ما عرف عنه من الجرأة التى تبلغ حد التطرف – على هذه الفكرة المتهورة، وبيّن لأصحابه خطورة الرباط على ساحل البحر خشية الروم. وأخيراً تم الاتفاق على أن تكون بعيدة عن الساحل خشية الأسطول البيزنطى، وكذلك غير متوغلة في الداخل خشية البربر، واختير الموضع قريباً من السبخة حيث يمكن أن ترعى الإبل في أمان[٥٠]. وهكذا بنيت المدينة في موضع استراتيجى أولا وقبل كل شئ، فكانت طبيعتها تختلف عن طبيعة غيرها من المدن. فوضعها العسكرى الخاص في نهاية الطريق الممتد من مصر إلى افريقية[٥١] جعل منها شبه مدينة اصطناعية. وهذا ما يفسر كيف أنها بعد أن عظمت وأصبحت كبرى مدن الغرب، عادت إلى وضعها الطبيعى (وضع سبيطلة أو الجم) مدينة اقليمية، بينما استعادت مدينة تونس (قرطاجنة الحديثة) مكانتها كعاصمة البلاد الافريقية.

وكان بناء المدينة موضوع كرامة عجيبة تنسب إلى عقبة بن نافع. ويفهم من هذه القصة أنه كان بالموضع شعراء وشجر كثيف – وهذا أمر مقبول فمنطقة القيروان عرفت بغابات الزيتون الوحشى حتى قيل أن القيروانيين كانوا يحتطبون الدهر من زيتونها فلا يتأثر[٥٢] – تسكنه سباع الأرض من الحيوانات والحشرات

---

(٤٧) أنظر جورج مارسيه، ص ٣١.

(٤٨) أنظر ابن عذارى، جـ١ ص ٢٣٤ (أراد أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم).

(٤٩) الاستبصار، ص ١١٣ والهامش ١.

(٥٠) الاستبصار، ص ١١٣ – ١١٤.

(٥١) أنظر. Despois. La Tunisie Orientale ..., Paris, 1940, p. 165

(٥٢) البكرى، ص ٢٦.

والهوام. وعندما لفت أصحاب عقبة نظره إلى خشيتهم من المقام فى هذا الموضع الموحش، دعا عقبة السباع والحشرات - باسم صحابة رسول الله - إلى مغادرة المكان، فحدثت المعجزة وخرجت السباع تحمل صغارها، والذئاب تحمل أجراءها، والحيات تحمل أولادها[٥٣]. ولقد وجدنا فى كتاب «فتوح افريقية» المنسوب للواقدى - رغم ما يحويه من أخطاء وأساطير - تفسيراً منطقياً لتلك الكرامة نعتقد أنه أصلها التاريخي: فعقبة قبل أن يبدأ البناء رأى أن ينظف المكان مما فيه من الأشجار والأشواك فأطلق فيه النار[٥٤]. وهذا ما يحدث إلى اليوم عندما يراد تنظيف مكان مما فيه من الحشائش والأشواك حتى لاتعود إلى الإنبات مرة أخرى، وذلك أسهل وأكثر جدوى مما تقول به الروايات الأخرى من أنه قطع الأشجار[٥٥] وكان من الطبيعى أن تفزع الحيوانات والحشرات هاربة من الموضع، وذلك ما يشاهد إلى الآن عندما تشتعل النار فى غابة من الغابات أو إحدى القرى، وكثيراً ما تصيب النار بعض هذه الحيوانات أو الطيور فتنطلق لتزيد من رقعة الحريق[٥٦].

وحسب الطريقة التى أصبحت تقليدية فى بناء المدن العربية، منذ بناء الكوفة والبصرة والفسطاط، بدء ببناء المسجد الجامع ودار الإمارة ثم قسمت الأرض المحيطة بهما على القبائل والناس لبناء الدور والمساكن، وكذلك المساجد الخاصة. والظاهر أن موضوع المدينة ودار الإمارة والمسجد وأى منها بنى قبل الآخر كان

(٥٣) ابن عبد الحكم، ص ١٩٦ - ١٩٧، الطبرى، أحداث سنة ٥٠ هـ، البلاذرى، ص ٢٢٨، ابن الأثير، سنة ٥٠ ج٣ ص ٢٣٤، تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ١٩٥.

(٥٤) فتوح افريقية، طبعة تونس، ص ١٣، وأنظر للمؤلف، مجلة كلية الآداب، اسكندرية ١٩٦٣، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ...، ص ١٩ - ٢٠. وقارن ابن الأثير، أسد الغابة، طبعة ١٢٨٦، ج٣ ص ٤٢١ (فأمر بقطع تلك «الأشجار» واحراقها)، وأنظر الرحلة الورثيلانية، تصحيح محمد بن أبي شنب، ط٢، سنة ١٩٧٤، ص ٩٤.

(٥٥) أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٢٣٤.

(٥٦) قارن حسين مؤنس الذى يأخذ برواية المالكى «(ج١ ص ٢١) والنويرى (ص ٦٩ ب) التى تقول أنه كان فى الموضع كنيسة أو قصر خرب قديم (قمونية) فيظن أن هذا القصر كان مسكونا بالحيوانات الوحشية التى فزعت عندما سمعت صوت جلبة الجيش (فتح العرب للمغرب، ص ١٤٢). ولقد كان من الطبيعى أن تعظم الأسطورة مع مرور الوقت، فبعد أن ظهرت قصيرة كما فى الطبرى (أحداث سنة ٥٠) ازدادت بصفة خاصة فى تراجم العباد الزهاد (أبو العرب، ص ٨، المالكى ٧، ٢٠) وظهرت لها ذيول أو هوامش: فلقد قيل أن قبيلا من البربر شاهد تلك الكرامة فدخل فى الإسلام (ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠، ج٣ ص ٢٣٤)، وقيل أن موضع القيروان ظل خالياً من الحشرات والهوام مدة أربعين سنة حتى كان السبع أو العقرب يطلب بألف دينار فلا يوجد (ابن عبد الحكم، ص ١٩٦، ابن عذارى، ج١ ص ٢٠).

محل جدل بين الكتاب. فابن عذارى ينص على أن دار الإمارة بنيت أولا[٥٧]. بينما يفهم من ابن الأثير أن المدينة بنيت قبل المسجد الجامع[٥٨]. ومع أنه من الجائز أن يكون المقصود هو نزول عقبة فى الموضع الذى بنى فيه دار الإمارة وكذلك نزول القبائل والناس فى الأماكن التى اتخذوها لأنفسهم قبل بدء بناء الجامع، فإنه من المعقول أن يكون البدء فى بناء دار الإمارة قد سبق بناء المسجد. فالبكرى يقول أن اختيار اتجاه القبلة كان موضع جدل بين الناس، وأن هذا الأمر أهم عقبة بعض الوقت وأخيراً ألهم اختيار مكان المحراب بكرامة أكرمه الله بها، وذلك عندما سمع فى منامه هاتفاً يقول له أنه سوف يسمع تكبيراً فى الموضع الصحيح للقبلة فلما سمع التكبير وضع رمحه فى المكان[٥٩].

ورغم أنه يغلب على الظن أن هذه القصة مصطنعة إذ يقول ابن عبد الحكم أن عقبة ركز رمحه لتحديد موضع المدينة وليس لتحديد موضع القبلة[٦٠] فربما كان أمر اختيار عقبة نفسه لموضع القبلة - دون أن يحدده العارفون بشئون الفلك - صحيحاً، إذ يلاحظ أن موضع القبلة فى مسجد القيروان، وهى نفس قبلة عقبة، ينحرف قليلاً عن الموضع الصحيح[٦١].

وتختلف الروايات فى تقدير مساحة المدينة. فيقول ابن الأثير أن دورها (أى محيطها) كان ٣٦٠٠ (ثلاثة آلاف وستمائة) باع[٦٢] بينما يقول ابن عذارى أن دورها بلغ ١٣,٦٠٠ (ثلاثة عشر ألفا وستمائة) ذراع[٦٣]. والمساحة الأولى التى تقدر بحوالى ٥٨٠٠ متر معقولة بالنسبة لخطة المدينة الأولى وإقامة الأسوار ووسائل الدفاع - أى بالنسبة للمدينة العسكرية. أما المسافة الثانية التى تقدر بحوالى ٧٠٠٠ متر فهى معقولة بالنسبة لمساكن العسكر والقبائل ومن انضاف إليهم من أهل البلاد. وعلى ذلك يمكن القول أن المدينة العسكرية الأصلية المسورة - حيث المسجد الجامع ودار الإمارة والذخائر - كان محيطها ٣٦٠٠ باع، بينما

(٥٧) البيان المغرب، ج١ ص ٢٠.

(٥٨) ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠ ج٣ ص ٢٣٤.

(٥٩) انظر البكرى، ص ٢٢، الاستبصار، ص ١١٤.

(٦٠) ابن عبد الحكم، ص ١٩٦.

(٦١) انظر أحمد فكرى، المسجد الجامع بالقيروان، ص ٢٢ - ٢٣.

(٦٢) ابن الأثير، سنة ٥٠ ج٣ ص ٢٣٤ (والنويرى، المخطوط، ص ٦٩ب). وأنظر المطبوع ٠أبو ضيف) ص ١٨٩.

(٦٣) ابن عذارى، ج١، ص ٢٠.

انتشرت حولها مساكن القبائل والمساجد الخاصة بها فى محيط بلغ ١٣,٦٠٠ ذراع. وهذا ليس بغريب: ففى الوقت الذى استقر العرب مع عمرو فى الفسطاط (سنة ٢١ هـ/ ٦٤٠م) اتخذت بعض القبائل مقراً لها بعيداً عنه فى موضع الجيزة عبر النيل[٦٤]. وهذا لايمنع من أن تكون القبائل قد اتخذت أسواراً هى الأخرى فى مواضعها حول المدينة، وهذا يذكرنا بما حدث فى بغداد فيما بعد عندما بنى حولها سوران، الأمر الذى سيصبح تقليدياً فى تحصين المدينة العربية إذ سيكون السور الداخلى بقوته وارتفاعه هو السور الحقيقى، بينما سيطلق على السور الخارجى وهو أضعف وأقل ارتفاعاً اسم «الستارة»[٦٥].

وبطبيعة الحال لم يتم بناء المدينة بهذا الشكل دفعة واحدة إذ كمل البناء فى أربع سنوات، وذلك فى سنة ٥٥ هـ[٦٦]، وكانت المدينة تعمر وتتسع شيئاً فشيئاً خلال تلك الفترة. ولم يوجه عقبة خلال ذلك الوقت كل نشاطه للبناء إذ كان يوجه السرايا توطد سلطان العرب فى البلاد، وتأتى بالمغانم والأسلاب. وكان بناء المدينة فى ذاته حدثاً هاماً فى تاريخ الفتح العربى للمغرب. هذا ما فهمه بحق ابن الأثير وأصر عليه فقال: «ودخل كثير من البربر فى الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام، فثبت الإسلام بها»[٦٧]. وفى الوقت الذى أتم عقبة بناء القيروان أتى الأمر بعزله، فكان جزاءً غريباً بعد قيام الرجل بهذا العمل الكبير فى خدمة الخلافة والإسلام، وسنرى أمثلة لمثل ذلك فيما بعد عندما تقابل الخلافة خدمات كبار رجال الحرب والإدارة بما يمكن أن يبدو انكاراً للجميل.

٣- «أبو المهاجر» وعزل عقبة بن نافع (٥٥ - ٦٢هـ/ ٦٧٤ - ٦٨١م):

عزل عقبة عن ولاية افريقية فى ظروف لايبينها الكتاب بوضوح، ولكنهم يربطون بينها وبين ولاية مسلمة بن مخلد لمصر. فيقولون أن معاوية ابن أبى سفيان

---

(٦٤) انظر ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٢٨.

(٦٥) انظر التجانى، ص ٢٤٠ (حيث يقول عن تحصينات مدينة طرابلس: «يحيط بهذا السور الآن فصيل آخر أقصر منه على العادة فى ذلك يسمونه الستارة ...».

(٦٦) هذا ما يقوله ابن الأثير (سنة ٥٠ ج٣ ص ٢٣٤)، وهو ما يفهم من سياق كلام ابن عذارى الذى يحدد عزل عقبة عن افريقية فى تلك السنة (ج١ ص ٢١). وهذا ما ينقله النويرى، المخطوط، ص ٦٩ ب.

(٦٧) ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٥.

استعمل مسلمة، وجعل له مصر وافريقية فكان «مسلمة أول من جمعت له مصر والمغرب»[٦٨]. والذى يفهم من هذا النص أن الخليفة جعل لوالى مصر مسلمة حرية التصرف فى أمور افريقية بعد أن كان الخليفة يتدخل مباشرة فى شئون الفتوح فى المغرب. ولكنه يبقى بعد ذلك أن نعرف متى آل هذا الحق إلى مسلمة: عند تولّيه مصر مباشرة أم فى الوقت الذى تم فيه عزل عقبة؟ وذلك أن مؤرخى المغرب ربطوا بين ولاية مسلمة مصر وافريقية وبين عزل عقبة، فهم لايتكلمون عن ولاية الأول إلا عندما يتكلمون عن عزل الثانى. ولما كانت ولاية مسلمة لمصر تبدأ من سنة ٤٧هـ/ ٦٦٧م[٦٩]، فإننا نعتقد أن جعل ولاية افريقية لمسلمة كانت قبيل سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٤ - ٦٧٥م وهو التاريخ الذى تحدده الرواية المغربية التى أخذنا بها لعزل عقبة[٧٠]. ويمكن أن يفسر عزل عقبة بسبب السياسة العنيفة التى كان يتبعها فى المغرب، والتى لم يكن مسلمة ليرضى عنها، والدليل على ذلك أن والى المغرب الجديد من قبل مسلمة سار على سياسة مغايرة لها تماماً. وإلى جانب الاختلاف فى السياسة العامة نظن أنه كانت هناك مسائل شخصية بين مسلمة وعقبة - ربما بسبب التنافس بين كل من الرجلين اللذين كانا من كبار رجال الدولة - إذ تنص الروايات على أن عقبة عزل أسوأ العزل، وأنه أهين وحبس، وأن الأمر تطلب تدخل الخليفة لخروجه من المحنة.

أما الوالى الجديد فمشهور عند الكتاب بكنيته وهى «أبو المهاجر» أكثر من اسمه وهو دينار. أما عن ماضيه فلا نعرف إلا أنه كان مولى لمسلمة بن مخلد، وأنه كان شديد القرب من مسلمة الذى كان يقول: «أبو المهاجر كواحد منا» أى كواحد من أهل بيته. ويفهم من نص ابن عذارى أن مسلمة أراد أن يكافئ مولاه أبا المهاجر على اخلاصه له وحسن تفانيه فى خدمته، فعهد إليه بولاية افريقية[٧١] أى جعله نائباً له فى المغرب، فانضاف سبب شخصى آخر لعزل عقبة - وكان

---

(٦٨) ابن عبد الحكم، ص ١٩٧، وقارن ابن الأثير، سنة ٥٠ ج٣، ص ٢٣٥ (يقول مصر وافريقية، النويرى ص ٦٩ ب)، ابن عذارى، ج١ ص ٢١ (ويقول مصر وافريقية).

(٦٩) ابن عبد الحكم، ص ١٩٧، الكندى الولاة والقضاة، ص ٣٨.

(٧٠) أنظر فيما سبق هامش ٦٦ ص١٩١، وقارن المالكى الذى يجعل ذلك فى سنة ٥٧ هـ - رواية المالكى هنا مضطربة أشد الاضطراب (ج١ ص ١٩، وقارن تعليق مؤنس فى الهامش ص ١٤٩).

(٧١) أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٢١، ابن عبد الحكم، ص ١٩٧، ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠ ج٣ ص ٢٣٥.

ذلك التعيين فاتحة لاستخدام الموالى فى الوظائف الكبرى فى الدولة العربية، وهو الأمر الذى توسع فيه العباسيون فيما بعد حتى أصبح سمة من سمات عصرهم.
ورغم أن النصوص تجمع على أن أبا المهاجر أساء عزل عقبة إلا أنها أنفت أن تلقى بمسئولية إهانة عقبة – الذى يضعه الكتاب فى مرتبة الأولياء – على أحد زعماء العرب مثل مسلمة فنفوا التهمة المشينة عنه، وألقوا بكل عبثها على المولى: فمسلمة «أوصى مولاه بعزل عقبة أحسن العزل» و «أساء أبو المهاجر عزل عقبة وأوقره حديداً»، بمعنى أنه اعتقله، وذلك قبل أن يأمر الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[٧٢]. وكان من الطبيعى – فى نظر الرواة – أن يعتذر مسلمة فى مصر عما بدر من مولاه فى حق عقبة، وكذلك الخليفة فى دمشق[٧٣].

ومع أن ولاية أبى المهاجر للمغرب طالت إلى ما يقرب من ٧ (سبع) سنوات (٥٥ – ٦٢هـ) إلى حين عودة عقبة إلى المغرب مرة ثانية، فإن الرواة يمرون بأعماله الإنشائية مراً سريعاً ولايصرون إلا على ما فعله بعقبة. وربما كان مرجع ذلك إلى الفهريين من أقارب عقبة الذين كان لهم مركز ممتاز فى مصر والمغرب والأندلس، وكان منهم رواة واخباريون، وذلك رغم أن بنى أبى المهاجر كان لهم مركزهم فى المغرب وكان منهم اخباريون أيضاً، ولكنهم لا يرقون إلى مرتبة الفهريين.

والرواة لايذكرون تفصيلات ما عن خروج أبى المهاجر من مصر أو القوات التى صحبها معه أو الطريق الذى سار فيه، وليس لدينا إلا ما يمكن استخراجه من رواية المالكى التى تكون مزيجاً من المعلومات غير المنسجمة منها الصحيح ومنها الخطأ، ففيها أن أبا المهاجر خرج من مصر فى سنة ٥٥ هـ/ ٤–٦٧٥م بجيوش أهل الشام ومصر[٧٤]. وعندما وصل إلى أرض افريقية لم يكتف بما فعله بعقبة

---

٧٢) ابن عبد الحكم، ص ١٩٧، ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٥، ابن عذارى، ج١ ص ٢٣.

(٧٣) نفس المصدر (ويقول الرواة أيضاً أن معاوية وعد عقبة باعادته إلى عمله).

(٧٤) المالكى، رياض النفوس، ج١ ص ٢٠، أما عن رواية خليفة بن خياط (ج١ ص ٢١١) التى تنص على أن أبا المهاجر كان فى الحملة التى بعث بها والى «مصر مسلمة بقيادة خالد بن ثابت الفهرى لغزو المغرب، وأن مسلمة أمر خالد بن ثابت أن يستخلف أبا المهاجر ديناراً من الأنصار. فانصرف «وخلف أبا المهاجر» فلايمكن التعويل عليها وذلك أن ابن خياط يخلط بعد ذلك فى ترتيب الأحداث فيجعل حسان بن النعمان فى المغرب فى سنة ٥٧ هـ، فى الوقت الذى يتحدث عن غزوات لمالك الأبجر ثم لأبى المهاجر فى افريقية والمغرب الأوسط فى السنتين التاليتين ٥٨ هـ، ٥٩هـ. وهذا لايمنع بطبيعة الحال من الاستفادة من المعلومات التفصيلية للأحداث، وهو الأمر الذى لايتعارض فى بعض الأحيان مع الخطأ فى الترتيب العام.

من سوء العزل والاستخفاف بل أنه «كره النزول في قيروان عقبة»، ولو أنه نزل في نفس الموضع على بعد ميلين من القيروان، حيث ابتنى ونزل بالقرب من قرية بربرية تعرف بـ «دكرور»[٧٥]. وهذا يعبر عن تفكير أبى المهاجر في المزج والتقريب بين العرب والبربر، وهو الأساس الذى انبنت عليه سياسته. ويذكر الكتاب لأبى المهاجر أنه أول من طبق سياسة الاستقرار الدائم للعرب في افريقية: فيقول ابن عبد الحكم أن «أول من أقام بعد الغزو بافريقية أبو المهاجر» الذى «أقام بها الشتاء والصيف»[٧٦]، بينما الحقيقة أن هذا الفضل يرجع إلى عقبة[٧٧].

ويمكن أن يفهم من رواية المالكى ورواية ابن خياط أن أبا المهاجر بدأ نشاطه العسكرى جدياً في سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٩م، فأخذ يوجه السرايا نحو الأقاليم التى لم تكن قد افتتحت من افريقية في اتجاه قرطاجنة وفحص تونس، وأنه فتح «الجزيرة» - أى جزيرة شريك أو باشو - ووزع المغانم على العساكر، وبعث بالخمس إلى مصر[٧٨]. وسار أبو المهاجر على سياسته المخالفة لسياسة عقبة العسكرية الصارمة فعمل على اكتساب البربر باللين والمداراة، وهو ما يسميه أستاذنا شعيرة «بسياسة الحلف»[٧٩]. فلقد واصل أبو المهاجر أعماله الحربية النشطة في اتجاه المغرب الأوسط فوصل إلى موضع عرف بعيون أبى المهاجر، وتم له فتح ميلة[٨٠]، وانتهى به المطاف إلى أبواب تلمسان حيث هزم بربر أوربة، وهم فرع من البرانس، ومعهم زعيمهم كسيلة - الذى يقال أنه كان نصرانياً - ولكنه صالح الزعيم الأوربى

---

(٧٥) ابن عبد الحكم، ص ١٩٧، ابن عذارى، ج١ ص ٢٢ (تقول الروايات أن أبا المهاجر نزل بموضع للبربر يعرف بدكرور أو تكرور. وأن البربر كانوا يسمون المعسكر العربى الجديد تيكروان مما دعا البعض إلى التفكير في أن تكون كلمة القيروان تعريباً لكلمة بربرية الأصل، وهذا ما لم يثبت). أنظر المالكى. ج١ ص ٢٠. ومناقشة مؤنس لهذه المسألة، فتح المغرب، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٧٦) ابن عبد الحكم، ص ١٩٨.

(٧٧) ينبغى أن نلاحظ هنا أن الذى دعا ابن عبد الحكم إلى القول بأن أبا المهاجر كان أول من أقام بافريقية هو أنه يجعل عزل عقبة في سنة ٥١ هـ أى بعد بناء القيروان أو بعد تخطيطها على وجه أصح.

(٧٨) أنظر المالكى، ج١ ص ٢٠، وقارن تاريخ خليفة ابن خياط، ج١ ص ٢١٥ (حيث النص على أن فتح الجزيرة تم صلحا بعد قتال شديد كثر فيه القتل والجراح). وعن جزيرة باشو وهى شبه الجزيرة الواقعة ما بين تونس شمالاً وسوسة جنوباً، أنظر التجانى، ص ١١ - ١٣.

(٧٩) أنظر محمد عبد الهادى شعيرة، الممالك الحليفة، مجلة كلية آداب إسكندرية، سنة ١٩٤٨، ص ٢٤، ٣٧، (وموضوعها تطبيق سياسة الحلف هذه مع قبائل الترك، وكان الدكتور شعيرة قد عرض نظرية الحلف في رسالته للدكتوراه، في موضوع: الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية، ط. الإسكندرية، ١٩٤٦).

(٨٠) تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ٢١٥.

واكتسبه إلى الإسلام واتخذه حليفاً[٨١]، وعاد به إلى القيروان فى سنة ٦١ هـ/ ٦٨٠م[٨٢].

وتعبر رواية المالكى عن سياسة المدارة التى اتبعها أبو المهاجر بشكل عام، فتقول إنه لم يصالح البربر فقط بل وكذلك عجم افريقية[٨٣]. ولابأس أن يكون المقصود بالعجم هنا: الروم أو الجماعات الموالية لهم، مثل الأفارقة. ولاشك أن سياسة أبى المهاجر هذه عملت على ازدياد نطاق الإسلام فى المغرب، فدخول زعماء البربر فى الإسلام يعنى دخول قبائلهم هى الأخرى فى الدعوة العربية بالتبعية. وهكذا أقام أبو المهاجر فى القيروان يوطد أركان الإسلام فى المغرب إلى وفاة معاوية وخلافة ابنه يزيد الذى أعاد عقبة من جديد إلى ولاية المغرب.

٤- ولاية عقبة الثانية وفتح المغرب الأقصى (٦٢ - ٦٤هـ/ ٦٨١ - ٦٨٤م).

خرج عقبة بعد عزله عن افريقية فى سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٤ - ٦٧٥م نحو المشرق وسار إلى دمشق حيث عاتب معاوية، والظاهر أنه أقام فى دمشق انتظاراً لما وعده به الخليفة - حسب سياسة المداراة التى كان يتبعها معاوية إزاء عماله عندما كان يعزلهم برفق ويعدهم خير الوعود. وإذا صح ذلك يكون عقبة قد أقام فى الشام حوالى خمس أو ست سنوات (وليس عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة كما تعنى الرواية التى تحدد عزله بسنة ٥١ هـ) إلى أن توفى معاوية وخلفه ابنه يزيد. ورغم أن مسلمة بن مخلد ظل والياً على مصر إلى أن توفى سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م، فإن علاقة يزيد بمسلمة لم تكن تصل بأى حال إلى قوة العلاقة بين معاوية ومسلمة[٨٤]. وعلى ذلك استجاب يزيد لشكوى عقبة وسمح لنفسه باسترجاع المغرب من والى مصر ومولاه، وأعاد عقبة إلى عمله[٨٥]. ويحدد

---

(٨١) أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٢٨ - ٢٩، ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٨، تاريخ خليفة ابن خياط، ج١ ص ٣٤٥ (كسيلة كان نصرانيا).

(٨٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ٢١٥ (حيث النص على أن تلك الغزاة الموضوعة فى أحداث سنة ٥٩ هـ استمرت نحواً من سنتين).

(٨٣) المالكى، رياض النفوس، ج١ ص ٢١.

(٨٤) انظر ابن عذارى، ج١ ص ٢٢. وعن وفاة مسلمة فى شهر رجب/ مارس أنظر الكندى ص ٤٠.

(٨٥) ابن عبد الحكم، ص ١٨٩، ابن الأثير، أحداث سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٥ وأحداث سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٣ (وابن الأثير يسوق هنا رواية يفهم منها أن عقبة لم يشك إلى معاوية أمر عزله بل فعل ذلك عندما ولى =/=

الكتّاب ولاية عقبة الثانية بسنة ٦٢ هـ/ ٦٨١ - ٦٨٢م، وهي نفس السنة التي يجعلون فيها وفاته.

ولما كان عقبة قد قام بأعمال كبيرة لايمكن أن تكون قد تمت في سنة واحدة، كما سنرى، فالأقرب إلى الصحة أن يكون عقبة قد استعاد ولايته عقب وفاة معاوية مباشرة وربما حدث ذلك في سنة ٦١ هـ/ ٦٨٠ - ٦٨١م. وتصرّ الروايات جميعاً على أن عقبة كان متعجلاً في الرجوع إلى ولايته، ويفهم أنه كان يتحرق شوقاً للأخذ بثأره والانتقام من أبي المهاجر(٨٦). فقد خرج عقبة من الشام في بعض قوات الخلافة، ويقول ابن عذارى أنه كان بصحبته ٢٥ (خمسة وعشرون) رجلاً من الصحابة، ومرّ سريعاً بمصر حيث اعتذر إليه مسلمة مرة أخرى(٨٧). وعندما وصل إلى افريقية كان أول ما فعله هو القبض على أبي المهاجر وتوثيقه في الحديد، وأخذ ما كان لديه من الأموال(٨٨)، ثم أنه أمر بتخريب مدينته دكرور، وجدد ما كان قد خرب من عمارة القيروان، ورد الناس إليها(٨٩). وهكذا أكد عقبة استقرار القاعدة العربية الأولى في افريقية واستمرارها، وبدأ منها حملة كبرى تختلف عن كل الحملات السابقة، إذ أنه ساح في كل صحراوات المغربين إلى أن انتهى به الأمر إلى سواحل السوس الأقصى.

وحملة عقبة هذه نجدها سريعة مقتضبة عند الكتاب الأوائل مثل ابن خياط

يزيد، يجعلنا نظن أنه ربما كان لعقبة نشاطه في أمور المشرق بعد العهد ليزيد الذي أثار كثيراً من زعماء العرب وخاصة أبناء المهاجرين والأنصار حتى أنه كان ليزيد ما يمكن أن يشبه بالحزب الذي يؤيده ويعاونه. وأنظر ابن عذارى، ج١، ص ٢٣.

(٨٦) نفس المصادر (تقول بعض الروايات أنه بعد أن عزل عقبة دعا على أبي المهاجر الذي ظل خائفاً منه نادماً على ما فعله به - ابن عذارى، ج١ ص ٢٢).

(٨٧) ابن عذارى، ج١ ص ٢٣، وأنظر الرقيق، تاريخ افريقية والمغرب، ص ٣٩ - ٤٠. وتقول رواية المالكي (ج١ ص ٢٢) أنه قدم افريقية بعشرة الاف فارس، ونعتقد أن المقصود بذلك هو الجيش الذي قاده عقبة في حملته الكبرى الآتية: ولاشك في أنه الجيش الافريقي الذي كان مرابطاً بالمغرب إذ ليس من المعقول أن يأتي الولي الجديد بجيش كامل وإلا كان معنى ذلك عودة الوالي القديم بكل قوات الدولة التي كانت تحت قيادته.

(٨٨) أنظر المالكي (ج١ ص ٢٢) الذي يقول أن المال الذي أخذه عقبة من أبي المهاجر بلغ ١٠٠ ألف دينار، وقارن الرقيق، ص ٤٠ (حيث لانجد الإشارة إلى المال).

(٨٩) أنظر ابن عذارى ج١ ص ٢٣ (الذي يفسر ازدهار القيروان كأهم مركز علمي إسلامي في المغرب بفضل دعاء عقبة لها إذ قال: «املأها علماً وفقهاً. واملأها بالمطيعين لك ...»، وقارن الرقيق، ص ٤٠ (حيث نجد الدعاء الذي ربما نقله ابن عذارى عنه).

أو ابن عبد الحكم والبلاذرى وفيما ينقلونه من روايات الواقدى[٩٠]، ولكنها تزداد فى مداها وتفصيلاتها عند المتأخرين مثل ابن عذارى، مما جعل هذه الحملة موضع جدل بين الباحثين حتى قال روبرت برونشفيج: «إذا كان من الممكن أن ننظر إلى حملة عقبة بن نافع على أنها حقيقة تاريخية، فإن سلامة الحس تحدونا إلى أن نقصرها على (بلاد) الجزائر الوسطى، وربما جاز أن نقول أنها بلغت – على أكثر تقدير – منطقة وهران الحالية ووادى شلف، حتى نعثر على ما يدحض ذلك الفرض»[٩١]. والحقيقة أن هذا الرأى يستشف، كما قلنا، من الروايات القديمة المقتضبة عن حملة عقبة كما نجدها فى ابن عبد الحكم والبلاذرى، ولكن التفصيلات الدقيقة التى توجد فى البكرى، وكذلك فى نص ابن عذارى الذى نشره بروفنسال وكولان وكذلك فى النص الجديد الذى نشره بروفنسال، تدعو – كما يقول هذا الأخير – إلى إعادة النظر فى هذا الرأى: فهى رغم تأخرها نسبياً (من القرن الرابع إلى القرن السابع الهجرى) تمثل الرواية الأندلسية المغربية والرواية الافريقية عن فتح العرب للمغرب[٩٢]. ويؤيد بروفنسال رأيه هذا بقوله: «ومن المؤكد أنه فى بيئة محافظة مقفلة كالبيئة البربرية فى جنوبى مراكش – حيث لازالت ذكريات دعوة محمد بن تومرت وحركة الموحدين حية يتناقلها الناس – ألا تتلاشى ذكريات حلقات الفتح الإسلامى لهذه النواحى حتى زمن ابن عذارى ...»[٩٣]. وهكذا لانستطيع ألا أن نقبل حملة عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى على أنها حقيقة تاريخية. وأما ما يحيط بها فى بعض الأحيان من المبالغات أو الأساطير فهو أمر طبيعى له مغزاه وتفسيره، كما رأينا فى فتوح الأجزاء الشرقية من المغرب. والحقيقة أن سلامة الحس تتطلب أيضاً أن يكون العرب قد بدأوا التعرف على أقاليم المغرب الأقصى بعد أربعين سنة من بداية تعرفهم على أقاليمه الدنيا: فبدون ذلك لايمكن أن نفسر كيفية استقرار سلطان العرب فى

(٩٠) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ٢٤٥، ابن عبد الحكم، ص ١٩٨، البلادرى، ط. ١٨٦٦، ص ٢٢٨ – ٢٢٩، ابن الأثير، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣، ابن عذارى ج١ ص ٢٣ – ٣٠ (ونلاحظ هنا أن الطبعة الأخيرة التى قام بها كولان وليفى بروفنسال سدّت الثغرة الخاصة بحملته فى نشرة دوزى).

(٩١) انظر ليفى بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصرى بمدريد، ١٥٤، ص ١٩٧.

(٩٢) نفس المصدر، ص ١٩٧ – ٢٠٠، انظر كتاب الأنساب لأبن عبد الحليم،ضمن ثلاثة نصوص عربيه عن البربر فى المغرب الإسلامى، دراسة وتحقيق محمد بن يعلى، ضمن مجموعة المصادر الاندلسية، رقم ١٠، باب فتح المغرب الأقصى، ص ٨٧– ٩٧.

(٩٣) نفس المصدر، ص ٢٠٠.

المغرب الأقصى بعد أقل من ثلاثين سنة، ودخول البربر فى تلك الجهات فى الإسلام وفى الجيش العربى، ومشاركتهم فى الفتوح واحتلالهم لمراكز قيادية كما حدث فى فتح الأندلس.

اجتياح المغرب الأوسط:

أعد عقبة العدة لحملته، والمفهوم أنه جهز ١٠ (عشرة) آلاف فارس[٩٤]، وقرر أن يترك فى القيروان بعض قواته التى تقدر بحوالى ٦ (ستة) آلاف رجل[٩٥]، على رأسهم قائدان هما عمر بن على القرشى، وزهير بن قيس البلوى[٩٦]. والظاهر أن عمر بن على القرشى الذى ذكر ابن عبد الحكم اسمه هنا أولاً كان القائد الأول، وأن زهيراً كان قائداً ثانياً - على عكس ما يأخذ به جمهرة الكتاب من أن قيادة عسكر القيروان كانت لزهير الذى استخلفه عقبة[٩٧]. وكان على تلك القوة التى بقيت فى القيروان أن تدافع عن المدينة، وأن تحمى ما بها من الذرارى والأموال. وقبل الخروج من القيروان جمع عقبة الناس، كما أحضر أولاده وخطب فيهم مبيناً لهم هدف الحملة، وهو طلب الاستشهاد فى سبيل الله، كما أوصاهم وصية يذكر المالكى أنها اشتملت على ثلاث خصال: النهى عن الاهتمام بالشعر على حساب حفظ القرآن، وترك الاستدانة، ثم الزهد فى أخذ العلم عن المغرورين[٩٨]. وودع عقبة أولاده وأهل القيروان وداعاً مؤثراً، فقال «أراكم لاترونني بعد يومكم هذا»[٩٩]، وخرج محتسباً. واتخذ عقبة الطريق الصحراوى الذى يخترق المغرب الأوسط فى اتجاه تاهرت والسوس الأدنى (سوس

---

(٩٤) المالكى، ج١ ص ٢٢ (النص يقول هنا أن عقبة أتى إلى افريقية على رأس هذا الجيش، وأنظر ص ٧٩ هامش ٣).

(٩٥) ابن عبد الحكم، ص ١٩٨.

(٩٦) ابن عبد الحكم، ص ١٩٨، المالكى، ج١ ص ٢٢.

(٩٧) قارن خليفة بن خياط، ج١ ص ٢٤٥، ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٣، ابن عذارى، ج١ ص ٢٣.

(٩٨) المالكى، ج١ ص ٢٢، ابن عذارى، ج١ ص ٢٣.

(٩٩) المالكى، ج١ ص ٢٢، ابن الأثير، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ (النويرى، ص ٧٠ أ) (نلاحظ هنا أن الكتاب يبالغون فى مناقب عقبة إذ يرون أنه كان يعرف أمر استشهاده منذ دخوله من الشام إلى مصر، وذلك حسب حديث ينسب إلى الرسول - وهو مصطنع من غير شك - ينبئ بمقتل جماعة من أمته على الجهاد فى سبيل الله ثوابهم كثواب أهل بدر وأحد - البكرى، ص ٧٣، الاستبصار، ص ١٧٤)، وقارن الرقيق، ص ٤١ (حيث يقوم المحقق النص المحروم فى شكل: «ولست أدرى أترونني بعد (يومى) هذا أو أراكم، لأن أملى الموت فى سبيل الله أو ردى إليكم، كما أحب».

طنجة). والكتّاب - كما قلنا - لايتفقون على مراحل تلك الغزوة، فابن عبد الحكم والبلاذرى يقولان باختصار أن عقبة سار إلى السوس وجوّل فى بلادهم، أما الروايات المفصلة التى يقدمها المالكى وابن عذارى، والتى ترجع أصلاً إلى الرقيق، كما نظن، فإنها ليست منسجمة الترتيب. فرواية المالكى واضحة الاضطراب لأنها تقدم فتح تلمسان على فتح الزاب، وتسبق فتح الزاب على فتح تاهرت. وأما ابن عذارى فيجمع عديداً من التفصيلات المفيدة، ولكن يؤخذ عليه الحشو الذى يثير اضطراب الرواية فى بعض الأحيان: فهو يتحدث عن حصار باغاية ثم يعود فيتكلم عن غزو قرطاجنة ثم عن غزو المنستير قرب سوسة مرتين. وفى رأينا أن رواية ابن الأثير التى ينقلها عن الرقيق هو الآخر، هى أكثر الروايات اتزاناً ووضوحاً وتسلسلاً منطقياً، وعلى هديها يمكن فعلا ترتيب روايات المالكى وابن عذارى التى تختلط فى بعض الأحيان[١٠٠].

فتح الزاب:

اتجه عقبة نحو مدينة باغاية عند أقدام جبل أوراس على الأطراف الشمالية لبلاد الجريد، وكان بالمنطقة حامية رومية كبيرة خرجت للقاء العرب. ووقعت معركة حامية الوطيس ولكنها انتهت بانكسار الروم الذين انهزموا إلى داخل أسوار المدينة بعد أن تركوا عديداً من القتلى والكثير من المغانم. وبعد أن ضرب عقبة عليهم الحصار رأى ألا ينهك قواه فى حصارهم، واكتفى بما ناله العرب من المغانم[١٠١]، وخاصة من خيل جبل أوراس التى «لم ير المسلمون فى مغازيهم أصلب منها»[١٠٢]. ومن باغاية دخل عقبة بلاد الزاب الفسيحة وقصد عاصمتها المسيلة[١٠٣]. وتبدد الروم ومن فى خدمتهم من البربر، فلجأوا إلى القلعة الحصينة، بينما فر بعضهم إلى الجبال[١٠٤]. ونازل الروم العرب بعض الوقت وكانت المعارك

---

(١٠٠) ابن عذارى، ج١ ص ٢٣، المالكى ج١ ص ٢٣، وقارن الرقيق، ص ٤١.

(١٠١) أنظر ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٣، المالكى، ج١ ص ٢٣، ابن عذارى، ج١ ص ٢٣، قارن الرقيق، ص ٤١ (حيث يذكر حصار قلعة مجانة فى تفصيلات قتال باغاية).

(١٠٢) ابن عذارى، ج١ ص ٢٤، النويرى، المخطوط، ص ٧٠ أ، وقارن الرقيق ص ٤١ (حيث يتضح أنه مصدر الرواية) وعن الحصان المغربى الحديث، الصلب القنوع، أنظر، مقدمة (Gautier, p. 20)

(١٠٣) ابن عذارى، ج١ ص ٢٤، وقارن النويرى، المخطوط، ص ٧٠ ب حيث القراءة «يلبش» وهى من أعظم مدن الروم، الرقيق، ص ٤٢ (حيث قراءة المحقق «المسن»).

(١٠٤) ابن الأثير، سنة ٦٢، ج٤ ص ٥٣، ولا بأس أن تكون القلعة الحصينة هى التى يسميها الرقيق (ص ٤٢) أذنة. والتى قد توجد أيضاً فى شكل أربة، وازبة (أنظر الهامش ٤ للمحقق).

القاسية تنتهى بانهزامهم، ومقتل كبار فرسانهم فلما وجدوا ألا طاقة لهم بالعرب اكتفوا بالاعتصام بالحصون، وبذلك أصبحت السيادة على بلاد الزاب للعرب، وهذا ما يعبر عنه الكتاب بقولهم: ذهب عز الروم من الزاب، وذلوا إلى آخر الدهر(١٠٥).

ويعتبر غزو الزاب بداية مرحلة جديدة فى فتوح المغرب، إذ أن العرب لم يلقوا حتى ذلك الوقت مقاومة إلا من جانب الروم. وهذا الأمر يدعو إلى التساؤل عن طبيعة العلاقة بين الروم والبربر فى هذا الوقت؟ والذى يفهم من النصوص أن تلك العلاقة كانت سلبية: فالروم يعتصمون بالسواحل وبالقلاع فى الداخل وإلى جانبهم قلة قليلة من أهل البلاد الذين انصبغوا بالصبغة الرومانية، واعتنقوا المسيحية، ونعتقد أن الكتاب يقصدون هؤلاء مع الروم عندما يذكرون انكشاف النصارى أمام عقبة(١٠٦). أما جمهرة المغاربة الذين لم يكونوا قد اتصلوا بعد بالعرب، فكانوا فى الدواخل يقفون موقف المتفرج على الطرفين المتنازعين. وعندما وجد الروم - بعد انتصارات عقبة فى الزاب - ألا قبل لهم بمواجهة العرب فكروا فى الاستعانة بالبربر. ولا نعرف الظروف التى تمت فيها الاتصالات والاتفاق بين الروم والبربر. ولا ماهية الوعود أو التنازلات التى قدمها الروم، فكل ما يقوله الكتاب هو أن الروم استغاثوا بالبربر(١٠٧)، أو استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم(١٠٨). فعندما وصل عقبة إلى منطقة تاهرت وجد نفسه أمام تحالف كبير من الروم والبربر لم يعهد العرب له مثيلا من قبل(١٠٩). وأعد عقبة العدة لخوض المعركة. فعبأ رجاله فى هيئة القتال، وخطبهم خطبة حضّهم فيها على الجهاد وحسن القتال. ولقى المسلمون كثيرا من الجهد فى الوقعة الكبيرة لكثرة

---

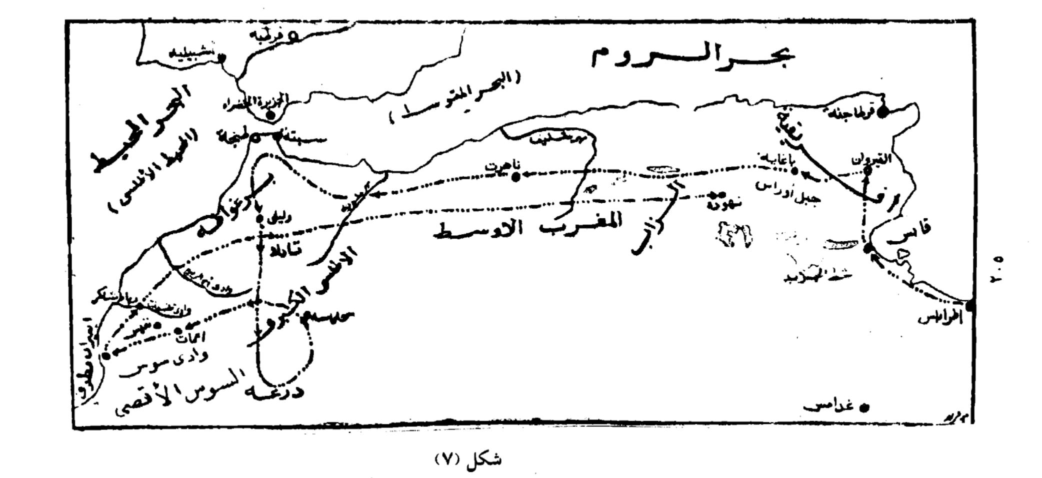
(١٠٥) المالكى، ج١، ص ٢٣، ابن عذارى، ج١ ص ٢٤، النويرى، المخطوط، ص ٧٠ ب، وأنظر، الرقيق ص ٤٣.

(١٠٦) أنظر ابن الأثير سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٣، ابن عذارى، ج١ ص ٢٢ - ٢٤.

(١٠٧) المالكى، ج١ ص ٢٣.

(١٠٨) ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٣، وأنظر الرقيق، ص ٤٣ (حيث يتفق النصان، فيما عدا كلمة «أجابوهم» الموجودة فى شكل «أعانوهم» فى الرقيق).

(١٠٩) انظر ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٣ (النويرى، ص ٧٠ ب) المالكى، ج١ ص ٢٣ ابن عذارى، ج١ ص ٢٤ (حيث القراءة تيهرت، تماماً كما فى الرقيق، ص ٤٣)، ليفى بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، مدريد، ص ٢١٩ (يعدد النص قبائل البربر فى منطقة تاهرت وهى: «لواتة، وهوارة، وزواغة، ومطماطة، وزناتة، ومكناسة، وغيرهم، وانظر كتاب الانساب لابن عبد الحليم، (فى مفاخر البربر، دراسة وتحقيق محمد بن يعلى)، ص ٨٧.



شكل (٧)

حملة عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى - انظر ليفى بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ١٩٥٤، ص ١٩٩

العدو، ولكن القتال انتهى بانهزام الروم والبربر إلى المدينة. وقطع العرب طريق المنهزمين إلى باب المدينة وقتلوا كثيرا منهم، وغنموا أموالهم وسلاحهم[110]. وهكذا كانت أحمال العرب وأثقالهم تزداد على طول الطريق إلى طنجة حيث تبدد الروم أمامهم وكذلك قبائل البربر بعد أن تركوا بين أيديهم السلاح والأموال، والسبايا الجميلات *الغاليات الثمن اللاتى سُيّرن إلى* أسواق المشرق حيث كانت «الجارية الرومية بالمشرق بألف دينار»[111].

دخول المغرب الأقصى:

وترك عقبة الروم يعتصمون بالحصون والقلاع لا يبرحونها، وأوغل فى الغرب إلى أن نزل على طنجة[112] التى يعرف صاحبها باسم يليان. والمفهوم من سياق النصوص أنه أمير رومى على عكس ما تقوله بعض الروايات من أنه أعجمى أو قوطى، أو ما يريد أن يذهب إليه بعض المحدثين من الأسبان والمغاربة من أنه بربرى[113]. أما عن امارة طنجة فكانت تشمل الأقاليم الواقعة على ساحل المجاز (إلى الأندلس) وخاصة مدينتى طنجة وسبتة وما حولها، ولو أننا لا نعرف إن كانت كورة طنجة، فى العصور الإسلامية، التى كان عملها يبلغ مسيرة شهر[114] احتفظت بنفس مساحة إمارة طنجة القديمة. والظاهر أن البطريق يليان كان يعمل جاهدا على المحافظة على الاستقلال بامارته الطنجية،وأنه فى سبيل ذلك انتهج سياسة المداراة وحسن الجوار مع جيرانه فى الشمال عبر الزقاق، والبربر فى دواخل طنجة. وعندما وصل العرب إلى أحواز ولايته سارع الرجل الذكى إلى الارتباط بعلاقات الود والصداقة معهم، فراسل عقبة واستعطفه، وقدم

---

(١١٠) نفس المصادر، والرقيق، ص ٤٤.

(١١١) المالكى، ج١ ص ٢٣، وانظر الرقيق، ص ٤٦ (حيث الإشارة إلى الجاريات الغاليات من سبى طنجة).

(١١٢) ابن الأثير، سنة ٦٢، ج٤ ص ٥٣ (النويرى، ص ٧٠ ب)، ابن عذارى، ج١ ص ٢٦ (بلغ أحواز طنجة)، الرقيق، ص ٤٤ - ٤٥.

(١١٣) هذا الجدل يدور حول شخصية يليان عند الكلام عن فتح الأندلس الذى شارك فيه مشاركة ايجابية (أنظر ليفى بروفنسال، تاريخ اسبانيا الإسلامية «بالفرنسية»، طبعة ١٩٤٤ ص ١١ وهامش ١). وأنظر الاستقصا، ج١ ص ٦٢، ٧٣، ٧٦ (الذى يسميه يليان الغمارى نسبة إلى قبيلة غمارة التى تقطن جبال الريف). وانظر الرقيق ٠ص ٤٥) حيث اليان الذى لقيه عقبة فى طنجة، ولو أنه يضيف إليه فيما بعد، بمناسبة فتح الأندلس (ص ٧١) شخصاً آخر يسمى «اليان»، ويعرف به على أنه ابن ملك الأندلس الذى كان غلاماً حدثاً جاء يحرض طارقاً على غزو البلاد. وهذا ما لم يشر إليه أى من المصادر الأخرى.

(١١٤) ابن عذارى، ج١ ص ٢٦.

اليه الهدايا الحسنة، وسأله المسالمة[١١٥]. وظهر عقبة بمظهر الرجل السياسى القدير هو الآخر، فرأى أن يرتبط بهذا الحليف المفيد إلى حد كبير، فقبل ما عرضه عليه الرومى، وتم الاجتماع بينهما، ووضع يليان معارفه وخبرته فى خدمة العرب، وأصبح بمثابة المستشار السياسى والعسكرى لعقبة. فلقد أمده بالمعلومات عن القوط فى الأندلس، وعن البربر فى المغرب الأقصى[١١٦]، ولفت نظره إلى عدم *التفكير فى أمر الأندلس، وذلك فى ضوء ظروفه الدقيقة*: اذ ترك الروم وراء ظهره، بينما البربر أمامه فى جموع كثيرة «لا يعلم عددهم الا الله»[١١٧]. وهم جاهلية «لم يدخلوا فى دين النصرانية ولا غيرها»[١١٨]. وهذه المشورة تعنى بطبيعة الحال البرنامج الذى ينبغى على عقبة أن يتبعه فى المغرب أى القضاء على ما بقى للروم من قواعد (أصبحت كالشوكة فى جنب العرب) ثم اخضاع بربر المغرب الأقصى (حتى يمكن لسلطان العرب أن يستقر فى البلاد). ولم يكن عقبة لينكص على عقبيه فقرر أن يتقدم إلى الأمام ويخضع قبائل المغرب الأقصى، وبدأ بالسوس الأدنى (خلف طنجة) وهى البلاد المعروفة بـ «تامسنا» حيث مساكن قبائل مصمودة[١١٩]. وتقول النصوص أنه قتل فى بربر السوس قتلاً ذريعاً، ووجه رجاله فى كل الاتجاهات يغزون ويغنمون[١٢٠]. أما عن مراحل الغزوة فيعتبر بيان ابن عذارى أو فى المصادر. ولقد جاء النص الجديد الذى نشره بروفنسال يؤيد رواية البيان، ولو أنه فى الحقيقة يمثل نسخة منقحة منها فمصدرهما واحد[١٢١].

---

(١١٥) ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٣، ابن عذارى، ج١ ص ٢٦، الرقيق ص ٤٤ – ٤٥.

(١١٦) ابن الأثير سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ (النويرى، المخطوط، ص ٧١ أ)، الرقيق، ص ٤٥.

(١١٧) ابن عذارى، ج١ ص ٢٦.

(١١٨) نفس المصدر، وقارن النويرى (ص ٧١ أ) الذى يقول عن البربر حينئذ «وهم قوم ليس لهم دين يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم وهم أمثال البهائم»، وهى الرواية المأخوذة عن الرقيق: انظر، تاريخ افريقية والمغرب، ص ٤٥.

(١١٩) نفس المصدر، وقارن النويرى (ص ٧١أ) الذى يخطىء فيكتب «تارودنت» بدلاً من تامسنا، وهى الرواية الذى ينقلها من الرقيق (ص ٤٥) والتى لم يلتفت إليها المحقق.

(١٢٠) ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٣، ابن عذارى، ج١ ص ٢٦.

(١٢١) نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصرى بمدريد، سنة ١٩٥٤، دراسة بروفنسال، ص ٢٠٧. أما القطعة من الرقيق التى نشرها الكعبى فلا تضيف شيئاً إلى حملة عقبة، وربما كان ذلك بسبب الخرم الموجود فيها إذا تنتقل من حرب السوس الأقصى إلى استلام القيروان لكسيلة، وهو الأمر الذى لم يشر إليه المحقق.

اتجه عقبة من طنجة جنوباً نحو مدينة وليلى القديمة (Volubilis) قرب الموضع الذى ستبنى فيه مدينة فاس فيما بعد، وهناك التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، وهزمهم واتبعهم جنوباً عبر بلاد تادلا نحو صحراء وادى درعة. ولما كان هدف عقبة هو الاحتساب والعمل فى سبيل الله، فإنه اجتهد فى نشر الإسلام لأول مرة فى صحراوات بلاد مراكش، فبنى مسجداً فى درعة(١٢٢). وكان من الطبيعى ألا يكتفى عقبه بالصحراء فوجه أنظاره نحو الأقاليم الغنية فى الغرب وكان عليه أن يسير نحو الشمال الغربى إلى منطقة تافللت (حيث ستبنى مدينة سجلماسة)، لكى يدور حول جبال أطلس العليا وليدخل بلاد صنهاجة حيث أطاعة الناس دون قتال(١٢٣). واتبع ذلك بدخول منطقة قبائل هسكورة(١٢٤) فى طريقة إلى قصبة تلك الأقاليم، وهى مدينة أغمات (التى ستبنى بالقرب منها مدينة مراكش الحالية).

والظاهر أن تلك المنطقة المزدهرة كانت على علاقات بالروم أو أنها كانت متأثرة بالحضارة الرومانية على الأقل، وذلك أن بربر أغمات كانوا نصارى. ولم يخرج أهل أغمات للقاء عقبة بل اعتصموا بمدينتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن نزلوا على حكم عقبة بعد أن ضرب عليهم الحصار مدة قصيرة(١٢٥). ومن أغمات اتجه عقبة غرباً إلى مدينة نفيس - عاصمة الوادى المعروف بهذا الاسم - الخصيبة.

ويقول البكرى أن عقبة حاصر بها الروم ونصارى البربر الذين اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها وبنى بها مسجداً(١٢٦). وبدخول عقبة مدينة نفيس الحصينة

---

(١٢٢) النص الجديد، ص ٢٠٨، ابن عذارى، ج١ ص ٢٧.

(١٢٣) ابن عذارى، ج١ ص ٢٧، النص الجديد، دراسة بروفنسال، ص ٢٠٨. ونلاحظ أن النص نفسه (ص ٢١٩) يسجل روايتين أولاهما تقول: أن عقبة عاد من درعة إلى تلمسان ومن هذه الأخيرة دخل بلاد صنهاجة. أما الرواية الثانية فلا ترى ذلك وهى التى أخذنا بها لأنها أقرب إلى المعقول.

(١٢٤) نفس المصدر، وأنظر الخريطة شكل ٧ ص ٢٠٥.

(١٢٥) ابن عذارى ج١ ص ٢٧. ويحدد النص هنا مدينة اغمات بأنها «أغمات وريكة». والحقيقة أن اغمات كما يقول الجغرافيون مدينتان هما: اغمات وريكة، واغمات هيلانة (انظر البكرى، ص ١٥٣، الاستبصار، ص ٢٠٧، رحلة لسان الدين بن الخطيب فى المغرب، طبع جامعة الاسكندرية، ١٩٤٨، ص ١٣٠)، وقارن النص الجديد، ص ٢١٩.

(١٢٦) انظر البكرى، ص ١٦٠، الاستبصار، ص ٢٠٨، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ٢٧، والنص الجديد (ص ٢١٩) حيث نلاحظ أن بناء عقبة لمسجد نفيس موضوع جدل بين الكتاب إذ يرى بعضهم أن عقبة لم يبن فى المغرب إلا مسجد القيروان، ومسجداً بدرعة ومسجداً بالسوس الأقصى «وأما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فإن الناس - والله أعلم - بنوها بموضع نزوله» أى إحياء لذكراه، وانظر كتاب الانساب لابن عبد الحليم (مجموعة نصوص مفاخر البربر، تحقيق محمد بن يعلى)، ص ٨٨.

انفتح أمامه وادى السوس الأقصى، فقصد عاصمته وهى مدينة ايجلى التى بنى فيها مسجداً هى الأخرى[١٢٧]. ودعا عقبة قبائل المنطقة إلى الدخول فى الإسلام فأجابته قبائل جزولة الذين أتوه فأسلموا وعادوا إلى منازلهم. ومن ايجلى سار إلى ماسة، ومنها إلى رأس ايغيران يطوف (Cap Guir) على البحر المحيط[١٢٨]. وحسب الفكرة الجغرافية السائدة فى ذلك الوقت، والتى تعتبر أن الساحل الأطلنطى للمغرب يتجه من الشرق إلى الغرب، اعتبر عقبة أنه أنهى فتح المغرب. ويعّبر المتأخرون من الكتاب عن ذلك بقولهم أن عقبة اقتحم المحيط بفرسه حتى وصل الماء إلى تلابيبه، وقال: يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك[١٢٩].

طريق العودة:

وهكذا اتخذ عقبة طريق العودة وهو يعمل على نشر الإسلام فى المغارب البعيدة، ؛فعّرج على قبائل حاحة، ورجراجة ثم صودة. والذى يفهم من سياق النصوص أن تلك القبائل استجابت لدعوة عقبة ودخلت فى الإسلام. فعند وادى تنسيفت – فى منتصف المسافة بين مدينتى مراكش وموجادور – توقف عقبة حيث ترك واحداً من أصحابه اسمه شاكر لتعليم البربر أصول الإسلام، وهذا الموضع عرف باسم هذا التابع فهو رباط شاكر عند الكتاب، وهو حالياً يعرف بسيدى شيكر (حسب النطق الدارج هناك)[١٣٠].

وحتى ذلك الوقت لم يجد عقبة كما رأينا مقاومة جدية، ولكن النصوص تأخذ فى الإشارة إلى ما بدأ يلقاه عقبة من المتاعب. فعندما دخل بلاد دكّالة (شمال وادى نفيس بين وادى تنسيفت ووادى أم الربيع) ودعاهم إلى الإسلام امتنعوا عليه. والظاهر أنهم دبروا الغدر به، وعندما قاتلهم انتهى القتال بانهزامهم، ولكن بعد أن قتل كثير من أصحاب عقبة حتي سمى موضع المعركة بمقبرة

---

(١٢٧) ابن عذارى، ج١ ص ٢٧، النص الجديد، ص ٢٢٠.

(١٢٨) ابن عذارى، ج١ ص ٢٧، ابن الأثير سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٤ (يكتب ايغيران فى شكل ماليان).

(١٢٩) انظر تلك الرواية فى ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٤، المالكى، ج١ ص ٢٤، ابن عذارى، ج١ ص ٢٧.

(١٣٠) ابن عذارى، ج١ ص ٢٧، النص الجديد، ص ٢٢٠ (وعن سيدى شيكر انظر الدراسة ص ٢٠٩ وهامش ١)، وانظر كتاب الانساب لابن عبد الحليم (مجموعة مفاخر البربر)، ص ٨٩.

الشهداء(١٣١). ويقول النص الجديد الذى نشره بروفنسال أن مثل ذلك حدث فى بلاد هسكورة، ولو أن ابن عذارى يخالف ذلك ويذكر أن بربر هسكورة فروا أمام عقبة، وأنه لم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب(١٣٢). ثم اتجه عقبة شمالاً بغرب نحو طنجة لكى يعود إلى المغرب الأوسط عبر ممر تازا، وعندما وصل إلى بلاد الزاب اتخذت الأمور شكلاً غريباً انتهى باستشهاد البطل الكبير - بمعنى أن الانتصار الفاصل انتهى بكارثة مروعة.

استشهاد عقبة:

وتتلخص الكارثة فى أنه فى الوقت الذى عادت معظم القوات العربية نحو القيروان تاركة قائدها فى عدد قليل من الرجال، وجد عقبة أمامه حلفا كبيراً من الروم والبربر. ومع أن الكتاب يلبسون نهاية عقبة ثوباً روائياً: من معرفته سلفاً بنهايته الدامية، ووقوفه فى قلة من أصحابه، وإسراع والى المغرب السابق «أبى المهاجر» إلى طلب الاستشهاد وهو مكبل بالحديد، فإن تلك النهاية مقبولة على كل حال. فسبب التحالف بين الروم والبربر هو أن عقبة عندما اصطحب معه أبا المهاجر والزعيم الأوربى عامل هذا الأخير دون رعاية - رغم وصية أبى المهاجر - واستخف به مما أثار حقد كسيلة فأضمر الغدر(١٣٣). وبطبيعة الحال لم يكن هذا السبب الشخصى ليكفى لقيام تحالف بين الروم والبربر، ولكننا نعتقد أن عنف عقبة مع البربر - ذلك العنف الذى يعّبر عنه ابن الأثير تعبيراً رائعاً عندما يقول: «وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا، وغنموا منهم وسبوا سبياً كثيراً»(١٣٤) - هو الذى أزعج البربر، وأوجد نوعاً من التوافق أو التعاطف بينهم وبين الروم، فوقفوا جنباً إلى جنب فى بعض المواضع من المغرب الأقصى. ثم أتت الصعوبات التى لقيها عقبة فى نهاية الحملة، واستشهاد عدد كبير من أصحابه لتشجع التحالف بين الروم والبربر فى المغرب الأوسط أيضاً.

---

(١٣١) ابن عذارى، ج١ ص ٣٨، النص الجديد، ص ٢٢٠، وكتاب الانساب لابن عبد الحليم (مفاخر البربر)، ص ٨٨، وقارن ابن خلدون ج٦، ص ١٠٨ (حيث يقول أن المصامدة حاصروا عقبة فى جبال درن).

(١٣٢) النص الجديد لبروفنسال، ص ٣٢٠، ابن عذارى، ج١ ص ٢٨.

(١٣٣) ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٤، ابن عذارى، ج١ ص ٢٩، المالكى، ج١ ص ٢٧ (تقول الرواية أن عقبة كان يرغم كسيلة على سلخ الغنم) وهناك رواية غريبة (المالكى، ج١ ص٢٥) تزعم أن سبب ثورة كسيلة أنه سعى لتخليص صديقه أبى المهاجر من اعتقال عقبة.

(١٣٤) ابن الأثير، سنة ٦٢ ح ٤ ص ٥٤.

في هذه الظروف راسل الروم كسيلة، وهو في صحبة عقبة، وليس من غير المحتمل أن يكونوا قد سهلوا له طريق الهرب إلى قبيلته حيث حشد عدداً كبيراً من أوربة تقدر الرواية عددهم بـ ٥٠ (خمسين) ألف رجل[١٣٥]. أما عن سبب بقاء عقبة في عدد قليل من أصحابه فتمر عليه بعض الروايات مراً سريعاً فابن عبد الحكم يقول: أن عقبة «انصرف إلى افريقية فلما دنا من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه، وأذن لهم حتى بقي في قلة»[١٣٦]. أما رواية ابن الأثير فتقول: أنه «أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجا ثقة منه بما نال من العدو»[١٣٧] والحقيقة أنه ليس من الغريب أن يأذن عقبة لرجاله بالاسراع إلى أهليهم وذراريهم، بعد ما أنجزوه من الأعمال في تلك الحملة الكبرى التي استمرت أكثر من عام من غير شك[١٣٨]، وخاصة أنهم كانوا محملين بالمغانم والسبي. وطبيعة الحال هذه لاتدع مجالاً لما يقوله جوليان من أن عقبة ربما لم يكن مسيطراً على قواته[١٣٩]. أما ما يقوله ليفي بروفنسال من أنه «لابد أن أخباراً مقلقة قد بلغت عقبة من افريقية، فلا يكاد يصل إلى المغرب الأوسط حتى يبعث معظم جنده إلى القيروان على عجل[١٤٠]، فمع أن هناك نصوصاً في ابن عبد الحكم قد تؤيده، كتلك التي تقول أن القيروان تعرضت لهجمات قوية من الروم ومن البربر[١٤١]، فإن طبيعة الأشياء لاتسمح بهذا الفرض. فلو أن عقبة أراد نجدة العرب في القيروان لما تباطأ هو نفسه في العودة قبل الناس. والأقرب إلى المنطق هو ما تتفق عليه الروايات من أن الرجل العسكري الذى لايكّل من الحرب ولايمّل، رأى عندما وصل إلى مدينة طبنة – على مسيرة ٨ (ثمانية) أيام من القيروان – أن يعود معظم رجاله إلى القيروان، واستبقى معه عدداً من خيرة الرجال لينهي به ما قد أجّله في أول

---

(١٣٥) النص الجديد لبروفنسال، ص ٢٢٠، وقارن ابن خلدون (ج٦ ص ١٠٩) حيث يقول أن كسيلة تراسل وقومه.

(١٣٦) ابن عبد الحكم، ص ١٨٩، وقارن المالكي، ج١ ص ٢٥.

(١٣٧) ابن الأثير، سنة ٦٢، ج٤ ص٥٤، وقارن ابن عذارى ج١ ص ٢٨ (أمر أصحابه فتقدموا ثقة منه بما دوخ من البلاد ...).

(١٣٨) يقول ابن عذارى (ج١ ص ٣٠): مكث عقبة في المغرب ٣ (ثلاث) سنوات.

(139) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 321.

(١٤٠) النص الجديد صحيفة المعهد المصري بمدريد، ١٩٥٤، الدراسة، ص ٢٠٩.، وقارن كتاب الإنسان لابن عبد الحليم (نصوص مفاخر البربر)، ص ٨٩ – ٩٠

(١٤١) انظر ابن عبد الحكم، ص ٩٩، وفيما بعد، ص ٢٠٦.

الحملة من ترك عدد من الحاميات الرومية معتصمة بقلاعها. وذلك ما أخذه عليه يليان عندما طلب منه المشورة.

وهكذا فكر عقبة فى الاستيلاء على مدينتى تهودة وبادس (غير بعيد من بسكرة)، ونعتقد أن هذا الأمر لم يكن يتطلب من عقبة إلا الإبقاء على بضع مئات من رجاله، وليس خمسة آلاف كما تقول بعض النصوص[١٤٢]. وفى هذه الظروف حدثت المراسلات بين الروم وكسيلة، وتمكن البربرى من الهرب، وحشد أهله وبنى عمه[١٤٣]. وعرج عقبة فى جماعة أصحابه الصغيرة على تهودة، فاعتصمت الحامية الرومية بالحصن، وأخذ الروم الاستخفاف بأصحاب عقبة لقلتهم، فجعلوا يشتمونه ويرمونه بالحجارة والنبل وهو يدعوهم إلى الله ...»[١٤٤]. وعلى حين غرة وجد عقبة نفسه أمام جموع كسيلة. وعرف عقبة ما يضمره الأوربى له من الشر، وكان من الطبيعى ألا يجفل المحارب العريق وجماعة فرسانه الصغيرة، ومعهم أبو المهاجر، من كثرة العدو وهوله، فقرروا مواجهة المحنة ببطولة الشجعان، فنزلوا عن خيولهم - حتى لايفروا -، وكسروا أجفان سيوفهم، حتى تظل مسلولة إلى النهاية -، وقاتلوا حتى قتلوا «جميعاً» كما تصر على ذلك كل الروايـات ، رغم أنها تذكر أن بعضهم أسر مثل محمد بن أوس الانصارى فى نفر يسير، فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان[١٤٥].

والكُتّاب لايحددون وقت استشهاد عقبة بشئ من الدقة إذ يفهم من الروايات أنه استشهد فى نفس السنة التى ولى فيها وهى سنة ٦٢ هـ/ ٦٨١ - ٦٨٢م. ولكن هناك رواية فى ابن عذارى تقول أن غزوة عقبة ربما استغرقت العام الأول من ولايته والذى يليه[١٤٦]، بمعنى أن وفاة عقبة كانت فى سنة.٦٣ هـ/ ٦٨٢ - ٦٨٣م، وهذا ما يقول به النص الجديد الذى نشره بروفنسال[١٤٧]. هذا، ونحن

---

(١٤٢) ابن عبد الحكم، ص ١٩٩، النص الجديد، ص ٢٢٠، وقارن ابن الأثير • سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٤) الذى يقول أنه سار إلى تهودة فى نفر يسير، وابن عذارى (ج١ ص ٢٨) الذى يقول: أنه كان فى قلة من أصحابه).

(١٤٣) ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٤ (النويرى، ص ٧٢ أ).

(١٤٤) ابن عذارى، ج١ ص ٢٨، قارن النويرى، المخطوط، ص ٧١ ب. والمنشور (أبو ضيف)، ص ١٩٤.

(١٤٥) ابن عبد الحكم، ص ١٩٩، المالكى، ج١ ص ٥، ابن الأثير سنة ٦٢ ص ٥٤.

(١٤٦) ابن عذارى، ج١ ص ٢٤.

(١٤٧) النص الجديد، ص ٣٢٠، وانظر كتاب الأنساب (من مفاخر البربر)، ص ٩٠ وقارن تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ٣٤٥ (حيث يضع الغزوة جميعاً فى سنة ٦٣ هـ).

نميل إلى الأخذ برواية ثالثة لابن عذارى تقول أن عقبة مكث فى المغرب ٣ (ثلاثة) أعوام، وهذا يعنى أنه توفى فى أواخر سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٤م.أوائل سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤م[١٤٨]، مما يترتب عليه تقليل الفترة ما بين مقتل عقبة والثأر له على يدى زهير سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨ - ٦٨٩م، وهذا أقرب إلى المعقول. وقبر عقبة يعرف الآن باسم «سيدى عقبة» وهو الاسم الذى غلب على مدينة تهودة، وقبره مبجل من المغاربة جميعاً، يحجّون إليه من كل مكان، وهو يعتبر من أقدم نماذج العمارة الإسلامية فى بلاد المغرب[١٤٩].

كسيلة أمير القيروان (٦٥ - ٦٩ هـ/ ٦٨٤ - ٦٨٨م):

وحشد كسيلة كل قبائل أوراس والمغرب الأوسط، وزحف نحو القيروان. ولاشك فى أنه كان لنبأ استشهاد عقبة صدى هائل فى القيروان بلبل الأفكار وزعزع الثقة فى نفوس الناس الذين انقسموا إلى فريقين: فريق يريد القتال وصدّ الزحف البربرى أو الاستشهاد وعلى رأسه نائب عقبة وهو زهير بن قيس البلوى، وفريق يرى ألا سبيل إلى الوقوف أمام العاصفة الهوجاء وأنه لابد من الانحناء أمامها إلى أن تمر، وكان على رأس هذا الفريق التابعى المشهور حنش (بن عبد الله) الصنعانى[١٥٠]. ولانعرف إن كان حنش من العسكر الذى بقى مع زهير فى القيروان أو أنه حضر غزو المغرب الأقصى مع عقبة، ولو أننا نميل إلى هذا الرأى الأخير، فقد عرف عن حنش نشاطه العسكرى واشتراكه فى الشئون العامة فى المغرب حينئذ ثم فى الأندلس مع موسى بن نصير، وفى المشرق أيام فتنة ابن الزبير فيما بين هذا وذاك.

والظاهر أن القيروان تعرضت أثناء غياب عقبة لهجمات من جانب الروم والبربر، وربما وقع هذا بعد ذلك التلاقى أو التحالف بين الفريقين. فابن عبد الحكم يذكر أنه بعد مسير عقبة «خالفه رجل من العجم (والمقصود هنا الروم) فى ٣٠ (ثلاثين) الفا إلى عمر بن على، وزهير وهما فى ستة آلاف»، ثم يقول فى موضع آخر أن ابن الكاهنة (والمقصود هنا البربر كما سنرى فيما بعد) هاجم

---

(١٤٨) ابن عذارى، ج١ ص ٣٠.

(١٤٩) انظر بروكلمان، تاريخ الشعوب والدول الإسلامية (بالفرنسية)، ص ٧١؛ وانظر:
Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 321.

(١٥٠) ابن عذارى، ج١ ص ٣١.

القيروان وبها القرشي وزهير، ولكنهما نجحا فى هزيمته وكبداه خسائر فى أصحابه[١٥١]. ونعتقد أن ذكر ابن الكاهنة فى هذا المقام إن لم يكن صحيحاً، فهو يمثل فكرة تحالف بربر المغرب الأوسط (بربر جراوة قبيلة الكاهنة وجبل أوراس) وبربر المغرب الأقصى (بربر أوربة قبيلة كسيلة وحلفاؤهم من البرانس). وهكذا اختلف العرب أمام ذلك التحالف الكبير فى المقاومة أو الانسحاب من افريقية، وبدأ حنش الصنعانى بالانسحاب نحو مصر[١٥٢]، وتبعه زهير بعد أن وجد نفسه فى قلة قليلة من الرجال لاتستطيع الوقوف أمام كسيلة. ولم يبق فى القيروان من المسلمين إلا الشيوخ والنساء والأطفال[١٥٣]، بعد أن خرجت جماعات أخرى من العرب والموالى من البربر إلى طرابلس حيث أقاموا[١٥٤]. وهكذا انتهت حملة عقبة الكبرى بكارثة إذ فقد العرب كل فتوحاتهم فى افريقية والمغرب، فقد كان انسحاب زهير إلى اقليم برقة[١٥٥] حيث أقام فى المنطقة التى عرفت باسم «لوبية ومراقية»[١٥٦].

ودخل كسيلة القيروان وتأمر على العرب والبربر فيها، وأصبح أشبه ما يكون بملك لافريقية. والذى يفهم من النصوص أن كسيلة لم يرتد عن الإسلام، وقرينة ذلك أنه عامل المسلمين فى القيروان معاملة طيبة[١٥٧]. والحقيقة أن كسيلة ما كان ليرتد بعد أن حسن إسلامه، ولاشك فى أنه فهم أن اساءة عقبة له لم تكن لتزيد عن مسألة شخصية لا علاقة لها بمبادئ الإسلام المبنية على الإخاء

---

(١٥١) ابن عبد الحكم، ص ١٩٩.

(١٥٢) أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٣١ (قال حنش: يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعنى فتبعه الناس»).

(١٥٣) المالكى، ج١ ص ٣٨، ابن عذارى، ج١ ص ٣١. أما عن رواية خليفة بن خياط (ج١ ص ٢٤٥) فتحوى خطأً جسيماً إذ تقول أن كسيلة قتل زهير بن قيس وأصحابه، رغم أنها تعود إلى ذكر العكس من ذلك فى حوليات السنة التالية ٦٤ هـ (ج ص ٢٤٨).

(١٥٤) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠.

(١٥٥) ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٤، ابن عذارى ج١ ص ٣١.

(١٥٦) المالكى، ج١ ص ٢٩ (ويلاحظ أن رواية المالكى هنا مضطربة إذ يخلط بين انهزام زهير إلى برقة وانتصاره فيما بعد على كسيلة). وعن لوبية ومراقية، أنظر فيما سبق (الفصل الخاص بالبلاد)، ص ٧٢ – ٧٣ والهوامش.

(١٥٧) انظر ابن عذارى، ج١ ص ٣١، ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٩، أما ما يقوله الكتاب عن ارتداد البربر (ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٣) فالمقصود به ثوراتهم لا أكثر ولاأقل.

والمساواة. هذا ما يفهم من بعض النصوص التى تقول أن كسيلة عندما ثار بعقبة إنما فعل ذلك من أجل تخليص صديقه أبى المهاجر من اعتقال عقبة[١٥٨].

واستمر كسيلة أميراً للقيروان ما يقرب من ٤ (أربع) أو ٥ (خمس) سنوات منذ مقتل عقبة سنة ٦٥ هـ (حسب ما أخذنا به من بعض روايات ابن عذارى)[١٥٩] إلى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨ - ٦٨٩م. وخلال تلك الفترة لانعرف طبيعة العلاقة التى قامت بينه وبين الروم: هل كانت علاقة تحالف أم خضوع أم صداقة وحسن جوار؟

٥- زهير بن قيس والثأر لعقبة:

ولقد كانت أحوال الخلافة مواتية بالنسبة لكسيلة، ففى الوقت الذى انسحب فيه زهير كان الخليفة يزيد بن معاوية قد مات، وانفتحت أبواب فتنة ابن الزبير على مصاريعها. وقضى مروان بن الحكم خلافته القصيرة فى صراع من أجل استرداد مصر - طريق المغرب - كما قضى عبد الملك ابنه السنوات الأولى فى استعادة العراق والمشرق، مما اضطره إلى شراء سكوت ملك القسطنطينية عنه بالمال[١٦٠] وعندما بدأت الأحوال تميل إلى الاستقرار انتهز عبد الملك فترة هدوء نسبى، وفكر فى أمر استعادة القيروان والمغرب. وعقد عبد الملك مجلساً من كبار أصحابه واستشارهم فى أمر المغرب، وفى خير وسيلة لاستنقاذ من بالقيروان من المسلمين والأخذ بثأر عقبة[١٦١]. وتم الاتفاق على أن تكون قيادة قوات افريقية إلى زهير بن قيس لأنه «صاحب عقبة، وأعلم الناس بسيرته وتدبيره، وأولاهم بطلب دمه»[١٦٢].

---

(١٥٨) انظر فيما سبق هامش ١٣٣ ص ٢١٠.

(١٥٩) انظر فيما سبق ص ٢١٢.

(١٦٠) أنظر فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة أبو ريدة، ص ١٨٢ وهامش ٣ عن اليعقوبى.

(١٦١) أنظر ابن الأثير، أحداث سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٥ (يعرف ابن الأثير أن ذلك حدث سنة ٦٩ هـ ولكنه ينبه إلى أنه يذكر الحادثة هنا «ليتصل خبر كسيلة ومقتله فإن الحادثة واحدة وإذا تفرقت لم تعلم حقيقتها») - نفس الصفحة. وعلى ذلك فهو يشير إلى زهير فى أحداث سنة ٦٩هـ إشارة سريعة. وأنظر ابن عذارى ج١ ص ٣١، وأنظر الرقيق، ص ٤٦ - ٤٧. أما ابن عبد الحكم فهو يشير فى موضع إلى أن عبد العزيز بن مروان هو الذى أرسل بعد أن ولى مصر إلى زهير يأمره بغزو افريقية ثم أنه يشير فى موضع آخر إلى أن حسان ابن النعمان هو الذى وجه زهيراً، ولو أنه يتبع ذلك بقوله: والله أعلم (الفتوح، ص ٢٠٠).

(١٦٢) ابن عذارى، ج١ ص ٣١، النويرى، المخطوط، ص ٧٣ أ، وقارن أصل الرواية فى الرقيق ص ٤٧.

ويفهم من رواية الرقيق التى يقدمها ابن عذارى أنه تمت مراسلات بين عبد الملك فى دمشق وزهير فى برقة، وأن هذا الأخير أطلع الخليفة على قوة الروم والبربر. وعلى ذلك عهد عبد الملك بولاية افريقية إلى زهير وأمده بالخيل والرجال من الشام، والأموال من مصر، كما بعث إليه بعدة من زعماء العرب من رجال الحرب[١٦٣]، ومن هؤلاء تبيع ابن امرأة كعب الأحبار[١٦٤] الذى كان خبيراً بحرب الروم فى آسيا الصغرى وجزر البحر[١٦٥].

موقعة مَمش:

وفى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م خرج زهير فى جيش كثيف من برقة صوب افريقية، وعندما دخل أرض قمونية (أى منطقة القيروان) عبأ رجاله فى هيئة القتال[١٦٦]. وكان كسيلة قد علم بمقدم زهير وحشد رجاله من الروم والبربر، فكانوا أضعاف أصحاب زهير أضعافاً مضاعفة[١٦٧]. ورغم ما يفهم من رواية المالكى المختلطة، والتى يأخذ فيها عن أبى العرب، من أن زهيراً هاله العدو وكاد يأخذه الرعب، وأن الفضل يرجع إلى ابن حيان الحضرمى وكذلك تبيع فى تهدئة روع زهير وبث الثقة فى نفوس المسلمين[١٦٨]، فإن كسيلة لم يشأ لقاء زهير بالقرب من القيروان. وتفسر النصوص ذلك على أساس استراتيجى أخلاقى يتلخص فى أن كسيلة كان يخشى أن يثب عليه عرب القيروان من خلف، ورغم ذلك لم يرد أن يغدر بهم حفاظاً لما لهم عليه من العهد. هذا إلى جانب أنه رأى أن يختار للمعركة موضعاً آخر قريباً من الجبل، فإن تحقق له النصر نزل فى أثر العرب وطاردهم إلى طرابلس، وإن انهزم اعتصم بالجبل وغاباته (الشعراء) فكان له نعم الملجأ[١٦٩]. وهكذا سار كسيلة إلى موضع يعرف بـ «مَمش» على مسيرة يوم

---

(١٦٣) ابن عذارى، ج١ ص ٣١، المالكى ج١ ص ٣٠، وانظر الرقيق، ص ٤٧ - ٤٩.

(١٦٤) المالكى، ج١ ص ٢٩، وقارن النص الجديد لبروفنسال، ص ٢٢١، وأنظر ابن حجر الإصابة رقم ٨٦٠، ج١ ص ٨٧ (الذى يحدد وفاته فى سنة ١٠١ هـ - عن أبى يونس فى تاريخ مصر).

(١٦٥) عن تبيع واشتراكه فى حرب الروم بالمشرق أنظر الطبرى، سنة ٥٤.

(١٦٦) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، وقارن خليفة بن خياط (ج١ص ٢٤٨) الذى يجعل فتح زهير وقتل كسيلة (اكسيل) فى سنة ٦٤ هـ، فكأنه يربط بين مقتل عقبة ومقتل كسيلة.

(١٦٧) ابن عذارى، ج١ ص ٣١ - ٣٢.

(١٦٨) المالكى، ج١ ص ٢٨.

(١٦٩) ابن الأثير، أحداث سنة ٦٢، ج٤ ص ٥٥. ابن عذارى، ج١ ص ٣٢، المالكى ج١ ص ٣٠، وقارن الرقيق، ص ٥٠.

من القيروان، وهذا الموضع يتميز إلى جانب أهميته الاستراتيجية بتوفر الماء فيه[١٧٠]. وسار زهير نحو القيروان ولكنه لم يدخلها، بل أقام بظاهرها بموضع باب سالم، ثلاثة أيام إلى أن استراح وأراح رجاله ودوابه استعداداً للمعركة الكبرى. وفى اليوم الرابع[١٧١] وصل زهير فى أثر كسيلة الذى خرج هو الآخر مع بربره ورومه، ووقف الجيشان وجهاً لوجه فى آخر النهار، وكان عليهما أن ينتظرا صباح اليوم التالى فباتا على أهبة الاستعداد[١٧٢]. وفى صبيحة اليوم التالى تم اللقاء الرائع بين الجمعين، وشهدت ممّش قتالاً لم تعرف افريقية له مثيلاً من قبل إذ فشى القتل فى الفريقين، وآيس الناس من الحياة. ولكنه ما كاد اليوم يشرف على الإنتهاء حتى حقق العرب نصراً كبيراً فانهزم البربر والروم، وقتل كسيلة وكثير من كبار أصحابه. وتبع العرب المنهزمين يقتلونهم ويثأرون منهم[١٧٣]. وبالغت بعض الروايات فقالت أن العرب تمادوا فى مطاردتهم (طلبهم) حتى سقوا خيلهم من نهر ملوية[١٧٤]. ثم أنهم اتبعوا ذلك بفتح مدينة شقبنارية[١٧٥].

عودة زهير ومقتله فى برقة:

ويفهم من النصوص أن غزوة زهير هذه كانت حملة تأديبية أولاً وقبل كل شئ. فبعد أن انتقم زهير لمقتل عقبة، وأخذ بثأر البطل الشهيد عاد نحو المشرق فى طريقه إلى مصر. ويفسر الكتاب ذلك بأن زهيراً كان «من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين»[١٧٦]. وأنه «رأى بافريقية ملكا عظيماً فأبى أن يقيم، وقال إنما قدمت

(١٧٠) انظر الرقيق، ص ٥٠، المالكى، ج١ ص ٣٠ (وفى صفحة ٢٨ يقول أن اللقاء تمّ بقصر أبى عبيد أو بممّش، ولو أنه يحدد ذلك قبل رحيل زهير إلى لوبية ومراقية).

(١٧١) أنظر الرقيق، ص ٥١، ابن عذارى، ج١ ص ٣٢، النويرى، ص ٧٣أ، المالكى، ج١ ص ٣٠ (يقول يوم الأربعاء بدلاً من اليوم الرابع).

(١٧٢) المالكى، ج١ ص ٣٠ (بات الناس على مصافهم). وفى رواية المالكى (ص ٢٩) التى تحدد خطأ تلك الوقعة قبل انسحاب زهير إلى لوبية ومراقية يفهم أن اللقاء وافق عيد الأضحى، وأن زهيراً سأل الروم تأخير موعد القتال من أجل العيد فأجابوه.

(١٧٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، وأنظر الرقيق، ص ٥١، ابن الأثير، سنة ٦٣ ج ٤ ص ٥٥.

(١٧٤) أنظر الرقيق، ص ٥٢ (حيث يفهم من النص أن المطاردة عن طريق مرماجنة على الحدود التونسية الجزائرية حالياً)، المالكى، ج١، ص ٣٠، ابن عذارى ج١ ص ٣٢.

(١٧٥) المالكى، ص ٣٠ (وعن شقبنارية التى تعرف حالياً باسم «الكف» أنظر الاستبصار، ص ١٦٤ وهامش ٣، ومؤنس، فتح المغرب، ص ٢٢٥).

(١٧٦) المالكى، ج١ ص ٢٩.

للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك»(١٧٧). ورغم ما تقول النصوص من أنه ترك القيروان آمنة لخلو البلاد من عدو أو ذى شوكة(١٧٨)، فالحقيقة كانت غير ذلك: فقد كانت الأقاليم الشرقية من المغرب فى ذلك الوقت فريسة لغارات تخريبية من جانب الروم، وهذا هو السبب - من غير شك - فى عودة زهير نحو المشرق. فعندما علم الروم برحيل زهير من برقة نحو افريقية(١٧٩) لقتال كسيلة، رأوا أن يهاجموا برقة. والظاهر أنهم أرادوا أن يوقعوا القوات العربية بين شقى الرحى (بين البربر فى افريقية وهم فى برقة) فخرجوا من جزيرة صقلية فى أسطول عظيم وأرسوا على الساحل البرقى(١٨٠).

ورواية ابن عبد الحكم الخاصة بمقتل زهير مضطربة - وهذا ما يفسر اضطراب رواية المالكى - وذلك أنه يجعل مقتل زهير بعد ولاية حسان بن النعمان، وذلك فى سنة ٧٦هـ أيام ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر. ولكنه رغم هذا الخطأ الزمنى فإن الرواية تحتوى على تفصيلات مفيدة - لايقلل ذلك الخطأ من أهميتها(١٨١). وحسب هذه الرواية هرب والى برقة، وهو إبراهيم ابن النصرانى، تاركاً العرب وأهل الذمة بين أيدى الروم الذين احتفظوا ببرقة مدة أربعين يوماً(١٨٢). وتشبه الروايات الحملة البيزنطية بغزوة انتقامية لاتهدف إلى استعادة المدن اليونانية القديمة بل تهدف إلى التخريب والقتل والنهب والسبى(١٨٣).

وتتلخص أهمية رواية ابن عبد الحكم فى أنها تبين السبب الحقيقى فى عودة

---

(١٧٧) ابن الأثير، سنة ٦٢، ج٤ ص ٥٥ (النويرى، المخطوط، ص ٧٣ ب)، وقارن الرقيق ص ٥٢ (الذى يظن أنه مصدر هذه الرواية)، المالكى ج١ ص ٣٠، ابن عذارى، ج١ ص ٣٢، ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٩.

(١٧٨) ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٥، ابن عذارى ج١ ص ٣٣، المالكى ج١ ص ٣٠.

(١٧٩) الرقيق، ص ٥٢ ونلاحظ هنا خلطاً فى ابن عذارى لم يتنبه إليه محقق النص إذ يقول «فبلغ الروم خروجه من افريقية إلى برقة» وهو ما لايستقيم مع بقية النص (انظر ج١ ص ٣٣). ومثل هذا الخطأ يوجد أيضاً فى النص الجديد لبروفنسال (ص ٢٢١) مما يترتب عليه قول بروفنسال فى دراسته للنص أن الروم أقبلوا إلى افريقية (ص ٢١١) والظاهر أن ابن عذارى ترك الجملة التى تقول بخروج زهير من برقة إلى افريقية، وهو يقتبس من الرقيق، وأخذ الجملة التى تأتى بعدها وتقول أن غارة الروم وافقت «قدوم زهير من افريقية إلى برقة» وهكذا كان الصحيح ما ينقله المالكى (جـ ص ٣٠) وابن الأثير (سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٥) وهو ما أخذنا به.

(١٨٠) ابن الأثير سنة ٦٢، ج٤ ص ٥٥.

(١٨١) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٢ - ٢٠٣، وعن المالكى أنظر ج١ ص ٢٩.

(١٨٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٢.

زهير من القيروان نحو المشرق، وذلك لتخليص برقة وأهلها من الروم وليس الخوف من أن تفتنه دنيا افريقية. فافريقية في ذلك الوقت كانت أرض الرباط والجهاد بمعنى أنها كانت قبلة الراغبين في الآخرة والباحثين عن الاستشهاد في سبيل الله. ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن الروم كانوا قد اتخذوا مدينة درنة (القريبة من طبرقة) مركزاً لهم[١٨٤]، وعلى مشارف تلك المدينة كانت نهاية زهير بن قيس التي يجعلها الكتاب أشبه ما تكون بنهاية مأساة عقبة الدامية. فزهير عندما التلقى بالروم لم يكن معه كل رجاله بل كان على رأس عدد قليل منهم يبلغون ٧٠ (سبعين) رجلاً[١٨٥]. والظاهر أن طبيعة المنطقة الجبلية (وجبل برقة لايبعد عن الساحل بل ينقض عليه أو يكاد في منطقة درنة) لم تسمح للعرب بالتقدم جميعاً. فاضطر زهير إلى التقدم في جماعة صغيرة من الفرسان نحو الساحل في مسالك الجبل وشعابه الضيقة، تاركاً جمهرة رجاله في الطريق الرئيسي[١٨٦]. والظاهر أنه عندما علم الروم بمقدم زهير أخذوا في الاستعداد للرحيل عن برقة، فعندما أشرف زهير على الساحل كان الروم يدخلون سباياهم من نساء العرب وذراريهم في مراكبهم. ورأى زهير حشد الروم كبيراً وتأكد من أن جماعته القليلة لاتستطيع الوقوف أمام العدو، والظاهر أنه فكر فعلاً في الانتظار لحين مجئ بقية قواته أو العودة للاستنجاد بها. فهذا ما يفهم من الروايات التي تقول أنه لم يمكنه الرجوع[١٨٧]، وهذا ما يقوله صراحة ابن عبد الحكم، لولا حماس بعض الشباب من أصحاب زهير الذين دفعوه دفعاً إلى خوض غمار المعركة غير المتكافئة[١٨٨]. في هذه الظروف الصعبة استجاب زهير لاستغاثة

---

(١٨٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٢، وقارن الرقيق، ص ٥٢، ابن الأثير سنة ٦٢ ج٤ ص ٥٥، ابن عذارى، ج١ ص ٣٣، المالكي، ج١ ص ٣٠.

(١٨٤) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٢.

(١٨٥) نفس المصدر، وقارن الرقيق (ص ٥٣) حيث يقول أنه كان معه «عدة من اشراف الناس».

(١٨٦) انظر المالكي، ج١ ص ٣٠.

(١٨٧) ابن الأثير، سنة ٦٢، ج ٤ ص ٥٥، ابن عذارى، ج١ ص ٣٣.

(١٨٨) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ (تقول رواية ابن عبد الحكم: «فتوقف ليلحق به الناس فقال له فتى شاب كان معه، جبنت يا زهير. فقال: ما جبنت يا ابن أخي ولكن قتلتني وقتلت نفسك»). هذا كما يمكن التفكير في أن يكون هناك انشقاق أو اضطراب في قوات زهير، فابن عبد الحكم يورد رواية يعترض فيها زهير على أن يكون عارض الجند في قواته رجلاً اسمه جندل بن صخر لأنه اشتهر بفظاظته وغلظته، وشدته على الناس (ص ٢٠٢ - وهو يوجه كلامه هنا إلى عبد العزيز بن مروان). كما يفهم من رواية ابن عبد الحكم أيضاً أن الوباء كان يجتاح برقة في تلك السنة (ص ٢٠٣) ولانعرف إن كان قد أثر على قوات زهير أم لا.

المسلمين، والروم يدخلونهم فى المراكب، فأمر أصحابه بالنزول[١٨٩]. بمعنى أنهم تركوا خيولهم وأصبحوا رجّاله لوعورة الأرض التى لاتسمح بحرب الخيّالة، وبمعنى أنهم لن يبرحوا أماكنهم مهما كانت نتيجة المعركة.

وهكذا تكاثر الروم على زهير وأصحابه، واقتتلوا حتى عانق بعضهم بعضاً، ولم تستطع جماعة الفرسان الصغيرة - وهى تحارب بدون خيلها - الصمود، فاستشهدوا عن آخرهم[١٩٠] كما استشهد عقبة فى تهودة. ويقول ابن عبد الحكم أن قبورهم هناك معروفة[١٩١] تدعى قبور الشهداء[١٩٢] . وفى مدينة درنة اليوم قبر مازال يحيى ذكرى استشهاد زهير وأصحابه فى تلك الوقعة، يقال أنه قبر زهير.

وسمع بالكارثة رجل من بنى مذحج اسمه عطية بن يربوع كان فاراً من الوباء فى موضع يعرف بأملس من برية برقة فاستغاث بالمسلمين فى تلك البرية، واستطاع أن يجمع حوالى ٧٠٠ (سبعمائة) رجل زحف بهم على الروم الذين لجأوا إلى مراكبهم بخيلهم وسلاحهم، وبمن معهم من سبى المسلمين[١٩٣].

ووصلت أنباء مقتل زهير دمشق فكان لها رنة حزن عميقة، «وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه»[١٩٤]. واهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالأمر، ولكنه لم يكن فى وضع يسمح له بالعمل الايجابى فى المغرب، فقد كان عليه أولاً أن يتخلص من منافسه عبد الله بن الزبير - بطل وقعة سبيطلة. وعلى ذلك لم تتمكن الخلافة من استعادة المغرب إلا بعد مقتل ابن الزبير فى سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م. ورغم أننا لانعرف بشئ من الدقة ما كانت عليه أحوال افريقية والمغرب فى فترة السنوات الأربع من سنة ٦٩ هـ إلىٰ سنة ٧٢ هـ، فمن المعروف أن الروم انسحبوا من برقة فكانت بين أيدى المسلمين، وكان يليها

(١٨٩) انظر الرقيق (ص ٥٣) حيث يقول النص أن زهيراً نادى بأصحابهم «النزول رحمكم الله، فنزلوا»، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ٣٣.

(١٩٠) انظر ابن عبد الحكم، ص ٢٠٣، الرقيق ص ٥٣، ابن الأثير سنة ٦٢، ص ٥٥، ابن عذارى، ج١ ص ٣٣، المالكى، ج١ ص ٣١.

(١٩١) فتوح مصر والمغرب، ص ٢٠٣.

(١٩٢) البلاذرى، فتوح البلادن، ص ٢٢٩.

(١٩٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٣، المالكى، ج١ ص ٣١.

(١٩٤) الرقيق، ص ٥٣، المالكى، ج١ ص ٣١، النويرى، ص ٧٣ ب.

مولى لعبد العزيز بن مروان اسمه تليد[195]. ويفهم أيضاً أن القيروان ظلت عربية إسلامية بعد أن أمنها زهير، إذ لاتذكر النصوص أن العاصمة العربية الافريقية تعرضت خلال تلك الفترة إلى أعمال عدائية من جانب الروم أو البربر، ولا لأعمال مضادة من جانب حسان بن النعمان الذى وقع على عاتقه عبء الثأر لزهير واقرار الأمور فى المغرب.

المقاومة الأخيرة وتثبيت أقدام العرب نهائياً فى المغرب:

١ - أعمال حسان بن النعمان الغسانى (٧٣ هـ/ ٩٦٣م - ٨٥هـ/ ٧٠٤م):

أ- الصراع ضد الروم والبربر:

بعد أن انتهت أزمة الخلافة الثانية، وتخلص عبد الملك بن مروان من منافسه عبد الله بن الزبير، انصب تفكير الخليفة على المغرب فجهز جيشاً كبيراً عهد بقيادته إلى أحد مشاهير قواد الشام، وهو حسان بن النعمان، من سلالة ملوك عرب الشام القدماء من الغساسنة، وعهد إليه بولاية المغرب[196]. واختيار حسان يدل على اهتمام الخليفة فى دمشق اهتماماً مباشراً بالمغرب، فحسان هو أول قائد من أهل الشام يدخل المغرب ويعهد إليه بولايتها زمن بنى أمية، كما ينص على ذلك المالكى[197]. فقد كان القواد والولاة قبل ذلك من أهل مصر. ويشير الكتاب إلى عظم كثافة جيش حسان فيقولون أن عدته بلغت ٤٠ (أربعين) ألف رجل. أما عن وقت دخوله المغرب فيختلفون فى تحديده، فالبعض يجعله فى سنة ٦٩ هـ/ ٦٨٨م أى مكان دخول زهير[198]، والبعض يضعه فى سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٧م[199] أى فى موضع دخوله الثانى كما سنرى. والأقرب إلى الصحة هو التاريخ الذى يحدده ابن عبد الحكم وهو سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م، بعد مقتل ابن الزبير مباشرة. وهذا لايتعارض مع ما يأخذ به ابن الأثير من أن حملة حسان

---

(١٩٥) ان عبد الحكم، ص ٢٠٣.

(١٩٦) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٧٩. وعن نسب حسان انظر ابن عذارى، ج١ ص ٣٢ (حسان بن النعمان بن عدس بن بكر بن مغيث بن عمرو ابن مزيقيا بن عامر بن الأزد).

(١٩٧) المالكى، ج١ ص ٣١.

(١٩٨) المالكى، ج١ ص ٣١، النص الجديد لبروفنسال، ص ٢٢١، النويرى، ص ٧٤ أ (ينقل رواية الرقيق).

(١٩٩) ابن عذارى، ج١ ص ٣٤.

كانت سنة ٧٤ هـ/ ٦٩٤ - ٦٩٤م[٢٠٠]، إذ الحقيقة أن الجيش الكبير لم يخرج إلى المغرب مباشرة بل أن الأوامر صدرت إلى حسان بالإقامة فى مصر إلى أن يتم اجتماع رجاله، وحتى تتبين الأمور وتتضح. أما عن نفقات القوات العظيمة وأعطيات الرجال فكان على خزانة مصر أن تدبره، وكان ذلك يتطلب أيضاً بعض الوقت.

فتح قرطاجنة:

وهكذا أعدت الحملة فى سنة ٧٣ هـ، وخرج حسان من مصر فى سنة ٧٤هـ على رأس جيشه الذى لم يدخل بلاد المغرب مثله من قبل[٢٠١]. ونزل فى طرابلس حيث انضم إليه من كان هناك من عرب افريقية وطرابلس[٢٠٢]. وبعد أن أصلح من شأنه خرج نحو افريقية وعلى مقدمته محمد بن أبى بكير، وهلال بن ثروان اللواتى[٢٠٣]، ودخل القيروان حيث تجهز منها للغزو. واتبع حسان خطة عسكرية جديدة أساسها مقابلة أعدائه من الروم والبربر كل على حدة حتى يسهل عليه القضاء عليهم. وهذا ما تعبر عنه الروايات العربية عندما تقول أنه لما دخل افريقية سأل عن أعظم ملوكها فقيل له صاحب قرطاجنة، فلما تم القضاء على الروم سأل عمن بقى من الملوك فدلوه على زعيمة جبل أوراس وهى الكاهنة[٢٠٤]. وبدأ حسان بتوجيه ضربته الأولى إلى قرطاجنة عاصمة افريقية القديمة، ولم يكن العرب قد حاربوها من قبل[٢٠٥]. وضرب حسان الحصار على المدينة الحصينة، وكان بها عدد كبير من الروم، ودارت معارك طاحنة بين العرب والروم ما بين تراشق بالنبل والسهام والرمى بالمنجنيقات، وما بين تلاق بين الفرسان والكماة، وكان العرب شديدى الوطأة على خصومهم، الذين يأسوا من

---

(٢٠٠) ابن الأثير، سنة ٧٤، ج٤ ص ١٧٩ (النويرى، المخطوط، ص ٧٤ أ). وقارن خليفة بن خياط (ج١ ص ٢٦٤) حيث يضع غزو حسان لجبل أوراس فى أحداث سنة ٧٢ هـ.

(٢٠١) نفس المصدر.

(٢٠٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠.

(٢٠٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠ (ويضيف ابن عبد الحكم هنا زهير بن قيس وذلك لأنه يجعل وفاته كما أشرنا بعد ولاية حسان).

(٢٠٤) المالكى، ج١ ص ٣١، ٣٢، ابن عذارى، ج١ ص ٣٤، ٣٥، النويرى ص ٧٤ أ، ٧٤ ب.

(٢٠٥) ابن الأثير، سنة ٧٤ هـ ج٤ ص ١٨٠ (وينبغى الإشارة هنا إلى أن ابن الأثير يقول أن حسان وجد فيها الروم والبربر وهذا ما لا يقوله غيره مثل ابن عبد الحكم والمالكى وابن عذارى).

إمكانهم الصمود، حتى أن كثيراً منهم فرّ فى المراكب إلى جزائر البحر وخاصة نحو صقلية[٢٠٦]. والظاهر أن ذلك تمّ خديعة إذ توجد رواية فى البكرى ينقلها التجانى تقول: أنهم طلبوا الأمان من حسان فلما أوقف القتال هرب الروم فى المراكب[٢٠٧]. ويؤكد ذلك ما يقوله ابن عبد الحكم من أن حسان لم يصب فيهم إلا قليلاً من ضعفائهم[٢٠٨]. وأما ما يكاد يجمع عليه المتأخرون من أن حسان قتل الروم قتلاً ذريعاً وأنه خرب قرطاجنة[٢٠٩]، فهو خاص بأخذ المدينة عنوة فى المرة الثانية (سنة ٧٩ هـ/ ٧٩٨م كما سنرى)، وهذا لايمنع من صحة توقيت المعارك التالية. فلقد أتبع حسان دخول قرطاجنة بإلحاق الهزيمة بالروم وبمن انضم إليهم من البربر عند صطفورة وبنزرت غير بعيد من قرطاجنة، كما أخذ يوجه سراياه فى كل أنحاء افريقية. واكتفى حسان بانهزام أعدائه، ولم ير ضرورة لانهاك كل قواه فى حرب باجة حيث هرب الروم وتحصنوا أولاً فى بونة (عنابة الحالية فى شرق الجزائر على حدود تونس) حيث لجأ البربر[٢١٠]. وكانت الجراح قد فشت بين العرب خلال معاركهم العديدة، فرجع حسان إلى القيروان لتضميد جراح الناس، ولاصلاح شئونه[٢١١].

الصراع ضد الكاهنة:

وهكذا نجحت أولى حملات حسان بدخوله عاصمة افريقية الأزلية فى سنة ٧٤ هـ، وبذلك كان يظن أن أمر المغرب قد تمهد أو كاد بعد القضاء على المقاومة النظامية من جانب الروم، فلم يعد أمامهم إلا بعض تجمعات من القبائل غير المنظمة التى يسهل اخضاعها. ولم يكن الأمر كذلك إذ تمثلت المقاومة البربرية فى ذلك الوقت فى تحالف قبائل جبل أوراس تحت قيادة امرأة يعرفها

---

(٢٠٦) لاتقول النصوص العربية أنهم فروا نحو صقلية فقط (وهذا أمر معقول لأن صقلية كانت من أهم مراكز الثقل فى ذلك الوقت) بل ونحو الأندلس أيضاً (وهذا موضع شك فالأندلس كانت قوطية ولم تكن رومية، ولو أنه من الممكن أن يكون المقصود هو أنهم فروا نحو سبتة وطنجة مثلاً وكانت لهما علاقات بالأندلس) - ابن خلدون ج٦ ص ١٠٩.

(٢٠٧) البكرى، ص ٣٧، التجانى، ص ١٠، وانظر حسين مؤنس، ص ٢٣٩.

(٢٠٨) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠.

(٢٠٩) ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨٠، ابن عذارى، ج١ ص ٣٥، المالكى، ج١ ص ٣٢.

(٢١٠) ابن الأثير، سنة ٧٤ ص ١٨٠ (النويرى، ص ٧٤ ب)، ابن عذارى، ج١ ص ٣٥، المالكى، ج١ ص ٣٢.

(٢١١) نفس المصدر.

الكتاب العرب باسم الكاهنة. وتحيط بهذه المرأة روايات شبه أسطورية ولكنه يمكن أن يكون لها أساس من الصحة. فالحقيقة أن الكاهنة ليس اسم المرأة بل هو لقب أطلق عليها نظراً لخبرتها بالسحر وفراستها في التنبؤ بما يقع من الأحداث، وهذا ما عرف به الكهان قديماً، وهذا ماكان شائعاً بين البربر في جاهليتهم[٢١٢]، وما كان يشتهر به المغاربة بيننا إلى عهد قريب. أما اسم المرأة كما تقول بعض الروايات فهو دهيا[٢١٣]، والظاهر أن هذا هو الآخر صفة أو لقب أطلق عليها لاتصافها بالدهاء، وهو الصفة الأساسية عند السحرة والمشعوذين. أما ما يقال من أن المرأة كانت يهودية[٢١٤]، فهذا ما لم تشر إليه النصوص الأصيلة وما لم يثبت له دليل رغم ما هو معروف من أن الأفكار اليهودية عرفت بالمغرب منذ القديم[٢١٥]. فعلى العكس من ذلك تقول بعض الروايات أنه كان مع الكاهنة صنم عظيم من خشب كانت تعبده بمعنى أنها كانت وثنية[٢١٦]. أما ما هو معروف فالكاهنة بربرية من قبيلة جراوة، وهذه القبيلة من مجموعة قبائل البتر (البدو) التي سكنت جبل أوراس. ونجحت المرأة العجيبة في جمع قبائل أوراس حولها حتى سماها ابن عبد الحكم والبلاذري «بملكة البربر»[٢١٧]، وحتى قال مستشارو حسان له «أن قتلتها دان لك المغرب كله»[٢١٨]. ولانعرف إن كانت المرأة استمدت قوتها من البربر فقط أو من علاقة كانت بينها وبين الروم أيضاً. فهناك بعض النصوص تقول أنه كان من بين أولادها ابن يوناني[٢١٩]، مما يحتمل معه أن يكون الروم قد أعانوها على تثبيت مركزها أو أن بعضهم ربط مصيره بمصيرها.

هزيمة حسان:

بدأ حسان في تنفيذ الشطر الثاني من خطته في القضاء على مقاومة البربر

(٢١٢) أنظر فيما سبق، ص ١٢٠ - ١٢٢.
(٢١٣) ابن خلدون، العبر، ج٦ ص ١٠٩ (دهيا بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس).
(٢١٤) نفس المصدر، ج٦ ص ١٠٧.
(٢١٥) انظر فيما سبق، ص ١٢٣، هـ ٢٥١.
(٢١٦) المالكي، ص ٣٥ وأنظر فيما سبق، ص ١٢١ - ١٢٢ والهوامش.
(٢١٧) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، البلاذري، ص ٢٢٩، ابن خلدون، ج٦ ص ١٧٠.
(٢١٨) ابن عذارى، ج١ ص ٣٠. وقارن ابن الأثير، سنة ٦٢ ج٤ ص ١٨٠، المالكي، ج١ ص ٣٢.
(٢١٩) ابن عذارى، ج١ ص ٣٧.

بعد أن شفى رجاله مما أصابهم من الجراح، وبعد أن أصلحوا من أحوالهم، فسار نحو جبل أوراس، فى صميم المنطقة حيث لقى عقبة مصرعه. وبدأت المرأة الغريبة فى تطبيق سياسة ستمارسها فيما بعد على نطاق واسع، وهى سياسة التخريب الحربية أو ما يسمى حالياً: «حرب الأرض المحترقة» التى تهدف إلى ترك الأرض خراباً يبابا أمام الخصم، حتى لاينتفع بخيراتها ويزهد فى الإقامة بها. فعندما اقترب منها حسان أسرعت إلى حصن باغاية وخربته(٢٢٠). والظاهر أنها خشيت أن يعتصم فيه حسان(٢٢١)، وأتباعها يريدون الحرب فى الأرض المفتوحة. وانسحبت الملكة البربرية إلى مجرى ماء يختلف الكتاب فى اسمه: فابن عبد الحكم والرقيق يسميانه وادى أو نهر «البلاء»(٢٢٢)، وهذه التسمية أطلقت عليه فيما بعد تنويها إلى ما أصاب العرب فى المعركة. ويضيف الرقيق أنه سمى وادى العذارى، نسبة إلى مقتل زهرة شباب العرب، بينما يسميه ابن الأثير نينى(٢٢٣)، والظاهر أنه أحد روافد نهر مسكيانة، وهو الاسم الصحيح، كما فى ابن عذارى(٢٢٤). ووقف الجيشان على ضفة الوادى وجها لوجه فى آخر النهار، وبات الفريقان ليلة المعركة على أهبة الاستعداد للحرب. ورغم ما تقوله النصوص من أن الجيش العربى كان فى أعلى الوادى (أى فى مركز استراتيجى جيد) وأن جموع البربر كانت فى أسفله(٢٢٥)، فإن القتال المرير انتهى بانهزام حسان هزيمة منكرة، ولم يفلت إلا بعد أن ترك فى أرض المعركة عدداً كبيراً من زهرة شباب العرب حتى أطلق على موضع المعركة اسم وادى العذارى(٢٢٦). ووقع فى أسر الكاهنة

---

(٢٢٠) ابن الأثير، سنة ٧٤، ج٤ ص ١٨٠ (النويرى، ص ٧٤ ب). وقارن ابن عذارى (ج١ ص ٣٥) الذى يقول أنها أخرجت الروم من الحصن وهدمته والمالكى (ج١ ص ٣٢) الذى يقول أنها أخرجت من بها وهدمتها.

(٢٢١) الرقيق، ص ٥٥، ابن عذارى، ج١ ص ٣٦.

(٢٢٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، وقارن الرقيق، ص ٥٦ حيث يقول أن التسمية «بلى» بربرية أصلا، وهوالأمر الذى يشكك فيه ما تقوله الرواية بعد ذلك (ص ٥٧) من أن الوادى سمى بوادى البلاء، وهو ما رجحناه.

(٢٢٣) ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨٠.

(٢٢٤) ابن عذارى، ج١ ص ٣٦، وقارن المالكى (ج ١ ص ٣٣) الذى يسميه محرفاً نهر مكناسة.

(٢٢٥) الرقيق، ص ٥٦، ابن عذارى، ج١ ص ٣٦.

(٢٢٦) الرقيق، ص ٥٧، ابن عذارى، ج١ ص ٣٦.

حوالى ٨٠ (ثمانين) رجلاً من وجوه أصحاب حسان أشهرهم خالد بن يزيد القيسى الذى تبنته واتخذته مستشاراً لها[٢٢٧].

وتبع رجال الكاهنة حسان حتى خرج من حدود قابس منسحباً إلى ما وراء مدينة طرابلس حيث أقام فى موضع مازال إلى الآن يحتفظ باسم قصور حسان[٢٢٨]، وذلك قرب مدينة تاورغى الحالية على بعد حوالى ٢٥٠ كيلو متر شرق مدينة طرابلس. والظاهر أنه أقام فى بعض الحصون القديمة هناك، وأنه أضاف إليها بناء بعض الحصون الجديدة فى ذلك المكان الذى تعتبره بعض الروايات من أرض برقة[٢٢٩].

وهكذا اضطر العرب إلى التخلى عن فتوحهم فى افريقية والمغرب للمرة الثالثة خلال عشر سنوات (من ٦٥ هـ إلى ٧٤ هـ) ولم يبق بين أيديهم إلا أقاليم اجدابية، وبرقة، ولوبية ومراقية[٢٣٠]. وتطلب الأمر خمس سنوات طوال[٢٣١] لكى تسترجع البلاد التى سادتها الكاهنة كخليفة لكسيلة[٢٣٢]. ورغم ما يصف الكتّاب به تلك المرأة من الشعوذة واعتناق اليهودية أو الوثنية وسوء السيرة، ورغم أنهم لايشيرون إلى أى علاقة ودية بينها وبين العرب، فالمفهوم أن الكاهنة - مثلها مثل كسيلة - كانت لاتكن للعرب الحقد أو الضغينة، إن لم نقل أنها كانت تحترمهم وتعرف لهم قدرهم فى قرارة نفسها على الأقل. فكما فعل كسيلة عقب مقتل عقبة، أطلقت الكاهنة سراح الأسرى العرب وأعادتهم إلى حسان. وأكثر من هذا استبقت منهم يزيد بن خالد، الذى أعجبها جماله وشجاعته ورجاحة

---

(٢٢٧) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨٠، ابن عذارى، ج١ ص ٣٦، المالكى، جص ٢٣ (ابن عبد الحكم والمالكى يقولان أنه عبسى - أما ابن الأثير فيسميه القيسى، وهو ما تؤكده رواية الرقيق ص ٥٧، ٥٨).

(٢٢٨) انظر الرقيق، ص ٥٧.

(٢٢٩) أنظر فيما سبق ص ٧٥ (ونلاحظ أنه ترتب على قول بعض الكتاب أن قصور حسان فى برقة أن ظن بروفنسال أن حسان ارتد إلى منطقة قيرين (شحات حالياً) أى إلى منطقة مدينة برقة (أنظر النص الجديد، الدراسة، ص ٢١٢). ويفهم من رواية البلاذرى (ص ٢٢٩) أن أهم حصن فى تلك القصور كان بناء قديماً. وذلك أن سقفه كان مبنياً من عقود (أزاج)، وهذا يرجح أن تكون القصور قديمة ثم زاد فيها حسان.

(٢٣٠) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠.

(٢٣١) الرقيق، ص ٥٧، ابن الأثير، أحداث سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨٠، ابن عذارى، ج١ ص ٣٦.

(٢٣٢) انظر ابن الأثير، أحداث سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨١، حيث ينقل الواقدى أن الكاهنة خرجت للثأر لكسيلة.

عقله، وتبنته حسب التقاليد البربرية المعروفة فى ذلك الوقت بشكل قريب من التبنى والمؤاخاة عن طريق الرضاعة المعروفة عند العرب والمسلمين(٢٣٣). أما عن علاقتها بالروم التى أشرنا إليها(٢٣٤) فالظاهر أنها لم تكن فى قوة علاقة كسيلة بهم حتى أنهم انقلبوا عليها فى آخر الأمر.

تخريب افريقية:

واتبعت الملكة البربرية سياسة مبنية على مبادئ التنظيم القبلى الذى تعرفه قبيلتها جراوة البترية، وهو التنظيم البدوى الذى لايعرف مفاهيم الاقتصاد المدنى، والذى لم يكن ليلائم البلاد التى عرفت بالمدنية والنظم الاقتصادية العريقة. فكانت الكاهنة تحكم البلاد بمساعدة أبنائها وبمعونة خالد بن يزيد ومشورته(٢٣٥) ودرست الكاهنة موقفها من العرب، وعرفت أنهم لابد عائدون بعد حين كما فعلوا من قبل، وتملكت المرأة فكرة «حرب الأرض المحترقة»، التى بدأت تطبيقها عندما أخرجت الروم من باغاية وخربتها(٢٣٦)، حتى ييأس العرب من الإقامة بالبلاد. فالنصوص تقول أنها قالت للبربر: «أن العرب إنما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى، فلا نرى لكم إلا خراب افريقية كلها حتى ييأس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر»(٢٣٧).

وهكذا نزل اتباعها يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، ويخربون القرى(٢٣٨). ولذلك ينسب الكتاب خراب البلاد إلى الكاهنة وقبيلتها جراوة، ويقولون «كانت افريقية ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منتظمة حتى لم

(٢٣٣) يقول الرقيق (ص ٥٨ - ٥٩) الذى ينقله ابن عذارى (ج١ ص ٣٧، وقارن المالكى، ج١ ص ٣٤) إنها جهزت دقيق شعير ولثته بزيت، وجعلتها على ثديها، ودعت خالداً وولديها وجعلتهم يأكلون على ثديها فلما فعلوا قالت لهم صرتم أخوة. وقارن ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٩ وأنظر فيما سبق، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٢٣٤) انظر فيما سبق، ص ٢٢٤ وهامش ٢١٩.

(٢٣٥) النص الجديد، ص ٢٢٢، وقارن كتاب الانساب لابن عبد الحليم (فى نصوص مفاخر البربر)، ص ٩٣.

(٢٣٦) أنظر فيما سبق، ص ٢٢٥ وهامش ٢٢٠.

(٣٣٧) ابن عذارى، ج١ ص ٣٦، وقارن نص الرقيق (ص ٦١) الذى ينقله ابن عذارى، وأنظر النص الجديد، ص ٢٢٢، وابن الأثير، أحداث سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨٠ (النويرى، ص ٧٥ أ)، نشر أبو ضيف، ص ١٩٨).

(٢٣٨) نفس المصدر.

يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصوناً من اقليم افريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل، فخربت الكاهنة ذلك كله»[٢٣٩].

ولقد كانت سياسة التخريب التي اتبعتها الكاهنة موضع جدل بين الكتاب الأوربيين، فبروفنسال يؤيد مقالة جاتو (Gateau) ويقول أنه: «من الواضح أن نسبة هذا العمل، الذي خالف طباع البربر، إلى الكاهنة لابد أن تكون محل شك. ولاريب أن العرب – وهم المسئولون الحقيقيون عما أصاب افريقية من خراب البلاد الاقتصادي الزراعي بعد ذلك بسنوات – هم الذين نسبوا إلى بطلة الأوراس هذه الجريمة التي لابد أن نضيفها إلى حسابهم دون أدنى ظل من الشك أو التردد»[٢٤٠]. ولكن هذا الرأي لاينبني إلا على مجرد الفرض أو التخمين، وهو يجافي ما أجمعت عليه النصوص. والحقيقة أن أساس هذا الرأي هو أنه ما كانت الكاهنة ومن معها من البربر ليستسيغوا إعادة بلادهم إلى طبيعتها الرعوية، وتدمير مصادر ثروتها[٢٤١]. وهذا الرأي قد يكون مقبولاً لو كان الأمر أمر تفكير هادئ، في ظل ظروف عادية، لمشاكل البلاد الاقتصادية، ولكنها كانت الظروف الاستثنائية. ظروف الحرب التي تبيح المحظورات في بعض الأحيان.

وبناء على ذلك فلايمكن إهمال ما أجمعت عليه النصوص، والأخذ بما يجافيها أو بما هو على نقيضها دون دليل أو بيّنة. والنصوص تبين بوضوح الحكمة من القيام بهذا العمل التخريبي، وهي حكمة عسكرية. أما لو سأل سائل، ولماذا إذن لم يطبق كسيلة مثل هذه السياسة من قبل فيمكن الرد على هذا التساؤل بأن كسيلة وبربره من أوربة كانوا من البرانس، أهل المدن والحضارة، أما الكاهنة وبربرها من جراوة فكانوا من البتر أهل البداوة الذين لايفهمون الاقتصاد المدني. وأما القول بأن عرب بني هلال سوف يخربون الاقتصاد المغربي، ويقلبون الأوضاع رأساً على عقب بعد ذلك بحوالي ٤ (أربعة) قرون، فلماذا لايكون

---

(٢٣٩) ابن عذارى، ج١ ص ٣٦، وانظر الجزء الأول من النص في الرقيق (ص ٦١) منسوباً إلى قاضي افريقية واخباريها عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٩، وقارن ابن الأثير (سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨١) الذي يقول «وهذا هو الخراب الأول لافريقية». أما الخراب الثاني فالمقصود به أيام بني هلال في منتصف القرن الخامس الهجري / ١١.

(٢٤٠) النص الجديد، الدراسة، ص ٢١٢ – ٢١٣.

(٢٤١) النص الجديد، الدراسة، ص ٢١٢.

أسلافهم قد فعلوا مثلهم؟ فهذا قلب للأوضاع، ووضع للنتائج قبل المقدمات بشكل لايستقيم مع منطق الأحداث، فلكل عصر ظروفه، والتاريخ لايدور فى حلقة مفرغة ولا يعيد نفسه بشكل آلى كما قد يتبادر إلى أذهان البعض، وإلا هان معناه وبطل مغزاه. ثم أنه فيما يتعلق بعرب بنى هلال فإن مؤرخى العرب واجهوا الحقائق بشجاعة فنصوا على ما قام به الهلالية من أعمال تخريبية كتلك التى قامت بها الكاهنة وبربرها، وإن اختلفت الدوافع والأسباب.

عودة حسان:

ولقد ترتب على أعمال التدمير والتخريب موجة من الذعر بين أهل البلاد من الروم خاصة، وأتباعهم من الأفارقة، فترك كثير منهم البلاد فراراً من الكاهنة، ورحلوا فى المراكب إلى صقلية وجزائر البحر، وكذلك إلى الأندلس(٢٤٢). وكان حسان وهو معسكر فى أحواز طرابلس على علم بما يدور فى المغرب، وذلك عن طريق العرب المقيمين فى افريقية، أو عن طريق السرايا التى كان يبعث بها إلى هناك(٢٤٣). وتقول النصوص أنه كان يراسل خالد بن يزيد، وكان هذا الأخير يكتب إليه بأخبار الكاهنة(٢٤٤).

ومع أن أخبار تلك المراسلات يشوبها الطابع القصصى، وخاصة من حيث مقدرة الكاهنة على معرفة ما كان يدور ضدها من وراء ظهرها، فإنها مهمة بالنسبة لبيان الأساليب التى كانت متبعة قديماً فى اخفاء الكتب والرسائل السرية حتى لاتنكشف(٢٤٥). وبطبيعة الحال كانت تلك المراسلات بين حسان وعيونه

---

(٢٤٢) ابن عذارى، ج١ ص ٣٧، وأنظر فيما سبق، ص ٢٢٣ وهامش ٢٠٦، وفيما يأتى عن فتح صقلية.

(٢٤٣) وهنا لابأس من الإشارة إلى ما يذكره خليفة بن خياط من خروج حملتين إلى افريقية خلال الفترة التى تقابل وجود حسان فى حيز برقة. ففى سنة ٧٤ هـ لما أطلع سفيان بن وهب إلى افريقية (ج١ ص ٢٦٧)، وفى سنة ٧٥ هـ «أطلع عمير بن عبيد الخولانى بالجيش إلى افريقية» (ج١ ص ٢٦٨).

(٢٤٤) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، وانظر الرقيق، ص ٥٩ – ٦٠ (وإن كانت الرواية مقطعة الأوصال من الخروم).

(٢٤٥) من الأساليب التى يذكر استخدامها فى اخفاء كتب خالد إلى حسان وضع الكتاب فى الخبزة قبل انضاجها فى النار، وكذلك وضع الكتاب فى قربوس (والقربوس نوع من النبات حسب ابن عبد الحكم، أما الرقيق الذى ينقله ابن الأثير فيقول قربوس السرج بمعنى الجزء المرتفع منه) أنظر ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، ٢٠١، الرقيق، ص ٦٠، ابن الأثير سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠، ابن عذارى ج١ ص ٣٧، المالكى، ج١ ص ٣٤.

فى المغرب تعنى إعداد العدة لاسترجاع البلاد. وهكذا عندما أصبحت الظروف مواتية أمده الخليفة عبد الملك بالرجال والأموال، وأمره بالمسير إلى افريقية[٢٤٦].

والنصوص تختلف فى تاريخ عودة حسان إلى افريقية إلا أننا نرى أن رواية الرقيق التى ينقلها كل من ابن الأثير وابن عذارى هى أكثرها اتزاناً. وهذه الرواية لاتحدد التاريخ ولكنها تقول أن حسان أقام ببرقة خمس سنين، ولما كانت هزيمته فى سنة ٧٤ هـ تكون عودته إلى المغرب فى سنة ٧٨ أو ٧٩هـ/ ٦٩٧ - ٦٩٨م[٢٤٧]. ورواية الرقيق التى ينقلها ابن الأثير هى الوحيدة التى تعطينا تفصيلات عن الطريق الذى سلكه حسان من حدود افريقية حتى خرجت إليه جماعات من أهلها، وخاصة من الروم يستغيثون من الكاهنة[٢٤٨]، فكان فى ذلك تأييد مادى ومعنوى لحسان الذى سر بذلك. ووصل حسان إلى قابس حيث استقبله أهلها استقبال المخلّص، فرحبوا به وقدموا له الأموال[٢٤٩]. وبعد أن ترك حسان عاملاً من قبله فى قابس ترك الطريق الرئيسى الساحلى الطويل، واتخذ الطريق الصحراوى القصير عبر بلاد الجريدة إلى قفصة التى أعلنت خضوعها هى الأخرى. وأتبع حسان ذلك بالاستيلاء على كل بلاد نفزاوة وقسطيلية[٢٥٠].

والظاهر أن أهل البلاد لم يكتفوا بالاستغاثة بحسان ثم بالترحيب به، بل

---

(٢٤٦) انظر الواقدى، الذى ينقله ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨١.

(٢٤٧) الرقيق، ص ٥٧، وانظر ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨٠ (النويرى، ص ٧٥ أ)، ابن عذارى، ج١ ص ٣٦. هذا ويجب الإشارة إلى أن ابن الأثير ينقل رواية للواقدى تقول أن حسان أقام فى برقة إلى سنة ٧٤ هـ. ومفهوم أن المقصود بذلك هو خروجه لأول مرة. أما ابن عبد الحكم فيورد روايتين أحداهما تقول أن حسان أنهى أعماله فى المغرب سنة ٧٦ هـ والثانية أنه أنهاها فى سنة ٧٨ هـ، وهذا ما لايتفق مع بقية الروايات. وهذان التاريخان يمكن أن يقبلا كبداية لعودة حسان إلى المغرب، فهناك رواية فى المالكى (ص ٣٣) تقول أنه أقام فى برقة ٣ (ثلاث) سنين، وهذه تتفق مع التاريخ الأول، أما الثانى فهو قريب مما يحدده ابن الأثير هذا وإذا كان ابن خياط (ج١ ص ٢٦٧) يجعل مقتل الكاهنة فى سنة ٧٤ هـ وهى سنة هزيمة حسان، فإن النص بعد ذلك على أن الخليفة عبد الملك رد حسان إلى افريقية سنة ٧٨ هـ (ج١ ص ٧٨) يعنى عودته فى تلك السنة. بصرف النظر عن خلط ذلك بولاية موسى بن نصير. (وانظر أيضاً ج ١ ص ٣٠٠ - ٣٠١).

(٢٤٨) انظر الرقيق، ص ٦١ (حيث يقول أن من لقيه من الروم واستغاثوا به كانوا ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل، وقارن ابن الأثير، سنة ٧٤ هـ ج٤ ص ١٨١.

(٢٤٩) الرقيق، ص ٦١ (حيث يقول: أن أهل قابس «كانوا يتحصنون من كل أمير مرّ بهم» وقارن ابن الأثير، سنة ٧٤ هـ ج٤ ص ١٨١ (حيث يقول أنهم كانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء).

(٢٥٠) الرقيق، ص ٦٢، ابن الأثير سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١.

قدموا المعونة للعرب بشكل ايجابى، فأمدوه بالرجال إلى جانب الأموال. فهذا يفهم من رواية ابن عبد الحكم الذى يقول أنه كان مع حسان جماعة من البربر من البتر[٢٥١].

حول نهاية الكاهنة:

وعندما اقترب حسان من الكاهنة أدركت المرأة الغريبة بفراستها أن نهايتها قريبة. ورغم الطابع الأسطورى لقصة نهاية الكاهنة فإنها معقولة، فالمرأة لم ترض بالاستسلام ووجدت أن ذلك من العار، ورضيت أن تقتل حافظة شرفها وشرف قومها[٢٥٢]. ولكنها فى نفس الوقت رأت أن يأخذ أبناؤها الأمان وينضموا إلى جانب حسان. وأكثر من ذلك تقول الروايات أن حسان عهد إلى ولديها قيادة قواته البربرية قبل المعركة، بمعنى أن أبناء الكاهنة حاربوا فى صفوف العرب ضد قوات والدتهم[٢٥٣]. ورغم أن الأقرب إلى المعقول أن يكون أبناء الكاهنة قد طلبوا الأمان بعد القضاء على والدتهم، وهذا ما تشير إليه نفس الروايات فى نفس الوقت، أو أن يكونوا قد خرجوا عليها كما خرج غيرهم ممن لم يرضوا عن سياستها، فإن هذا العمل الفدائى من جانب الكاهنة مقبول بالنسبة لأفكار أهل ذلك العصر (القديم) بل وهو صحيح أيضاً بالنسبة لعصرنا (الحديث). فالوالد المسن يمثل الماضى الفانى والأبناء يمثلون الحاضر والمستقبل. وكان المستقبل للعرب والإسلام. هذا ما أدركته ملكة أوراس الذكية الفدائية.

مقتل الملكة الأسطورة:

وهكذا تم اللقاء بين حسان الذى كانت تتضخم قواته وتزداد بمن ينضم إليهم من أهل البلاد وبين الكاهنة التى كان ينفض عنها أتباعها شيئاً فشيئا. والنصوص المتأخرة نسبياً تشير إلى أن اللقاء وقع غير بعيد من حصن الجم (فى منتصف الطريق ما بين سوسة وسفاقس)، وأن الكاهنة اعتصمت بهذا

(٢٥١) ابن عبد الحكم، ص ٢٠١، وانظر الرقيق، ص ٦٤.
(٢٥٢) انظر الرقيق، ص ٦٢-(حيث قالت:«كيف ارحل وافر، وأنا ملكة والملوك لاتفر من الموت، فأقلد قومى عاراً آخر الدهر».
(٢٥٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٠١، ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨١، ابن عذارى، ج١ ص ٣٨، والمالكى ج١ ص ٣٤.

الحصن[٢٥٤]. وهذه الرواية تعنى أن الكاهنة تقدمت للقاء حسان على الطريق الرئيسى صوب قابس، وهذا ما تبدأ به رواية المالكى فعلا[٢٥٥]. ولكن ذلك لايستقيم مع الروايات التى يفهم منها أن الكاهنة كانت تنتظر مصيرها الدامى مع مقدم حسان. وأما رواية ابن عبد الحكم فتقول أن اللقاء تم فى أصل جبل[٢٥٦]، ويمكن أن يفهم من ذلك أن المعركة وقعت فى بلد الكاهنة نفسها أى فى جبل أوراس، وهذا ما يقوله ابن خلدون[٢٥٧]. وهذا ما تؤيده الرواية الأولى التى تقول أن الكاهنة عندما اعتصمت بحصن الجم «حفرت منه سرباً فى الحجر الصلد نفذت به إلى أصل مدينة سلقطة، وكانت أختها هنالك، فكان الطعام يجاء به إليها فى ذلك السرب على ظهور الدواب»[٢٥٨]. والظاهر أن الحقيقة تتفق مع ما يذكره المالكى[٢٥٩] من أنه حدثت معركتان كبيرتان بين حسان والكاهنة، الأولى منهما عند قابس ونظن أنها المعركة التى يقال إنها وقعت قرب حصن الجم، والثانية وهى الفاصلة وقعت فى جبل أوراس، وهذا ما تؤيده بوضوح رواية الدباغ[٢٦٠]، وأن طلب أبناء الكاهنة الأمان وقع ما بين المعركتين.

أما عن القتال نفسه فكان رهيباً بذل فيه الفريقان قصارى طاقتهما، وكثر القتل «حتى ظن الناس أنه الفناء»[٢٦١]. وانتهت المعركة الثانية بانهزام البربر، وطارد العرب المنهزمين وأدركوا الكاهنة فقتلوها[٢٦٢] فى موضع يسميه الكتاب بئر الكاهنة[٢٦٣]، وتبعوا رجالها وقتلوا منهم عدداً كبيراً. أما عن تاريخ مقتل

---

(٢٥٤) البكرى، ص ٢٠ - ٢١، التجانى، ص ٥٧، وأنظر الاستبصار (ص ١١٨) الذى يسميه قصر لخم والظاهر أنه حدث تحوير فى الاسم القديم فنسب الموضع إلى اللخميين. وعلى هذا الأساس يقول الادريسى (ص ١٣٨) أن اسم المنطقة مشتق من اسم أهلها. وقارن فيما سبق ص ١٦٥ وهامش ١٣٩.

(٢٥٥) المالكى، ج١ ص ٣٥.

(٢٥٦) ابن عبد الحكم، ص ٢٠١.

(٢٥٧) ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٩.

(٢٥٨) البكرى، ص ٣١، التجانى، ص ١٠٩، وقارن الاستبصار، ص ١١٨.

(٢٥٩) المالكى، ج١ ص ٣٥.

(٢٦٠) انظر معالم الإيمان، تونس ١٣٢٠هـ، ص ٦٠، وانظر مؤنس، فتح المغرب، ص ٢٥٩ وهامش ٣ (ولكنه يلاحظ أن تلك الرواية تعود وتقول أن الكاهنة قتلت عند طبرقة شرقى بنزرت).

(٢٦١) الرقيق، ص ٦٣، ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨١، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ٣٨، النص الجديد، ص ٢٢٣، النويرى، ص ٧٥ ب، الدباغ، ص ٦١.

(٢٦٢) ابن الأثير سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨١، وأنظر الرقيق، ص ٦٣.

(٢٦٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٠١، الرقيق، ص ٦٤، النص الجديد، ص ٢٢٣، المالكى ج١ ص ٣٦.

الكاهنة فللأسف أنه ساقط فى كتاب ابن عبد الحكم، ويكتفى الرقيق الذى ينقله ابن الأثير بالقول أن حسان عاد إلى القيروان فى رمضان سنة ٧٤ هـ/ ٦٩٤م[٢٦٤]. ولاشك أن هذه الرواية تخلط بين هزيمة حسان التى وقعت فى سنة ٧٤ هـ[٢٦٥] وبين انتصاره هذا الذى كان فى سنة ٧٩ هـ/ ٦٩٨م، كما قلنا. وبناء على ذلك فالراجح أن تكون عودة حسان إلى القيروان بعد النصر فى سنة تالية لتلك السنة. وفى ذلك تقول رواية أن عودة حسان إلى القيروان كانت فى سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م[٢٦٦]. ونحن لانستطيع أن نتخذ تلك السنة الأخيرة كتاريخ لمقتل الكاهنة[٢٦٧]، فقد جرت فيما بين مقتل الكاهنة وعودة حسان إلى القيروان أحداث هامة هى التى انبنى عليها استقرار العرب بصفة نهائية فى المغرب.

استعادة قرطاجنة وتخريبها:

فبعد القضاء على المقاومة البربرية بقى على حسان القضاء على الروم فى قرطاجنة. والنصوص التى بين أيدينا لاتذكر أن حسان سار إلى قرطاجنة بعد القضاء على الكاهنة أو هى - بشكلها الراهن - لاتبين ذلك صراحة. وذلك أنها تخلط بين فتح قرطاجنة فى حملة حسان الأولى سنة ٧٤هـ، وفتحها الثانى فى حملته سنة ٧٩ هـ. وفتح قرطاجنة هذا يذكرنا بفتح الاسكندرية سنة ٢١ هـ ثم سنة ٢٥ هـ، والأول فتح صلح والثانى فتح عنوة[٢٦٨]. فالكتّاب عند كلامهم عن فتح قرطاجنة على يدى حسان يتكلمون عن الصلح مع الروم ثم نقضهم، وإعادة الفتح عنوة، وتخريب المدينة. والمالكى هو الوحيد الذى يتحدث عن أخذ قرطاجنة بعد القضاء على الكاهنة والعودة إلى القيروان. ولكنا نعتقد أنه يخلط بين الصلح والعنوة[٢٦٩]. والحقيقة أنه ينبغى أن يكون الصلح قد وقع فى الفتح الأول

---

(٢٦٤) الرقيق، ص ٦٤، ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨١.

(٢٦٥) انظر فيما سبق، ص٢٢٥ وهـ ٢٢٣، ص ٢٢٦ وهـ ٢٣٠.

(٢٦٦) ابن عذارى، ج١ ص ٣٨، النص الجديد، ص ٢٢٣. (وقارن كتاب الأنساب (فى مفاخر البربر)، ص ٩٥.

(٢٦٧) قارن مؤنس (فتح العرب للمغرب، ص ٢٥٦ وهامش١) الذى يوافق على هذا التاريخ، وكذلك دراسة بروفنسال للنص الجديد (ص٢١٣) حيث يقول أنه انقضت فترة عشر سنوات ما بين انهزام حسان سنة ٧٣ هـ وانتصاره سنة ٨٣ هـ، وهذا ما لايتفق مع منطق الأحداث فما كانت الخلافة لتنتظر عشر سنوات طوال لكى تسير حسان من جديد إلى المغرب.

(٢٦٨) انظر ابن عبد الحكم، ص ٨٠.

(٢٦٩) انظر المالكى، ج١ ص ٣٧ (الدباغ، معالم الإيمان، ص ٦٢).

(سنة ٧٤ هـ)[٢٧٠] والعنوة فى الفتح الثانى. وهناك نص فى البكرى يقول «وأغارت الروم من البحر على من بقى من المسلمين بمدينة «تونس» (والمقصود قرطاجنة)، خرجت إليهم فى المراكب فقتلوا من بها وسبوا وغنموا، ولم يكن للمسلمين شئ يحصنهم من عدوهم، إنما كانوا معسكرين هناك»[٢٧١]. ويفهم من هذا النص أن المسلمين كانوا معسكرين فى قرطاجنة بمعنى أن المدينة إذن لم تخرب بمجرد فتحها. وأما عن الغارة على العرب فى قرطاجنة فإن الروم انتهزوا فرصة انسحاب حسان إلى برقة (سنة ٧٤ هـ/ ٩٣ - ٦٩٤م) وسيروا حملة فى البحر بقيادة البطريق يوحنا، استطاعت أن تفتك بالحامية العربية الصغيرة. وأن تستعيد المدينة[٢٧٢].

وهكذا كان على حسّان بعد أن قضى على الكاهنة أن يسير ضد قرطاجنة. أما عن مرجعنا فعبارة عن المعلومات المقتضبة الخاصة بتخريب قرطاجنة. فلقد سار حسان نحو العاصمة الافريقية دون أن يلقى مقاومة فى الطريق. ويمكن القول أنه كان بصحبة القوات العربية فى هذه الغزوة قوات مساعدة من البربر. فالنصوص تقول أنه بعد انهزام البربر تم الصلح بينه وبينهم على أن يمدوه بـ ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل يجاهدون العدو معه، وأنه قسم تلك القوة إلى جماعتين فى المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر»[٢٧٣]. وضرب حسان الحصار على المدينة، ولم يطق الروم مدافعة العرب فهربوا فى سفنهم، ودخل حسان المدينة عنوة فى تلك المرة. وإذا كان عمرو بن العاص عندما دخل الاسكندرية ثانية أقسم ليهدمن سورها، وليجعلنها مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان[٢٧٤]، فإن حسان قرر أن يتخلص من قرطاجنة كلها، وهى الباب الذى يأتى منه الروم، وذلك بسبب

(٢٧٠) انظر فيما سبق ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢٧١) البكرى، ص ٣٧ - ٣٨، وقارن التجانى (ص٦) الذى يذكر غارة الروم هذه على رادس وهى ميناء تونس. والظاهر أن تلك الرواية مأخوذة أصلاً من الرقيق (ص ٦٥ - حيث الإشارة إلى مرابطة حسان برادس سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥م بعد وفاة عبد الملك وخلافة الوليد، وهو الأمر غير الصحيح).

(272) Ch. Diehl et G. Marçais, Le monde oriental ..., Paris, 1944, p. 207.

مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ٢٥٤ (النصوص البيزنطية تقول أن حملة يوحنا كانت سنة ٦٩٧ م - ٧٨ هـ).

(٢٧٣) ابن الأثير، سنة ٧٤، ج١ ص ١٨١، ابن عذارى، ج١ ص ٣٨، النويرى، ص ٧٥ ب، وقارن الرقيق (ص ٦٤) الذى يظن أن الرواية له أصلاً.

(٢٧٤) ابن عبد الحكم، ص ١٧٥.

تطرفها وصعوبة الدفاع عنها. فبعد أن أعلن أهل الأقاليم المجاورة خضوعهم، أرسل إليهم حسان فأتوه مسرعين، فأمرهم بتخريب المدينة، وقطع القناة التى تجلب إليها الماء، ففعلوا[٢٧٥] وهكذا انتهت المدينة الأزلية، التى عاشت بعد تخريبها فى الحرب البونية الثالثة، «وأصبحت كأمس الغابر» كما يقول ابن عذارى[٢٧٦].
وعاد حسان إلى القيروان فى رمضان سنة ٨٢ هـ[٢٧٧].

ب- أعمال حسّان الإدارية والعمرانية:

بالقضاء على مقاومة البربر، وبتخريب قرطاجنة استقر سلطان العرب، وبذلك يمكن اعتبار حسان بن النعمان الفاتح الحقيقى لبلاد المغرب، فلقد أقام حسان فى القيروان «لايغزو أحداً ولا ينازعه أحد»[٢٧٨]. وبناء على ذلك بدأ حسان يهتم بعمران مدينة القيروان حتى تصبح جديرة بمركزها كعاصمة للبلاد بدلاً من قرطاجنة. وبدأ بالمسجد الجامع بالقيروان فجعله موضع عنايته. وابن عبد الحكم يقول «وبنى مسجد جماعتها»[٢٧٩]، والظاهر أنه جدد بناءه كما يقول المالكى، وزاد فيه (كما سيفعل أمراء افريقية فيما بعد)، وتم ذلك فى شهر رمضان من سنة ٨٤هـ/ سبتمبر ٧٠٣م[٢٨٠]. ومع الأمن والسلام انتشر العمران فى المدينة واتسعت رقعتها.

واعتنى حسّان بتنظيم الإدارة المالية والجيش: فهناك إشارات سريعة إلى أنه دون الدواوين[٢٨١] بمعنى أنه اتخذ السجلات والموظفين. والدواوين هنا يمكن أن تنطبق على التراتيب الإدارية وأهمها كتابة الرسائل. وكان حسان عندما يخرج من القيروان ينيب عنه مولاه أبا صالح[٢٨٢]، وهكذا أصبح استخدام الموالى فى أهم المناصب بالمغرب - الأمر الذى بدأ بولاية أبى المهاجر - شيئاً عاديا. وهنا ينبغى

---

(٢٧٥) ابن عذارى ج١ ص ٣٥، ابن الأثير سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨٠، المالكى، ج١ ص ٣١ - ٣٢.
(٢٧٦) ابن عذارى، ج١ ص ٣٥.
(٢٧٧) ابن عذارى، ج١ ص ٣٨، النص الجديد، ص ٢٢٣، وانظر فيما سبق، ص ٢٣٣ وهامش ٢٦٧.
(٢٧٨) الرقيق، ص ٦٤، ابن عذارى، ج١ ص ٣٨، ابن الأثير، سنة ٧٤ ج٤ ص ١٨١.
(٢٧٩) ابن عبد الحكم، ص ٢٠١.
(٢٨٠) المالكى ج١ ص ٣٧ (الدباغ، ص ٦١).
(٢٨١) ابن عبد الحكم، ص ٢٠١، الرقيق، ص ٦٤.
(٢٨٢) ابن الأثير، ص ٧٤ ج٤ ص ١٨١، وانظر المالكى، ج١ ص ٣٧ (عن بعض أعمال أبى صالح).

الإشارة إلى ما ينص عليه ابن عبد الحكم من أنه كان على برقة مولى لعبد العزيز بن مروان اسمه تليد، وأنه لما ضاق الناس بإمامة عبد لهم اعتقه عبد العزيز[٢٨٣].

وفيما يتعلق بالسياسة المالية نظم حسان الضرائب ففرض الخراج على الروم بافريقية، وكذلك على نصارى البربر، وكان معظم هؤلاء من بربر البرانس وأقلهم من البتر[٢٨٤]. ومع أنه من الواضح أن النصوص تقصد بكلمة الخراج هنا الجزية (أى ضريبة الرؤوس التى يدفعها أهل الذمة)، نعتقد أنه قصد بالخراج التعميم أى الضريبة عامة سواء كانت جزية أو ضريبة أملاك وعقارات، أى كل ما يخرجه المرء من الأموال.

وفى هذا المجال ينسب إلى حسان أنه احتفظ بدار الضرب التى كانت فى قرطاجنة، وأنه ضرب النقود فى افريقية - حسب السياسة التى رسمها الخليفة عبد الملك فى المشرق - على الطريقة البيزنطية. ولا بأس أن يكون حسان قد أدخل بعض التعديلات على رسم ذلك الطراز الرومى من النقود. فجعل على وجه الدينار صورة عبد الملك وابنه الوليد (بدلاً من صورة القيصر وولى عهده) مع كلمات باللاتينية تعبر عن «اسم الله الرحمن الإله الأحد»، وجعل على ظهر الدينار صورة صولجان (بدلاً من الصليب البيزنطى) جمع كلمات باللاتينية تعبر عن معنى «وحده لاشريك له ولامثيل له»، مع تاريخ الضرب ومكانه بافريقية[٢٨٥]. وإذا كان الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ينسب هذه التعديلات إلى موسى بن نصير، فإنه ينص على أن تحول النقود الافريقية إلى طراز عربى صميم لم يتم إلا فى ولاية اسماعيل ابن أبى المهاجر[٢٨٦]، أى فى خلافة عمر بن عبد العزيز.

أما عن السياسة العسكرية فكان من الطبيعى أن تكون وثيقة الصلة بالسياسة

---

(٢٨٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٣.

(٢٨٤) ابن عبد الحكم، ص ٢٠١ (النص هنا يسمى الروم أيضاً بـ «عجم افريقية»). قارن الرقيق، ص ٦٤، ابن عذارى، ج١ ص ٢٨، النص الجديد، ص ٢٣.

(٢٨٥) انظر محمد على دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج٢ ص ١١٩ - حيث الإشارة إلى محاضرات للشيخ عبد العزيز الثعالبى عن فتح المسلمين لشمال افريقية، جريدة الضياء المصرية، عدد ٢٧ مارس ١٩٣١.

(٢٨٦) انظر حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات، القسم الأول، ط. تونس ١٩٦٥، ص ٤٠٠ - ٤٠٤. وعن الفلوس النحاسية التى ضربها موسى بن نصير بافريقية فى تلمسان (تلمسين) والمنقوشة بالعربية تماماً، وإن كانت تحمل صورة وجه شخص ملتح بذقن مدبب على الطريقة العربية، وشعر رأسه مفروق من الوسط ناحية الأذنين، انظر نفس المرجع، ص ٤٠٥ - ٤٠٦.

الدينية، فالغرض من الفتح كما هو معروف نشر الإسلام والتعريب، وتلك كانت رسالة العرب. ويرجع الفضل إلى حسّان فى أنه كان أول من أدخل البربر بشكل جدى منظم فى الجيش العربى الافريقى. حقيقة أن نشر الإسلام بين البربر بدأ منذ وطأت أقدام العرب البلاد، وكان لعقبة بن نافع نشاطه فى هذا الميدان منذ أيام عمرو بن العاص، وأن تلك السياسة بدأت تؤتى ثمارها بشكل واضح أيام ولاية أبى المهاجر الذى أدخل كسيلة فى الإسلام وحالفه، إلا أن إسلام البربر وتحالفهم مع العرب، حتى ذلك الوقت، كان مؤقتاً يتراوح ما بين الإخلاص والسياسة. فحسان هو الذى فرض الخدمة العسكرية على أهل البلاد جنباً إلى جنب مع العرب. فعند دخوله المغرب لأول مرة كان على مقدمته أحد زعماء لواته، وهو هلال بن ثروان اللواتى[٢٨٧]، ونظن أن هذا القائد كان يرأس قوة من قومه اللواتين. وعندما طلب أبناء الكاهنة الأمان أعطاهما إياه دون حقد أو غضاضة، بل إنه اكتسبهما تماماً إلى جانب العرب عندما جعلهما على رأس القوات البربرية التى كانت تخدم معه. وبعد أن تم له النصر على الكاهنة أخذ ١٢ (اثنى عشر) ألفاً من البربر جعل منهم فرقتين كل واحدة منها ستة آلاف، وعهد بقيادتهما إلى يفرن ويزديان ولدى الكاهنة. وكانت الخدمة فى الجيش العربى تعنى دخولهم فى الإسلام، فقد عهد حسان بتعليمهم القرآن وأصول الإسلام إلى ١٣ (ثلاثه عشر) فقيه من أجلة التابعين من أصحابه[٢٨٨]. وبطبيعة الحال كان تعليم القرآن لهؤلاء البربر وغيرهم يعنى تعليمهم اللغة العربية، ونشر التقاليد والعادات العربية بينهم، واكتسابهم إلى جانب العروبة بصفة نهائية، وبذلك سار التعريب جنباً إلى جنب مع الإسلام منذ بداية الشوط.

هكذا دخل البربر فى الإسلام بنية صحيحة[٢٨٩] فى هذه المرة، «فبنوا المساجد، وحولوا القبلات للمساجد التى كانت لهم قبل ذلك، واستعملوا المنابر فى المساجد التى عزموا على أن يجعلوا فيها الجمعات»[٢٩٠]. ولم يقف هذا النشاط الدينى عند حدود افريقية والمغرب الأوسط بل تعداه إلى المغرب الأقصى

(٢٨٧) انظر فيما سبق، ص ٢٢٢ وهامش ٢٠٣.

(٢٨٨) أنظر النص الجديد، ص ٣٢٣، وقارن كتاب الانساب لابن عبد الحليم (مفاخر البربر)، ص ٩٥.

(٢٨٩) نفس المصدر.

(٢٩٠) نفس المصدر.

حيث بنى عقبة مسجدى درعة ونفيس، فتقول بعض النصوص أنه على أيام حسان استخدم المنبر لأول مرة فى جامع أغمات هيلانة، وذلك فى سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤م، ونقش ذلك التاريخ على المنبر[٢٩١]، أى قبيل نهاية إمارة حسان.

بناء تونس:

إذا كان اسم حسان قد التصق بخراب العاصمة الافريقية القديمة فإن اسمه لصق بالعاصمة الحالية وهى مدينة تونس التى أعطت اسمها للبلاد. فبعد أن استقر حسان فى القيروان، وأشاع الأمن والسلام فى البلاد، فكر فى بناء مدينة تكون نافذة جديدة تطل منها افريقية على العالم الخارجى - ولكن بشئ من التربص والحذر - وتحل محل قرطاجنة. وكاتب حسان الخليفة عبد الملك فى هذا الأمر ورأى الخليفة أن تساهم مصر بخبراتها البحرية، فأرسل إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر بأن يجهز ألف أسرة قبطية من أهل المعرفة بصناعة السفن، ويرسلهم إلى افريقية لإنشاء المدينة الجديدة التى تقرر أن تكون قاعدة بحرية إزاء الروم[٢٩٢]. وكان على البربر أيضاً أن يساهموا فى البناء، فتقرر أن يكون جلب الخشب اللازم لصناعة المراكب من غابات الجبال الداخلية نوعاً من «التكليف» يقومون به. ونظن أن ذلك العمل كان نوعاً من الخدمة أشبه بالجندية الإلزامية إذ يقول النص: «ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر[٢٩٣]»، ولهذا آثرنا أن نسميه (تكليفاً) كما نقول اليوم».

وخرج حسان من القيروان فى سنة ٨٤ هـ/ ٧٠٣م لارتياد موضع غير بعيد من خرائب قرطاجنة. ويفهم من رواية المالكى[٢٩٤] أن خروج حسان كان أشبه ما يكون بحملة «بوليسية» إذ تم خلاله القضاء على بعض جيوب المقاومة التى بقيت قرب السواحل. فعندما وصل حسان إلى قرية طنبذة على مسيرة أميال من

---

(٢٩١) نفس المصدر، ونلاحظ أن نصوصاً أخرى (ابن عذارى، ج١ ص ٤٣) تنسب إقامة منبر أغمات إلى موسى بن نصير، وربما كان ذلك بسبب أنها تجعل نهاية إمارة حسان وبداية ولاية موسى بن نصير قبل هذا التاريخ (أنظر فيما بعد هامش ٣١٨ ص ٢٤٤) والحقيقة أننا لانعرف شيئاً عن طبيعة علاقة حسان بالمغرب الأقصى.

(٢٩٢) انظر البكرى، ص ٣٧ (التجانى، ص ٦)، وقارن رواية الرقيق (ص ٦٥ - ٦٦) التى تجعل مكاتبة حسان إلى الوليد بعد وفاة عبد الملك، مع أن المعروف أن عبد العزيز بن مروان والى مصر توفى قبل أخيه الخليفة عبد الملك - وهذا ما جعل التجانى يرد رواية الرقيق هذه.

(٣٩٣) البكرى، ص ٣٧.

(٢٩٤) المالكى، ص ٣٧.

تونس[٢٩٥]، وجه مولاه أبا صالح إلى قلعة زغوان فنزل بموضع أمام القلعة عرف باسمه فهو «فحص أبى صالح» ولكنه عجز عن أخذ القلعة بعد أن ناشب أهلها القتال ثلاثة أيام حتى اضطر حسان إلى المسير إليها على رأس فرسانه وأخذها. ومن زغوان رجع إلى طنبذة، ومنها تقدم إلى الموضع الذى اختير لبناء تونس[٢٩٦] ويفهم من الروايات أن المكان لم يكن غير مأهول إذ كان فى موضع المدينة قرية عرفت باسم ترشيش (أو طرشيش)، وأن موضع المرسى كان يسمى فى ذلك الوقت راديس[٢٩٧]. أما عن الاسم الذى أعطى للمدينة وهو تونس، فتقول بعض الروايات أنه أطلق على الموضع لوجود صومعة للرهبان كان يلجأ الناس إلى جوارها فيأتنسون بترتيل رهبانها، فكانوا يقولون هذه الصومعة تؤنس فسمى المكان «تونس»[٢٩٨]. والأقرب إلى الصحة أنه كان فى المكان قرية قديمة اسمها تونس أو تينس (Tynés)[٢٩٩] حاول البعض أن يجد له أصلاً عربياً، كما هو الحال بالنسبة لغيرها من المدن.

والفضل للبكرى الذى أمدنا بمعلومات طريفه عن موضع تونس وكيفية انشائها، فقد قصد بها بناء «دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ... وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم فى البر والبحر، وأن يغار منها على ساحل الروم فيشتغلون عن القيروان، نظراً للمسلمين وتحصيناً لشأنهم»[٣٠٠]. ووصل القبط فى البر إلى حسان، فسيرهم فى إلى ترشيش حيث تقرر أن

(٢٩٥) عن طنبذة التى سيكون لها شأن فى تاريخ الأغالبة. أنظر التجانى، ص ٨ وهامش ١ (وكانت تسمى أيامه بالمحمدية).

(٢٩٦) المالكى ص ٣٧ (وقارن الدباغ،ص ٦١، حيث طنجة بدلاً من طنبذة، ص ٩٢- حيث زعفران بدلاً من زغوان).

(٢٩٧) البكرى، ص ٣٧، الاستبصار، ص ١٢١، وقارن الإدريسى، ص ١١١، ابن أبى دينار، المؤنس، ص ٦ وتابع، وعن ترشيش (التى ربما كانت تحريفاً لـ «طرسوس، كما نظن» أنظر مؤنس، فتح المغرب، ص ٢٦٢ وهامش ٢.

(٢٩٨) البكرى ص ٧٨، الاستبصار، ص ١٢١.

(٢٩٩) انظر جوتييه، Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 127.

(٣٠٠) البكرى ص ٣٨ (ولقد اشتهر اسم رباط رادس، وقامت الدعاية لحث المجاهدين على المرابطة فيه، من ذلك ما يقال من أن علماء المشرق كتبوا إلى أهل افريقية: «من رابط عنا برادس يوماً واحداً حججنا عنه حجة» - وهى رواية الرقيق (ص ٦٥) التى ينقلها التجانى (ص ٦).

تكون موضعاً «للترسانة» الجديدة،التى تتميز بأنها غير مفتوحة على البحر مثل قرطاجنة. فقرطاجنة تقع على لسان يكون شبه جزيرة محصورة بين السبخة (سبخة الريانة) شمالاً والبحيرة (بحيرة تونس) جنوباً، بينما تقع تونس إلى الداخل غرب البحيرة التى تتصل بالبحر من جهة الشرق حيث يقع مرسى راديس. ولما كانت البحيرة ضحلة لاتسمح بسير المراكب الحربية وجب حفر قناة فى وسطها تصل ما بين دار الصناعة فى تونس والمينى (الميناء) أو المرسى فى رادس، وهذا ما فعله حسان (أنظر شكل ٨ ص ٢٤٠). وبطبيعة الحال كان يمكن اغلاق ذلك الممر عند فوهة البحيرة بواسطة سلسلة، وهذا ما كان يحدث على أيام البكرى نفسه[٣٠١].



(شكل رقم ٨)

انظر جوتييه، ص ١٢٧، جوليان، ص ٦٧

(٣٠١) البكرى، ص ٣٨ (التجانى، ص ٦ وكذلك ص ٧ حيث يورد قول البعض أن موضع بحيرة تونس كانت مزارع وبساتين قبل أن يخرقها حسان).

وقامت المدينة البحرية بما كان يرجى منها إذ عمّر القبط دار صناعتها، ومنها انتشروا إلى بقية سواحل المغرب[٣٠٢] يقيمون صناعة المراكب المصرية العتيدة. «ولم تزل تونس معمورة من يومئذ يغزو منها المسلمون بلاد الروم، ويكثرون فيهم النكاية، ولهم الاذاية»[٣٠٣].

وكان قيام المدينة الجديدة يعنى أن العرب فى المغرب أصبحوا قوة بحرية بعد أن كانوا قوة برية تخشى غشيان السواحل. كما كان يعنى انحسار قوة الروم البحرية، فلم يصبحوا كسابق العهد بهم خطراً يحسب حسابه. وهكذا كان بناء تونس التى ورثت تراث قرطاجنة، تتويجاً لأعمال حسان فى المغرب. وحق «للشيخ الأمين» - كما كان يسمى - أن يعود إلى المشرق ليقدم حساباً عن أعماله. فرجع إلى دمشق ولكنه لن يعود إلى ولايته.

٢- عزل حسان وولاية موسى بن نصير:

عزل حسان:

ظروف عزل حسان وولاية موسى بن نصير لافريقية تشبه إلى حد كبير ظروف عزل عقبة وولاية أبى المهاجر دينار على أواخر أيام معاوية، من حيث أن الأهواء والأغراض الشخصية كان لها دورها فى مجرى الأحداث، ومن حيث شعور والى مصر بقوته إزاء الخليفة، ومحاولته الاستئثار بالسلطة فى المغرب وحجبها عن دمشق. فبينما كان عبد الملك بن مروان يهتم بأمور المغرب مباشرة - سيراً على السياسة التى أصبحت تقليدية - كان أخوه وولى عهده فى ذلك الوقت عبد العزيز بن مروان يلى مصر وكأنه ملك متوج وليس أميراً تابعاً. وأخذ والى مصر العظيم يتطلع نحو المغرب، وكان له الحق فى ذلك إذ كانت مصر قاعدة الفتح ومادته، كما كان هو نفسه يرنو بأنظاره إلى ما هو أكبر من المغرب، إلى دمشق والخلافة.

هكذا يضع الكتاب عزل حسان عن ولاية المغرب فى ذلك الإطار الضيق، وكأنه نتيجة لنوع من المنافسات بين عبد الملك وأخيه عبد العزيز أو كأنه نوع من النزاع على اختصاصات والى المغرب. فمن جهة كان عبد العزيز غير راض عن

---

(٣٠٢) التجانى، ص ٦.

(٣٠٣) البكرى، ص ٣٩.

حسان (وهو ممثل عبد الملك)، ويود أن يستبدل به محميّه موسى بن نصير الذى لم يكن عبد الملك راضياً عنه. ومن جهة أخرى كان حسان - بصفته والى المغرب - يريد أن يمارس سلطاته على كل البلاد فكان ينازع عبد العزيز فى أن يكون له الاشراف على برقة التى تدخل فى حدود مصر(٣٠٤).

هكذا سجل الرقيق ونقل عنه ابن عذارى،أن عبد العزيز بن مروان هو الذى عزل حسان عن المغرب(٣٠٥)، استناداً إلى أن وُلى المغرب تابع لوالى مصر. أما ابن عبد الحكم فيرى أن حسان عاد إلى عبد الملك ليطلعه على ما تم على يديه من الفتوح، وليقدم له الحساب عما حصل عليه من المغانم والأموال(٣٠٦)، ثم أنه عندما وصل إلى مصر فى طريق عودته إلى ولايته، وقعت مشادة بينه وبين عبد العزيز بشأن برقة التى كان يديرها عبد العزيز عن طريق غلام (أى عبد) له اسمه تليد(٣٠٧).

ولايتفق الكتاب على تاريخ عودة حسان إلى المشرق. فالأمر يختلط على القدامى منهم مثل ابن خياط وابن عبد الحكم اللذين يحددان عودته بسنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م و ٧٨هـ/ ٦٩٧م، وذلك حتى يتفق هذا التاريخ مع الروايات التى يوردانها، ومن أخذ عنهما من الكتاب، عن الخلاف بين عبد العزيز بن مروان (الذى توفى فى سنة ٨٥هـ/ ٧٠٤م) وبين حسان(٣٠٨). ولقد فعل ابن

---

(٣٠٤) عن النزاع بين عبد العزيز بن مروان وحسان بن النعمان على برقة أنظر ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ ج٢ ص ٤٩ وأنظر الصفحة التالية.

(٣٠٥) انظر الرقيق (ص ٦٥ - ٦٦) الذى يضع ذلك خطأً فى عهد الوليد بن عبد الملك ويقال أن عبد العزيز أمر حسان بالقدوم عليه، «وبعث إليه أربعين رجلاً من أشراف أصحابه، وأمرهم أن يحفظوا جميع ما معه» - فكأن طمع عبد العزيز فى مغانم المغرب كان سبب العداء بينه وبين حسان، الذى احتال، كما تقول الرواية القصصية، «فعمد إلى الجوهر والذهب والفضة فجعله فى قرب الماء، وطرحه فى العسكر، وظهر ما وراء ذلك». وذلك عندما استعد لمغادرة المغرب إلى الشام، ابن عذارى، ص ٣٨. وقارن ابن قتيبة (الإمامة والسياسة، ح٢ ص ٥٠) الذى يقول أن عبد العزيز ولّى موسى فى صفر سنة ٧٩ هـ. وخليفة بن خياط (ح١ ص ٢٧٦) الذى يسجل مثل هذه الرواية.

(٣٠٦) ابن عبد الحكم، ص ٣٠١، وقارن رواية الرقيق (ص ٦٧) التى تبالغ فيما حملة حسان معه من السبى (٣٥ ألف رأس)، والأموال والخيل، التى تخير منها عبد العزيز ما أحب إلى جانب ما أهداه إياه حسان، مما جعل هذا الأخير يشكو إلى الخليفة، وهو يقدم له ما حمله إليه خفية من الذخائر والأموال.

(٣٠٧) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٣.

(٣٠٨) انظر خليفة بن خياط، ج١ ص٢٧٦، ص ٣٠٠ - ٣٠١، ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠، وأنظر فيما سبق، ص ٢٤١.

عبد الحكم ذلك أيضاً بالنسبة لعبد العزيز وزهير بن قيس البلوى، فقال أنه كان ثمة نزاع بينهما، ولهذا السبب جعل مقتل زهير فى سنة ٧٦ هـ بل وجعله تحت قيادة حسان[٣٠٩] حتى تستقيم الرواية. ونحن نرى أن التاريخ الذى يحدده ابن الأثير لولاية موسى بن نصير مقبول، وهو سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م[٣١٠]، وذلك أن حسان خرج لبناء تونس كما رأينا فى سنة ٨٤هـ/ ٧٠٣م[٣١١] . وعلى ذلك يكون الذى عزل حسان - إن كان قد عزل - عن المغرب هو عبد الله بن عبدالملك[٣١٢] الذى خلف عمه عبد العزيز بن مروان فى ولاية مصر سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤م، وتكون قصة نزاع عبد العزيز مع حسان غير صحيحة، وتكون هذه القصة المثيرة سبباً فى أن عمد الكتاب إلى تعديل تاريخ عزل حسان وجعله فى الثمانينات بدلاً من التسعينات من القرن الأول الهجرى. وهنا يصح ما يقوله الرقيق وما ينقله ابن عذارى عنه، من أن حسان عندما وصل الشام كان الخليفة فى ذلك الوقت الوليد ابن عبد الملك الذى خلف والده فى أواخر سنة ٨٦هـ.

والظاهر أن ذلك هو ما جعل ابن عذارى يستمر فى سرد رواية الرقيق التى تقصّ استيلاء عبد العزيز بن مروان (المتوفى فى سنة ٨٥هـ) على ما كان مع حسان «من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف والوصفان»[٣١٣] . ولايمنع ذلك الاضطراب الزمنى - الذى تنبه إليه ابن عذارى فقال: «وغزواته لم تنضبط بتاريخ محقق» - من صحة المعلومات الخاصة برجوع حسان محملاً بالأموال والجواهر والذهب والفضة المخبأة فى قرب الماء، وكذلك الوصائف والوصفان والجوارى من بنات عظماء الروم والبربر[٣١٤] . ورواية الرقيق التى ينقلها ابن عذارى تقول أن

---

(٣٠٩) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠ (وأنظر فيما سبق ص ٢١٨).

(٣١٠) ابن الأثير، أحداث سنة ٨٦، جـ٤ ص ٢٥٩، وقارن النويرى، المخطوط، ص ٧٦أ حيث التاريخ سنة ٨٩ - ونظنه خطأ من الناسخ).

(٣١١) انظر فيما سبق، ص ٢٣٨.

(٣١٢) يورد ذلك ابن الأثير فى أحداث سنة ٧٤ (جـ٤ ص ١٨١)، وكذلك ابن عذارى (ج ١ ص ٤١) فى أحداث سنة ٨٦. ولكن الراوية يخطئ هنا فى التعريف بشخصية عبد الله فيقول أن الوليد ولى مصر عمه عبد الله بن مروان. ويضع ابن الأثير بعد ذلك الاسم صحيحاً فى أحداث سنة ٨٥ (جـ٤ ص ٤٤٧) فيقول بعد موت عبد العزيز بن مروان: «فضم عبد الملك عمله إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك وولاه مصر».

(٢١٣) ابن عذارى، جـ١ ص ٣٩، وقارن الرقيق، ص ٦٧.

(٣١٤) ابن عذارى، جـ١ ص ٣٩، وقارن الرقيق، ص ٦٧.

الخليفة الوليد بن عبد الملك استعظم ما قدمه له حسان من الأموال والذخائر، ولكن الرواية تحمل فى ثناياها ما يشتم منه رائحة الخلاف على تقدير المغانم والأموال. فحسان يقول للوليد: «إنما خرجت مجاهداً فى سبيل الله، وليس مثلى يخون الله والخليفة»[٣١٥]، ورغم أن الخليفة عرض على حسان أن يرده إلى عمله بالمغرب وأن يحسن إليه، فإن الوالى المعتز بكرامته حلف: «لا أولى لبنى أمية أبداً». وأخيراً تقول الرواية: «وكان حسان يسمى الشيخ الأمين»[٣١٦]، ولانعرف إن كان يقصد تثبيت صفة اتصف بها حسان أم أنه قصد أن ينفى ما يمكن أن يحوم حول حسان من الشكوك أو الشبهات فى الأموال، وهذا ما سيروح ضحيته خليفة حسان فى ولاية المغرب، وهو موسى بن نصير.

ورغم كل هذا الجدل حول عزل حسان وعودته، فربما كانت وفاة حسان بعد قليل من عودته إلى المشرق[٣١٧] أو مرضه الذى مات فيه، السبب الحقيقى فى عدم عودته إلى المغرب.

ولاية موسى بن نصير:

ولى موسى بن نصير افريقية من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م، حسب رواية ابن الأثير التى فضلناها على غيرها من الروايات المتضاربة فى تحديد ذلك التاريخ للأسباب التى ذكرناها آنفاً[٣١٨].

---

(٣١٥) ابن عذارى، ج١ ص ٣٩، وقارن الرقيق، ص ٦٧، وقارن النويرى، المخطوط، ص ٧٦ أ. (أبو ضيف، ص ١٩٩).

(٣١٦) نفس المصدر، ولابأس فى أن يكون ما عرضه الخليفة على حسان من العودة إلى ولايته ورفض هذا الأخير، هو السبب فيما يروى من أن حسان كان فى طريق عودته إلى افريقية وأن والى مصر عبد العزيز هو الذى منعه من العودة (أنظر خليفة بن خياط، ج١ ص ٢٧٦، ص ٣٠٠ - ٣٠١).

(٣١٧) أنظر ابن عبد الحكم (ص ٢٠٣) الذى يقول بعد الإشارة إلى النزاع بين عبد العزيز بن مروان وحسان بن النعمان أن هذا الأخير «لم يلبث يسيراً حتى توفى».

(٣١٨) أنظر فيما سبق ص ٢٤٢. وقارن النص الجديد (ص ٢٢٣) الذى يجعل مسير موسى إلى المغرب سنة ٨٩ هـ (وهذا تاريخ متأخر نسبياً وربما كان ٨٦ أصلاً). أما ابن عذارى فهو يورد عبارة تقول أن حسان ولى فى سنة ٨٣ هـ (ج١ ص ٢١)، ولكن آخر كلامه عن موسى يجعل ولايته فى سنة ٨٨ هـ (المقرى، نفح الطيب، ج٦ ص ١٠٨) ووفاته فى سنة ٩٨ هـ، ولكنه يتبع ذلك بقوله أن إمارته على الأندلس والمغرب بلغت ١٨ (ثمانية عشر) عاماً (ج١ ص ٤٦، ولو كان ما ذكره صحيحاً لكانت عشرة أعوام فقط. أما عن تفسير ذلك الخطأ فلأنه أخذ - كما نعتقد - بالروايات التى تقول أن ولاية موسى كانت حوالى سنة ٨٠ (أنظر روايات ابن عبد الحكم التى أشرنا إليها) وهذا ما دعا البعض إلى القول أن ولاية موسى كانت من قبل عبد الملك بن مروان، كما فى عدد من روايات خليفة بن خياط (أنظر ج١ ص ٣١٦).

والكتاب القدامى يختلفون فى أصل موسى بن نصير، إذ يقول البعض أنه من لخم، ويقول البعض أنه من بكر بن وائل أو أنه بلوى مثل زهير[٣١٩]. والظاهر أن المتأخرين أرادوا أن يضعوا حداً لهذا الاختلاف بالنسبة للرجل اللامع، الذى أصبح لحفدته شأن مرموق فى مصر والمغرب والأندلس، فجعلوه من أبناء الصحابة، فقالوا أنه موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن يزيد صاحب رسول الله[٣٢٠]. وهذا يعنى أنهم جعلوه أنصارياً أولاً وقبل كل شئ، وأنه من أسرة نابهة وليس من أسرى عين التمر الذين أصابهم خالد ابن الوليد أو من موالى بنى أمية[٣٢١].

والحقيقة أن نصيراً والد موسى شغل منصب قائد حرس معاوية وهو أمير على الشام، وأنه كان له من قوة الشخصية وأصالة الرأى ما يسمح له بعدم إجابة كل رغبات معاوية حتى فى وقت الأزمات الخطيرة[٣٢٢]. أما موسى فإنه كان قد شغل فى المشرق وظائف هامة آخرها وظيفة مستشار أخى الخليفة عبد الملك، وهو الشاب الصغير بشر بن مروان والى البصرة، ولقد ألقى عليه الخليفة مسئولية فساد إدارة أموال البصرة، وأراد عقابه فلجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان – إذ كان أثيراً لديه – فتدخل من أجله لدى عبد الملك حتى عفا عنه، وأقام موسى فى كنف عبد العزيز بالفسطاط[٣٢٣]. ولانعرف ماذا كان نشاط موسى فى مصر، ولكن الظاهر أن عبد العزيز بن مروان كان يلح فى أن تؤول ولاية المغرب إلى ابن نصير، وأن فشل ولاة الخلافة فى المغرب أمام ثورات البربر كان من الأسباب المواتية لكى يصر عبد العزيز على تقديم رجله. فابن عبد الحكم ينسب إلى عبد

---

(٣١٩) انظر ابن عذارى، ج١ ص ٣٩، البلاذرى، ص ٢٣٠. ولقد كان لاختلاف القدماء هذا أثره على اختلاف آراء المحدثين بشأن موسى، فبينما قال دوزى أنه من العرب اليمنية (تاريخ المسلمين فى أسبانيا، بالفرنسية، ج١ ص ١٣٢)، لاحظ فلهوزن (تاريخ الدولة العربية، تعريب الدكتور أبو ريدة، ص ٢٥٢ – ٢٥٣) أنه وأبناءه لم يستفيدوا من سياسة الخليفة سليمان المتعصبة لليمنية التى يؤكدها دوزى.

(٣٢٠) هذا ما يذكره ابن بشكوال فى الصلة، الترجمة، رقم ١٠٦١، ج٢ ص ٤٨١، وما ينقله ابن عذارى (ج١ ص ٣٩)، والنص الجديد (ص ٢٢٣)، وانظر كتاب الانساب لابن عبد الحليم (مفاخر البربر)، ص ٩٦.

(٣٢١) أخبار مجموعة، ص ٣، البلاذرى، ص ٢٣٠.

(٣٢٢) أنظر ابن الأثير سنة ٨٦ ج٤ ص ٢٥٩ (يقول أن نصيراً لم يجب معاوية إلى المسير معه ضد على فى صفين إذ قال له: لا أشركك بكفر من هو أولى بالشكر منك وهو الله عز وجل، فسكت عنه معاوية». ابن خلكان ج٤، ص ٤٠٢.

(٣٢٣) أنظر ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، ص ٤٨ – ٤٩، وأنظر ابن عذارى (ج١ ص ٤٠) الذى يقول أن عبد الملك أغرم موسى ١٠٠ (مائة) ألف دينار فغرم عبد العزيز نصفها.

العزيز أنه قال لحسان عندما طلب منه أن يسحب مولاه تليداً من برقة: «ما كنت لأفعل بعد أن ضيعتها فاستولى عليها الروم»[٣٢٤]. وهكذا نستطيع أن نقول أن موسى كان المرشح لولاية افريقية بعد وفاة حسان، ونظن أن الذى أيد الترشيح فى ذلك الوقت هو والى مصر الجديد عبد الله بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد ابن عبد الملك كما أشرنا[٣٢٥]، فسيره الوليد إلى افريقية. ويفهم من رواية الرقيق أن الخليفة الوليد، عندما عين موسى بن نصير، قرر فصل افريقية عن ولاية مصر، وأنه جعلها ولاية تابعة للخلافة بدمشق مباشرة[٣٢٦].

أ- أعمال موسى فى المغرب:

ـ وصل موسى إلى القيروان، وتسلم مقاليد الأمور من أبى صالح مولى حسان ونائبه على افريقية[٣٢٧]، ويقول ابن قتيبة أنه أساء إليه فأغرمه عشرة آلاف دينار، ووجهه إلى المشرق فى الحديد[٣٢٨]. والظاهر أن موسى سار إلى المغرب وهو يرنو إلى تحقيق ما لم يستطع سابقوه أن يحققوا مثله. هذا ما يفهم مما يرويه ابن قتيبة وينقله ابن عذارى من أن موسى عندما وصل إلى افريقية وصار على رأس الجيش ذبح عصفوراً وقع عليه ولطخ بدمه صدره من فوق ثيابه، ونتف ريشه وطرحه على نفسه، وقال هو الفتح ورب الكعبة[٣٢٩]. وأنه صعد المنبر وخطب الناس فقال «إنما كان من قبلى على افريقية أحد رجلين: مسالم يحب العافية ... أو رجل ضعيف العقيدة قليل المعرفة .... وأيم الله لأريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ويفتحها على المسلمين»[٣٣٠]. والحقيقة أن

(٣٢٤) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٣.

(٣٢٥) انظر فيما سبق، ص ٢٤٣ و هـ ٣١٢.

(٣٢٦) انظر الرقيق، ص ٦٨ (حيث يقول: وكتب الوليد بن عبد الملك - رحمه الله إلى عبد العزيز؟ بن مروان، يأمره بأن يوجه إلى افريقية موسى بن نصير من قبل الوليد، وقطع افريقية عن عبد العزيز؟).

(٣٢٧) ابن الأثير، سنة ٨٦ ج٤ ص ٢٥٩، وقارن ابن خياط، ج١ ص ٣٠٠ (حيث يذكر أن حسان استخلف سفيان بن مالك الفهمى).

(٣٢٨) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ج٢ ص ٥٠، وقارن ابن خياط، ج١ ص ٣٠٠ (حيث ينص على أن موسى ولى ابن نائب حسان، وهو بدر بن سفيان بن مالك، افريقية).

(٣٢٩) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥١، ابن عذارى ج١ ص ٤١.

(٣٣٠) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥١.

حسان وإن كان قد مهد افريقية والمغرب الأوسط فإن المغرب الأقصى لم يكن قد تمهد أمام العرب، وهذا ما وقع على كاهل موسى.

وبدأ موسى أعماله بالقضاء على بقايا جيوب المقاومة فى افريقية، فسير كتيبة من ٥٠٠ (خمسمائة) فارس إلى قلعة زغوان (على مسيرة يوم من القيروان) فتم فتحها، ودخل إلى القيروان من سبيها عشرة آلاف رأس [٣٣١]، كما دخل من سبى حملة طبنة وصنهاجة عشرين ألفا[٣٣٢].

أما عن حملات موسى فى المغرب الأوسط والأقصى فقد نجحت نجاحاً باهراً، وكانت أشبه ما تكون بنزهات عسكرية - كما يقال. فالكتاب لايتكلمون إلا عن أعداد خيالية من السبى والأسرى تصل فى بعض المدن إلى ١٠٠ (مائة) ألف رأس وأكثر[٣٣٣]. وإذا كانت التواريخ غير ثابتة أو مجهولة إطلاقاً، فإن مواضع العمليات العسكرية هى الأخرى غير أكيدة بالمرة. والذى تتفق عليه النصوص هو أن موسى بن نصير قام بثلاث عمليات عسكرية كبرى، قاد أحداها هو بنفسه وذلك غير حملة طبنة التى سجلها خليفة بن خياط[٣٣٤] وقام بالاثنتين الأخريين ابناه عبد الله (أكبر أبنائه) ومروان. وهناك ذكر لعملية رابعة قام بها زرعة بن أبى مدرك. ويرجع الفضل إلى نص عبيد الله، الذى نشره بروفنسال، فى توضيح الخطوات الرئيسية لتلك الحملات التى كان هدفها المغرب الأقصى، والتى تذكر بالحملة الكبرى التى قام بها عقبة بن نافع قبل ذلك بعشرين سنة. وهنا ينبغى أن نشير إلى أنه من المحتمل أن يكون الكتّاب قد خلطوا بين أعمال موسى بن نصير وأعمال عقبة بن نافع، وأنهم نسبوا إلى عقبة بعض أعمال موسى.

وهكذا بدأ موسى بأن أخضع قبائل البربر التى خرجت على الطاعة بعد مسير حسان إلى المشرق[٣٣٥]، وكذلك التى لم تكن قد خضعت بعد للعرب، مثل

---

(٣٣١) ابن عذارى، ج١ ص ٤١.

(٣٣٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط الذى يجعل حملة طبنة وصنهاجة معاً فى سنة ٨١ هـ (ج١ ص ٢٧٧ - أحداث سنة ٧٩ هـ) ثم يعود فيجعل حملة طبنة وحدها بقيادته (ج١ ص ٨٠ - أحداث سنة ٨١ هـ) ثم يجعل حملة صنهاجة بقيادة المغيرة ابن أبى بردة العبدى فى أحداث سنة ٨٢ هـ (ج١ ص ٢٨٩)، ولا بأس هنا من الاستفادة من التفصيلات رغم عدم صحة التواريخ، كما قلنا.

(٣٣٣) انظر ابن عبد الحكم، ص ٢٠٤، ابن عذارى ج١ ص ٤٠، وقارن ابن الأثير، سنة ٨٦ ج٤ ص ٢٥٩، النويرى، ص ٧٦ ب، أما القطعة التى وصلتنا من الرقيق (ص ٦٩) فلا تذكر إلا السبى الكثير من البربر.

(٣٣٤) انظر هامش ٣٣٢.

(٣٣٥) ابن الأثير، سنة ٨٦، ج٤ ص ٢٥٩.

قبيلة صنهاجة[٣٣٦]. ثم إنه خرج من افريقية نحو المغرب الأوسط وولاية طنجة، فتبددت القبائل أمامه نحو الغرب[٣٣٧]، فتتبعها عبر السوس الأدنى حتى بلاد سجلماسة ووادى درعة[٣٣٨]. والظاهر أن القبائل التى استبد بها الخوف[٣٣٩] اختلطت ببعضها البعض خلال تلك المطاردة الرائعة. فبينما يذكر عبيد الله[٣٤٠] أن موسى وجد كتامة هناك (بدرعة). وأنه قتل ملكهم كمامون، يضيف ابن عذارى الذى ينقل عن ابن قتيبة[٣٤١] إلى كتامة قبائل هوارة وزناتة. وخضعت تلك القبائل لموسى الذى ولى عليهم رجلاً منهم، وتركهم بعد أن استوثق منهم بأخذ الرهائن من أشرافهم، وعاد بالسبى الكثير[٣٤٢]. وزرجع موسى إلى المغرب الأوسط حيث لقى مرة أخرى قبائل صنهاجة، وقتل ملكهم على وادى ملوية[٣٤٣].

وتبالغ الروايات فى عظم النتائج التى حصل عليها موسى فى حملته هذه، حتى قيل أن سبى مدينة سجوما (أو سكوما) الصغيرة – وهى من مدن قبيلة أوربة – كان ١٠٠ (مائة) ألف مما أدهش الخليفة الوليد، فكتب إلى موسى: «ويحك أظنها إحدى كذباتك فإن كنت صادقاً فهذا حشر الأمم»[٣٤٤]. وتقول

(٣٣٦) أنظر هـ ٣٣٢ فى الصفحة السابقة.

(٣٣٧) ابن عذارى ج١ ص ٤٢.

(٣٣٨) ابن عذارى، ج١ ص ٤٢.

(٣٣٩) ابن عذارى، ج١ ص ٤٢.

(٣٤٠) النص الجديد، ص ٢٢٤، وكتاب الانساب (مفاخر البربر)، ص ٩٧.

(٣٤١) انظر ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥٣ (حيث يذكر خطأ مقتل كسيلة ابن يلزم، والظاهر أنه يريد أولاد كسيلة أمراء قبيلة أوربة)، ابن عذارى، ج١ ص ٤١ (يسمى الأمير الكتامى طامون، ويقول أن موسى لم يقتله بل «بعث به إلى عبد العزيز بن مروان الذى قتله عند البركة التى عند قرية عقبة فسميت بركة طامون إلى اليوم». وقارن تاريخ خليفة بن خياط (ج١ ص ٢٧٧) حيث الإشارة إلى أن: أول قبيل من البرابر غزاهم موسى بن نصير: الذين قتلوا عقبة بن نافع، سار إليهم بنفسه، فقتل وسبى وهرب ملكهم كسيلة (فكأن المقصود قبيلة أوربة).

(٣٤٢) ابن عذارى، ج١ ص ٤١، ٤٢.

(٣٤٣) النص الجديد، ٢٢٤، وقارن ابن خياط، ج١ ص ٢٧٧ (سنة ٧٩) وص ٢٨٩ (سنة ٨٢).

(٣٤٤) البكرى، ص ١١٧ – ١١٨، الاستبصار، ص ١٩٤ وهامش ٣، وقارن ابن قتيبة (ج٢ ص ٥٤) الذى يجعل هذا الفتح فى سنة ٨٣ هـ ويجعل قواد موسى: عياض بن عقبة وزرعة ابن أبى مدرك، والمغيرة بن أبى بردة، ونجدة بن مقسم، وقارن الرقيق، ص ٧٧ حيث اسم المدينة «سقيوما»، وابن خياط ج١ ص ٢٩١، سنة ٨٤ (حيث يذكر أن موسى نزل فى شكوما على أوربة فقاتلوه، ثم فتح الله، فقتل وسبى).

الرواية أن موسى أخذ من جديد بثأر عقبة في سجومه على يدى أولاد عقبة أنفسهم، وهم عياض، وعثمان، وأبو عبيدة، وموسى، الذين كانوا معه فقتلوا ٦٠٠ (ستمائة) رجل من كبار أهل تلك المدينة[٣٤٥].

وكان من الطبيعي وقد حقق موسى ذلك النجاح الباهر أن يوسع دائرة نشاطه في بقية انحاء المغرب. فسير ابنه مروان على رأس قوة من خمسة آلاف رجل إلى السوس الأقصى[٣٤٦]، كما سير قائده زرعة بن أبي مدرك إلى بربر مصمودة في أطلس العليا[٣٤٧]. ونجحت الحملتان فرجع مروان بسبى كثير كان مجالاً خصباً لخيال الكتاب[٣٤٨]، أما زرعة فلم يلق حرباً من المصامدة الذين أعلنوا خضوعهم، وقدموا إليه رهائنهم كما قدمت غير مصمودة الرهائن[٣٤٩]. وكانت هذه هي المرة الثانية التي تطأ فيها الخيالة العربية أرض مصمودة بعد دخول عقبة. وتأكد انتشار الإسلام في بلاد المصامدة الذين دخلوا فيه طوعاً[٣٥٠].

ب- فتح طنجة:

وهكذا بعد أن تم لموسى اخضاع المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، من صحراء دَرْعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، تطلع موسى نحو طنجة التي كانت تخضع للأمير الرومي يليان (جوليان) منذ أيام عقبة. والمقصود بطنجة هنا

---

(٣٤٥) انظر رواية ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥٤ - ٥٥، وابن عذارى (الذى ينقلها) ج١ ص ٤١، والنص الجديد، ص ٢٢٤، وقارن رواية الرقيق (ص ٧٧) التي تشير إلى مدينة سقيوما ولكن خلال فتح طارق للأندلس، فتشير إلى أن عياض بن عقبة، وسليمان بن أبي المهاجر هاجماها وأنهما طلبا أن يعاونهما موسى بن نصير قبل عبوره إلى الأندلس، ولكنه كره لأن أهلها في الطاعة. ومع ذلك فقد هاجماها مما يدعو إلى عدم الثقة بتلك الرواية.

(٣٤٦) النص الجديد، ص ٢٢٤، وانظر ابن الأثير، سنة ٨٦ ج٤ ص ٢٥٩ حيث يسميه هارون، وقارن ابن قتيبة، الإمامة، ج٢ ص ٥٨.

(٣٤٧) النص الجديد، ص ٢٢٤، ابن عذارى، ج١ ص ٤٣ (رواية ابن القطان).

(٣٤٨) ابن عذارى، ج١ ص ٤٤، حيث يقول: أنه لما قدم مروان من السوس خرج موسى للقائه فلما التقيا أمر مروان بوصيف أو وصيفة لكل رجل مع والده، وأمر موسى بمثل ذلك لرجال مروان، فرجع الناس كلهم بوصيف أو وصيفة. وقارن خليفة بن خياط الذى يجعل حملة مروان في سنة ٨٩ هـ، وينص على أن السبي بلغ أربعين ألفاً.

(٣٤٩) ابن عذارى، ج١ ص ٤٣، النص الجديد ص ٢٢٤. وهكذا لانجد ذكراً خاصاً لحملة عبد الله بن موسى في المغرب الأقصى، وإن كان خليفة بن خياط يسجل لعبد الله قيادة أكثر من حملة بحرية، كما نشير إلى ذلك فيما بعد.

(٣٥٠) ابن عذارى، ج١ ص ٤٣.

هو الولاية، التى كانت فى القديم تتسع لمسيرة شهر[٣٥١] وليس المدينة حتى أن الكتاب عندما يتكلمون عن فتح طنجة يشيرون إلى فتح السوس الأدنى، وهى البلاد الواقعة خلف مدينة طنجة، حيث خضعت القبائل هناك، وولى عليهم موسى والياً من قبله أحسن فيهم السيرة[٣٥٢]. ونجح موسى فى انتزاع طنجة (المدينة) لأول مرة، وكان «بها من البربر بطون من البتر والبرانس ممن لم يكن دخل فى الطاعة»[٣٥٣]. ووضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط تتكون من ١٧٠٠ (ألف وسبعمائة) رجل تحت قيادة ابنه مروان[٣٥٤]. والظاهر أن ظروف الرباط لم تكن ملائمة بالنسبة لمروان فلم يلبث أن انصرف بعد أن «جهد هو وأصحابه» تاركا القيادة من بعده إلى طارق بن زياد[٣٥٥]. والظاهر أن البربر أقبلوا على الرباط على الساحل الطنجى بحماس لانظير له إذ لم تلبث قوات طارق أن بلغت ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل، هذا ولو أنه كان من بين هؤلاء البربر رهائن المصامدة، وغيرهم من رهائن بربر افريقية والمغرب، مع بضع عشر رجلاً من فقهاء العرب يعلمونهم قواعد الإسلام وأصول الشريعة[٣٥٦]. وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا اقليم سبتة الذى بقى بين يدى يليان[٣٥٧]، وانتشر الإسلام فيه، وذلك

(٣٥١) أنظر فيما سبق، ص ٢٠٦ وهـ ١١٤.

(٣٥٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٥، وأنظر الرقيق، ص ٦٩.

(٣٥٣) ابن عبد الحكم، ص ٣٠٥. وقارن أخبار مجموعة (ص٤)، والمقرى، نفح الطيب، ج١ ص ١٠٨ - حيث يقول «ولم تكن قد فتحت قبله (موسى) وقيل بل فتحت ثم استغلقت». وقارن خليفة بن خياط، ج١ ص ٣٠٧ (الذى يكتفى فى أحداث سنة ٩٢هـ بالإشارة إلى أن موسى وجه طارقاً فأتى طنجة من حيث عبر إلى الأندلس).

(٣٥٤) انظر ابن عبد الحكم، ص ٢٠٤.

(٣٥٥) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٤.

(٣٥٦) انظر ابن عبد الحكم (ص ٢٠٤) حيث يذكر رواية تقول «أنه كان مع طارق ١٢ ألفاً من البربر إلا ستة عشر رجلا من العرب» ويتبع ذلك بقوله «وليس ذلك بالصحيح». والحقيقة أن صاحب هذا النص يريد أن يقول أن كل الحامية كانت من البربر أما الستة عشر نفراً فهم فقهاء المسلمين الذين عهد إليهم بتعليم البربر أصول الإسلام، وانظر الرقيق، ص ٦٩ - ٧٠. حيث تقول الرواية أن موسى ترك طارقاً على طنجة فى ٢٧ (سبعة وعشرين) رجلاً من العرب، و١٢ (اثنى عشر) ألف فارس، وهى العدة التى جعلها عليهم حسان بن النعمان، وكانوا قد دخلوا الإسلام، وحسن إسلامهم، فتركهم موسى وانصرف بعسكره من العرب خاصة وكان فى خلق عظيم، وأمر العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد أن يعلموا البرابر القرآن، وأن يفقهوهم فى الدين. وقارن ابن عذارى ج١ ص ٤٣، وابن الأثير، سنة ٨٦ ج٤ ص ٢٥٩. وقارن ابن خلكان (ج٤ ص ٤٠٣) الذى يقول كأن قوة طارق بلغت ١٩ ألف فارس من البربر.

(٣٥٧) انظر ابن عبد الحكم الذى ينص على أنه كان ليليان أيضاً مدينة المجاز وهى (الجزيرة) الخضراء على الساحل الأندلسى (ص ٢٠٥).

حوالى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م، وهو قريب من التاريخ الذى يجعل فيه بعض الكتاب ولاية موسى للمغرب[٣٥٨]. وقرر موسى العودة إلى افريقية بعد أن استعمل طارق بن زياد على طنجة[٣٥٩]، وفى الطريق إلى القيروان فتح موسى مدينة مجانة، على مسيرة ٣ أيام من القيروان على الحدود التونسية الجزائرية الحالية، على يدى بشر بن فلان الذى أعطاها اسمه فأصبحت تسمى قلعة بشر[٣٦٠].

جـ- النشاط البحرى:

وتعتبر ولاية طارق بن زياد على طنجة واستقلاله بقيادة الجيش العربى فى المغرب الأقصى أجمل نتائج التطور الطبيعى لعلاقة العرب بالبربر، علاقة المؤاخاة والحلف، التى بدأت تؤتى ثمارها بتحالف كسيلة مع أبى المهاجر ثم باستخدام أبناء الكاهنة فى قيادة قوات حسان، وأخيراً باستقلال طارق بالقيادة وقيامه بعد ذلك بأعظم عملية عسكرية فى المغرب، وهى فتح الأندلس. ولقد بلغ ذلك التطور ذروته تلك خلال ثلاثة أجيال كما يفهم من نسب طارق. فهو وأبوه وجده عبد الله يحملون أسماء عربية أما جد أبيه فهو ولغو بن ورفجوم من بربر نفزاوة[٣٦١]. وإذا كان الفضل فى فتح الأندلس ينسب إلى طارق فينبغى ألا ننسى أفضال موسى فى توسيع دائرة نشاطه إلى ما وراء البحر - فبدون ذلك النشاط البحرى ما كان من الممكن أن يتم فتح الأندلس - فى غارات بعيدة المدى إلى

---

(٣٥٨) أنظر النص الجديد ص ٢٢٤. أما ابن عبد الحكم (ص ٢٠٥) فيجعل ذلك فى سنة ٩٢ هـ وهذا تاريخ متأخر إذ وقع فيه غزو الأندلس الذى ما كان ليتم إلا بعد فترة من الراحة والتروى. وعن تاريخ ولاية موسى أنظر فيما سبق، ص ٢٤٤ وهامش ٣١٨.

(٣٥٩) أنظر ابن عبد الحكم ٠ص ٢٠٥) حيث يقول أن موسى عزل الذى كان استعمله على طنجة - ونظن أنه يقصد بذلك مروان بن موسى (أنظر الصفحة السابقة) - وولى طارق ابن زياد.

(٣٦٠) ابن الأثير سنة ٩٢ ج٤ ص ٢٥٩ (النويرى،ص ٧٦ ب). أما ابن عبد الحكم (ص ٢٠٥) فإنه يقول أن الذى فتحها هو بسر بن أبى أرطأة وأنها سميت لذلك قلعة بسر. والمعروف أن ابن أبى أرطأة شارك فى الفتوح الأولى إلى جانب عقبة ولكنا لانعرف أنه صاحب ابن نصير فى المغرب والحقيقة أنه اختلف فى وقت وفاته فقيل أنه توفى أيام معاوية وقيل بل أيام عبد الملك (أنظر ابن الأثير، أسد الغابة، ج١ ص ١٨٠) وأخذ بالرواية الأولى (ص ٢٦٠). وقارن الرقيق (ص ٧٠ - ٧١) الذى يوافق ابن عبد الحكم فى أن بسر (بشر) بن أرطأة هو الذى فتح مجانة عنوة وباسمه عرفت، ويضيف إلى ذلك أنه غنم منها أموالاً كثيرة بلغت مائة ألف دينار، إذ كانت نصيب الخلافة، وهو الخمس، ٢٠ (عشرين) ألف دينار.

(٣٦١) انظر ابن عذارى، ج١ ص ٤٣. أما عن الروايات التى تقول أنه همذانى أو فارسى فلا أساس لها من الصحة (أخبار مجموعة، ص ٦) ونظن أنها من صنع كتاب الفرس الذين أرادوا أن ينسبوا كل عظيم إلى بنى جنسهم، وذلك أثر نشاط حركة الشعوبية بينهم.

صقلية أو إلى سردانية وجزر ميورقة ومينورقة (البليار)، كتلك التى يشير إليها خليفة بن خياط فى تاريخه، والتى كانت القيادة فى بعضها إلى عبد الله بن موسى بن نصير(٣٦٢).

ولقد مهد موسى لذلك بالاهتمام بعمران مدينة تونس، وتوسيع دار الصناعة بها، وشق القناة التى توصل بين الميناء (رادس) وبين المدينة، على طول ١٢ (اثنى عشر) ميلاً. وبفضل تلك القناة أصبحت المدينة نفسها مشتى للمراكب تكنها من العواصف والأنواء(٣٦٣).

والمفهوم أن حملة صقلية قامت من تونس، وأن الذى قام بها هو عياش بن أخيل الذى نزل على مدينة سرقوسة «فغنمها وجميع ما بها، وقفل سالماً غانماً»(٣٦٤). وأما عن أشهر غزوات سردانية على عهد موسى، فرغم أن الرواية تعطى اهتماماً للمغانم الهائلة التى تم الاستيلاء عليها فيها إلا أنها لم تنته نهاية سعيدة. ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن القيادة فى تلك الغزوة كانت إلى اعطاء بن رافع الهذيلى قائد أسطول مصر الذى خرج من مدينة سوسة(٣٦٥)، وكان بصحبته أبو عبد الرحمن الحُبَلى والتابع المشهور حنش ابن عبد الله الصنعانى(٣٦٦). ونزل البحارة العرب على عاصمة الجزيرة، وكانت الكاتدرائية (البيعة الكبرى كما يسميها ابن الأثير)(٣٦٧) بصفة خاصة هى هدفهم، فاستولوا على ما كان فيها من الذخائر من آنية الذهب والفضة، وما كان يكتنزه رجالها من الأموال(٣٦٨). وللرواية هنا أهمية خاصة إذ تشير إلى عدم انتظام الرجال الذين

(٣٦٢) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ (حيث الإشارة إلى غزو سردانية مرتين فى سنة ٨٧ هـ: أولاهما بقيادة عبد الله بن موسى والثانية بقيادة عبد الله ابن حذيفة الأزدى)، ص ٣٠٥ (حيث الإشارة إلى حملة بحرية قام بها عبد الله فى سنة ٨٩ هـ على جزيرتى ميورقة ومينورقة، وتدعى غزوة الأشراف، لأنه كان معه أشراف الناس).

(٣٦٣) ابن قتيبة ج٢ ص ٥٦، وانظر فيما سبق ص ٢٣٩ وشكل ٨ ص ٢٤٠.

(٣٦٤) ابن عذارى ج١ ص ٤٣، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥٧ (يجعل هذه الغزوة فى سنة ٨٦).

(٣٦٥) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٩ - ٢١٠ (يسميه عطاء بن رافع مولى هذيل)، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥٦.

(٣٦٦) ابن عبد الحكم، ص ٣٠٩ (يلقبه بالسبئى وليس بالصنعانى).

(٣٦٧) ابن الأثير، سنة ٩٢ ج٤ ص ٢٧٢.

(٣٦٨) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٩، وقارن ابن الأثير، سنة ٩٢ ج٤ ص ٢٧٢ (النويرى، ص ٨٢ أ) (الرواية تشير إلى أن أخذ الأموال من الكنيسة تم عفوا عندما رمى رجل بعض الحمام بسهم فوقع السهم فى السقف وانكسر منه لوح خشب فانهال عليهم بالمال).

أغواهم بريق الذهب، فاحتفظوا لأنفسهم بأموال المغانم (الغلول)، وتفننوا فى اخفائها عن قائدهم فى أجفان السيوف بل وفى رم القطط. ولم تشأ الأقدار أن يتمتع الناس بما أخذوه غدراً وخيانة فلقيت مراكبهم المتاعب فى رحلة العودة، فثارت بهم الرياح وضربت المراكب بعضها البعض حتى تكسرت[٣٦٩]، وغرق كثير من الناس قرب الساحل الافريقي - على ما يقول ابن قتيبة - وذلك أنه عثر على «أكثر الغرقى والدنانير على أوساطهم»[٣٧٠]. وكان أبو عبد الرحمن الحُبُلى، وحنش الصنعانى من الناجين لأنهما «لم يكونا ندياً من الغلول بشئ»[٣٧١].

وهكذا يجعل الكتاب تلك النهاية التعسة عقاباً من السماء لأولئك الذين سمحوا لأنفسهم بأن يغتصبوا ما ليس من حقهم أو يخونوا. وبطبيعة الحال ما كان موسى بن نصير ليسكت على مثل هذا الخروج على النظام فى قواته فأرسل أعوانه، ومنهم عمرو بن أوس ويزيد بن مسروق، يفتشون الناجين من رجال الحملة. واكتشف عمرو وسائل غريبة لإخفاء الأموال مثل: وضع الدنانير فى القصب واستخدامه كعصى للاتكاء عليها، أو دفنها فى الزفت، وحتى مثل تخبئتها فى مواضع حساسة من الجسم، ثم أنه حمل من عثر عليه من هؤلاء النوتية إلى دار الصناعة بتونس[٣٧٢].

أما عن تاريخ هاتين الغزوتين فالكتاب يضعون غارة صقلية فى ثنايا فتح المغرب[٣٧٣] ثم هم يخلطون بين فتح الأندلس وغزوة سردانية مما دعا ابن الأثير إلى وضعها فى أحداث سنة ٩٢ هـ/ ٧١١م[٣٧٤]. والأقرب إلى المنطق أن يكون غزو سردانية قد تم من القواعد البحرية المغربية وليس من الأندلس. ففتح الأندلس كان فى بدايته، ولم يكن العرب فى سنة ٩٢ هـ قد وصلوا إلى سواحله الشرقية، وهذا

---

(٣٦٩) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٩.

(٣٧٠) ابن الأثير، سنة ٩٢، ج٤ ص ٣٧٣: وابن الأثير يقول هنا أنهم غرقوا عن أخرهم والظاهر أنها صيغة مبالغة تعنى غرق كثير منهم). ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥٨.

(٣٧١) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٩.

(٣٧٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٠، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥٧.

(٣٧٣) ابن عذارى، جج١ ص ٤٣.

(٣٧٤) انظر ابن الأثير، سنة ٩٢ ج٤ ص ٢٧٣ - ويورد ابن الأثير بعد هذه الغارة غزوات العرب التالية على سردانية أيام ابن حبيب (سنة ١٣٥ هـ) والمنصور الفاطمى (سنة ٣٢٣)، ومجاهد العامرى أميردانية سنة ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥م.

ما تقول به الرواية المصرية، كما يذكر ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير[٣٧٥]. وهذا ما تؤيده روايات خليفة بن خياط الذى يسجل غزوتين بسردانية سنة ٨٧هـ/ ٧٠٦م كما يسجل غزو عبد الله بن موسى لميورقة ومينورقة فى سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م[٣٧٦]. وبناء على ذلك لايثبت فقط أن تلك الغارات البحرية قد وقعت قبل فتح الأندلس مباشرة، بل ويتأكد أنها التى شجعت على القيام بالمغامرة الكبرى فيما وراء بحر الزقاق – إلى جانب الرباط فى طنجة.

د- طارق فى تلمسان وعلاقته بيليان:

هكذا استقر موسى بن نصير فى القيروان، «ولم يبق له فى افريقية من ينازعه»، بينما نائبه ومولاه طارق بن زياد فى طنجة يتم تمهيد المغرب، ويتطلع إلى الأندلس. ولقد لاحظ بعض الكتاب – ولهم الحق فى ذلك – أنه كان من الغريب أن يكون طارق فى طنجة، التى تكاد تكون هى وسبتة مدينة واحدة ذات شطرين على المجاز إلى الأندلس، بينما كانت سبتة بين يدى يليان. فرجح البعض أن مستقر طارق كان فى شمال بلاد درعة فى المنطقة التى ستبنى فيها سجلماسة، وهى تفللت حالياً «لأن سلا وما وراءها من أرض فاس وطنجة وسبتة كانت للنصارى»[٣٧٧]. ولكن هذا الاحتمال منقوض من وجهين: أولهما أنه يتعارض مع النصوص التى تجمع على أن طارق بن زياد كان بطنجة أو بساحلها. وثانيهما أنه ما كان العرب ليستقروا فى الصحراء الجنوبية القاحلة بعد أن كانت لهم الأقاليم الخصبة الساحلية فى الشمال، وهذا ما وجههم فعلاً نحو الأندلس شمالاً بدلاً من الاتجاه نحو السنغال والسودان الغربى جنوباً.

وحقيقة الأمر أن الكتاب يقصدون بطنجة الولاية الفسيحة، وليس المدينة الصغيرة. وإذا ما كانت ولاية طنجة تمتد إلى مسيرة شهر كما أشرنا[٣٧٨]، وإذا ما كانت مدينة سلا (حيث مدينة الرباط الحالية) تعتبر داخله فى نطاقها من جهة الغرب، يكون امتداد مدينة طنجة من جهة الشرق إلى حدود المغرب الأوسط

---

(٣٧٥) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٩ (وقارن ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٥٦، ٥٧ حيث يجعل تاريخ ذلك سنة ٨٤ وسنة ٨٥ أى قبيل ولاية موسى؟). أنظر فيما سبق.

(٣٧٦) انظر فيما سبق ص ٢٥٢ وهـ ٣٦٢.

(٣٧٧) أنظر ابن عذارى، (الذى ينقل رواية ابن القطان)، ج١ ص ٤٤.

(٣٧٨) أنظر فيما سبق، ص ٢٤٨، ص ٢٠٦ وهـ ١١٤.

ومدينة تلمسان. وهذا ما تؤيده بعض روايات ابن عبد الحكم التى تقول أن يليان، عندما أرسل إلى طارق يحثه على فتح الأندلس، كان «طارق يومئذ بتلمسان، وموسى بالقيروان»[٣٧٩]. وهذا يعنى أن تلمسان كانت بالنسبة للمغرب فى ذلك الوقت قرينة للقيروان بالنسبة لافريقية، مما يحمل على الظن بأن مدينة طنجة ذاتها دخلت فى حوزة العرب مع مدينة سبتة وبقية أملاك يليان عندما تم التحالف بين هذا الأخير وبين طارق وموسى. ولايمنع من ذلك ما يفهم من رواية أخبار مجموعة من أن موسى بن نصير افتتح فعلاً طنجة، وأنه حاول فتح سبتة ولكنه وجد عند يليان «عدة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم فرجع عنهم إلى طنجة، وجعل يجتث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم»[٣٨٠]، فلو صح ذلك لكان من المغامرة أن يقيم طارق إلى جوار خصمه القوى الذى لايطيقه.

أقام إذن طارق بتلمسان مع زوجته أم حكيم[٣٨١] على حدود ولاية طنجة الشرقية كما يقول ابن عبد الحكم، واستمر اتباع سياسة حسن الجوار التى اتبعها العرب إزاء يليان منذ أيام عقبة بن نافع، ولم يحاول أن ينتزع مدينة سبتة، ولو أن العرب استولوا على دواخلها. وأخذ طارق يراسل يليان ويلاطفه، واستجاب الأمير الرومى الذى كان يقف موقفاً دقيقاً بين القوط فى الأندلس والعرب فى المغرب لرغبة طارق، وتوثقت عرى الصداقة بينهما، فكانا يتبادلان الهدايا[٣٨٢]، وانتهى الأمر بأن أدى يليان خدمات حاسمة للعرب فكان العامل الفعال فى فتح الأندلس.

ومع أن الكتاب يجعلون من دخول العرب إلى الأندلس مادة لقصص مثير، أشهره قصة ابنة يليان وملك الأندلس لذريق[٣٨٣]، فإن الذى يهمنا هنا هو أن فتح الأندلس كان نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب. فمن جهة نلاحظ أن العلاقة وثيقة بين المغرب والأندلس من النواحى الطبيعية حتى أن الكتاب العرب اعتبروا

(٣٧٩) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٥.
(٣٨٠) أخبار مجموعة، ص ٤.
(٣٨١) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٥.
(٣٨٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٥.
(٣٨٣) أنظر ابن عبد الحكم، ص ٢٠٥، أخبار مجموعة، ص ٥، وأنظر فيما سبق، هـ ١٢١ ص ٢٠٦ - حيث رواية الرقيق الأسطورية (عن أن يليان على عهد طارق، كان ابنا لملك الأندلس التى ربما كانت صدى لقصة ابن يليان وملك القوط الأسبانى).

الأندلس جناحاً غربياً للمغرب[٣٨٤]، ومن جهة أخرى كان للأحداث التاريخية فى كل من البلدين آثارها العميقة فى الآخر منذ أيام الفينيقيين وقرطاجنة، وعلى أيام الوندال، واستمر هذا التأثير المتبادل على أيام العرب والإسلام، وحتى العصور الحديثة وإلى الآن.

والذى ميز فتح الأندلس عن غيره من الفتوح العربية حتى ذلك الوقت هو اشتراك المغاربة، أى أهل البلاد التى تم فتحها فى التو واللحظة، إلى جانب العرب اشتراكا ايجابياً فى هذا الفتح حتى ليمكن القول أنه وقع على كاهلهم وحدهم. وهذا عمل عظيم من غير شك، يشهد للعرب بالمجد والفخار إذ نجحوا فى أداء رسالتهم – رسالة الإخاء والمساواة – فاكتسبوا إلى جانبهم أهل البلاد قلباً وقالباً، فأصبح البربر أشد حماساً من العرب للعروبة والإسلام فى تلك الفترة الوجيزة، فقاموا إلى جانب إخوانهم العرب ينشرون الرسالة فى أوروبا، ويبذلون المهج والنفوس رخيصة فى هذا السبيل.

وهكذا نزل طارق ابن زياد أرض الأندلس فى سنة ٩٢ هـ/ ٧١١م على رأس قواته التى بلغت ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل جلهم من البربر[٣٨٥]. وحققت القوة الإسلامية نجاحاً باهراً لم يسبق له مثيل، فضربت فى قلب شبه جزيرة ايبيرية كما يضرب النصل الماضى فى قالب من الزبد. ووصلت موسى بن نصير وهو فى القيروان أنباء ذلك النجاح بعد أن كان وصله نصيبه فى الخمس من الأموال والسبايا من الاسبانيات الجميلات[٣٨٦]، فهرع فى السنة التالية (٩٣ هـ/ ٧١٢ م) بمن كان معه من القوات العربية، وبصحبته عدد من المشاهير منهم مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك، والتابع المشهور حنش الصنعانى، وحبيب بن أبى عبيدة الفهرى، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله[٣٨٧]، وعبر المضيق إلى

---

(٣٨٤) أنظر فيما سبق، ص ٧١.

(٣٨٥) أخبار مجموعة، ص ٦، ابن عذارى، ج١ ص ٤٣ (جاز طارق إلى أن الأندلس بمن كان معه من العرب والبربر ورهائنهم الذين ترك موسى عنده، والذى أخذهم حسان من المغرب الأوسط قبله).

(٣٨٦) أخبار مجموعة، ص ٦.

(٣٨٧) انظر ابن عبد الحكم، ص ٢٠٧، ابن عذارى، ج١ ص ٤٣، وعن حنش أنظر ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٦٥ (القراءة خطأ هنا «حبيش الشيبانى» والصحيح فى ابن قتيبة، ملحق ابن القوطية، طبعة مدريد، ص ١٣٧). وأنظر مقدمة جاتو (Gateau) لابن عبد الحكم، ص ١٩.

الأندلس ليتم فتحها أو ليكاد، إلى جانب طارق فى قرابة سنتين. أما عن ذخائر الأندلس وكنوزها وسباياها فقد أثارت خيال الكتاب العرب بشكل فاق ما أثارته كنوز افريقية والمغرب، بل وكنوز المشرق وآل ساسان(٣٨٨).

هـ- نهاية ولاية موسى بن نصير:

وبتمام فتح الأندلس انتهت ولاية موسى بن نصير للمغرب إذ استدعاه الخليفة الوليد بن عبد الملك ليعرفه بما تم على يديه من الفتوح، وليحاسبه عما حصل عليه من الأموال والذخائر. وأعد موسى العدة للعودة إلى المشرق فاستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس، واستصحب طارق بن زياد وعبر بالأموال والذهب والفضة والجواهر فى المراكب إلى طنجة(٣٨٩). ويصف الكتاب موكب النصر الذى سار فيه موسى عبر المغرب وصفاً رائعاً. فالذهب والجواهر والأموال حملت من طنجة على العجلات «فكانت وسق مائة عجلة وأربعة عشرة عجلة». أما السبايا - حسب مقاله الليث بن سعد - «فلم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير فى الإسلام»(٣٩٠).

وسار الموكب العظيم نحو القيروان، بعد أن ترك موسى ابنه عبد الملك على طنجة(٣٩١)، فوصل العاصمة الافريقية فى آخر سنة ٩٥ هـ/ أغسطس ٧١٤م(٣٩٢). ولم يدخل موسى القيروان بل نزل على مقربة منها فى موضع يعرف بـ «قصر الماء»(٣٩٣)، حيث جاءته وفود المهنئين من قواد الجيوش العربية

---

(٣٨٨) عما وقع بين أيدى المسلمين من كنوز الأندلس وأشهرها المائدة الأسطورية أنظر ابن عبد الحكم، ص ٢٠٨، ٢١١، ابن عذارى ج١ ص ٤٣، أخبار مجموعة، ص ١٩، ابن قتيبة ج٢ ص ٦٣، الرقيق، ص ٧٥ (حيث موكب رذريق العجيب)، ص ٧٦ حيث إشارة سريعة إلى المغانم)، ص ٧٩ - ٨٠ (حيث الإشارة إلى مغانم طليطلة ومنها مائدة سليمان الأسطورية التى كانت أصلاً فى بيت المقدس ثم حملت إلى روما ثم إلى الإسكندرية من حيث حملها الروم - وهم يفرون أمام العرب - إلى طرابلس، وقرطاجنة ثم طليطلة، حيث وقعت بين أيدى العرب)، ص ٨١ (حيث أسطورة رمى موسى لتلك الكنوز فى النيران، وأخذ منها ما لم تقدر عليه النار فقط).

(٣٨٩) الرقيق، ص ٨٢، ابن عذارى، ج١ ص ٤٣. وقارن خليفة بن خياط، ج١ ص ٣١٠ (أحداث سنة ٩٤ هـ).

(٣٩٠) ابن عذارى، ج١ ص ٤٣، وقارن الرقيق، ص ٨٢، ابن خياط، ج١ ص ٣١١ (سنة ٩٥ هـ).

(٣٩١) ابن عذارى ج١ ص ٤٤، وانظر الرقيق، ص ٨٨.

(٣٩٢) الرقيق، ص ٨٦، ابن عذارى ج١ ص ٤٤.

(٣٩٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١١، الرقيق، ص ٨٧، ابن عذارى، ج١ ص ٤٤.

فى القيروان، فكان لهم نصيبهم مما كان معه من «جوار مختلفات كأنهن البدور الطوالع من بنات ملوك الروم والبربر، عليهن الحلى والحلل»[٣٩٤].

وبعد أن أقر موسى أمور افريقية، استخلف عليها ابنه الأكبر عبد الله[٣٩٥] وسار فى أوائل سنة ٩٦هـ/ خريف سنة ٧١٤م نحو المشرق، وبصحبته بقية أولاده ومنهم مروان وعبد الأعلى، واشراف العرب، ووجوه البربر، وأمراء القوط[٣٩٦]. ودخل الموكب مدينة الفسطاط فى يوم الخميس ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة ٩٦هـ/ ٨ ديسمبر سنة ٧١٤ م[٣٩٧]، حيث عرض موسى ما كان معه من الطرف، وأظهر كرمه الملوكى فأهدى كل من بالفسطاط من الفقهاء والشرفاء[٣٩٨]. وفى فلسطين استقبله بنو زنباع استقبال الملوك المنتصرين فنحروا له ٥٠ (خمسين) بعيراً، فأجزل لهم العطاء، وخرج من عندهم بعد أن ترك لديهم بعض أهله وصغار ولده، ووصل إلى دمشق حيث استقبله الخليفة الوليد وهو على سرير مرضه الذى مات فيه[٣٩٩].

وتوفى الوليد فى جمادى الآخرة من سنة ٩٦ هـ/ فبراير ٧١٥م ووقع موسى بن نصير فريسة لسخط الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك. والروايات تختلف فى سبب نكبة موسى بن نصير، وتقدم لذلك أسباباً شخصية منها سوء معاملة موسى لطارق بن زياد بسبب تنافسهما على فتح الأندلس، والاستيلاء على كنوزه وذخائره[٤٠٠]، ومنها أن موسى فوت على سليمان تملك تلك الكنوز فقدمها إلى

---

(٣٩٤) ابن عذارى، ج١ ص ٤٤ (النص هنا يقول أنه كان يتباهى بما كان معه من الجوارى اللاتى اعتبرهن ملكاً له، وأنه فرقهن على الناس بعد أن لفت نظره على بن رباح السلمى إلى خطورة استحواذه عليهن جميعا)، وقارن الرقيق (مرجع ابن عذارى)، ص ٨٧ - حيث وصف الجوارى بالملساء، والناهد، والمنكسرة. وحيث لقب على بن رباح هو «اللخمى» وليس «السلمى».

(٣٩٥) ابن عبد الحكم ٢١٠. الرقيق (الذى ينقله)، ص ٨٨، تاريخ خليفة بن خياط ج١ ص ٣١١، ٣١٦، وابن عذارى ج١ ص ٤٤.

(٣٩٦) انظر ابن عذارى (ج١ ص ٤٤) الذى يقسم أشرف العرب إلى قرشيين، وأنصار وغيرهم. ويذكر من البربر بنى كسيلة وأبناء الكاهنة وبنى يسور ومزدانة ملك السوس إلى جانب أمراء مدن افريقية، ويذكر أمير ميورقة ومينورقة إلى جانب أمراء القوط. قارن ابن قتيبة، ج٢ ص ٦٦.

(٣٩٧) ابن عبد الحكم، ص ٢١١.

(٣٩٨) ابن عذارى، ج١ ص ٤٥، ابن قتيبة، ص ٦٧.

(٣٩٩) أنظر الرقيق، ص ٨٨ - حيث ينص على أن الوليد كان مريضاً بدير من غوطه دمشق.

(٤٠٠) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١، وانظر الرقيق، ص ٨٩، ٩١.

الوليد وهو يحتضر[٤٠١].

مسألة الأموال ونهاية موسى:

ولاشك أن مسألة الأموال كانت من أسباب السخط على موسى الذى سمح لنفسه بالتصرف فى بعضها، فغمر بكرمه وجوه الناس على طول الطريق من القيروان إلى الفسطاط إلى فلسطين. والمعروف أن سليمان جرى على التقليد الذى بدأه معاوية، فحاسب موسى حساباً شديداً. ولم يعدم الشهود الذين يشهدون ضد ابن نصير. ومن هؤلاء رجل من أهل المدينة هو عيسى ابن عبد الله الطويل، الذى كان يشغل منصب صاحب المغانم (أو المقاسم) فى جيش موسى. فقد شكا لسليمان، وقال له: «إن الله أغناك بالحلال عن الحرام ... إن موسى لم يخرج خمساً من جميع ما أتاك به» مما دعا سليمان إلى ادخال كل ما أتى به موسى إلى بيت المال[٤٠٢]. وانتهى الأمر بتعذيب موسى، واغرامه مبالغ كبيرة من المال ثم وفاته فى تلك الظروف التعسة[٤٠٣] فكأنما سقط من حالق.

ولم تكن مسألة الخيانة فى المال هى التى أودت وحدها بموسى بل شاركتها السياسة الجديدة للدولة التى صاحبت النقلة من عهد الوليد إلى عهد أخيه سليمان. فلقد أودت تلك السياسة بآخرين غير موسى من كبار رجال الدولة من أهل الحرب والسياسة. فطارق بن زياد انتهى هو الآخر فى المشرق نهاية مغمورة، وقتيبة بن مسلم بطل فتوح «ماوراء النهر» راح هو الآخر ضحية سخط سليمان، فتم اغتياله على أيدى رجاله الذين طالما قادهم إلى ميادين البطولة والظفر. هؤلاء الرجال أدوا للخلافة والإسلام خدمات جليلة، فوسعوا حدودهما إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ولقوا فى النهاية نكران الجميل أو جزاء سنمار. وإلى جانب مزاج الخليفة أو أهوائه الشخصية حاول البعض تفسير ذلك التغيير العنيف فى سياسة الدولة عن طريق مسألة النزاع العصبى بين القبائل العربية، فرأوا أنه بعد

---

(٤٠١) انظر الرقيق، ص ٨٩، ٩١، ابن عذارى ج١ ص ٤٥، المقرى، نفح الطيب، ج١ ص ١٣٣.

(٤٠٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١١.

(٤٠٣) انظر الرقيق، ص ٩١ - حيث تقول الرواية أن سليمان أغرم موسى ٣٠٠ (ثلاثمائة) ألف دينار وأمر بتعذيبه، وعزم على قتله لولا استجارته بيزيد بن المهلب الذى شفع له. ولكن سليمان أصر على أن يدفع موسى الغرم الذى فرضه عليه. وعن وفاة موسى فى المدينة فى موسم حج سنة ٩٨ هـ وهو بصحبة سليمان عبد الملك، انظر ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ط. مصر ١٣٢٨ هـ، ج٢ ص ٨٢ - ٨٣.

أن كان الوليد يسير على سياسة محاباة القيسية والاعتماد عليهم فى أمور الحرب والإدارة، سار سليمان على سياسة عكسية فحابى اليمنية واستخدمهم وأنزل سخطه بخصومهم[٤٠٤]. ولكن هذه النظرية - مع صحتها إلى حد كبير - ليست فوق مستوى النقد: فطارق بن زياد كان من الموالى، وموسى بن نصير نفسه اختلف فى أمره ورجح البعض أنه لخمى من أصل عربى يمنى[٤٠٥]. وربما كان لموقف هؤلاء الفاتر أو العدائى من سليمان بن عبد الملك، وهو ولى للعهد وعملهم من وراء الستار على تحريض الخليفة عبد الملك على أن يعهد لبعض ولده بدلاً من أخيه أثره فيما أصابهم من سخط سليمان[٤٠٦].

وإلى جانب كل هذا نظن أن الخلافة استشعرت شيئاً من الخطر من وجود رجال ممن لهم مثل باع موسى بن نصير وقتيبة بن مسلم - ممن يذكرون بعمرو بن العاص وخالد بن الوليد - فى أطراف الدولة البعيدة، خشية نزوعهم إلى الاستقلال أو محاولة التحرر من سلطان الخلافة. والظاهر أن هؤلاء القواد تصرفوا فى تلك الأقطار النائية - ولهم الحق - بشئ من الحرية ينم عن الطموح والرغبة فى الاستزادة من السلطان. فبعض الروايات تشير إلى أن فتح الأندلس تم ما بين الحاح موسى وتردد الوليد[٤٠٧]، تماماً كما يقال أن عمرو بن العاص دخل مصر دون موافقة عمر[٤٠٨]، كما تفسر بعضها سخط موسى على طارق بن زياد بأن الأخير خرج على تعليمات قائده فتوغل فى قلب الأندلس دون إذن سابق[٤٠٩]. ويتبين طموح موسى فى فتوحه البعيدة فى وادى الإبره وأعالى أراجون، ذلك الطموح الذى كان يتعدى طاقة رجاله حتى احتج عليه حنش الصنعانى قائلاً: «أتريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله»[٤١٠]. ولقد ظهر

---

(٤٠٤) أنظر دوزى، تاريخ المسلمين فى الأندلس (بالفرنسية)، ج١ ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٤٠٥) أنظر مناقشة ذلك فى فلهوزن (تاريخ الدولة العربية، تعريبه أبو ريده، ص ٢٥٣) الذى ينقد دوزى ويرى أن مسألة النزاع بين العصبتين العربيتين الكبيرتين لم تكن قد بلورت بعد.

(٤٠٦) عن رغبة الوليد فى العهد لابنه بدلاً من سليمان، أنظر حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى...، ج١ ص ٣٢٤.

(٤٠٧) أنظر أخبار مجموعة، ص ٥، ٦.

(٤٠٨) ابن عبد الحكم، ص ٥٦.

(٤٠٩) انظر ابن قتيبة (ملحق ابن القوطية، ص ١٢١).

(٤١٠) ابن قتيبة، ج٢ ص ٦٥ وملحق ابن القوطية، ص ١٣٧، وقارن رواية الرقيق، ص ٨٠ - ٨١(حيث النص على أن حنشا احتج على توغل موسى عندما وصل إلى «أربونة» (نربونة).

تحرر موسى بشكل أوضح في تصرفه فى أموال المغانم. فبينما حرص على جمع أكبر قدر من المال حتى أنه حرم رجاله فى بعض الأحيان من حقهم فى الأخماس، حسب شهادة صاحب المقاسم كما أشرنا[٤١١]، استحوذ لنفسه على كثير من الأموال والسبايا الجميلات حتى لفت بعض كبار أصحابه نظرة إلى خطورة ذلك فسمح لنفسه بالتصرف فيها بشكل منح وهدايا[٤١٢]. وكان ذلك يعنى نوعاً من الاستهانة بالخليفة، صاحب الحق الأول والأخير فى التصرف فى الأموال.

وهكذا حق للخليفة ومستشاريه أن يخشوا بأس ذلك «الرجل الذى سئل، وهو فى محنته، عن عدد من كان يعتد فيهم هو وأهل بيته من الموالى والخدم، وهل قاربوا الألف مثلاً؟ فقال: «نعم! وألف وألف إلى منقطع النفس»[٤١٣]، والذى اتبع ذلك، عندما سئل لماذا لم يمكث فى عزه وجاهه بعيداً عن منال الخلافة، بقوله: «والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافى شيئاً ولكن آثرت الله – عز وجل – ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة»[٤١٤].

والحقيقة أنه رغم أن موسى وقع فى قبضة الخلافة وأصبح تحت رحمة خصومه، إلا أنه كان يمثل خطراً شديداً على سليمان. فلقد حضر موسى إلى الشام تاركاً بلاد المغرب والأندلس جميعاً تحت سلطان أبنائه. فلقد كان عبد الله بن موسى فى القيروان، وعبد الملك بن موسى فى طنجة، وعبد العزيز بن موسى فى اشبيلية. فكان على الخليفة أن يكون حذراً فى معاملة موسى، وفى العمل على استخلاص ولاياته الغربية من أيدى أبنائه.

ورغم ما يؤخذ على سليمان من نكرانه لجميل كبار قواد الدولة حتى عدّ ابن عذارى فعله مع موسى وبنيه من هفواته التى لم تزل تنقم عليه، إلا أن سليمان يعتبر من عظماء خلفاء بنى أمية. فهو الذى قام بأكبر محاولة لأخذ القسطنطينية، ثم يكفيه فخراً أنه عهد بالولاية بعده إلى الخليفة الورع عمر ابن عبد العزيز. ولاشك أنه عندما فعل بموسى وغيره من رجال الدولة ما فعل كان

---

(٤١١) أنظر فيما سبق، ص ٢٥٩.

(٤١٢) أنظر فيما سبق، هامش ٣٩٤ ص ٢٥٨.

(٤١٣) ابن عذارى، ج١ ص ٤٦، ابن قتيبة (عن عدد موالى موسى) ج٢ ص ٦٩.

(٤١٤) نفس المصدر، وعن اتهام موسى بالخلع أنظر ابن قتيبة، ملحق ابن القوطية، ص ١٢٦.

يهدف إلى اصلاح الأوضاع، ويعمل على بسط سلطان الخلافة على كل أرجاء الدولة، وخضوع جميع العمال لسلطة الخليفة. وهو عندما استبدل بالعمال القدماء غيرهم تحرى حسن الاختيار.

الباب الثالث

الإدارة الأموية
أخطاؤها ورد الفعل بين المغاربة

حركات الخوارج

محاولات الإصلاح

١ - محمد بن يزيد القرشي وتصفية آل موسى بن نصير :

بدأ سليمان بالبحث عن رجل له فضل يوليه افريقيه، ووقع اختياره على محمد بن يزيد القرشي بالولاء [١]، بعد ان اوصاه بتقوى الله وحده الذى لا شريك له والقيام فيما ولاه بالحق والعدل[٢] . ولقد تم اختيار محمد بن يزيد فى سنة ٩٦ هـ/ ٧١٥ م [٣]، ووصل الى مقر ولايته بافريقيه فى سنة ٩٧هـ / أواخر سنة ٧١٥ م [٤].

والظاهر أن محنة موسى بن نصير لم تبدأ إلا بعد ان استقر محمد بن يزيد فى القيروان اذ وصلته الأوامر من سليمان بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير، وآل موسى واستئصال أموالهم حتى يؤدوا ما فرضه عليهم من الغرم، وهو ٣٠٠ (ثلثمائة) الف دينار. ونفذ ابن يزيد أوامر الخليفة، فأخذ عبدالله بن موسى، وزج به فى السجن وعذبه ثم انه قتله بعد ذلك على يدى خالد ابن ابى حبيب القرشى [٥]. وهكذا لم يعدم الخليفة وواليه على افريقية وجود خصوم لآل نصير

(١) ابن عبد الحكم، ص ٢١٣ (يلقبه «بالقرشى»)، الرقيق، ص ٩٣ ، ابن عذارى، ج ١ ص ٤٧ (يقول «مولى قريش » - النويرى، المخطوط، ص ٨٢ ب)، وقارن اخبار مجموعة ص ٢٢ - حيث القراءة عبيد الله بن زيد مرة وعبد الله بن يزيد مرة اخرى، وربما كان المقصود هو كنيته «ابو عبد الله» كما هى العادة بالنسبة لمن اسمه محمد. اما عن ولائه لقريش فالنص يقول «لا أدرى لمن من قريش!». اما خليفة بن خياط (ج ١ تص ٣٢٤) فيقول انه «مولى ريحانه بنت ابى الصاحى؟» ثم يعود (ج ١ ص ٣٣٣) ليلقبه بالأنصارى، .

(٢) الرقيق. ص ٩٣ ابن عذارى، ج ١ ص ٤٧، النويرى المخطوط، ص ٨٢ ب.

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١٣ (ويورد ابن عبد الحكم رواية اخرى عن الليث بن سعد تقول انه ولاية محمد بن يزيد كانت فى سنة ٩٧ هـ - وهو ما ينص عليه خليفة بن خياط، ج١، ص٣٢٤. عند ذكر عزل عبد الله بن موسى وولاية محمد بن فريد. ولقد رأينا أن الروايتين يمكن ان تكونا صحيحتين بمعنى انه عين فى سنة ٩٦ ه ، ووصل الى افريقية فى سنة ٩٧ هـ، وقارن النويرى (ص ٨٢ ب) الذى يجعل ولايته سنة ٩٩ هـ، كما ينقل ذلك من الرقيق (ص ٩٣)، وهذا خطأ من الناسخ على ما نظن.

(٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٧ ,

(٥) الرقيق، ص ٩٤، ابن عذارى، ج ١ ص ٤٧، وقارن ابن عبد الحكم الذى يجمل (ص ٢١٥) مقتل عبد الله بن موسى فى سنة ١٠٢ هـ ايام خلافة يزيد بن عبد الملك وولاية بشر بن صفوان ، وذلك الر =

– بعد المكانة العالية التى بلغوها فى المغرب – يساعدونه على كسر شوكتهم.

ونجح سليمان أيضا فى التخلص من عبد العزيز بن موسى بالأندلس. والظاهر ان عبد العزيز أظهر نوعا من الاستقلال – وحق له ان يفعل بعد ما نزل بأبيه واخيه – ولكن الخليفة ألب عليه قواد العرب، كما نظم ضده دعاية واسعة لم تكتف بالتنديد بخروجه على الطاعة (٦). بل ونجحت فى ايهام الناس بأنه تنصر تحت تأثير زوجته القوطية(٧) . وتمت مؤامرة ضد عبد العزيز اشترك فيها بعض أقاربه الى جانب خصومه، وتم اغتياله فى اواخر سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ (أو ٩٨ هـ / ٧١٧ م) على أيدى زياد بن النابغة التميمى، وأحد حفدة عقبة بن نافع وهو حبيب بن أبى عبيدة (٨). وأرسلت رأسه الى الخليفة الذى بالغ فى تعذيب موسى بن نصير فعرضها عليه (٩). وعهد محمد بن يزيد بولاية الاندلس الى الحر بن عبد الرحمن الثقفى(١٠) .

اما عن اعمال ابن يزيد الأخرى فلا نجد الا ما يشير اليه ابن عذارى من انه

=اتهامه فى مقتل يزيد بن ابى مسلم كما سنرى، وبسبب ذلك التاريخ المتأخر بالنسبة لنكبة موسى، وبسبب الطابع الاسطورى للقصة، رأينا انه ربما اختلط الأمر على ابن عبد الحكم، فوضع نهاية عبدالله بن موسى موضع نهاية ابن آخر لموسى بن نصير، ونظن انه عبد الملك اذ الحقيقة ان الخلط بين الاسمين ممكن لتشابه رسمها (أنظر فميا بعد ص ٢٧٥ و ص ٤٨) . ولذلك فضلنا الأخذ برواية ابن عذارى بصفتها اكثر واقعية.

(٦) الرقيق، ص ٩٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٧، النويرى (رواية الواقدى) ، الخطوط ص ٨٣ أ.

(٧) اخبار مجموعة ، ص ٢٠، ٢٢ ، الرقيق، ص ٩٤ – ٩٥ ، النويرى ، المخطوط، ص ٨٣ أ.

(٨) أخبار مجموعة، ص ٢٠، ٢٢، الرقيق، ص ٩٥ (حيث يقول ان الذين اشتركوا فى قتله ثلاثة، هم : حبيب بن ابى عبيدة بن عقبة بن نافع، وزياد بن عابدة البلوى، ورياد بن نابغة، ويجعل قتله فى آخر سنة ٩٨ هـ)، النويرى، المخطوط ، ص ٨٣ ب.

(٩) ابن عبد الحكم، ص ٢١٢، الرقيق، ص ٩٦ وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ٤٧) الذى يقول ان رأس عبد العزيز ارسلت مع رأس عبد الله حتى وضعتا بين يدى موسى وهو فى عذابه. اما اخبار مجموعة (ص ٢٢) ففيها «انه لما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه».

(١٠) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٧، انظر اخبار مجموعة، ص ٢٢ (يسميه خطأ الحر بن عبد الله)، وقارن الرقيق، ص ٩٦ (حيث يسمى والى الأندلس، ايمن بن عبد الرحمن القيسى).

كان «يبعث السرية الى ثغور افريقية فما اصاب قسمه عليهم[١١]. ونظن ان في ذلك اشارة الى انه التزم بتطبيق قانون المغانم، على عكس ما كان يفعله موسى بن نصير كما تقدم[١٢]. واستمرت ولاية محمد بن يزيد الى وفاة سليمان بن عبد الملك (في صفر سنة ٩٩ هـ / سبتمبر - اكتوبر ٧١٧ م) وخلافة عمر بن عبد العزيز[١٣] التي تعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ الدولة الأموية عامة.

ب - خلافة عمر بن عبد العزيز مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب :

علاج الأزمة المالية:

والحقيقة أن خلافة عمر بن عبد العزيز القصيرة الأمد مثلما كانت - زمنيا - نقله من القرن الأول الى القرن الثاني الهجري، كانت - سياسيا - نقلة ايضا في مسير الأحداث في المغرب، كما في بقية ارجاء الدولة[١٤]. فمحاولات عمر بن عبد العزيز للاصلاح معروفة، وهي تتلخص في رغبته في العودة بالاسلام الى سيرته الاولى، ولهذا السبب اعتبره بعض المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين[١٥]. وهذا البرنامج كان يتأتى بالقضاء على أسباب الانقسام والفرقة. ولكي يحقق عمر وحدة الجماعة فاوض الخوارج، وحاول ارضاء الشيعة، كما عمل على ايجاد تسوية لما

---

(١١) ابن عذاري، ج ١ ص ٤٧.

(١٢) انظر فيما سبق، ص ٢٥٨ وهامش ٣٩٤.

(١٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١٣، وقارن ابن عذاري، (ج ١ ص ٤٧) الذي يجعل مدة ولاية محمد بن يزيد سنتين واشهرا على اساس ان ولايته تنتهي بوفاة سليمان. والحقيقة ان الوالي الجديد لم يعين الا في سنة ١٠٠ هـ.

(١٤) نشير هنا الى أنه يفهم ان قدامى الكتاب يربطون بين نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني وبين تطور الأحداث الحاسم بالنسبة للدولة الأموية بأسباب خفية ترجع الى اعتقاد اهل تلك العصور في علاقة ما بين الزمن والوجود، ولهذا السبب اعتبر عمر بن عبد العزيز مجدد الاسلام في مطلع القرن الثاني الهجري (انظر السبكي، طبقات الشافعية الكبرى. ط ١٣٢٤ هـ، ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦). والحقيقه ان مثل هذا الاعتقاد كان ومازال قائما حتى ايامنا هذه عندما ينتظر الناس احداثا جليلة ليس في بداية كل قرن فقط بل وفي منتصفه ايضا.

(١٥) انظر ابن الأثير، احداث سنة ١٠١ هـ، ج ٥ ص ٢٤، البخاري، كتاب التاريخ الكبير، ط. حيدر آباد الدكن، ١٣٦١ هـ، ج ٣ قسم ٢ (حيث مقارنة خلافة عمر بن عبد العزيز بخلافة ابي بكر).

حدث من التضارب او التناقض بين السياسة المالية والسياسة الدينية، وهو الأمر الذى زاد تفاقمه مع مرور الوقت.

ولا شك فى ان الدولة الأموية لم تكن مسئولة عن ذلك التناقض، فلقد كان تكدس الأموال، فى بيت المال وبين ايدى كبار الصحابه، من الأسباب التى أدت الى أزمة الخلافة ايام عثمان (١٦). ثم اتى الأمويون واتسعت الدولة العربية الى اقصى حدودها، فكان ذلك يعنى قلة أموال المغانم بعد توقف الفتح، وتبع ذلك دخول اهل الأمصار المفتوحة فى الاسلام واعفاؤهم من دفع الجزية، فكان ذلك يعنى قلة اموال الجزية الواردة الى بيت المال. حدث ذلك فى الوقت الذى أخذت الدولة تتحضر وترقى، وتتخذ الجيوش النظامية، وتنظم الادارة والدواوين، وتستخدم الموظفين بمعنى انها فى حاجة الى المزيد من الاموال اكثر من ذى قبل. وبناء على ذلك سعت الدولة الى جمع المال من كل الوجوه، واستخدمت فى ذلك عديدا من الوسائل : فحاسبت العمال محاسبة دقيقة، وتشدد هؤلاء بدورهم مع رعاياهم، وتكفى الاشارة الى اعمال الحجاج وتعسفه فى سياسته المالية، وهذا أمر متفق عليه(١٧) .

وانتهى الحال الى التفرقة بين المسلمين وفى معاملتهم، فتميز العرب بوضع خاص فى المجتمع الجديد، وحرم غير العرب من المسلمين من كثير من حقوقهم، اذ اجبر كثير منهم على الاستمرار فى دفع الجزية، او الخدمة فى الجيش دون اخذ العطاء. واكثر من هذا طلبت الدولة من الداخلين فى الاسلام من اهل الامصار اثبات صحة اسلامهم ثبوتا قاطعا - وهذا امر صعب - او اشترطت شروطا لم يكن من السهل تحقيقها او تبيانها فى بعض الأحيان مثل الختان والالتزام بإقامة الشعائر . ومع ان الدولة كانت تستند فى تصرفاتها تلك الى اصول شرعية او أحكام اتخذت مع الوقت صفة الشرعية، الا انه ترتب على

---

(١٦) هذا ما لاحظه المسعودى بحق (مروج الذهب، ج ٢ ص ٣٣٤١ - ٣٤٣) عندما اشار الى تكدس الاموال والثروات لدى الصحابة (مثل الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن ابى وقاص وزيد بن ثابت ويعلى بن منية) ولدى عثمان نفسه.

(١٧) عن اعمال الحجاج واجراءاته المالية الشديدة فى العراق، التى بلغت الى حد تحريم الهجرة من الريف الى المدن، انظر فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، تعريب ابو ريدة ص ٢٧٠ .

ذلك انها خرجت – من حيث لا تشعر –على المبادئ الاسلامية الاولى، مبادئ المساوة والاخاء.

عرف عمر بن عبد العزيز ذلك، وكانت فكرته عن الاسلام اوسع أفقا من افكار سابقيه، فجعل همه نشر الاسلام اولا وقبل كل شئ، وفى ذلك ينسب اليه الكتاب انه قال : «ان الله بعث محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا» ، او انه كتب الى واليه على خراسان عندما استشاره فى امتحان الداخلين فى الاسلام بالختان : «ان الله بعث محمدا – صلى الله عليه وسلم – داعيا ولم يبعثه خاتنا»[١٨]. ولكى يحقق عمر بن عبد العزيز سياسته، كان عليه ان يغير عمال الدولة السابقين، ويعين بدلا منهم عمالا يسيرون سيرته[١٩] .

ولاية اسماعيل بن عبد الله بن ابى المهاجر (١٠٠ – ١٠٢ هـ / ٧١٨ – ٧٢٠ م)

وفيما يتعلق بالمغرب قام عمر بعزل محمد بن يزيد القرشى، واستعمل بدلا منه اسماعيل بن عبد الله بن ابى المهاجر مولى بنى مخزوم. وذلك فى شهر المحرم من سنة ١٠٠ هـ / أغسطس ٧١٨ م [٢٠]. وولاية حفيد ابى المهاجر هذه تبين ان الفاتحين الأوائل كونوا أسرا قوية فى المغرب وكذلك فى مصر، وسنرى فيما بعد كيف سيكون لبنى عقبة بن نافع، وبنى معاوية ابن حديج، وبنى موسى بن نصير دورهم فى مسير الاحداث فى مصر والمغرب. اما ما يهمنا الآن فهو ان اسماعيل بن عبد الله جمع فى ولايته الحرب والخراج والصدقات كما ينص ابن عبد الحكم [٢١]، وكانت العادة ان يفصل بين امور السياسة والادارة، وشئون المال، فيكون لكل عاملها الخاص. والتفرقة هنا بين الأموال وتقسيمها الى خراج وصدقات تعنى اهتمام عمر بن عبد العزيز بالمسألة المالية، كما قلنا.

---

(١٨) نفس المصدر ص ٢٨٤ (عن الطبرى).

(١٩) انظر نفس المصدر (عن ولاة عمر بن عبد العزيز ان سائر الأمصار) ص ٢٦١ – ٢٦٣ .

(٢٠) ابن عبد الحكم، ص ٢١٣ ، خليفة بن خياط، ج ١ ص ٣٣٠، ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨، اخبار مجموعة ص ٢٢ ، وقارن الرقيق. ص ٩٧ (حيث يحدد ولايته بسنة مائة وسنة احدى ومائة فى خلافة عمر بن عبد العزيز).

(٢١) ابن عبد الحكم ص ٢١٣ .

والحقيقة ان اختيار اسماعيل بن عبد الله تم لما عرفه عمر فيه من التقوى التى تبعث على الشجاعة فى تقرير الصدق وقول الحق عند مواجهة اولى الامر، وخاصة عندما يتعلق الامر بصحة الجباية وجمع المال من وجوهه الحقة. فقد جرت العادة، عند ورود جبايات الامصار الى دمشق، على ان يأتى مع جباية كل بلد وفد من أهله يتكون من عشرة رجال من الأعيان وكبار القادة. وكان على هؤلاء ان يقسموا بأن كل دينار، وكل درهم من تلك الجباية «أخذ بحقه، وانه فضل أعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أخذ كل ذى حق حقه» [٢٢]. وعلى أيام سليمان بن عبد الملك اتى وفد افريقية بالخراج، وحلف ثمانية من العشرة بصحة جمع المال، ورفض اسماعيل بن عبد الله، وتبعه فى ذلك السمح بن مالك الخولانى. وأعجب عمر بن عبد العزيز، الذى كان حاضرا بالرجلين «فضمهما الى نفسه فاختبر منهما صلاحا وفضلا»، فلما صارت اليه الخلافة ولى اسماعيل افريقية وعهد الى السمح بولاية الاندلس [٢٣].

وأحسن اسماعيل بن عبد الله السيرة فى المغرب «فكان خير أمير، وخير وال» [٢٤]. وكان على اسماعيل ان يطبق سياسة عمر المالية التى تهدف الى وضع الأمور فى نصابها، من تمييز ارض الصلح عن ارض العنوة، وأن «يقر القرى فى يدى غنامها بعد ان يأخذ الخمس» [٢٥] . وترتب على اصلاحات عمر بن عبد العزيز فى المغرب أن خفت الأعباء المالية على المسلمين من اهل البلاد، فأصبحوا يحتفظون بأرضهم ولا يدفعون عنها الا الخراج الى جانب الزكاة التى عرفت

---

(٢٢) اخبار مجموعة، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢٣) اخبار مجموعة، ص ٢٣، ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨ (يجعل ولاية السمح من قبل اسماعيل بن عبد الله فى رمضان سنة ١٠٠ هـ).

(٢٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨، النويرى. المخطوط. ص ٨٣ ب، واصل الرواية للرقيق (ص ٩٧). وقارن خليفة بن خياط، ج ١ ص ٣٣٠ (حيث النص على انه كان حسن السيرة).

(٢٥) اخبار مجموعة، ص ٢٣ (هذا النص خاص بأوامر عمر بن عبد العزيز الى والى الأندلس السمح بن مالك، ولكنا اخذنا به بالنسبة للمغرب لما بين البلدين من الصلات الوثيقة، ولأن ابن عذارى (هامش ٣ ص ٢٣٥) يرى ان ولاية السمح كانت من لدن اسماعيل ابن عبد الله. اما ما يقوله النص عن اقرار القرى فى ايدى غنامها، واخذ الخمس منها فالظاهر ان المقصود به هو الجزء الاخير من النص اى اخذ نصيب الدولة من الارضى التى وضع العرب ايديهم عليها ولم تبق بين ايدى اصحابها الاصليين).

بالصدقة. ثم انه الغى ما كان متبعا منذ ايام عقبة الذى صالح لواتة على ان يبيعوا فى خراجهم من احبوا من أبنائهم، وذلك تطبيقا لمبدأ المساواة بين المسلمين، فلم يعد مستساغا ان تبيع لواته – بعد ان أسلمت – بناتها فى جزيتها. وصدرت أوامر عمر بن عبد العزيز : «ان من كانت عنده لواتية فليخطبها الى أبيها، أو فليردها الى اهلها» [٢٦]. واهتم اسماعيل بن عبد الله بدعاء البربر ال الاسلام، واستجاب البربر جميعا لدعائه: «فلم يبق فى ولايته يومئذ من البربر احد الا أسلم» [٢٧] .

ويرجع الفضل فيما تحقق فى هذا الميدان الى الخليفة نفسه، إذ ينسب اليه الكتاب انه بعث الى المغرب عشرة من فقهاء التابعين من أهل العلم والفضل، منهم ابو الجهم عبد الرحمن بن نافع [٢٨] ، وابو مسعود سعد ابن مسعود التجيبى [٢٩] ، وابو عبد الرحمن الحبلى [٣٠] ، واسماعيل بن عبيد الانصارى المعروف بتاجر الله [٣١] ، وموهب بن حى المعافرى [٣٢] وحيان بن ابى جبلة القرشى [٣٣] ،

---

(٢٦) البلازرى، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦، وأنظر فيما سبق، ص ١٣٨– ١٤١ .

(٢٧) ابن عبد الحكم، ص ٢١٣، خليفة بن خياط، ج ١ ص ٣٣٠، ابن عذارى ج ١ ص ٤٨، وقارن النويرى، المخطوط، ص ٨٣ ب، وانظر الرقيق، ص ٩٧ (حيث النص : ومازال حريصا على دعاء البربر الى الاسلام، فأسلم بقية البربر على يديه).

(٢٨) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨، وانظر المالكى (ج ١ ص ٧٢) حيث غير المحقق ابن رافع حسب طبقات ابى العرب الذى يلقبه بالتنوخى أيضا. ولقد ولى عبد الرحمن قضاء القيروان لموسى بن نصير سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م وتوفى بالقيروان سنة ١١٣ ه / ٣٧١ م.

(٢٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨، المالكى ، ج ١ ص ٦٦ – ٦٧ (لا يذكر المالكى تاريخ وفاته ولكنه يفهم من ترجمته انه حضر ثورة الخوارج سنة ٢٣ ١ هـ ايام حنظلة بن صفوان كما سنرى).

(٣٠) المالكى، ج ١ ص ٦٤، وانظر ايضا ص ٦٦ حيث يسميه عبد الله بن ابى يزيد الافريقى (انتفع به اهل افريقية وبث فيهم علما كثيرا. توفى بالقيروان سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ – ٧١٩ م، ودفن بباب تونس) وانظر الدباغ، ج ١ ص ١٣٨ (ابو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الافريقى الحبلى).

(٣١) المالكى، ص ٦٩ – ٧٢ (عرف بتاجر الله لانه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه فى وجوه الخير) ص ٧٠). وينسب اليه بناء جامع الزيتونة،. توفى سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ – ٧٢٦ م)، الدباغ، ج ١ ص ١٤٦,

(٣٢) المالكى، ص ٧٣، الدباغ، ج ١ ص ١٦١ (ابن حبى).

(٣٣) المالكى، ص ٧٣ (حيان قرشى بالولاء فهو مولى بن عبد الدار. سكن القيروان وانتفع به اهلها. توفى سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م) وانظر الدباغ، ج ١ ص ١٥٨ (حبان).

وابو ثمامة بكر بن سوادة الجذامى [٣٤]، وابو سعيد جعثل بن عــاهان بن عمــير [٣٥]، واسماعيل بن عبد الله بن ابى المهاجر[٣٦]، وطلق بن جابان الفارسى [٣٧]، يفضل جهود هؤلاء التابعين، وغيرهم ممن لا يعدون فى كتب تراجم الصالحين ضمن العشرة، تعلم المغاربة اصول الاسلام فقرأوا القرآن، وعرفوا اللغة العربية. فحتى ذلك الوقت لم يكن اهل افريقية - كما يقال - يعرفون الحلال والحرام، وكانت الخمر بافريقية حلالا حتى وصل التابعون فبينوا تحريمها [٣٨].

والحقيقة أن وجود هؤلاء الأعلام بالمغرب لا يرجع الى خلافة عمر بن عبد العزيز، فلقد رأينا بعضهم فى افريقية من قبل، كما ان بعضهم استمر فى عمله الورع بعد عمر بفترة طويلة، وهذا يعنى ان تعليم الناس مبادئ الشرع واصول الاسلام كان يسير جنبا الى جنب مع تقدم العرب السياسى. ولكن الكتاب ارادوا ان ينسبوا الكثير من أعمال الورع والتقوى الى ايام عمر بن عبد العزيز التى لم تبلغ سنتين ونصف السنة، فأيام عمر الثانى - فى نظرهم - هى ايام سيادة الفضيلة وعمل الخير.

٢ - اضطرابات المغرب بعد عمر بن عبد العزيز :

أ - يزيد بن ابى مسلم ؛ وتطبيق سياسة الحجاج العنيفة :

ويكاد يجمع الكتاب على انه بانتهاء خلافة عمر بن عبد العزيز (توفى فى

---

(٣٤) المالكى، ج ١ ص ٧٤ (كان فقيها مفتيا. سكن القيروان وبها توفى سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٥ - ٧٤٦ م) وانظر الدباغ، ج ١٤ ص ١٦٠ .

(٣٥) المالكى، ج ١ص ٧٥ (أهم ما يعرف عنه انه كان احد الفقهاء، وأنه ولى قضاء الجند بافريقية على أيام هشام بن عبد الملك وانه توفى فى أول خلافة هشام)، وانظر الدباغ، ج ١ ص ١٥٣ (جميل).

(٣٦) هو نفس والى افريقية والمغرب على ايام عمر بن عبد العزيز. واسمه الكامل كما يرد فى المالكى (ص ٧٥) هو ابو عبد الحميد اسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر القرشى المخزومى. وهو قرشى ومخزومى بالولاء كما نعرف، اذ كان جده ابو المهاجر مولى لمسلمة بن مخلد، وكانت وفاة إسماعيل بالقيروان فى سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ - ٧٥٠ م)، الدباغ، ج ١ ص ١٥٤.

(٣٧) المالكى، ص ٧٦، الدباغ، ج ١ ص ١٦٢ (ابن جابان)

(٣٨) ابن عذارى ج ٣ ص ٤٨ .

رجب او شعبان سنة ١٠١ هـ / ديسمبر ٧١٩ او يناير ٧٢٠م) انتهى عصر الاصلاح، وعادت الدولة الى سيرتها الاولى من الاستبداد بأهل الأمصار. وكانت المسألة المالية هى الصخرة التى تحطمت عليها فكرة المساواة والاخاء بين العرب وغيرهم من المسلمين. ولقد اتخذت الأحداث فى بلاد المغرب شكلا خطيراً، بعد ذلك النجاح الباهر الذى لم يتمثل فى دخول الناس فى الاسلام فقط بل وفى الجيش العربى الافريقى ايضا.

وبدأت الأزمة فى المغرب عندما عزل الخليفة يزيد بن عبد الملك والى عمر الورع اسماعيل بن عبد الله، واستعمل مكانه يزيد بن ابى مسلم، أحد تلامذة الحجاج ومعاونيه والذى شغل لديه وظيفة الكاتب ثم صاحب الشرطة[٣٩] .

وعندما استقر يزيد فى المغرب سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م طبق سياسة الحجاج العنيفة على المستويين الخارجي والداخلي. فهو من جهة اخذ يلح بالحرب على الروم فى البحر، فسير فى نفس السنة حملة بقيادة محمد بن اوس الانصارى نزلت صقلية وعادت سالمة بالمغانم[٤٠] . ومن جهة اخرى اخذ يتتبع اموال الولاة السابقين. وبدأ بموالى موسى بن نصير من البربر فجعلهم اخماسا، وأحصى أموالهم واولادهم ثم جعلهم حرسه وبطانته كما يقول ابن عبد الحكم[٤١]، والظاهر انه بعث للخليفة نصيبه فى أموالهم واولادهم حسب قانون الأخماس. وأتبع ابن مسلم ذلك بالقبض على الوالى الأسبق محمد بن يزيد القرشى، وأساء اليه اساءات بالغة من تعذيب وجلد وتعطيش، وحبس فى سجن ضيق أشبه ما يكون بما يسمى الآن بالحبس الانفرادى. ومع أن المفروض انه فعل ذلك محاسبة لمحمد بن يزيد وبحثا عما لديه من أموال، فانه ليس بمستغرب ان يكون للمسائل

---

(٣٩) ابن عبد الحكم، ص ٢١٣ ، الرقيق، ص ٩٨، ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٣ ب (مولى الحجاج). وانظر السلاوى ، الاستقصا، طبعة الدار البيضاء، ج ١ ص ٩١ الذى يقول انه كان من رجال الوليد، وان الوليد قال فيه : «ما مثلى ومثل الحجاج وابن ابى مسلم بعده الا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا».

(٤٠) تاريخ خليفة بن خياط، ج ١ ص ٣٣٣ (سنة ١٠٢ هـ) . وانظر فيما بعد، ص ٢٧٥ و هـ ٤٩ .

(٤١) ابن عبد الحكم، ص ٢١٤ (والنص يضيف هنا انه وشم ايديهم، وهذا ما سنتكلم عنه بعد قليل)، النويرى، المخطوط، ص ٨٣ ب.

الشخصية دورها في ذلك، فابن عبد الحكم يقول : «وكان محمد بن يزيد قد ولى عذاب يزيد ابن ابى مسلم بالمشرق فى زمن الحجاج ..» [٤٢].

وأراد يزيد بن ابى مسلم ان يطبق تنظيماته الشديدة على حرسه من البربر - وهنا نشير الى ان هذا الحرس لم يكن خاصاً بيزيد بل كان حرس الولاة من قبله كما ينص على ذلك ابن عبد الحكم[٤٣] . وهذا النص يبين فى الحقيقة ان الدولة اصبحت لها نظمها المستقرة الثابتة، فلم يعد الوالى يأتى الى ولايته ومعه قواته من أهله وعشيرته، فاذا ما عزل عاد بهم وترك للوالى الجديد ما يشبه الفراغ، بمعنى ان الوالى لم يعد الا موظفا مؤقتا على رأس ادارة دائمه لا تتأثر بعزله او بغيابه. وكان حرس الولاة هذا يتكون من البربر البتر خاصة ليس فيهم من البرانس احد»[٤٤]. وربما كان ذلك نتيجة لدخول بربر الكاهنة وهم جراوة فى الجيش العربى بأعداد وفيرة، كما رأينا.

رد الفعل واغتيال ابن ابى مسلم :

أراد يزيد أن يخضع حرسه هذا الى تنظيمات دقيقة تجعل له كيانه وشخصيته وهيبته، وذلك باتباع التقليد البيزنطى الذى كان يميز قوات الحرس بكتابة اسم الرجل بالوشم فى راحة يده اليمنى وصفته كـ «حرسى» فى راحة يده اليسرى، حتى يعرفهم الناس فيسرعون الى تنفيذ أوامر الوالى[٤٥] . ورفض البتر الخضوع

---

(٤٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٤، وقارن ابن خياط (ج ١ ص ٣٣٣) حيث الاشارة الى ان الضغينة بين الرجلين ترجع خطأ الى عهد عمر بن عبد العزيز. وتقول الرواية ان محمد بن يزيد ترك ان ابى مسلم فى السجن بينما أخرج كل من كان فى حبس سليمان بن عبد الملك. وهكذا نذر ابن ابى مسلم دم ابن يزيد، وعندما قبض عليه فى افريقية، قال له. «الحمد لله الذى امكننى منك بلا عهد ولا عقد». ورد ابن يزيد : «وأنا طال ما سألت الله ان يعيذنى منك». وكان رد ابن أبى مسلم : «فوالله ما أعاذك الله منى، والله لو ان ملك الموت سابقنى اليك لسبقته». فكان خلاص ابن يزيد لم يتحقق بعد هذا الوعيد الا بمقتل ابن ابى يزيد، كما يأتى .

(٤٣) نفس المصدر.

(٤٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤، الرقيق، ص ٢٤٠ (حيث النص : «فمكث اشهرا وحرسه البربر خاصة، ليس فيهم احد من البرانس»).

(٤٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ ، وقارن الرقيق، ص ٩٩، ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨

لهذا التنظيم واعتبروه نوعا من التفرقة لا تتفق مع مبادئ الاسلام، وقالوا «جعلنا بمنزلة النصارى»[٤٦] . وقرروا التخلص من ابن أبى مسلم الظلوم الغشوم. وكان أنسب مكان لاغتيال الوالى – كما أصبحت العادة – هو المسجد او المصلى حيث يتواجد الوالى فى أوقات الصلوات. فعندما خرج يزيد من داره الى المسجد لصلاة المغرب هاجمه رجال حرسه وقتلوه بيد احدهم واسمه حريز[٤٧] . والحقيقة اننا لا ندرى ان كان ثمة يد اخرى لها علاقة بمقتل ابن ابى مسلم. فمحمد بن يزيد الوالى السابق اعتق غلمانه الذين أتوه – وهو فى الحبس – بخبر مقتل يزيد[٤٨] . هذا كما أن توقيت اغتيال يزيد يمكن ان يفهم منه ان الأمر كان مبيتا بحيث يأمن القتلة العقاب السريع على الأقل، فقد قتل فى الوقت الذى كانت قواته، بقيادة قائد الاسطول محمد بن أوس الأنصارى، تقوم بالغارة على صقلية[٤٩] .

قائد الأسطول واليا مؤقتا :

وتشاور الناس فيمن يولونه الأمر الى ان تأتى اوامر الخليفة، وتم الاتفاق على اختيار رجل من اعيان القرشيين بافريقية، هو المغيرة بن ابى بردة القرشى حليف بنى عبد الدار[٥٠] ، ولكن ابنه نصحه بألا يفعل خشية اتهامه فى مقتل يزيد، فاستجاب الرجل للنصيحة، وآثر السلامة [٥١]. وأخيرا تم الاتفاق على ان يعهد بالأمر الى قائد الاسطول، محمد بن اوس الانصارى – وهذا رجل أكثر اتزانا –

---

(٤٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨، وانظر الرقيق، ص ٩٩ (مصدر الرواية).

(٤٧) ابن عبد الحكم، ص ٢١٤ (حيث يورد روايتن احداهما تقول انه قتل فى داره بيدى حريز بعد ان تناول طعام العشاء، واحتز رأسه وألقى به فى المسجد، والثانية تقول انه قتل فى المسجد، وهى مثل رواية ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨).

(٤٨) ابن عبد الحكم، ص ٢١٤ (رواية ابن عبد الحكم تشير الى اتهام عبد الله بن موسى بن نصير الذى قلنا انه قتل فى سنة ٩٧ هـ (انظر فيما سبق، ص ٢٥٩) وانه ربما كان المقصود ابن أخر لموسى بن نصير (انظر الصفحة التالية).

(٤٩) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٩، الرقيق، ص ١٠٠ ، وقارن ابن عبد الحكم (ص ٢١٤) الذى يذكر فقط ان ابن اوس كان صاحب البحر بتونس.

(٥٠) انظر ترجمته فى المالكى (رقم ٤٤، ص ٨٠ – ٨١) حيث يذكر انه رجل من اهل الفضل، معدود من التابعين، وان له جهاده مع موسى بن نصير، وقارن الدباغ، ج ١ ص ١٥٠ ، وانظر الرقيق، ص ١٠٠.

(٥١) ابن عبد الحكم، ص ٢١٤ ، الرقيق، ص ١٠٠ ، ابن عذارى، ص ٢١٥ ، المالكى ص ٨١.

الذى لم يلبث ان عاد من غزواته، فأرسلوا اليه فى تونس، وعهدا اليه بالأمر(٥٢) .
وكتب ابن أوس الى الخليفة يزيد يخبره بما حدث، وبعث كتابه مع رسوّل من اهل تونس اسمه خالد ابن ابى عمران. وتقبل الخليفة الامر الواقع، فعفا عن الجناة، ولم ينتقم منهم (٥٣)، ولو انه لم يرض عن ان يقوم بأمر الولاية غير رجل عريق النسب(٥٤) ، فجعل امر افريقية الى واليه على مصر، وهو بشر بن صفوان الكلبى فى نفس السنة (١٠٢ هـ / ٧٢١ م) - حسب رواية ابن عبد الحكم(٥٥).

ب - بشر بن صفوات :

سياسة داخلية هدفها استئصال بقايا الخصوم، وجمع الأموال :

استخلف بشر أخاه حنظله بن صفوان على مصر، وخرج الى افريقية. والظاهر انه تتبع المتهمين فى مقتل يزيد بن ابى مسلم، ومن هؤلاء واحد من ابناء موسى بن نصير، يقول ابن عبد الحكم إنه عبد الله بن موسى(٥٦) . ولما كان عبد الله قد قتل فى سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م قبيل مقتل اخيه عبد العزيز، وذلك حسب رواية ابن عذارى المنقولة من الرقيق التى اخذنا بها (٥٧)، فنرى انه ابن آخر لموسى، وربما كان عبد الملك الذى لم نعرف عنه شيئا منذ تركه والده على طنجة. وابن عبد الحكم يقول ان الذى شهد على ان ابن موسى بن نصير دسّ لقتل يزيد هو

(٥٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٥ ، ابن عذارى، ج ١ ص ٤٩ ، واقرن الرقيق ص ١٠٠ .

(٥٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١٥، وانظر الرقيق ، ص ١٠٠ (حيث اسم الرجل التونسى، خالد بن ابى عبيدة التجيبى) ، وقارن ابن الأثير، سنة ١٠٢ (يقول انهم ولوا الوالى السابق محمد بن يزيد).

(٥٤) ابن عبد الحكم (ص ٢١٥) يروى انه يزيد بن عبد الملك اختلى بخالد بن عمران وبعد ان سأله عن محمد بن اوس، قال له «فما كان بها قرشى ؟» . وقارن الرقيق (الذى ينقل ابن عبد الحكم)، ص ١٠١.

(٥٥) ابن عبد الحكم، ص ٢١٥، وانظر الرقيق، ص ١٠٢ (حيث النص على انه قدم افريقية سنة ١٠٣ هـ / ٢١ - ٧٢٢ م . وهو ما نقله النويرى (المخطوط، ص ٨٤ أ) بينما حرفه ابن عذارى (ج ١ ص ٤٩) فجعل ولاية بشر فى تلك السنة (١٠٣ هـ)

(٥٦) ابن عبد الحكم ص ٢١٥ .

(٥٧) انظر ص ٢٦٥ و هـ ٥.

خالد بن ابى حبيب القرشى [٥٨]، ومعه محمد بن ابى بكير، فانهما اللذان حرضا بشر بن صفوان على تنفيذ أمر الخليفة بقتل ابن موسى قبل ان يأتى حكم العفو عنه. فلقد تدخل الربيع صاحب خاتم الخليفة يزيد، وزوج اخت ابن موسى، واستصدر عفوا عن المحكوم عليه، ولكن الرسول الذى حمل العفو والذى وعد بمكافأة جزيلة تبلغ ٣ (ثلاثة) آلاف دينار وصل بعد تنفيذ الحكم بساعات[٥٩] . اما ابن عذارى فلا يذكر الا ان بشر بن صفوان استصفى بقايا آل موسى بن نصير [٦٠]. ورغم ان بشرا كان صاحب الأمر فى الاندلس ايضا فانه لم يكن يمارس سلطاته هناك فعلا، فلقد عزل السمح بن مالك، والى عمر بن عبد العزيز، ولكنه كان مضطرا الى الاستجابة لأهل الاندلس فى تبديل الولاة وتغييرهم [٦١].

وفى بداية سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م خرج بشر بن صفوان نحو المشرق يحمل الهدايا الى الخليفة يزيد بن عبد الملك، ولكى يعرفه بأحوال البلاد، لكن المنية وافت يزيد بن عبد الملك (شعبان سنة ١٠٥ هـ / يناير ٧٢٤ م). ووصل بشر الى الشام فقدم هداياه للخليفة الجديدة هشام بن عبد الملك[٦٢] . ولا نعرف ان كانت تلك الهدايا قد أتت بما كان يرجوه منها بشر، وذلك ان هشام بن عبد الملك أعاده من جديد الى المغرب فى سنة ١٠٦ هـ٧٢٤/ - ٧٢٥ م. وينص ابن عبد الحكم [٦٣]على ان بشرا عندما قدم الى افريقية تتبع اموال موسى بن نصير وعذب عماله [٦٤]. ومع اننا لا نعرف ان كان الأمر قد أبهم على ابن عبد الحكم فذكر ما فعله بشر على أيام يزيد بن عبد الملك متأخرا على أيام هشام [٦٥]،

(٥٨) ابن عبد الحكم . ص ٢١٥ وكذلك ص ٢١٨ حيث يسميه الفهرى.

(٥٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ .

(٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٩ .

(٦١) اخبار مجموعة ، ص ٢٥ .

(٦٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ .

(٦٣) ابن عبد الحكم ص ٢١٦ .

(٦٤) ابن عبد الحكم، ص ٢١٥ .

(٦٥) ينبغى الاشارة هنا الى ان ابن عذارى (ج ١ ص ٤٩) يذكر ان بشرا استصفى بقايا آل موسى بن نصير على ايام يزيد (انظر الصفحة السابقة). ومما يدعو الى الظن ان ابن عبد الحكم يخلط بين أعمال بشر ==

فالمعروف ان المسألة المالية التى حاول عمر بن عبد العزيز ايجاد حل لها تفاقمت على أيام هشام الذى سعى حثيثا فى البحث عن الأموال، مما لا يستبعد معه ان يكون بشر قد تتبع اموال موسى بن نصير بناء على أوامر هشام.

سياسة خارجية هدفها تأكيد سلطان العرب فى البحر :

حملات سنوية على جزر : سردانية وكورسيكا وصقلية :

يظهر ان وصول قائد الاسطول محمد بن أوس الأنصارى الى منصب ولاية افريقية والمغرب باختيار اهل الحل والعقد عقب اغتيال يزيد بن ابى مسلم فى سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م، كان علامة مميزة فى تاريخ البحرية العربية الناشئة فى تونس، فكأنها كانت قد وصلت الى مرحلة الفتوة والقوة مع مطلع القرن الثانى الهجرى، اثر استيلاء المسلمين على سواحل البحر الغربية فى اسبانيا.

هذا ما يظهر بجلاء فى حوليات خليفة بن خياط حيث تتوالى الحملات البحرية سنويا فى شكل رتيب على جزر سردانيا وكورسيكا (قورسقة) مما يعنى ان أسطول المغرب العربى أخذ يلح بالحرب الدورية على قواعد الروم القريبة فى البحر بهدف ارهاب العدو، وبالتالى حماية سواحل المغرب، مما يمكن ان يمثل تمهيدا للقفز على تلك القواعد والاستقرار فيها بعد طرد الروم منها.

غزو سردانية وكورسيكا :

فــفى سنوات ١٠٣ هـ / ٧٢١ م ، و ١٠٤ هـ / ٧٢٢ م ، و ١٠٦ هـ/ ٧٢٤ و ١٠٨ هـ / ٧٢٦ م و ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م - أى طوال ولاية بشــر بن صفوان - توالت زيارات الأسطول لجزيرة سردانية، وكان قائد الحملة الأولى يزيد بن مسروق اليحصبى، بينما كانت قيادة الثانية الى عمرو بن فاتك الكلبى،

= على ايام يزيد وأعماله على ايام هشام انه يجعل (ص ٢١٥ ، وانظر ابن عذارى ج ١ ص ٤٩ - حيث رواية الرقيق ، ص ١٠٢ ، التى تكتب عنبسه فى شكل عبد الله -) عهد بشر بولاية الأندلس لعنبسه بن سحيم ايام هشام. والحقيقة انها كانت فى سنة ١٠٣ هـ / ٢٧١ م على أيام يزيد (انظر قائمة ولاة الأندلس فى اخبار مجموعة، ملحق الترجمة الاسبانية، ص ٢٤١ ، وانظر بروفنسال، تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ص ٢٨).

وكانت القيادة في الحملتين الأخيرتين لحسان بن محمد بن أبى بكر مولى بنى جمح[٦٦] . واذا كانت حوليات ابن خياط تجعل كورسيكا من أهداف حملة سنة ١٠٦ هـ / ٧٢٤ م. فانها لا تنص على وجهة الحملتين البحريتين اللتين سيرهما بشر في سنتى ١٠٤ هـ / ٧٢٢ م و ١٠٨ هـ / ٧٢٦ بقيادة عمرو بن فاتك الكلبى وقثم بن عوانة الكلبى اللذين عادا سالمين بالمغانم[٦٧] . ولا بأس ان يكون الأسطول قد زار فيهما نفس سردانية وكورسيكا إن لم يكن قد عرّج في طريقه على صقليه التي خرج اليها بشر بن صفوان نفسه في سنة ١٠٧ هـ على ما نظن، وهو مالا نجده في سنويات ابن خياط [٦٨].

غزو صقلية :

والحقيقة ان من اهم اعمال بشر بن صفوان في ولايته تلك قيامه بغزو صقلية. والظاهر انه قام بغزوته هذه في سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م. بعد ان بلغته أنباء استشهاد واليه وابن عصبيته في الأندلس (فرنسا) عنبسة بن سحيم الكلبى، فسار بنفسه في البحر بعد ان استخلف على القيروان العباس ابن باضعه الكلبى[٦٩]، ورغم ما يقوله ابن عبد الحكم من ان الحملة انتهت بنهاية تعسه، نتيجة لظروف جوية صعبة حتى «هلك لذلك من جيشه خلق كثير»، فإن بشرا عاد من صقليه الى القيروان وبصحبته سبى كثير[٧١] . وتوفى بشر بن صفوان بالقيروان في شوال سنة ١٠٩ هـ/ ديسمبر سنة ٧٢٧ - يناير ٧٢٨ م متأثرا من مرض يقال له الدبيلة، بعد ولاية طالت الى سبع سنوات[٧٢] . وكان بشر عندما

(٦٦) انظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٣٦ ، ص ٣٤٩ ، ص ٣٥٢ ، وأنظر في فتوح صقلية ، ج ٢ ص ٢١٠ .

(٦٧) نفس المصدر، ج ٢ ص ٣٣٨ ، ص ٣٥١ .

(٦٨) انظر في فتوح صقلية، فيما بعد ، ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١. والهوامش.

(٦٩) ابن عذارى، ج ١ ص ٤١ ، وقارن الرقيق، ص ١٠٢ (حيث القراءة ابن ناصعة بدلا من ابن باضعة - ولكن بمناسبة غزو صقلية).

(٧٠) ابن عبد الحكم، ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٧١) الرقيق. ص ١٠٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٠.

(٧٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٥ (الدبيلة خراج ودمل كبير يظهر في الجوف فيقتل صاحبه (طبعة عامر هامش ١ ص ٢٩١)، ابن عذارى، ج ١ ص ٤٩ ، النويرى، المخطوط ، ص ٨٤ أ وقارن الرقيق، ص ١٠٢ .

مرض مرضه الذى مات فيه استخلف على القيروان نغاش بن قرط الكلبى[٧٣] .

جـ - عبيدة بن عبد الرحمن السلمى : سياسة العصبية والعنف :

وعندما بلغ نبأ وفاة بشر الى دمشق فى أوائل سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م عهد هشام بن عبد الملك بولاية افريقية والمغرب الى عبيدة بن عبد الرحمن السلمى[٧٤] ، وهو ابن اخى أبى الأعور صاحب خيل معاوية بصفين[٧٥] . ووصل عبيدة الى القيروان فى ربيع الاول من سنة ١١٠ هـ / ماية - يونيه ٧٢٨ م. وكان حضوره بغتة مفاجأة مذهلة لنائب بشر بن صفوان الذى كان يتهيأ لشهود صلاة الجمعة، فقال : «لا حول ولا قوة الا بالله، هكذا تقوم الساعة بغتة، وألقى بنفسه فما حملته رجلاه»[٧٦] . ولم تختلف سياسة الوالى الجديد عن تلك التى كان ينتهجها سلفه بشر اذ قامت على دعامتى تثبيت اركان الدولة بالقهر داخليا، ومواصلة الإلحاح على الروم بالحرب البحرية خارجيا.

سياسة داخلية مبنية على العصبية والعنف :

فكما جرت العادة بدأ عبيدة يتتبع عمّال الوالى القديم ومعاونيه، فى سبيل البحث عما اكتنزوه غدرا من الأموال، فأخذ عبيدة عمال بشر واصحابه فحبسهم وأغرمهم، وعذب بعضهم[٧٧] .

---

(٧٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١٦ ، خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٧٥ ، وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ٤٩) الذى ينقل الرقيق (ص ١٠٢) اذ يجعل خليفة بشر نفس العباس ابن باضعة الكلبى الذى استخلفه بشر على القيروان عندما خرج فى سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م لغزو صقلية .

(٧٤) الرقيق . ص ١٠٤ (حيث تفصيلات قصصية عن خروج عبيدة من الشام) . ابن عذارى، ج ١ ص ٥٠ ، وقارن ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ (الذى يلقبه بالقيسى بدلا من السلمى) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٠ ، النويرى المخطوط ، ص ٨٤ أ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٤ ، حيث يجعل عبيدة اخا للأعور السلمى، وهو الأمر المشكوك فيه .

(٧٦) ابن عذارى - ج ١ ص ٥٠ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٥ .

(٧٧) مما يؤيد فكرة سعى الولاة حثيثا فى البحث عن الأموال من كل وجه ما يقوله ابن عبد الحكم (ص ٢١٦) عن عبيدة بن عبد الرحمن هذا. فعندما استعمل عبيده على الأندلس عبد الرحمن الغافقى، وغزا هذا الأخير بلاد الفرنجة،«واصاب هناك بعض الذخائر من الذهب والجوهر» فكسرها واخرج الخمس، وقسم سائر ذلك فى المسلمين الذين كانوا معه فغضب عبيدة غضبا شديدا وكتب الى الغافقى يتوعده. =

والظاهر أن عبيدة استخدم العنف والشدة فى حكم البلاد، وخاصة مع كبار الموظفين، لم يفرق فى ذلك بين عماله وعمال الولاة السابقين، من مدنيين وعسكريين. فهو لم يتردد فى انزال العقاب الصارم بقائد الاسطول ، وهو المستنير بن الحبحاب الحرشى، الذى أخطأ تقدير الوقت المناسب لعودته من حملة قام بها على صقلية فى سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ م، حتى هجم عليه الشتاء وثارت الأنواء بمراكبه فحطمتها. فلقد أمر عبيدة بشد وثاقه. وجلده، وحبسه والتشهير به فى كل جمعة، كما يأتى فى الغزو البحرى(٧٨) .

واستشرى عنف عبيدة وشدته ، وكان من بين من نالهم سوء معاملته أحد زعماء اليمنية من عمال بشر بن صفوان السابقين، وهو ابو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى، الذى ولى ولايات كبيرة فى افريقية ايام بشر، والذى كان – الى جانب شرفه فى قومه – فصيحا شاعرا. فلما عزله عبيدة، ونكل به ، ندد بموقف الخلافة الأموية من عصبيته الكلبية فقال ابياتا منها :

أفأتم بنى مروان قيســا دماءنا ... وفى الله ان لم تنصفوا حكم عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

تـعاميتم عـــنا بعين جليــــة ... وانتم كذا ما رعيتم لنا فعل (٧٩).

وتقول رواية ابن عذارى انه عندما وصلت هذه الأبيات الى الخليفة هشام امر بعزل عبيدة (٨٠). ولكنا نميل الى الأخذ برواية ابن عبد الحكم التى تقول ان عبيدة خرج بالهدايا من أفريقية، بعد ان استخلف عليها عقبة بـن عبد الله بن

= فكتب اليه الغافقى «ان السماوات والأرض لو كانت رتقا لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجا» ثم خرج اليهم غازيا فاستشهد وعامة اصحابه (فى بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ / ٧٣٣ م) . وقارن ابن الأثير، احداث سنة ١١٣، والرقيق، ص ١٠٥ .

(٧٨) انظر فيما بعد ص ٢٨٢ – ٢٨٣.

(٧٩) ابن عذارى، ج ١ ص ٥٠ وكذلك هامش ١ ، حيث هذه الأبيات مع تغيير بعض الفاظها، وقارن ابن القوطية ص ١٨ – ١٩ حيث يورد سبعة ابيات من القصيدة : مختلفة بعض الاختلاف. وكذلك الأمر فى النويرى، المخطوط ص ٨٤ أ. وابن الأثير، سنة ,١٢٥ وانظر الرقيق ، ص ١٠٥ – ١٠٦ ، حيث يورد اربعة ابيات، وانظر هـ ١ فى نفس ص ١٠٦).

(٨٠) ابن عذارى، ج ١ ص ٥١ ، وقارن الرقيق . ص ١٠٦ .

قدامة التجيبى، لزيارة الخليفة هشام. وانه استعفاه فاعفاه [٨١]. وذلك انه لن يكون لقصيدة ابى الخطار هذه صدى – ان كانت قد احدثت صدى – الا فيما بعد سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ – ٧٤١ م [٨٢].

الحرب البحرية الدورية فى سواحل صقلية وسردانية :

ويفهم من استمرار الغارات البحرية على جزر صقلية وسردانية طوال السنوات الخمس التى وليها عبيدة بن عبد الرحمن السلمى، ان الالحاح بالحرب الدائبة على بلاد الروم فيما وراء البحر كان قد أصبح سياسة مستقرة لا يجوز الاخلال بها. والفضل فى تسجيل تلك الصوائف البحرية يعود الى حوليات خليفة بن خياط – وان كان بشكل مقتضب.

ففى سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م، وبمجرد قدوم عبيدة الى افريقية سير عثمان ابن ابى عبيدة (الفهرى) فى المراكب على رأس ٧٠٠ (سبعمائة) مقاتل لغزو سرقوسة عاصمة صقلية. ورغم تنبه الروم وخروجهم للقاء العرب، فقد انتهت الحملة بنجاح مرموق يؤكده وقوع قائد العسكر الرومى (بطريقهم) اسيراً بين ايدى رجال عثمان[٨٣].

ورغم ان حملة السنة التالية (١١١ هـ / ٧٢٩م) على صقلية بقيادة المستنير هى التى استرعت انتباه ابن عبد الحكم، بسبب ما لحق بها من الفشل، وما نزل بقائدها من العقاب، فأسهب بعض الشئ فى ذكرها فان رواية ابن خياط المقتضبة تتميز بدقة معلوماتها، اذ تنفرد بتحديد التاريخ وتسجيل عدد مراكب الاسطول الافريقى، وعددما سلم من الأنواء منها.

---

(٨١) ابن عبد الحكم، ٢١٧ (اما طبعة عامر ص ٢٩٣ ففيها عقبة بن فطامة). وانظر النويرى. المخطوط ص ٨٤) (الذى يضيف انه ترك على القضاء عبد الله بن المغيرة بن بردة القرشى)، وقارن ابن خياط. ج ١ ص ,٣٧٥.

(٨٢) يقول ابن القوطية (ص ١٩) انه عندما بلغت الخليفة هشام بن عبد الملك تلك الابيات التى قالها أبو الخطار امر واليه على المغرب حنظلة بن صفوان الكلبى (بعد سنة ١٢٣ هـ) بأن يولى ابا الخطار الاندلس ففعل. انظر بروفنسال، تاريخ اسبانيا الاسلامية، بالفرنسية، ص ٣٤ وعن اعمال ابى الخطار وقتئذ فى افريقيه، انظر فيما بعده ص ٣٠٨.

(٨٣) انظر ابن خياط، ج ٣ ص ٣٥٣ – ٣٥٤ حيث نجد سرقوسة فى شكل «سراقس».

والمهم ان عبيدة سير المستنير بن الحبحاب الحرشي لغزو صقلية (٨٤) في ١٨٠ (ثمانين ومائة) مركب، فنزل على سرقوسة وضرب عليها الحصار (٨٥). ولا نعرف ان كان المستنير قد أخطأ في تقدير زمن الغارة ام ان المغانم استهوته الى ان هجم عليه الشتاء. ففي طريق العودة تغيرت الاحوال الجوية واشتدت امواج البحر وعواصفه مما أدى إلى غرق معظم المراكب فلم ينج منها الا ١٧ (سبعة عشر) مركبا (٨٦)، وجرف البحر مركب القيادة وفيها المستنير الى طرابلس. وعندما بلغ نبأ الفاجعة الى عبيدة ارسل الى واليه على طرابلس، وهو يزيد بن مسلم الكندى «يأمره ان يشد وثاقه، ويبعث معه ثقله» (٨٧).

وعندما وصل القائد البحرى السيء الحظ لدى عبيدة «جلده جلدا موجعا، وطاف به القيروان على أتان ثم جعل يضربه في كل جمعه حتى أبلغ اليه» (٨٨)، وظل المستنير محبوسا عند عبيدة (٨٩).

واستمر الإلحاح بالغزو البحرى على صقلية، كما نجده في سنوات: ١١٢هـ/ ٧٣٠ م، ١١٤هـ/ ٧٣٢ م، و ١١٥ هـ/ ٧٣٣ م، وذلك بقيادة كل من: ثابت بن خيثم (الأردنى)، و «عبد الملك» بن قطن، وبكر بن سويد (٩٠).

أما سردانية فلقد خصصت لها حملة منفردة في صوائف سنة ١١٤ هـ/

---

(٨٤) انظر ابن عبد الحكم، ص ١١٦، وقارن ابن خياط. ج ٢ ص ٣٥٥ ()حيث الاسم المستنير» بن الحارث، وهو ما نجده ايضا في ابن الأثير (احداث سنة ١١٣)، كما يوجد في هامش - ١ من ابن عبد الحكم حسب بعض المخطوطات الاخرى.

(٨٥) انظر ابن خياط، ج ٢ ص ٣٣٥ - حيث النص «فنزل وحاصرهم» دون تحديد مكان الحصار. ولما كانت سرقوسة هي الهدف في حملة السنة السابقة حيث «لقوه واسر بطريقهم» فقد رجحنا ان المقصود بكلمة «وحاصرهم» هم روم سرقوسة العاصمة.

(٨٦) ابن خياط، ج ٢ ص ٣٥٥.

(٨٧) ابن عبد الحكم، ص ٢١٦

(٨٨) ابن عبد الحكم ص ٢١٦.

(٨٩) ابن عبد الحكم ص ٢١٦.

(٩٠) تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٣٥٧، ص ٣٦٠ (ولا بأس ان يكون «عبد الله» ابن قطن هو في الحقيقة تحريف لاسم «عبد الملك» بن قطن الذى ولى الأندلس مرتين، ثانيتهما بعد اضطراب المغرب على ايدى الخوارج سنة ١٢٣ هـ - انظر فيما بعد ص ٢٩٥ و هـ ١٣٩).

٧٣٢م ، كانت قيادتها الى عبد الله بن زياد الانصارى (٩١).

وتنص حوليات ابن خياط على ان كل تلك الحملات كانت موفقة اذ غنمت وسبت وعادت سالمة ، باستثناء حملة بكر بن سويد (سنة ١١٥ هـ / ٧٣٣ م) الذى «لقية الروم فرموا مراكبه بالنار»، وان كنا لا نعرف الى أى حدّ اثرت النار اليونانية فى الاسطول العربى. واذا كانت النصوص لا تعرفنا بتفصيلات ما كانت تجلبه تلك الحملات من المغانم والسبى، فان ما عاد به عبيدة من الكنوز والذخائر والهدايا المختلفة الى المشرق يمكن ان يفسر علة أخرى من علل ذلك الإلحاح السنوى على جزر الروم بتلك الحرب البحرية الدورية.

عودة عبيدة الى دمشق مستعفيا :

والظاهر ان عبيدة غادر المغرب فى اواخر سنة ١١٤هـ / ٧٣٢ م (٩٢) ، ووصل الى دمشق فى اوائل سنة ١١٥ هـ / ٣٣٣ م (٩٣) . وينص ابن عبد الحكم على عظم الهدايا والذخائر التى خرج بها عبيدة، والتى اشتملت على العبيد والإماء والجوارى المتخيرة (٧٠٠ جارية) والخصيان، والخيل والدواب، والذهب والفضة والآنية (٩٤) مما يذكر بأيام الفتح الأولى، قبل دخول البلاد فى حوزة الاسلام، عندما كان المغرب ارض المغانم الثمينة والسبى الجميل. والظاهر ان عبيدة هو الذى طلب فعلا اعفاءه من منصبه - كما يقول ابن عبد الحكم - وان الامر تطلب بعض الوقت، وذلك ان الخليفة هشام بن عبد الملك لم يعف عقبة التجيبى، نائب عبيدة ، ويعهد بولاية افريقية الى ابن الحبحاب الا فى ربيع الاول سنة ١١٦ هـ / ابريل ٧٣٤ م (٩٥).

---

(٩١) نفس المصدر، ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٩٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٥١ (شوال سنة ١١٤ هـ - نوفمبر ٧٣٢ م وبذلك استمرت ولايته ٤ سنوات - النويرى ، ص ٨٤ أ) ، وقارن الرقيق (صاحب الرواية) ص ١٠٦ .

(٩٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١٧ . ويورد ابن عبد الحكم رواية اخرى تحدد مسير عبيدة الى الشام فى رمضان سنة ١١٧ هـ - اكتوبر ٧٣٥ م. وهذا غير صحيح فان ولاية ابن الحبحاب بدأت سنة ١١٦هـ - ٧٣٤م.

(٩٤) ابن عبد الحكم، ص ٢١٧ ، وقارن ابن عذارى، ج ١ ص ٥١/.

(٩٥) أنظر الرقيق، ص ١٠٧ ، النويرى، المخطوط، ص ٨٤ب، ابن عبد الحكم، ص ٢١٧، ابن عذارى، ج١ ص٥١. أما البكرى (ص٣٧) فيجعل ابن الحبحاب فى تونس سنة ١١٤هـ.

د- عبيد الله بنى الحبحاب - سياسة قوية مبنية على العصبية:

ووالى المغرب الجديد هو عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث القيسى بالولاء اذ كان مولى لبنى سلول[96]. ويصفه ابن عذارى نقلا عن الرقيق بأنه «كان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا، بارعا فى الفصاحة، حافظا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها»[97]. بدأ ابن الحبحاب حياته العامة كاتبا ثم تناهى به الأمر إلى أن وصل إلى وظيفة عامل خراج مصر فى سنة ١٠٩هـ[98]، ثم إلى ولاية المغرب.

وخرج عبيد الله بن الحبحاب من مصر بعد أن استخلف على خراجها ابنه القاسم[99]، وقدم إلى افريقية فى شهر ربيع الثانى من سنة ١١٦هـ/مايه ٧٣٥م[100]، وتسلم ولايته من عقبة بن عبد الله بن قدامة نائب عبيدة.

والمفهوم من النصوص أن عبيد الله بن الحبحاب - مثله مثل كبار القادة - انتهج سياسة قوية استهدفت تحقيق ثلاثة أهداف: أولها تقوية سلطان العرب بشكل

---

(٩٦) ابن خياط، ج٢ ص ٣٦١، أخبار مجموعة، ص ٢٥، ابن القوطية، ص ١٤، ابن عذارى ج١ ص ٥١، النويرى، المخطوط، ص ٨٤ب. وانظر تحقيق ابو ضيف، ص ٢١٣)

(٩٧) ابن عذارى، ج١ ص٥١، وقارن الرقيق، ص ١٠٧، النويرى، المخطوط، ص ٨٤ب (ابو ضيف، ص ٢١٣.

(٩٨) يلاحظ أن ابن الحكم (ص ٢١٧) يقول أنه عامل هشام على مصر دون أن يبين نوع عمله. أما ابن عذارى (ج١ ص٥١) فيجعله والى وافريقية والأندلس والمغرب كله. والمعروف أن ولاية مصر من سنة ١٠٩هـ - ٧٢٧م إلى سنة ١١٧هـ ٧٣٥م كانت إلى الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمى، ولكنها كانت ولاية الصلاة فقط كما يذكر الكندى (ص ٧٥). وفى نفس الوقت لم يذكر الكندى ولاية ابن الحبحاب ولكنه يقول انه كان يتصل بالخليفة هشام ويستأذنه فى نزول القيسية بأرض مصر، ويطمئن الخليفة فيقول: «ولايكسر ذلك خراجا» (الكندى، ص ٧٦). وهذا يعنى أنه كان والى الخراج إلى جانب الوليد بن رفاعة والى الصلاة. وهذا لا يمنع من أن يكون ابن الحبحاب قد حمل فى بعض الأحيان لقب الأمير، كما يبين ذلك جرومان. أنظر: Grohmann, Apercu de papyrologie arabe, p. 54 - 55.

(٩٩) ابن عبد الحكم، ص ٢١٧، الرقيق، ص ١٠٧، ابن عذارى، ج١ ص ٥١.

(١٠٠) ابن عذارى، ج١ ص ٥١، أما ابن عبد الحكم (ص ٢١٧) فيقول ان أمر هشام صدر اليه بالمسير إلى افريقية فى ذلك التاريخ، وقارن ابن الأثير الذى يجعلها فى سنة ١١٧.

أكيد في المغرب القريب، والعمل على إخضاع الأقاليم أو القبائل في المغرب البعيد بشكل نهائي. وثاني هذه الأهداف: الاستمرار في سياسة الغزو البحرى المنظم، ولكن بشكل أكثر ترتيبا وبامكانيات أعظم، وهذا ما يمكن أن يساهم في تنمية موارد الولاية المالية، والثالث: الاجتهاد في جمع الأموال اللازمة لاتمام هذا العمل، ولسد مطالب بيت المال، وارضاء حاجات الخلافة.

النشاط البحرى: بين الالحاح على صقلية وسردينا، والعناية بتونس:

ومما يؤسف له أن الكتاب يجملون أعمال ابن الحبحاب دون أن يضعوا لها تواريخ معينة. وذلك باستثناء حوليات خليفة بن خياط فيما يتعلق بالحملات البحرية الدورية على صقلية وسردينية وغيرهما من الجزر الخاضعة للبيزنطيين. وهكذا يسجل ابن خياط صوائف ابن الحبحاب من افريقية بشكل رتيب اعتبارا من ١١٦هـ/ ٧٣٥م، على مدى أربع سنوات متوالية، حتى سنة ١١٩هـ/ ٧٣٨م. ثم انه ينص بعد ذلك في سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٩م على أنه لم يكن هناك غزو من افريقية، مما يعني أن التوقف عن الغزو البحرى في سنة من السنين يعتبر أمرا استثنائيا غير مقبول - الأمر الذى يتطلب التعليل والتفسير. ولا بأس أن تكون أحوال البلاد الداخلية هي التي أملت الإخلال بتلك السنة الأكيدة.

والمهم أن ابن الحبحاب اجتهد بما عرف عنه من جد ونشاط في العناية بالبحرية الافريقية. وفي هذا المجال بدأ - كما هي العادة - بتغيير مالم يستحسنه من أعمال سلفه، فأخرج المستنير بن الحبحاب، قائد حملة صقلية التعسة، من حبس الوالي السابق، وعهد اليه بولاية مدينة تونس(١٠١). ونظن أن هذا يعني قيادة الأسطول أيضا، أو الاشراف عليه. ولقد كان من الطبيعي فعلا أن يوجه عبيد الله بن الحبحاب عنايته إلى مدينة تونس بصفتها قاعدة الأسطول الذى كان عليه أن يمد نشاطه باستمرار إلى ماوراء البحار. فينسب الكتاب إليه أنه بنى دار الصناعة بتونس(١٠٢)، والحقيقة أن حسان ابن النعمان هو الذى بناها، وان موسى بن نصير اعتنى بها، فكأنهم يريدون بذلك أنه جددها - هو الآخر - وزاد فيها. هذا كما

---

(١٠١) ابن عبد الحكم، ص ٢١٧، وقارون ابن الأثير، سنة ١١٣، ج٥ ص ٦٤.

(١٠٢) أنظر البكرى، ص ١٢٠، ابن عذارى، ج١ ص ٥١، النويرى، المخطوط، ص ٨٤ب، السلاوى، الاستقصا، ط. الدار البيضاء ج١ ص ٩٤.

اعتنى ابن الحبحاب بعمران مدينة تونس نفسها، فينسب اليه بناء مسجدها الجامع الذى عرف فيما بعد بمسجد الزيتونة(١٠٣).

وفيما يتعلق بالغزو البحرى، فبمجرد قدوم ابن الحبحاب إلى افريقية سنة ١١٦هـ/ ٧٣٥م، سير أولى صوائفه البحرية إلى صقلية، بقيادة عثمان ابن أبى عبيدة (الفهرى) ونجحت الحملة فى النزول فى بعض نواحى الجزيرة - التى لا يحددها ابن خياط • وعاد الرجال إلى سفنهم بما اعتادوا اصابته من المغانم والأسلاب. وفى طريق العودة اعترضت بعض وحدات الأسطول البيزنطى مراكب عثمان، ورغم ما تقوله الرواية من أن القتال انتهى بهزيمة أسطول الروم الا أنها تُنص على أن البيزنطيين أصابوا من المسلمين وأسروا منهم عددا من الأعيان، منهم: ابنا قائد الحملة عثمان بن أبى عبيدة، وهما: عمرو أبو الربيع سليمان، وكذلك عبد الرحمن بن زياد(١٠٤). أما عن حملة سنة ١١٧هـ/ ٧٣٦م التالية فكانت بقيادة أخى عثمان، وهو حبيب ابن أبى عبيدة (الفهرى) وكانت وجهتها جزيرة سرداينة. ونجح حبيب فى مفاجأة بعض قرى الجزيرة وأنزل بأهلها هزيمة منكرة وعاد منهم بكثير من السبى(١٠٥).

وفى سنة ١١٨هـ/ ٧٣٧م سير ابن الحبحاب حملته البحرية نحو صقلية وذلك بقيادة قثم بن عوانة الكلبى الذى نزل على مدينة «أولية». والظاهر أن تلك الحملة لم تحقق أغراضها، ان لم تكن قد باءت بالفشل، وذلك أن الرواية تقول أن الروم أحاطوا بقثم ثم انهم خلوا عنه(١٠٦).

ولقد صاحب سوء الحظ قثم بن عوانة عندما صدرت اليه أوامر ابن الحبحاب فى السنة التالية، سنة ١١٩هـ/ ٧٣٨م، بغزو سردانية، فلقد هاجم قثم بعض قلاع الجزيرة، ولكنه قدر له الغرق فى رحلة العودة فى ظروف غير معروفة،

(١٠٣) انظر الاستبصار، عن ١٢٠، ابن عذارى، ج١ ص٥١، النويرى، المخطوط، ص٨٤ب، السلاوى، الإستقصا ، ط. الدار البيضاء ،ح١ ص١٩٤.
(١٠٤) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ص ٣٦٢ - حيث الإشارة إلى أنهم لم يزالوا فى أيدى الروم حتى ولاية عبد الرحمن بن حبيب (سنة (١٢٧هـ) الذى فدى ابنى عمه وناسا من أسارى المسلمين، وكذلك عبد الرحمن بن زياد (فى سنة ١٢١هـ؟)، وأنظر فيما سبق، ص ٣١.
(١٠٥) أنظر بن خياط، ج٢ ص ٣٦٢، وأنظر ابن الأثير (أحداث سنة ١١٣، أحداث سنة ١١٧)، وقارن ابن عبد الحكم، ص ٢١٧.
(١٠٦) ابن خياط، ج٢ ص ٣٦٣.

اذ تقول الرواية انه غرق «فى مراكب من المسلمين، وسلم بعضهم»[107]. ولا ندرى أن كان الأسطول البيزنطى قد اعترض مراكب المسلمين أم أن ظروفا جوية سيئة هى التى تسببت فى غرقها.

ولا بأس أن تكون تلك الكارثة التى ألمت بالأسطول هى التى منعت من الغزوة التالية فى سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٩م، كما ينص على ذلك ابن خياط[108]، ان لم يكن ذلك نتيجة لظروف داخلية أخرى، مثل بدء اضطرابات الخوارج فى المغرب الأقصى التى بلغت الذروة أثناء حملة سنة ١٢٢هـ/ ٧٤١م على صقلية.

سياسة داخلية صارمة: تقسم المغرب إلى ولايتين، والعمل بحزم على إقرار الأمور فيه:

والذى يفهم من النصوص ان ابن الحبحاب قسم مادون افريقية من المغرب إلى ولايتين: أولاهما السوس الأدنى، وهو ما يعادل طنجة وما والاها من المغرب الأقصى، وجعل هذا الاقليم فى أول الأمر إلى ابنه اسماعيل بن عبيد الله، قبل أن يعهد به إلى عمر بن عبد الله المرادى الذى ظل واليا إلى سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م[109]. وثانيتهما السوس الأقصى حيث بعث حبيب بن ابى عبيدة الفهرى (حفيد عقبة بن نافع) غازيا[110].

أما الأندلس فانه عهد بها فى سنة ١١٦هـ/ ٧٣٥م إلى وليه عقبة بن الحجاج السلولى، تكريما له واعترافا بما كان له عليه وعلى آله من أفضال[111].

---

(١٠٧) خلفية بن خياط، ج٢ ص ٣٦٤.

(١٠٨) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ص ٣٦٤.

(١٠٩) ابن عذارى، ج١ ص ٥١، وانظر ابن الأثير (سنة ١١٧هـ) الذى يقول ان المرادى كان إلى جانب اسماعيل على طنجة، وقارن ابن عبد الحكم (ص ٢١٧) الذى يسمى الولاية «السوس» فقط، ولا يذكر ولاية عمر بن عبد الله المرادى بل يجعله والى طنجة ، بينما يجعل اسماعيل بن عبيد الله والى السوس (ص ٢١٨)، وذلك عند ثورة البربر سنة ١٢٢هـ، وقارن الرقيق ص ١٠٨، وتاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ص ٣٧٦.

(١١٠) ابن عبد الحكم، ص ٢١٧، ابن خياط، ج٢ ص ٣٦١، ابن عذارى، ج١ ص ٥١ وقارن الرقيق، ص ١٠٨.

(١١١) أنظر فهرس ولاة الأندلس فى أخبار مجموعة، ملحق بالترجمة الأسبانية، ص ٣٤١، والنص ص ٢٥. ويلاحظ أن النص (ص ٢٨) يقول أن عقبة دخل الأندلس «سنة عشر ومائة» ونعتقد أنها خطأ من الناسخ =

والظاهر أن ابن الحبحاب كما كان يلح على الروم بالحرب البحرية الدورية، فانه كان يتبع سياسة داخلية صارمة فى اخضاع الاقاليم التى لم تكن قد خضعت تماما لسلطان القيروان، وخاصة فى بلاد المغرب البعيد، وفيما وراءها من الصحراوات الغربية فى طريق بلاد السودان.

وهكذا أمر ابن الحبحاب قائدة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى بالغزو فتوغل فى السوس الأقصى نحو الجنوب حتى بلغ أرض السودان كما تقول النصوص(١١٢)، والمقصود بذلك الصحراوات الجنوبية، من بلاد مسوفة ولمتونة الصنهاجية(١١٣)، المؤدية إلى مدينة أودغست (أولى بلاد السودان). وانتهت الحملة بنجاح كبير، فخضعت القبائل فى تلك الأقاليم، وعاد حبيب بعدد وفير من السبى، وأحمال عظيمة من التبر(١١٤). والظاهر أن حبيب ابن أبى عبيدة اعتبر حملته غزوة فى «دار حرب»، فذلك ما يفهم مما تقوله النصوص من أن والى طنجة عمر بن عبد. الله المرادى «أساء السيرة، وتعدى الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فئ المسلمين»، وذلك مالم يرتكبه عامل قبله، كما يقول ابن عذارى الذى ينقل عن الرقيق(١١٥). وحقيقة أن بعض الولاة كانوا يخمسون البربر ولكن من لم يدخل فى الاسلام منهم فقط، وليس من أسلم(١١٦).

= الذى كتب «سنة» بدلا من «ستة»، وانظر الرقيق ص ١٠٨ (وحيث نجد عزل عنبسة بن سحيم الكلبى، واستعمال عقبة بن الحجاج، دون تاريخ - والمعروف أن عنبسة استشهد فى فرنسا كما سبقت الاشارة. أنظر فيما سبق ص ٢٧٣).

(١١٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٨، ابن عذارى، ج١ ص ٥١، وانظر الرقيق، ص ١٠٨، ابن خياط، ج٢ ص ٣٦١ (حيث القراءة عبد الرحمن بن حبيب بدلا من خبيب - وحيث السنة ١١٦هـ).

(١١٣) ابن خلدون، العبر، ج٦ ص ١١٠، الترجمة، ج١ ص ٢١٦، وقارن الرقيق، ص ١٠٨، حيث الإشارة إلى قبيلة «مسوفة»، التى تركها المحقق فى شكل «مسوقة»، وان كانت القصة لها شكل الاسطورة.

(١١٤) ابن عبد الحكم، ص ٢١٧، ابن عذارى، ج١ ص ٥١.

(١١٥) ابن عذارى. ج١ ص ٥١ - ٥٢، وقارن الرقيق. ص ١٠٩ (حيث اختلاف خفيف فى القراءة، مثل: «وتعدى الصدقات والقسم» بدلا من: ... الصدقات والعشر). النويرى. المخطوط، ص ٨٤ب. وقارن ابن خلدون، ج٦ ص ١١٠، الترجمة ج١ ص ٢١٦، ابن الأثير، سنة ١١٧.

(١١٦) ابن عذارى، ج١ ص ٥٢، النويرى، المخطوط، ص ٨٤ب، وانظر الرقيق ص ١٠٩ (صاحب الرواية أصلا).

الاستبداد بالمغاربة وسوء الاستغلال:

ونعتقد أن الذى دفع عبيد الله بن الحبحاب وعماله إلى تلك القسوة مع المغاربة هو الرغبة فى ارسال المزيد من الأموال والسبى إلى الخلافة. فابن عذارى يقول: «وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل افريقية فيبعثون لهم بالبربريات السنيات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة..»(١١٧). وهناك نص آخر يورده صاحب أخبار مجموعة - ولو أنه لا يعتقد فى صحته - يفهم منه أنه كانت للخلافة رغبة شديدة فى بعض طرائف المغرب، وأن هذه الطرائف كانت تسبب للناس خسائر فادحة أو فى ذلك ان الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة فى مولود الخرفان العسلية، فتذبح مائه شاة فربما لم يوجد منها جلد واحد - وهو قول أهل البغض للأئمة»(١١٨). وهكذا كان سوء الإدارة، والعمل أولا وقبل كل شئ على استغلال البلاد، دون النظر فى مصالح أهلها أو مطالبها، سببا فى ثورة عارمة بقيادة رجل اسمه ميسرة، فجَّرت كل طاقات المغرب ضد العرب.

مقدمات الثورة:

ويذكر الطبرى وابن الأثير أنه سبق الانفجار الرائع محاولات من أهل البلاد استهدفت لفت نظر الخلافة إلى مساوئ عمالها فى المغرب. فلقد سار وفد من المغاربة يبلغ حوالى عشرين رجلا برئاسة ميسرة صاحب الثورة لعرض شكواهم ومطالبهم على الخليفة هشام، ولكنه طال مقامهم بباب الخليفة هشام ولكنه طال مقامهم بباب الخليفة دون جدوى. ولا نعرف أن كانت شكواهم قد وصلت إلى مسامع الخليفة هشام أم أن رجال الحاشية حجبوها عنه. أما عن المطالب التى

---

(١١٧) ابن عذارى، ج١ ص ٥٢، وقارن ابن الأثير، أحداث سنة ٢٦.

(١١٨) أخبار مجموعة ج، ص ٣١ -٣٢. ولا نعرف ماذا يقصد بجلود الخرفان العسلية، ونظن أنه نوع معين من الجلد لا يعرف الا باختياره بعد ذبح الشاة. وربما كان المقصود جلود معينة لأجنة الغنم مما كان يتطلب ذبح الشاة دون الخراف - وفى ذلك مبالغة فى الخسارة، فهذا ما يقوله الطبرى (أحداث سنة ٢٧ ج، ص ٢٢٥ - ذخائر العرب) «فجعلوا يبقرونها (الماشية) على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاة فى جلد» (وقارن ابن الأثير فى أحداث سنة ٢٦) وهذا ما يقوله ابن خلدون فى شرح ذلك .. «كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية (الألوان؟) من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه ...» ج١ ص ١١٩، وانظر الاستقصا، ج١ ص ٩٥.

قدمها الوفد فكانت تتلخص فى أن أمير المغرب عندما يغزو بجنده (العربى) وبهم (أى المغاربة) فانه يحرمهم من نصيبهم فى الغنيمة، ويقول: «هذا أخلص لجهادكم». وإذا حاصروا مدينة قال: «تقدموا وأخر جنده». وأرادت الجماعة أن تعرف: «أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا»؟[119]. وموضع الشكوى فى هذه الرواية - كما نرى - هو امتياز العرب على المغاربة مما يتضمن عدم تطبيق مبدأ المساواة والإخاء بين المسلمين، مما يعتبره البعض خروجا على مبادئ الاسلام.

المذهب الخارجي في المغرب الأقصى:

والحقيقة أن خطورة الثورة التى أشعلها ميسرة فى المغرب سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م لا تتمثل فى شكلها السياسى بل تكمن فى طابعها الدينى. فالثورة رفعت شعار المساواة بين جميع المسلمين دون أية تفرقة عنصرية، وهو المبدأ الذى ترتكز عليه أفكار الخوارج. ولقد قامت الثورة بعد تمهيد كبير ودعاية واسعة قام بها الخوارج فى المغرب. فإزاء ضغط الدولة على الخوارج فى مركز الخلافة، وخاصة بعد عنف الحجاج وشدته ضدهم فى العراق، اضطر هؤلاء إلى الالتجاء إلى أطراف الدولة البعيدة: شرقا فى خراسان، وشمالا فى أرض الجزيرة، وجنوبا على سواحل الخليج (الفارسى)، وكذلك فى المغرب. ولقد وجد البربر فى المذهب الخارجى - الذى يدعو إلى المساواة التامة بين جميع المسلمين مهما اختلفت أجناسهم، وإلى الرجوع بالاسلام إلى نقائه الأول - رابطة معنوية تؤلف بينهم ضد العرب الذين أساءوا السيرة فيهم، كما وجدوا فيه قاعدة شرعية للخروج على الخلافة، بعد أن شكك فى صحة تصرفاتها من الناحية الدينية، وخاصة بعد أن جعل أساسه السياسى: ألا طاعة لمخلوق فى معصية.

أما عن توقيت دخول المذهب الخارجى إلى المغرب، فهو غير معروف تماما، وابن خلدون يربط بين دخوله المغرب وبين مقتل يزيد بن أبى مسلم سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م[120]، والأقرب إلى الصحة أن تكون مبادئ المذهب قد دخلت

---

(١١٩) الطبرى (ذخائر العرب) أحداث سنة ٢٧ ج٤، ص ٢٦٤ - ٢٦٥، ابن الأثير أحداث سنة ٢٦ ج ٣ ص ٣٥.

(١٢٠) ابن خلدون، ج٦ ص ١١٠، الترجمة ج١ ص ٢١٦. أما ابن الأثير فينسب ذلك إلى دخول أهل العراق إلى المغرب أيام هشام (أحداث سنة ٢٦).

المغرب قبل ذلك. فالمذهب الخارجي وان بدأ تبلوره بعد التحكيم بين علي ومعاويه (سنة ٣٧هـ/ ٦٥٨م) فان جذوره ترجع إلى وقت مبكر منذ بداية فتنة عثمان، أي منذ الوقت الذي نسب فيه بعض المتعصبين أو المتزمتين من أصحاب الضمائر الحساسة إلى عثمان تهمة الخروج على التقاليد الاسلامية التي عرفت على أيام النبي، فرماهم هو بالخروج عن الطاعة ومنها اشتق اسم «الخوارج». وازاء الضغط الذي لاقاه الخوارج في مركز الخلافة، كان من الطبيعي أن تلجأ جماعات منهم إلى المغرب، وربما انضم بعضهم إلى الجيش العربي الافريقي، كما فعل أهل المدينة والحجاز بعد تنكيل الشآميين بهم بعد وقعة الحرة سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢م(١٢١)، وبعد مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، فقد كان الخوارج يتحالفون في بعض الأوقات مع ابن الزبير، كما هو معروف.

أما عن أول اشارة إلى الخوارج في المغرب فترتبط بغزو الأندلس: اذ تذكر النصوص أن طريف بن ملوك الذي قاد أول سرية اسلامية إلى أرض الجزيرة الخضراء سنة ٩١هـ/ ٧١٠م، والذي سميت به جزيرة طريف(١٢٢)، كان مع الخوارج في ثورة ميسرة، وانه هو الذي نشر الزندقة التي عرفت بين قبائل برغواطة في اقليم تامسنا(١٢٣)، كما كان من أهم اعوان ميسرة: عبد الأعلى بن جريج، مولى موسى بن نصير، الرومي الأصل(١٢٤)، هذا ولو أننا لا نعرف ان كان طريف وعبد الأعلى قد اعتنقا المذهب الخارجي قبل نهاية القرن الأول الهجري أم بعدها. والظاهر أن تسامح عمر بن عبد العزيز ومحاولته مصالحة الخوارج كان هدنة أو نوعا من الهدوء هيأ لهم استعادة قواهم نوعا ما كما جعلهم يعدلون عن آراء المتعصبين منهم مثل الازارقة. وهكذا ظهر الخوارج في المغرب في شكل جماعة الصفرية، ونسب ابن خلدون اليهم مقتل يزيد بن أبي مسلم الذي

---

(١٢١) عن أهل المدينة الذين انضموا إلى الجيش الافريقي ودخلوا من المغرب إلى الأندلس، أنظر دوزى، تاريخ المسلمين في أسبانيا، بالفرنسية، ج١ ص ٦٩، ١٦٤ - ١٦٥ والهوامش.

(١٢٢) بروفنسال، تاريخ أسبانيا الاسلامية بالفرنسية، ص ١٣.

(١٢٣) بن عذارى، ج١ ص ٥٧، وقارن البكرى، ص ١٣٤، الاستبصار، ص ١٩٧ (وهما ينسبان تلك الزندقة إلى صالح بن طريف).

(١٢٤) أنظر تاريخ خليفة بن خياط. ج٢ ص ٣٦١ (حيث التاريخ خطأ في ١١٦ هـ وحيث، ابن حديج» بدلا من ابن جريج) وص ٣٦٨ (أحداث سنة ١٢٢هـ). وأنظر فيما بعد، ص ٢٨٩ وهـ ١٤٠.

خلف اسماعيل بن عبد الله والى عمر بن عبد العزيز[١٢٥]. ولاشك فى أن مبادئ المذهب الآتية من العراق كانت تنتشر فى صمت وسرية، والظاهر ان الدعاة لم ينشروها تحت اسم مذهب معين بل أذاعوها باسم الاصلاح والدعوه إلى العمل بالكتاب والسنة مما يسميه ابن خلدون الباس الحق بالباطل[١٢٦]. وفى سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م كان المذهب الخارجى قد استهوى عددا من الأنصار لا يسمح بمعارضة الحكومة فقط بل وبالثورة والانتصار على القوات العربية فى المغرب.

ثورة ميسرة:

وقائد الثورة هو ميسرة المدغرى (أو المطغرى) نسبة إلى قبيلة مدغرة (أو مطغرة). وهى من القبائل البترية، ويلقبه بعض الكتاب بـ«الفقير»[١٢٧]. وربما كان ذلك لقبه بين اتباعه نسبة إلى فقره وزهده، بينما يلقبه آخرون بـ«الحقير»[١٢٨] استهانة به، وهؤلاء خصومه من اعداء الخوارج. وكان الرجل فى مبدأ حياته بسيطا اذ اشتغل سقاء يبيع الماء فى سوق القيروان[١٢٩]، عاصمة افريقية، ومركز الاشعاع الدينى، حيث العلماء والفقهاء، ومنهم أجلة التابعين من أهل الزهد والورع والتقوى، ولاشك فى أنه كان من بين هؤلاء كثيرون ممن يدعون إلى العودة بالاسلام إلى نقائه الأول، ويقفون فى وجه الاجراءات التى تخل بمبدأ الاخاء والمساواة بين جميع المسلمين، بمعنى أنهم كانوا يروجون – عن غير قصد كما نظن – لمبادئ الخوارج أى مبادئ الثورة على الدولة[١٣٠]. ولا بأس من أن يكون ميسرة أخذ هذه المبادئ عن بعض علماء القيروان هؤلاء، ولو أن الكتاب لا يشيرون إلى ذلك. وكل ما يقولونه عنه، قبل الثورة، انه كا ن يسعى إلى تحقيق المساواة فى الأعطيات بين العرب والبربر فى الجيش الافريقى كما

---

(١٢٥) الصفحة ٢٩١ وهامش ١٢٠. ولا بأس من الإشارة هنا إلى ما يقال من أن عكرمة مولى ابن عباس كان أول من عمل على نشر مذهب الصفرية فى المغرب. أنظر الدرجينى، المخطوط، ورقة ٦، والمطبوع، ص ١١. وأنظر فيما بعد، ج٢ (فى قيام الدولة الرستمية).

(١٢٦) نفس المصدر السابق.

(١٢٧) ابن عبد الحكم، ص ٢١٨.

(١٢٨) ابن عذارى، ج١ ص ٥٢.

(١٢٩) ابن خياط، ج١ ص ٣٦٨.

(١٣٠) أنظر ابن الأثير، (احداث سنة ١١٧) الذى يقول: «وظهر فى ذلك الوقت جماعة بافريقية فأظهروا مقالة الخوارج»، وقارن الرقيق، ص ١٠٩ (حيث النص على أنه كان فى المغرب يومئذ قوم فيهم دعوة الخوارج، وفيهم عدد كثير وشوكة).

أشرنا(١٣١)، وربما كانت لاقامة ميسرة فى دمشق عندما ذهب لعرض شكواه على الخليفة أثرها فى زيادة التعرف على مبادئ الخوارج. ففى ذلك الوقت انتشرت فى المشرق فرقة من الخوارج عرفت بالصفرية - نسبة إلى مؤسسها زياد بن الأصفر. وهذه الفرقة أشبه بفرق الوسط اذ تمثل مرحلة تطور المبادئ الخارجية: من التطرف المذموم الذى مثله الأزارقة من قبل، نحو الاعتدال المقبول الذى مثله الأباضية فيما بعد. وعلى مبادئ الصفرية الوسط قامت ثورة ميسره(١٣٢).

عاد ميسرة وجماعته من الشام بعد أن خاب رجاؤهم فى انصاف الخليفة وتأكد لديهم أن العمال يعملون بأمر الخلفاء، وقرروا السير على المنهاج الذى يسير عليه خوارج المشرق، فخرجوا من المعارضة الصامته إلى الثورة المسلحة. وانتهز ميسرة فرصة خروج أحد نائبى عبيد الله بن الحبحاب فى المغرب الأقصى، وهو حبيب بن أبى عبيدة الفهرى فى حملة بحرية لغزو صقلية(١٣٣). وبدأت الثورة فى اقليم طنجة (السوس الأدنى) فى ١٥ رمضان سنة ١٢٢هـ/ ١٣ أغسطس ٧٤٠م فى مواطن مدغرة قبيلة ميسرة، حيث أعلن هذا الأخير نفسه أماما وبايعه الناس(١٣٤). وسرعان ما انضمت إلى قبيلته جميع قبائل المنطقة من غمارة ومكناسه وبرغواطه، وكانت دعوة الخوارج منتشرة فى هذه القبيلة الأخيرة بفضل طريف رئيسها(١٣٥). وسار الثوار بقيادة عبد الأعلى ابن جريج نحو مدينة طنجة حيث هزموا عاملها عمر بن عبد الله المرادى، وقتلوه واستولوا على المدينة(١٣٦).

(١٣١) أنظر فيما سبق، ص ٢٩٠.

(١٣٢) ابن عذارى، ج١ ص ٥٣، وقارن أخبار مجموعة (ص ٢٨) الذى يقول «ثارت البربر على فرق الأباضية والصفرية» والمعروف أن خوارج هذه الثورة كانوا من الصفرية فقط. أما ثورات الاباضية فسنراها فيما بعد فى طرابلس ثم فى تاهرت. وانظر ابن الأثير أحداث سنة ١١٧. وعن الصفرية الذين يسمون أيضا بالزيادية نسبة إلى مؤسس المذهب. أنظر الشهر ستانى، طبعة ليبزج ١٩٢٣، ص ١٠٢. أما ابن الأثير فينسبهم إلى عبد الله بن الصفار السعدى (سنة ٦٤ ج٤ ص ٨٢).

(١٣٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١٧ (يقول انه غزا فى البحر). ابن عذارى، ج١ ص ٥١، ٥٢ (يقول انه خرج إلى بلاد الروم) ويرجع الفضل للرقيق (ص ١٠٩) الذى ينقله ابن الأثير (سنة ١١٧) الذى ينفرد بتفصيلات عن هذه الغزوة التى قام بها فى سنة ١٢٢هـ حبيب وبصحبته ابنه عبد الرحمن الذى حقق انتصارات هائلة فأرغم أهل سرقوسة على دفع الجزية حتى عزم حبيب على المقام بالمدينة إلى تمام فتحها لولا ثورة ميسرة. وعن تلك الحملة أنظر فيما بعد فى فتح صقلية، ج٢ص١٩٤.

(١٣٤) ابن عبد الحكم، ص ١٨ (يقول «وادعى الخلافة وتسمى بها» وهو يقصد الامامة كما هو معروف عند الخوارج، وخاصة فى ذلك الوقت المبكر، وقارن الرقيق، ص ١١٠.

(١٣٥) أنظر فيما سبق، ص ٢٩٢. وعن زندقة برغوطة أنظر فيما بعد الفصل الخاص بذلك من تاريخ الأدارسة.

(١٣٦) ابن عبد الحكم، ص ٢١٧، ابن الأثير، سنة ١١٧، النويرى، المخطوط، ص ٨٤ب، وقارن الرقيق، ص ١٠٩، حيث اسم والى طنجة: عمر بن عبيد المرادى، ابن خياط ج١ ص ٣٧٦ (حيث اسم والى طنجة «عمرو بن عبد الله العبسى»).

والظاهر أنهم انتقموا من أهل المدينة اذ يقول صاحب أخبار مجموعة انهم قتلوا أهلها، ويقال انهم قتلوا الصبيان(١٣٧) . كما سبوا النساء(١٣٨) . وعندما بلغ ابن الحبحاب سقوط طنجة بين أيدى الثوار أرسل إلى واليه على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى يأمره بقمع الثورة. واضطر عقبة إلى المسير بنفسه إلى طنجة، وقتل البربر قتلا ذريعا، ولكنه لم ينجح فى اخماد الثورة مما ترتب عليه ثورة الأندلسيين به، فخلعوه واختاروا مكانه واليهم السابق عبد الملك بن قطن(١٣٩) .

واستعمل ميسرة - بصفته الإمام - على طنجة عبد الأعلى بن جريج الافريقى، الرومى الأصل، وأحد موالى موسى بن نصير(١٤٠) . ومن طنجة خرج الثواره نحو السوس الأدنى، وهزموا الجيش الذى سيره اليهم اسماعيل ابن عبيد الله ثم فاجأوا اسماعيل نفسه وقتلوه(١٤١) . وشجعت تلك الانتصارات المبدئية على اشعال لهيب الثورة ضد العرب في كل المغرب «فوثب كل قوم من البربر على من يليهم فقتلوا وطردوا»(١٤٢) . وجمع الثوار شملهم وساروا فى اتجاه افريقية(١٤٣) ، قاعدة العرب، حيث عبيد الله بن الحبحاب. وللأسف تمر المصادر سريعا بالأحداث التالية، فتقتضبها اقتضابا، فلا نعرف ماذا وقع من الأحداث اللهم ما يقوله ابن عذارى من أنه «كانت وقائع مثيرة بين أهل المغرب الأقصى، وأهل افريقية يطول ذكرها»(١٤٤) . وازاء دقة الموقف أعد عبيد الله بن الحبحاب العدة لمواجهة الثوار، فأخذ فى تجهيز عسكر افريقية، وأرسل إلى حبيب بن أبى عبيدة يأمره بالرجوع من صقلية ليسير معهم ضد ميسرة(١٤٥) .

---

(١٣٧) أخبار مجموعة، ص ٢٨ .

(١٣٨) ابن خياط، ج٢ ص ٣٧٦ .

(١٣٩) أخبار مجموعة، ص ٢٩ ، ابن الأثير، أحداث سنة ١١٧ ، الرقيق، ص ١١١ ، ابن خلدون، ج١ ص ١١٩ (القراءة «ابن قطر» خطأ)، النويرى، المخطوط، ص ٨٥) - ٨٥ب، وانظر ليفى بروفنسال، تاريخ اسبانيا الاسلامية، بالفرنسية، ص ٣١.

(١٤٠) ابن عبد الحكم، ص ٢١٨ ، ابن عذارى، ج١ ص ٥٢،. وأنظر ابن خلدون، ج٦ ص ١١٠ (حيث يذكر مبايعة ميسرة لابن جريج قبل أن تصير اليه الامامة) ص ١١٩ (حيث القراءة «ابن خديم» بدلا من «جريج» وابن خلدون يقول هنا ان عبد الأعلى هو أصل الخارجية. ويحدد ولايته لطنجة بسنة ١٢٥هـ) .

(١٤١) أنظر خليفة بن خياط، ج٢ ص ٣٦٨ - ٣٦٩، ابن عبد الحكم، ص ١٢٨ .

(١٤٢) أخبار مجموعة، ص ٢٩ .

(١٤٣) نفس المصدو السابق.

(١٤٤) ابن عذارى، ج١ ص ٥٢ .

(١٤٥) ابن عذارى، ج١ ص ٥٣، الرقيق، ص ١٠٩ ، ابن الأثير، سنة ١١٧ .

ولما لم تكن الظروف تسمح بالانتظار لحين عودة حبيب فان ابن الحبحاب سّير خالد بن أبي حبيب الفهرى على رأس قوات افريقية فيهم «وجوه أهل افريقية من قريش والأنصار وغيرهم»(١٤٦).

انتصار الصفرية في وقعة الأشراف:

وقصة الأحداث التالية غير أكيدة تماما في فتوح ابن عبد الحكم الذى يورد روايات مختلفة عن الليث بن سعد وغيره، وكذلك الحال في تاريخ ابن خياط، وفي بيان ابن عذارى الذى يسجل روايات للرقيق وغيره. ومما يؤسف له أن قطعة الرقيق التي تم اكتشافها لا تضيف معلومات جديدة إلى ما نقله ابن الأثير وابن عذارى، ووجه الاختلاف يتلخص أساساً في أبطال المعارك: فمن جهة البربر يتراوح الأمر ما بين خالد بن أبي حبيب وحبيب بن أبي عبيدة وعبد الرحمن بن أبي المغيرة العبدى. أما عن مواضع اللقاء فتتراوح بين وادى شلف وما دون طنجه أو بمقربة منها، وكذلك بالقرب من تلمسان(١٤٧). ولكنه رغم اختلاف الروايات يمكن التوفيق بينها وترتيب الأحداث على الوجه التالي. تقدم خالد بن أبي حبيب بعسكر افريقية حتى وصل إلى وادى شلف، غير بعيد من مدينة تاهرت حيث ثم اللقاء بينه وبين الخوارج. وكان لقاء عنيفا استبسل فيه الفريقان، وانتهى بانسحاب ميسرة في ظروف لا نعرفها تماماً(١٤٨).

---

(١٤٦) ابن عبد الحكم، ص ٢١٨، وقارن الرقيق، ص ١١٠، وابن عذارى، ج١ ص ٥٣.

(١٤٧) أنظر ابن عبد الحكم ص ٢١٨ الرقيق ص ١١٠ وابن عذارى، ج١، ص ٥٣، وقارن ابن الأثير أحداث سنة ١١٧ وابن خلدون ج١ ص ٢١٩ والنويرى المخطوط. ص ٨٤ب. (وانظر تحقيق أبو ضيف، ص ٢١٤).

(١٤٨) أنظر الرقيق ص ١١٠ (حيث يجعل خالد بن حبيب يعبر وادى شلف في أثر ميسرة، بينما يأتي بعده حبيب بن أبي عبيدة ليعسكر علي وادى شلف ولا يبرح مكانه)، وقارن ابن الأثير، (سنة ١١٧) الذى يقول بانسحاب ميسرة إلى طنجة ولكنه يجعل القتال بالقرب منها، وكذلك ابن عذارى ج١ ص ٥٣) الذى يذكر وصول خالد إلى وادى شلف، و يجعل القتال عند طنجة، أما أبن خلدون (ج٦ ص ١١٠) فيجعل المعركة الكبرى عند شلف، بينما ابن عبد الحكم يقول في رواية (ص ٢١٨) ان اللقاء تم مباشرة بين خالد والبربر قرب طنجة. وقتل خالد وأصحابه. ثم يذكر رواية أخرى فيها أن خالدا لقى ميسرة دون طنجة فقتل ومن معه ثم انصرف ميسرة إلى طنجة. ويذكر رواية ثالثة عن الليث بن سعد تقول أن ميسرة قتل اسماعيل بن عبيد الله، وخالد بن أبي حبيب سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م ثم ارسل إليهم ابن الحبحاب بعد ذلك حبيب بن أبي عبيدة.

والظاهر أنه حدث انشقاق بين ميسرة وأتباعه الذين أخذوا عليه الانسحاب دون الاستماتة فى القتال، وانتهى الأمر بأن قتلوه، وذلك حسب مبادئ الخوارج التى تسمح بالتخلص من الامام اذا ما انحرف عن طريق الجماعة(١٤٩)، مما أدى إلى انقسام أتباعه الصفرية إلى فرقتين: «فرقة عليها خالد بن حميد، وفرقة عليها سالم أبو يوسف الهوارى»(١٥٠). وواصل خالد بن أبى حبيب تقدمه فى اتجاه طنجة، واشتبك مع البربر بالقرب من طنجة، فى الوقت الذى كان أصحاب ميسرة قد عادوا إلى الاتفاق، واعترفوا جميعا بامامة خالد بن حميد الهتورى الزناتى، ووضعوا أنفسهم تحت قيادته(١٥١). وفى أثناء المعركة الطاحنة وعلى حين غرة، فاجأ خالد بن حميد الزناتى وأصحابه الصفرية العرب من الخلف. وتكاثروا عليهم. واستنكف خالد الفهرى من الفرار. وقرر أن يعيد سيرة عقبة فى تهودة «فألقى بنفسه وأصحابه إلى الموت... فقتل ابن أبى حبيب، ومن معه حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد» - حسب مبالغات الرواة(١٥٢)، وذلك فى أواخر سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م أو أوائل سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م(١٥٣).. وهكذا فقد العرب فى هذه الوقعة أعيان فرسانهم وأبطالهم من القرشيين والأنصار،

(١٤٩) أنظر الرقيق (ص ١١٠)، وابن عذارى ج ١ ص ٥٣ حيث الراوية التى أخذنا بها، والتى يمكن أن تفسر اختلاف الروايات التى تخلط بين ميسرة وبين ابن حميد لزناتى خليفته (وقارن النويرى، المخطوط، ص ٨٤ب). وقارن: Fournel, Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes..., p. 77, et Note 1.

(١٥٠) أنظر تاريخ خليفة بن خياط (ج٢ ص ٣٧٠) الذى يلقب أبا يوسف بالأزدى، بينما يلقبه ابن عبد الحكم (ص ٢٢٠) بالهوارى. وهو يحدد هذا الانقسام بين الصفرية بسنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م، بعد وفاة ميسرة، فكأنه يجعل انتصار الصفرية فى وقعة الإشراف تحت قيادة ميسرة، وهو الأمر الذى لا نستطيع النظر فيه حاليا فى ضوء المعلومات المخالفة له التى بين أيدينا.

(١٥١) أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٥٣، أما ابن عبد الحكم (ص ٢١٨) فانه يخطئ هنا عندما يقول ان البربر بعد أن قتلوا ميسرة «ولو أمرهم عبد الملك بن قطن»، اذ الحقيقة أن عرب الأندلس هو الذين ثاروا بواليهم عقبة بن الحجاج فعزلوه ووضعوا مكانه عبد الملك ابن قطن (انظر فيما سبق ص ٢٩٥ وهامش ١٣٩. وقارن ابن خلدون الذى يقول ذلك (ج١ ص ١١٠) ثم يذكر رواية أخرى تنص على أن الذى خلف ميسرة هو يحيى بن حارث (ج١ ص ٢١٩). وانظر فورنل (Fournel)، ص ٧٧ وهامش ٢.

(١٥٢) ابن عذارى، ج١، ص ٥٤، الرقيق ص ١١٠ (حيث الرواية الأصلية). ابن عبد الحكم ص ٢١٨، النويرى، المخطوط، ص ١٨٥أ، ابن الأثير، سنة ١١٧.

(١٥٣) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ص ٣٦٩ (حيث يقول أن الوقعة حدثت عند نهر يسمى نهر الكور).

ولهـذا السبب أطلق الكتاب عليها اسم «غزوة الأشراف»[(١٥٤)].

وعندما وصلت أنباء الكارثة إلى القيروان، حاول ابن الحبحاب سَد طريق افريقية على الثوار، فأرسل عبد الرحمن بن المغيرة العبدى واليا على تلمسان. وهناك أخذ عبد الرحمن فى الانتقام من الصفرية فقتلهم قتلا ذريعا حتى سمى بـ «الجزار»، مما أدى إلى موجة من السخط عليه انتهت بارغامه على مغادرة المدينة[(١٥٥)]. وفى هذه الأثناء كان حبيب بن أبى عبيدة قد عاد من غزو صقلية، فسيّره ابن الحبحاب على رأس قواته ضد الثوار[(١٥٦)]. وسار حبيب نحو وادى شلف، ولكنه لم يتقدم بل رابط عند المجاز[(١٥٧)]، والظاهر أنه أقام هناك يستطلع الأخبار. ثم أنه تقدم إلى تلمسان التى لم تكن قد سقطت بين أيدى الثوار، بعد ما قام به هناك عبد الرحمن العبدى من أعمال العنف والقسوة. وهناك قبض على واليها السابق موسى بن أبى خالد مولى معاويه بن حديج، بتهمة الدّس والتحريض على الفتنة، وأنزل به عقوبة المفسدين، فقطع يده ورجله[(١٥٨)]. ولا نعرف ما كان من أمر حبيب بعد ذلك، والظاهر أنه أقام فى منطقة وادى شلف، كما يفهم من الأحداث التالية[(١٥٩)]، ولكن أمور المغرب اختلفت على ابن الحبحاب، «فاجتمع الناس عليه وعزلوه» [(١٦٠)]كما فعلوا بواليه على الأندلس[(١٦١)]. وعندما وصلت تلك الأنباء التعسة إلى الخليفة هشام، أقسم: «والله لأغضبن لهم غضبة عربية»،

(١٥٤) نفس المصادر. وقارن خليفة بن خياط الذى يعدد من قتلى المعركة، إلى جانب خالد بن أبى حبيب وابنه وعثمان بن أبى عبيدة الفهرى وابنه ابراهيم، وموسى بن عبد الرحمن وعبد الكريم بن مسحل بن عتبة بن ضرار بن الخطاب. وزرارة بن عمر (من بنى عمير من بنى عبد الدار بن قصى (ج٢، ص ٣٦٨-٣٦٩).

(١٥٥) ابن خياط، ج٢ ص ٣٦٩.

(١٥٦) هذه رواية الليث بن سعد التى أخذنا بها (انظر ابن عبد الحكم، ص ٢١٨)، أما ابن عذارى (ج١، ص ٥٣) الذى ينقل الرقيق (ص١١٠) فيقول أن حبيب ابن أبى عبيدة سار فى أثر خالدبن أبى حبيب مما يفهم منه أن قتل ميسرة حدث قبل معارك خالد بن أبى حبيب مع الخوارج ومقتله. هذا ولو أن رواية مقتل خالد بن أبى حبيب لا ذكر فيها لحبيب ابن أبى عبيدة (نفس الصفحة).

(١٥٧) أنظر الرقيق، ص ١١٠ (حيث النص على أن حبيب بن أبى عبيدة «نزل على وادى شلف، فأقام ولم يبرح»، ابن عذارى، ج١، ص ٥٣.

(١٥٨) ابن عبد الحكم، ص ٢١٨./

(١٥٩) أنظر فيما سبق ص ٢٩٤ والهوامش،

(١٦٠) ابن عذارى، ج١ ص ٥٤، وقارن الرقيق، ص ١١١.

(١٦١) أنظر فيما سبق، ص ٢٩٥، وهامش ١٣٩.

ولأبعثن اليهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى، ثم لا تركت حصن بربرى الا جعلت إلى جانبه خيمة قيسى أو تميمى، وأرسل يستدعى ابن الحبحاب الذى ترك المغرب فى جمادى الأولى من سنة ١٢٣هـ/ مارس ٧٤١م(١٦٢).

هـ- كلثوم بن عياض القشيرى: وقعة وادى سبو (بقدورة).

ولم ينكث الخليفة فى قسمه، ففى الشهر التالى (جمادى الثانى سنة ١٢٣هـ/ ابريل ٧٤١) اختار لولاية افريقية شيخا من أعيان القيسية الخلص (بدلا من ابن الحبحاب القيسى بالولاء) هو كلثوم بن عياض القشيرى(١٦٣)، وجعل له نائبين يتوليان الإمارة بالتوالى اذا ما حدث له حدث، هما: ابن أخيه بلج بن بشر القشيرى، وثعلبه بن سلمة العاملى(١٦٤). ويرجع الفضل إلى كتاب أخبار مجموعة الذى يضيف تفصيلات هامة عن جيش كلثوم إلى جانب ما سجله ابن عبد الحكم وابن عذارى. فقد جهز هشام جيشا عظيما من أهل الشام بلغ عدده ٢٧ (سبعة وعشرين) ألف رجل من الجند النظامى. فكان على كل جند (أى كورة) من أجناد الشام الأربعة: دمشق وحمص والأردن وفلسطين، أن يقدم ٦ (ستة) آلاف رجل، وكان على أهل قنسرين (حلب) أن يقدموا ثلاثة آلاف. وأخرج الخليفة مع كلثوم رجلين لهما معرفة بالمغرب والأندلس، هما: هارون القرنى مولى معاوية بن هشام (والد عبد الرحمن الداخل)، ومغيث الرومى مولى الوليد (وصاحب موسى بن نصير) على أن يكونا مستشاريه. كما أعطاه سلطات مطلقة فى البلاد التى يمر بها، وكتب إلى عماله فى مصر والمغرب بطاعة كلثوم، وتقديم العون له من الرجال والأموال(١٦٥).

---

(١٦٢) أنظر الرقيق، ص ١١١، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ٥٤، ابن عبد الحكم، ص ٢١٨، وأنظر بن الأثير، سنة ١١٧ والنويرى، المخطوط، ص ٨٥، والترجمة فى ملحق ابن خلدون ج١ ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(١٦٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١٨ (يسميه القيسى)، ابن خياط ج٢، ص ٢٧٠، ابن عذارى ج١ ص ٥٤، النويرى، المخطوط، ص٨٥أ، والترجمة فى ملحق ابن خلدون ج١ ص ٣٦١. ومما يؤسف له أن قصة كلثوم مبتورة فى أولها فى القطعة التى وجدت من الرقيق، مما جعل المحقق يترك (ص ١١٢) بياضا.

(١٦٤) أخبار مجموعة، ص ٣٠، ٣٥، ابن عذارى، ج١، ص٥٥. هذا ولو أنه فى ص ٥٤ يقول أن بلجا هو ابن عم كلثوم، وهو ما تذكره رواية ابن خياط (ج٢ ص ٣٧٠).

(١٦٥) أخبار مجموعة، ص ٣٠ - ٣١، ابن عذارى، ج١، ص ٥٤، ابن الأثير سنة ١١٧.

وهكذا استعدت الجيوش الخلافية من الجند النظامى والمتطوعة فعلاً للمسير من الشام إلى افريقية، وصدقت كلمة هشام. وخرج كلثوم بأهل الشام ومعه بلج على مقدمته من الخيالة وثعلبة بن سلمة على جند الأردن. وعندما دخل مصر انضم اليه من جندها ٣ (ثلاثة) آلاف رجل من الجند النظامى فصار جيشه ٣٠ (ثلاثين) ألفا، سوى من معهم من الموالى والأتباع، ومن صار معهم من المتطوعة(١٦٦). وأخذت قوات كلثوم تزداد عددا على طول الطريق نحو المغرب بمن انضم اليه من جند برقة وطرابلس(١٦٧)، إلى أن وصل إلى افريقية فى شهر رمضان من نفس السنة (١٢٣هـ/ يوليه ٧٤١م)(١٦٨).

ومع أن جيش كلثوم تضخم تضخما عظيما بمن انضم اليه من جند افريقية حتى بلغ عدده ٧٠ (سبعين) ألف رجل(١٦٩)، الا أن الانشقاق والانقسام دب بين صفوفه يشكل جعل سيطرة كلثوم عليه من الصعوبة بمكان. فالظاهر أن أهل الشام آتوا يزهون بعددهم وعديدهم، وبما أباح لهم الخليفة من الإباحات، على المناكيد من أهل افريقية والمغرب الذين حطمهم البربر فى أكثر من موقعة. ولم يكن أهل افريقية ليرضوا من أهل الشام بتلك المعاملة الغريبة بعد جهادهم وحسن بلائهم. فاذا كان كلثوم قد تجنب النزول فى القيروان، وسار إلى سبيبة على مسيرة يوم منها(١٧٠)، فان ابن أخيه بلج طلب من أهل افريقية ألا يغلقوا أبوابهم حتى يعرف أهل الشام منازلهم، «ومع ذلك كلام كبير يغيظهم به»(١٧١). وغضب حبيب بن أبى عبيدة عندما بلغته، وهو معسكر على وادى شلف، أنباء الإهانات التى لحقت بأهل بلده، وكتب إلى كلثوم يندد بما فعله ابن أخيه بلج، ويطلب منه الرحيل بعسكره من افريقية، وإلا حوّل قواته ضده(١٧٢). ورغم ماتقوله الرواية

---

(١٦٦) أخبار مجموعة، ص ٣١.

(١٦٧) ابن عذارى، ج١ ص ٥٤، ابن عبد الحكم، ص ٢١٨، وقارن النويرى، المخطوط، ص ٨٥. (أبو ضيف، ص ٢١٦).

(١٦٨) ابن عذارى، ج١، ص ٥٤، النويرى، المخطوط، ص ٨٥ب، و الترجمة ملحق ابن خلدون، ج١، ص ٣٦١، وقارن ابن خلدون، ج٢، ص ٣٦٩- ٣٧٠.

(١٦٩) أخبار مجموعة، ص ٣١.

(١٧٠) ابن عبد الحكم، ٢١٩، ابن عذارى، ج١ ص ٥٤، وقارن النويرى، (المخطوط، ص ٨٥) ، حيث القراءة خطأ سبته بدلا من سبيبه.

(١٧١) ابن عذارى، ج١، ص ٥٤، وأنظر ابن الأثير، سنة ١١٧.

(١٧٢) نفس المصدر، وأنظر الرقيق، ص ١١٣ (وان كانت الرواية مبتورة فى أولها).

من أن كلثوم ابن عياض كتب إلى حبيب يعتذر اليه، «ويأمره بأن يقيم بشلف ولا يجاوزه حتى يقدم عليه»[١٧٣]. فقد كانت تلك الأحداث بداية للتصدع بين قوات الخلافة الشامية وجيشها الافريقى، وبضمنه القوات المصرية.

كارثة الجيش الخلافى فى بقدورة:

وفى هذه الظروف العابسة استخلف كلثوم على القيروان قاضى افريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفارى على الصلاة، ومسلمة بن سوادة القرشى على الحرب[١٧٤]، وخرجت قوات افريقية معه وعلى رجالتها مغيث الرومى، وعلى فرسانها هارون القرنى[١٧٥]. ولم يلبث النزاع مع حبيب بن أبى عبيدة أن تجدد عند وادى شلف فلقد استهان بلج بحبيب عندما لقيه، كما طعن كلثوم فيه «وشتمه وأهل بيته»[١٧٦]. وأخذ الحماس عبد الرحمن بن حبيب - الذى كان شابا حدث السن بصحبة والده - فتدخل فى النزاع حتى كاد الأمر ينتهى إلى الفتنة[١٧٧]. «وصاح الناس، السلاح! السلاح! فمال أهل افريقية إلى ناحية، ومعهم أهل مصر، ثم سعى بينهم فى الصلح ... فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم ، مع سوء رأى كلثوم وبلج»، كما يقول ابن عذارى نقلا عن الرقيق[١٧٨]. وخرج الجيش العظيم - الذى كانت تنخر فى عظامه الأحقاد والضغائن - نحو أرض طنجة لتأديب الثوار الذين جمعوا جموعهم تحت قيادة

---

(١٧٣) ابن عبد الحكم، ص ٢١٩، ابن عذارى، ج١، ص ٥٤، وأنظر الرقيق، ص ١١٣، وقارن ابن الأثير الذى يقول أن حبيبا كان بتلمسان (أحداث سنة ١١٧).

(١٧٤) ابن عبد الحكم، ص ٢١٨، ابن عذارى، ج١ ص ٥٤، وقارن النويرى، المخطوط ص ٨٥ب والترجمة، ملحق ابن خلدون، ج١، ص ٣٦١ - ٣٦٢، والرقيق، ص ١١٣ (حيث يذكر استخلاف القاضى فقط).

(١٧٥) أخبار مجموعة، ص ٣١.

(١٧٦) أنظر ابن عبد الحكم، ص ٢١٩، وقارن الرقيق، ص ١١٣ (حيث يشير إلى أن بلج بن بشر، وحده هو الذى استهان بحبيب وسبه فى بعض خطبه).

(١٧٧) ابن عبد الحكم، ص ٢١٩، ابن عذارى، ج١ ص ٥٤، وقارن الرقيق، ص ١١٣.

(١٧٨) ابن عذارى، ١ ص ٥٤، وقارن الرقيق، ص ١١٣ (حيث يوجد النص مبتورا).

أمامهم الجديد خالد بن حميد الزناتي، وتم اللقاء على الضفة الشمالية لأسافل وادى سبو [١٧٩] (نهر مدينة فاس) فى موضع يقال له «بقدورة» [١٨٠].

وكان لقاء هائلا استبسل فيه الصفرية بشكل يذكر باستماتة اخوانهم خوارج المشرق فى حروبهم مع جيوش الخلافة، وانتهى نهاية لم تكن متوقعة اذ تحطم جيش كلثوم، العظيم بفرسانه وعدده وعتاده، أمام مقاومة البربر العزل من السلاح أو الذين يكادون.

ويصف كتاب أخبار مجموعة المعركة وصفا رائعا: فجيش كلثوم كان يحتوى على فرقتين من الخيالة، أولاهما خيالة أهل الشام وعليها بلج بن بشر، ويبلغ عدد فرسانها حوالى ١٠ (عشرة) آلاف فارس [١٨١]. وثانيتهما خيالة افريقية وعليها هارون القرنى [١٨٢] أما الخوارج «فلم تكن لهم خيل تكافئ خيل المسلمين» [١٨٣]. أما عن الرجالة فمع أن كلثوم بن عياض كان معه حوالى ٢٠ (عشرين) ألفا من أهل الشام إلى جانب أهل افريقية، وعليهم مغيث ثم قوات حبيب بن أبى عبيدة، فان الذى يفهم من النص هو أن البربر كانوا أكثر عددا، اذ «أقبل خالد بن حميد الزناتي قد جمع جموعا ليس يحصى عددها» [١٨٤]، بينما يقول ابن عذارى أن عدد الذين ساروا منهم نحو القيروان بعد ذلك بلغ حوالى

(١٧٩) ابن عذارى، ج١ ص ٥٥، ابن خلدون، ج١ ص ١١٩، وقارن النويرى المخطوط، ص ٨٥ب والترجمة، ملحق ابن خلدون، ج١ ص ٦٢ حيث يسمى النهر وادى طنجة، وهو ما يقوله ابن خياط (ج٢، ص ٣٧٠).

(١٨٠) أخبار مجموعة ،ص ٣٢، وهناك قراءة أخرى هى نقدورة (ص ٣٩) أو نفدورة أنظر دوزى، ج١ ص ١٥٤ وهامش ٢.

(١٨١) أخبار مجموعة، ص ٣٣. الحقيقة أن النص يذكر هنا عددين هما: ١٢ (اثنا عشر) ألفا، لا (سبعة) آلاف. وصاحب الرواية يميل إلى الأخذ بالعدد الثانى اذ يقول: «وهو أصح العددين» ونعتقد أن العددين صحيحان: فالأول يمثل عدد الفرسان جميعا من أهل الشام، وهذا ما يقوله النويرى (المخطوط، ص ٨٥ب والترجمة، ملحق ابن خلدون ج١ ص ٣٦١)، أما الثانى فهو يمثل عدد الفرسان الذين بقوا مع بلج بعد الهزيمة.

(١٨٢) أخبار مجموعجة، ص ٣٢.

(١٨٣) أخبار مجموعة، ص ٣٣.

(١٨٤) أخبار مجموعة، ص ٣٢، وقارن ابن خلدون ج١ ص ١١٩ (النص يذكر ميسرة خطأ بدلا من خالد بن حميد، وميسرة كان قد قتل كما ذكرنا - أنظر فيما سبق، ص ٢٩٦ - ٢٩٨.

٣٠٠ (ثلثمائه) ألف رجل[١٨٥]. ولكنه وان صحت كثرة عَددهم فان عُددهم وسلاحهم كان بدائيا بسيطا، فقد «أقبلوا عراة متجردين ليس عليهم الا السراويلات[١٨٦]، ومعهم الجلود اليابسة فيها الحجارة»[١٨٧]. ورغم ذلك فقد كان يعوضهم عن ذلك الضعف عزمهم الصادق على الاستقتال فى الحرب مثل اخوانهم فى المشرق، فقد حلقوا رءوسهم «اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان، أصحاب الراسبى عبد الله بن وهب وزيد بن حصين، ونادوا بالتحكيم إلى جانب رفع المصاحف[١٨٨].

وطلب كلثوم النصيحة من مستشاريه، وكاد يقف موقفا دفاعيا باتخاذ خندق، واخراج الكتائب تقاتل البربر ثم تعود إلى مواقعها، ولكنه عاد واستمع إلى نصيحة ابن أخيه بلج المعتز بنفسه اذ قال له: «لاتفعل، ولا يرعك كثرة هؤلاء فان أكثرهم عريان أعزل لا سلاح لهم»[١٨٩]. وهكذا بدأ القتال وقواد كلثوم غير راضين عن خطته[١٩٠]. وكانت خطة كلثوم أن يعتمد على الخيالة كقوة ضاربة لتحطيم الثوار فوجه بلج بن بشر على الخيل ليدوسهم بها، وكانت الخيل أوثق فى نفس كلثوم من الرجالة»[١٩١]. وفاجأ بلج بن بشر البربر صباحا، فاستقبلوه بالصياح والحجارة، فكانت الخيل تنفر منهم[١٩٢]. واحتال البربر فى شل حركة الفرسان العرب حتى يجبروهم على الحرب رجالة، مثلهم: «فعمدوا إلى الرمك الصعبة، فعلقوا فى أذنابها القرب والأنطاع اليابسة ثم وجهوها نحو عسكر كلثوم فنفرت الخيل، ونادى الناس فنزل أكثرهم، وكان ذلك حاجة البربر لكثرتهم، وأنهم لم

---

(١٨٥) ابن عذارى، ج١، ص ٥٦.

(١٨٦) ابن عبد الحكم، ص ٣١٩، ابن عذارى، ج٣ ص ٥٥ (فخرجوا اليه عراة).

(١٨٧) أخبار مجموعة، ص ٣٣، وقارن ابن خلدون، ج١ ص ١١٩.

(١٨٨) أخبار مجموعة، ص ٣٢.

(١٨٩) نفس المصدر.

(١٩٠) يضيف ابن عبد الحكم إلى ما ذكرنا أنه عندما «أشار حبيب بن أبى عبيدة على كلثوم أن يقاتلهم الرجالة بالرجالة، والخيل بالخيل، قال له كلثوم: ما اغنانا عن رأيك يابن أم حبيب» (ص ٢١٩).. وانه عندما تازم الموقف عرض كلثوم القيادة على حبيب فرد عليه: «قد فات الأمر» (ص ٢٢٠)، وقارن ابن الأثير، سنة ١١٧.

(١٩١) ابن عبد الحكم، ص ٢١٩.

(١٩٢) أخبار مجموعة، ص ٢٣، ابن عبد الحكم، ص ٢٢٠.

تكن لهم خيل تكافئ خيل المسلمين[١٩٣].

وترتب على ذلك اضطراب نظام الصفوف فى جيش كلثوم، وزحف البربر دون أن ينجح بلج - الذى بقى فى سبعة آلاف فارس - فى ايقافهم حتى «خالطوا صفوف أهل الشام»[١٩٤]. وحاول بلج أن ينقذ الموقف بحملة خاطفة على الصفرية، ونجح فعلا فى شق جموعهم، ولكن الهجمة انتهت بانفصاله عن قوات عمّه الرئيسية اذ حال الثوار بينه وبين الرجوع إلى عسكره. وانقلبت الآية، وانقسم جيش كلثوم، وأحاطت جماعات من البربر ببلج ومعه عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة، بينما وجه خالد بن حميد الزناتى قواته الرئيسية نحو كلثوم. وغلب الخوارج بكثرتهم واستماتتهم جيش كلثوم، وقتل حبيب بن أبى عبيدة، ومغيث الرومى، وهارون القرنى وسليمان بن أبى المهاجر، وكثير من وجوه العرب وانهزمت قوات افريقية من الخيالة والرجالة[١٩٥]، الا عبد الرحمن بن حبيب الذى بقى مع بلج[١٩٦].

مقتل كلثوم:

وثبت كلثوم ثباتا رائعا، فجلس على منصته (ديدبانه) ترفرف عليه راية قيادته، وطلب من أصحابه أن يدافعوا عنه اذا نالته سيوف الخوارج، وقتل وهو يتلو الآيات: «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...».

وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ...»[١٩٧]. وبمقتل كلثوم فى وقعه «بقدورة» سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م[١٩٨]، تقرر مصير المعركة اذ

(١٩٣) أخبار مجموعة، ص ٢٣، وقارن ابن خلدون (ج١ ص ١١٩) الذى يقول: وكان كيدهم فى لقائهم إياه وملؤا الشنان بالحجارة وربطوها بأذناب الخيل ... فتقعقع الحجارة فى شنانها فنفرت خيولهم واختل مصافهم...».

(١٩٤) نفس المصدر.

(١٩٥) أخبار مجموعة، ص ٣٤، ابن عذارى، ج١ ص ٥٥، ابن عبد الحكم. ص ٢٢٠.

(١٩٦) ابن عذارى، ج١ ص ٥٦، ابن الأثير، أحداث سنة ١١٧.

(١٩٧) أخبار مجموعة، ص ٣٤، القرآن الكريم، سورة التوبة آية ١١١، سورة آل عمران آية ١٤٥.

(١٩٨) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٠ (هذا ولو أنه يذكر رواية أخرى عن الليث بن سعد فيها أن مقتل كلثوم كان فى سنة ١٢٤هـ)، وقارن أخبار مجموعة (ص ٣٥) الذى يقول إن نزول بلج إلى الأندلس كان فى سنة ١٢٣هـ، وابن عذارى ج١ ص ٥٦.

أخذت الراية، وانهزم الجيش الخلافى تماما نحو افريقية وتبعه البربر يقتلون ويأسرون. «فثلث أهل الجيش مقتول، وثلث منهزم، وثلث مأسور»(١٩٩).

حصر بلج وأهل الشام فى سبته:

أما عن بلج وفرسانه فكان فى المؤخرة، ومعه ثعلبة بن سلمة وعبد الرحمن بن حبيب، يقتل فى خصومه قتلا ذريعا، ولكنهم لم يمكنوه من اللحاق بالجيش، فلما فرغوا من كلثوم رجعوا اليه. وأمام كثرتهم الطاغية انسحب ماضيا فى بلادهم، وهم يتبعونه نحو الشمال. وحاول دخول طنجة فلم يستطع فسار إلى مدينة سبتة الحصينة، واعتصم بها(٢٠٠). وسيّر الثوار إلى بلج جيشا بقيادة زعيمهم الثانى وهو سالم أبو يوسف الهوارى، ولكن بلج بن بشر قتله، وشتت رجاله(٢٠١). وتوالت جيوش الخوارج على سبته: كلما قضى بلج على جيش سيروا إليه آخر، حتى هزم لهم خمسة جيوش أو ستة(٢٠٢). وأخيرا رأى الصفرية ألا سبيل إلى القضاء على بلج ورجاله الا بتجويعهم، وقطع الميرة عنهم.

ولما كانت الأرض حول طنجة عامرة كثيرة الخيرات فانهم قرروا تخريبها وإقفارها حول المدينة على مسيرة يومين(٢٠٣). ونجحت الخطة فعلا وأصبح قيام بلج ورجاله بالغارات البعيدة من أجل الحصول على الطعام أمرا صعبا، «فانقطع عنهم المعاش، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم(٢٠٤). «وأكلوا الجلود»(٢٠٥)، وما حملت الأرض من البقل والعشب(٢٠٦). ورفض والى الأندلس العجوز عبد الملك

---

(١٩٩) اخبار مجموعة، ص ٣٤، وقارن ابن خياط (ج٢ ص ٢٧٠) الذى يذكر - إلى جانب كلثوم - من أعيان القتلى: محمد بن عبيد الله الأزدى، ويزيد بن سعيد بن عمرو الحرشى وحبيب بن أبى عبيدة، كما يقول أنهم استباحوا عسكر كلثوم وسبوا الذرية.

(٢٠٠) أخبار مجموعة، ص ٣٥، ابن عذارى، ج١ ص٥٥، ابن خلدون، ج٧، ص ١١٩.

(٢٠١) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٠، وقارن ابن خياط، ج٢ ص ٢٧٠ (حيث النص على أن الذى صبر لأبى يوسف - الذى يسميه ابن حميد خطأ - وهزم رجاله وقتله هو وقائد مؤخرة جيش بلج واسمه حسان بن عتابه).

(٢٠٢) أخبار مجموعة، ص ٣٥.

(٢٠٣) نفس المصدر.

(٢٠٤) أخبار مجموعة، ص ٣٥، وقارن ابن الأثير، سنة ١٢٣.

(٢٠٥) أخبار مجموعة، ص ٣٧.

(٢٠٦) أخبار مجموعة، ص ٣٨.

بن قطن المدنى الأصل، والذى حارب أهل الشام بالمدينة فى وقعة الحرة سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م، أن يستجيب لاستغاثتهم باسم الطاعة لأمير المؤمنين، وباسم العربية (العروبة)، بل على العكس من ذلك «تغافل بهم، وسره هلاكهم، وخافهم على نفسه». وبلغ الحقد على أهل الشام من ابن قطن إلى درجة أنه عاقب الزعيم اللخمى عبد الرحمن بن زياد الأحرم، الذى أشفق على هلاك أخوانه على الشاطئ الآخر للزقاق، فأرسل اليهم «قاربين قد شحنهما بالشعير والأدم»، رغم أن ذلك «لم يبلغ منهم مبلغا حتى أشرفوا عى الهلاك»(٢٠٧).

وأخيرا قبل ابن قطن مضطرا - «(ولم ير شيئا ..) أعَز له من الاستمداد بأهل الشام» - الموافقة على نزول بلج ورجاله إلى الأندلس، ولكن بعد أن ثار البربر بالأندلس، واقتدوا بأصحاب ميسرة فحلقوا رؤوسهم(٢٠٨)، وقتلوا العرب، وعجزت قواته عن قمع ثورتهم. وقبل ابن قطن ذلك شريطة أن يدفعوا له رهنا من قوادهم، وعلى أن يعود أهل الشام، بعد فراغهم من حرب البربر فى الأندلس، فى نحو سنة، إلى افريقية جملة دون أن يفرقهم أو يعرضهم للبربر(٢٠٩).

الخوارج فى المغرب الأدنى:

ووصلت أنباء الهزيمة الموجعة إلى دمشق فكان لها رنة حزن عميق. وأسف هشام بن عبد الملك على ما أصاب عصبيته من أهل الشام، وتمنى لو أنه كان أضاف اليها قوات من أهل العراق وغيرهم «لئلا يؤتى جيشه من قلة»(٢١٠). وحق للخليفة أن يأسف، وحق له أن يحلف «لئن بقى ليخرجن اليهم مائه ألف كلهم يأخذ العطاء، ثم ليخرجن مائة ألف، ثم ليخرجن حتى اذا لم يبق غير نفسه وغير بنية، أقرع بينه وبينهم ، ثم أخرج نفسه أن وقعت عليه القرعة»(٢١١).

والحقيقة أن انتصارات البربر الرائعة على جيوش الخلافة الكبيرة، كانت نذيرا

(٢٠٧) أخبار مجموعة، ص ٣٧ - ٣٨.

(٢٠٨) أخبار مجموعة، ص ٣٨، ٤٠، وقارن ابن خلدون (ج١ ص ١١٩) الذى يقول عن بربر ميسرة: «وقد فحصوا عن أوساط رؤوسهم».

(٢٠٩) أخبار مجموعة ،ص ٣٨ - ٣٩، ابن عذارى، ج١، ص ٥٦، ابن الأثير سنة ١٢٣.

(٢١٠) أخبار مجموعة، ص ٣٦.

(٢١١) نفس المصدر.

باشتعال الثورة فى كل بلاد المغرب من طرابلس إلى الأندلس، كما كانت تعنى انتصار المذهب الخارجى بشكل ستكون له آثاره الدائمة فى البلاد. فبعد مسير كلثوم إلى طنجة، انتقض البربر الخوارج فى أقاليم نفزاوة، مابين صبرة (سبراتة) وقابس، بمعنى أن القيروان أصبحت محصورة بين الثوار من الغرب والشرق أيضا. ففى منطقة قابس ثار عكاشة بن أيوب الفزارى الزناتى، وهو خارجى صفرى، وأرسل أخا له إلى مدينة صبره من طرابلس، حيث جمع قبائل زناته فى المنطقة وسار بهم نحو المدينة الجديدة التى عرفت بسوق سبرت. والظاهر أنه اختار يوم الجمعة حيث اجتمع الناس، وعلى رأسهم عاملهم حبيب بن ميمون، فى المسجد الجامع، وضرب عليهم الحصار – كما يفهم من رواية ابن عبد الحكم(٢١٢). ووقع تخليص صبرة الجديدة من أيدى الثوار على كاهل والى طرابلس، وهو صفوان بن أبى مالك، الذى خرج ونجح فعلا فى هزيمة أخى عكاشة، الذى فّر إلى أخيه بقابس، بعد أن ترك كثيرا من أصحابه الزناتية وغيرهم قتلى فى أرض المعركة(٢١٣).

أما عن تأديب خوارج منطقة قابس – وهى من أرض افريقية – فانه آل إلى النائب الثانى لكلثوم بن عياض فى افريقية، وهو مسلمة بن سوادة القرشى. وخرج مسلمة فى أهل القيروان إلى عكاشة، ولكنه لم يكن حسن الطالع مثل صفوان، اذ انهزم أمام الفزارى، وعاد إلى القيروان بعد أن فقد كثيرا من أصحابه، بينما لاذ بعضهم بمدينة قابس. هذا ما يفهم من رواية ابن عبد الحكم الذى يقول، بعد أن يذكر عودة مسلمة إلى القيروان: «وتحصن عامة من كان مع مسلمة من أهل القيروان، وعليهم سعيد بن بجرة الغسانى»(٢١٤). وينص ابن خياط على أن عكاشة رجع إلى مدينة قابس حيث كان عبد الأعلى بن عقبة مع سعيد بن بجرة فى عسكر القيروان، وضرب عليهم الحصار . ويفهم من الرواية أن هزيمة مسلمة فى

---

(٢١٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٩، وقارن ابن الأثير، سنة ١١٧.

(٢١٣) نفس المصدر.

(٢١٤) أنظر ابن عبد الحكم، ص ٢١٩ – حيث القراءة مسلمة بن سوادة القرضى فى نفس الصفحة، ومسلمه بن سوادة الجذامى فى ص ٢٢١. أما سعيد بن بجرة فيكتب فى ص ٢٢١ فى شكل صعيد بن بحرة، وقارن الرقيق، ص ١١٤ (حيث توجد أسطر فى الرواية المبتورة تشير إلى هزيمه مسلمة، ورحيل عكاشه إلى المكنسة، وهى من حدود تهوده مما يلى سبيبة) – وهو ما يمكن أن يكون قد حدث إثر هزيمة عكاشة فيما بعد.

قابس كانت سببا فى اضطراب عسكر قابس الذين التفّوا، فى حصن المدينة، حول الزعيم الشامى «أبو الخطار الكلبى» وعهدوا اليه بالقيادة، ولكنهم عادوا ورضخوا لضغط أهل القيروان الذين تمسكوا بنائبهم القاضى عبد الرحمن بن عقبة(٢١٥). ويورد ابن عبد الحكم بعد ذلك رواية تقول: ان صفوان بن أبى مالك، والى طرابلس، خرج بناء على أوامر كلثوم الذى كتب اليه يستمده، وأن صفوان عندما وصل إلى قابس انتهى اليه خبر مقتل كلثوم فانصرف(٢١٦).

والظاهر أنه كان قد تم الاتفاق مسبقا بين والى طرابلس ونواب كلثوم بالقيروان على الإطباق على عكاشه فى قابس. فبينما كان صفوان يسير فى اتجاه قابس، كان سعيد بن بجرة، ومن تحصن معه من أصحاب مسلمة بن سوادة قد خرجوا اليه من قابس. وعندما أحس الفزارى بأنه قد يقع بين شقى الرحى تنحى عن قابس، واتخذ مواقع جديدة له على نهر يقال له الجمة على بعد ١٢ (اثنى عشر) ميلا من قابس. ولكنه لما رجع صفوان إلى طرابلس (اثر سماعة بنكبة كلثوم) رأى سعيد بن بجرة أن يسرع بقواته إلى قابس حيث احتمى بأسوارها خوفا من عكاشة، ولكن فلول المنهزمين فى طنجة من جيش كلثوم أتت لتنقذ الموقف الصعب. فلقد نهض بهم عبد الرحمن بن عقبة الغفارى، نائب كلثوم على الصلاة، بعد أن استخلف على القيروان عبد الحميد بن ذويب، والتقى بعكاشة فيما بين قابس والقيروان، فى موضع يعرف بـ «الفحص الأبيض»، وهزمه فى صفر سنة ١٢٤هـ/ ديسمبر ٧٤١ - يناير ٧٤٢م، فلحق الصفرى بطبنة عاصمة الزاب(٢١٧).

---

(٢١٥) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص ٢٧٠، وأغلب الظن أن سوء معاملة كلثوم وابن أخيه بلج لأبى الخطار واليمنية فى افريقية هى التى جعلت أبا الخطار يقف هذا الموقف العدائى من نائب كلثوم. والمرجح أن يكون شعر أبى الخطار الذى وجهه إلى الأمويين وهو يشكو تحيزهم إلى القيسية قد قيل فى هذه الفترة (انظر فيما سبق، ص ٢٨١ - ٢٨٣).

(٢١٦) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٦.

(٢١٧) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ص ٣٧٠ - ٣٧١، ابن عبد الحكم، ص ٢٢١، النويرى، المخطوط، ص ١٨٦، وقارن الرقيق، (ص ١١٤) حيث الإشارة إلى أن انتصار قاضى القيروان عبد الرحمن بن عقبة على عكاشة كان فى موضع الكنسة، الذى كان قد انسحب إليه عكاشة عقب انتصاره على مسلمة على حدود تهوده. والأرجح أن يكون انسحاب عكاشة إلى ذلك الموضع قد حدث عقب هزيمته أمام عبد الرحمن بن عقبة الغفارى.

و- حنظلة بن صفوان: انتقام الخلافة فى وقعتى الأصنام والقرن:

فى هذه الظروف الصعبة عجّل الخليفة هشام بن عبد الملك بتعيين والى مصر حنظلة بن صفوان الكلبى، أخى بشر بن صفوان، واليا على المغرب، وأمره بالمسير إلى ولايته. وخرج حنظلة من مصر فى ٣٠ (ثلاثين) ألف رجل[٢١٨]، فى ٧ من ربيع الآخر سنة ١٢٤هـ/ ١٨ فبراير ٧٤٢م[٢١٩]، ووصل إلى افريقية بسرعة فى أواخر هذا الشهر[٢٢٠]، ثم سير إليه هشام بعد ذلك ٢٠ (عشرين) ألف رجل[٢٢١]. ورغم ما يقوله ابن عذارى من أن صفرية المغرب توجهوا بعد مقتل كلثوم يريدون القيروان لاستباحتها ونهبها، وهم فى ٣٠٠ (ثلاثمائة) ألف رجل، وان أهل القيروان هزموهم، وكانوا فى ١٢ (اثنى عشر) ألفا فقط[٢٢٢]، فالظاهر أنه يقصد خوارج طرابلس وافريقية، وذلك أن الخطر الذى هدد القيروان فى ذلك الوقت أتى من جانب عكاشة بن أيوب الفزارى، ثم من حليفه عبد الواحد بن يزيد الهوارى (ثم المدهمى)، وكان صفريا هو الآخر. وهذا لا يمنع، بطبيعة الحال، من وجود علاقات قوية بين خوارج طنجة وخوارج افريقية[٢٢٣].

وفيما يتعلق بخوارج طنجة فيورد المالكى رسالة ينسب كتابتها إلى العشرة التابعين الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز، باسم حنظلة بن صفوان، إلى أهل

---

(٢١٨) أخبار مجموعة، ص ٣٦.

(٢١٩) الكندى، ص ٨٢، وعن ولاية حنظلة الثانية هذه لمصر فأنظر ص ٨١ - ٨٢، ابن الأثير، سنة ٢٢٤، النويرى، المخطوط، ص ٨٦أ، وقارن الرقيق، ص ١١٥.

(٢٢٠) ابن عذارى، ج١ ص ٥٨، قارن ابن عبد الحكم، ص ٢٢١، وابن خياط (ج٢ ص ٣٧١، ٣٧٦، الذى يجعل وصوله فى النصف من الشهر التالى - جماد الأولى، أخبار مجهوعة، ص ٣٦ حيث يحدد ذلك بسنة ١٢٣هـ.

(٢٢١) أخبار مجموعة، ص ٣٦.

(٢٢٢) ابن عذارى، ج١ ص ٥٦.

(٢٢٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢، وانظر الرقيق، ص ١٥ -١٦، ١٨، ابن الأثير، سنة ١١٧ (يسميه «المدغمى»)، النويرى، المخطوط، ص ٨٦أ، وكذلك ص ٨٦ب حيث يقول أن عبد الواحد كان فى ٣٠٠ «ثلاثمائة» ألف رجل. وقارن ابن خياط (ج٢ ص ٣٣٠- ٣٧١): حيث الإشارة إلى أن الذى وجه عبد الواحد بن يزيد الهوارى إلى افريقية هو آمام الصفرية فى المغرب الأقصى: خالد بن حميد - خليفة ميسرة.

طنجة: «ليقتدى بها المسلمون ويعتقدون ما فيها»[٢٢٤]. وهذه الرسالة تبين طبيعة ما تدعو اليه آيات القرآن من الأمر بالمعروف، والزجر عن المنكر، والتبشير بالجنة، والانذار بالنار، كما توضح أن من يحلل الحلال ويحرم الحرام، مع الطاعة الواضحة والنية الصالحة، «فقد أفلح وأنجح، وحيا حياة الدنيا والآخرة»[٢٢٥]. وهذه الرسالة وان كان يمكن الشك فى أصالتها من حيث الشكل فانها مقبولة من حيث الموضوع اذ تبين أن حنظلة استخدم السياسة لدعوة ثوار طنجة إلى الدخول فى الطاعة سلميا.

وفيما يتعلق بعكاشة فان حنظلة سَيّر اليه عبد الرحمن بن عقبة الغفارى الذى نزل بلاد الزاب فى شهر رمضان/ أغسطس، وتمكن من هزيمته ومن معه من الصفرية من جديد مرتين[٢٢٦]، وأخرجه من طبنة، ولكنه عندما انضم عند الواحد بن يزيد الهوارى إلى عكاشة لم يستطع عبد الرحمن بن عقبة، وهو فى أهل الزاب، من الوقوف أمامهما، فانهزم وقتل، وذلك فى منتصف ذى القعدة من نفس سنة ١٢٤هـ/ ٢١ سبتمبر ٧٤٢م[٢٢٧].

والظاهر أن ذلك الإنتصار الذى حققه الصفرية على قوات القيروان فى اقليم الزاب كان السبب فى بدء النزاع بين عكاشة وعبد الواحد على من تكون له الرئاسة منهما. والظاهر أن عبد الواحد بدأ يعمل لحسابه الخاص، فوجه أنظاره نحو مدينة تونس، وعندما سير إليه حنظلة بن صفوان قائده ثابت ابن خيثم ليقطع عليه الطريق تمكن عبد الواحد من هزيمة جيش القيروان وقتل ثابت، وذلك فى أول صفر سنة ١٢٥هـ/ ٤ ديسمبر ٧٤٢م. وهنا اتضح لحنظلة صعوبة التمسك بمدينة تونس، فترك لواليها المستنير بن الحبحاب الحرشى حرية الدفاع عنها أو

---

(٢٢٤) المالكى، رياض النفوس، ترجمة سعيد بن مسعود التجيبى رقم ٣١، ج١، ص ٦٧، وعن التابعين العشرة أنظر فيما سبق، ص ٢٧١- ٢٧٢.

(٢٢٥) المالكى: النفوس، ج١ ص ٦٧.

(٢٢٦) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢، ابن خياط، ج٢ ص ٣٧٠.

(٢٢٧) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢، ابن خياط، ج٢ ص ٣٧١ (حيث الإشارة إلى أنه قتل مع عبد الرحمن، بن عقبة: مروان بن عثمان الغسانى، ومحمد بن يوسف فى بشر، كما استولى عبد الواحد على عيالات أهل طبنة)، وأنظر ابن عذارى، ج١ ص ٥٨ الذى ينقل الرقيق، ص ١١٦ (حيث يقول النص أن عكاشة وعبد الواحد افترقا من الزاب). وقارن النويرى. ص ٨٦أ والترجمة ج١ ص ٣٦٣.

الجلاء، ففضل المستنير الخروج منها، وقدم إلى القيروان بعائلات الجند(٢٢٨).

وهكذا تهيأت مدينة تونس للسقوط كثمرة ناضجة بين يدى عبد الواحد الذى استولى عليها، وهناك بايعه أصحابه(٢٢٩). ورغم ما تنص عليه رواية خليفة بن خياط من أن مبايعة عبد الواحد بالخلافة فى تونس لم تلق قبولا حسنا لدى خالد بن حميد، إمام الصفرية فى طنجة، وأن هذا الأخير سير واحدا من قواده، هو عبد الأعلى المعروف بزرزور، مولى موسى بن نصير، فى الخيل «وأمره أن يحل لواء عبد الواحد وأن يولى أمر أصحابه»(٢٣٠)، فمن الواضح أن كلا من عبد الواحد وعكاشة كان يعمل فى افريقية لحسابه الخاص. والظاهر أن الزعيمين الصفريين فكرا فى أن من تكون له الامامة حقا هو الذى يستولى على القيروان أولا! وذلك انهما بدأ فى سباق نحو العاصمة الافريقية(٢٣١)، فسار اليها عكاشة على طريق مجانة (على الحدود التونسية الجزائرية) بينما أخذ عبد الواحد على طريق جبال باجة وعلى مقدمته قائده أبو قرة المغيلى(٢٣٢)، وأرسل انذارا إلى حنظلة باخلاء القيروان(٢٣٣).

ويرجع الفضل إلى القطعة الجديدة التى اكتشفت من تاريخ الرقيق فى اضافة معلومات تفصيلية أهملتها كتب الذين نقلوا من الرقيق، كما لا نجد لها ذكرا فى رواية ابن عبد الحكم التى تعتبر أقدم رواية كاملة عن هذه الأحداث والتى يظهر أثرها فى رواية الرقيق فى كثير من المواضع، مما دعانا إلى اعتماد الترتيب الزمنى الذى قرره ابن عبد الحكم لتلك الأحداث، والذى يجعل وقعة الأصنام قبل وقعة القرن، على عكس رواية الرقيق وجمهرة الكتاب الذين نقلوا عنه. ولو أن رواية الرقيق تشير فعلا إلى أخذ عكاشة بعد مقتل عبد الواحد، إلى جانب

(٢٢٨) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ص ٣٧١.

(٢٢٩) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢ (يقول ابن عبد الحكم انه سلم عليه «بالخلافة» والأصح «بالامامة» كما كانت عادة الخوارج فى ذلك الوقت).

(٢٣٠) أنظر ابن خياط، ج٢ ص ٢٧١.

(٢٣١) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢.

(٢٣٢) ابن عدارى، ج١ ص ٥٨، وقارن الرقيق، ص ١١٦ (حيث الاسم أبو عمرة المغيلمة) ابن عبد الحكم (ص ٢٢٢) (حيث الاسم أبو قرة العقيلى، النويرى (ص ٨٦أ والترجمة ج١ ص ٣٦٣، حيث القراءة – عن الرقيق – «أبو عمرة العبلى» ثم «العنكى».

(٢٣٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢.

تفصيلات عن معركة القيروان، الأمر الذى يظهر أيضا فى النويرى[٢٣٤].

ففيما يتعلق بحرب عبد الواحد يضيف الرقيق رواية لعمر بن غانم تقول: ان حنظلة أرسل إليه فى منطقة باجة جيشا عظيما بلغ عدده ٤٠ (أربعين) ألف فارس - حسبما تبالغ الرواية على ما تظن - بقيادة رجل من لخم. ويفهم من الرواية أن المنطقة الجبلية الوعرة لم تكن مناسبة لقتال الخيالة التى انهزمت بعد شهر من القتال فى ظروف غير مواتية، منها: افتقاد العلف للخيل إلى جانب وعورة الأرض. ومن الراجح أن الرواية تبالغ أيضا عندما تقول أن القائد اللخمى عندما عاد مهزوما من باجة إلى القيروان دفعة واحدة، أحصى فرسانه فوجد أنه فقد نصف قوته، أى ٢٠ (عشرين) ألف فرسى، وان كان ذلك بسبب المرض الذى تفشى فى الخيل نتيجة لاطعامها القمح بدلا من الشعير[٢٣٥].

وعندما وصل نبأ زحف البربر فى جموعهم العديدة إلى القيروان توقع الناس سوء المصير، وظنوا أنهم سيسبون، فسرى الفزع والرعب فى المدينة حتى أن الرسول لم يكن يخرج من عند حنظلة إلى مسيرة ٣ (ثلاثة) أميال ليأتيه بالأخبار الا بخمسين دينارا[٢٣٦]. وانتهى الأمر بأن توقف عسكر كل من عبد الواحد وعكاشة بالقرب من القيروان: الأول على بعد مرحلة، فى موضع يعرف بالأصنام - لوجود آثار وتماثيل قديمة فى المكان على ما نظن - والثانى على مسافة ستة أميال بموضع يعرف بالقرن[٢٣٧]. ولا نعرف ان كان ذلك قرب الجبل الذى يعرف بهذا الاسم حيث كان قيروان معاوية بن حديج[٢٣٨]. واستعد حنظلة ورأى أن يتخذ موقفا دفاعيا فى القيروان، فحفر لها خندقا، وفكر فى أن يطلب المدد من

---

(٢٣٤) الرقيق، ص ١٢٢، النويرى، ص ٨٦ب، والترجمة (ص ٦٣٤)،

(٢٣٥) أنظر الرقيق، ص ١١٨، وقارن ابن الأثير (أحداث سنة ١١٧هـ) الذى ينقل عن الرقيق، وكذلك النويرى (المخطوط، ص ٨٦ب)

(٢٣٦) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢، وقارن الرقيق (ص ١١٩) حيث النص على أن حنظلة كان يدفع خمسين دينارا كعطاء للجند الذين أخرجهم لقتال عبد الواحد، فلما كثروا انقصهم إلى ٤٠ (أربعين) ثم إلى ٣٠ (ثلاثين).

(٢٣٧) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢، ٢٢٣، وأنظر الرقيق، ص ١٢٨ (الذى ينقل منه النويرى (ص ٨٦ب والترجمة ج١ ص ٢٦٣) الذى يجعل الأصنام فى بلد جراوة على بعد ٣ أميال من القيروان.

(٢٣٨) أنظر فيما سبق، ص ١٧٧. والظاهر أنه كان فى البلاد أكثر من موضع عرف بالأصنام وبالقرن: فالادريسى (ص ١٣٤) يذكر موضعين بين قصور حسان وسرت يعرفان بهذين الاسمين. وعن امكانية أن يكون المقصود بالأصنام موضع جلولاء حيث كانت المعركة أنظر فيما بعد، ص ٣١٤.

الخلافة، ولكن مستشاريه نصحوه بالخروج وملاقاة العدو(٢٣٩). فكتب إلى واليه على طرابلس، معاويه بن صفوان، بالخروج لمعونته(٢٤٠).

الأصنام:

وانتهز حنظلة فرصة اختلاف عدويه، وقرر لقاء كل منهما على حدة. وفي سبيل ذلك عمل على ألا يتفقا ضده من جديد، فراسل عكاشة، وأخذ يرهبه ويمنيه(٢٤١). وأخرج حنظلة كل ما كان في خزائنه من الأموال والسلاح وفرقها في أهل القيروان الذين أقبلوا على الانخراط في قواته حتى انه عبأ في ليلة المعركة ٥ (خمسة) آلاف دارع وخمسة آلاف نابل، مما جعله ينقص العطاء بشكل مطرد من ٥٠ (خمسين) إلى ٤٠ (أربعين) ثم إلى ٣٠ (ثلاثين) دينارا، كما أنه صار ينتخب المتطوعين فلم يعد يقدم الا الشاب القوي(٢٤٢). وهكذا أخرج حنظلة قوات أهل القيروان لحرب عبد الواحد، وعلى رأسهم محمد بن عمرو بن عقبة(٢٤٣)، وتحت امرته، على المقدمة (الطلائع)، شعيب بن عثمان، وعلى المؤخرة (الساقة) عمرو بن حاتم. وعلى الميمنه عبد الرحمن ان مالك الشيباني(٢٤٤)، وهم مصممون على الحرب الكلية، حرب المستقتل اليائس: فاما كسب المعركة من الصفرية وأما خسارة كل شئ من ذراري ونساء وأموال(٢٤٥).

---

(٢٣٩) ابن عذاري، ج١ ص ٥٨، وقارن أصل الرواية في الرقيق، (صص ١١٦) حيث ينص على أن الذي رفض فكرة اقامة الخندق، وحرص على الخروج إلى العدو، هو : عمرو بن عثمان القرشي الذي كان شابا حدث السن.

(٢٤٠) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣.

(٢٤١) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢ (ربما كان موضوع تلك المراسلة هذا الخطاب من المالكي والذي قال أن حنظلة أرسله إلى بربر طنجة «أنظر فيما سبق ص ٣٠٩).

(٢٤٢) أنظر الرقيق، ص ١١٩، وقارن النويري، المخطوط، ص ٦٨ ب، والترجمة ج١، ص ٣٦٤.

(٢٤٣) ابن عذاري، ج١، ص ٥٩.

(٢٤٤) أنظر الرقيق، ص ١١٩ - ولو أن الرواية لم تذكر لمن كانت قيادة الميسرة.

(٢٤٥) ابن عذاري، ج١، ص ٥٩، وقارن الرقيق، ص ١٢٠ (حيث الإشارة إلى تحريض الفقهاء لجند القيروان على الجهاد، وكيف انهم «ذكروا مذهب عدونا الخوارج وعظم ما يريدونه بنا من السبي وهتك الحريم وسفك الدم، وأنه ليس ملجأ بعد هذا المقام»، وإلى جانب ذلك يشير النص إلى خروج نساء القيروان أيضا وقد عقدن الألوية وحملن السلاح، وحلفنا (حلفن) لأزواجهن: لئن انهزم أحد منكم الينا موليا عن العدو لنقتله. وعلمن ما يردن (يريد) بهن الصفرية من السبي والعبودية..».

وبدأ حنظلة بأقرب وأخطر عدوية وهو عبد الواحد بن يزيد الهوارى، فصبّحه على حين غرة بالأصنام، وكانت معركة مجيدة بالنسبة لعرب القيروان. فلقد اصطف الجيشان قلبا وميمنة وميسرة حسب تكتيك المعارك فى ذلك الوقت وقام العلماء فى أهل القيروان يحثونهم على الجهاد، وخرج اليهم نساؤهم يحرضنهم على حسن القتال. وبعد المبارزة بين بعض الأبطال «التحم القتال، وتداعى الأبطال، ولزم الرجالة الأرض، فلا تسمع الا وقع الحديد على الحديد، وتقابض الأيدى بالأيدى»[٢٤٦]. وبدأت المعركة بهجوم ميمنة عبد الواحد على ميسرة حنظلة فكسرتها، ولكن القيروانيين نجحوا بدورهم فى هزيمة ميسرة البربر وقلبهم، ثم اتبعوا ذلك بالهجوم على ميمنتهم المنتصرة فحطموها، فكانت هزيمة عبد الواحد الذى قتل فى المعركة[٢٤٧]. وتتبع العرب أصحابه الصفربة حتى جلولاء يقتلونهم قتلا ما يدرى ما هو، وهرب من هرب منهم[٢٤٨]. ومن الجائز أن يكون المقصود بالأصنام، فعلا، هو جلولاء لوجود الآثار القديمة بها، كما يرى جاتو[٢٤٩].

القرن:

والذى يفهم من النصوص أنه ما أن انتهى حنظلة من القضاء على عبد الواحد حتى سار برجاله المظفرين نحو عكاشة فى موضع القرن، قبل أن يبلغه نبأ مصرع حليفه بالأمس، ومقاتل إخوانه صفرية هوارة. وانقض القيروانيون بكل ما بعثه فيهم النصر من الحماس والقوة على عكاشة الذى أخذ من هول المفاجأة، ولكنه لم ينهزم الا بعد جولات من الكر والفر يصفها الرقيق وصفا رائعا عندما

---

(٢٤٦) ابن عذارى ج١، ص ٥٩، وقارن الرقيق، ص ١٢١ - ١٢٣، وأنظر ابن الأثير سنة ١١٧.

(٢٤٧) أنظر الرقيق، ص ١٢٢ (حيث اشارة تفصيلية إلى هزيمة ميسرة العرب إلى ما وراء قصر الماء)، وقارن ابن عذارى، ج١، ص ٥٩، وقارن ابن الأثير (سنة ١١٧)، وكذلك النويرى (المخطوط، ص ٨٦ب والترجمة ج١ ص ٣٦٣ - ٣٦٤) حيث هزيمة عبد الواحد بعد هزيمة عكاشة، ولو أنه توجد فى الرقيق، بعد ذكره الأصنام إشارة إلى مقتل عكاشة بعد عبد الواحد إلى جانب تفصيلات عن وقعة القرن، مما يؤيد أن معركة الأصنام كانت سابقة على وقعة القرن.

(٢٤٨) ابن عبد الحكم، ص ٣٣٣، وقارن الرقيق، ص ١٢٢، وابن الأثير سنة ١١٧. ومن الجائز أن يكون المقصود بالأصنام هو جلولاء لوجود الآثار القديمة بها. كما يرى جاتو (ترجمة ابن عبد الحكم هامش ١٥٩ مكرر).

(٢٤٩) أنظر ترجمة ابن عبد الحكم، هامش ١٥٩ مكرر.

يقول: «وكانت النساء قد ركبن ظهور البيوت بالقيروان، فاذا رأين الغبار (غبار المعركة) سائرا إلى الجبل كبرن وسجدن، واذ رأينه مقبلا (نحو القيروان) صرخن واستغثن[٢٥٠]. وأخيرا تمت الهزيمة على أصحاب عكاشة الذى فر من ميدان المعركة، ولكنه أخذ وجئ به أسيرا إلى حنظلة الذى قتله، وخرّ لله ساجدا شاكرا[٢٥١].

وهكذا تم النصر الذى أحرزه حنظلة في وقعه «الأصنام» بالظفر في وقعه «القرن» وذلك فى أواخر سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م [٢٥٢]أو أوائل سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م[٢٥٣]. وبذلك ثأر العرب لهزائمهم من البربر فى طنجة، وفى «الأشراف» (شلف)، وفى «بقدورة» (سبو)، وكان للنصر رنة فرح عميقة فى المشرق حتى بالغ الكتاب في عدد القتلى من بربر الصفرية، فقالوا أنهم بلغوا ١٨٠ (مائة وثمانين) ألفا[٢٥٤]. ولقد علق فقيه مصر وراويتها المشهور، الليث بن سعد، على ذلك النصر فاعتبره من انتصارات الاسلام الفاصلة حتى قارن الوقعة بغزوة بدر، اذ قال: «ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها، بعد غزوة بدر، أحب إلىّ من غزوة القرن والاصنام[٢٥٥].

---

(٢٥٠) الرقيق، ص ١١٧، وحيث نجد ذكرا لمشاركة حبيب بن أبى عبيدة فى هذه المعركة مع أن من المعروف أنه كان قد قتل فى معركة بقدورة (أنظر فيما سبق ص ٣٠٣ وهـ ١٩٤ ص ٣٠٤)، وهذا ما نص عليه الرقيق نفسه بعد ذلك (ص ٢٢٣).

(٢٥١) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣، وقارن الرقيق الذى يجعل هزيمة عكاشة قبل هزيمة عبد الواحد (ص ١١٦) ثم يعود لينهى الرواية بمقتل عكاشة مع تفصيلات عن وقعة القرن بعد مقتل عبد الواحد، (ص ١٢٢)، وهذا ما يظهر فيما ينقله عنه النويرى، المخطوط، ص ٨٦أ والترجمة ج١، ص ٣٦٣ ثم ص ٨٦ب والترجمة ص ٦٣٤، وابن الأثير (سنة ١١٧). أما ابن عذارى، فمع أنه يجعل هزيمة عكاشة أولا(ص ٥٨) فانه يدمج القرن والأصنام بعد ذلك فى معركة واحده (ص ٥٩). أما ترتيب ابن عبد الحكم الذى أخذنا به فهو أوثق وأوضح ٠أنظر هامش ١٩٥ من ترجمة جاتو).

(٢٥٢) أخبار مجموعة، ص ٣٧.

(٢٥٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣.

(٢٥٤) أنظر الرقيق، ص ١٢٢، وقارن ابن عذارى، ج٢، ص ٩٥، ابن الأثير سنة ١١٧، النويرى ص ٨٦ب، والترجمة، ج١، ص ٣٦٤. (ولم يمكن عدهم الا بعد أن طرح على كل قتيل قصبة ثم جمعت القصب فكانت ١٨٠ ألفا - والرقيق يذكر أن عملية العد الغريبة هذه تمت بعد مقتل عكاشة).

(٢٥٥) أنظر الرقيق، ص ١٢٢، ابن عذارى، ج١ ص ٥٩، النويرى، ص ٨٧أ، وقارن ابن الأثير، سنة ١١٧ (ماغزوة إلى الآن أشد بعد غزوة بدر من غزوة العرب بالأصنام).

تأديب خوارج طرابلس:

وأتبع حنظلة القضاء على خوارج افريقية بتأديب خوارج نفزاوة. فعندما هدده الصفرية في القيروان، كان قد أرسل إلى واليه على طرابلس،و وهو معاويه بن صفوان، يطلب منه المدد. وخرج ابن صفوان بجند طرابلس لنجدته، ولكنه ما أن وصل إلى قابس حتى أتته أنباء القضاء على الثوار فى الأصنام والقرن(٢٥٦)، وأتته الأوامر من حنظلة بمطاردة خوارج البربر فى نفزاوة، وكانوا قد هاجموا أهل الذمة هناك وسبوهم. وسار معاويه بن صفوان نحو الثوار، ونجحت قواته فى هزيمتهم «واستنقاذ ما كانوا قد أصابوه من أهل الذمة، ولكن معاويه دفع حياته ثمنا لهدا النصر، وعين حنظلة أحد أبناء عصبيته، وهو زيد بن عمرو الكلبى قائدا لجيش ابن صفوان، فعاد به إلى طرابلس(٢٥٧).

ووصلت أنباء النصر على أعداء الخلافة إلى هشام بن عبد الملك، وهو يجود بأنفاسه على فراش المرض فى سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م. وبذلك برّ هشام بقسمه، وثأرت الدولة الأموية من خصومها فى المغرب، ولكنها كانت يقظة أشبه بصحوة الموت. فهشام كان آخر عظماء خلفاء بنى آمية، وكان جده وكفاحه، فى سبيل المحافظة على وحدة الدولة العربية، سببا فى أن قيل فيه على لسان المنصور العباسى آنه «رجل القوم». فلقد خلّف هشام عدداً من الأمراء الضعاف الذين لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، فشهدوا اضمحلال الدولة ثم مصرعها. حقيقة أن الثورة التى أضرمت المغرب نارا تشتعل أمكن ايقافها ان لم يكن التغلب عليها، ولكنه فى الوقت الذى كانت الدولة تقضى على خصومها الخوارج فى المغرب كانت الدعوة إلى أهل البيت فى المشرق تقوى وتخرج من دور المعارضة الصامته إلى دور الثورة الرائعة. وكان لانشغال الأمويين فى الصراع ضد لعباسيين فى المشرق آثاره على بلاد المغرب التى تركت لمصيرها، فانقطعت العلاقة بينها وبين دمشق، وتغلب على أقاليمها المتغلبون من خوارج ومغامرين وغيرهم.

---

(٢٥٦) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣.

(٢٥٧) ابن عبد الحكم، ص ٢٣٣.

الباب الرابع

ما بين الاستقلال والتبعية للخلافة

أحوال المغرب على أواخر الأمويين وقيام العباسيين

الفصل الاول : الفهريون بنو عقبة بن نافع فى افريقية

الفصل الثانى : العصر الذهبى للخوارج :

المغرب ما بين الصفرية والاباضية

الفصل الثالث : المهلبيون فى افريقية

الفصل الاول
الفهريون بنو عقبة بن نافع فى إفريقية

١ - عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والعودة من الاندلس :

بعد ان هزم حنظلة بن صفوان الخوارج فى افريقية سنحت له الفرصة لكى يمد سلطان الخلافة من جديد الى الاندلس، وكانت قد اضطربت منذ ثورة البربر بها سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م. ثم بنزول أهل الشام اليها بقيادة بلج ابن بشر. فقد طلب عقلاء اهل الاندلس من حنظلة ان يرسل اليهم واليا ينشر السلام ويقر الأمور، فأرسل اليهم احد ابناء عصبيته، وهو ابو الخطار الحسام ابن ضرار الكلبى، الذى كان عاملا لاخيه بشر بن صفوان من قبل فى المغرب. والذى كان قد بويع اميرا لفترة ما فى قابس بعد محنة كلثوم بن عياض[١] .

ولما كان المغرب وقتئذ مضطربا أخذ ابو الخطار طريق البحر من تونس إلى الاندلس، فقدمها فى رجب سنة ١٢٥ هـ / مايه ٧٤٣ م[٢] ، ونجح بفضل سنه وعصبيته، ولأنه من اعيان اهل الشام، فى فرض سلطانه على الجميع. ولكن ابا الخطار، فى الوقت الذى ضبط الأندلس، تسبب - من حيث لا يدرى - فى الإطاحة بزعيم عصبيته ورئيسه، والى المغرب، حنظلة بن صفوان. فقد كان ضمن الاجراءات التى اتخذها ابو الخطار اخراج زعماء الفتنة من الاندلس، وكان من هؤلاء عبد الرحمن بن حبيب بن ابى عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهرى، وثعلبة بن سلمة العاملى، اللذان كانا مع بلج بن بشر فى سبتة ثم عبرا معه الى الجزيرة الخضراء. فقد كان هناك تحاسد وتنافس بين بلج بن بشر وعبد الرحمن بن حبيب منذ التقيا فى افريقية[٣] . وحمل عبد الرحمن بن حبيب حنده على بلج الى الاندلس[٤] ، وحاول ان يتغلب على البلاد ، فاشترك فى حرب بلج بن بشر

---

(١) انظر اخبار مجموعة ص ٤٥ ، وانظر فيما سبق . ص ٣٠٧ و هـ ٢١٥.

(٢) انظر اخبار مجموعة، قائمة الولاة، بالاسبانية، ص ٣٤٣ ، وقارن ابن عذارى و ج ١ ص ٥٨) الذى يحدد ذلك برجب ١٢٤ هـ

(٣) انظر فيما سبق . ص ٣٠١.

(٤) انظر ابن عبد الحكم (ص ٢٢) الذى يقول : ان عبد الرحمن بن حبيب تقدم أمام بلج الى الاندلس ...» وامر عبد الملك بن قطن الا يسمع لبلج ولا يطيعه».

عندما آلت اليه الرياسة ثم في مناهضة ثعلبة بن سلمة بعد بلج، ولكنه فشل.

وهكذا أخرج ابو الخطار من الاندلس عددا من زعماء جند الشام، ممن انغمسوا في الفتنة، منهم ثعلبة بن سلمة وعبد الرحمن بن حبيب(٥). وسار ابن حبيب في البحر الى افريقية، واستقر بتونس(٦)، بينما لحق ثعلبة بحنظلة في القيروان(٧)، وذلك في اواخر سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م أو اوائل سنة ١٢٦ هـ، اى قبل مقتل الخليفة الوليد ابن يزيد(جمادى الاخرة سنة ١٢٦هـ / مارس ٧٤٤ م). فعندما وصلت انباء مقتل الوليد الى افريقية خرج ثعلبة وكبار قواد اهل الشام بافريقية الى المشرق(٨). وكان اضطراب امور الخلافة في الشام فرصة سانحة انتهزها عبد الرحمن بن حبيب، لمحاولة تحقيق ما فشل فيه في الاندلس في بلاد المغرب، حيث كان لوالده مقام مرموق، كما رأينا.

التغلب على القيروان :

قام عبد الرحمن في تونس، «ودعا الناس الى نفسه فأجابوه»(٩)، ثم حشد

---

(٥) اخبار مجموعة، ص ٦٤، ابن عذارى ج ١ ص ٦٠، وقارن ابن الأثير سنة ١١٧، والنويرى ص ٨٧ أ: حيث ينقلان عن الرقيق (ص ١٢٣) ان عبد الرحمن خرج من الاندلس وهو مستتر او خائف.

(٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٠.

(٧) ابن عبد الحكم. ص ٢٢٣.

(٨) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣، وقارن ابن عذارى الذى يقول عن احداث سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٣ - ٧٤٤ م «انه لم يكن في هذه السنة بافريقية امر» (ج ١ ص ٥٩). والذى يقول بعد ذلك (نقلا عن الرقيق، ص ١٢٣) ان نزول عبد الرحمن بن حبيب بتونس كان في جمادى الاولى سنة ١٣٧ هـ / فبراير ٧٤٥ م (ج ١ ص ٦٠، النويرى، ص ٨٧ أ والترجمة ج ١ من ٣٦٤). والحقيقة ان ذلك كان وقت تغلبه على افريقية، كما سنرى. ومما يرجح تاريخ ابن عبد الحكم هو ان ابن عذارى نفسه يضع تلك الاحداث تحت سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٣ - ٧٤٤م، قبل ان يذكر احداث سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ - ٧٤٥ (ج ١ ص ٦٢). هذا كما ان ابن خلدون يجعل استيلاء عبد الرحمن بن حبيب على افريقية في سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م (انظر العبر ج ٦ ص ١١١ والترجمة ج ١ ص ٢١٨).

(٩) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٠، وقارن الرقيق (ص ١٢٣) الذى ينقله النويرى، ص ٨٧ (حيث النص على ان عبد الرحمن نزل او عسكر في سمنجة بعد نزولة تونس) والترجمة ج ١ ص ٣٦٤ ،حيث القراءة الصحيحة، سبخة سنجوم)، وابن الاثير سنة ١٢٦.

قوة، وأزمع طرد حنظلة من افريقية[١٠]. وفكر حنظلة فى قتال عبد الرحمن ولكن ورعه غلب عليه ورأى ان يستخدم السياسة والمداراة فى اقناع الفهرى بالرجوع الطاعة، واجتناب الفتنة[١١]. وارسل حنظلة وفدا من ٥٠ (خمسين) رجلا من اعيان القيروان الى مدينة تونس لمفاوضة عبد الرحمن. وعندما أشرف الوفد على أبواب تونس، وصلتهم أنباء ولاية مروان بن محمد الخلافة، فأرادوا العودة من حيث أتوا، ولكن عبد الرحمن بن حبيب أسرع فأرسل جماعة من فرسان ساقتهم اليه بتونس[١٢]. وتشير النصوص الى سوء معاملة عبد الرحمن لأفراد الوفد اذ انه وضعهم فى الحديد[١٣].

وينفرد ابن عبد الحكم باشارة الى سبب سخط عبد الرحمن عليهم اذ يقول: «ووجد عبد الرحمن عليهم لخروجهم اليه، وكانوا قد كاتبوه قبل ذلك سرا من حنظلة، فلما بلغتهم ولاية مروان نزعوا عن ذلك»[١٤]. وهذا النص يبين ان زعماء القيروان وافقوا على مبايعة عبد الرحمن بن حبيب على افريقية فى الوقت الذى اختلت فيه الخلافة بالمشرق، فشغرت أو كادت بعد مقتل الوليد بن يزيد، وعلى ايام قاتله يزيد بن الوليد ثم ابن هذا الاخير ابراهيم. فلما تم الأمر لمروان بن محمد اعترفوا بخلافته، ورجعوا عما كانوا اتفقوا عليه مع عبد الرحمن. وهذا يعنى ان أحداث الخلافة فى المشرق كانت لها أصداؤها – وهذا امر طبيعى – على الأحوال فى المغرب.

والظاهر ان عبد الرحمن بن حبيب اعتبر ابتداء ان خروج وفد القيروان اليه، ثم تقريرهم العودة الى حنظلة، وهم على أبواب تونس، إخلالا بما وعدوا به او نكثا بالعهد يستحقون عليه العقاب، فوضعهم فى الحديد. ثم انه قرر العمل

---

(١٠) ابن عبد الحكم ص ٢٢٣.

(١١) ابن عبد الحكم. ص ٢٢٣ ، ابن عذارى، ج ١ ص ٦٠، وقارن الرقيق ، ص ١٢٣ (النويرى المخطوط ، ص ٧٨) والترجمة ، ج ١ ص ٣٦٥).

(١٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢٣ .

(١٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣، ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٠، وقارن الرقيق ، ١٢٤ (النويرى ، المخطوط . ص ٨٧) والترجمة، ج ١ ص ٣٦٥).

(١٤) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣.

الايجابى فساق أفراد الوفد، وهم فى وثاقهم أمامه، وسار نحو القيروان وعسكر بالقرب منها[١٥]. وارسل عبد الرحمن الى حنظلة إنذارا يطلب فيه ان يخلى له العاصمة خلال ٣ (ثلاثة) ايام، وأكثر من هذا حذر صاحب بيت المال من إعطاء حنظلة أكثر مما يستحقه من عطائه[١٦]. ولكى يقطع على حنظلة وأهل القيروان قيامهم بأى عمل من اعمال العنف ضده، هددهم بقتل رهائنهم عنده، فأعلن : ان رمى احد من اوليائهم «بحجر قتلهم»[١٧]. وأسقط فى يد الوالى الورع أمام دهاء خصمه المغامر الصعب المنال، ورأى أن يحقن دماء المسلمين، وان يعود – كما فعل أهل الشام من قبله – الى المشرق. فدعا القاضى والشهود والعدول، وفتح امامهم بيت المال، ولم يأخذ منه الا الف دينار فقط، وترك الباقى وقال : «لا أتلبس منه الا بقدر ما يكفينى ويبلغنى»[١٨]. وفى شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٧ هـ / فبراير ٧٤٥ م، خرج حنظلة فى جماعة من أصحابه من القيروان غير آسف، ودخلها عبد الرحمن بن حبيب[١٩] الذى منع الناس من المسير مع حنظلة او الخروج لتشييعه[٢٠].

أعمال عبد الرحمن بن حبيب : ثورات الاقاليم :

وهكذا نجح عبد الرحمن بن حبيب فى التغلب على افريقية، وأخذ يعمل جاهدا على تثبيت أقدامه فى البلاد حتى تكون مملكة له ، ولبنيه من بعده. ولم

---

(١٥) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٠ ، وقارن الرقيق، ص ١٢٤.

(١٦) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣ – ٢٢٤.

(١٧) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٠ (النويرى ، ص ٧٨، والترجمة ج ١ ص ٣٦٥) وقارن ابن الاثير سنة ١٢٦، والرقيق ، ص ١٢٤.

(١٨) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٠، وقارن النويرى، ص ٨٧ ، والترجمة، ج ١ ص ٣٦٥).

(١٩) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٤، وانظر الرقيق (ص ١٢٤) الذى يجعل انصراف حنظلة فى جمادى الآخرى سنة ١٢٧ هـ . والظاهر ان ابن عذارى اختلطت عليه ولاية يوسف القهرى على الاندلس سنة ١٢٩ هـ (ص ٦٢) بولاية عبد الرحمن على افريقية سنة ١٢٧ هـ، اذ يقول ان حنظلة «دعا على عبد الرحمن وعلى اهل افريقية»، وقارن الرقيق (ص ١٢٥) الذى ينقله النويرى، ص ٨٧ ب والترجمة ج ١ ص ٣٦٥، والذى يورد رواية تبالغ فى دعاء حنظلة على عبد الرحمن وعلى اهل افريقية التى وقع فيها الوباء والطاعون سبع سنين، وانظر ابن الاثير، سنة ١٢٦. اما رواية ابن خياط (ج ٢ ص ٣٨٥) فلم تحقق اذ النص فيها «فى ان خروج حنظلة كان فى سنة ١٠٩ هـ بدلا من ١٢٩ هـ.

(٢٠) انظر الرقيق، ص ١٢٤ – ١٢٥، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٠، النويرى ص ٨٧ ب .

يكن هذا الأمر من السهولة بمكان، فالبلاد كانت مضطربة منذ سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠م ، والحركة الخارجية كانت تزداد قوة وانتشارا مع مرور الوقت حتى طوقت القيروان او كادت. ثم أتت احداث الخلافة الأموية التى كانت تتهاوى تحت ضربات المسوّدة (العباسيين) وزادت الأمور اضطرابا، واخيرا كان تغلب عبد الرحمن نفسه على افريقية – على غير اساس شرعى – أنموذجا حاول غيره من المغامرين وأصحاب المصالح الشخصية السير على منواله. فبمجرد استيلائه على السلطة اضطربت البلاد، وعرفت فترة اشبه بالفترات التى يسميها المؤرخون العرب بـ «ملوك الطوائف» والتى تعنى فقدان السلطة المركزية لسيطرتها على البلاد، واستقلال الاقاليم والمدن عن العاصمة. حدث ذلك فى تونس، وفى باجة، وفى جبال البربر (اوراس) وفى قابس، وفى طرابلس، واشترك فى الثورة العرب والبربر، من أهل الجماعة ومن الخوارج. وكان على عبد الرحمن – الذى لم تبق له الا القيروان فى وقت من الأوقات – أن يجاهد فى سبيل إخضاع أولئك الذين راودتهم فكرة اقتطاع إمارات لهم فى البلاد.

اضطراب الاقاليم الساحلية :

ففى تونس ثار عروة بن الوليد الصدفى، واستولى على المدينة، ومن تونس انتشرت الثورة الى منطقة الساحل (ما بين سوسة وسفاقس) حيث ثار العرب هناك بقيادة ابن عطّاف الأزدى[٢١]. وفى باجة ثارت قبيلة صنهاجه بقيادة ثابت بن وزيدرن[٢٢]، الذى تمكن من الاستيلاء على المدينة[٢٣]، ولم يلبث ان انضم الى ثابت زعيم بربرى آخر هو عبد الله بن سكرديد[٢٤]. واضطربت كذلك جبال البربر ، وأخيرا منطقة طرابلس. والظاهر ان اشد هذه الثورات كانت ثورة البربر،

---

(٢١) ابن عذارى، ج ١ ص ٦١ (النويرى، ص ٨٧ ب، والترجمة ج ١ ص ٣٣٦) وقارن ابن الاثير، سنة ١٢٦ ، والرقيق، ص ١٢٥ (حيث اسم الصدفى : عروة بن الزبير). ص ١٢٦ (حيث لقب ابن عطاف : الأسدى).

(٢٢) ربما كانت كلمة وزيدرن ابن زيدون محرفة (انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١١ سوريدون، والترجمة. ج١ ص ٢١٨ وهامش ٩٢ اما بقية الكتاب فيسمونه الصنهاجى).

(٢٣) الرقيق، ص ١٢٦ ، ابن عذارى، ج ١ ص ٦١ ، النويرى ، ص ٨٧ ب

(٢٤) ابن خلدون، ج ٦ ص ١١١ ، والترجمة ، ج ١ ص ٢١٩ .

فالكتاب عندما يعرضون للعمليات العسكرية التى قام بها عبد الرحمن بن حبيب لا يتكلمون الا عن البربر – وذلك امر طبيعى.نظرا للطابع الدينى الفدائى الذى اتخذته حركاتهم العنيفة. ولقد تفاوتت اعمال عبد الرحمن بن حبيب ما بين استخدام العنف والخديعة والسياسة مع الخصوم. فعندما علم بثورة باجة جهز سرية من ٦٠٠ (ستمائة) فارس بقيادة أخيه الياس بن حبيب واتفق معه على إعمال الحيلة حتى يمكن استرجاع باجة دون ان ينهك قواه. وأتبع ذلك بان بعث بعض جواسيسه يتربص بثوار الساحل، وعندما اتاه الجاسوس وأخبره، ان القوم آمنون غافلون، فاجأهم الياس بعسكره، وقتل ابن عطّاف وأصحابه، وذلك فى سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م[٢٥]. واتبع الياس ذلك بمفاجأة تونس حيث قتل عروة بن الوليد وأقام فى المدينة[٢٦].

الاباضية فى طرابلس :

أما اهم الثورات البربرية الخارجية فكانت فى إقليم طرابلس. وعن سبب الثورة فكان مقتل أحد زعماء الاباضية هناك، وهو عبد الله بن مسعود التجيبى فى سنة ١٢٩هـ / ٤٧ – ٧٤٨ م، كما يفهم من رواية ابن خياط، وذلك على يدى اخى عبد الرحمن بن حبيب، كما يقول ابن عبد الحكم[٢٧] – ونظنه الياس – بعد أن عهد اليه بولاية طرابلس. ونص ابن عبد الحكم يعتبر اول إشارة الى ظهور المذهب الاباضى بشكل ايجابى فى المغرب وهو مذهب المعتدلين من الخوارج، القريب من مذاهب اهل السنة، والذى يعتبر فى المغرب خامس المذاهب الأربعة. وصاحب المذهب الذى اعطاه اسمه هو عبد الله بن اياض التميمى، أحد زعماء

---

(٢٥) انظر ابن عذارى، ج ج ١ ص ٦١، وقارن الرقيق (ص ١٢٦ – ١٢٧) حيث بعض التفصيلات الطريفة عن الجاسوس فى ثيابه الرثة وكيف دخل بين عسكر عطاف وكيف خرج ليخبر الناس باطمئنان عسكر عطاف الذين اخذوا على غرة، فقتل عطاف وحمل البريد رأسه الى عبد الرحمن، وقارن ابن الاثير، سنة ١٢٦.

(٢٦) انظر الرقيق، ص ١٢٧ – ١٢٨٨ (حيث بعض التفصيلات المثيرة عن مفاجأة عروة وهو فى الخباء وكيف ركب بدون سرج وقاتل الياس بملحفته من غير سلاح). وقارن ابن الاثير. سنة ١٢٦.

(٢٧) ابن عبد الحكم ص ٢٢٤، انظر تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٤١١ (حيث الرواية مبتسرة. والاسم : سعد بن مسعود بدلا من عبد الله بن مسعود).

الخوارج . والمذهب الاباضى يمثل فى الحقيقة آخر تطورات الفكر الخارجي. فبعد تعصب الازارقة(٢٨) - الذين كفروا غيرهم من المسلمين ، وأباحوا دماءهم - خفف الخوارج من قسوة مبادئهم التى لقيت نفورا من جمهرة المسلمين، كما تعرضت لرد فعل عنيف من جانب الدولة، فظهر الصفّرية، اتباع زياد بن الأصفر ولم يرم الصفرية غيرهم من المسلمين بالشرك، بل وقفوا منهم موقفا وسطا بين التساهل والتشدد المقبول، كأنهم قبلوا مبدأ التقية (اى كتمان العقيدة) . ورغم ان الصفرية لم يروا دار المخالفين لهم دار حرب فانه لم تكن لهم شعبية أيضا، ولذلك وصفوا بالقسوة وباستحلال سبى المسلمين. وترتب على ذلك أن ازداد اعتدال الخوارج مع مرور الوقت، وظهرت منهم جماعات لم تكفر بقية المسلمين، وقالت ان كفرهم كفر نعمة، وحرموا دماءهم وسبيهم(٢٩) . وأشهر من نادى بتلك الآراء هو عبد الله بن اباض الذى دعا لمبادئه فى أواخر القرن الأول الهجرى على ايام عبد الملك بن مروان، فلقيت قبولا من أتباع المذهب الخارجي وذاعت وانتشرت فى المشرق والمغرب على أواخر أيام مروان بن محمد(٣٠) .

وتنسب كتب الاباضية فضل ادخال المذهب الاباضى الى المغرب الى سلامة ابن سعيد فى أوائل القرن الثانى الهجرى، وتذكر انه اجتهد فى نشره وتفانى فى اذاعته كما روى أئمة الرستميين، حتى انه كان يقول : وددت أن لو ظهر هذا

---

(٢٨) وعن بدء ثورة المذهب الخارجى فى المغرب انظر فيما سبق، ص ٢٩٠ وما بعدها.

(٢٩) عن مذهب الخوارج انظر الشهرستانى، طبعة ليبزج ١٩٢٣ ص ١٠٢(عن الصفرية الذين خالفوا الازارقة والنجدات فى امور منها «إنهم لم يكفروا القعدة عن القتال ولم يحكموا بقتل اطفال المشركين وتكفيرهم .. وقالوا : التقية جائزة فى القول دون العمل. كما قالوا : الكفر كفران : كفر بالنعمة وكفر بانكار الربوبية..») وقارن البغدادى، الفرق بن الفرق . طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م ص ٧٠ - ٧٣، ابو زهرة، المذاهب الاسلامية ص ١٣٧ وتابع.

(٣٠) انظر الشهرستانى، ص ١٠٠ حيث يعرض آراء ابن اباض ومنها «ان مخالفينا من اهل القبلة كفار غير مشركين. ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال، وما سواه حرام وحرام قتلهم وسبيهم فى السر غيلة .. واجازوا شهادة مخالفيهم على اوليائهم .. واجمعوا على ان من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر النعمة لا كفر الملة .. » وقارن الفرق بين الفرق ، ص ٨٢ - ٨٤ حيث يعرض اهم آرائهم ومنها «ان مخالفيهم براء من الشرك والايمان» كما يسمى فرقهم والعلاقة الفكرية بينهم وبين بعض الفرق مثل المعتزلة والقدرية. ص (٨٤).

الأمر (يعنى مذهب الاباضية) يوما واحدا، من اول النهار الى آخره، فلا أسف على الحياة بعده»[٣١] . ونجح سلامة فى اكتساب أتباع مخلصين، مثل عبد الرحمن بن رستم وابى الخطاب عبد الأعلى بن السمح، الذين اعتنقوا المذهب، ورفعوا راياته عالية فى المغرب من الناحيتين السياسية والمذهبية جميعا كما سنرى.

والذى يفهم من سير الأحداث هو ان المذهب الاباضى كان قد مد جذوره بعيدا فى ارض طرابلس - اولى محطات المغرب - عندما تغلب ابن حبيب على افريقية. فبعد مقتل عبد الله بن مسعود التجيبى سنة ١٢٩ هـ، كما قلنا، «اجتمعت الاباضية بأطرابلس» .. «وكان على الاباضية حين اجتمعت فى سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ - ٧٤٩ م عبد الجبار بن قيس المرادى، ومعه الحارث بن تليد الحضرمى»[٣٢] .

وللتوفيق بين رواية ابن عبد الحكم التى انفردت بالمعلومات المعتمدة عن تلك الثورة الاباضية فى طرابلس، وبين التفصيلات الاضافية التى يقدمها الرقيق، يمكن القول ان عبد الرحمن بن حبيب حاول مصالحة الاباضية فأرسل اليهم احد عماله فى طرابلس، وهو بشر بن حنش القيسى (بالولاء) ، يصحبه بعض مشايخ طرابلس، ولكن البربر ، قتلوهم عن آخرهم[٣٣] . وعندما حاول عبد الرحمن ان يرد على ذلك التحدى الغادر فى التو واللحظة، فخرج من القيروان وقت القيلولة، بمجرد سماعه النبأ على أن يلحق به عساكره، لم يتهيأ له ذلك : إذ لم يكد يصل الى قابس حتى بلغته أخبار مقلقة عن محاولة لخلعة فقرر الرجوع الى القيروان[٣٤] .

---

(٣١) انظر ابو العباس الدرجينى، طبقات الاباضية، المخطوط، ورقة ٦ وقارن الشماخى، السير ، ١٢٣ (حيث آخر الحديث «فما ابالى ان تضرب عنقى) . وانظر فيما بعد قيام الدولة.

(٣٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٤، وقارن ابن خياط، ج ٣ ص ٤١١ (حيث تاريخ الثورة سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٦م وربما كان تاريخ مقتل ابن مسعود، والاسماء : سعد بن مسعود وعبد الجبار بن معن، الشماخى سير علماء جبل نفوسة، ص ١٢٥ ، وانظر الرقيق ،ص ١٢٨) الذى يذكر اسمهما الاول فقط: عبد الجبار، والحارث ولا يشير إلى سبب ثورتهما مكتفيا بالقول : وهما من البربر يدينان بدين الخوارج». وقارن ابن الأثير، سنة ١٢٦ و النويرى ، ص ٨٧ - (حيث النقل من الرقيق).

(٣٣) الرقيق . ص ١٢٨).

(٣٤) الرقيق، ص ١٢٨ - حيث تقول الرواية ان الناس ارادوا عزله ونفيه، وتولية شعيب بن عثمان ابى عبيدة =

وهكذا يظهر ان عبد الرحمن بن حبيب حاول علاج الموقف باستخدام السياسة بدلا من العنف، كما يقول ابن عبد الحكم، فعزل اخاه، وعهد بولاية طرابلس الى حميد بن عبدالله العكى، ولكن الحرب ظلت دائرة مع الاباضية الذين حاصروا حميد بن عبد الله فى بعض القرى. وساءت ظروف حميد عندما وقع الوباء فى عسكره، فاضطر الى مفاوضه الثوار، وتم الاتفاق على ان يخرج من طرابلس ورجاله بالأمان. ورغم الاتفاق فان عبد الجبار بن قيس أخذ أحد كبار اصحاب حميد، وهو نصير بن راشد الأنصارى (بالولاء) الذى كان متهما بالتحريض على قتل ابن مسعود الاباضى فقتله به [٣٥]. وبفضل هذا النصر استشرت الثورة الاباضية، فاستولى عبد الجبار على أرض زناته. وعمل عبد الرحمن بن حبيب على الحد من انتشار الثورة، فبينما كتب الى يزيد بن صفوان المعافرى (هو ابن صفوان بن ابى مالك، واخوه معاوية بن صفوان): الواليين السابقين بولاية طرابلس، حاول استخدام السياسة مع قبائل هوارة حتى لا تنضم الى الثورة، فأرسل اليهم واحدا منهم، وهو مجاهد بن مسلم الهوارى «يسألف الناس، ويقطع عن عبد الجبار هوارة وغيرهم» [٣٦]. ولكن مجاهدا فشل فى مهمته، فبعد اقامة عدة اشهر عند الهواريين طردوه، فسار الى يزيد بن صفوان بطرابلس [٣٧].

وقرر ابن حبيب استخدام العنف فيما لم تنجح فيه السياسة، فسيّر الى طرابس فرقة من خيالته بقيادة محمد بن مفروق، وكتب الى يزيد من صفوان بالمسير معه ضد الثوار. وتم اللقاء بين قوات ابن حبيب وبين عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد بمكان من أرض هوارة، وانتهى بهزيمة منكرة لقوات القيروان، اذ قتل يزيد بن صفوان ، ومحمد بن مفروق، وانهزم مجاهد بن مسلم بفلول الجيش عبر أرض

= الذى أبى . هذا عن التفصيلات الاضافية فى القطعة الجديدة من الرقيق. وما بعد ذلك فمقتضب بشكل مخل إذ تقول الرواية أنه لما أصلح عبد الرحمن ما كان يخشى فساده، واعتدلت له الأمور عاود غزو طرابلس سنة ١٣١هـ.. بعد ان استخلف على القيروان عمر بن نافع، وانه قاتل عبد الجبار والحارث فقتلهما (انظر ص ١٢٨ - ١٢٩) وهذا ما لا يقارن برواية ابن عبد الحكم.

(٣٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤.

(٣٦) ابن عبد الحكم ص ٢٢٤.

(٣٧) نفس المصدر.

هوارة[٣٨] . وحشد عبد الرحمن ابن حبيب جيشا جديدا عهد بقيادته الى عمرو بن عثمان، ولكنه انهزم ايضا امام عبد الجبار والحارث فى أرض زناتة، وبذلك تم للاباضية الاستيلاء على طرابلس كلها [٣٩] . وجرب عمرو بن عثمان القيام بمحاولة جديدة فخرج ومعه مجاهد بن مسلم الى دغوغا[٤٠] ، ولكنه اضطر الى الهرب عبر الصحراء عندما تبعه الحارث بن تليد، ثم انه سار الى سرت حيث ادركته خيل الحارث، وقتلوا بعض اصحابه. ونجا عمرو بنفسه جريحا بعد أن ترك عسكره بين يدى الحارث. وهكذا عظم امر عبد الجبار والحارث، ولا نعرف ماذا كان يمكن ان يكون من أمرهما لولا اختلافهما، ذلك الاختلاف الذى انتهى بالحرب ومقتل كل منهما[٤١] .

واختار اباضية طرابلس اماما جديدا هو اسماعيل بن زياد النفوسى، الذى عظم شأنه وكثر أتباعه، ونجح فى الاستيلاء على مدينة قابس (من ارض افريقية)[٤٢] . وقرر عبد الرحمن بن حبيب الخروج بنفسه للقاء اسماعيل، وعندما وصل الى قابس سيّر ابن عمه شعيب بن عثمان على رأس فرقة من

---

(٣٨) لا يحدد ابن عبد الحكم (ص ٢٢٤) موضع المعركة، اما عن ارض هوارة فهى واسعة تمتد على طول سواحل طرابلس شمالا الى ما وراء جبل نفوسه جنوبا، قارن ابن خلدون الذى يسمى والى طرابلس المقتول بكر ابن عيسى القيسى (العبرج ٦ ص ١١١، الترجمة ج ١ ص ٢١٩).

(٣٩) انظر عبد الحكم ، ص ٢٢٤.

(٤٠) قارن ابن خرداذبة حيث القراءة رغوغا (الراء). وهى على بعد ١٢٧ ميلا غربى سرت و ٨٤ ميلا غربى قصور حسان و ٢٠ ميلا غرب تاورغا (ابن خرداذبة وابن الفقيه .. صفة المغرب أوروبا . المكتبة العربية الفرنسية ، نص عربى وترجمة فرنسية لمحمد حاج - صادق ، طبعة الجزائر، ١٩٤٩، ص ٤ والترجمة ص ٥ والهامش ٤٧ ص ٩١).

(٤١) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٤، وانظر ابن خلدون ، العبرج ٦ ص ١١١، الترجمة ج ١ ص ٢١٩ - نقلا عن الرقيق ، ص ١٢٩ - الذى يقول ان عبد الرحمن بن حبيب قتلهما وانظر الشماخى، سير علماء جبل نفوسه، ص ١٢٥ الذى يقول انهما اختلفا على الولاية فقتل كل واحد منهما صاحبه، وانهما وجدا ميتين فى بيت واحد، وسلاح كل واحد فى صاحبه واذا صحت هذه الرواية يكون الزعيمان الاباضيان قد لجآ الى فض نزاعهما بالتحكيم - تحكيم السيف - ولقد اصبحت المسألة موضوع جدل بين الاباضية فقال البعض يجب بقاء المتنازعين الى ان يفصل بينهما، وقال البعض «نقفه». وقال البعض «يقتلان». اما فقهاء الاباضية فى المشرق فقد نصحوا بالكف عن ذكرهما.

(٤٢) ابن خلدون ، ج ٢ ص ١١١ والترجمة ج ١ ص ٢١٩.

الخيالة نحو الخوارج، فالتقى بهم، وكانت النتيجة فى هذه المرة فى صالح عسكر القيروان، اذ قتل اسماعيل فى هذه المعركة، وانهزم أصحابه، وأخذ منهم كثير من الأسرى[٤٣] . وعندما أتت انباء ذلك النصر الى ابن حبيب سار بجيشه الى سوق طرابلس، ومعه الأسرى، دون ان يلقى مقاومة تذكر. ومن طرابلس كتب الى عمرو بن عثمان المرادى، الذى كان لاجئا بأرض سرت بالحضور اليه.

وانتقم عبد الرحمن بن حبيب من ثوار البربر الاباضية انتقاما هائلا، وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم انه ضرب أعناقهم وصلبهم[٤٤] ، بينما يستفيض الرقيق فى الأمر فينص على انه «امتحن الناس بهم، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا : يؤتى بالأسير من البربر فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله»[٤٥] . ويتضح من النص ان انتقام عبد الرحمن الدموى من خصومه كان سببا فى صدام بينه وبين فقهاء افريقية - الذين كانوا يمارسون نوعا من الرقابة على الأمراء - وانه أمعن فى الثأر حتى أكره المعارضين منهم على انفاذ امر القتل بأيديهم. ولم يسلم من تلك المحنة، وهذا البلاء، الا قاضى افريقية واخباريها : عبد الرحمن بن أنعم[٤٦] ، الذى كان ابن حبيب قد افتداه من اسر الروم[٤٧] وعمل عبد الرحمن على اقرار الامور، واعتنى بتحصين المدينة فجدد بناء سورها، وبذلك آمنت» ، وانتقل الناس اليها من كل مكان »[٤٨] . وعندما اطمأن الى هدوء الأحوال اتخذ عبد الرحمن طريق القيروان بعد ان عهد بولاية طرابلس الى عمر بن سويدة، وامره بغزو العصاة، واعطاء العسكر نصيبهم فى المغانم [٤٩]. ومع ان ابن عبد الحكم لا يحدد لنا تواريخ الاحداث السابقة، بينما يتأرجح المتأخرون من الكتاب ما بين سنتى ١٣١

---

(٤٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩) الذى لا يذكر مقتل اسماعيل بل يتكلم عن مقتل عبد الجبار والحارث على يدى ابن حبيب.

(٤٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤.

(٤٥) الرقيق. ص ١٢٩ وانظر ابن عذارى، ج ١ ص ٦١ .

(٤٦) انظر الرقيق، ص ١٢٩ ، حيث تقول الرواية انه ابى ذلك، وعصمه الله من عبد الرحمن.

(٤٧) انظر فيما سبق، ص ٢٨٧ وهـ ١٠٤ بصرف النظر عن عدم صحة التاريخ).

(٤٨) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٣، وقارن ابن عذارى ، ص ١٢٩ .

(٤٩) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٤ (النص يقول هنا «وأمر ان ينفل ».

هـ / ٤٨ - ٧٤٩ و ١٣٢ هـ / ٤٩ - ٧٥٠ م[٥٠] فان الرقيق يحدد حمل عبد الرحمن بن حبيب على طرابلس بسنة ١٣١ هـ، وبناء سور المدينة بسنة ١٣٢ هـ[٥١]. وهكذا يمكن تفسير ما حدث من اللبس في تحديد التاريخ، ويصبح من الواضح ان تكون الثورة قد استغرقت سنة ١٣١ هـ وبعضا من سنة ١٣٢ هـ، وهي السنة التي جدد فيها سور طرابلس. وبعد ان اطمأن عبد الرحمن على هدوء الأحوال عاد الى القيروان بعد أن عين بكر بن حسين القيسي واليا على المدينة، وذلك في الوقت الذى كان الخليفة الأموى مروان بن محمد قد طلب منه القدوم اليه، كما يفهم من رواية الرقيق[٥٢].

شرعية ولاية عبد الرحمن بن حبيب للمغرب :

علاقته بالأمويين ثم العباسيين :

بذلك يكون ابن حبيب قد تمكن ، بعد أربع سنوات، من القضاء على خصومه، وأكد مركزه كوالي البلاد الشرعي. فهناك روايات تقول انه كتب الى الخليفة مروان بن محمد، وأهدى اليه الهدايا، «وتقول على حنظلة وتنسب إليه أهوالا كذب فيها»، وان مروان اعترف بالأمر الواقع، فكتب اليه بولايته على افريقية والمغرب كله والاندلس[٥٣]. ومن الواضح ان ذلك حدث قبل سنة ١٢٩ هـ / ٤٦ - ٧٤٧ م، وذلك انه في تلك السنة كتب أهل الأندلس الى عبد الرحمن يطلبون منه الموافقة على اختيارهم لقريبه يوسف بن عبد الرحمن الفهرى واليا عليهم. وأجابهم عبد الرحمن بصفته الوالي الشرعي، فأنفذ الى يوسف عهده

---

(٥٠) انظر ابن عذارى، ج ١ ص ٦٣ (حيث يحدد تاريخ بناء سور طرابلس سنة ١٣١ هـ)، الشماخي، السير ص ١٢٥ (حيث يسجل ان ثورة عبد الجبار والحارث استغرقت سنة ١٣١ هـ او سنة ١٣٢ هـ)

(٥١) انظر الرقيق ص ١٣١ - ١٣٢.

(٥٢) الرقيق، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٥٣) انظر الرقيق. ص ١٢٩ ، وقارن ابن عذارى ج ١ ص ٦١ (حيث يظهر النقل من الرقيق ويضمنه الاشارة الى طلب مروان من عبد الرحمن القدوم اليه، وهو الامر الذى حدث فيما بعد سنة ١٣٣ هـ ، عندما كان عبد الرحمن في طرابلس)، وانظر البلاذرى (ص ٢٣٢) الذى يبين ان الفضل في اقرار عبد الرحمن بن حبيب على ثغر افريقية يرجع الى كاتبه خالد بن ربيعة الافريقى الذى كان بينه وبين عبد الحميد بن يحيى (كاتب مروان) مودة ومكاتبة.

بولاية الاندلس[٥٤] . اما عن رواية الرقيق التي تقول ان مروان بن محمد كتب الى عبد الرحمن اثناء وجوده فى طرابلس سنة ١٣٢هـ/٤٩ - ٧٥٠ م يستدعيه الى القدوم عليه[٥٥] ، فهى مقبولة على أساس ان آخر خلفاء دمشق، كان يتوهم - وهو يتعثر فى قتاله للعباسيين - انه قد يمكنه الاستعانة بالفهرى، وان كان متغلبا على افريقية البعيدة. والمهم انه عندما تأكد عبد الرحمن من انتصار العباسيين والبيعة للخليفة ابى العباس المعروف بالسفاح، بادر الاعتراف بخلافته، ووافق ابو العباس من جهته على اقراره فى ولايته[٥٦] . وهذا يعنى ان النفوذ العباسى امتد الى المغرب، ولكن الى بلاد القيروان فقط، ومن الناحية الشكلية فحسب.

فتوحه فى المغرب الأوسط، وفيما وراء البحر :

ومع مرور الوقت كانت أقدام ابن حبيب تزداد رسوخا فى افريقية، فما ان جاءت سنة ١٣٥ هـ حتى كان عبد الرحمن فى موقف يسمح له بتوجيه انظاره الى المغرب الأوسط، ويمد نشاطه الى ما وراء البحر. ففى سنة ١٣٥ هـ/ ٥٢-٧٥٣م قرر ابن حبيب المسير نحو تلمسان، فأناب ابنه حبيبا عنه فى القيروان، وخرج على رأس قواته. ورغم ما يقوله الرقيق من انه غزا تلمسان، حتى انتهى اليها، وظفر بما لم يظفر به أحد قبله. وأتى اليه من سبى افريقية بما لم يؤت بمثله من بلد، ودوخ المغرب كله[٥٧] ، فالظاهر ان عبد الرحمن اكتفى بما أحرزه من انتصارات على قبائل زناتة فى المنطقة، وعاد الى القيروان[٥٨] . فهذا ما يفهم

---

(٥٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٣. ويهتم ابن عذارى بهذا الامر (ص ٦٣) وذلك انه لو صحت ولاية يوسف الفهرى - المتغلب على الاندلس - بعهد من قبل عبد الرحمن بن حبيب الوالى من قبل بنى امية تكون للأمويين دولة متصلة فى الاندلس غير متقطعة الى سنة ٤٢٤ هـ/ ١٠١٣ م. ولا بأس من الاشارة الى ما يورده ابن الاثير، سنة ١٣٩، من انه ربما كان يوسف الفهرى ابنا لعبد الرحمن.

(٥٥) الرقيق، ص ١٢٩- ١٣١.

(٥٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ (لما بلغته بيعة ابى العباس كتب اليه بالسمع والطاعة فأقره). وقارن الرقيق، ص ١٣٣ (حيث يكتفى بالاشارة الى ان عبد الرحمن كتب الى السفاح بسمعه وطاعته، ثم يهتم بأن خبر طاعته وصل الى الخليفة العباسى الاول مع ورود نبأ فتح السند، وان السفاح تشاءم من قدوم خبر فتوح المغرب والمشرق دفعة واحدة، حسبما كان لديه من العلم. وكأن الرواية التى تحدد وفاة السفاح بعد ذلك فى ١٨ من ذى الحجة تريد الربط بين تلك الأحداث فعلا.

(٥٧) انظر الرقيق، ص ١٣٠ ، وقارن ابن خلدون ، العبر، ج ٦ ص ١١١ ، والترجمة ج ١ ص ٢١٩.

(٥٨) ابن عذارى، ج ١ ص ٦١ . ص ٦٥ - ٦٦ .

من رواية ابن خياط التى تنص على أن عبد الرحمن هزم الصقر بن أيوب الفزارى ومن معه من البربر فى منطقة تلمسان، كما لم يطق الزعيم الصفرى سليمان بن ذواق المرعبى الوقوف امامه[٥٩].

اما فيما يتعلق بالغزو البحرى، فقد قام ابن حبيب بغزو صقلية، ورجع بالمغانم والسبى، كما انه قام ايضا بغزو سردانية، وتم الاتفاق بينه وبين أهلها على الصلح نظير دفع الجزية [٦٠].

محاولة الخلافة العباسية استرجاع ولاية المغرب :

وبطبيعة الحال كان عبد الرحمن بن حبيب يقوم بهذه الفتوح لحسابه الخاص. فرغم اعترافه بالخليفة العباسى، فان هذا الاعتراف لم يكن يتجاوز الشكل النظرى الى الحقيقة العملية التى تتمثل فى تقديم الأموال السنوية الى الخليفة واشراكه فيما يحصل عليه من المغانم، حسب ما يقرره القانون، وهذا ما سيظهر دون مداراة او مواربة منذ خلافة المنصور. ففى ذلك الوقت، وحينما كان ابن حبيب يوسع دائرة نشاطه، بدأت الخلافة العباسية - بعد ان شعرت بشئ من الاستقرار - توجه أنظارها نحو الغرب، فى محاولة لادخاله فى حظيرتها. ففى سنة ١٣٦ هـ/ ٥٣ - ٧٥٤ م وجه الخليفة ابو العباس جيشا الى مصر ليخرج بقيادة ابى عون عبد الملك، والى مصر (١٣٣ - ١٣٦ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٣ م). الى المغرب فى شهر جمادى الآخرة / ديسمبر ٧٥٣م. وكانت الخطة ان يسبق القوات العباسية تنظيم حركة دعاية كبيرة يقوم بها اعوان العباسيين من بنى معاوية بن حديج، وبنى موسى بن نصير، لمعرفتهم بالمغرب، ولما لهم فيه من أتباع وانصار. اما عن العملية العسكرية، فتقرر ان تكون مشتركة من القوات البرية والبحرية. وعهد بتنظيم الحملة البحرية الى المثنى بن زياد الخثعمى الذى وصل الى الاسكندرية فى شوال/ابريل من تلك السنة لتجهيز المراكب. ونظرا لوفاة

---

(٥٩) ابن خياط، ج ٢ ص ٤١٧ (ولو ان هذه الاحداث مسجلة فى سنة ١٢٩ هـ).

(٦٠) ابن عذارى ج ١ ص ٦٥. ابن الاثير احداث سنة ١٢٦ (وعن فتوح عبد الرحمن فى صقلية مع والده سنة ١٢٢هـ). انظر فيما سبق، ص ٢٩٤ ص وهـ ١٣٣ (وعن فتوح عبد الرحمن فى صقلية وسردانية ص ٢٥٣ و هـ ٣٧٤) . وانظر فيما بعد الفصل الخاص بصقلية الاغلبية (ج٢ ص ١٩٤).

الخليفة ابو العباس لم يقدر لتلك الحملة ان تتم، اذ رجع الدعاة بعد ان كانوا قد وصلوا الى مدينة سرت، كما عاد ابو عون بالجيش، وكان قد وصل الى برقة. اما عن الأسطول فالظاهر انه لم يكن قد تجهز للخروج بعد(٦١) ، ولا شك في أن الأحوال المضطربة في مركز الخلافة، والتي تمثلت في ثورة عم الخليفة عبد الله بن علي في الشام، كانت لها آثارها على ايقاف حملة المغرب.

القطيعة مع الخلافة العباسية واستقلال عبد الرحمن :

علاقة ابن حبيب باللاجئين من الأمويين :

والذي يهمنا هنا هو ان حملة أبي عون تعني ان العلاقة فترت بين ابي العباس السفاح وبين عبد الرحمن بن حبيب، وذلك قبيل سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٣-٥٢ م. وستسوء تلك العلاقة الى حد القطيعة بعد خلافة المنصور (سنة ١٣٧هـ/ ٥٤ - ٧٥٥م). ومع أنه يفهم من الروايات ان سبب القطيعة هو اكتفاء ابن حبيب باعلان الولاء الشكلي للخليفة العباسي، وامتناعه عن ارسال الأموال السنوية اليه، فقد كانت هناك أسباب أخرى تبعث على شك العباسيين في اخلاص عبد الرحمن منذ البداية، نظن انها التي دفعت أبا العباس السفاح الى تسيير الجيوش من مصر الى المغرب. فبعد انهزام مروان في الشام، ومطاردة العباسيين للأمراء الأمويين، وتقتيلهم بالغدر والخديعة، فر عدد كبير من الناجين منهم نحو المغرب. ومع ان مؤرخي المغرب يفسرون ذلك بأن الأمويين كانوا يسمعون في الرواية ان مستراحهم بالمغرب، فنزع اكثرهم الى افريقية(٦٢)، فالحقيقة انه لم يكن للأمويين، بل وللعرب فيما بعد من ملجأ سوى بلاد المغرب، بعد أن أوصدت أمامهم أبواب المشرق، من حيث أقبل أعداؤهم يطلبون دماءهم.

وهكذا فرّ جزى واسماعيل ابنا زبان بن عبد العزيز بن مروان(٦٣) ، وعبد الملك بن عمر بن مروان الى افريقية، كما لجأ اليها السفياني الثائر وابناء الوليدبن

---

(٦١) انظر الكندي ؛ ص ١٠٢ - ١٠٣ وللمؤلف - تاريخ الاسكندرية الاسلامية الى العصر الفاطمي . في تاريخ الاسكندرية .. طبعة محافظة الاسكندرية سنة ١٩٦٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٦٢) اخبار مجموعة ص ٥٠ .

(٦٣) الكندي، القضاة والولاة، ٩٧.

يزيد العاصى، وموسى وحبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد [٦٤]. واستقبل عبد الرحمن بن حبيب الامراء الامويين استقبالا طيبا، وأنزلهم في كنفه[٦٥]. والظاهر انه عندما فعل ذلك لم يكن مدفوعا بشعور المخلص لأبناء الخلائف الشرعيين او بشعور العطف على ما أصابهم من نكبة بل كان مدفوعاً بمشاعره الانانية. فلقد رأى فيهم عبد الرحمن وسيلة لاعطاء موقفه نوعا من الثبات او الشرعية عن طريق التحالف معهم بالمصاهرة، إذ تزوج عبد الرحمن واخوته من نسائهم[٦٦]. فعندما وصل اسماعيل بن زيان بن عبد العزيز بن مروان الى افريقية استولى عبد الرحمن على ما كان معه من مال، ثم انه غلبه على أخته فتزوجها[٦٧]. كذلك تزوج الياس أخو عبد الرحمن من أميرة أموية،فكان ذلك سببا فى نزول ابنى عمها، ولدى الوليد ابن يزيد (العاصى) وهما القاضى والمؤمن فى كنف عبد الرحمن[٦٨].

اما أشهر الأمراء الأمويين الذين لجأوا الى افريقية فهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل[٦٩]، الذى أحيا الدولة الأموية من جديد فى

---

(٦٤) اخبار مجموعة، ص ٥٠ . لا نعرف ان كان المقصود بالسفيانى الثائر هو «ابو محمد ابن يزيد معاوية» الذى قتل بالحجاز ام غيره (انظر ابن الاثير، سنة ١٣٢ ج ٥ ص ٢٠٦).

(٦٥) اخبار مجموعة، ص ٥٠ .

(٦٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٦١، ابن الاثير، سنة ١٢٦ . وقارن الرقيق، ص ٩٣٠ .

(٦٧) اخبار مجموعة، ص ٥٥ .

(٦٨) انظر ابن عذارى، ج ١ ص ٦١ . الذى يلخص من الرقيق وغيره بفهم ومقدوة». ونشير هنا الى ان ما اخذ به الكعبى. وهو يحقق الرقيق، من ان ابنة عم القاضى والمؤمن: كانت «تحت إلياس بن حبيب» (الرقيق، ص ١٣١ والهامش٢)، بدلا من: كانت «عند الياس بن حبيب»: كما فى ابن عذارى، غير صحيح. ونص الرقيق الذى حققه يؤيد ذلك فى الصفحة التالية (ص ١٣٢)، حيث: وكانت ابنة عمهما عند اليأس. والحقيقة ان رواية الرقيق التى ينقلها النويرى (ص ٨٨ ب والترجمة ج ١ ص ٣٦٨) تحوى معلومات اضافية طريفة تقول ان عبد الرحمن بن حبيب انزل القاضى والمؤمن مع مولى لهما بدار شبية بن حسان وانه كان يتسلل عليهما ليسمع كلامهما. وقارن ابن الاثير، سنة ١٢٦ (حيث القراءة: القاضى وعبد المؤمن، بدلا من: القاضى والمؤمن). وتاريخ خليفة بن خياط، ج ٣ ص ٤٣٦ (حيث القراءة «موسى والعباس، وحيث تحديد قدومهما الى افريقية سنة ١٣٤ هـ)

(٦٩) انظر خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٤٤١، اخبار مجموعة ص ٥٥ .

الاندلس. فقد نجا عبد الرحمن من مذبحة ابى فطرس (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، وفر وبصحبته مولاه بدر وسالم مولى أخته أم الأصبغ، وهو يريد المغرب، فسار عبر فلسطين الى مصر، ومنها الى برقة ثم طرابلس، وأخيرا وصل الى افريقية فنزل بعض الوقت مع غيره من الأمراء الأمويين لدى ابن حبيب.

والذى يفهم من النصوص انه بينما كان ابن حبيب يطمع فى أن يتقوى بأمراء بنى امية، كان هؤلاء يدبرون له أمرا. فابنا الوليد بن يزيد عندما كانا يختليان، كان الواحد منهما يقول للآخر : «أيظن عبد الرحمن أنه يبقى أميراً معنا، ونحن اولاد الخليفة»(٧٠). وعرف عبد الرحمن ما يضمره له الأميران الأمويان، وحاول هذان الفرار، ولكنه ادركهما وقتلهما (٧١). وكاد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) يروح ضحية انتقام الفهرى، لولا ان انذره بعض اصحابه فى الوقت المناسب، فخرج من افريقية مع غيره من بنى عمومته، وسار بعيدا عن سلطان ابن حبيب، الى المغرب الأوسط، . حيث بقى بعض الوقت فى المنطقة التى ستبنى فيها مدينة تاهرت، بعد ذلك بقليل (٧٢). واستمر الأمير المروانى يتجول فى بلاد المغرب لبضع سنوات قبل ان يدخــل الأندلس فى سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥

---

(٧٠) ابن عذارى ج ١ ص ٦١ ، وقارن الرقيق، ص ١٣١ (حيث النص : اغفل عبد الرحمن ايظن انه يتمنى معه ولاية ونحن اولاد الخليفة).

(٧١) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٢، وقارن الرقيق، ص ١٣٢ حيث يعطى تفصيلات عن هرب الاميرين مع مولاهما فى طريق مجانة وكيف اعيدا الى القيروان فى الوقت الذى خرج عبد الرحمن الى تونس، وامر خليفته على القيروان، وهو عمر بن نافع بضرب عنقهما. هذا ويضيف الرقيق ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، رواية يصعب قبولها من الناحية الزمنية، فضلا عن طابعها الاسطورى، تتلخص فى ان مقاتل الامويين على يدى عبد الرحمن كانت على ايام مروان بن محمد - اى قبل سنة ١٣٢ هـ . اما عن الدافع اليها فهو خوفه مما كان يعرفه من انه يقتل على يدى اخوين - مثل القاضى والمؤمن - او مثل اخويه الياس وعبد الوارث، كما كتب اليه مروان. هذا كما تضيف الرواية ان امرأة عبد الرحمن اللخمية، وهى اخت موسى بن على بن رباح قالت له : «لا تقتل احدا فانك لن تقدر ان تقتل من يقتلك»). ومثل هذه الرواية قيلت ايضا بصدد «الاسباب التى دفعت الفهرى الى محاولة التخلص من «الداخل».

(٧٢) انظر دوزى ، ج ١ ، ص ١٩٥ الذى يقول انه نزل لدى الرستميين فى تاهرت، والمعروف ان تاهرت بنيت فيما بعد سنة ١٦١ ، ورغم ذلك فالظاهر ان عبد الرحمن استقر بعض الوقت فى المنطقة التى ستبنى فيها تاهرت . انظر بروفنسال، تاريخ اسبانيا الاسلامية، ص ٦٩.

م. فمن اقليم تاهرت سار الى بلاد قبيلة مكناسة، فى موضع يقال له بارى[٧٣] ، وذلك قبل ان ينتهى به المطاف الى سواحل مدينة سبتة، حيث نزل فى موضع يعرف بسبرة غير بعيد من مدينة نكور، لدى أخواله من قبيلة نفزة[٧٤] .

الوحشة بين المنصور وابن حبيب :

فى تلك الظروف فصم عبد الرحمن بن حبيب ما كان بينه وبين الأمويين بعد ان استشعر خطرهم عليه، واعترف بالعباسيين ولكن هؤلاء الآخرين ماكانوا ليجهلوا طموح ابن حبيب ووصوليته، وماكانوا لينسوا له تحالفه المفصوم مع أعدائهم الامويين .فبمجرد خلافة المنصور سنة ١٣٧ هـ - ورغم توقف العمليات العسكرية التى كان مزمعا القيام بها فى المغرب سنة ١٣٦ هـ - نراه يعمل على ان يثبت ابن حبيب نواياه الحقيقية تجاه الخلافة العباسية.

وكان يكفى ان يرسل ابن حبيب الأموال السنوية الى المنصور لكى يثبت صحة ولائه وطاعته، وهذا ما لم يفعل . فالنصوص تقول انه : «لما صار الأمر الى ابى جعفر المنصور كتب الى عبد الرحمن يدعوه الى الطاعة فأجابه، ودعا له، ووجه اليه بهدية كان فيها بزاة وكلاب. وكتب اليه : ان افريقية اليوم اسلامية كلها، وقد انقطع السبى منها. فغضب ابو جعفر، وكتب اليه يتوعده»[٧٥] . وهذا النص يبين ان عبد الرحمن بن حبيب كان يود ان يكتفى من الطاعة بمظهرها الشكلى. اما عن الأموال فهو يعتذر بأن البلاد اصبحت اسلامية وليس فيها مغانم ولا سبى، مما يكون للخلافة فيه حظ، وكأنه ليس للخلافة حقوق ماليه الا فى دار الحرب.

القطيعة والاستقلال :

وبطبيعة الحال لم يكن المنصور ليرضى بذلك الخضوع النظرى، فدفع

---

(٧٣) اخبار مجموعة ، ص ٥٥ .

(٧٤) نفس المصدر، وانظر ابن الاثير سنة ١٣٩ . وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٤٤١) الذى يجعل وصول عبد الرحمن بن معاوية الى المغرب فى سنة ١٣٦ هـ.

(٧٥) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٧ . وقارن اصل الرواية فى الرقيق، ص ١٣٣ ، وفى النويرى المخطوط ص ٨٨ أ. (وقارن تحقيق أبو ضيف، ص ٢٢١)، وانظر ابن الاثير سنة ١٢٦ هـ

الأموال السنوية الى بيت مال الخلافة هو الرابطة المادية الوحيدة – فى أغلب الأحيان – التى تربط بين امراء الأقاليم والحكومة المركزية، وعلى ذلك حق للمنصور ان يتهدد ابن حبيب ويتوعده، وهنا وجد عبد الرحمن الا جدوى فى استخدام المدارة والحيلة، وأعلن عن موقفه بصراحة، فقطع ما كان بينه وبين المنصور. وأراد ان يعطى موقفه الجرئ – موقف الانفصال عن الخلافة التى تمثل حكومة الاسلام الواحدة، التى ما كان يمكن ان تتجزأ فى ذلك الوقت – نوعا من الشرعية، فجمع الناس للصلاة، وبين لهم أسباب القطيعة، فقال : «انى ظننت ان هذا الخائن (المنصور) يدعو الى الحق ويقوم به، حتى تبين لى خلاف ما بايعته عليه من اقامة العدل، وانى الآن قد خلعته كما خلعت نعلى هذا ، وقذفه من رجله»[٧٦] . وبذلك قطعت الخطبة للخليفة العباسى وهذا ما لم يجرؤ عبد الرحمن الداخل عليه فى الأندلس الا بعد عام، كانت الخطبة خلاله لعدوه المنصور، وتحت الحاح شديد من اقاربه الأمويين [٧٧] . وأتبع عبد الرحمن بن حبيب ذلك بنزع شعار الدولة العباسة. وهو اللون الاسود، لون الثياب الرسمية والرايات، فأمر بتمزيقها واحراقها وهو يقول : «هذا لباس أهل النار فى النار»[٧٨] ، وامر كاتبه خالد بن ربيعة ان يكتب كتابا بخلع المنصور، ويقرأ على المنابر فى سائر بلاد المغرب[٧٩] . حدث ذلك فى أول حكم المنصور اى فى سنة ١٣٧هـ-٧٥٤ م[٨٠] ، اى فى نفس الوقت الذى كان يدخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الاندلس.

---

(٧٦) انظر ابن عذارى : ج ١ ص ٦٧ ، وقارن اصل الرواية فى الرقيق، ص ١٣٣ – ١٣٤ (حيث يوجد بعض الخلاف الخفيف مثل الجائر بدلا من الخائن. ونعلى هذين بدلا من نعلى هذا، وقذفهما وهو على المنبر بدلا من قذفه من رجله) وفى النويرى، ص ٨٨ أ وابن الاثير سنة ١٢٦ هـ .

(٧٧) انظر بروفنسال، تاريخ اسبانيا الاسلامية، بالفرنسية ، ص ٩٤.

(٧٨) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٧ ولكنه مع ان القطعة الاخيرة ترد منسوبة الى الرقيق، فاننا لا نجدها فى القطعة التى نشرها الكعبى. اما عن الخلعة التى احرقت فيسجلها المحقق مع كلمة «سوار» (انظر الرقيق . ص ١٣٤) . والظاهر ان صحة الكلمة، هى «سواد» . كما سجلها ابن الاثير (سنة ١٢٦)، اما رواية ابن القطان التى يذكرها ابن عذارى ايضا، فتقول ان عبد الرحمن بن حبيب كان يظهر الطاعة للمنصور، ويدعو له، الا انه لم يلبس السواد، اما ابن الاثير، سنة ١٢٦ ، فيقول ان المنصور ارسل الى عبد الرحمن، خلعة سوداء اول خلافته فلبسها، وهى أول سواد دخل افريقية».

(٧٩) النويرى، المخطوط ، ص ٨٨ ب ، وقارن الرقيق : ص ١٣٤ .

(٨٠) ابن عذارى (عن عريب بن سعد) ج ١ ص ٦٧.

وهكذا بدأت التصدعات الأولى فى الدولة العربية، بانقطاع المغرب الأقصى عن الخلافة اثر ثورات الصفرية، ثم انفصال الأندلس على يدى عبد الرحمن الداخل، واستقلال ابن حبيب بافريقية. ولم تقف الخلافة مكتوفة الأيدى بل انها ستحاول استعادة المغرب، ولكن سلطانها لن يذهب الى أبعد من افريقية والى ان تستعيد الخلافة هذه البلاد، نجح عبد الرحمن بن حبيب فى تكوين ما يمكن ان يشبّه بأسرة ملكية فى افريقية ولكن هذه الأسرة لن تلبث ان تضيع بعد سنوات قليلة، ما بين أطماع أفرادها فى الامارة، وثورات البربر من صفريه واباضية، وتدابير الخلافة فى سبيل اعادة الوحدة الى الامبراطورية التى زعزعتها الفتنة.

٢ - الصراع بين بنى حبيب : مقتل عبد الرحمن ، وإمارة أخيه إلياس.:

لم يمكث ابن حبيب فى الامارة بعد اعلان استقلاله عن المنصور الا اشهرا اذ المفهوم انه قتل فى اواخر نفس سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٥ م بيدى اخيه وساعده الأيمن الياس بن حبيب. ورغم ما يفهم من ان السبب الرئيسى لمقتل عبدالرحمن كان التنافس بين أخيه الياس وابنه حبيب على شغل منصب الرجل الثانى فى المملكة الناشئة، فإن النصوص تورد فى ثنايا الأحداث اسبابا أخرى، منها ضعف مركز ابن حبيب بعد ان فقد سنده الشرعى بقطع علاقته بالخلافة، ومنها قصة مؤامرة حريم. ونعتقد فعلا ان هذه الأسباب هى التى أودت سريعا - بتضافرها جميعا - بابن حبيب.

كان عبد الرحمن بن حبيب يستخدم إخوته وأبناءه كعمال وقواد يعاونوه فى ادارة أمور البلاد واقرار الأمن فيها. وكان لأخيه الياس مركز خاص، اذ كان قائد قواته و ساعده الأيمن فى مناهضة الخصوم. والظاهر ان الياس كان يرى، بحكم مركزه هذا ، وبحكم السن - بصفته أكبر افراد الأسرة بعد الامير - قبل ذلك، أنه اول المرشحين لولاية العهد. وهذا لم يكن رأى عبد الرحمن الذى كان يرغب فى اقامة حكم ملكى تماما، ينبنى على مبدأ الوراثة من الأب الى الابن، فولى ابنه حبيبا عهده، وعمل على أن يقوى مركزه فى نظر الناس فكان ينسب اليه

الانتصارات العسكرية، وذلك على حساب أخية الياس[٨١] .

وكان من الطبيعي ان يثير انكار الجميل أشياء فى نفس الياس ضد عبد الرحمن، وعرف خصوم عبد الرحمن - من الشخصيين والسياسيين - ذلك فعملوا على اثارة الياس، وزيادة حقده على أخيه. والغريب فى الأمر هو ان شيعة الأمويين وشيعة العباسيين عملوا سويا - دون قصد من غير شك - على القضاء على ابن حبيب. فزوجة الياس، الأميرة الأموية، التى كانت تكن حقدا دفينا لعبد الرحمن لافتآته على ابنى عمها ولدى الوليد بن يزيد وقتلهما، انتهزت الفرصة، وحرضت زوجها الياس على عبد الرحمن، وقالت : قتل أختانك وانت صاحب حربه وصاحب سيفه، وجعل العهد من بعده لحبيب ولده ،فهذا تهاون بك»[٨٢] .ونجحت امرأة الياس فى اثارته حتى قرر الخلاص من عبد الرحمن، وشاور فى ذلك أخاه الآخر عبد الوارث فوافقه. واتسع نطاق المؤامرة بانضمام جماعة من عرب القيروان اليها [٨٣] . وتمّ الاتفاق بين المتآمرين على ان يخلف الياس أخاه عبد الرحمن فى امارة افريقية على ان تعود الدعوة عباسية، فيعلن طاعته للخليفة المنصور[٨٤] . والظاهر ان عبد الرحمن استشعر بما كان يحيكه أخوه الياس فقرر ان يبعده عن العاصمة، كما ينص على ذلك ابن الأثير، فعهد اليه بولاية مدينة تونس[٨٥] .

وكانت فرصة مواتية سهلت تنفيذ المؤامرة. فعندما عهد عبد الرحمن الى

---

(٨١) انظر الرقيق . ص ١٣٤ ، وقارن ابن عذارى، ج ١ ص ٦٧ (النويرى، المخطوط ، ص ٨٩ ، والترجمة. ملحق ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٨) .

(٨٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٦٢ (النويرى، المخطوط ص ٨٨ ب والترجمة فى ملحق ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٨) .

(٨٣) انظر الرقيق ، ص ١٣٥ (حيث يفهم من الرواية ان صهرا لقاضى افريقية واخباريها عبد الرحمن بن زياد بن انعم كان له ضلع ما فى المؤامرة) ، ابن عذارى، ج ١ ص ٦٢ ، ٦٧ . وقارن اصل الرواية فى الرقيق، ص ١٣٤ ، النويرى، المخطوط ، ص ٨٩ أ (جماعة من اهل القيروان والعرب وغيرهم)، وابن الاثير، سنة ١٢٦ الذى يجعل قطع الخطبة العباسية اساس ثورة اليأس.

(٨٤) انظر الرقيق ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى، ج ١ ص ٦٢: النويرى ، ص ٨٩ والترجمة فى ملحق ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٩) .

(٨٥) انظر ابن الاثير، احداث سنة ١٢٦ .

إلياس بولاية تونس ألمت به وعكة او مرض خفيف ألزمه الفراش. ولما كان على الياس قبل الخروج الى ولايته ان يودع أخاه الامير، فانه قرر انتهاز تلك الفرصة لقتله. ودخل الياس وبصحبته أخوه عبد الوارث على عبد الرحمن الذى كان فى غلالة ورداء، وابن صغير له فى حجره. وكان الموقف رهيبا بالنسبة لإلياس، فرغم أنه القائد الذى طالما خاض غمار المعارك وغشى المذابح، فانه تردد طويلا قبل ان يستجيب لتحريض أخيه عبد الوارث الذى كان يغمز له، ليقدم على اغتيال اخيه الاكبر، وعميد الأسرة، صاحب التجارب العديدة والأعمال الجيدة. وأخيرا قام الياس ليودع عبد الرحمن «فأكب عليه ووضع السكين بين كتفيه حتى وصل الى صدره، ثم رد يده على السيف فضربه» [٨٦]. وذهل الياس من هول ما فعل، وكاد ان يفسد الخطة وألا يستفيد من الجريمة، إذ «خرج هاربا دهشا»، لولا ان رده اصحابه ليجز رأس عبد الرحمن، ويعلن النبأ على الملأ، ثم يستولى على دار الامارة [٨٧]. وعندما علم حبيب بن عبد الرحمن - الذى كان يقيم فى دار الامارة - بما فعله عمه بوالده، هرب من القيروان من باب تونس، وسار الى عمه عمران بن حبيب الذى كان يلى تونس [٨٨]. وهكذا بدأت مملكة الفهريين تتصدع فى آخر سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٥ مـ بعد عشر سنوات فقط من اقامتها، بسبب النزاع بين افراد الاسرة والطمع فى الامارة [٨٩].

إلياس بن حبيب والصراع مع حبيب بن عبد الرحمن :

اعلنت اذن امارة الياس الذى أعلن طاعته للمنصور، وبعث بها الى العراق فى معية القاضى عبد الرحمن بن زياد بن أنعم [٩٠]. ولكن الامارة ما كانت

---

(٨٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٨ ، وقارن اصل الرواية فى الرقيق، ص ١٣٥ - ١٣٦ النويرى ص ٨٩ أ والترجمة ج ١ ص ٣٦٩). ونلاحظ هنا ان كلمتى «غلالة ورداء» مكتوبتان فى شكل سغلالة وردية». ولقد ترجمها دسلان بنفس هذا المعنى اى وردية اللون - وقارن ابن الاثير، سنة ١٢٦).

(٨٧) انظر الرقيق. ص ١٣٦، ابن عذارى، ج ١ ص ٦٨ (النويرى ص ٨٩).

(٨٨) انظر الرقيق، ص ١٣٦ (حيث الاشارة الى معاونة عمرو بن عثمان القرشى لحبيب على الهرب من القيروان) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٨ ، النويرى ص ٨٩ والترجمة ج ١ ص ٣٦٩.

(٨٩) هذا ولو ان ابن خياط (ج ٢ ص ٤٤٤) يجعل مقتل عبد الرحمن فى سنة ١٣٨ هـ.

(٩٠) انظر ابن الاثير، سنة ١٢٦ ، وعن ابن انعم انظر فيما سبق. ص ٢٨٧ وهـ ١٠٤.

تخلص له دون موافقة ولى العهد الأصيل، حبيب بن عبد الرحمن الذى كان يحشد موالى والده ومواليه وعبيدهما من كل ناحية تونس(٩١) . وأسرع الياس يحاول القضاء على حبيب قبل ان يتفاقم أمره، وخرج اليه حبيب ومعه عمران، ولكنه بدلا من القتال دارت مفاوضات انتهت الى اتفاقية صلح قصد بها ارضاء جميع الاطراف المتخاصمة من افراد الأسرة. فلقد تم الاتفاق على تقسيم الولاية الافريقية فتكون تونس وما فى أعمالها من صطفورة والجزيرة (جزيرة شريك او باشو) لعمران، وتكون قفصة وما فى اعمالها من بلاد قسطيليه (الجريد) ونفزاوة لحبيب بن عبد الرحمن ، ويكون لالياس إلى جانب الامارة سائر افريقية والمغرب(٩٢) . والظاهر ان الياس عندما قبل ان يشاركه أخوه وابن اخيه فى المملكة، كان يضمر الغدر وعدم تنفيذ الاتفاق. فلقد سار مع أخيه عمران الى مدينة تونس، وهناك قبض عليه وسيره الى الاندلس مع بعض أفراد الاسرة مثل عمر بن ابى عبيدة، والاسود بن موسى بن عبد الرحمن بن عقبة، وعلى بن قطن(٩٣) ، حيث قريبهم يوسف الفهرى، وعهد بولاية تونس الى محمد بن المغيرة قبل ان ينصرف الى القيروان(٩٤) .

وكان طبيعيا ايضا ان يشوب علاقة الياس بولى العهد السابق نوع من العداء الممزوج بالاشفاق والحذر، الذى انتهى بأن تمّ نوع من الاتفاق على خروج حبيب هو الآخر الى الاندلس. ورغم اختلاف النصوص فيما اذا كان هذا الامر تم بتدبير من جانب حبيب نفسه ام من جانب عمّه الياس فلا بأس من توافق ما كان يدبره كل منهما. والمهم انه ما أن ركب حبيب البحر مع عمه عبد الوارث وعدد من مواليه، وما أن سارت المركب بعض الوقت حتى أرسى حبيب فى طبرقه

---

(٩١) ابن عذارى. ج ١ ص ٦٨ (النويرى ، ص ٨٩)

(٩٢) ابن عذارى ج ١ ص ٦٨ ، وقارن الرقيق، ص ١٣٧ ، (النويرى - ص ٨٩ ب والترجمة، ج ١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠) ، ابن الاثير سنة ١٢٦ .

(٩٣) النويرى، ص ٨٩ ب والترجمة ج ١ ص ٣٧٠ . وقارن الرقيق . ص ١٣٧، (حيث اسم عمر بن ابى عبيدة عمرو بن نافع بن ابى عبيدة» بينما لا نجد ذكرا لابن قطن) . وقارن ابن الاثير سنة ١٢٦ . الذى يقول عن الياس انه قتل اخاه عمران ثم بعث بطاعته الى المنصور.

(٩٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٨ (النويرى ، المخطوط ، ص ٨٩ ب). وقارن الرقيق ص ١٣٧ (حيث اسم يوسف الفهرى : «يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة»، ومحمد ابن المغيرة القرشى»).

غير بعيد عن بنزرت[٩٥]. وكتب الى عمه الياس بأنه فعل ذلك مضطرا عندما ثارت بمركبه الريح. وتوجس اليأس خيفة مما يضمره حبيب فكتب الى واليه على طبرقة، وهو سليمان بن زياد الرعيني، يحذره من حبيب، فمنع الوالى نزول «المنفيين» الى البر. وحدث ما كان يتوقعه الياس اذ توافد على طبرقة، أنصار عبد الرحمن بن حبيب من الموالى وغيرهم، وطرقوا سليمان ليلا، «وهو فى معسكره يحارس حبيبا، فأسروه وشدوا وثاقه، وركبوا الى حبيب فأخرجوه الى البر» [٩٦].

وسار حبيب وأنصاره من طبرقة جنوبا نحو الأربس، على يوم من القيروان وتمكن من الاستيلاء عليها. وعندما علم الياس بذلك استخلف على القيروان محمد بن خالد القرشي، وخرج لملاقاته، ووقعت بين الطرفين مناوشات خفيفة توقفت عندما أقبل المساء، وقام حبيب باستخدام حيلة، كانت معروفة في حروب ذلك الوقت، للاستيلاء على العاصمة دون قتال، فأوقد النيران فى معسكره «ليظن الياس انه مقيم، ثم سرى فأصبح بجلولاء، ثم نفذ الى القيروان فاستولى عليها»[٩٧] بعد ان هزم ابن خالد، وكسر باب السجن وأخرج أخاه سلام بن عبد الرحمن، ومن كان معه من «صنائع» أبيه ومواليه [٩٨]. وأسرع إلياس فى اثر حبيب، ولكن الوقت كان يسير فى غير صالحه، فبينما كان أصحابه ينفضّون من حوله، كان حبيب يزداد قوة[٩٩]. وأمام القيروان خرج حبيب فى جمع عظيم

---

٩٥) عن طبرقة أنظر البكرى (ص ٥٨) الذى يجعلها على مسيرة يوم غرب بنزرت.

٩٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ (حيث يقول ان حبيب بن عبد الرحمن هو الذى دبر امر خروجه من الاندلس) وقارن الرقيق، ص ١٣٧ - ١٣٨. والنويرى، ص ٨٩، والترجمة، ج ١ ص ٣٧٠ - حيث الرأى المخالف الذى يقول إن الياس هو الذى زين لحبيب الخروج الى الاندلس). وقارن ابن الاثير. سنة ١٢٦ - الذى لا يذكر تلك التفصيلات.

(٩٧) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٩. ولا بأس من الاشارة هنا الى انه قريب هذا الوقت اراد عبد الرحمن بن معاوية الداخل ان يستخدم مثل هذه الحيلة مع والى الاندلس يوسف الفهرى قريب الياس وحبيب، ولو أن الفهرى تنبه فى آخر لحظة لذلك التدبير (انظر اخبار مجموعة، ص ٨٦، ليفى بروفنسال، تارخ اسبانيا الاسلامية، بالفرنسية، ص ٧٣).

(٩٨) انظر الرقيق، ص ١٣٨.

(٩٩) انظر الرقيق. ص ١٣٨ (حيث يقول ان قائدى الياس اللذين كانا على ميمنته وعلى ميسرته وهما: عمرو بن عثمان الفهرى وابو شريك الجزرى، خذلاه واعتزلا القتال ومضيا عنه).

للقاء الياس، ثم انه أراد ان يفسد الأمر على عمه ويستفيد من شبابه فدعاه الى حقن دماء اصحابهما، فهم مادتهم وأصل قوتهم، وأن يحكما السيف بين شخصيهما فقط، وذلك بالبراز. ووافق عمه على ذلك، وبدأ النزال بين الياس وحبيب، وبذل كل منهما جهده حتى تكسرت قناتاهما، ثم تضاربا بالسيوف، «وعجب الناس من صبرهما»، وانتهى الصراع الرهيب بفوز حبيب الذى تمكن من اسقاط عمه وحز رأسه (١٠٠).

ودخل حبيب القيروان فى موكب نصر غريب، راياته رأس عمه الياس ورؤس أتباعه مرفوعة على الرماح، وفيهم عم أبيه محمد بن ابى عبيدة بن عقبة، ورأس محمد بن المغيرة بن عبد الرحمن القرشى، وغيرهما من وجوه العرب. وعندما جاء محمد بن عمرو بن مصعب القرشى، زوج عمّة أبيه، مهنئا أمر به فقتل هو الآخر(١٠١)، وهكذا خلص الأمر لحبيب بسرعة اذ لم تدم إمارة الياس بن حبيب الا الى ما يقرب من عام. فقد كان مقتله فى رجب من سنة ١٣٨ هـ / ديسمبر ٧٥٥ - يناير ٧٥٦ م(١٠٢).

حبيب بن عبد الرحمن ونهاية اسرة الفهريين بافريقية على ايدى الخوارج:

ثأر حبيب بن عبد الرحمن لمقتل والده، وخلص له الأمر، ولكن استمرار النزاع بين أفراد الأسرة انتهى بها الى الضياع. فبعد مقتل الياس تمكن اخوه وحليفه عبد الوارث من الإفلات بمن بقى معه من المنهزمين من أصحاب إلياس، ولجأ الى قبيلة من بربر الخوارج الصفرية هى ورفجومة، بطن من بطون قبيلة نفزة،

---

(١٠٠) انظر الرقيق، ص ١٣٨ - ١٣٩ (حيث تفصيلات طريفة عن المبارزة وما دار فيها من الكلام والضرب بين العم وابن اخيه). وقارن ابن عذارى، ج ١ ص ٦٩، والنويرى ص ٨٩ ب، ٩٠ أ، الترجمة، ج ١ ص ٣٧١، ابن الاثير، سنة ١٢٦.

(١٠١) انظر الرقيق، ص ١٣٩ (النويرى، ص ٩٠ أ : حيث لقب محمد بن عمرو بن مصعب هو «الفزارى» بن عمرو بن مصعب). وتحقيق أبو ضيف، ص ٢٢٥.

(١٠٢) انظر الرقيق، ص ١٣٩ ثم ص ١٤١ (حيث ينص على ان ولاية الياس كانت ستة اشهر، ابن عذارى، ج ١ ص ٦٩، الذى يقول ان ولاية الياس كانت عاما ونصف عام (وقارن النويرى ص ١٩٠، الترجمة، ج ١ ص ٣٨١ والصفحة التالية، حيث يقول ان ولاية الياس دامت عشرة اشهر فقط).

حيث رحّب بهم زعيمها عاصم بن جميل[١٠٣] ، وكتب حبيب الى عاصم يطلب منه تسليم عمّه عبد الوارث وأصحابه ، وهدّده[١٠٤] . وكان رد عاصم بن جميل هو التحالف مع يزيد بن سجوم (سكوم) أمير قبيلة ولهاصة. وبفضل اعلان الولاء والطاعة الى الخليفة الشرعي ابي جعفر المنصور انضمت كل قبائل نفزاوة الى الحلف، وقررت الخروج لاستخلاص القيروان[١٠٥] . وسار حبيب نحو نفزاوة للقاء عاصم بعد ان استخلف على القيروان القاضي ابا كريب جميل بن كريب المعافرى، ولكن القتال انتهى بانهزام حبيب نحو قابس، والاعتصام بها[١٠٦] .
وزحف عاصم وبصحبته أخوه مكرم نحو قابس ولكنه تركها وراء ظهره وسافر الى القيروان مباشرة[١٠٧] .

وكان لتظاهر البربر بالدعوة الى الخليفة المنصور أثره في انقسام أهل القيروان ، فعندما اقترب عاصم من عاصمة افريقية كتب اليه والى اشياخ ورفجومة بعض أعيان القيروانيين برغبتهم في الدعاء للخليفة ابي جعفر، وهم يظنون ان ذلك

---

(١٠٣) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٩ – ٧٠ (النويرى، ص ٩٠) والترجمة ج ١ ص (٣٧) . وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩، وابن الاثير، سنة ١٢٦ . الذى يقول عن عاصم انه «كان ادعى النبوة والكهانة فبدّل الدين وزاد في الصلاة واسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من الآذان». وانظر الرقيق. ص ١٣٩ – ١٤٠ (حيث النص مبتور فيما بين مقتل الياس، والتجاء عبد الوارث الى ورفجومة).

(١٠٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٠ (النويرى، ص ٩٠ أ) ، وقارن الرقيق، ص ١٤٠ .

(١٠٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١١ (القراءة هنا، ولهامة، بدلا من «ولهاصة»). الترجمة، ج ١ ص ٢١٩، وقارن الرقيق، ص ١٤٠ (حيث تتضح عدم استقامة النص بسبب ما سقط منه).

(١٠٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٠ (قارن النويرى، ص ٩٠ أ ، ٩٠ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٧١)، ابن خلدون، ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩، وعن القاضي ابى كريب انظر المالكى، رقم الترجمة ٧١ ، ج ١ ص ١٠٧ ، وقارن الرقيق، ص ١٤٠ ، ابن خياط، ج ٢ ص ٤٦٤، حيث اسم القاضى «حميد بن حريث المعافرى».

(١٠٧) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٠ (النويرى، ص ٩٠ ب، الترجمة ج ١ ص ٣٧٢) . وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩) الذى يجعل استيلاء عاصم على القيروان عقب هزيمة حبيب مباشرة بمعنى ان اللقاء كان قرب القيروان، والحقيقة ان حبيبا هو الذى خرج الى نفزاوة – كما فهمنا من رواية ابن عذارى والنويرى – وهذا هو السبب في التجائه الى قابس القريبة.

منجاة لهم من انتقام البربر[١٠٨] . وهذا ما يفسر كيف انهزم القيروانيون بمجرد خروج بعض عساكر عاصم اليهم، فتفرقوا ورجعوا الى القيروان، وتركوا قاضيهم «أبا كريب في نحو الف رجل من أهل الدين مستسلمين للموت، فقاتلوا حتى قتل أبو كريب واكثر أصحابه»[١٠٩] . وذلك في موضع عرف فيما بعد «بوادي ابي كريب» في ناحية الحبلى من القيروان، في سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م[١١٠] .

وبذلك دخلت قبيلة ورفجومة وحلفاؤها من نفزاوة القيروان. وينص الكتّاب على ان الصفرية أساءوا السيرة «فاستحلوا المحارم، وارتكبوا الكبائر ونزل عاصم بمصلى روح»[١١١] . ثم ترك عاصم بن جميل القيروان، بعد ان استخلف عليها عبد الملك بن ابي الجعد اليفرني، وسار نحو حبيب ابن عبد الرحمن بقابس. ولم يستطع حبيب الوقوف أمام الصفرية فانهزم الى جبل أوراس عسى ان يعصمه الجبل العتيد من مطاردة عاصم التي لا تعرف الهوادة، وفي أوراس حقق حبيب أول انتصاراته على الصفرية، وتمكن من قتل عاصم وعدد كبير من

---

(١٠٨) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٠، وقارن رواية الرقيق (ص ١٤٠) التي ينقلها النويري (ص ٩٠ ب، الترجمة ج ١ ص ٣٧١ - ٣٧٣) والتي تقول ان بعض اهل القيروان خرجوا من صفوف البربر وخذلوا الناس ودعوا أهل المدينة الى الانضمام الى جانب عاصم.

(١٠٩) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٠ (النويري، ص ٩٠ ب)، وقارن اصل الرواية في الرقيق : حيث كلمة «متبستلين» الى الموت بدلا من مستسلمين - للموت).

(١١٠) انظر المالكي، ج ١ ص ١٧٠، ١١٠، وفي المالكي رواية اخري (ص ١٠٢) تحدد مقتل ابى كريب في سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م ، وهو ما يسجله ايضا ابن خياط (ج ١ ص ٤٦٤) ولكن هذا التاريخ الاخير هو التاريخ الذى قتل فيه حبيب بن عبد الرحمن.

(١١١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٠، وقارن الرقيق ، ص١٤١ (الذى ينقله النويري، ص ٩٠ ب) حيث النص على نزول عاصم بعسكره «في الموضع الذى يسمى مصلى روح» مما قد يعنى انه لم ينزل في موضع مخصص للصلاة وهو الأمر المقبول اذ كان المصلى هو مكان صلاة العيد - خارج المدينة. وعن مصلى العيد انظر فيما بعد، هـ ٩٨ ص ٣٨٠، وعن مصلى روح بن حاتم فانه لم يعرف بهذا الاسم الا بعد ولاية روح في سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م، وكان بازاء باب ابى الربيع من ابواب القيروس - انظر فيما بعد ، ص ٣٩٩. وانظر ابن خلدون، ج ٦ ص ١٦٢ والترجمة ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ . وابن الاثير، سنة ١٢٦.

أصحابه[١١٢] . ورأى حبيب أن يتبع انتصاره هذا بانتزاع القيروان من بين يدى عبد الملك بن ابى الجعد، ولكنه انهزم، وقتل فى المحرم سنة ١٤٠ هـ / مايه - يونيه ٧٥٧ م. بعد ولاية دامت حوالى سنة ونصف سنة [١١٣] . وبذلك انتهت أسرة الفهريين أبناء حبيب بن ابى عبيدة ابن عقبة بن نافع، وخلصت القيروان للصفرية الذين استمروا فى الفساد بعد مقتل زعيمهم عاصم بن جميل، كما يقول الكتاب، «فربطوا دوابهم فى المسجد الجامع، وقتلوا كل من كان من قريش، وعذبوا أهلها، وسامت ورفجومة أهل القيروان سوء العذاب، وندم الذين استدعوهم أشد ندامة » [١١٤] .

---

(١١٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٠ ، وقارن الرقيق، ص ١٤١. (النويرى . ص ٩٠ ب - يسمى عبد الملك «ابن ابى جعدة) . ابن الاثير، نة ١٢٦ .

(١١٣) انظر الرقيق، ص ١٤١ ، ابن عذارى، ج ١ ص ٠ ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩) الذى يقول ان ابن ابى الجعد قتل حبيبا اثناء انهزامه فى جبل اوراس. وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٥) حيث النص على انه بعد قتل عاصم بن جميل دخل افريقية اى القيروان عبد الرحمن بن خالد بن عمران يبن ايوب السهمى، فقتله ابن الابى الجعد الذى تسميه الرواية «مكرر بن جميل بن عبد الملك بن ابى الجعد». وذلك فى سنة ١٤١ هـ .

(١١٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٠ (حيث القراءة : وأساءت ورفجومة لأهل القيروان سوء العذاب») ،قارن اصل الرواية فى الرقيق، ص ١٤١ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١١٢ والترجمة ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

الفصل الثانى

العصر الذهبى للخوارج

المغرب ما بين الصفرية والإباضية

بانتزاع القيروان حقق صفرية نفزاوة سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م ما كان يهدف اليه اخوانهم صفرية طنجة والمغرب الأقصى فى سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠م، كما أن هؤلاء الأخيرين أضافوا الى ذلك نجاحا آخر فى نفس الوقت اذ قاموا بتأسيس مركز صفرى جديد لهم، هو مدينة سجلماسة التى بنوها فى سنة ١٤١ - ١٤٢ هـ[1] . وبذلك انقطع المغرب - لفترة ما - عن الخلافة تماماً، وخلص للخوارج، وكان من الممكن ان تنجح الحركة الخارجية فى المغرب، وتحقق حلمها فى إقامة الحكومة الجمهورية المثالية التى تستمد سلطاتها حقيقة من الشعب الذى يتساوى جميع افراده من المؤمنين فى كل الحقوق والواجبات، والذى يمكن لأى فرد فيه أن يصل الى مركز الإمامة (اى رئاسة الجماعة) دون أية تفرقة عنصرية طالما يتمتع بالأهلية.

كان يمكن أن يتم لهم ذلك لولا انقسامهم على أنفسهم الى فرق متنازعة متناحرة فيما بينها، وتلك كانت آفة الخوارج الذين أضعف من حركاتهم القوية العنيفة حاجتها الى قيادة رشيدة توحدها، وتلم شملها وتجبر شروخها. فكما انقسم الخوارج فى المشرق الى شيعهم العديدة المعروفة، انقسموا أيضا فى المغرب - ولو أن انقسامهم هنا كان الى فرقتين فقط: الصفرية، وأول ظهورهم كان فى المغرب الأقصى، ثم الاباضية، وكان ظهورهم بعد ذلك بقليل فى طرابلس. وظهور الاباضية فى طرابلس هو فى حقيقة الأمر انشقاق فى جماعة الخوارج بالمغرب، وذلك ان الاباضية عدّلوا فى مبادئ المذهب، فمالوا الى الاعتدال

(١) انظر فيما بعد الفصل الخاص ببناء سجلماسة.

والتسامح مما قربهم الى أهل السنة - كما أشرنا (٢).

وعلى ذلك لم يكن من الغريب أن يسخط اباضية طرابلس لما سمعوه من سوء سيرة الصفرية، وما قاموا به من أعمال العنف والتعصب بالقيروان، وأن يأخذوا على عاتقهم استخلاص العاصمة من بني ورفجومة وحلفائها. وهكذا تجمع أباضية طرابلس من قبائل هوارة وزناتة في موضع يقال له صياد غربي طرابلس (٣)، وولوا على انفسهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى (٤) وهو واحد من خمسة من أئمة الاباضية، حملة العلم، الذين ينسب اليهم نشر المذهب في المغرب (٥).

خرج أبو الخطاب بأصحابه الى مدينة طرابلس وطرد منها الوالى عمرو بن عثمان القرشي واستولى عليها (٦). وقوى أبو الخطاب بعد ان استولى على اقليم

(٢) انظر فيما سبق، ص ٣٢٤، وما بعدها.

(٣) انظر الشماخي، سير مشايخ نجبل نفوسة، ص ١٢٥

(٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٧١، وقارن الكندى (ص ١٠٩) ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٢، الترجمة ج ١ ص ٢٢٠ حيث القراءة ابن الشيخ خطأ بدلا من ابن السمح). انظر الشماخي. السير، ص ١٢٧ (حيث يقول ان امرأة استغاثت في القيروان فمد الله في صوتها حتى سمعها ابو الخطاب. اما اصل هذه الرواية في الرقيق (ص ١٤١ - ١٤٢)، وكما ينقلها النويرى (المخطوط، ، ص ٩١) والترجمة ج ١ ص ٣٧٣) فيقول ان رجلا من الاباضية دخل القيروان فلما رأي : ناسا من الورفجوميين قد أخذوا امرأة وكابروها على نفسها، وهو ينظر والناس ينظرون، ترك حاجته التي اتى فيها، وخرج حتى اتى ابا الخطاب عبد الاعلى (العالى) بن السمح المعافرى، فأعلمه الذى رأى. وكذلك ابن الاثير، سنة ١٢٦).

(٥) انظر الشماخي، السير ص ١٢٣ - الذى يذكر رواية عن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم : ان سلمة بن سعيد اول من دعا للمذهب الاباضي في المغرب، حرض تلاميذه الاربعة الاوائل، وهم : عبد الرحمن بن رستم، وعاصم السدراتي، واسماعيل بن درار الغدامسي، وداود القبلي النفزاوى، على الذهاب الى البصرة لأخذ تعاليم المذهب من فقيهه في ذلك الوقت، وهو ابو عبيدة سلم بن ابى كريمة التميمي (مولى بنى تميم). وفي البصرة انضم الى الاربعة ابو الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافرى، ومكث الخمسة عدة سنين بالبصرة يدرسون المذهب خفية من أمراء البصرة في سرب على فمه سلسلة تنذرهم برنينها اذا دخل عليهم أحد. ثم انهم عادوا الى افريقية بعد ان اشار عليهم ابو عبيدة ان يؤمروا عليهم ابا الخطاب فان ابى قتلوه. وانظر الزاوى، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٦) انظر الرقيق، ص ١٤٢، ابن عذارى، ج ١ ص ٧١ (النويرى ، ص ٩١) الترجمة ، ج ١ ص ٣٧٣) وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ١١٢. الترجمة ح ٢ ص ٢٢ - وقارن ايضا الشماخي (السير، ص ١٢٦) الذى يقول ان ابا الخطاب أخذ طرابلس على حين غفلة من أهلها اذ أدخل اليها رجاله في الجواليق على هيئة الرفقه (التجار).

طرابلس كله، فجمع كل قبائل زناتة وهوارة هناك، وسار نحو القيروان، ولا نعرف ان كان الجدب ذلك العام من الاسباب التى أدت الى خروج تلك الجماعات البدوية الفقيرة الى بلاد القيروان، وذلك ان الشماخى يشيد بفعل ابى الخطاب، ويقول أنه خرج رغم ان العام كان عام جدب[٧] . وفى الطريق استولى ابو الخطاب على قابس[٨] قبل ان يتم اللقاء قرب القيروان بينه وبين ابن ابى الجعد. وانتهى القتال بانتصار الاباضية انتصارا هائلا على الصفرية، ومقتل ابن ابى الجعد وكثير من أصحابه، وذلك فى شهر صفر سنة ١٤١ هـ/يونيه - يوليه ٧٥٨ م أى بعد تغلب ورفجومة على القيروان بسنة وشهرين[٩] . ودخل أبو الخطاب القيروان بعد ان ثأر من ورفجومة، وبعد أن اقر الأمور فى المدينة ولى عليها صاحبه عبد الرحمن بن رستم - الذى سيؤسس فيما بعد إمارة الاباضية المشهورة فى تاهرت - وعاد هو الى بلاده طرابلس[١٠] .

موقف الخليفة المنصور من خوارج افريقية :

تخلصت القيروان اذن من الصفرية، ووقعت بين أيدى الاباضية ورغم أن هؤلاء استغلوا فكرة الدعوة لأبى جعفر المنصور لصالحهم ضد ورفجومة وحلفائها ، الا أنهم لم يكونوا مستعدين حقيقة للخضوع للخلافة العباسية. والظاهر ان مشاغل المشرق (من ثورة عبد الله بن على والتخلص من ابى مسلم) استغرقت

---

(٧) الشماخى، السير ، ص ٣٤٦.

(٨) نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٩) ابن عذارى، ج ١ ص ٧١ (انظر النويرى، ص ٩١ أ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٣) وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٥) : حيث اسم ابن ابى الجعد «مكرز بن ابى جميل ابن عبد الملك (انظر فيما سبق، هـ ١١٣ ص ٣٤٩).

(١٠) ابن عذارى، ج ١ ص ٧١ ،النويرى ، ص ٩١ أ (يصف ا بن رستم بالقاضى) والترجمة ج ١ ص ٣٧٣ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١١٢ (عبد الرحمن بن رسين) والترجمة ج ١ ص ٢٢ ، ابن الاثير ، ١٣٦ ، والشماخى، السير، ص ١٣٠ . وعن استقرار عبد الرحمن ابن رستم فى القيروان كنائب لأبى الخطاب وظهوره بمظهر الامير حيث ضرب النقود باسمه فى عاصمة «افريقيا» فيما بين سنة ١٤٢ هـ وسنة ١٤٤ ، انظر حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات، قسم ١ ص ٤٢٥.

كل همّ الخليفة المنصور فلم يردّ بسرعة على عصيان عبد الرحمن ابن حبيب، كما أنه لم يمد اعوان العباسيين فى افريقية، ولم يستجب لاستغاثة فقهاء القيروان وعلمائها - الذين ساروا اليه وعلى رأسهم عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم قاضى افريقية ، ونافع بن عبد الرحمن السلمى، وابو البهلول بن عبيدة، وابو العرباض - من ورفجومة، وما قامت به من الافساد[11] . وعندما استعدّت الخلافة للتدخل فى المغرب فى سنة ١٤٢ هـ ٧٥٩/ - ٧٦٠م كان مركز الخطورة قد انتقل اكثر فأكثر نحو المشرق، فكان عليها ان تواجه ابا الخطاب ومن معه من الاباضية فى طرابلس.

وبدأ التدخل عندما ولى مصر القائد العباسى المشهور محمد بن الأشعث الذى سيّر قواته الموجودة فى برقة بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلى، ولكن العوام لم يستطع الوقوف أمام مالك بن سحران الهوارى الذى بعثه أبو الخطاب فانهزم فى أرض سرت[12] . وسير ابن الاشعث فى سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ - ٧٦٠ م احد قواده، وهو أبو الأحوص بن الاحوص العجلى، على رأس القوات العباسية نحو المغرب من جديد، فخرج أبو الخطاب للقائه، ونجح فى قطع طريقه عند موضع على شاطئ البحر يعرف بمغمداس فى منتصف المسافة بين قصور حسان وسرت[13] . ودارت معركة حامية انتهت بانهزام (المسوّدة) ومقتل كثير منهم، واضطر أبو الأحوص الى العودة الى قواعده فى مصر، بينما انصرف أبو الخطاب مظفرا

---

(١١) المالكى، رياض النفوس ، الترجمة ٦٧، ج ١ ص ١٠٢ ، النويرى، ص ٩١ ب، والترجمة ج ١ ص ٣٧٤، اما عن القاضى عبد الرحمن بن زياد بن أنعم فلقد قام بمهمة مماثلة عندما سار الى المنصور يحمل طاعة الياس بن حبيب (ابن الاثير، سنة ١٢٦) ، وانظر فيما سبق، ص ٣٤٠ و هـ ٩٠.

(١٢) الشماخى، السير ، ص ١٣٠

(١٣) البكرى، ص ٧، الشمخى، ص ١٣٠. وانظر ابن عذارى (ج ١ ص ٧١) الذى يسمى الموضع مقداس. وقارن الكندى حيث فضل المحقق قراءة ابن عذارى «بمقداس» على «بمغمداس» رغم ان الموجود فى الاصل هو بمعيداس وهى اقرب الى بمغمداس (الكندى، ص ١٠٩ وهامش ٤). ومع ان الجغرافيين يذكرون مقداس فان الزاوى يظن ان المقصود هو مقداس غرب تاورغه وهو قصر قديم بين سوفجين وزمزم على طريق سرت، الفتح العربى فى ليبيا، ص ١٢٣ - ١٢٤، وانظر فيما سبق ص ١٠٠ وهامش ١٣٤ (حيث خلط البعض بين مغمداس وغدامس).

غانما الى طرابلس [١٤].

ولاية محمد بن الأشعث

ووصلت انباء الهزيمة الى المنصور فكان رد فعله سريعا اذ عهد بافريقية الى ابن الأشعث وأرسل اليه الجيوش، وأمره بالمسير بسرعة. وجمع محمد ابن الأشعث قواته وعسكر بها فى الجيزة فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ١٤٢ هـ/اواخر مارس ٧٦٠م. وبعد اداء صلاة عيد الاضحى سار على رأس الجيش عابراً النيل فى الطريق الى الاسكندرية. بعد ان استخلف على الفسطاط محمد بن معاوية بن بجير بن ريسان [١٥]. وخرج ابن الأشعث فى ٤٠ (اربعين) الف رجل منهم ٣٠ (ثلاثون) الفا من جند خراسان، و ١٠ (عشرة) آلاف من جند الشام عليهم ٢٨ (ثمانية وعشرون) قائدا منهم الأغلب بن سالم التميمى والمحارب بن هلال الفارسى، والمخارق بن غفار الطائى يلونه فى القيادة [١٦]. والظاهر انه تريث فى الطريق، وأخذ يستقصى اخبار أبى الخطاب الذى استعد بدوره فطلب المعونة من ابن رستم بالقيروان وحشد حشودا عظيمة يقول ابن عذارى انها بلغت ٢٠٠ (مائتى) ألف رجل، وذلك أن اللقاء بينه وبين الاباضية لم يتم الا فى أوائل سنة ١٤٤ هـ / ابريل - مايه ٧٦١ م [١٧].

ومن حسن حظ ابن الأشعث ان الوئام لم يستمر طويلا بين الاباضية، اذ لم تلبث الحزازات العصبية أن قسمتهم، فلقد قام النزاع بين زناتة وهوارة، واتهم

(١٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٢ الكندى ص ١٠٩. ابن الاثير، س ١٢٦.

(١٥) الكندى، ص ١٠٩.

(١٦) النويرى، المخطوط ص ٩١ ب والترجمة، ج ١ ص ٣٧٤. توفى المحارب قبل وصول ابن الاشعث الى افريقية، وقارن ابن الاثير، سنة ١٢٦هـ (سار فى ٥٠ ألفا). اما عن الرقيق الذى ينقل منه النويرى، فروايته مخرومة فى هذا الموضع (انظر ص ١٤٢)، وقارن ابن الابار، الحلة السيراء، ج ١ ص ١٩ (حيث عدد القواد ١٢٨ قائدا، اما عن عدد اهل الشام فهو ١٠ آلاف او الفان فقط).

(١٧) ابن عذارى ج، ١ ص ٧١، ٧٢ (النويرى، ص ٩١ ب، الترجمة ج ١ ص ٣٧٤)، وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٥): حيث يجعل مقتل ابى الخطاب فى سنة ١٤٣ هـ. ويصف الشماخى (السير، ص ١٣١) أصحاب أبى الخطاب فيقول ان جواسيس ابن الأشعث قالوا له عن ابى الخطاب ورجاله «رأينا رهبانا بالليل، اسودا بالنهار، يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب..».

وانظر ابن الاثير، سنة ١٢٦.

الزناتية أبا الخطاب بأنه يحابي أبناء عصبيته الهواريين، وفارقه عدد كبير منهم(١٨) . وعندما وصلت هذه الأنباء المشجعة الى محمد بن الأشعث أسرع يطوى المراحل سرا نحو أبي الخطاب الذى فوجئ به فى حيز طرابلس (عند سرت). وتم اللقاء بينهما فى ارض سرت فى موضع بتاورغة يعرف عند النويرى ، الذى ينقل عن الرقيق، بورداسة حيث سبق ابن الأشعث، حسب الرواية الاباضية، الى الماء(١٩) . وبعد معركة دامية ثبت فيها عسكر الخلافة انهزم البربر، وقتل أبو الخطاب وعدد غفير من أصحابه، وتناثر عقد المنهزمين الذين تتبعتهم قوات الخلافة الى قابس(٢٠) .

وظن ابن الاشعث ان ثورة الاباضية قد انتهت بمقتل ابى الخطاب. ولكن الأمر تطلب موقعة ثانية – تماما كما حدث لحنظلة بن صفوان فى وقعتى الأصنام والقرن – اذ لم تلبث زنانة ان قامت عليه فى ١٦ (ستة عشر) الف رجل عليهم ابو هريرة الزناتى، فهزمهم ابن الأشعث فى ربيع الاول من نفس السنة

---

(١٨) ابن عذارى، ج ١ ص ٧١ – ٧٢ (النويرى ، ص ٩٢ أ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٥) ابن خلدون ، ج٦ ص ١١٢ (يلاحظ اضطراب النص هنا) والترجمة ج١ ص ٢٢٠ وانظر الشماخى (السير، ص ١٣٠) الذى يرجع مسير قوات المنصور الى افريقية بسبب الخلاف بين الاباضية. فهو يقول ان احدهم، وهو جميل السدراتى – الذى ادبه ابو الخطاب فى القيروان عند حرب ورفجومة بسبب خروجه على نظام الجماعة الذى لا يسمح بالنهب والسلب (ص ١٢٩) – خرج الى المنصور، وحرضه على ارسال الجيوش معه الى القيروان، هذا ولو انه يفسر انصراف اصحاب ابى الخطاب تفسيرا آخر فيقول (تفرق اصحاب ابى الخطاب لأن الوقت كان وقت زرع».

(١٩) انظر النويرى، المخطوط ص ٩٢ (الذى يقول ان ابن الاشعث ضبط افواه السكك حتى انقطع خبره عن ابى الخطاب الذى رجع عندئذ الى طرابلس، الشماخى، سير مشايخ جبل نفوسه ، ص ١٣٢ .

(٢٠) ابن عذارى، ج ١ ص ٧١ ، ٧٢ وقارن النويرى ص ٩٢ أ والترجمة ج ١ ص ٣٧٥ الذى يرجع هزيمة البربر الى خدعة قام بها ابن الاشعث اذ اذاع انه سيعود الى مصر حسب طلب الخليفة، ورجع فعلا بضعة اميال ثم فاجأ ابا الخطاب فى ورداسة. قارن الرقيق ص ١٤٢ ، حيث القراءة «ودراسة». هذا كما تبالغ رواية النويرى (الرقيق) فتقول ان عدد القتلى من رجال ابى الخطاب بلغ ٤٠ (أربعين) الف رجل. بينما يحددهم الشماخى (السير ص ١٣٢) بما يتراوح ما بين ١٢ ألفا (اثنى عشر) الفا و ١٤ (اربعة عشر) الفا.

(١٤٤ هـ / يونيه - يوليه ٧٦١ م[٢١]).

وبعث ابن الاشعث بأنباء النصر مع رأس أبي الخطاب الى الخليفة[٢٢] ثم دخل مدينة طرابلس، وعهد بولايتها الى المخارق بن غفار الطائى[٢٣]. وعندما وصلت أنباء الكارثة التى حلت بالاباضية الى القيروان تركها نائب أبى الخطاب وهو عبد الرحمن بن رستم، وسار نحو المغرب الى حيث سيبنى مدينة تاهرت الجديدة التى أصبحت عاصمة الاباضية فى المغرب الأوسط الى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب فى نهاية القرن الثالث الهجرى (٩ م)[٢٤]. وبعد فرار ابن رستم اخذ أهل القيروان عامله لديهم، وأوثقوه فى الحديد، واختاروا عمرو بن عثمان القرشى واليا عليهم الى أن وصل ابن الاشعث ودخل القيروان فى جمادى الاول سنة ١٤٤ / اغسطس ٧٦١ م[٢٥] وبذلك استعادت الخلافة بلاد افريقية، ولكن الى القيروان فقط، ومع بقاء المذهب الخارجى متغلغلا بين قبائل البربر من طرابلس الى تامسنا (بلاد برغواطة) فى المغرب الأقصى شمالا، ومن صحراوات فزان الى صحراوات سجلماسة جنوبا، بمعنى أن بلاد القيروان اصبحت أشبه ما تكون بجزيرة وسط بحر من الأعداء السياسيين والمذهبيين. ولقد عرف ابن الأشعث ذلك. ورأى ان اول ما ينبغى عمله هو تحصين العاصمة حتى تتمكن من مواجهة خصومها المحيطين بها. فبدأ ببناء سور القيروان فى شهر ذى القعدة من

---

(٢١) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٢ (قارن النويرى، ص ٩٢ أ الترجمة ج ١ ص ٣٧٥ الذى يجعل ذلك تاريخا لمقتل ابى الخطاب كما فعل البكرى، ص ٦٨)، ابن الاثير، سنة ١٢٦.

(٢٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٢ - حيث يقول انه وجه برأس ابى الخطاب الى بغداد، والمقصود الى المنصور فبغداد لم يبدأ بناؤها الا فى السنة التالية (١٤٥ هـ).

(٢٣) النويرى ، ص ٩٢ ب والترجمة ج ١ ص ٣٧٦. وقارن تحقيق أبو ضيف، ص ٢٢٩.

(٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٣ (النويرى ، ص ٩٩٢ - االقراءة «سهرت» بدلا من «تيهرت»، وقارن ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٤، والترجمة ج ١ ص ٢٢٠، البكرى، ص ٦٨ ، وقارن الشماخى (السير، ص ١٣٢-١٣٣) حيث تقول الرواية الاباضية - على عكس ذلك - دون ذكر السند - ان عبد الرحمن بن رستم كان فى المعركة مع ابى الخطاب، وانه دخل القيروان مستخفيا حيث قبض عليه عبد الرحمن بن حبيب ولكن احد القيروانيين شفع له فأطلقه. والظاهر ان الرواية المنقبية تريد ان تعطى لترجمة ابن رستم، بصفته احد حملة العلم، لونا قصصيا فيه مسحة من كرامات الاولياء.

(٢٥) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٢ (النويرى، المخطوط ، ص ٩٢ أ - عمر بن عثمان القرضى).

سنة ١٤٤ هـ / فبراير ٧٦٢ م، واستغرق البناء كل سنة ١٤٥ هـ / ٦٢ - ٧٦٣ م، وتم في رجب من سنة ١٤٦ هـ / سبتمبر - اكتوبر ٧٦٣ م [٢٦]، اى في نفس الوقت الذى كان الخليفة المنصور مشغولا ببناء بغداد.

ولقد ساعد ابن الأشعث على انجاز عمله العمرانى هذا أن سنة ١٤٥ هـ كانت سنة خصب، كما مكنه ذلك من القضاء على بقايا المخالفين من الخوارج.

ففى نفس السنة أرسل حملة بقيادة اسماعيل بن عكرمة الخزاعى الى زويلة وودان، ونجحت الحملة فى الاستيلاء على المدينتين. وقضت على الاباضية بهما، وقتلت زعيمهم بزويلة، وهو عبد الله بن حيّان الاباضى [٢٧]. ونجح ابن الأشعث فى اخضاع كل خصومه من البربر فى حدود ولايته حتى قال ابن عذارى فى أخبار سنة ١٤٥ هـ. «وسكن ابن الأشعث احوال اهل افريقية فى هذه السنة، فلم تكن بها حركة له» ، وذلك رغم اشارته الى «حركة» زويلة وودان [٢٨]. وهكذا لا نجد أحداثا هامة من تلك التى اعتدناها منذ مدة - فى السنتين التاليتين والى أن ينهار محمد ابن الأشعث فجأة فى سنة ١٤٨ هـ.

اضطراب العسكر الخلافى :

انهيار ابن الأشعث، وولاية الأغلب بن سالم التميمى :

وكان انهيار ابن الأشعث نتيجة لآفة جديدة بدأت تدب فى افريقية، فهو لم يسقط نتيجة لثورات البربر والخوارج بل بسبب عدم انتظام الجند الخراسانى. ففى سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥م ثار عليه أحد قواد الجند المضرى، واسمه عيسى بن موسى بن عجلان مع عدد من رؤساء الجند، وحاصروه مدة فى القيروان، وأرغموه على الخروج واعتزال الولاية وتركها لعيسى بن موسى الخراسانى فى ربيع الأول/ مايه [٢٩]. واستمر تغلب عيسى على القيروان لمدة ٣ (ثلاثة) اشهر «من غير عهد

(٢٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٢ - ٧٣ ، النويرى، ص ٩١ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٧٦ الذى يحدد الامر ببناء السور فى اول شهر جمادى الاول / اغسطس ٧٦٢ م.

(٢٧) ابن عذارى ج ١ ص ٧٣ ، وقارن النويرى، ص ٩٢ ب ، الترجمة ١ ص ٣٧٦، وابن الاثير (سنة ١٢٦) الذى يسميه عبد الله بن سنان.

(٢٨) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٣.

(٢٩) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٣ - ٧٤، وانظر ابن خياط، ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٥، والشماخى الذى يورد رواية الرقيق، ص ١٣٥) ولو انه خلط قبل ذلك ما بين ابن الاشعث وعمر بن حفص.

من المنصور، ولا رضى منه، ولا تراضى من العامة»، فكانت فرصة لغيره من العرب والجند للتغلب على بعض أطراف من البلاد (٣٠). والظاهر أن أنباء عصيان العسكر خرجت من القيروان قبل خروج ابن الأشعث وان الخليفة المنصور قرر حسم الأمر بتولية أحد قواد جيش افريقية (٣١)، وتوسم في الأغلب بن سالم التميمي والى طبنة (الزاب) – الذى سينجح بنوه في إقامة أسرة مالكة في البلاد فيما بعد – الكفاءة والمقدرة على ضبط الأمور، فبعث اليه بعهده في آخر شهر جمادى الآخرة من نفس السنة/ اغسطس ٧٦٥ م. وبعد ذلك وصلت الأغلب تعليمات الخليفة «يأمره بالعدل في الرعية، وحسن السيرة في الجند، وتحصين مدينة القيروان وخندقها، وترتيب حراسها ومن يترك فيها اذا رحل الى عدوه، وغير ذلك من أمور» (٣٢). ونجح الأغلب في السيطرة على العسكر، وملك ناصية الأمور فاستقامت له، حتى انه لم يكن في السنة التالية (٧٦٦/١٤٩) «حركة»(٣٣).

بداية أبو قرة المغيلى الصفرى :

ولم يقدر للأغلب ان يمكث في ولاية القيروان الا سنة وثمانية أشهر فقط انتهت بمقتله أثناء صراعه ضد الجند الخلافى الخارج على النظام والطاعة، ونتيجة لاضطراب الخوارج .ففى سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ثارت الخوارج الصفرية من قبيلة بنى يفرن، احدى قبائل زناتة، ومعها بربر قبيلة مغيلة وذلك في المغرب الأوسط بقيادة أبى قرة اليفرنى الذى جعلوه إماما واتجهوا نحو القيروان(٣٤). واستعد

(٣٠) ابن عذارى ج ١ ص ٧٣، وقارن النويرى (ص ٩٢ ب ، الترجمة، ج ١ ص ٣٣٧) الذى يقول انه لم يبايع عيسى سوى رؤساء المضرية بمعنى ان العسكر الخراسانى كان مضريا عربيا من مضر. وهنا يشير الى ان ابن الاثير سنة ١٢٦). يسبق ثورة عيسى هذه بثورة قام بها سنة ١٤٧ هـ احد الجند واسمه هاشم بن الشاحج بقمونية وشاركه فيها قواد المضرية. ولقد انهزم هاشم إلى تاهرت ثم عاد بالبربر إلى تهودة ومنها سار إل طرابلس حيث قتله نائب المنصور.

(٣١) أنظر النويرى، (ص ٩٢ ب، الترجمة ج ١ ص ٣٧٦) الذى يقول أن سبب الثورة هو سماع الجند بان ابن الاشعث استدعاه المنصور فرفض المسير إليه، والترجمة ج١ ، ص ٧٤، وقارن النويرى، ص ٩٢ب، الترجمة ج١ ص ٣٧٧، وابن خلدون، ج ٦ ص ١١٢ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢١ . وابن الأثير، سنة ١٤٨.

(٣٢) ابن عذارى، ج١ ص ٧٤.

(٣٣) ابن عذارى، ج ١ ص ٧٤.

(٣٤) نفس المصدر، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٢ ، الترجمة ج ١ ، ص ٢٢٢) الذى يجمع ذلك في =

الأغلب لحرب الصفرية وخرج من القيروان فى معظم قواته وقواده، بعد ان ترك أحدهم وهو سالم بن سوادة التميمى نائبا عنه واتخذ طريق الزاب (٣٥). وعندما اقترب الأغلب من موضع أبى قرة هرب هذا الأخير وتفرق أصحابه، مما جعل الأغلب يقرر الذهاب إلى عقر دار قبائل زناته ومهاجمتها فى قاعدتها تلمسان، وكذلك فى طنجة. وهنا ظهر عدم انتظام الجيش من جديد اذ كره الجند المسير معه، وأخذوا يتسللون عنه إلى القيروان، حتى لم يبق معه منهم الا عدد قليل (٣٦).

ثورة الحسن بن حرب الكندى ومقتل الأغلب (١٥٠هـ/ ٧٦٧م):

والظاهر أن الأمر كان مدبرا من قبل بمعرفة والى تونس، الحسن بن حرب الكندى، وأنه تمت اتصالات بين هذا الأخير وبين القواد اذ لحق به عدد كبير منهم، مثل: بسطام بن الهذيل، والفضل بن محمد، وانتهز المتآمرون خلو القيروان من العسكر فساروا اليها وغلبوا سالم بن سواده على أمره، وأخذه الحسن بن حرب ووضعه فى الحبس (٣٧). وعندما بلغ الأغلب الخبر رجع سريعا بمن بقى معه من الجند، وكتب إلى الحسن يرغبه فى الطاعة ويرهبه من العصيان، فكان رد الحسن عليه هو الاختيار بين قبول الأمر أو تحكيم السيف (٣٨).

سنة = ١٤٨ هـ / ٧٦٥م ، وفى ذلك خلط بين ثورة الجند على ابن الأشعث وثورتهم على الأغلب، ابن الأثير، سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، وفى ذلك خلط بين ثورة الجند على ابن الأشعث وثورتهم على الأغلب، ابن الأثير، سنة ١٤٨، أنظر الحلة السيراء، ج١ ص ٦٩ (حيث يصف أبا قُرّة بالبربرى).

(٣٥) ابن عذارى، ج١ ص ٧٤ ، النويرى، ص ٩٣آ، الترجمة ج١ ص ٣٣٧)، (وقارن تحقيق أبو ضيف، ص ٢٣٠).

(٣٦) نف المصدر لسابق، وقارن ابن خلدون (ح١ ص ٣٧٧). ٢٢١) الذى يسمى الأغلب بابن سود (سواده) والحقيقة ان سوادة هو نائب الأغلب فى القيروان.

(٣٧) اسن عذارى، ج١ ص ٤٧ (النويرى، ص ٩٣أ، الترجمة ج١ ص ٣٧٧).

(٣٨) انظر ابن عذارى، ج١ ص ٧٤ (النويرى، ص ٩٣أ ، الترجمة ج١ ص ٣٧٧) حيث يذكر أن الحسن ذيل رده بأبيات يقول فيها:

ألا قولوا لأغلب غير سر ... مغلغلة عن الحسن بن حرب
بأن البغى مرتعه وخيم ... عليك وقربه لك شر قرب
فان لم تنثنى لتنال سلمى ... وعفوى فادن من طعنى وضربى

وهناك اختلاف فى نص البيتين الأول والثالث كما ورد فى ابن عذارى وفى النويرى. ففى النويرى يبدأ البين الأول بـ «ألا قولا» بدلا ن «ألا قولوا». وفى ابن عذارى «غير سوء» بدلا من «غيرسر». أما عن البيت الثالث فهو فى النويرى «وان لم تذعن لينال سلمى وإلا فادن من طعنى وضربى»، وقارن (تحقيق أبو ضيف، ص ٢٣١) والحلة السيراء ج١ ص ٧٠ (حيث اختلاف كبير فى البيتين الأولين).

ويفهم من روايتى صاحب كتاب العيون والحدائق وابن عذارى أن الأغلب انهزم أمام الحسن فى ربيع الأول/ ابريل واضطر إلى الالتجاء إلى قابس ثم طرابلس، وأنه كتب إلى الخليفة يستشيره فى الأمر[٣٩]. ولما ورد اليه كتاب المنصور وليس فيه أمر بعزله أو باستعمال غيره بل فيه دعوة إلى الحسن بن حرب بالطاعه، ولما رفض الحسن ان يستجيب لنداء الخليفة سار إليه الأغلب فى شهر رجب أى بعد أربعة أشهر من سيطرته على افريقة، وأرغمه على الانسحاب إلى تونس، عمله الأول، ودخل الأغلب القيروان، واستمر الحسن فى عصيانه وحشد جموعا كبيرة سار بها إلى القيروان من جديد. وخرج الأغلب إليه وقد حشد كل ما أمكنه حشده حتى أهل بيته وخاصته. وانتهى القتال المرير دون نتيجة حاسمة، اذ فر الحسن بينما أصيب الأغلب بسهم طائش ومات متأثرا بجراحه فى شعبان من تلك السنة (١٥٠هـ)/ سبتمبر ٧٦٧م[٤٠]، بعد أن استخلف على افريقية المخارق بن غفار الطائى الذى تمت له بيعة أهل القيروان فى الشهر التالى (رمضان/ أكتوبر). وقرر المخارق الذى اعترف المنصور بولايته[٤١] الثأر لموت

---

(٣٩) العيون والخدائق، ج٣ ط. ليدن ١٨٧١، ص٣٦١ ، ٢٦٢، ابن عذارى، ح١ ص ٧٤ – ٧٥.

(٤٠) ابن عذارى، ج١ ص ٧٤ – ٧٥، وقارن النويرى (٩٣ ب، الترجمة ج١ ص ٣٧٨) الذى يعطى تفصيلات عن سير المعركة وكيف انكسرت ميمنة الحسن، وكيف توغل الأغلب ف القلب وهو يضرب أعداءه إلى أن أصيب بسهم، ابن الأثير، سنة ١٤٨هـ. وقارن الحلة السيراء، ج١ ص٧٠ (حيث الإشارة إلى خروج الأغلب من «باب أصرم» من أبواب القيروان، وحيث الإشارة إلى تفصيلات القتال التى يذكرها النويرى، والتى ينقلها ابن الرقيق، كما نظن، من: حمل الأغلب على ميمنة الحسن ثم على الميسرة والقلب، وهو ينشد أشعار الحماسة، كما هو الحال فى قصص الاخباريين القديم. وفى موت الأغلب الذى عرف بالشهيد والذى خلده الشعراء في مراثيهم، تقول الرواية أنه عندما بلغ المنصور موته، قال: ان سيفى بالمغرب قدانقطع، فان دفع الله بريح دولتنا والا فلا مغرب» ومن الواضح أن هذه المقالة وتلك المراثى كانت من أعمال الكتاب والشعراء الذين خدموا الأسرة الأغلبية فيما بعد). وقارن العيون والحدائق (ج٣ ص ٢٦٢) حيث وفاة الأغلب فى شهر رمضان.

(٤١) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٤٦٥، العيون والحدائق، ج ٣ ص ٢٦٢.

الأغلب فأرسل قوة من فرسان القيروان إلى تونس، فهرب الحسن بن حرب إلى بلاد كتامة (شرق الجزائر الحالية) حيث أقام شهرين ثم انه عاد إلى تونس ليلقى حتفه على أيدى رجال حاميتها[٤٢]، بموضع يعرف بسوق الأحد، كما يقول البلاذرى[٤٣].

(٤٢) ابن عذارى، ج ١، ص ٧٧، وقارن النويرى (الذى يذكر موت الحسن بعد اصابة الأغلب - أنظر الهامش قبل السابق). وابن خلدون، ج ٦ ص ١١٢ والترجمة، ج ١ ص ٢٢١ (وأنظر هامش ١ من الترجمة ص ٣٧٩) الذى يذكر الروايتين. وأنظر ابن الأثير سنة ١٤٨ (الذى يقول أن الأغلب سمى الشهيد وهو ما ينص عليه البلاذى، ص ٢٣٣). والحلة السيراء. ترجمة الحسن الكندى، ج ١ ص ٧٢ (حيث الاشارة إلى هزيمة الحسن إلى تونس حيث اتبع وقتل فى آخر شعبان).

(٤٣) فتوح البلدان، ص ٣٣٦.

الفصل الثالث

المهلبيون في إفريقية

عمر بن حفص بن قبيصة واستمرار الصراع ضد الخوارج:

عندما علم المنصور بمقتل الأغلب بن سالم فى افريقية اختار رجلا فى مستوى الأحداث الخطيرة فى المغرب، هو أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة (المهلبى)، من أسرة المهلب بن أبى صفرة التى اشتهرت بحروبها ضد خوارج المشرق من الأزارقة. عرف عمر بن حفص بأنه بطل شجاع حتى لقب بهزارمرد (أى ألف رجل بالفارسية)[١]. وعلى ذلك سيره المنصور إلى المغرب على رأس ٥٠٠ فارس. والظاهر أن ما عرف به عمر بن حفص من الشجاعة والحكمة إلى جانب اسم اسرته اللامع كان كافيا لأن يفرض نفسه على الجميع، اذ دخل القيروان فى صفر سنة ١٥١هـ/ مارس ٧٦٨ وتسلم الامارة من المخارق دون حدث، واستقامت له الأمور أكثر من ثلاث سنوات إلى أن اضطرب الخوارج من جديد[٢].

الثورة الخارجية تعم افريقية والمغرب:

وبدأت أولى شرارات الاضطراب فى بلاد الزاب، وخرج عمر إلى هناك لاقرار الأمور بعد أن استخلف على القيروان قريبه حبيب بن حبيب بن يزيد ابن المهلب، فكان خروجه نذيرا باشتعال الثورة الخارجية فى جميع المغرب، وكأن افريقية أصبحت منطقة ضغط منخفض - كما يقول الجغرافيون - فانجذبت اليها رياح الفتنة من كل مكان. ففى المغرب الأوسط قامت زناتة فى منطقة تلمسان وعلى رأسها أبو قرة الصفرى (المغيلى اليفرنى) فى ٤٠ (أربعين) ألف رجل[٣]، وفى منطقة تاهرت قامت لماية ولواته وبطون من نفزاوة وعلى رأسهم عبد الرحمن بن رستم الأباضى فى ١٥ (خمسة عشر) ألف رجل[٤]. واذا كان هؤلاء بعيدين عن

---

(١) ابن الأثير أحداث سنة ١٥١ (انما نسب لبيت المهلب لشهرته)، النويرى، ص ١٩٤أ والترجمة، ج١ ص ٣٧٩، ابن خلدون، ج٦ ص ١١٢ والترجمة ج١ ص ٢٢١.

(٢) ابن عذارى، ج١ ص ٧٥، ٧٧، ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١، ج٥ ص ٢٨٣.

(٣) ابن عذارى، ج١ ص ٧٥.

(٤) نفس المصدر، ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١، ج٥ ص ٢٨٣، وانظر ابن خلدون (ج٦ ص ١١٢، الترجمة، ج١ ص ٢٢٠) الذى يقول ان ابن رستم كان فى ٦ (ستة) آلاف فقط.

سلطان والى افريقية وليس من الغريب أن يثوروا، فان غيرهم من بربر الأقاليم الخاضعة للقيروان شاركوا فى الثورة العارمة، كما حدث فى طرابلس حيث قام الأباضية بأكبر الثورات بزعامة أبى حاتم (أو أبى قادم) يعقوب بن حبيب بن مدين بن يطوفت[٥]، الذى آلت اليه الإمامة فى تلك السنة بعد أبى الخطاب[٦].
وإلى جانب هؤلاء قام أيضا عاصم السدراتى الاباضى، «أحد النفر الخمسة من حملة العلم»[٧]، فى بلاد القيروان فى حوالى ٦ (ستة) آلاف رجل، كما قام المسور بن هانئ الزناتى فى ١٠ (عشرة) آلاف من الاباضية، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجى الصفرى فى ألفين، وجرير بن مسعود فى أصحابه من قبيلة مديونة، سوى جماعات أخرى أهمل الرقيق ذكرها[٨].

والمراجع التى بين أيدينا لا تبين ترتيب الأحداث بل تجملها إجمالا، وللكتاب العذر فى ذلك، فأحداث مثل تلك الفترة لابد وأن تكون متشابكة متداخلة بشكل يجعل من الصعب تنظيم مفرداتها. والمفهوم أنه بعد خروج عمر بن حفص إلى الزاب بدأت ثورة الخوارج فى افريقية. ونظن أن عاصما السدراتى - الذى سمّه أهل القيروان فى قثاء فيما بعد ، كما يقول الاباضية [٩]- كان من أوائل رافعى راية العصيان، وكذلك عبد الملك بن سكرديد الصنهاجى، اذ كانت صنهاجة تثور فى ذلك الوقت فى منطقة باجة[١٠]. وخرج نائب عمر، وهو

---

(٥) أنظر ابن خلدون (ج٦ ص ١١٢، الترجمة ج١ ص ٢٢٠) الذى يجعله من قبيلة مغيلة، بينما يجعله ابن الأثير (سنة ١٥١)، والنويرى (ص ٩٤أ والترجمة ج١ ص ٣٧٩) مولى كندة، كما يسميه الشماخى (١٣٣) أيضا بأبى حاتم الملزوزى النجيسى.

(٦) هناك تفصيلات طريفة فى كتب الاباضية عن طريقة الدعاية وكيفية اجتماع الاباضية، لاختيار إمام لهم، اذ تقول الرواية: «لما أنس المسلمون (يقصد الاباضية دون غيرهم) من أنفسهم قوة فى حيز طرابلس، اجتمعوا فأظهروا أن اجتماعهم فى شأن امرأة صالحة اسمها مسلمة أساء اليها زوجها. فلما اتفقوا رأيهم، وحضر كل من ينظر إليه، عقدوا الولاية لأبى حاتم عام ١٥٤هـ (انظر سير مشايخ جبل نفوسه، ص ١٣٤)، وقارن ابن عذارى الذى يجعل ثورة أبى حاتم فى طرابلس فى سنة ١٥٣هـ (ج١ ص ٧٧)

(٧) أنظر الشماخى، ص ١٢٨، وأنظر فيما سبق، ص ٣٤٨ وهامش ٥.

(٨) ابن عذارى، ج١ ص ٢٢١ - ٢٢٢، أما قطعة الرقيق، فهى مخرومة فى هذا الموضع أنظر، ص ١٤٢).

(٩) أنظر الشماخى، ص ١٢٨.

(١٠) أنظر ابن خلدون، ج٦ ص ١١١، الترجمة ج١ ص ٢١٩ (يقول ابن خلدون هنا أن الذى اشترك فى ثورة باجة اسمه عبد الله بن سكرديد، وربما كان أخا لعبد الملك ابن سكرديد ان لم يكن هو نفسه بسبب امكان الخلط بين اسم عبد الله واسم عبد الملك لتشابههما كتابة).

حبيب بن حبيب بن يزيد المهلبى، والتقى بالثوار ولكنه انهزم وقتل[١١]. أما عن خوارج طرابلس بقيادة أبي حاتم فانهم حقّقوا انتصارين كبيرين على قوات والى طرابلس الجنيد بن سيار الأزدى[١٢]. فقد سير اليهم الوالى فرقة من الخيالة بقيادة خازم بن سليمان انهزمت وعادت إلى طرابلس، ثم انهم هزموا الجنيد نفسه عندما سار اليهم ومعه نجدة من ٤٠٠ (أربعمائة) فارس أتته من عمر بن حفص بقيادة خالد ابن يزيد المهلبى، فانهزم الاثنان ولجآ إلى مدينة قابس. وعندما علم عمر بن حفص بذلك سيّر جيشا على رأسه سليمان بن عباد المهلبى لنجدة الجنيد وخالد، ولكن سليمان لم يكن بأسعد حظا منهما اذ انهزم قرب قابس أمام أبى حاتم واضطر إلى العودة سريعا نحو القيروان يتبعه أبو حاتم[١٣].

جهود مستميتة من جانب عمر بن حفص في مواجهة الثوار:

وإثر تلك الانتصارات المبدئية اندفع الخوارج من كل فج وحدب يبغون القيروان، حتى اجتمع منهم أثنا عشر عسكرا[١٤]. ورغم أن ذلك كان فرصة نادرة لكى يوحّد الخوارج جهودهم وليضموا صفوفهم، فالظاهر أنهم لم يفكروا فى ذلك، بل وربما كان عدم اتفاقهم هو السبب فى أنهم - بدلا من أن يأخذوا القيروان - قرروا المسير إلى الزاب للتخلص أولا من عدوهم المشترك عمر بن حفص. هذا ولو أنه من المقبول أيضا أن يكون مسيرهم إلى الزاب لاستنقاذ اخوانهم هناك من انتقام عمر بن حفص. وهكذا اجتمع الصفرية والاباضية فى أكثر من خمسين ألفا حول طبنة - عاصمة الزاب - حيث اعتصم عمر بن حفص، ومعه حوالى خمسة عشر ألف رجل[١٥].

واستشار عمر بن حفص قواده فى كيفية مواجهة أعدائهم، فأشاروا عليه بالبقاء فى طبنه حفاظا على حياته فى تلك الفترة الحرجة، وإخراج بعضهم لمناواة

(١١) أنظر ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١، وقارن النويرى، ص ٩٤أ، والترجمة ج١ ص ٣٧٩.

(١٢) النويرى، ص ٩٤أ والترجمة ج١ ص ٣٧٩ (حيث الاسم الجنيدبن بشار الأزدى)، وقارن ابن الأثير بأحداث سنة ١٥١ (حيث الاسم: الجنيد بن بشار الأسادى: الأسدى؟؛).

(١٣) أنظر النويرى، ص ٩٤أ - ٩٤ب، الترجمة، ج١ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ (وتحقيق أبو ضيف، ص ٢٣٣).

(١٤) ابن عذارى، ج١ ص ٧٥، ابن الأثير، سنة ١٥١، النويرى، ص ٩٤ب. الترجمة ج١ ص ٣٧٩، وقارن ابن خلدون ج٦ ص ١١٢، الترجمة ج١ ص ٢٢٢ (يقول الكتاب أن هذه الجيوش اجتمعت عند طبنه لحصار ابن حفص).

(١٥) ابن عذارى، ج١ ص ٧٥.

العدو اذا أراد. ولاشك فى أنه كان مضطرا لتحصين طبنة فى ذلك الوقت الدقيق، رغم ما يقوله بعض الكتاب من أنه خرج من القيروان «إلى الزاب لبناء مدينة طبنة بأمر المنصور»(١٦). وهناك قرر عمر استخدام الحيلة فى تفرقة أعدائه، ورأى أن يشترى انسحاب بعضهم بالمال، ووقع اختياره على أبى قرة لأن أصحابه كانوا أكثرهم عددا وأشدهم خطرا، فبعث اليه بأربعين ألف درهم وكسى كثيرة مع رجل من قبيلة مكناسة اسمه اسماعيل بن يعقوب(١٧). وكان من الطبيعى أن يرفض إمام الصفرية تلك الرشوة السافرة، ولكن المكناسى سار إلى أخى أبى قرة أو إلى ابنه الذى استهواه بريق الذهب وجمال الخلع، فدبّر الأمر دون علم أبى قرة الذى أصبح ليجد معظم أهل العسكر قد انصرفوا عنه، «فلم يجد بدًا من اتباعهم»، وانصرف هو الآخر(١٨).

أبو حاتم الاباضى يستولى على افريقية ويحاصر القيروان:

وبعد انصراف الصفرية من بنى يفرن تشجع ابن حفص ووجه ١٥٠٠ (ألفا وخمسمائه) من رجاله بقيادة معمر بن عيسى السعدى نحو تهودة حيث التقت باباضية عبد الرحمن بن رستم الذى انهزم إلى تاهرت (تيهرت) بعد أن ترك فى أرض المعركة حوالى ٣٠٠ (ثلاثمائة) من رجاله(١٩). وهنا رأى أبو حاتم أن يسير إلى القيروان ليحصرها ويضيق الخناق عليها(٢٠). ولما لم يبق من الخصوم سوى

(١٦) أنظر ابن لاأثير. أحداث ١٥١. وابن خلدون ج٦ ص ١١٥ - حيث يقول أنه لما احتفظ عمر بن حفص بمدينة طبنة سنة ١٥١ هـ أنزل ورفجومة بها الذين كانوا شيعا له فى ذلك الوقت وعظم غناؤهم فيها وقت الحصار.

(١٧) ابن عذارى، ج١ ص ٧٦، وقارن النويرى، ص ٩٤ ب والترجمة ج١ ص ٣٨٠ وقارن ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١ (٦٠ ألف درهم).

(١٨) ابن عذارى، ج١ ص ٧٦، ٧٧ وقارن النويرى، ص ٩٤ب، الترجمة ج١ ص ٣٨٠. وقارن ابن الأثير. أحداث سنة ١٥١هـ، ابن خلدون. ج٦ ص ١٠٣، الترجمة ج١ ص ٢٢٢ - حيث يقول النص أن أبى قرة أو أخاه نال مكافأة قدرها ٤ آلاف درهم وبعض الخلع، ولا بأس أن تكون هذه الرواية منقولة عن الرقيق (ص ١٤٣) حيث نجد النص فعلا على أن المبلغ المقدم هو ٤ (أربعة) آلاف درهم فقط، إن لم يكن ذلك من تحريف النساخ.

(١٩) أنظر الرقيق. ص ١٤٣ (حيث لقب معمر هو العبدى وليس السعدى). النويرى. ص ٩٥أ، ابن عذارى، ج١ ص ٧٦ (حيث تحدد الرواية عدد قتلى تهودة بشئ من المبالغة بثلاثة آلاف رجل).

(٢٠) ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١ ج٥ ص ٢٨٤. وأنظر الرقيق (ص ١٤٣ - ١٤٤) حيث الإشارة إلى =

=

أبى حاتم بن حبيب مع اباضية طرابلس قرر عمر بن حفص المسير اليهم بعد أن ترك فى طبنة المهنا بن المخارق بن غفار الطائى الذى تعرض لحصار أبى قرة الصفرى من جديد، ولكنه نجح فى هزيمته واستباح عسكره(٢١). وعندما ترك أبو حاتم مواقعه فى الأربس وخرج نحو عمر، سار ابن حفص إلى قرب تونس يتبعه أبو حاتم إلى سمنجه. ومن هناك سار عمر إلى موضع عرف باسم بير السلامة حيث التقى بأخيه لأمه جميل بن صخر ثم دخل القيروان واعتصم بها، واستعد لحصار طويل الأمد، فجمع بها الكثير من الطعام والحطب وآلات الحرب(٢٢). وجرّب ابن حفص حرب أبى حاتم عندما أقبل نحو القيروان، ولكنه انهزم واكتفى بالاعتصام بالمدينة والتحصن قبالة باب أبى الربيع حيث كان قد اتخذ خندقا(٢٣).

ومع مرور الوقت كانت جموع الثوار تزداد كثرة بمن ينضم اليهم من الطامعين فى نهب القيروان حتى قيل: «أن عدة من حاصروا القيروان مائة ألف

شدة حصر القيروان لمدة ثمانية أشهر حتى لم يبق فى بيت مالها درهم ولا فى أهرائها شئ من الطعام، حتى أكل الناس الدواب. والكلاب. ولو أننا نظن أن هذا الوصف ينطبق على حالتها بعد عودة عمر اليها. وقارن ابن خلدون (ج٦ ص ١١٢) الذى يفهم من روايته أن أبا حاتم كان يحاصر طبنه وان عمر خالفه إلى القيروان.

(٢١) ابن عذارى، ج١ ص ٧٨، ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١، النويرى، ص ٩٥أ والترجمة ج١ ص ٣٨١، وقارن الرقيق، ص ١٤٣ (حيث اسم محفان» بدلا من «غفار» وحيث الاشارة إلى مفاوضات بين المهنا وبين أبى قرة من أجل انسحاب هذا الأخير. ولكنها فشلت لطمع الصفرية فى أخذ ما كان فى حوزة المحاصرين غنيمة).

(٢٢) نظر النويرى، ص ٩٥ - ٩٥ب، الترجمة ج١ ص ٣٨١. وقارن ابن الأثير أحداث سنة ١٥١ (حميد بن صخر بدلا من جميل بن صخر)، وقارن الرقيق(ص ١٤٤) الذى يظن أنه أصل رواية النويرى حيث توجد تفصيلات اضافية عن مسيرة عمر فى ٧٠٠ (سبعمائه) فارس بعد ما علمه من سوء حال القيروان فى الحصر. ونزوله فى الأريس مما دعا البربر إلى ترك حصار القيروان ومتابعته إلى تونس وسمنجة، واذا كانت مراحل المطاردة اتجاه الرائعة مقبولة. فان الرواية عن شدة حصر القيروان ترد هنا متقدمة عن موضعها الطبيعى بعد التجاء عمر إليها.

(٢٣) النويرى، ص ٩٥ب،، وقارن أصل الرواية فى الرقيق، ص ١٤٤ (حيث توجد معلومات تفصيلية عن الحرب، مثل: وصول أبى حاتم إلى بحيرة المسروقين، وانكشاف عمر إلى القنطاط قبل انحيازه إلى خندقه بباب أبى الربيع).

وثلاثون ألفا[٢٤] . وطال الحصار إلى ما يقرب من العام[٢٥] حتى نفذت المؤن من المدينة، واشتد الغلاء والضيق بالمحاصرين «فأكلوا دوابهم وكلابهم وسنانيرهم وماتوا جوعا، وانتهى الملح عندهم أوقية بدرهم»[٢٦] . وازاء اضطراب الأحوال ساءت أخلاق عمر بن حفص، كما ساءت أخلاق العسكر الذى أخذ يشك فى نواياه[٢٧] . ثم أتته من زوجته خليدة بنت المعارك أنباء مسير الجيش الذى بعثته الخلافة بقيادة يزيد بن حاتم المهلبى فعزّ على «الألف رجل، (هزارمرد) أن يقال: «يزيد أخرجه من الحصار»، حتى ولو كان يزيد هذا ابن عصبيته بل قريبه وابن عمه، وقرر عمر الخروج للقاء أعدائه وهو يقول لكاتبه خراش بن عجلان: «انما

---

(٢٤) ابن عذارى، ج١ ص ٧٦، ٧٧، وقارن النويرى، ص ٩٥ب، والترجمة ج١ ص ٣٨٢، والرقيق (ص ١٤٤) حيث توجد معلومات تفصيلية عن انزال أبى حاتم عساكره قرب باب أبى الربيع، وبين باب سالم وباب أصرم، وبين باب نافع وباب عبد الله - مع الإشارة إلى مشاركة رئيس الجند العربى عمرو بن عثمان الفهرى فى ذلك العسكر الأخير، مما أخذ عليه فيما بعد. ومما يلاحظ أن رواية الرقيق بعد أن تحدد عسكر الثوار بـ ١٣٠ ألفا (ص ١٤٤) تعود فتبالغ فى عدتهم حيث قومتهن بـ ٣٥٠ (ثلاثمائة وخمسين) ألفا، منهم ٨٥ (خمسة وثمانون) ألف فارس، وقارن ابن خلدون (ج٦ ص ١١٣، والترجمة ج١ ص ٢٢٣) الذى ينمى عندما يسجل تلك الرواية الأخيرة نقلا عن الطبرى (أحداث سنة ١٥٣)، وابن عذارى (ج١ ص ٧٧) قواعد النقد التى أصر عليها فى المقدمة، وخاصة ما يتعلق منها بالمبالغات فى أعداد الجيوش وتقويم الثروات، فيقول أن جيش الاباضية الذى حاصر القيروان بلغ ٣٥٠ ألف رجل منهم ٣٥ ألف فارس، كما فى الرقيق تقريبا.

(٢٥) أنظر ابن الأثير (أحداث سنة ١٥١)، والنويرى (ص ٩٦أ، الترجمة ج١ ص ٣٨١) اللذين ينقلان من الرقيق (ص ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥)، حيث تحدد الرواية فترة الحصار بثمانية أشهر وتجعلها قبل عودة عمر ابن حفص من الزاب إلى القيروان. أما عن مدة حصر عمر فى القيروان فلا تجعل لها تحديدا مما دعانا إلى ترجيح أن تكون أخبار مجاعة القيروان فى الحصار أثناء وجود ابن حفص وليس قبلها (أنظر فيما سبق، ص ٣٤١) رغم مايشير إليه الرقيق، (ص ١٤٥) منسوبا إلى عمر بن حفص من أن حالة القيروان تحسنت بعد مجيئه اليها من الزاب عما كانت عليه أثناء وجوده فى طبنه. وقارن الشماخى، ص ١٣٥ (حيث النص على أن مدة الحصار سنة).

(٢٦) أنظر الرقيق. ص ١٤٥، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ٧٦، وقارن النويرى ص ٩٥ب.

(٢٧) أنظر تفصيلات ذلك فى الرقيق، ص ١٤٥ - حيث تردد رجال عمر أكثر من مرة فى قبول ما عرضه عليهم ابن حفص من خروجه هو أو خروج أحد نائبيه: جميل بن صخر أو المخارق ابن تمغار للاغارة على قرى ثوار البربر وذراريهم من أجل الحصول على الميرة اذ «قالوا: تخرج أنت ونقيم نحن، لا تفعل، مما أثار غضب عمر الذى قال لهم: «والله لأوردنكم ونفسى حياض الموت».

هى رقدة، وأبعث إلى الحساب». «وخرج، فعجل يطعن ويضرب حتى قتل»[٢٨]، وذلك فى منتصف شهر ذى الحجة سنة ١٥٤هـ/ نوفمبر سنة ٧٧١م[٢٩].

استسلام القيروان:

ولم تسقط القيروان بعد مقتل عمر بن حفص اذ بايع العسكر أخاه لأمه جميل بن صخر[٣٠]، ولكنه أمام الضيق وشدة الحصر اضطر إلى عقد صلح مقبول مع أبى حاتم. وكان من شروط الصلح أن يخرج العسكر من القيروان دون أن يخلعوا المنصور، وأن يحتفظوا بسلاحهم، وكذلك بشعار الدولة الممثل فى الرايات والملابس السوداء[٣١]. وهكذا خرج معظم العسكر إلى طبنة[٣٢]. ودخل أبو حاتم القيروان وانتقم من المدينة التى أتعبته فى الحصار فأحرق أبوابها وثلم سورها - حتى لا نعود حسب تفكيره إلى مثل ذلك -كما انتقم من أهلها فأخرج أكثرهم، أثر عسكرهم، إلى الزاب[٣٣]. وبذلك ثأر الاباضية لمقتل أبى الخطاب، وحققوا حلم إمامهم الأول سلمة بن سعيد - الذى كان يود أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا فما يبالى أن تضرب عنقه [٣٤]- فسادوا

---

(٢٨) ابن عذارى، ج١ ص ٧٦، النويرى، ص ٩٦أ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١، وقارن أصل الرواية فى الرقيق (ص ١٤٥ - ١٤٦): حيث ترد تفصيلات عن النقاش بين عمر وكاتبه (خداش) بن عجلان فى هذا الشأن، ومنها اشارة إلى أنه قد يحقق أمنيته فى الوصول إلى ولاية خراسان بدل افريقية بعد الخروج من الحصر، وكان رد عمر على ذلك: تتحدث نسوة العتيك أن يزيدا أخرجنى من الحصار، إنما هى رقدة حتى أبعث إلى الحساب. ارجع إلى أهلك واحفظ وصيتى». وقارن ابن خلدون، ج٦ ص ١١٣، الترجمة ج١ ص ٢٢٣.

(٢٩) ابن عذارى، ج١ ص ٧٦، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١، النويرى، ص ٩٦أ، وقارن الرقيق ص ١٤٦ (حيث التاريخ منتصف ذى القعدة/ أكتوبر).

(٣٠) النويرى، ص ٩٦أ - ٩٦ب، الترجمة ج١ ص ٢٨٣، ابن خياط، ج٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٥، الرقيق ص ١٤٦ (جنيل بن حجر)، ابن الأثير، أحداث ستة ١٥١ ج٥ ص ٢٨٤ (حميد بن صخر)، وقارن ابن عذارى ج١ ص ٧٦ (جميل بن حفص).

(٣١) أنظر الرقيق ص ١٤٦ - ١٤٧ (حيث الإشارة إلى دخول عمرو بن عثمان الفهرى - إلى جانب الثوار - فى الصلح وتعهده بالوفاء وبالشرط)، وقارن ابن الأثير أحداث سنة ١٥١، ج٥ ص ٣٨٤، ابن عذارى، ج١ ص ٧٦، النويرى، ص ٩٦ب، الترجمة ج١ ص ٣٨٣.

(٣٢) الرقيق، ص ١٤٧، ابن الأثير أحداث سنة ١٥١، النويرى، ص ٩٦ى، الترجمة ج١ ص ٣٨٣.

(٣٣) ابن عذارى، ج١ ص ٧٦ - ٧٧.

(٣٤) أنظر فيما سبق ص ٣٢٥ وهامش ٣١.

القــيروان من جديد، وأصبحت لهم اليد العليا فى كل افريقية(٣٥).

يزيد بن حاتم ونهاية أبى حاتم الاباضى:

لم تكن شدة الثورة وعنفها لتجعل الخليفة المنصور يتخلى عن ولايته المتطرفة غربا اذ أنه - على العكس من ذلك - تشبث بها، وعرف كيف يخمد الثورة بالحديد والنار، ويغرقها فى الدم. فقد اختار لافريقية رجلا آخر من المقربين اليه من نفس الأسرة المهلبية التى عرفت بعدائها للخوارج، هو يزيد ابن حاتم (بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة) الذى كان له من الشجاعة والجود وبعد الصيت ما يفوق عمر بن حفص. كان يزيد واليا على مصر فسيره المنصور إلى المغرب فى جيش كثيف بلغت عدته ٦٠ (ستين) ألف رجل، نصفهم ٣٠ (ثلاثين ألفا) من جند خراسان، والبقية من جند العراق والبصرة والكوفة والشام. وشيّع المنصور الجيوش التى سيّرها إلى مصر فى أواخر سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م، كما يظن، حتى بيت المقدس حيث صلى تضرعا. ولكنها لم تصل إلى المغرب الا فى مطلع سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م بعد مقتل عمر بن حفص(٣٦).

وعندما وصلت أنباء مسير يزيد بن حاتم إلى أبى حاتم الاباضى استعد للقائه رغم ما كان قد أصابه من الضعف والوهن بانقسام أتباعه. فعندما خرج أبو حاتم نحو طرابلس لقطع الطريق على جيش الخلافة، عهد بالقيروان إلى أحد كبار أصحابه وهو عبد العزيز بن السمح المعافرى (أخو أبى الخطاب)، فثار بهذا الأخير حليف أبى حاتم السابق وهو عمرو بن عثمان الفهرى، الذى أخذته العزة لعروبته - بعد مانزل بعمر بن حفص وجنوده مانزل على أيدى الثوار من البربر، ونجح فى

---

(٣٥) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ص ٤٦٥ (حيث يقول: وصارت افريقية فى يد أبى حاتم).

(٣٦) أنظر الرقيق (ص ١٥٩): حيث النص على ٣٠ ألفا من خراسان و ٦٠ ألفا من أهل البصرة والكوفة والشام (وقارن الرواية فى النويرى، ص ٩٧، والترجمة ج١ ص ٣٨٤) مما يعنى أن عدة الجيش جميعا كانت ٩٠ (تسعين) ألفاً والحقيقة أن الرقيق نص قبل ذلك (ص ١٤٥) على قدوم يزيد من حاتم على افريقية فى ٦٠ (ستين) ألفا، وهذا ما نص عليه صاحب العيون والحدائق، ج٣ ص ٢٦٣، وهو ما أخذ به ابن عذارى (ج١ ص ٧٨، ٧٩). ولذلك رجحنا أن يكون العدد الكلى ٦٠ ألفا منهم ٣٠ ألفا من الخراسانية وهو الأمر الذى يسترعى الانتباه فعلا، وقارن ابن الأثير (سنة ١٥١) الذى جعل وصول يزيد سنة ١٥٤ رغم أنه يحدد وفاة عمر بن حفص بمنتصف ذى الحجه سنة ١٥٤هـ. وعن يزيد أنظر ابن خلكان، طبعة محيى الدين، ج٥ ص ٣٦٥، وأنظر الشماخى. السير ص ١٣٦.

لم شمل عسكر القيروان السابق وطرد المعافرى من المدينة وقتل أصحابه[٣٧].

واضطر أبو حاتم إلى الرجوع إلى القيروان، وقاتل أهلها ودخلها بعد أن غادرها عمرو بن عثمان إلى تونس[٣٨]، بينما سار جميل بن صخر والجنيد بن سيار نحو المشرق[٣٩]. وتبع أبو حاتم خصمه عمرو بن عثمان، وسير مقدمته وعلى رأسها حريز بن مسعود المديونى فى أثره. ولحق المديونى بالفهرى فى موضع يعرف بـ« جيجل» ، من ناحية كتامة ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتهت بمقتل حريز وكثير من أصحابه، ثم دخول عمرو مدينة تونس وبصحبته المخارق بن غفار الطائى[٤٠].

وفى هذه الظروف الصعبه سار أبو حاتم، وهو منهوك القوى، للقاء يزيد بن حاتم الذى كان قد وصل إلى سرت حيث انضم اليه جميل بن صخر وأصحابه[٤١]. وهكذا كان يزيد يزداد قوة بمن انضم اليه من جند القيروان، وكذلك بمن انضم اليه من البربر المنشقين على أبى حاتم[٤٢]. وتم اللقاء قرب طرابلس[٤٣]، على الطريق المؤدى إلى جبل نفوسه، بين أبى حاتم وبين مقدمة

---

(٣٧) ابن عذارى، ج١ ص ٧٧ ابن خلدون، ج٦ ٩ب، الترجمة ج١ ص ٣٨٣ - حيث تقول الرواية أن سبب قيام عمرو بن عثمان الفهرى على الاباضية أن أبا حاتم أراد أن يخل بشروط الاتفاقية الخاصة بالجند القيروانى فحاول نزع سلاحهم وارسالهم اليه بطرابلس ويضيف النويرى أن الفهرى قتل المعافرى. هذا بينما بقى آخرون من الفهريين إلى جانب الاباضية. مثل: عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهرى الذى بقى إلى جانب أبى حاتم حتى لقى هزيمته كما سنرى.

(٣٨) ابن عذارى، ج١ ص ٧٧، ابن الأثير أحداث سنة ١٥١ ، وقارن الرقيق ١ ص ١٤٨) حيث الاشارة إلى أن عمرو بن عثمان قاتل أبا حاتم قتالا شديدا قبل انسحابه إلى تونس، فقتل من البربر خلق كثير.

(٣٩) النويرى، ص ٩٦بو الترجمة ج١ ص ٣٨٣ ، وقارن الرقيق، ص ١٤٨ (حيث اسم والد الجنيد: سباق بدلا من سيار).

(٤٠) أنظر الرقيق، ص ١٤٨ ، وقارن النويرى. ص ٩٦٥ب - ٩٧ والترجمة. ج١ ص ٣٨٤ (حيث اسم الفهرى عمر، واسم المديونى، جرير).

(٤١) النويرى، ص ٩٧أ والترجمة ج١ ص ٣٨٤، الرقيق، ص ١٤٨ ، ١٥٩ .

(٤٢) أنظر الشماخى (ص ١٣٦) الذى يقول أن أهل مليلة أمدوا يزيدا فدعا عليهم أبو حاتم بالذلة دون البربر.

(٤٣) أنظر ابن خلدون، ج٦ ص ١١٣ ، الترجمة ج١ ص ٢٢٣، وقارن ابن الأثير ٠سنة ١٥١) الذى يقول أن اللقاء الأول كان قرب قابس.

يزيد بن حاتم بقيادة سالم بن سوادة التميمي(٤٤). ورغم ما تقوله رواية الرقيق التى ينقلها النويرى، والتى يظن أنها اباضية الأصل، من أن أبا حاتم نجح فى دفع مقدمة الجيش الخلافى حتى ردها إلى بقية العسكر، فالظاهر أن الأمر ليس كذلك اذ يذكر أن أبا حاتم ارتد بعد ذلك إلى جبل نفوسه حيث اعتصم بموقع منيع، وهناك هاجمته قوات يزيد(٤٥). والأقرب إلى العقل أن يكون أبو حاتم انهزم فى الموقعة الأولى فحاول الاعتصام بالجبل، ولكن قوات يزيد تبعته إلى هناك حيث أنزلت به هزيمة منكرة انتهت بمقتل أبى حاتم نفسه وكثير من أصحابه، وهذا ما تؤيده بقية الرواية التى تقول أن يزيدا ورجاله تتبعوا فلول المنهزمين فى كل سهل وجبل وقتلوهم قتلا ذريعا وهم «يقولون يالثارات عمر بن حفص»(٤٦). ويبالغ الكتاب - من أصحاب الميول المعادية للخوارج من غير شك - عندما يقولون أنه قتل من أصحاب أبى حاتم ٣٠ (ثلاثون) ألف رجل بينما لم يفقد الجند الخلافى سوى ثلاثة رجال(٤٧). أما عن تاريخ الوقعة فيحدد بيوم ٢٧ من ربيع الأول سنة ١٥٥هـ/ ٨ مارس ٧٧٢م(٤٨). ولقد أصبح مكان المعركة حيث قتل أبو حاتم موضع تبجيل الاباضية واحترامهم، حتى قالوا: «إنه يستضئ كل ليلة نوراً، ويبصر ضياؤه من مكان بعيد ساطعا فى الهواء»(٤٩).

---

(٤٤) النويرى، ص ٩٧أ، الترجمة، ج١ ص ٣٨٤، وقارن ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١، الرقيق، ص ١٥٩.

(٤٥) أنظر الرقيق، ص ١٦٠ - حيث تقول الرواية: «وهال أبو حاتم أمر يزيد، فطلب له أعزّ المنازل وأوسعها، فعسكر فيها وخندق على عسكره». وقارن النويرى ص ٩٧. الترجمة ج١ ص ٣٨٤ - حيث القراءة: «أوعر المنازل وأمنعها» بدلا من «أعز المنازل وأوسعها، وقارن ابن الأثير، أحداث من ١٥١هـ. هذا وتوجد فى الرقيق تفصيلات إضافية عن نزول الأباضية عن خيلهم للقتال رجالة، وكيف أن يزيد بن حاتم حاول التعجيل بمهاجمة خصومه لولا أن منعه صاحبه المهلب بن المغيرة الذى أخذ بلجام فرسه. وقال: أنا أعلم بقتال القوم منك، ثم أن المهلب جعل يزيد ابن حاتم يوجه ابنه عبد الله لمهاجمة البربر أولا على أن يتبعه يزيد بعد ذلك اذا شاء (ص ١٦٠).

(٤٦) أنظر الرقيق، ص ١٦٠، ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١، ج٥ ص ٣٨٥، ابن عذارى (ج١ ص ٧٩) الذى يقول ان جند يزيد قتلوا من أدركوا منهم. وقارن الشماخى (ص ١٣٦) الذى يقول نقلاً عن أبى زكريا أنه وقعت بينهما وقعتان أولاهما بمغمداس على مسيرة يوم من سرت) حيث أحرز أبو حاتم انتصارا مبدئيا، الا أنه يشك فى أن يكون أبو زكريا قد خلط بين انتصار أبى الخطاب فى مغمدس ووقعة أبى حاتم مع يزيد، وأنظر الزاوى، الفتح العربى فى ليبيا، الذى يقول أن مقتل أبى حاتم كان فى جبل نفوسه فى موضع يعرف بجندوبة (١٢٩).

(٤٧) أنظر الرقيق، ص ١٦٠، النويرى، ص ٩٧ب الترجمة ج١ ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٤٨) أنظر الرقيق، ص ١٦٠، النويرى، ص ٩٧ب، الترجمة، ج١ ص ٣٨٥، وقارن ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١.

(٤٩) أنظر الشماخى (ص ١٣٧ - ١٣٨) الذى ينقل عن أبى زكريا ثم يتبعه بقوله: وقد اشتهر عندنا من غير أن أراه أن النور ينزل على قبره، وقيل لم يزل حتى دفن إلى جنبه أعرابى فكف والله أعلم».

القضاء على بقايا الثوار:

واستقر يزيد بن حاتم، بعد أن استخلف على القيروان المخارق بن غفار – فى مكان الوقعة مدة شهر، وهو يبعث رجاله يجوبون المنطقة ويخضعون أهلها، قبل أن يدخل طرابلس التى عهد بولايتها إلى سعيد بن شداد ثم مسيره إلى قابس التى وصلها فى ٢٠ جمادى الأول (أبريل)[٥٠]. وبعد شهر وصل يزيد إلى القيروان، ودخلها فى ١٩ من جمادى الآخرة من تلك السنة (١٥٥/ ٢٧ مايه ٧٧٢م)[٥١]. وبدأ يزيد بن حاتم يعمل على تهدئه الأمور، واستمر فى القضاء على البقايا الباقية من الثوار، دون لين أو هوادة: فى بلاد الزاب، وفى جبال كتامة (شرق الجزائر)، وفى طرابلس. ففى السنة التالية (١٥٦/٧٧٣) أرسل أحد قرابته، وهو العلاء بن سعيد المهلبى إلى بلاد الزاب مددا لعامل طبنه المخارق بن غفار الطائى[٥٢]. وسار العلاء مع المخارق من طبنة إلى جبال كتامة حيث كان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن (الفهرى)، حليف أبى حاتم الاباضى، قد لجأ إلى قلعة هناك تعرف بقلعة جيجل، بعد هزيمة طرابلس وجبل نفوسه. وضرب المخارق الحصار على القلعة لمدة ٨ (ثمانية) أشهر. وأخيرا سقطت، بعد دفاع مجيد، وقتل معظم من بقى مع عبد الرحمن بن حبيب الذى لا يعرف الكتاب على وجه الدقة ماذا كان من أمره[٥٣].

ونحن نرى أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى هذا هو نفس عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى المعروف عند الكتاب بالصقلبى «لطوله ورزقته وشقرته»[٥٤].

(٥٠) ابن عذارى، ج١ ص ٧٩، النويرى، ص ٩٧ ب الترجمة ج١ ص ٣٨٥، وانظر الرقيق، و ص ١٦٠ -١٦١.

(٥١) ابن عذارى، ج١ ص ٧٩.

(٥٢) نفس المصدر.

(٥٣) أنظر ابن عذارى (ج١ ص ٧٩) الذى يقول إن عبد الرحمن بن حبيب هرب عندما سقطت القلعة (ابن الأثير. أحداث سنة ١٥١، ١٥٦). وقارن ابن خلدون (ج٦ص ١١٣. الترجمة ج١ ص ٢٢٣) الذى يقول أن عبد الرحمن مات وجميع أصحابه من البربر، وقارن الرقيق. ص ١٦١ – حيث تشير الرواية إلى أن المخارق كان يحاصر عبد الرحمن بن حبيب عبد الرحمن الفهرى فى قلعة جبجل من أرض كتامة عندها أتاه العلاء بن يزيد المهلبى مددا، وأن كلا من المخارق والعلاء دخل القلعة على عبد الرحمن من موضع غير الذى دخل منه الآخر.

(٥٤) ابن الأثير، أحداث سنة ١٦١.

والظاهر أنه بعد أن فشل في استعادة افريقية، التي كانت لآله باشتراكه مع الخوارج، خرج في محاولة جديدة كتلك التي قام بها جَدّه وسمية للاستيلاء على الأندلس بعد أن نزلها مع بلج بن بشر(٥٥). والظاهر أن الفهرى لم يتورع فى سبيل تحقيق هدفه، بعد أن أرسى فى شرق الأندلس فى سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م أو ١٦١هـ/ ٧٧٨م كما يقول ابن الأثير، عن الادعاء أنه جاء داعيا للخليفة العباسى المهدى، كما فعل العلاء بن مغيث من قبل فى الأندلس على أيام المنصور. ولقد حاول الفهرى أن ينضم إلى والى سرقسطة الثائر، سليمان ابن يقظان بن العربى، الذى تأمر مع شرلمان على غزو الأندلس، ولكنه انتهى نهاية تعسة فى سنة ١٦٢هـ اذ قتل بيدى أحد البربر الذى اشتراه عبد الرحمن الأموى(٥٦).

وبعد كسرة عبد الرحمن الفهرى فى جيجل عاد المخارق إلى ولايته فى طبنة بينما رجع العلاء إلى القيروان(٥٧).

وفى السنة التالية لحملة كتامة أى فى سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م اضطربت بلاد الزاب حيث ثارت قبائل ورفجومة بقيادة أبى زرهون (أيوب الهوارى). وسّير يزيد ابن حاتم جيشا من القيروان إلى الزاب بقيادة قريبه يزيد بن مجز المهلبى، ولكن القتال انتهى بانتصار ورفجومة ومقتل والى الزاب المخارق بن غفار الطائى وجعل يزيد لابنه المهلب بن يزيد ولاية الزاب وطبنه وجبل كتامة، وسيره على رأس حملة لتأديب ورفجومة. وبعث اليه العلاء بن سعيد المهلبى معونة، وبعد قتال شديد هزم المهلبيون الثوار وقتلوهم «أبرح قتل» وطلبوهم بكل سهل وجبل، حتى أتوا على آخرهم، ولم يصب من الجند أحد، كما تبالغ الرواية(٥٨). ويذكر الرقيق أن يزيد

---

(٥٥) أنظر فيما سبق، ص ٣٠٣، وهـ ١٩٤، ص ٣١٩ وهـ ٤،٣ ص ٣٢٠، وهـ ٥.

(٥٦) ابن الأثير. أحداث سنة ١٦١. وعن أعمال الصقلبى وحملة شرلمان على الأندلس أنظر بروفنسال، تاريخ أسبانيا الاسلامية، بالفرنسية، ص ٨٦ – ٨٧.

(٥٧) الرقيق، ص ١٦١.

(٥٨) أنظر الرقيق (ص ١٦١) الذى ينقله كل من ابن خلدون (ج٦ ص ١١٣، الترجمة ج١ ص ٢٢٣ – حيث القَرَاءة فى النص «أبو زرجونة» والتصحيح من الترجمة). وابن الأثير (أحداث سنة ١٥١– مع بعض الاختلاف الخفيف مثل عزل المخارق عن طبنه كما فى الرقيق بدلا من مقتله). والحقيقة أننا نجد ذكرا لاضطراب بلاد الزاب أيام يزيد بن حاتم مرتين: أحداهما فى ابن خلدون فى سنة ١٥٧ هـ(ج٦ ص ١١٣) والثانية فى ابن الأثير فى سنة ١٦٤هـ (أحداث سنة ١٥١). وكان من الجائز أن يكون الأمر متعلقا باضطرابين حدثا فعلا فى هذين التاريخين لولا أن الأحداث واحدة وأبطالها هم نفس الأشخاص، =

بن حاتم عزل ابنه المهلب عن طبنة وكتامة وعهد بولايتهما إلى ابن آخر، هو محمد بن يزيد(٥٩).

أما في طرابلس فان بقايا فلول أبي حاتم تجمعوا بقيادة أبي يحيى ابن فوناس الهواري في بعض النواحي، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام قائد يزيد هناك، وهو عبد الله بن السمط الكندي، الذي التقى بهم في موضع على شاطئ البحر، وهزمهم هزيمة منكرة بعد معركة حامية الوطيس، وقتل منهم مقتلة عظيمة(٦٠). ولا بأس في أن يكون اضطراب طرابلس هنا، السبب في أن عهد يزيد بن حاتم بولايتها، بعد تهدئة الزاب، إلى المخارق ابن غفار الطائي، كما ينصّ على ذلك الرقيق(٦١). وهكذا تتبع المهلبيون العصاة وقضوا عليهم في كل مكان حتى «تهدنت افريقية ليزيد بن حاتم وضبطها»(٦٢). وبذلك استقامت افريقية ليزيد بن حاتم – الذي ظل موضع ثقة الخلفاء – وسادها السلام إلى نهاية ولايته في سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م على أيام الرشيد، فلا يذكر الكتاب في السنوات التالية ما اعتادوا ذكره من أخبار المعارك والحروب والفتن.

أعمال يزيد بن حاتم العمرانية – الحياة الأدبية و الدينية في افريقية:

ترتب على استتباب الأمن والسلام في البلاد أن تهيأت الظروف ليزيد بن حاتم للقيام بالأعمال الانشائية في البلاد، ونشر العمران والرخاء فيها. ولقد ساعد على ذلك طبيعة الرجل الذي اتصف بالجود والكرم حتى أصبح مضرب الأمثال(٦٣). وكان من الطبيعي أن تحظى مدينة القيروان بعناية يزيد، فاهتم بتنظيم

= مما يرجح أن الحادثة واحدة كما في الرقيق وأن الخطأ وقع في تحديد تاريخها. ولما كان تاريخ ابن خلدون مقبولا لأنه يعني أن هذا الاضطراب كان من بقايا ثورة أبي حاتم ولأن الكتاب يؤكدون صفاء البلاد وإستقرار الأمور ليزيد بن حاتم، ولما كانت التفصيلات في ابن الأثير أكثر وضوحا وترتيبا منها في ابن خلدون. رأينا التوفيق بين المؤرخين فرجحنا تاريخ ابن خلدون وفضلنا معلومات ابن الأثير.

(٥٩) الرقيق، ص ١٦٢.

(٦٠) ابن خلدون، ج٦ ص ١٤١ والترجمة ج١ صص ٢٧٦ (يحيى بن فوناس) وقارن ابن الأثير، سنة ١٥٦ (الذي سمى الهواري، أبو يحيى بن فانوى). وابن عذارى ج١ ص ٧٩. (أبي يحيى قرياس).

(٦١) الرقيق. ص ١٦٢..

(٦٢) ابن عذارى، ج١ ص ٧٩، ابن الأثير، أحداث سنة ١٥١ ج٥ صص ٢٨٥. ويبالغ الكتاب في ذكر عدد الوقائع التي دارت بين العرب والبربر منذ قاتلهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم فيقولون أنها ٣٧٥وقيعة (أنظر الرقيق ص ١٤٨، ابن عذارى، ج١ ص ٧٧. النويري، ص ٩٧آ، الترجمة ج١ص ٣٨٤).

(٦٣) يذكر الكتاب في ذلك قول ربيعة بن ثابت الأسدي (أو الرقي) في يزيد الذي بالغ في احسانه اليه:

نشاطها الاقتصادى بصفة خاصة، فرتب الأسواق فيها، كما ينسب اليه تجميع أصحاب كل صنعة فى مكان خاص بهم(٦٤). وأغلب الظن أنه لو صح ذلك لكان الفضل ليزيد بن حاتم فى ذلك التنظيم البديع الذى كانت تزهو به الأسواق فى المدن العربية إلى عهد قريب، والذى جعل لكل موضع من السوق تخصصا فى نوع معين من السلع أو الحرف، وهو التنظيم الذى ظهر حديثا فى شكل المخازن الكبرى (Grands Magasins) ذات الأقسام المتنوعة. وهكذا حق للرقيق الذى ينقله النويرى عندما يشير إلى الأعمال العمرانية التى قام بها يزيد فى تحسين القيروان وزيادة قدرها أن ينص على أنه لوقيل أن يزيد بن حاتم الذى حضر القيروان (مصرها) لم يكن ذلك بعيدا من الحق(٦٥).

وللأسف أن الكتاب لا يهتمون كثيرا بتسجيل الأعمال العمرانية اهتمامهم

حلفت يمينا غير ذى مثنوية ... يمين امرئ آلى وليس بآثم

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والأغربن حاتم

ولقد لقيت الشطرة الأولى من البيت الثانى «لشتان ما بين اليزيدين فى الندى» صدى فى نفوس الناس حتى صارت مثلا (فى الجود)، وحتى قيل هذا البيت فى أشكال أخرى منها:

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... اذا عّد فى الناس المكارم والمجد

أنظر الرقيق ص ١٤٩، ابن عذارى، ج١ ص ٨١، وقارن ابن خلكان، ج٥ ص ٣٣٦، ابن الأبار الحلة السيراء، ج١ ص ٧٤. ويذكر الكتاب ليزيد ابن حاتم نفسه أشعارا فى الكرم منها:

ما يألف الدرهم الخروب خرقتنا ... الا لماما يسيرا ثم ينطلق

يمر مرا عليها وهى تلفظه ... انى أمرؤ لم يحالف خرقتى الورق

(ابن عذارى، ج١ ص ٨١، وقارن الرقيق، ص ١٤٩ (حيث القراءة فى الشطرة الأولى من البيت الثانى: «لم يلفظها» بدلا من «وهى تلفظة»، وفى الشطرة الثانية: «تحالف. بدلا من «يخالف»)، النويرى، ص ٩٧ب، الترجمة ج١ ص ٣٨٥، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١ ص ٧٦ (حيث القراءة كما فى ابن عذارى). هذا ولا بأس من الاشارة إلى أنه بمناسبة حسن سيرة يزيد بن حاتم فى افريقية. ووفود الشعراء عليه وغيرهم لطلب صلته واحسانه، يمكن أن يكون قد حدث ليس بين ولاية يزيد على مصر وولايته على افريقية. فهذا ما يظهر من روايات الرقيق الذى ضلله اصطلاح ولاية «المغرب»، كما كان يستخدم فى ديوان بغداد، وكان أبو جعفر (المنصور) عالما بالمغرب خائفا عليه، وكان لا يبعث اليه الا أهل ثقته..». وما يضيفه إلى ذلك من أن المنصور شيع يزيد بن حاتم، عندما ولاه المغرب، إلى فلسطين. وذلك خلال النص على ولاية مصر (أنظر الرقيق، ص ١٥١ - ١٥٢، وقارن الحلة السيراء، ج١ ص ٧٣ و هـ ٢ حيث أشار حسين مؤنس إلى خشية المنصور من ثورة يقوم بها العلويون فى مصر).

(٦٤) ابن عذارى، ج١ ص ٧٨، وقارن الرقيق، ص ١٤٩.

(٦٥) أنظر الرقيق، ص ١٤٩، النويرى، المخطوط ص ٩٧ب، وقارن الحلة السيراء ك١ ص ٧٢ (حيث يكتفى ابن الأبار بذكر أنه «رتب القيروان).

بتسجيل أنباء الحروب والمعارك. فمن الأعمال الجليلة التي يذكرها الكتاب بالفخر ليزيد بن حاتم تجديده لبناء المسجد الجامع بالقيروان في سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م، وهي السنة التي توفي في نهايتها المنصور، ورغم ذلك يكتفي ابن عذارى، كما فعل الرقيق، بالقول «وكان في غاية الجود والحسن» دون أية تفصيلات[٦٦].

وأما عن أعماله في ميادين الزراعة والرعي – وهي أهم موارد الثروة في البلاد في تلك الأيام – فلا يذكر الكتاب عنها الا ما يختص بالأمير وكرمه، أو عنايته بأراضيه وزراعتها بأنواع المحاصيل الكبرى التي تعرف في أيامنا هذه «بالمحاصيل النقدية». هذا ما يمكن أن يفهم من قول يزيد بن حاتم لبعض وكلائه عندما زرع فولا كثيرا في بعض رياضاته: «يابن اللخناء! أتريد أن أعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم بقلاني! أمثلي يبيع الفول». ويمكن أن يفهم أيضا من بقية النص أن يزيدا كان يعف عن استغلال الناس ببيع مثل تلك المحاصيل الموسمية الطريفة، وذلك أنه أمر أن يباح للناس[٦٧]. ومن ذلك أيضا أنه خرج من القيروان متنزها بموضع يعرف «بمنية الخيل» – حيث حفر بئرا عذبة هناك – فرأى قطعان كبيرة من الغنم. فلما سأل عنها وعرف أنها لابنه اسحق «زجره عليها وأمر بذبحها، وأن تباح للناس فانتهبوها، وأكلوها». ولقد دمغ ابن حاتم بعمله هذا بعض المواضع من القيروان، وذلك أن جلود الغنم وضعت في كدية عرفت من ذلك الوقت «بكدية الجلود»[٦٨].

ويذكر الكتاب قطعا متناثرة تبين اهتمام يزيد بن حاتم بنظم إمارته الحكومية وتراتيبها الإدارية. من ذلك أنه عزل القاضي المشهور يزيد بن الطفيل لأنه «كان اذا انصرف من مجلس قضائه يستودع ديوانه رجلا صبّاغا مقابل المسجد الجامع»،

---

(٦٦) ان عذارى، ج١ ص ٧٩، وقارن الرقيق، ص ١٤٩، النويرى، ص ٩٧ب.

(٦٧) أنظر الرقيق، ص ١٥٨، ابن عذارى، ج١ ص ٨١ – ٨٢، وقارن النويرى (المخطوط، ص ٨٩، الترجمة. ملحق ابن خلدون، ج١ ص ٣٨٥ – ٣٨٦) الذى ينقل نفس الرواية مع تغيير طفيف اذ يقول: «ان يزيد بن حاتم أحب الزراعة وأنه كان يذهب إلى المكان للرياضة والطعام والشراب».

(٦٨) ابن عذارى، ج١ ص ٨٢، وقارن الرقيق (ص ١٥٨) الذى ينقله النويرى (المخطوط، ص ٩٨أ، الترجمة، ج١ ص ٣٨٦) الذى يحوى تفصيلات عن الحوار بين يزيد وابنه اسحق.

ولما كلمه يزيد في ذلك قال: «اني أحفظ ما في ديواني وهذا لا يضرني»، ولم يستجب إلى قول يزيد[٦٩]. وعلى عهد يزيد كانت دار ضرب النقود نشطة في سك الدراهم الفضية والفلوس النحاسية التى كانت تحمل اسمه، واستمر الحال على هذا المنوال على عهد خلفائه من المهالبة، مثل: نصر بن حبيب والفضل بن روح[٦٩م].

وبفضل كرم يزيد بن حاتم أصبحت دار الامارة مجمع الشعراء الذين ساروا إلى بابه من كل مكان، مثل: ربيعة بن ثابت الرقى، صاحب «لشتان ما بين اليزيدين في الندى»[٧٠]. وبفضل استنارته وتقواه أصبحت منتدى الأدباء والعلماء والقضاة، والزهاد الصالحين. فممن وفد على يزيد من المشرق واستقر في كنفه: اسحق بن مكرم الأشعرى، المشهور بابن أبى المنهال الذى كان عالما أديبا راوية

---

(٦٩) المالكى، رياض النفوس، الترجمة ٧٢ ج١ ص ١١١. وقارن الرقيق، ص ١٦٨ (حيث يوجد بعض الاختلاف، مثل: «رجل من البزازين». بدلا «رجلا صباغا»، أنها مختومة وأنا احفظ ما فيه بدلا من إنى أحفظ ما في ديوانى وهذا لا يضرنى».

(٦٩م) أنظر حسن حسنى عبد الوهاب، الورقات.قسم ١ ص ٤٢٦ = حيث الإشارة إلى العثور على كمية من نقود المهلبية هؤلاء في سويسرا قرب قرية ستكبون (Steekbon) حيث فسر ذلك على أنه ربما ترك العرب تلك النقود وهم يعبرون على سويسرا أو أن يكون النورمنديون قد أخذوها من المغرب أثناء غاراتهم البعيدة إلى هناك.

(٧٠) أنظر فيما سبق، ص ٣٧١هـ٦٣. وكذلك ما أنشده المسهر التميمى الشاعر حينما وفد على يزيد بن حاتم بافريقية.

اليك قصرنا النصف من صلواتنا — مسيرة شهر ثم شهر نواصله
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا — لديك ولكن أهنأ البر عاجلة

ويقول السمعانى، في كتاب الأنساب أن يزيدا أمر جنده. وكان معه خمسون ألف مرتزق،فوضع كل منهم للشاعر درهمين من عطائه وزاد يزيد ذلك ١٠٠ (مائة) ألف أخرى. هذا ولو أن ابن خلكان يختم ذلك فيقول. ثم وجدت البيتين المذكورين لمروان بن أبى حفص. والله أعلم (وفيات الأعيان، ج٥ ص ٣٦٨).

وممن مدح يزيد، وهو بالمشرق، محمد بن عبد الله بن مسلم، المعروف بابن المولى. الذى قال فيه:

يا واحد العرب الذى دانت له — قحطان وســـاد نزارا
أن لأرجـــو أن بلغتك سالما — الا أكابد بعدك الأسفار

أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٨١، وقارن الرقيق، ص ١٥٥ (حيث تعديل طفيف في البيت الثانى ففيه: «لقيتك» بدلا من «بلغتك». و «أعالج» بدلا من: «أكابد»).

هذا كما يروى عن نفس الشاعر أنه قال في يزيد على نفس النسق:

=/=

لأشعار العرب وأخبارها، والذى خدم يزيد بن حاتم «لثقته به وعلمه بديانته»(٧١).
وفي تدين يزيد وتقواه تكفى شهادة فقيه افريقية سحنون بن سعيد اذ كان يقول: «كان يزيد بن حاتم يقول: والله الذى لا إله إلا هو ماهبت شيئا قط هيبتى رجلا واحدا يزعم أنى ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر الا الله»(٧٢). وممن كان يتردد على دار يزيد بالقيروان ويأكل على مائدته يحيى الطبيب، وقاضى افريقية أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم(٧٣). وكذلك العلماء والفقهاء والقضاة، والزهاد والصالحون.

وبذلك أخذت القيروان تحتل مركز الصدارة بين مدن المغرب، ليس بصفتها العاصمة السياسية للبلاد فقط بل وبصفتها العاصمة الفكرية ومركز الاشعاع الدينى والثقافى فى البلاد.

فمنذ ذلك الوقت المبكر أخذت أفكار المدارس الاسلامية الناشئة فى المشرق تعرف طريقها إلى المغرب، وأهم مثل لذلك هو دخول آراء مالك بن أنس الفقهيه إلى البلاد. فقد كان مالك فى ذلك الوقت يلقى «محاضراته» فى مسجد المدينة،وكان من بين مستمعيه كثير من طلاب العلم والحجاج المغاربة والأندلسيين الذين نقلوا ما سمعوه إلى بلادهم، إلى جانب من هاجر من المشارقة إلى المغرب، فكان ذلك بداية لدخول المذهب المالكى إلى المغرب، وتحوى كتب تراجم العلماء والصالحين أسماء كثير ممن استمع إلى دروس مالك وأخذ عنه فى

=/= يا واحد العرب الذى أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك ثانيا ما كان فى الدنيا فقير

أنظر الرقيق، ص ١٥٦.

(٧١) الرقيق، ص ١٥٧.

(٧٢) الرقيق، ص ١٥٧.

(٧٣) أنظر ابن عذارى، (ج١ ص ٨٠) الذى يذكر فى أحداث سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٨م وفاة قاضى القيروان أبى خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (وعنه أنظر فيما سبق، ص ٣٥٠، وهـ١١، وفيما بعد، ص ٣٧٦ - ٣٧٧) بعد أن أكل حوتا وشرب لبنا على مائدة يزيد، وكان قد جاوز تسعين سنة، فعلك من ليلته». وقارن الرقيق، ص ١٦٨، حيث الإشارة إلى أن أكلة السمك وشرب اللبن حدثت فى حضور يحيى الطبيب (يوحنا المتطبب) الذى تنبأ بنهاية تعسة للقاضى عبد الرحمن الذى توفى فى نفس الليلة إثر فالج ألم به، وله من العمر أكثر من سبعين سنة، وأنظر المالكى، ج١ ص ١٠٢، والدباغ، ج١ ص ١١٧. ولا نعرف أن كانت هذه الرواية هى أصل أسطورة الخوف من أكل السمك وشرب اللبن معا.

ذلك الوقت، والذين استمروا على صلاتهم بامام دار الهجرة يكتبون اليه بالمسائل ويبعث اليهم بآرائه. ومن أشهر هؤلاء أبو محمد بن عبد الله بن فروخ الفارسي(٧٤)، الذى قال عنه مالك: «هذا فقيه أهل المغرب»(٧٥)، والذى لقى أيضا أبا حنيفة النعمان، «وذاكره وكتب عنه مسائل كثيرة غير مدونة...»(٧٦). ومع أن ابن فروخ أخذ كما نرى عن إمام العراق، وأنه «كان ربما مال إلى قول أهل العراق اذا تبين له أن الصواب فى قولهم»، الا أن صلته بمالك كانت أوثق، فقد «سمع منه وتفقه» وعليه اعتمد فى الحديث والفقه، وبصحبته اشتهر»(٧٧).

كذلك الأمر بالنسبة لقاضى افريقية عبد الله بن غانم الذى قال عنه مالك «هذا قاضى بلده»(٧٨)، والبهلول بن راشد (١٢٨ - ١٨٣هـ) الذى قال عنه مالك «هذا عابد بلده»(٧٩)، والذى كان يعظم قدر ابن فروخ و «يقلده فى بعض ما ينزل به من أمور الديانة»(٨٠).

ومع أن آراء مالك الفقهية هى التى استهوت أفئدة المغاربة، فان القيروان عرفت أيضا آراء المعتزلة فى تلك الفترة، رغم ما كانت تلقاه تلك الآراء من معارضة جمهرة العلماء. والظاهر أن الاعتزال دخل المغرب مع آراء أهل العراق من أصحاب أبى حنيفة حتى أن ابن فروخ - الذى لقى أبا حنيفة كما قلنا - رمى بالاعتزال، وتطلب الأمر منه أن يجاهر بلعنه المعتزلة «قبل يوم الدين، وفى يوم الدين، وبعد يوم الدين»(٨١). ومع أن الاعتزال لقى معارضة عنيفة من أصحاب مالك - وهم متأثرون فى ذلك بارشادات إمام دار الهجرة الذى كان يخشى

---

(٧٤) ولد بالأندلس سنة ١١٥هـ/ ٧٣٣م وتوفى بمصر سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م. أنظر ترجمته فى المالكى ج١ ص ١١٣ وما بعدها، والدباغ، ج١ ص ١٧٨.

(٧٥) المالكى، ج١ ص ١١٥. الدباغ، ج١ ص ١٧٩.

(٧٦) المالكى، ج١ ص ١١٦. الدباغ، ج١ ص ١٧٩.

(٧٧) نفى المصدر.

(٧٨) المالكى، رياض النفوس، ترجمة البهلول بن راشد، ج١ ص ١٣٣، وأنظر ترجمة ابن فروخ، ص ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، وأنظر الدباغ، ج١ ص ٢١٥.

(٧٩) المالكى، رياض النفوس، ترجمة البهلول، ص ١٣٢، الدباغ، ج١ ص ١٩٨.

(٨٠) المالكى، ج١ ص ١١٦ - ١١٧ (ترجمة ابن فروخ).

(٨١) المالكى، ج١ ص ١٢٠.

ظهور «طريقة الجدل بافريقية» (٨٢)- حتى ان ابن غانم وابن فروخ والبهلول كانوا يرفضون الصلاة فى جنازة المعتزلى(٨٣)، فان الاعتزال والجدل كان لهما أتباعهما. ولقد استهوت معرفة الاعتزال - فى بعض الأحيان - بعض عمد السنة والمالكية، فيروى عن البهلول بن راشد أنه سأل يوما بعض جلسائه «أحب أن تذكر لى ما تحتج به القدرية» ولكن الرجل رد عليه: «يا أبا عمران أنتم سألتنى عما تحتج به القدرية، وهو كلام الشياطين، لأنه سلاح من سلاحهم فتزينه فى قلوب العامة، وفى مجلسك من لا يفهم ما أتكلم به من ذلك، فلا آمن أن يحلو بقلبه منه شئ، فيقول سمعت هذا الكلام فى مجلس البهلول». وقبّل البهلول رأس الرجل وقال: «أحييتنى أحياك الله»(٨٤).

وأهمية هؤلاء العلماء والفقهاء والصالحين لا تقتصر على العمل على نشر السنة، ومحاربة البدع، وتعريف الناس بالحلال والحرام، بل كان فى وجودهم نوع من الرقابة على أعمال الناس وكذلك أعمال الحكام، وذلك حسب مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فعبد الرحمن بن زياد بن أنعم كان، وهو فى القضاء، لايسمح ليزيد بن حاتم بفض أختام ما يصدره من كتب الأحكام حتى أنه فضل العزل عندما ألح عليه يزيد فى إعادة ختم كتاب حكم كان أصدره لامرأة كانت تتردد على داره(٨٥). والظاهر أن ذلك كان درسا فهمه يزيد ابن حاتم إذ أنه عزل خليفة ابن أنعم فى القضاء، وهو ابن الطفيل، عندما سمح لنفسه بحفظ كتبه فى دكان بعض البزازين رغم أنها كانت مختومة(٨٦)، كما أصبح تقليدا يسير عليه كبار القضاة فلا يسمحون للأمراء بفض أختام كتب أحكامهم(٨٧). وابن فروخ رفض تولى القضاء رغم إلحاح روح بن حاتم أخى يزيد، وذلك اقتداء بنصيحة أبى حنيفه الذى شبه له من يولى القضاء برجل يلقى به فى البحر الواسع، فنهايته - طالت أم قصرت - إلى الغرق سواء أجاد السباحة أم لم يجدها(٨٨). ويروى عن

---

(٨٢) المالكى، ج١ ص ١١٤.
(٨٣) المالكى، ج١ ص ١٢١، الدباغ، ج١ ص ١٩٨.
(٨٤) المالكى، ج١ ص ١٢٤.
(٨٥) الرقيق، ص ١٦٦ - ١٦٧.
(٨٦) أنظر فيما سبق، ص ٣٧٣ و هـ ٦٩.
(٨٧) أنظر فيما بعد، ص ٣٨٢ و هـ ١٠٢.
(٨٨) المالكى، ج١ ص ١١٨ - ١١٩. ١٢١.

ابن فروخ أيضا أنه كان «اذا أخذ الجند أعطياتهم أغلق حانوته تلك الأيام حتى يذهب ما في أيديهم، فاذا ذهب ما في أيديهم فتح حانوته: مما يفهم منه أنه كان لا يعتقد في صحة كسب العسكر[٨٩]. ورغم أن ابن فروخ كان لا يلي القضاء فانه كان يقوم بدور المحتسب بالنسبة لأبناء يزيد بن حاتم، فلقد رأى ذات يوم، وهو بحي باب نافع من أحياء القيروان ابنا ليزيد اسمه اسحق، وهو يدرب بعض كلاب الصيد فأغراها بظبي نهشته ومزقته. فما كان منه الا أن خاطب ابن الأمير دون أن يكنيه، قائلا «يافتي! اني رأيتك تغرى كلابك آنفا ببهيمة، وما أحب ذلك». فما كان من اسحق بن يزيد الا أن قال له: «صدقت أبا محمد، جزاك الله خيرا»، واتبع ذلك بقوله: «والله لا فعلت ذلك بعد يومي هذا أبدا» — ويضيف الراوي أن ابن فروخ لم يزل مكينا لدى اسحق بن يزيد معظما عنده[٩٠]. وفي نصح الأمير والرقابة على أعماله، تقول الرواية أن يزيد بن حاتم أرسل إلى ابن فروخ يسأله عن دم البراغيث في الثوب هلي تجوز به الصلاة! فأجاب ابن فروخ بالجواز، ولكنه أضاف بحضرة الرسول إضافة لاذعة اذ قال: «يسألوننا عن دم البراغيث ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التي تسفك»[٩١].

المهلبيون بعد يزيد بن حاتم:

عرفت افريقية فترة من الهدوء والرخاء طوال ولاية يزيد بن حاتم التي استمرت أكثر من خمسة عشر عاما منذ خلافة المنصور، وطوال عهدى المهدى والهادى وبعض خلافة الرشيد إلى رمضان سنة ١٧٠ هـ/ فبراير ٧٨٨م عندما توفي يزيد بن حاتم[٩٢]. وهذا يعني أن المهلبيين ثبتوا أقدامهم منذ ولاية عمر بن حفص سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨م، واكتسبوا رضاء الخلفاء عنهم بفضل سياستهم الرشيدة التي

---

(٨٩) المالكي. ج١ ص ١٢٢. وأنظر الدباغ، ج١ ص ٣٠٦ (ترجمة البهلول. وفي اختلاف الفقهاء والعباد في أرزاق الأجناد حلال هي أم حرام، «كان البهلول يقول أخذ الأجناد الارزاق التي تجرى لهم حرام عليهم»).

(٩٠) أنظر الرقيق، ص ١٥٩.

(٩١) المالكي. ج١ ص ١١٩، الدباغ. معالم الإيمان، ج١ ص ١٨٣.

(٩٢) الرقيق: حيث النص على أنه توفي بدار الامارة في الموضع الذى كان يعرف برحبة التمر أو بمنية الخيل (ص ١٦٢)، ودفن في مقبرة باب سالم (ص ١٧٦)، ابن الأثير، سنة ١٥١، ج٥ ص ٣٨٥. أما ابن عذارى (ج١ ص ٨٢) فيجعل وفاة يزيد في رمضان سنة ١٧١ هـ. وابن الأثير أصح.

جمعت بين الحزم والاتزان، وكونوا فى افريقية ما يشبه امارة أو ملكية تابعة للخلافة استمرت إلى مقتل آخرهم الفضل بن روح فى سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٤م.

داود بن يزيد بن حاتم: عودة الاضطراب إلى البلاد:

فعندما مرض يزيد بن حاتم مرضه الذى مات فيه استخلف ابنه داود بن يزيد، الذى ظل واليا لمدة تسعة أشهر ونصف شهر[٩٣]، إلى أن قدم عليه عمّه روح بن حاتم أميرا على المغرب بعهد من الرشيد. واشتغل داود خلال تلك الفترة بحرب الخوارج الذين وجدوا فى وفاة يزيد فرصة لكى يزاولوا نشاطهم من جديد.

الاباضية فى باجة:

وبدأ الاضطراب بين قبائل نفزاوة الذين أقاموا أحدهم إماما، وهو صالح بن نصير الاباضى، وأعلنوا العصيان فى جبال باجة، وحاولوا بسط سلطانهم على المنطقة. وشهدت جبال باجة معارك حامية بين قوات القيروان وبين قوات البربر من الاباضية، وتراوح النصر والهزيمة بين الطرفين. فلقد انتصر صالح بن نصير على قوات داود التى أرسلها بقيادة أخيه المهلب بن يزيد فى باجة، ولكنه انهزم فى معركة ثانية أمام القوات التى سارت إليه بقيادة سليمان بن الصمة بن يزيد المهلبى الذى تتبع الثوار وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف، ولم يخسر أحدا من رجاله كما يقول الرواة[٩٤]. ونجح صالح من جديد فى حشد جمع من الاباضية بينهم عدد من زعماء البربر ممن لم يشتركوا معه فى ثورته الأولى، واجتمع بهم فى شقبنارية

---

(٩٣) أنظر ابن عذارى. ج١ ص ١ ص ٨٢. وقارن الرقيق ص ١٧٠ (حيث النص على سبعة أشهر بدلا من تسعة).

(٩٤) ابن عذارى، ج١ ص ٨٢، حيث اسم الثائر الأباضى نصير بن صالح، فعدلناه حسبما وجد فى ابن خلدون والنويرى اللذين ينقلان عن الرقيق، وكذلك الأمر بالنسبة لسليمان ابن الصمه وهو فيه (سليمان بن يزيد). وقارن بن خلدون (ج٦ ص ١١٣؛ الترجمة ج١ ص ٢٢٤) الذى يخطئ فى تحديد تاريخ تلك الوقائع بسنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م رغم أنه يذكر حدوثها عقب وفاة يزيد بن حاتم وهو يجعل قوات داود الأخيرة تحت قيادة ابن عمه سليمان ابن الصمه (الصحة) المهلبى، وقارن النويرى (ص ٩٨ب، الترجمة ج١ ص ٣٨٧) الذى يجعل ثورة جبال باجة غير ثورة صالح بن نصير الذى يلقبه بالنفزى التى ربما كانت تحريفا للسفرى (الصفرى)، كما فى ابن خلدون. أما عن ابن الصمة (كما فى الرقيق)، فيقول أنه سليمان بن السمة بن يزيد بن حبيب بن المهلب، وأنظر الرقيق، ص ١٦٩ (حيث أصل روايتى كل من ابن خلدون والنويرى، وان كانت للأسف مخرومة فى أولها).

من كورة الأربس، ولكن سليمان بن الصمة استطاع أن يهزمهم من جديد ثم أنه رجع إلى القيروان[٩٥].

وبذلك تنتهى الثورة الاباضية دون نتيجة ملموسة، وتنتهى نيابة داود بن يزيد بن حاتم فى افريقية التى دامت أكثر قليلا من نصف عام، فلا يذكر الكتاب له بعد ذلك سوى أنه جعل شرطته خالد بن بشير، كما أعاد ولاية الزاب إلى المهلب بن يزيد[٩٦]. ويأتى روح بن حاتم إلى القيروان ليعيد بعضا من سيرة أخيه يزيد فيقر الأمور فى البلاد بينما يرجع داود إلى المشرق حيث يعطيه الرشيد ولاية مصر أول سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م[٩٧]، قبل أن يوليه السند حيث مات وهو أمير عليها[٩٨]. ولكنه مع قدوم روح عرفت بلاد المغرب دعوة انفصالية جديدة، هى التى قام بها ادريس بن عبد الله الحسنى فى المغرب الأقصى، إثر فشل ثورة العلويين فى الحجاز سنة ١٦٩هـ/ ٧٦٨م، التى انتهت باقامة دولة علوية كما سنرى، هى دولة الأدارسة التى حكمت المغرب الأقصى ومدت فروعها إلى المغرب الأوسط والأندلس.

روح بن حاتم: عودة إلى الاستقرار:

بعد فترة الاضطراب القصيرة أيام نيابة داود بن يزيد، عادت الأحوال إلى الاستقرار بوصول روح بن حاتم إلى القيروان فى رجب سنة ١٧١هـ/ ديسمبر - يناير سنة ٧٨٧ - ٧٨٨م على رأس ٥٠٠ (خمسمائة) فارس، ويتبعه ابنه قبيصة

(٩٥) أنظر الرقيق، ص ١٦٩. وقارن ابن خلدون، ج٦ ص ١١٣، الترجمة، ج١ ص ٢٢٤. وعن شقبنارية أنظر فيما سبق ص ٢١٧ وهامش ١٧٥.

(٩٦) الرقيق، ص ١٦٩.

(٩٧) الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٣٣.

(٩٨) الرقيق، ص ١٧٠، ثم ص ١٧٥ - ١٧٦: حيث تقول الرواية أنه عندما بعث الرشيد يزيد بن حاتم إلى افريقية وروحا إلى السند، قيل له: يا أمير المؤمنين، لقد باعدت بين قبريهما. ومن عجب أن الأخوين توفيا بالقيروان، ودفنا فى موضع واحد فى مقبرة باب سالم. وتذكر الرواية أنه كان على قبرهما سارية مكتوبة فيها أسماؤهما، وقد ذهب ما كان على قبرهما من بناء لأن بنى الأغلب هدموه، ومنه الأعمدة التى كانت تحت مصلى العيد وتضيف الرواية أن أكثر الناس كانوا يعرفون قبرى يزيد وروح ويقفون عليهما «للعظة بما كان من السلطان والقدرة».

على رأس ١٥٠٠ (ألف وخمسمائه)فارس[٩٩]. هذا ما يشير إليه الكتاب - كما فعلوا بالنسبة ليزيد بن حاتم - اذ يكتفون بذكر مناقب روح وصفاته، وتسجيل نكت وقعت أيامه[١٠٠]، فلا نجد ذلك الخليط المتشابك من الثورات والقلاقل المعهودة. فالطرق كانت آمنة، والسلام سائد بين البربر طالما كان روح حيا[١٠١].

ويفهم من رواية الرقيق انه لما كان مركز الخطورة يكمن في بلاد الزاب، فان بعض مستشارى روح نصحه أن يملأها خيلا ورجلا[١٠٢]. واذا كان من الراجح أن يكون روح قد عمل بتلك النصيحة، فمن الواضح أن حسن اختياره لمعاونيه من رجال الدولة كان من عوامل استقرار دولته. وفى ذلك تقول نفس الرواية انه ما أن وصل روح إلى افريقية حتى أقر على ولاية طرابلس: العلاء بن سعيد، واستعمل على تونس: الجنيد بن سيار، ثم عزله واستعمل عليها اسحق بن يزيد بن حاتم. أما طبنة عاصمة بلاد الزاب حيث مكمن الخطر فقد عزل عنها المهلب بن يزيد الذى كان قد عينه داود بن يزيد، وعهد بولايتها إلى ابنه الفضل بن روح. أما عن ولاية برقة المتطرفة شرقا فقد عهد بها إلى ابنه قبيصة عندما لحق به، ويضيف النص إلى ذلك انه عندما مات روح (أواخر سنة ١٧٤هـ/ أوائل ٧٩١م) عزلت برقة التى كان على ولايتها قبيصة بن روح عن عمل افريقية[١٠٣]. بمعنى أنها ضمت إلى ولاية مصر.

فكان أعمال روح الإدارية هذه والتنظيمية هى التى أكدت، على المستوى الداخلى، هدوء البلاد وأمن الطرق. أما على المستوى الخارجى فلقد عمل روح

---

(٩٩) أنظر الرقيق، ص ١٧٣ (حيث يقول فى روح: «وكان شيخا حازما قد حلب الدهر أشطره، وذهب أكثر عمره فى امارة يديرها أو حرب يسعرها»).

(١٠٠) أنظر الرقيق، ص ١٧١ - ١٨١ - حيث تمتلئ الرواية بقصص منقبية عن روح ومن كان على اتصال به فى المشرق وفى المغرب، ابتداء الخليفة هارون الرشيد وانتهاء بجواريه وحظاياه. وذلك فى موضوعات الحزم والكرم والشجاعة والشرف والعصبية وغيرها.

(١٠١) أنظر الرقيق، ص ١٧٣، النويرى، ص ٩٩أ، الترجمة، ج١ ص ٣٨٧. وقارن ابن الخطيب، أعمال الاعلام (قسم ٣ تحقيق أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى)، ط١ الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص ١٠.

(١٠٢) الرقيق، ص ١٣٧.

(١٠٣) أنظر الرقيق، ص ١٧٣ (وص ١٨٣. وأنظر فيما بعد، ص٣٨٤ وهـ ١١٥ عن امارة قبيصة).

على توطيد الأمن عن طريق الرغبة فى مهادنة (موادعة) عبد الوهاب بن رستم الاباضى صاحب تاهرت (تيهرت)(١٠٤).

وفيما يتعلق بالقضاء فقد عهد به روح إلى فقيه من أهل تونس، وهو: العلاء بن عقبة، الذى كان على قدر كبير من الصلاح والورع واحترام الذات. حتى انه ترك منصبه دون علم روح عندما علم أن هذا الأخير سمح لنفسه بفض كتاب حكم كان قد حكم به العلاء لرجل من أهل باجة، واطلع عليه(١٠٥). وعندما عرض روح القضاء على عبد الله بن فروخ باصرار فرغم ضغط روح(١٠٦)، وأمام الالحاح والتهديد أشار ابن فروخ بتعيين عبد الله بن عمر بن غانم، الذى كانت له معه صحبة، فولاه روح القضاء. وبقى ابن غانم قاضيا لافريقية حوالى عشرين سنة (١٧١هـ - ١٩١هـ/ ٧٨٨م - ٨٠٨م) حتى امارة ابراهيم بن الأغلب على افريقية(١٠٧).

ورغم أن عبد الله بن فروخ رفض تقلد القضاء، كما كان يرفض تقديم الاستشارة فى الخصومات(١٠٨). فان هذا لايعنى اعتزاله المجتمع أو ابتعاده عن متابعة الرقابة على الأمراء، مما كان يدخل فى مبدأ «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر». فالفقيه الورع الذى كان يأخذ برأى فقهاء العراق فى تحليل النبيذ، كان يجاهر بحق «الخروج على أهل الجور والظلم»، وحتى قيل أنه لم يتردد فى التصريح بذلك فى مواجهة روح بن حاتم عندما سأله عن ذلك. وكان من

(١٠٤) أنظر الرقيق، ص ١٧٣. وقارن ابن الخطيب، أعمال الأعلام، قسم ٣. ص ١٠ (حيث النص على رغبة الاباضيين فى موادعته إلى أن توفى فى ١١ رمضان ١٧٤هـ).

(١٠٥) الرقيق. ص ١٧٤.

(١٠٦) الرقيق. ص ١٧٤ - وفى ذلك يروى أن ابن فروخ اقتدى فى الامتناع من تولى القضاء بأبى حنيفة الذى قال: أن القضاء كالبحر فى سعته وأن الذى يقبل وظيفة القاضى كمن يلقى بنفسه فى وسط البحر. مصيره الغرق طال الزمان أم قصر. سواء كان يحسن العوم. أولا يحسن العوم. (الرقيق، ص ١٧٩). وأنظر فيما سبق، ص ٣٧٧ و هـ ٨٨ حيث الإشارة للمالكى.

(١٠٧) أنظر الرقيق. ص ١٧٤ - ١٧٥، ١٧٨: حيث تذكر الرواية أن ولاية ابن غانم للقضاء كانت فى رجب سنة ١٧١هـ أى فى نفس الشهر الذى وصل فيه روح إلى القيروان، مما يعنى أن العلاء بن عقبة التونسى لم يمكث فى القضاء الا أياما قليلة - اذا صح ذلك التاريخ. وفيما يتعلق بوفاة ابن غانم تقول الرواية انها كانت فى سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٧م أو فى سنة ١٩٦هـ/ ٨١٣م - أنظر المالكى.

(١٠٨) الرقيق، ص ١٧٥.

الطبيعى أن يتغافل عنه الأمير المهلبى - الذى حلب الدهر أشطره - عندما عرف أن الفقيه المثالى كان يسعى إلى «الخروج» فى عدد من الأفاضل عدتهم عدة أهل بدر، وكلهم أفضل منه[١٠٩].

أما عن مناقب روح الأخرى - إلى جانب تعظيمه للعلماء - فلقد اتصف بالصلابة وعدم الجزع، كما عرف بالبلاغه والكرم[١١٠]. ولكنه كان يؤخذ عليه فى ذلك الوقت كبر السن، فقد كان روح أسن من أخيه يزيد، وكان كبر سنه يسبب ازعاجا للقواد وكبار الموظفين فى افريقية، فقد كان روح «عندما يطول جلوسه بالقيروان ربما خطر عليه النعاس من الضعف والشياخة»[١١١]. ولما كان صاحب البريد مسئولا عن اطلاع الخلافة على أحوال البلاد فانه وقائدا اسمه «أبو العنبر» كتبا إلى الرشيد يعبران عن مخاوفهما من ضعف روح، وخشيتهما من اضطراب ثغر افريقية اذا ما شغرت الامارة بوفاة روح بغته. ولقد أشار الاثنان على الرشيد بتعيين نصر بن حبيب كوال ثان لافريقية تؤول اليه الامارة اذا مات روح، لما عرف عنه من رجاحه العقل، وخبرته بأمور الإدارة، ومحبته فى قلوب الناس[١١٢]. ووافق الرشيد على اختيار نصر بن حبيب المهلبى - الذى كان يشغل منصب صاحب الشرطة ليزيد بن حاتم بافريقية، كما كان يشغل هذا المنصب بالفسطاط من قبل، عندما كان يزيد واليا لمصر - فكتب اليه بعهد افريقية سرا[١١٣].

---

(١٠٩) الرقيق، ص ١٨٠ - ١٨١. وفى ذلك تقول الرواية أن روح بن حاتم علق على ذلك. فقال: «قد أمنا أن يخرج علينا أبدا لا يجد أحدا مثله، فكيف هذه العدة».

(١١٠) يقال أنه مات له ابن صغير فذهب بعضهم لعزائه فوجده ضاحكا فتوقف عن العزاء فقال روح:

أنا لقوم ما تفيض دموعنا على هالك منا وان قصم الظهر

الرقيق، ص ١٧٧ (حيث «ان أنس» بدلا من «أنا لقوم» ثم «ولو قصم الظهرا». بدلا من «وان قصم الظهر»). وقارن ابن الخطيب. أعمال الاعلام (قسم٣). ص ١٠ (حيث يقال فى كرمه وبلاغته أنه بعث إلى كاتب له ٣٠ ثلاثين) ألفا. وكتب اليه «لا أستقلها لدى تكبرا، ولا أستكثرها تمننا. ولا أستتيبك عليها ثناء. ولا أقطع عنك بها رجاء».

(١١١) ابن عذارى، ج١ ص ٨٥.

(١١٢) ابن عذارى، ح١ ص ٨٥، وقارن الرقيق، ص ١٨٢، النويرى، ص ٩٩

(١١٣) ابن عذارى ، ج١ ص ٨٥، وقارن الرقيق، ص ١٨٢. ونلاحظ أن ابن الأثير (سنة ١٧٧) يسميه خطأ حبيب بن نصر المهلبى ثم يعود إلى الصواب أى نصر بن حبيب.

نصر بن حبيب المهلبي:

ووقع ما كان يخشاه صاحب البريد والقائد أبو العنبر، فمات روح بن حاتم فى ٢٢ من رمضان سنة ١٧٤هـ/ ١ فبراير ٧٩١م[١١٤]، وبايع الناس ابنه قبيصة - الذى كانت له ولاية برقة - بالامارة فى المسجد الجامع[١١٥]. ومبايعه قبيصة بن روح يمكن أن يكون لها أكثر من معنى: فهى من جهة تبين أن افريقية أصبحت اقطاعا للمهلبيين أو كادت، وهى من جهة أخرى قد تفسر عهد الرشيد لنصر بن حبيب بأنه محاولة من الخلافة وكبار موظفيها للحيلولة دون أن تصبح افريقية مملكة للمهلبيين يتوارثها الأبناء عن الآباء. فما أن علم صاحب البريد وأبو العنبر بمبايعة قبيصة حتى سارعا بالمسير إلى نصر بن حبيب، «فأوصلا اليه عهد الرشيد وسلما عليه بالامارة، وركبا معه إلى المسجد فيمن معهما حتى أتيا قبيصة، وهو جالس على الفراش. فأقاماه وأقعدا نصر بن حبيب، وأعلما الناس بأمره، وقرئ الكتاب الواصل من أمير المؤمنين هارون إلى نصر بن حبيب على الناس، فسمعوا وأطاعوا»[١١٦].

وبدأ نصر حكمه بالإجراءات الإدارية المعتادة، من تثبيت الولاة القدامى، وتعيين غيرهم من الجدد. ولما كانت ولاية الزاب قد شغرت عندما تركها الفضل ابن روح بمجرد علمه بولاية نصر، وسار إلى الرشيد فى بغداد، فقد رأى نصر أن ينقل العلاء بن سعيد من طرابلس - بعد ولاية طالت إلى ما يقرب من أحد عشر عاما - وأن يستعمله على الزاب. أما طرابلس فقد عهد بها إلى النصر ابن سدوس المرادى[١١٧].

---

(١١٤) ابن عذارى، ج١ ص ٨٥، وقارن الرقيق، ص ١٨٣ (حيث يجعل ولاية نصر ابن حبيب فى ٣٠ رمضان) النويرى، ص ٩٩أ والترجمة ج١ ص ٣٨٨ الذى يجعل وفاة روح فى ١٩ من رمضان، ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، قسم ٣، ص ١٠ - ١١ (حيث وفاته فى ١١ رمضان ١٧٤هـ).

(١١٥) ابن عذارى، ج١ ص ٨٥، وأنظر الرقيق ص ١٨٣ ، النويرى ص ٩٩أ والترجمة ج١ ص ٣٨٨. وأنظر فيما سبق، ص ٣٨١ و هـ ١٠٣ (عن عزل ولاية برقة عن افريقية) اعتبارا من سنة ١٧٤هـ/ ٧٩١م.

(١١٦) ابن عذارى، ج١ ص ٨٥، وأنظر أصل الرواية فى الرقيق، ص ١٨٣ ، النويرى، ص ٩٩ب، والترجمة ج١ ص ٣٨٩.

(١١٧) الرقيق، ص ١٨٣ .

واستمر نصر فى ولاية افريقية إلى المحرم من سنة ١٧٧هـ/ ابريل ٧٩٣م، عندما عهد الرشيد بالولاية إلى الفضل بن روح. ويمكن أن تعتبر ولاية نصر بن حبيب التى دامت سنتين وثلاثة أشهر استمرارا لولاية روح ابن حاتم: اذ حسنت سيرة نصر وعدل فى أحكامه، وعرفت البلاد فترة من الهدوء والسلام على أيامه[١١٨]. ولكنه كان أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة المدمرة.

آخر المهلبيين فى افريقية: الفضل بن روح:

سعى للولاية فى بغداد، واستقبال ملوكى فى القيروان:

فى الوقت الذى أعلن فيه عهد الرشيد بافريقية إلى نصر بن حبيب وبينما كان قبيصة بن روح يتأهب لأخذ البيعة من الناس فى مسجد القيروان، كان أخو هذا الأخير وهو الفضل بن روح واليا على الزاب من قبل أبيه روح ابن حاتم. ولم يرتح الفضل لاقصاء أخيه عن الامارة فخرج إلى بغداد، وظل يلاحق الرشيد إلى أن كللت مساعيه بنواله ولاية افريقية[١١٩]. وستثبت الأحداث أن سعى الفضل بن روح للحصول على الولاية كان فى الحقيقة سعيا إلى القضاء نهائيا على سلطان المهالبة فى المغرب. فعندما عهد الرشيد بافريقية إلى الفضل، «كتب بعزل نصر بن حبيب، وأن يقوم بأمر الناس المهلب بن يزيد إلى أن يقدم الفضل»، والذى وصل إلى القيروان فى المحرم من سنة ١٧٧هـ/ ابريل – مايه ٧٩٣م[١٢٠].

ويرجع الفضل إلى الرقيق فى وصف الحفاوة الملوكية التى استقبل بها أهل القيروان الفضل بن روح. فلقد استبشروا به، وسروا بقدومه، ونصبوا له السرادقات (القباب) على طول الطريق، من «مسجد أم الأمير» وحتى دار الامارة فى الحى المعروف برحبة التمر. وبرز من بين المحتفلين بالفضل أحد أثرياء التجار من أهل الذمة، وهو قسطاط (قنسطان؟) النصرانى الذى تفنن فى اقامة الزينات، فكان من بين ما عمله باقة عظيمة من الريحان نشر عليها ورقة عريضة من البردى (طومار) كتب فيها مطلع سورة الفتح: «أنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم

---

(١١٨) ابن عذارى، ج١ ص ٨٥، وأنظر الرقيق، ص ١٨٣.

(١١٩) الرقيق، ص ١٨٣ - ١٨٤، وانظر النويرى، ص ٩٩ب، الترجمة، ج١ ص ٣٨٩.

(١٢٠) أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٨٦، النويرى، ص ٩٩ب، الترجمة ج١ ص ٣٨٩. ابن الأثير، سنة ١٧٧، ج٦ ص ٥٤، وقارن الرقيق، ص ١٨٤.

من ذنبك وما تأخر»، وزير من زجاج علقه قرب مسجد أبى فهر «وفيه ماء، وفى الماء حيتان تعوم» مما اثار إعجاب الفضل واستحسانه[١٢١].

وبدأ الفضل بن روح ولايته بأن عزل عمال نصر بن حبيب، كما يقول الرقيق، باستثناء العلاء بن سعيد الذى أقره على ولاية الزاب، التى كانت موضع اهتمام الأمراء. ولكن مؤرخ القيروان لا يذكر عقب ذلك الا أنه عين قريبه أبا عيينه الشاعر بن محمد بن أبى عيينه بن المهلب على طرابلس، وكان أبو عيينه قد تقلد ولاية قفصة وقسطيلية، عندما وفد من المشرق زائرا لابن عمه يزيد بن حاتم[١٢٢].

ورغم هذه البداية الطيبة التى افتتح بها الفضل حكمه فان ولايته لم تدم الا ما يقرب من سنة ونصف سنة، إذ انتهى الأمر بمقتله فى شعبان سنة ١٧٨هـ/ نوفمبر ٧٩٤م[١٢٣].

اضطراب العسكر الخلافى فى تونس: ثورة ابن الجارود على رأس الخراسانية:

أما عن الظروف التى راح ضحيتها الفضل بن روح فهى اضطراب العسكر وعدم انتظام الجند فى مدينة تونس وأعمالها، وكانت قد أخذت تنافس القيروان، حتى قيل انها كانت قرينة القيروان لكثرة العرب والجند المقيمين فيها، وحتى سماها الخليفة المنصور – هى الأخرى – بالقيروان[١٢٤]. فلقد عهد الفضل بولاية تونس إلى ابن أخيه المغيرة بن بشر بن روح الذى يوصف بأنه «كان غير

(١٢١) أنظر الرقيق، ص ١٨٤ – وتضيف الرواية إلى ذلك (ص ١٨٥) أن الفضل استجاب بعد ذلك لرجاء قسطاس (قسطان؟) فى ان يسمح له ببناء كنيسة. وان كان الرقيق يعلق على ذلك بقوله: « فان يكن ذلك كما قيل، فقد أتى(الفضل) عظيما». وقارن ابن الخطيب أعمال الاعلام. قسم ٣. ص ١١.

(١٢٢) أنظر الرقيق، ص ١٨٥ (حيث توجد معلومات طريفة عن حضور جيران أبى عيينه إلى داره بحى الحارثين لتوديعه. (وكيف أن الرجل الذى شغل من قبل منصب الوالى لم يكن لديه دينار ولا درهم يقدمه هديه لوفد المهنئين، فما كان منه الا أن منحهم كل ما كانت تحويه داره، من طعام وشراب، وأثاث فاقتسموه فيما بينهم. هذا، كمال أنه خلع أثوابه على اسكافى أتاه بخفين هدية، إلى جانب قصة أخرى عن ولعه بالشعر وكرمه حتى قيل: أن المال لم ير أرق ولا أذل مما هو بأيدى المهلبيين - ص ١٨٦).

(١٢٣) ابن عذارى، ج١ ص ٨٨.

(١٢٤) أنظر الرقيق، ص ١٨٦.

ذى تجربة ولا سياسة للجمهور»[١٢٥]. وهكذا ينص الكتاب على أنه استخف بالجند وسار بهم سيرة قبيحة، وهو يثق أن عَمه لا يعزله، وأن هؤلاء لم يرضوا بتلك المعاملة، وخاصة أنهم كانوا ينكرون على الفضل استبداده برأيه، وعدم اهتمامه باستشارتهم فيما يهمهم من أمور[١٢٦]، ولا بأس في أن يكون من أسباب الوحشة بين الفضل وبين الجند هو ميل هؤلاء إلى الوالى الأسبق نصر بن حبيب، كما يقول ابن الأثير[١٢٧]، مما دعا الفضل إلى قطع ما كان يشترى به رضاء زعماء الجند من الهدايا والأموال التى عرفت بـ «الأسلاف»، كما ورد فى خطاب ابن الجارود إلى الفضل الذى سجله ابن الأبار فى الحلة السيراء. واذا كان من المقبول أن تكون كلمة «الأسلاف» هذه يقصد بها ما كان يجرى على أيام السلف من ولاة القيروان قبل الفضل، كما يقترح حسين مؤنس[١٢٨] فمن الممكن أن يكون المقصود بكلمة الأسلاف هنا: الرواتب: التى تعطى للجند سلفا أى مقدما. والمهم أن الجند لم يرضوا بمعاملة المغيرة بن بشر، وقرروا فى بعض اجتماعاتهم أن يكتبوا إل عمه الفضل فى القيروان «بما صنع فيهم، وبقبح سيرته»[١٢٩]. وكان تباطؤ الفضل فى الرد عليهم سببا فى أن نظموا صفوفهم، واختاروا – بتوجيه من أحد زعمائهم، وهو محمد بن الفارسى – رجلا من أهل هراة هو القائد عبد الله بن عبد ربه المعروف بـ «عبدويه» أو بابن الجارود رئيسا لهم، وعهدوا اليه بالعمل على تحقيق مطالبهم، فقبل بعد تردد وبعد أن أكدوا له البيعة بالعهود والمواثيق[١٣٠]. وانتهى الأمر باعلان الجند الثورة بقيادة ابن الجارود

---

(١٢٥) ابن عذارى. ج١ ص ٨٦، وقارن الرقيق، ص ١٨٦ (حيث النص: «وكان على غير تجربة بالأمور»). النويرى، ص ٩٩ب. الترجمة ج١ ص ٣٨٩. ابن الأثير. سنة ١٧٧، ج٦ ص ٥٤.

(١٢٦) أنظر الرقيق، ص ١٨٦، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ٨٦.. النويرى، ص ٩٩ب، الترجمة ج١ ص ٣٨٩، ابن الأثير، سنة ١٧٧، ج٦ ص ٥٤.

(١٢٧) ابن الأثير، سنة ١٧٧.

(١٢٨) أنظر الحلة السيراء. ج١ ص ٧٧، وهامش ٢: حيث أشار حسين مؤنس إلى هذا المعنى الذى يمكن أن تقصده كلمة «الأسلاف».

(١٢٩) ابن عذارى، ج١ ص ٨٦، وقارن الرقيق، ص ١٨٦، النويرى، ص ٩٩ب الترجمة ج١ ص ٣٨٩، ابن الأثير، سنة ١٧٧.

(١٣٠) أنظر الرقيق، ص ١٨٧ (حيث تفصيلات ما دار من الحديث بين الجند ومحمد ابن الفارسى وبينهم وبين ابن الجارود)، ابن خياط ج٢ ص ٥١٠، وماسبق من المصادر.

بمدينة تونس سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٤م، فساروا إلى المغيرة بدار الامارة وطردوه منها(١٣١).

ورأى ابن الجارود ألا يكشف النقاب عن وجهه دفعة واحدة – فتظاهر بأن ما فعله لا يعني الخروج على الطاعة، وكتب إلى الفضل بن روح يبرر عمله بفساد المغيرة، ولكنه بيّن عما يضمره في قرارة نفسه عندما انهى كتابه قائلا: «فعجل لنا من نرضاه يقوم بأمرنا، والا نظرنا لأنفسنا»(١٣٢). ورد الفضل على ابن الجارود بأن «الله يجزى. قضاءه على ما احب الناس او كرهوا»وحذر من مخالفة الوالى الجديد الذى سيره إلى تونس، وهو عبد الله بن يزيد المهلبى(١٣٣) الذى كان يصحبه: النصر بن حفص، والقائد أبو العنبر، والجنيد بن سيار(١٣٤). وهنا كشف ابن الجارود عن نواياه فحرض عسكر تونس على الوالى الجديد، فخرجوا واعترضوا طريقه بموضع يعرف بالزيتون بالقرب من سبخة تونس. وجرى جدل عنيف بين جند تونس الخراسانى، وعلى رأسهم القائد منصور بن هميان وصاحبه وصاف، وبين جند القيروان العربى انتهى بالحرب وانهزام عسكر الفضل، ومقتل الوالى الجديد عبد الله ابن يزيد المهلبى، وأسر كبار أصحابه(١٣٥).

وهنا تقرر اعلان الخروج صراحة على الفضل بن روح، وآل تدبير أمور ابن الجارود إلى محمد بن يزيد الفارسى الذى كان بمثابة الرأس المدبرة لفتنة تونس،

---

(١٣١) ابن عذارى، ج١ ص ٨٦ (قالوا له: الحق بصاحبك أنت ومن معك)، وقارن النويرى، ص ٩٩ب، الترجمة، ج١ ص ٣٩٠، وأنظر أصل الرواية فى الرقيق، ص ١٨٧ (قالوا: ترحل عنا وتلحق بصاحبك أنت ومن معك).

(١٣٢) ابن عذارى، ج١ ص ٨٦: حيث القراءة «عجل لنا من ترضاه..». والأصح ما فى ابن الأثير، سنة ١٧٧: «.. من نرضناه»، وكذلك النويرى، ص ١٠٠أ والترجمة ج١ ص ٣٩٠، وأنظر الحلة السيراء، ج١ ص ٧٧، وقارن الرقيق ص ١٨٨: حيث الكتاب مخروم ولم تكن فيه جملة: «فول علينا من ترضاه».

(١٣٣) أنظر النويرى، ص ١٠٠أ، الترجمة ج١ ص ٣٩٠. ورواية النويرى التى ينقلها من الرقيق (ص ١٨٨) تحتوى على تفصيلات أكثر من رواية ابن عذارى (ج١ ص ٨٦ – ٨٧)(واسم والى تونس الجديد هنا عبد الله بن محمد)، ابن الأثير، سنة ١٧٧.

(١٣٤) النويرى، ص ١٠٠أ، الترجمة ج١ ص ٣٩٠ وقارن الرقيق، ص ١٨٨.

(١٣٥)ابن عذارى، ج١ ص ٨٧، وقارن الرقيق (ص ١٨٩-١٩٠) الذى ينقله النويرى (ص ١٠٠أ، الترجمة ج١ ص ١٩٠): حيث تقول الرواية أن اتباع ابن الجارود هم الذين أشاروا عليه بالقبض على الوالى الجديد واصحابه وحبسهم، وانهم خرجوا – دون أمره – وأسروهم وقتلوا ابن يزيد. أما ابن عذارى فلا يشير إلى مقتل هذا الأخير.

فأخذ بكاتب القواد ويدعوهم إلى الانضمام إلى جانب ابن الجارود، ويعدهم بالترقى فى القيادات العليا والمناصب الكبيرة[١٣٦]. وكاتب ابن جارود بنفسه قواد مدينة باجة حيث كان بها جند من أهل خراسان فأجابه كثير منهم، ومن غير أهل باجة من الخراسانية[١٣٧]. وعندما أخذ الفضل علما بحشود ابن الجارود كتب إلى عماله يأمرهم بالقدوم عليه بمن معهم من العساكر، واستثنى من ذلك كلا من والى الزاب وطرابلس، وهما: العلاء ابن سعيد، وأبو عيينة المهلبى[١٣٨]- خشية على الثغرين المتطرفين بعيدا عن القيروان.

مابين الجند الخراسانى والجند العربى:

ويفهم من رواية الرقيق أن أحوال معسكر الفضل بن روح كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، حتى أنه عندما أراد شراء اخلاص الجند بالمال أتى هذا العمل بنتائج سلبية: فكان كثير منهم يأتون اليه فيأخذون أعطياتهم وينشرون سلاحهم ثم ينضمون إلى رجال ابن الجارود. وعندما أتى اليه عدد من زعماء الجند من العرب، ومنهم: شمدون وأبو المغيرة، وأبو عميلة، «فأمر باعطاء كل منهم ٥٠٠ (خمسمائه)، درهم»، كان لذلك العمل رد فعل سيئ فى نفوس جند القيروان من أبناء خراسان. فقد قال بعضهم لبعض: «ويحكم، كيف ترضون بهذا أن يقوى الفضل أهل الشام على أبنائنا.» وعلى هذا النسق أظهر عمال الفضل من الخراسانية عدم رغبتهم فى القتال إلى جانبه[١٣٩].

وهكذا أصبح الصراع فى افريقية على عهد الفضل بن روح وكأنه صراع طائفى أو عصبى بين الخراسانية وعرب الشام، وكأننا عدنا إلى سيرة الصراع فى المشرق البعيد على أواخر أيام الدوله الأموية عندما قام الخراسانية برفع لواء لثورة العباسية. فابن الجارود صار ممثلا لجند خراسان، والفضل قائدا لجند عرب الشام.

---

(١٣٦) أنظر الرقيق، ص ١٩٠ - ١٩١، وقارن أصل روايته فى النويرى، ص١٠٠أ، عن كيفية افساد ابن الفارسى للقواد عن طريق تمنيتهم بالولاية لو نجحت الثورة وباخفاء صلتهم بالثوار لو فشلت الفتنة).

(١٣٧) أنظر الرقيق، ص ١٩١.

(١٣٨) الرقيق، ص ١٩١ - ١٩٢.

(١٣٩) أنظر الرقيق، ص ١٩٢.

عسكر تونس يهددون القيروان:

وعندما وجد ابن الجارود أن الظروف مواتيه سار نحو القيروان، على طلائعه قواده من الخراسانية: فتح ووصاف وابن الدويدى. وعندئذ خرج إلى لقائه عبد الله بن يزيد بن حاتم الذى ولاه الفضل قياده حرب الثوار، وبصحبته قواد الجند العربى: شبيبة بن حسان على المقدمة، وفلاح بن عبد الرحمن الكلاعى على الطلائع، وعلى بن هارون الأنصارى على الميمنه ومعه سهيل بن حاجب وعامر بن نافع. وكان على الميسرة قائد لم نعرف الا اسمه «عمر» ومعه آخر، هو شراحبيل الأزدى، ووقف الخصوم وجها لوجه فى موضع يعرف بطسّاس غير بعيد من العاصمة[١٤٠].

وانتهى هذا اللقاء الأول بانهزام جند افريقية الخراسانى أمام جند العرب من أهل الشام، مما شكك ابن الجارود فى صدق نوايا حلفائه، ولكن محمد بن الفارسى هدّأ خاطره عندما أفهمه أن ما حدث لم يكن كسرة لقواته بل ارتدادا مقبولا من جانب طلائعه أمام جمهرة قوات خصومه عرب الشام[١٤١]. ونجح ابن الجارود فعلا فى تقويم الموقف خلال يومين فقط فيما بين يوم الجمعة الذى انهزم فيه أصحابه ويوم الأحد التالى عندما عبأ جنده من جديد وزحف بهم نحو، طسّاس، حيث كان عبد الله بن يزيد معسكرا.

وفى معركة يوم الأحد هذه حمل الجند الثائر حملة صادقة على عسكر القيروان فانهزم أغلبه ولم يصبر مع عبد الله بن يزيد الا القليل منهم. وباءت جهود ابن يزيد فى تقويم الموقف بالفشل، فرغم أنه التجأ إلى الخندق المحفور أمام أسوار المدينة، وأخذ العهد بالطاعة من عسكر القيروان من الخراسانية وأهل الشام، فان هؤلاء لم يبادروا بالعودة إلى مواقعهم الجديدة على الخندق. وأمام هذا المأزق قدّم بعض قواد ابن يزيد اليه النصح بالعودة إلى القيروان من حيث يمكنه معاودة القتال. وهكذا رجع ابن يزيد إلى الفضل مهزوما بعد أن فقد عددا من كبار قواده مثل: هارون الأنصارى الذى بقى فى أرض المعركة، وأبى الأسود الحمصى الذى أخذ فى بعض الطريق وقتل. وتبع جند عبدويه من خراسانية تونس المنهزمين من

---

(١٤٠) الرقيق، ص ١٩٢.

(١٤١) الرقيق، ص ١٩٣.

أهل القيروان التى أحاطوا بها إلى وقت الغروب، ثم انهم انصرفوا إلى منية الخيل حيث أقاموا ليلتهم(١٤٢).

وطلب الفضل النصيحة من بنى عمه المهلبيين ومن كبار مستشاريه، ولكنهم لم يتفقوا على رأى. فبينما نصح البعض بمغادرة القيروان والرحيل إلى طرابلس، رأى البعض أن الموقف ليس ميئوسا منه ونصح بالبقاء ومطاولة الخصوم. وأمام انقسام الرأى كان من الطبيعى أن يزداد الحال اضطرابا على الفضل الذى التبست عليه الأمور، فلم يصح له رأى. ففى صبيحة اليوم التالى حاول الفضل أن يحكم الدفاع عن العاصمة، فبعث المهلب بن يزيد إلى باب سالم، وفرّق عساكره على بقية أبواب المدينة، وبقى هو فى دار الامارة ينتظر الفرج، وحوله جماعة من أهل بيته، مثل خالد بن يزيد وأخيه عبد الله، ومن المقربين من أصحابه، مثل: جنيد بن خدّاش(١٤٣).

سقوط القيروان بمعاونة الخراسانية ومقتل الفضل:

ولكنه ما أن أقبل ابن الجارود فى عسكره نحو القيروان حتى اتضح عقم هذه الإجراءات. فعندما اقترب رجاله من الأسوار قام من كان بداخل المدينة من الجند الخراسانى الذين عرفوا باسم «الأبناء» بسد باب سالم من الداخل وطردوا المدافعين عنه إلى الخارج، ثم انهم فتحوا الباب بعد ذلك لرجال عبدويه، كما فتحوا باب أبى الربيع، وبذلك سقطت القيروان بين أيدى جند تونس دون عناء(١٤٤)، وكأنها ثمرة ناضجة حان قطافها وهم أصحابها.

وتوقف ابن الجارود بعض الوقت خارج المدينة ثم انه دخلها، واستولى على دار الامارة، وأخرج منها الفضل وأصحابه بالأمان، وسيّرهم نحو قابس فى حراسة قائده أبى الهيثم مع جماعة من رجاله(١٤٥)، وذلك فى جمادى الأخرة سنة

---

(١٤٢) الرقيق، ص ١٩٤.

(١٤٣) الرقيق، ص ١٩٤.

(١٤٤) الرقيق، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(١٤٥) ابن عذارى، ج١ ص ٨٧ - ويورد ابن عذارى تفصيلات يفهم منها أن أمر المهلبين كان قد انتهى إلى الفشل التام. فعندما خرج الفضل مع بنى عمه من أحد أبواب القيروان الجانبية قال له البواب: «اخرجوا يا كلاب النار لا رحمكم الله، فقال الفضل عند ذلك: لا إله إلا الله، لم يبق أحد الا صار =

١٧٨/ اكتوبر ٧٩٤م [١٤٦].

وكانت مسألة اخلاء سبيل الفضل وتركه يسير نحو المشرق موضوع جدل بين قواد ابن الجارود. فلقد أشار البعض على هذا الأخير «ألا يسمح للفضل بدخول طربلس لئلا يقوم الناس معه ويرجع إلى القيروان ..»[١٤٧]. والظاهر أن كفة هؤلاء رجحت آخر الأمر، فقد خرج عدد من قواد ابن الجارود فى أثر الفضل. وظن بعض أصحاب الفضل أن الثوار جاءوا ليردوه إلى امارته بعد أن ثابوا إلى رشدهم. وعاد قواد ابن الجارود فعلا بالفضل إلى القيروان بعد أن خلوا عن المهلبيين وعلى رأسهم المهلب (بن يزيد) الا اثنين منهم فقط، هما محمد بن هشام والفضل بن يزيد، ولكن ليلقوا بهم فى الاعتقال فى دار الفضل. وتناظر أصحاب ابن الجارود فى أمر الفضل من جديد، ورأى البعض أنه لا أمن ولا سلام طالما عاش الفضل. وحاول محمد بن يزيد الفارسى انقاذ رأس الفضل دون جدوى، فقد قتل فى شعبان من سنة ١٧٨هـ/ نوفمبر ٧٩٤م بعد سنة وخمسة أشهر من الولاية[١٤٨].

هكذا عندما كان الفضل يسعى لدى الرشيد للحصول على امارة افريقية وعزل ابن عمه نصر، كان فى الحقيقة يسعى إلى حتفه بظلفه بل وإلى حتف أسرته جميعا. والظاهر أن انقسام أفراد الأسرة على أنفسهم كان من أسباب ضياعها اذ يذكر النويرى أن ابن الجارود طرد من افريقية – بعد مقتل الفضل – نصر بن حبيب (الوالى السابق)، وكذلك أبناء يزيد بن حاتم وهم المهلب وخالد وعبد الله[١٤٩]. مما يفهم أنهم وقفوا موقف المتفرج أثناء أزمة الفضل، وبذلك انتهت «دولة المهالبة» بافريقية بعد أن عاشت مدة ثلاث وعشرين سنة[١٥٠].

= علينا، حتى من اعتقناه»، وقارن النويرى ص ١٠٠ب، والترجمة ج١ ص ٣٩١ – الذى يذكر أن الفضل فر من دار الامارة، أما الرقيق فللأسف يوجد بروايته خرم كبير فى هذا الموضع (أنظر ص ١٩٥).

(١٤٦) ابن الأثير، أحداث سنة ١٧٧، ج٦ ص ٥٥، وأنظر الحلة السيراء، ج١ ص ٧٨ – ٧٩.

(١٤٧) بن عذارى، ج١ ص ٨٨. وأنظر الحلة السيراء، ج١ ص ٩٤ – ٩٥ (حيث تقول الرواية أن نصر بن حبيب المهلبى، الوالى السابق، هو الذى أشار برد الفضل إلى القيروان لأنه خاف أن يحاول العمل على استرداد ولايته فينتقم ابن الجارود منه هو).

(١٤٨) ابن عذارى، ج١ ص ٨٨، وقارن الحلة السيراء، ج١ ص ٧٩.

(١٤٩) النويرى، ص ١٠٠ب، الترجمة، ج١ ص ٣٩١.

(١٥٠) ابن عذارى، ج١ ص ٨٨.

وكان زوال الأسرة التى أقرت الأمور حوالى ربع قرن نذيرا بعودة الاضطراب إلى افريقية طوال سبعة أشهر، إلى حين وصول هرثمة بن أعين واليا من قبل الرشيد. والنويرى الذى ينقل عن الرقيق يمدنا بتفصيلات الأحداث المتشابكة عن تلك الفترة بينما يوجزها ابن عذارى ايجازا. فقد أثار مقتل الفضل أشياء فى نفوس بعض قواد الأقاليم. فقرروا مقاومة ابن الجارود. بدأ بذلك والى الأربس (Laribus) شمدون القائد، وانضم اليه القائد فلاح بن عبد الرحمن الكلاعى، وكذلك المغيرة (ابن بشر والى تونس السابق؟)، وغيرهما. وبعد فترة وجيزة خرج والى ميلة، أبو عبد الله مالك ابن المنذر الكلبى، على رأس قواته الكثيرة من جند حمص العربى، لمعونتهم. وتم الاتفاق على أن تكون لابن المنذر القيادة، ثم انهم ساروا لملاقاة ابن الجارود بعد أن دعوا كثيرا من الناس إلى الانضمام إلى جانبهم. ونجح مالك فى لقاء أول مع عبدويه من هزيمته واجلائه عن القيروان إلى مدينة تونس، ودخل مالك القيروان واحتلها لمدة ٢٠ (عشرين) يوما. ولكن رجاله الذين كانوا يسعون إلى سلب أهل القرى لم يلبثوا أن انفضوا من حوله، مما سمح لابن الجارود بالعودة من تونس نحو القيروان حيث التقى بمالك مرة ثانية، وانتهى الأمر بمقتل مالك وانهزام أصحابه إلى الأربس. وحاول ابن الحارود أن يستولى على الأربس فوجه إليها واليا من قبله، هو حمّاد بن أبى حماد، ولكن صاحبها شمدون نجح فى مفاجأته وهزيمته[١٥١]. وهنا رأى شمدون أن يستعين على عبدويه بوالى الزاب العلاء بن سعيد فكتب إليه يطلب منه الحضور. وجاء العلاء إلى الأربس، وسار منها نحو القيروان وبصحبته المغيرة وأبى عميلة وشمدون وفلاح ومن معهم من قواد أهل الشام[١٥٢]، وكان ابن الجارود قد خرج فى ذلك الوقت من القيروان بعد أن استخلف عليها المفرّج بن عبد الملك، وذلك للقاء يحيى بن موسى الذى قدم من طرابلس من قبل هرثمة ابن أعين فى المحرم من سنة ١٧٩هـ/ ابريل ٧٩٥م[١٥٣].

---

(١٥١) أنظر الرقيق، ص ١٩٥ (حيث النص مخروم فى أوله)، ابن الأثير سنة ١٧٧. وقارن النويرى، ص ١٠٠ب، الترجمة ج١ ص ٣٩١. وأنظر الحلة السيراء، ج١ ص ٨٤ (عن مقتل مالك).

(١٥٢) أنظر الرقيق، ص ١٩٦، النويرى، ص ١٠٠ ب. الترجمة ج١ ص ٣٩١. وابن الأثير (سنة ١٧٧).

(١٥٣) ابن عذارى، ج١ ص ٨٨، وقارن النويرى، ص ١٠١ب (الذى يسمى خليفة بن الجارود بالقيروان عبد الملك بن عباس)، والرقيق، ص ١٩٧.

محاولات من قبل الخلافة لإقرار الأمور فى افريقية:

ولّاية هرثمة بن أعين:

عندما علم الرشيد بثورة ابن الجارود واضطراب افريقية أرسل واحدا من كبار القواد، ممن عرفوا بحسن بلائهم فى خدمة الدولة، وكبر السن وعظم المقام بين جند خراسان، وهو يقطين بن موسى ليقر الأمور هناك. وأوصاه بالرزانة فى اقناع ابن الجارود بالخروج من افريقية. وعندما سيّره الرشيد بعث معه المهلب بن رافع ثم أتبعه بالمنصور بن زياد بصحبة هرثمة ابن أعين الذى جعل اليه ولاية المغرب(١٥٤)، ومعه يحيى بن موسى، كما يقول ابن الأثير(١٥٥). وتوقف هرثمة ببرقة انتظارا لما تسفر عنه مساعيه السلمية، اذ سار يقطين بن موسى إلى القيروان لمفاوضة ابن الجارود فى الخروج من البلاد. واعترف ابن الجارود بعهد أمير المؤمنين لهرثمة بولايتة افريقية التى يعتبرها ثغرا، وأعلن خضوعه وطاعته للخليفة، ولكنه أشار إلى أن هرثمة بعيد فى برقة وأن العلاء بن سعيد والى الزاب على رأس البربر يهدد القيروان - فلو أنه ترك البلاد (الثغر) لاستولى عليها البربر ولانتهى الأمر بتخلصهم من العلاء نفسه، ولو حدث ذلك فلن يستطيع عامل لأمير المؤمنين دخولها أبدا. واقترح ابن الجارود أن يسير للقاء العلاء فإن هلك صارت بلاد القيروان إلى يقطين، وان كسب المعركة انتظر وصول هرثمة ليسلمه البلاد، ثم يسير بعد ذلك إلى أمر المؤمنين(١٥٦).

ويأس يقطين من ابن الجارود، ورأى الاتصال بمحمد بن يزيد الفارسى - ساعده الأيمن - وأغراه بابن الجارود ووعده بمنصب قيادى كبير (قائد ألف)

---

(١٥٤) النويرى، ص ١٠١أ، الترجمة، ج١ ص ٣٩٢، وقارن الرقيق، ص ١٩٧أ.

(١٥٥) نلاحظ هنا أن ابن الأثير (سنة ١٧٧، ج٦ ص ٥٥- ٥٦) لا يفرق بين شخصيتى يحيى بن موسى ويقطين بن موسى فيجعلها شخصية واحدة هى شخصية يحيى بن موسى. بينما التفرقة واضحة فى ابن عذارى وخاصة فى النويرى الذى يجعل مسير يقطين إلى افريقية سابقاً لمسير يحيى الذى صحب هرثمة ثم سبقه إلى طرابلس والقيروان كما سنرى، وهذا ما أكدته رواية الرقيق (١٩٧) التى تعتبر أصلا لرواية النويرى، رغم ما فيها من خروم.

(١٥٦) أنظر الرقيق، ١٩٧ - ١٩٨، وقارن النويرى، ص ١٠١أ، الترجمة.، ج١ ص ٣٩٢ (حيث يعدل النويرى كلمة «ثغر» التى أراد بها ابن الجارود مدينة القيروان - كما يفهم من الرقيق أكثر من مرة - إلى كلمة «قلعة» - القيروان. وقارن ابن الأثير سنة ١٧٧ ج٦ ص ٥٥- ٥٦.

وهدية سنية واقطاعا فى أى مكان يختاره. وبدأ محمد بن الفارسى فى اغراء أعوان ابن الجارود من الخراسانية، فدعاهم إلى طاعة الخليفة، كما نجح فى لم شتات خصومه ممن كانوا محبوسين فى السجن أو مستترين فى الخفاء. وكان ممن انضم إلى جانب ابن الفارسى. من زعماء الجند: شيبه بن حسان، والجنيد بن سيار، والنضر بن حفض، وغيرهم. وتم الاتفاق على أن يجتمع خصوم ابن الجارود هؤلاء مع ابن الفارسى بباب أبى الربيع بالقيروان، وهناك خطب فيهم ابن الفارسى، فحضهم على طاعة الخلافة وحذرهم من مغبة المعصية والانسياق وراء أهواء عبدويه. وطلب ابن الجارود المشورة من كبار قواده، فأفهمه كل من: أبى العنبر والعباس الغطيفى أن ابن الفارسى ما كان يمكنه التفكير فى الثورة عليه بغير تدبير من رسول الخليفة يقطين بن موسى، ونصحاه بالمبادرة إلى تصفية حسابه معه قبل أن يعظم خطره اذا ما انضم برجاله إلى العلاء بن سعيد. ووعى ابن الجارود هذا الدرس فسار إلى باب أبى الربيع لقتال الخارجين عليه. وعندما تواجه الجمعان وطلب ابن الجارود من ابن الفارسى أن يتكلم معه على انفراد كان قد رصد أحد فرسانه الذى يعرف بـ «طالب» لكى يفاجئ ابن الفارسى من الخلف بطعنة خنجر أصابت منه مقتلا، وحدث ما كأن يتوقع عبدويه اذا أصاب الفزع اتباع محمد بن الفارسى، ففروا لا يلوون على شئ، بعد أن تركوا قائدهم شيبه بن حسان صريعا فى أرض المعركة(١٥٧). ولكن المهم بعد ذلك هو أن ابن الجارود لم يستفد من انتصاره شيئا اذ انتهى الأمر بتأكيد انفصال المنشقين عليه من أصحابه.

بينما كانت تدور تلك الأحداث فى افريقية وهرثمة فى برقة، كان يحيى بن موسى نائب هرثمة فى طرابلس قد أكد سلطانه هناك اذ يقول الرقيق الذى ينقل عنه النويرى أنه وصل إلى طرابلس، وانه أم صلاة الأضحى وخطب خطبة العيد. وهناك قدم عليه كثير من رؤساء الجند من أعوان ابن الجارود ومن خصومه، فقويت شوكته، وكتب بذلك إلى هرثمة(١٥٨). وفى هذه الظروف غير المواتية رأى ابن الجارود أن يوجه أنظاره نحو يحيى بن موسى، وأن يدعوه إلى القدوم لتسلم

---

(١٥٧) أنظر الرقيق، ص ١٩٨ - ٢٠٠، وقارن النويرى، ص ١٠١أ - ١٠١ب الترجمة، جـ١ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ (حيث اسم قاتل ابن الفارسى «أبو طالب»)، ابن الأثير سنة ١٧٧.

(١٥٨) أنظر الرقيق، ص ٢٠١ (حيث يذكر من القواد: أبو العنبر التميمى، والجنيد ابن سيار الأزدى،وجعفر بن محمد الربعى، وشهاب بن حاجب التميمى، وعبد الصمد العبدى. ثم خالد بن بشير الأزدى الذى أقبل بعدهم يستعجل مسيرة يحيى إلى القيروان).

القيروان خشية العلاء بن سعيد الذى كان يسير بحلفائه نحوها[١٥٩]. وخرج يحيى بن موسى من طرابلس فى المحرم سنة ١٧٩هـ/ ابريل ٧٩٥م نحو القيروان، وما أن بلغ قابس حتى انضم اليه جند القيروان وعلى رأسهم النضر بن حفص وغمرو بن معاوية، كما خرج ابن الجارود للقائه فى صفر / ابريل – مايه، بعد أن استخلف على القيروان المفرّج بن عبد الملك، كما ذكرنا[١٦٠].

وكان خروج ابن الجارود من القيروان يعنى أن المدينة أصبحت ثمرة ناضجة يمكن أن تقتطفها أول يد تمتد اليها. وفعلا دخل يحيى بن موسى والعلاء بن سعيد فى سباق نحو القيروان انتهى بوصول العلاء أولا، فقتل بها عددا من أصحاب ابن الجارود. وبعث يحيى إلى العلاء يطلب منه أن يثبت طاعته للخلافة بأن يصرف أصحابه. وصرف العلاء عسكره إلى بلادهم، وسار هو مع ٣٠٠ (ثلاثمائة) من أصحابه المخلصين نحو طرابلس. وكان ابن الجارود قد وصل لتوه إلى طرابلس فخرج عنها نحو المشرق وبصحبته يقطين بن موسى، فالتقوا بهرثمة بن أعين الذى كان مقبلا نحو افريقية، فى مدينة أجدابية، فسيره إلى برقة حيث صحبه منصور بن زياد ويقطين بن موسى إلى الخليفة هارون الرشيد[١٦١]. أما عن العلاء فانه كان قد كتب إلى المنصور بن زياد وهرثمة بن أعين يبلغهما أنه هو الـذى أخرج عبد الله بن الجارود من افريقية، فكافأة هرثمة بهديه سنية[١٦٢]. كما أن الخليفة الرشيد عندما سمع بحسن بلائه بعث اليه بمائة ألف درهم وخلع عليه. ومات العلاء فى مصر بعد ذلك بقليل[١٦٣].

---

(١٥٩) أنظر الرقيق، ص ٢٠١، النويرى، ص ١٠١ب والترجمة، ج١ ص ٣٩٣، وقارن ابن عذارى، ج١ ص ٨٨ الذى يكتفى هنا بالايجاز الشديد، وابن الأثير، سنة ١٧٧.

(١٦٠) أنظر فيما سبق ص ٣٩٣ وهامش ١٥٣. ويلاحظ أن نص الرقيق (ص ٢٠١) يجعل النضر وعمرو شخصا واحدا عندما يضع كلمة «بن» مكان حرف «و».

(١٦١) أنظر الرقيق، ص ٢٠٢، النويرى، ص ١٠٢أ، الترجمة ج١ ص ٣٩٣ – ٣٩٤. وقارن ابن عذارى، ج١ ص ٨٨، ابن الأثير، سنة ١٧٧.

(١٦٢) النويرى، ص ١٠٣أ، الترجمة ج١ ص ٣٩٤، ابن عذارى، ج١ ص ٨٨.

(١٦٣) أنظر الرقيق، ص ٢٠٢، النويرى ص ١٠٢أ، الترجمة ج١ ص ٣٩٤، ابن الأثير، سنة ١٧٧، ج٦ ص ٥٦.

أعمال هرثمة:

وبخروج ابن الجارود والعلاء بن سعيد من افريقية عاد الهدوء إلى البلاد بعد أن اضطربت طوال سبعة أشهر منذ مقتل الفضل فى شعبان ١٧٨هـ، وذلك أن هرثمة قدم للقيروان فى غرة ربيع الآخر سنة ١٧٩هـ/ يونيه ٧٩٥م[١٦٤]. ويفهم من الكتاب أن ولاية هرثمة التى استمرت حوالى عامين ونصف عام كانت أيام أمن وسلام فى افريقية، اذ يذكر أنه عندما وصل إلى القيروان «أنسّ الناس وسكنهم وأحسن اليهم»[١٦٥].

والحقيقة أنه لا توجد الا اشارات عابرة لبعض الاضطرابات التى وقعت فى المغرب على أيام هرثمة. ومن ذلك ما يقوله ابن عذارى [١٦٦]من أن هرثمة نزل تيهرت حيث هزم (ابن الجارود) وأطاعته البربر. وربما كان ذلك اشارة إلى عمليات عسكرية قام بها هرثمة ضد اباضية تاهرت الذين هادنهم روح بن حاتم[١٦٧]، اذ المعروف أن ابن الجارود لم يبد مقاومة لقوات الخلافة كما أن ثورته كانت تمثل اضطراب العسكر الخلافى ولا تمثل ثورة البربر. أما عن هؤلاء الأخيرين فهناك ذكر فى ابن الأثير [١٦٨]- بمناسبة تولية هرثمة لابراهيم بن الأغلب بعض نواحى الزاب - لثورة قام بها عياض بن وهب الهوارى ومعه كليب بن جميع الكلبى، ولكن هرثمة سير إلى الثوار يحيى بن موسى فى جيش كبير فهزمهم وقتل كثيرا منهم.

---

(١٦٤) ابن عذارى، ج١ ص ٨٩، النويرى، ص ١٠٣أ الترجمة ج١ ص ٣٩٤، ابن الأثير سنة ١٧٧، ابن الخطيب، أعمال الاعلام، قسم ٣ ص ١١. وأنظر الرقيق، ص ٣٠١ - حيث النص على أن أيام عبد الله بن الجارود كانت سبعة أشهر (والحلة السيراء، ج١ ص ٨٤). أما عن أعمال هرثمة فهى تأتى فى نص الرقيق المنشور فى غير موضعها بعد الكلام عن ولاية محمد بن مقاتل وكان يمكن للمحقق أن يضعها فى موضعها فى ص ٢٠٢. وأنظر ص ٢٠٤ حيث وصول هرثمة فى سنة ١٧٧ هـ بدلا من ١٧٩هـ.

(١٦٥) ابن عذارى، ج١ ص ٨٩، النويرى، ص ١٠٢أ، الترجمة ج١ ص ٢٩٤. وقارن الرقيق، ص ٢٠٤ (حيث النص «وأمن الناس بدلا من أنس الناس»).

(١٦٦) ابن عذارى، ج١ ص ٨٩.

(١٦٧) النويرى، المخطوط، ص ٩٩أ. وتحقيق أبو ضيف، ص ٢٤٦.

(١٦٨) ابن الأثير، سنة ١٧٧، ج٦ ص ٥٦.

وإلى جانب ذلك ينسب الكتاب إلى هرثمة أعمالا عمرانية قام بها، مثل بنائه فى سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦م للقصر الكبير المعروف بالمنستير، بمعرفة زكريا بن قادم[(١٦٩)]، وهو الرباط المشهور بالقرب من سوسة الذى سيصبح أشهر ربط سواحل المغرب على الاطلاق[(١٧٠)]، كما ينسب اليه بناء سور مدينة طرابلس من جهة البحر[(١٧١)]. وهذا يعنى أن هرثمة اهتم بتحصين سواحل افريقية ضد العدو البحرى، وذلك أن بيزنطة كانت تهدد تلك السواحل من جزائر البحر وخاصة من جهة صقلية.

ورغم ذلك الهدوء الداخلى فان ولاية هرثمة لم تطل الا إلى رمضان من سنة ١٨١هـ/ أكتوبر سنة ٧٩٧م عندما ترك البلاد، بعد أن طلب من الرشيد أن يعفيه من الولاية، لما رآه من اختلاف أهل افريقية وسوء طاعتهم، كما يقول الكّتاب[(١٧٢)].

ولاية محمد بن مقاتل العكى، واستمرار اضطراب العسكر الخلافى:

وحسب السياسة التى أصبحت تقليدية عهد الرشيد إلى أحد كبار رجال الدولة بولاية افريقية، وهو محمد بن مقاتل بن حكيم العكى أخوه فى الرضاعة. ووصل محمد بن مقاتل إلى افريقية فى أول رمضان من سنة ١٨١هـ/ ١٣ أكتوبر ٧٩٧م[(١٧٣)]، بمعنى أن هرثمة بقى فى افريقية إلى حين وصوله. ولم تطل ولاية ابن مقاتل الا إلى أقل من ثلاث سنوات، اذ انتهى الأمر باضطراب الجند الخلافى وكادت تتكرر مأساة الفضل بن روح من جديد، لولا تدخل القائد ابراهيم بن الأغلب الذى آلت اليه الامارة فى جمادى الآخرة من سنة ١٨٤هـ.

---

(١٦٩) أنظر الرقيق، ص ٢٠٤، ابن عذارى، ج١ ص ٨٩، النويرى، ص ١٠٢أ، الترجمة ج١ ص ٣٩٤، البكرى، ص ٣٦، ابن الأثير سنة ١٧٧، ابن أبى دينار، المؤنس، ص ٤٧ (على يد زكريا بن قادم).

(١٧٠) عن صفة رباط المنستير أنظر البكرى، ص ٣٥ – ٣٦، وقارن الاستبصار ص ١٢٠ وهامش ١، رحلة التجانى، ص ٣٠ – ٣٣.

(١٧١) ابن عذارى، ج١ ص ٨٩، النويرى، ص ١٠٢أ. الترجمة، ج١ ص ٣٩٤ ابن الأثير سنة ١٧٧، وقارن الرقيق، ص ٢٠٤، ابن الخطيب، الإعلام، قسم ٣، ص ١١.

(١٧٢) أنظر الرقيق، ص ٢٠٤، ابن عذارى، ج١ ص ٨٩، النويرى، ص ١٠٢أ الترجمة، ج١ ص ٣٩٤.

(١٧٣) أنظر ابن الأثير، سنة ١٨١هـ (حيث التاريخ أول رمضان / ١٣ أكتوبر)، وقارن الرقيق، ص ٢٠٣ (الحلة السيراء، ج١ ص ٨٩ – حيث التاريخ هو شهر رمضان : أ أكتوبر – نوفمبر) دون تحديد اليوم.

ويعزى الكتاب أسباب الاضطراب إلى سوء سيرة محمد بن مقاتل فى الجند، وتعنى عادة اقتطاع مخصصاتهم أو التباطؤ فى صرف أرزاقهم، وكذلك فى الرعية. وبلغ من سوء تقديره أنه تطاول على «عابد زمانه وورع عصره البهلول بن راشد فضربه ظلما وحبسه، فكان ذلك سبب موته»[١٧٤]. وهكذا بدأ اختلال أمر الجند باعتزال القائد فلاح مع جند خراسان وجند الشام الذين اتفقوا على تقديم مخلّد بن مرة الأزدى، ولكن ابن مقاتل استطاع أن يقضى على ذلك العصيان، فهرب مخلد ولجأ إلى أحد المساجد حيث أخذ وقتل[١٧٥]. أما أخطر الثورات فهى التى قام بها واحد من الجند المعروفين بـ «الأبناء» أى أبناء أهل البلاد تمييزا لهم عن الوافدين، وهو تمام بن تميم التميمى[١٧٦]، فى مدينة تونس، والتى تذكر بثورة ابن الجارود فى نفس المدينة، وهى التى أنهت ولاية ابن مقاتل، ومهدت لقيام حكم الأغالبة فى افريقية.

ثورة تمّام بن تميم وطرد ابن مقاتل من القيروان:

بدأت الثورة فى منتصف رمضان سنة ١٨٣هـ/ ٢٠ أكتوبر ٧٩٩م عندما سار تمام مع جند تونس من الخراسانية والشاميين إلى القيروان. وخرج محمد بن مقاتل لحرب القائد الثائر، وتم اللقاء فى الموضع المعروف بمنية الخيل بالقرب من القيروان، وانتهى القتال الشديد بانهزام ابن مقاتل الذى عاد فى ٢٥ من رمضان سنة ١٨٣هـ/ ٣٠ أكتوبر ٧٩٩م إلى القيروان حيث تحصن فى داره وترك دار

(١٧٤) ابن عذارى، ج١ ص ٨٩، وقارن الرقيق، ص ٢٠٣، ص ٢٠٤، ابن الخطيب الاعلام، قسم ٣، ص ١٢. وعن البهلول بن راشد (ولد سنة ١٢٨ هـ وتوفى ١٨٣هـ) أنظر المالكى ج١ ص ١٤١ - ١٤٢، والدباغ، معالم الإيمان، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(١٧٥) أنظر النويرى، (١٠٢ب) الذى يذكر القائد فلاح فى شكل «العابد فلاح» مما يلفت النظر إلى محنة البهلول بن راشد، وقارن الترجمة (ابن خلدون ج١ ص ٣٩٥)، عن مقتل مخلد فأنظر ابن الأثير، سنة ١٨١ وقارن الرقيق، ص ٢٠٥ (حيث لا يذكر نهاية الأزدى ويسميه مرة ابن مخلد).

(١٧٦) أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ص ٥١٠. وتمام هذا هو جد أبى العرب ابن تميم صاحب التواليف ومن أشهرها طبقات افريقية، أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٩٠، ابن لأثير، سنة ١٨١، الرقيق، ص ٢٠٥. وأنظر فيما بعد عن مفهوم «الأبناء» (ج٢ - ثورة خريش الكندى على ابراهيم بن الأغلب فى تونس ثم عن ثورة الجند فى طرابلس بعدها).

الامارة[١٧٧]. وأتى تمام وعسكر أمام القيروان. خلف الوادى بازاء باب أبى الربيع حيث مصلى روح بن حاتم. وفى صبيحة اليوم التالى فتحت له الأبواب دون قتال، ودخل القيروان حيث أعطى العكى الأمان فى دمه وأهله وماله على أن يغادر البلاد[١٧٨]. وبذلك أخرج تمام والى الخلافة محمد بن مقاتل من القيروان بعد سنتين من ولايته[١٧٩]، وتغلب على البلاد دون عهد من الرشيد. وسار ابن مقاتل مشرّقا نحو طرابلس والظاهر أن خروجه من القيروان كان موضع جدل بين فريق من الجند الخراسانى، من معاونيه، اذ لم يلبث أن حاول اللحاق به فى طرابلس، كل من: عباس بن طرخون صاحب شرطته، وأبو العنبر كاتبه من أجل تدارس الأمر معه. ولما كان ابن مقاتل قد رحل إلى سرت، خارج حيز افريقية، حيث أقام، فانهما قررا مكاتبته يطلبان منه العودة إلى طرابلس، فرجع اليها[١٨٠]. وبعد أن أقام بطرابلس بعض الوقت سار إلى مدينة سرت[١٨١].

تدخل ابراهيم بن الأغلب لمصلحة الوالى الشرعى:

ولم يقدر لتمام أن يتمتع طويلا بتغلبه على القيروان، اذ لم يلبث ابن مقاتل أن يعود إلى القيروان بفضل تدخل والى الزاب ابراهيم بن الأغلب. كان ابراهيم بن الأغلب فى مرتبة بين القواد أعلى من مرتبة قريبة وابن عمه تمام بن تميم فساءه أن يتغلب هذا الأخير على البلاد، وهو يقف منه موقف المتفرج رغم ما كان بينه وبين العكى من سوء تفاهم[١٨٢]. وخرج ابن الأغلب بفرسان أهل بيته

(١٧٧) ابن عذارى، ج١ ص ٩٠. النويرى. ص ١٠٢ب، الترجمة ج١ ص ٣٩٥، الرقيق،ص ٢٠٥.

(١٧٨) ابن عذارى، ج١ ص ٩٠. النويرى، ص ١٠٢ب، والترجمة ج١ ص ٣٩٥، ابن الأثير، سنة ١٨١، وقارن الرقيق، ص ١٠٥ - ٢٠٦ (الحلة السيراء، ج١ ص ٨٩).

(١٧٩) أنظر ابن عذارى (ج١ ص ٩٠) الذى يقول هنا: «فكانت ولايته إلى أن أخرجه تمام من القيروان سنتين وعشرة أشهر»، والحقيقة أن خروج ابن مقاتل هذا كان بعد سنتين فقط (من رمضان سنة ١٨١ هـ إلى رمضان سنة ١٨٣ هـ). أما ما يقصده ابن عذارى فهو مغادرة ابن مقاتل لافريقية نهائيا بعد ذلك بعشرة أشهر كما سنرى.

(١٨٠) أنظر الرقيق، ص ٢٠٦، ابن عذارى، ج١ ص ٩٠ (حيث اسم صاحب الشرطة ابن طرحون التى عدلناها إلى طرخون، على أساس أنه اللقب المشرقى المعروف بمعنى الأمير أو الملك مثل «طرخان»)، وقارن النويرى ص ١٠٢ب. والترجمة ج١ ص ٣٩٥ (حيث يفهم من النص ان مقاتلا سار إلى سرت بعد أن لحق به كاتبة وصاحب شرطته (١٨١) النويرى، ص ١٠٢ب، الترجمة ج١ ص ٣٩٥.

(١٨٢) هذا ما تعبر عنه رواية الرقيق، عندما تسجل على لسان ابراهيم بن لأغلب أنه قال لأهله عندما طلب ابن

=

وقرابته، كما سار معه كبار القواد من خاصته، مثل: عمرو بن معاويه، وعمران بن مجالد، وحماد بن أبي حماد، وعلى طول الطريق من الزاب إلى القيروان كانت قوات ابراهيم تزداد عددا بمن ينضم اليها من جنود أهل خراسان ومن عامة الناس. وما أن شعر تمام باقتراب مقدمة ابن الأغلب التى كان يقودها عمران بن مجالد، حتى أخلى القيروان وعاد إلى بلدته تونس. ودخل ابن الأغلب العاصمة وعلى مقدمته عمران بن مجالد، وسار إلى المسجد الجامع مباشرة، وأعلن من أعلى المنبر أنه أتى لنصرة محمد بن مقاتل والى أمير المؤمنين الشرعى، ثم أنه كتب إلى ابن مقاتل يخبره بما فعله ويطلب منه العودة إلى مركز ولايته(١٨٣).

عودة ابن مقاتل فى جو من السخط العام، وهزيمة تمام على يدى ابن الأغلب:

وعاد ابن مقاتل فعلا إلى القيروان، ولكنه يفهم من الروايات أن عودته لم تقابل بارتياح، لا فى القيروان ولا فى تونس. ففى القيروان «نادته امرأة من طاقتها وقالت له: اشكر ابراهيم بن الأغلب فهو الذى رد عليك ملك افريقية»(١٨٤). وفى تونس قال الناس: «استرحنا من العكى. فرده ابراهيم علينا! فالموت خير لنا من الحياة فى سلطان العكى»(١٨٥). وهكذا انضم كثير من الناس إلى تمام ودفعه ذلك إلى التفكير فى قتال ابن مقاتل وطرده من جديد. ورأى تمام أن يجرب أولا الوقيعة بين ابن مقاتل وبين ابن الأغلب، ودفعه إلى ذلك أنه كان يعتقد أن العكى

= العكى معونته: «لقد كنا بهذا الرجل فى واد وهو لنا فى آخر، أنا بالأمس أطلب العرض لأستعين به فى قتاله، وقد جاءنى اليوم كتابه، يسألنى أن أقدم عليه حتى أمد له الأمان واصلح أمر الناس، فقد اجتمعوا على الرضا بما حكمت بينهم وبين ابن العكى، (أنظر الرقيق ص ٢١٦ - ٢١٧).

(١٨٣) ابن عذارى، ج١ ص ٩٠، النويرى، ص ١٠٣أ، الترجمة، ج١ ص ٣٩٥، ابن الأثير و سنة ١٨١ ج٦ ص ٦٢، الرقيق، ص ٢٠٦. وأنظر بعدها ص ٢١٦ - ٢١٩ (حيث توجد معلومات تفصيلية عن محاوله ابراهيم التزود بقرض من تجار الزاب، ولكنهم خافوا أن يهزم من قلة رجاله، وكذلك كان الأمر بالنسبة لأهل بيته، وكيف زوده هؤلاء بالمال وبسبعين فارسا كانوا أصل قوته وعدته. والرواية منقبية عل وجه العموم).

(١٨٤) ابن عذارى، ج١ ص ٩٠، وقارن الرقيق، ص ٢٠٧.

(١٨٥) ابن عذارى، ج١ ص ٩٠، وأنظر الرقيق، ص ٢٠٧ (حيث مزيد من التفصيلات عما دار بين تمام والمقربين من قواده، مثل: عيسى بن الجلودى وعباس الصليفى، من الكلام، وما فعلوه من مكاتبة الناس ونجاحهم فى ملء قلوب الناس حقدا على العكى، وكراهية لحكمه).

(١٨٦) نفس المصدر.

حسود، وأنه «لابد أن يخالف ابراهيم بن الأغلب» (١٨٦) فكتب تمام إلى ابن مقاتل يقول أن ابراهيم لم يعده إلى ولايته ردا للجميل، ولا طاعة للخلافة، بل ليسلمه للقتل على يديه، وختم كتابه بانذاره بشن الحرب عليه، كما فعل بالأمس وببيتين من الشعر يعبران عن مضمون خطابه(١٨٧).

وعرض محمد بن مقاتل خطاب التميمى على ابن الأغلب الذى أظهر عجبه من محتواه ثم ان ابن مقاتل كتب إلى تمام يسفه رأيه، ويبين له خيانته وخديعته ويهدده بسوء المصير عندما يلقى ابراهيم بن الأغلب. وختم ابن مقاتل - بدورة - رسالته ببيتين من الشعر كانا بمثابة اعلان الحرب على تمام(١٨٨). وبمجرد وصول هذا التحدى إلى تونس سار تمام من المدينة على رأس جيش كثيف نحو القيروان، وخرج ابراهيم بن الأغلب للقائه وبصحبته عمران بن مجالد، وعمرو بن معاوية، يتبعهم ابن مقاتل فيمن كان لديه من الرجال. وتم اللقاء فيما بين منية الخيل وطساس فى حيز القيروان، وانتهت المعركة الحامية بمقتل عدد كبير من أصحاب التميمى الذى انهزم إلى تونس(١٨٩). وأمر العكى أن يسير ابن الأغلب إلى تونس للقضاء على الثائر نهائيا بينما عاد هو إلى القيروان.

---

(١٨٧) نص البيتين هو:

وما كان ابراهيم من فضل طاعة   يرد عليك الملك لا كن لتقتلا

فلو كنت ذاعقل وعلم بكيـده   لما كنت منه يا ابن عك لتقبلا

أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٩٠، وقارن الرقيق، ص ١٠٨، النويرى، ص ١٠٣أ، الترجمة، ج١ ص ٣٩٦ (حيث الشطرة الثانية من البيت الأول «يردد عليك الثغر الا لتقتلا»، الحلة السيراء، ج١ ص ٨٩.

(١٨٨) وانى لأرجو أن لقـيت ابن أغـلب   غـدا فى المنايا أن تفل وتقتلا

تلاقى فتى يستصحب الموت فى الوغى   ويحمى بصدر الرمح عزا مؤثلا

أنظر ابن عذارى، ج١ ص ٩١، وقارن الرقيق، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ (الحلة السيراء، ج١ ص ٩٠). النويرى، ص ١٠٣ب، الترجمة، ج١ ص ٣٩٦ (حيث الشطرة الثانية من البيت الأول: «غداة المنايا أن تفل وتقتلا»).

(١٨٩) الرقيق، ص ٢٠٩، ص ٢١٩ - ٢٢٠: حيث توجد معلومات تفصيلية عن خطة المعركة التى رسمها ابراهيم بن الأغلب، اذ جعل أحد رجاله، وهو حمزة الحرون، يقف مكانه فى المقدمه لا يتحرك، بينما أخذ هو يعطى تعليماته لقواد الميمنه والميسرة والقلب وكانت الخطة تقضى بخداع قوات تمام اذ أمر بالبدء بهجوم محلى على الميمنة ثم على الميسرة على أن توجه الضربة القاضية بعد ذلك إلى القلب، يتبعها هجوم شامل على الجناحين (الحلة السيراء، ج١ ص ٩٧، وأنظر النويرى، ص ١٠٣ب، الترجمة، ج١ ص ٣٩٧، ابن عذارى ج١ ص ٩١).

وقعت تلك الأحداث قبيل نهاية العام (١٨٣هـ/ نهاية ٧٩٩م وأول ٨٠٠م) وذلك أنه عندما أقبل شهر المحرم من سنة ١٨٤هـ/ فبراير ٨٠٠م، كان ابراهيم بن الأغلب يسير نحو تونس. وما أن عرف تمام باقباله عليه حتى كتب اليه يطلب الأمان(١٩٠). وبذلك انتهت ثورة الجند فى تونس، وعاد ابن الأغلب إلى القيروان فى يوم الجمعة ٨ من المحرم/٨ فبراير، وبصحبته التميمى الذى سير به وبعدد من قواد الجند الذين اتخذوا من الثورة صناعة لهم إلى بغداد حيث ألقى بهم فى السجن الأرضى المعروف بالمطبق(١٩١).

ابراهيم بن الأغلب رجل الخلافة فى المغرب:

وكان من الطبيعى أن يقدر الرشيد لابراهيم بن الأغلب حسن بلائه فى اقرار الأمور، والعمل بإخلاص على حفظ هيبة الخلافة فى افريقية. ولم يكن من الغريب اذن أن يعهد اليه بالولاية بدلا من ابن مقاتل، وذلك حوالى منتصف شهر جمادى الآخرة من سنة ١٨٤هـ/ يوليه ٨٠٠م.

وكانت ولاية ابراهيم بن الأغلب بداية عهد جديد بالنسبة لافريقية اذ توارث أبناء ابراهيم حكم البلاد وأسسوا أسرة ملكية جديدة فى المغرب تدين بالولاء

---

(١٩٠) الرقيق، ص ٢١٠، ونفس المصدر.

(١٩١) النويرى، ص ١٠٣ب، الترجمة، ج١ ص ٢٩٧ (.. بعث تمام بن علقمة وغيره من وجود الجند الذين شأنهم الوثوب على الأمراء إلى بغداد فحبسوا فى المطبق)، وقارن الرقيق، ص ٢١٠ - ٢١١: حيث «الطبق» بدلا من المطبق. وحيث مزيد من التفصيلات عن مسير أخى تمام إلى بغداد حيث احتال لرؤية أخيه فى المطبق، لم نجح فى مقابله الرشيد وعرفه بأنهم من نسل قائد للمنصور. وتقول الرواية أن الرشيد أكرمه ووعده باطلاق سراح أخيه تمام، ولكن ابراهيم بن الأغلب دبر مقتل هذا الأخير بالسم، وهو فى سجنه ببغداد. فكان عطف الخليفة من نصيب قائدى تمام، وهما: عيسى بن الجلودى وعباس الصليفى. فقد ولى الأول الحرمين، والآخر ولاية أخرى. أما أخو تمام وهو مسلمة بن تميم فقد سار بسجل من الرشيد إلى ابراهيم بن الأغلب الذى أحسن إلى التميميين ورفع عنهم خراج ما كان لهم من الضياع، واستعان بهم فى الأعمال (الحلة السيراء، ج١ ص ٩٣). هذا، ولو أن الأمر يختلط فى رواية الرقيق فيما بعد، بصدد ولاية ابراهيم بن الأغلب (أنظر ص ٢٢١ - ٢٢٢) اذ تشير إلى أن ابن الأغلب عهد بولاية طرابلس إلى تمام، سياسة، لكى يغدر به على يدى جعفر بن سعيد، وجوين بن السماك، ويبعث به مشدود الوثاق بصحبة من كان يتوثب على الولاة من الجند، مثل: عباس الصليفى، وأبى العيل، وعيسى الحلبى وغيرهم. وأنظر الحلة السيراء، ج١ ص ١٠٨: حيث يشير إلى مشاركة حمزة السبال المعروف بالحرون فى حرب تمام وما قيل فى ذلك من الشعر.

للخلافة شكلا، وتتمتع بالاستقلال عن بغداد فعلا. فذلك ما يقدم به النويرى لكلامه عن الأغالبة فيقول: « فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر، وانما كانت ملوكها تراعى أوامر الدولة العباسية، وتعرف لها حق الفضل والأمر، وتظهر طاعة مشوبة بمعصية، ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت لخالفوهم».

وعلى ذلك كان الأمير الأغلبى يعهد بالامارة من بعده لابنه أو لأخيه تبعا لرغبته، ودون اعتبار لما للشخص الموصى إليه من «الأهلية»، كل ذلك وقواد الجيش لا يعارضون(١٩٢).

---

(١٩٢) أنظر النويرى، ص ١٠٤أ، الترجمة (ابن خلدون) ج١ ص ٣٩٧. وتحقيق أبو ضيف، ص ٢٥١، وتحقيق حسين نصار، دار الكتب، ج٢٤، ص ١٠٠.

الكشاف

أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

(أ)

(ب)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

اسماء البلدان والمواضع وغيرها

(ج)

(ك)

(ل)

(ن)

